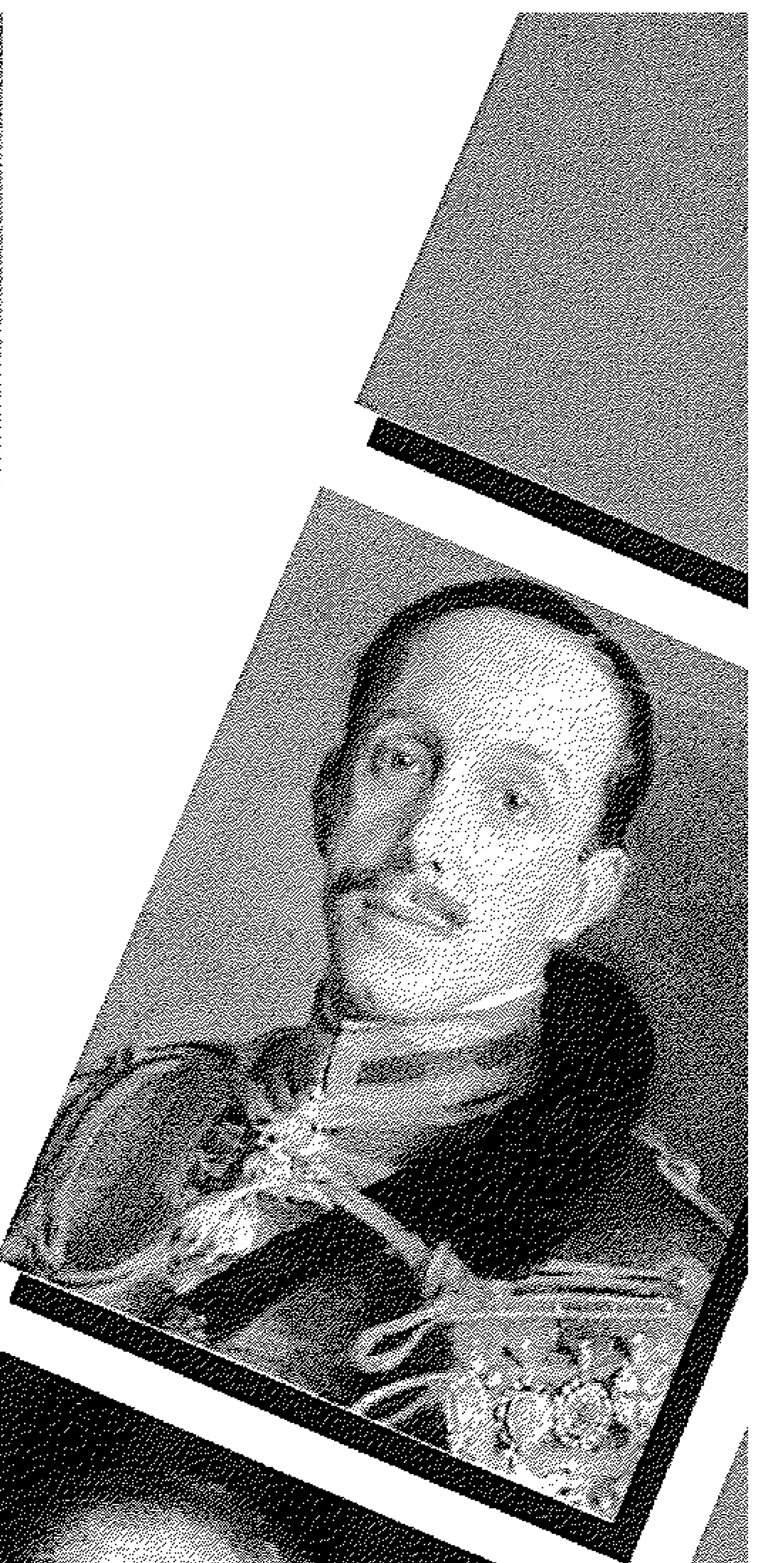
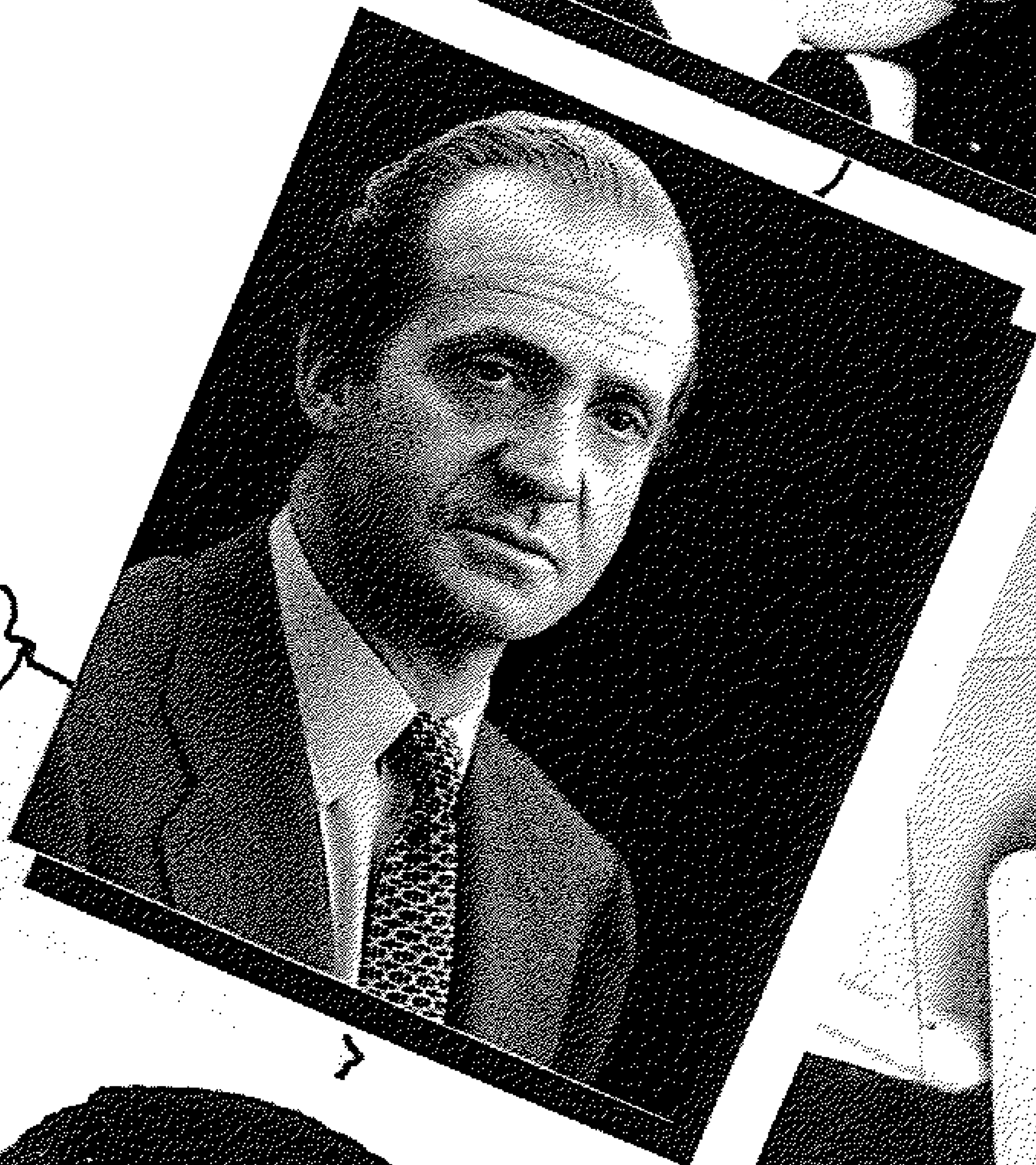
إسبانيا

من الدكتاتورية إلى الديمقراطية

أمثولة وقدوة







محمد عبد الكافي







نبذة عن المؤلف

هو من مواليد سنة 1928 بمدينة صفاقس التونسية . تثقف بالعربية والفرنسية ثم تعلم الانجليزية والايطالية والأسبانية وبعضا من اللغة الألمانية .

بدأ حياته العملية بالإذاعة التونسية في عهد الحماية الفرنسية وهو دون العشرين فعمل كمنسق ومذيع وكتب البرامج المختلفة والقصة القصيرة التي استمر يمارس كتابتها إلى اليوم . قرض الشعر ووضع كلمات الأغاني ونشرت أعماله في العديد من المجلات العربية .

انخرط في سلك التعليم وتعاطى في نفس الوقت النشاط الصحفي وبقي إلى اليوم موزعا جهده بين التعليم والصحافة .

انتسب ، بحكم بيئته وعائلته ، إلى الحركة الوطنية التونسية منذ طفولته إلى ان أجبرته الظروف السياسية على الهجرة دون ان يتخلى عن النشاطين فدرّس في ليبيا وأسبانيا وراسل العديد من الصحف كما ساهم بانتاجه في إذاعة ليبيا والتلفزيون الألماني وإذاعة أسبانيا الخارجية وهو الآن مدرّس بمدريد ونائب رئيس نادي الصحافة العالمي وجمعية المراسلين الأجانب بأسبانيا .

اسبانيا من الدكتاتورية الى الديمقراطية

أمثولـــة وقـــدوة

تألف

محمد عبد الكافي

الإهـــــــــــــــــداء

إلى الإنسانة التي علمتني الصراحة

والإنسان الذي علمني الصدق

إلى والديّ عساني عملت بما علمانيه

P.O. Box 14504
28080 Madrid - Spain
DLM: 42.107-1991
ISBN: 84-604-0837-X
Impresión Gráficas Lormo
Isabel Méndez, 15. 28038 Madrid
Portada: Nja Mahdaoui

تقديـــــــــــــــــــــــــم

قليلة هي الكتب العـربية التي تتحدث عن اسبـانيا والتي تتناول الموضـوع بتوسع استنادا إلى الوثائق فتبرهن عن معرفة مبـاشرة وكافية . فالمصادر الكثيرة الموجودة التي عالجت الموضـوع تسيطر فيهـا الآراء السطحية المكررة المعـادة والانطباعـات السريعة العديمـة التحقيق والتروي والنصوص الموضوعة نتيجـة لزيارات خاطفـة واتصالات عديمة الـرسوخ فاقدة الحرص والعنايـة في الاختيار وذات معلومات خـالية فى غالب الأحيان من الثقة الكافية ومن الموضوعيـة وعدم التحيز ، وهذا ما جعل التعارف بين أسبانيا والعرب يتأثر عظيم التأثر فيبقى ولايزال بلاغيا أساسا وعرضيا فهو ليس سوى ثمرة ظروف ومصـالح وقتية لاتزال راسية فى صيغ اصطلاحيـة ، فى معظمها مهجورة بالية ، بحيث إنها لاتستجيب ، بطبيعـة الحال ، للمتطلبات الحقيقية للعصر الذي نعيشـه ولا للمشاكل التي تضـايق الجانبين بصفة أوليـة . ففي معظم الظروف نجـد انفسنا ، ويا للأسف ، أمام " جهل " ولو جزئي ، لا أمام " معرفة " حقيقيـــة .

ان هـذا الكتاب لا صلـة لـه بمثل تلك المؤلفات وهـو من ذلك يستمـد مفهومـه وقيمته وأهميته . فمؤلفه الصحفي التونسي محمد عبد الكافي يقيم منذ سنوات عديدة بأسبانيا حيث يتعاطى نشاطه المهني بجـدارة وفاعلية . وعلى مدى هذه المدة استطاع عبد الكافي ان يربط الصلة الواسعة والمبـاشرة بشخصيات بارزة ممثلة للحياة العامة في هذه البلاد على مختلف مستـوياتها ومختلف أوساطها ويربط الصلة بمـؤسسات عامة وخاصـة على اختلاف ميـولها ونشاطـاتها واتجاهاتها ، كما وطد الصلـة مع الكثير من الجماعات والأفراد .

لقد استطاع عبـد الكافي ان يطوف بتؤدة ودون مضـايقة جغرافية أسبـانيا الطبيعية وجغرافيتها الأخلاقية والعقائدية والروحـانية . لقد تعرف بصفة خاصة على ما يشغل بـال السياسي والمثقف ورجل الشـارع فتـذوّق التجـربة المثيرة التى عـاشتهـا أسبانيـا المعاصرة ، أسبانيا الحالية ، تذوقها في " مرقها " كما نقول نحن الأسبان فعرف كيف يستفيد من هذه التجربة الفـريدة المركزة دائما على الحدث السياسي الصعب المعقد . لقد عـرف عبد الكـافي أولا كيف يتزود بـالوثـائق المناسبـة وكيف يستقي المعلـومات بطريقة ملائمة ومتزنة ، ثم كيف ينظم الأحداث ويـرتبها بطريقة مستساغة ومفهومة

جدا لـدى القارىء العربي وهـو، أخيرا ، يمد القـارىء بكمية ثمينة من المعلـومات والأخبار التى لاشك وانه يصعب عليه جدا العثور عليها في كتاب آخر . فعمله اذن يسد فراغا مازالت تشكوه المكتبة العربية وهو يملأ عن جدارة ، ثغرة يتزايد الأسف لها يوميا بقـدر ما تنعدم مبررات وجودها . إن التجـربة الأسبانية المعـاصرة ليست هامة فقط بل هي أيضا فريدة منقطعة النظير وهي ، في نظـري ، طافحة أيضا بالكثير من المعاني والمقـاصد من عديـد النواحي . فهي من بعض الـوجوه قد تعتبر حتى مثـالية وهي قد تدعو ، في بعض الحالات ، إلى إعمال الفكر وإلى عميق التبصر ، إذ انه من الـواضح ، وعلى هـامش أي إطـراء شخصي أو أي تقييم ذاتي ، ان أحـدث تـاريخ أسبانيا ليس تاريخا خاليا من الأهمية بل هو على عكس ذلك . ومن الواضح أيضا ان هذا التاريخ الحديث ليس موقوفا علينـا ، نحن الأسبان ، ولا هو مرتبط بنا وحدنا ، لان هذه التجربة الأسبانية تتعدى حدودنا وهي تثير كبير الأهتمام خارج أسبانيا ذاتها وهي تأثير في المسائل العالمية بصفة مباشرة قريبة .

إن تاريخ اسبانيا الحالي هو معاكس تماما للتاريخ القصصي الاسطوري ، لانه من الجليّ أيضا ان الأمر يتعلق بتجربة لاتزال مفتـوحة على مصراعيها وهي عرضة للتطور حتى تهتدي إلى الـوجهة النهائيـة . ولإن بدت هذه التجربـة مشوّقة في كل مـا جرى حتى الآن فليس بأدنى منه ما يجري حاليا ومـا يتوقع حدوثه فى المستقبل . ونظرا لكل هذا فـان الكتاب الذي بين أيـدينا لا يتطلب الإمعان فى المطـالعة فحسب بل يقتضي التبصر والتفكير العميق وهو في هذا المعنى يتحدى القارىء وفي نفس الوقت يفيده ، أي ان الكتاب ذو غاية مزدوجة مبرّرة تمام التبرير وهذا مايدعو إلى الشكر والإمتنان .

إن المؤلّفِ قـد أبدى تقييمه الخاص للـوقائع والمواقف التـي تعرض إليها ، كـل ما اعتبر ذلك مناسبـا ، وهذا ما من شأنـه الدعوة إلى المناقشـة والجدل فيصلح في نهاية الأمر لإثراء مادة الكتاب ويزيد من جاذبيته .

إني من أولئك الموقنين تماماًبأنّ العـلاقة الأسبانية العربيـة ثرية خصبة بـالإمكانات الثرية ، الكثيرة التنوّع وقليلـة الاستثمار حتى الآن بل هي لاتزال مهملة الاستغلال في العديـد من المجالات إني أيضـا من أولئك المؤمنين بأنّ هذه العـلاقة لابـد وأن تكون طبيعيـة ومبـاشرة وليس لها أن تخضع ، كما يحدث باستمـرار ، إلى حضـور أو تصرف مختلف الوسطاء الذين يعملون دومـا بدافع من المصلحة الخاصة . وإني مقتنع أيضا

تمام الاقتناع بأن معـالجة الحاضر والحوار حول وقائع اليوم ، لايصرف النظـر البتة عن الماضي ، ذلك الماضي الغنى الباهر الذي نتقاسمه نحن الأسبان والعرب كما لايصرف النظر عن وقائع الأمس . اني أيضا لمن المدافعين دوما عن وجـوب قيام علاقة صادقة صريحة نتخاطب فيها بكل وضوح في الآراء وفي كل ما يُضْمَرُ وفي المصالح وهذا يؤدي إلى علاقة حقيقية راسخة لا إلى عذر أو مايقوم بدله .

لكل هذا فإنـه لمن دواعي سروري تقديم هـذا المؤَلَّف وهو مساهمة هـامة في تحقيق ماعبرت عنه ، لان هـذا الكتاب يستطيع ان يكون في بعضه أو ضمـن القياس الذي يستحقه ، عـاملا من عوامل احداث هـذا الجو . وكون أن مؤلفه صحـافي تونسي ، وصديق تونسي فهو بـالإضافة إلى ذلك رجل متـين التكوين في الثقافـة العربية وهذا مايزيد في غبطتي وفي دوافع الامتنان التي نكنها له .

الدكتور بيدرو مارتينات مونتابث

أستاذ كرسي

للغة والآداب العربية بجامعة مدريد المستقلة

والعميد السابق لنفس الجامعة

ورئيس جمعية الصداقة الإسبانية العربيّة

توطئـــة

ليس من مؤرخ مهما عظم شأنـه يستطيع أن يتجاهل الصعوبـات التي تعترضه في كتابة التاريخ ، ومن هذه الصعوبات استحالة مراقبة الأحداث التاريخية كما يستطيع عـالم الفيـزيـاء مثـلا أن يـراقب الكـون ومـا فيـه أو مثل الكيميائي في مختبره أن يكـرر الاختبارات أولا وثـانيا وثالثا وأكثـر من ذلك بكثير ، بينما المؤرخ عاجز عن هـذا كله لانها احداث مرت ودخلت التاريخ ولاعودة لها وجل ما يقوى عليه هو الاقتصار على دراسة اقوال الذين سبقوه وتمحيص واقعيتها ، وما هو من صنع الاحداث وما هو من عنديات الذي رواها وتأثيراته وانفعالاته ودوافعه النفسية والذاتية .

هذا بالنسبة إلى المؤلف او المؤرخ الـذي يكتب عن أحداث مترامية القدم لم تقع في زمانه ولم يشاهدها مشاهدة عيان ولم يعشها ، فهذا المؤرخ يعاني صعوبات كثيرة ، اما إذا كان المؤرخ قـد عاش الأحـداث التي يكتب عنها فمن واجبـه تجنب الاخطاء التي وقع فيهـا من سبقـه من المؤرخين فلا ينحـاز إلى فئـة دون اخرى ولايـاخـذ بـالوجـوه ولايراعي مصـالح شخصية ، فهـو أشبه شيء برجل واقف على جبل يشـاهد مـاتحته ويصفه دون ان يتـاثر بعـوامل داخلية او خارجيـة تعمي بصيرته عن الحقيقـة المجردة الماثلة امام عينيه .

شاء الصديق الأستاذ محمد عبد الكافي ان يكتب تاريخ أسبانية المعاصر ، أي منذ الربع الثاني من هـذا القرن إلى أيامنا الحاضرة ليطلع العالم العربي على أسبـانيا الحالية ويعرفه بها . عنوان كتـابه : " من الدكتاتورية إلى الديمقـراطية " . فمدار الأحداث حول هاتين النقطتين .

راعى المؤلف الصدق والامانـة كلّ الامانة في سرد الوقـائع التاريخية ، فلم يتعصب لأي من الطرفين الذي تخاصما على الأراضي الأسبـانية طيلة ثلاثة أعوام وثـلاثة اشهر في حرب أهلية ، فاستمع إلى آراء الطرفين واخذ بها .

نزاع سالت فيه الـدماء غزيرة اذ انه لم يتوقف عنـد حجمه المحلي بل تعداه إلى نزاع دولي . وصلت إلى أسبانية الفيالق الدولية لمساعدة الجمهوريين وهبت ألمانية و إيطالية

لمساعدة القوات الوطنية التي يتزعمها الجنرال فرنكو ، وعلى هذا النحو يمكن القول ان الحرب العالمية الثانية بدأت في أسبانيا وليس في عام 1939 بل في عام 1936 عام الحرب الاهلية الأسبانية 18 تموز يوليو لما اعلن فرنكو العصيان من المغرب الشمالى الذى كان تحت الحكم الأسباني فعبر البحر بقوات مغربية من المتطوعة . إنها أحفاد المرابطين والموحدين وبني مرين والمورسكيين الذين نزحوا إلى المغرب في اوائل القرن السابع عشر 1609 ، يعودون إلى أسبانيا الآن بعد ان أرغموا على الخروج منها منذ ثلاثة اجيال ونيف ، وكأني أسمع من جديد طارق بن زياد يهتف في جنوده " أيها الناس ، أين المفر ، البحر وراءكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الثبات والصبر" ، وكأني بالكثيرين منهم تذكروا هذه الخطبة التي ألهبت حماسة العرب فهبوا لمقاتلة جيش يفوقهم اضعاف الاضعاف عدة وعددا ، وكأني بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين أسمعه من جديد يرفع صوته بالدعاء إلى الله قائلا : اللهم إذا كان هذا الجواز لخير المسلمين فاجعله سهلا ، وهكذا كان .

اعتمد فرنكو على هذه القوات الضاربة التي أبلت البلاء الحسن في جميع المعارك التي خاضتها ، تهزها عاطفة الحرية والاستقلال . وكان القائد المغربي الذي يرأس هذه القوات هو اللواء مزيان الذي توصل على عهد فرنكو إلى رتبة لواء ركن وحاكم إحدى المناطق العسكرية الست في أسبانية وهي منطقة لاكورونيا من أعمال جليقية
وبعد ان نالت المغرب استقلالها في الخمسينات عاد القائد مزيان إلى بلاده وعينه الملك محمد الخامس المغربي سفيرا له في أسبانية . وفي أقل من أسبوع قدم أوراق اعتماده لرئيس الدولة الأسبانية الجنرال فرنكو .

أذكر هذه الحادثة الطريفة وهي ان هذا السفير العربي الجديد لما توجه لزيارة السفارات العربية بمدريد بادر إلى زيارة سفارة لبنان وكنت من جملة الموظفين في هذه السفارة ، طلب إلى السفير ان استقبل الجنرال مزيان على مدخل السفارة حتى أرشده إلي القاعه المعدة لاستقباله . فلما وصل القائد مزيان تقدم منه سائق السفارة وهو اسباني وضرب له التحية العسكرية قائلا : " لا جديد ياقائدي " ورد عليه اللواء الركن مزيان بكل بساطة وتحادثا برهة . ولما سألت السائق لماذا تصرف على هذا النحو ؟ . أجابني انه قاتل تحت أوامر اللواء مزيان في الحرب الأهلية الأسبانية وانه في

حديثه القصير معه ذكره بالمكان الذي خاضوا فيه المعركة .

هذه الحادثـة التي جرت في أوائل السبعينات جعلتني أتأمل في الفرق بين المعـاملة التي كـان يلاقيهـا المغربي في صفـوف الجيش الأسبـاني والمغربي والجزائري والتـونسي والسـوري واللبناني فى صفـوف الجيش الفـرنسي فـالمواطن من هـذه الدول لا يحق لـه الترقى إلى أكثر من رتبـة رقيب بينما توصل المواطن المغربي في الجيش الأسبـاني إلى رتبة لواء ركن وحاكم منطقة عسكرية .

كما ان فرنكـو اختار حـرسه من المغاربـة وافرد لهم داراً فسيحـة في جوانب قصره ، فمنظرهم مهيب جميل في الاستعراضات والمناسبات عندمـا كانوا يتقدمون موكبه على خيولهم المطهمة واوشحتهم البيض وخوذهم اللماعة ورماحهم الطويلة .

انقسم العـالم إلى قسمين في الثـلاثينـات : الـدول الـدكتـاتـوريـة والـدول غير الدكتـاتورية الأولى ممثلـة بدول المحور المانيا و إيطـاليا وأسبانيـا ، الفوهريـر في ألمانية والـدوتشي في إيطاليـا والكـوديليـو في أسبانيـة وهـذه الالقاب تعنـى شيئا واحـدا : الزعيـم . ودول الحلفاء انجلترا وفرنسـة ومن شد أزرهما في مستعمـراتهما التي لا تغيب عنهـا الشمس شعوب لاتحصى خـاضعة لهاتين الـدولتين . ومن الطبيعي ان توجـد عناصر متحررة تتوق إلى الاستقلال والتخلص من نير الاستعمار ، ومن الطبيعى ايضا ان تلاقي هـذه العناصر المتحـررة الاضطهاد من الدول المستعمـرة ، فوجـه المتحررون انظارهـم نحو أعداء هـذا الاستعمار : عدو عـدوك صديقك " كما قـال على بن ابى طـالب كـرم الله وجهـه . فـوجد الـرجـال الأحـرار في العالم العـربي والاسـلامي ان خلاصهم على يد ألمانية النازية فتقربوا منها وأكرمت مثواهم لما قصدوها لاجئين ومن جملة هؤلاء الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين في ذلـك العهـد ، ولاشك انـه لـو ربحت ألمانية الحرب لما نـال اليهود وطنا في فلسطين ولكنا في العالم العـربي بنجوة من جميع الـويـلات والشرور التي تحيط بنـا الآن ومسببهـا وجـود اليهـود على أرض فلسـطين، وليس من أحـد يجهل البغض الـذي يكنه النـازيـون لليهـود . كما ان جماعات كثيرة من العرب تطوعت في الجيش الالماني فقد وصل عددهم إلى مايزيد على ستين الف رجل خصهم هتلر بعطفه ومحبته .

فالإقبال من قبل المغـاربة على الانخراط في الجيش الأسباني الوطني الـذي تزعمه الكوديلو ليس سوى حلقة في هذه السلسلـة الطويلة من العناصر المتحررة التي تبغي التخلص من نير الفـرنسيين والانجليـز في كافـة انحـاء الوطـن العربي ، ولم يكتفـوا بالعـاطفة بل تعدوها إلى العمل الجدي ، فهـذا رشيد عالي الكيلانى يثـور في العراق على الإنجليز إبـان الحرب العالمية الثـانية ويطلب مسـاعدة ألمانية النـازية ، وفشلت تلك الحرب التي شنها رشيد عالى الكيـلاني على انجلترا لانها لم تلق المساعدة المطلوبة من ألمانية .

والغريب في الأمر الانسجام بين الألمان والعرب واقع منـذ زمان بعيد ويرجع عهده إلى الملك فريـدرك الثاني فهـذا الملك كما هو معـروف كانت عـلاقاتـه مع العرب على أحسن مايرام .

نتسـاءل لماذا لم يشارك فـرنكو في الحرب العـالمية الثـانية ، لماذا لم يقف إلى جـانب حليفيـه ومساعـديه الكبيرين هتلـر ومـوسليني ويعلن الحرب على الحلـــفاء ، هل اقتنع بان ألمانية خاسرة هل وجد ان لا مكسب له من دخول هذه الحرب سواء ربحت ألمانيا أو خسرت ،أليس لـه مطامع إقليمية تـوسعية ، هل ان أسبـانية في ذلك الحين بعـد ان خـرجت من حرب أهليـة شرسـة لاتسمح لها ظـروفهـا بالانـزلاق في حـرب جديدة، كل هذه التساؤلات تأتي على لسان الكثيرين ولايجدون لها ردا مرضيا . الرد المرضي في ضمير فرنكو وقد نجد الجواب الشافي في مذكراته إذا كتب لهذه المذكرات أو إذا نشرت ولكن حتى الآن لم يظهـر شيء من ذلك وقد لمح هتلـر في وصيته إلى بعض النواحي قد تسهل لنا الرد الصحيح على تساؤلاتنا السابقة .

نقول مـن جهتنا انه لـو دخلت أسبـانيا الحرب لكان تغير مجرى الحوادث لصـالح ألمانية ، لانه في تلك الحال كان قد أُغلق مضيق جبل طارق في وجه الحلفاء وانعزلت جيوشهم في الشرق الاوسط وانقطع عنها المدد وسهل على جيوش روميل القضاء على الجيوش البريطانية في ليبيا وانفتحت أمامـه الطريق إلى القاهرة والبترول العربي ولكان تم اللقـاء بين الألمان واليابـانيين في منطقـة ما من الشرق في الهنـد مثـلا او في سواهـا ولكـان سمح لهم بالحصـول على كل ما يحتـاجـون اليه من بترول ، ومن المعـروف ان ألمانية وإيطـالية محتـاجتان إلى البترول ، وكان الألمان قـد وضعوا خطـة لاقتحام جبل طارق عـام 1940 بعد القضـاء على فرنسـة ، وعملوا حسـابهم ووجدوا ان العمليـة

سهلة لاتكلفهم شيئا يذكر . فلماذا لم ينفذوا الخطة بالتواطؤ مع فرانكو .

من حقنا التساؤل والافتراض في المسائل التاريخية لان الانسان ليس من الكواكب قد اختُط له طريق لا تنحاز عنها ، الإنسان يملك الحرية في التصرف ، الكواكب لا تملك هذه الحرية ومن مجرد اننا نستطيع التساؤل أصبح من حقنا ان نفترض كأن نقول ، ماذا كان جرى لو ان كولومبوس لم يكتشف اميركا أو لم ينتصر طارق بن زيادة في معركة وادي بكة وماذا كان جرى لو ان الموحدين انتصروا في معركة العقاب سنة 1212 وماذا كان حصل لو ان شارلمان تمكن من الاستيلاء على سرقسطة في الثغر الأعلى وانفتحت أمامه الطريق إلى قلب الاندلس ، كل هذه احتمالات كان من الممكن ان تقع ، والتاريخ علم يرد على أسئلة : " لماذا " إنه علم الأحداث التى وقعت والأحداث التي لم تقع وكان من الممكن ان تقع . كان من الممكن ان يدخل فرنكو الحرب إلى جانب حليفه هتلر ، فلو دخل الحرب . . . فكلمة " لـــو " هذه هي المحور الذي يدور عليه علم التاريخ بدرس الافتراضات ، فهو علم يجاوب على " لماذا " مثل كل علم وأكثر من ذلك يحق له ان يقول " ولـــو" تم ذلك . . . ماذا كان يحدث . . .

حسب فرنكو في ظنه انه إذا لم يدخل الحرب إلى جانب ألمانية يحفظ له الحلفاء هذا الجميل ويردون له جبل طارق الذي تطالب به أسبانية منذ اكثر من قرنين ، ولكن خاب ظنه فلما كادت تنتهي الحرب بانتصار الحلفاء على دول المحور حتى قاطعوا أسبانية وسحبوا منها السفراء وكادوا يصلونها حربا للإطاحة بالنظام الدكتاتوري فيها كما أطاحوا بالنظام النازي والفاشتي ، ولاشك ان الجمهوريين الذين غادروا أسبانيا بعد انتصار فرنكو والاتحاد السوفياتي كانوا يرغبون في مهاجمة أسبانية ، ولكن الحلفاء أدركوا ان أسبانيا والبرتغال هما الدولتان الوحيدتان اللتان لم يصل اليهما النفوذ الشيوعي فتركوهما لشانهما ولاسيما أسبانية حتى تظلا حصنا حصينا يصد الشيوعية عن شبه الجزيرة الإبرية وبالتالي عن القارة الافريقية .

جاهر فرنكو بعدائه للشيوعيين الممثلين بالاتحاد السوفياتي ، فسمح في الحرب العالمية الثانية للاسبان" بالتطوع في صفوف الجيش الألماني على الجبهة السوفياتية " فبلغ عدد المتطوعين الأسبان خمسين الفا ونيف اطلق عليهم اسم " فرقة

القمصان الزرق * وهو لباس الكتائب الأسبانية . وقاتل هؤلاء المتطوعون في صفوف الجيش الألماني وهرق الدم الأسباني والعربي في البلاد السوفياتية ، وقاد الحملة الأسبانية فى روسية اللواء الركن مونيوس غراندس الذى اشتهر بحبه للعرب .

والخلاصة ان هتلر لم يجد في فرنكو الحليف الذي يرجوه لدرجة انه ندم على مساعدته له وتمنى في أيامه الاخيرة لو انه ساعد الجمهوريين في أسبانية إذ ان الشيوعيين فيهم قليلون جدا ولكان بذلك اكتسب عطف الشعوب الطالبة إلى الحرية والاستقلال وما أكثرها في ذلك الحين . هذا مانقرؤه في وصيته الأخيرة لبورمان ، كتبها قبل وفاته بأيام قليلة ، وقد نشرت وصية هتلر لبورمان وتوصلت إليها بالنص الفرنسي مع تعليق كتبه فرنسوا بونسيه سفير فرنسة في برلين وروما ثم مفوض سام لفرنسية في ألمانية المحتلة :

قيادة الفوهرير العامة ، تاريخ 10 شباط فبراير 1945 :

إني تساءلت مرارا ألم نخطيء في عام 1940 لاننا لم نجرّ أسبانيا إلى الحرب ، يكفيها تلميح بسيط لكي تنجر اليها لانها تحترق رغبة في دخولها قدوة بإيطالية لتصبح عضوا من أعضاء نادي الظافرين .

اعتبر فرانكو ان تدخله يكون لقاء ثمن باهظ ، ولكني أعتقد انه بشروط معتدلة كان مستعدا لخوض الحرب إلى جانبنا مقابل وعدنا له بإعطائه قطعة صغيرة من فرنسة لإرضاء كبريائه وقسما هاما من الجزائر لمصلحته المادية ، ولكن وجدت ان أسبانية غير قادرة على تقديم مساعدة فعالة لنا وبالتالي من الأفضل عدم دخولها الحرب مباشرة . ولاشك ان دخولها كان سمح لنا باحتلال جبل طارق وهذا يقضي علينا بان ندافع عن مساحات كبيرة على المحيط الاطلسي من سان سبستيان إلى قادش مع احتمال عودة إضرام الحرب الاهلية بتحريض من الانجليز ونجد ذواتنا مرتبطين بنظام لم يعجبني قط ، نظام انتهازيين راسماليين يسيرهم رجال الدين . لاأستطيع ان أغفر لفرنكو جهالته بعد انتهاء الحرب الأهلية إذ انه لم يتصالح مع جميع الأسبان وانه أقصى الكتائب المدينة لهم أسبانيا بمساعدتنا لهم ، ولانه عامل أعداءه كما لو كانوا قطاعي طرق ولصوصا رغم ان أكثرهم أبعد مايكون عن الشيوعية . لم يكن حله معقولا لما ،

وضع نصف البلاد خارج القانون بينما أقلية من اللصوص تغتني على حساب الجميع بـرضى الاكليروس ومـوافقتـه . إني واثق ان الشيـوعيين أقليـة ضئيلـة جـدا بين الجمهوريين الأسبان . وقعنا في خدعة رغم معرفتنا بالحقيقة الأسبانية فقد عملنا على القضاء على المتضررين جوعا وأعدنا إلى الاكليروس الأسبانى امتيازاته الشنيعة ، وعلى كل حال فـان أفضل خدمـة أدتها لنا أسبانيـا هي في بقائها خـارج النزاع ، كفـانا ان جررنا وراءنا سـلاسل القيود الايطالية ، شجاعة الجنـدي الأسباني لا تكفي . ينقصه التدريب وواقع في حالة عوز شديدة ، كان دخولها قد عرقلنا أكثر من ان يساعدنا .

أعتقد ان هذه الحرب كشفت عن حقيقة كبيرة هي انحطاط الدول اللاتينية ، فقد برهنت بما لا يقبل الشك عن انه لم يعد يحق لها إبداء رأيها في تنظيم شؤون العالم . .

أسهل أمر كان احتلال جبل طارق بارسال المظليين بمواطاءة فرنكو دون ان يدخل الحرب و إني واثق ان انجلترة لم تكن أعلنت الحرب على أسبـانيـة لهذا السبب بل على العكس كانت سعيده لان أسبانية ظلت على الحياد .

هذا ماجاء في وصية هتلر فيما يخص أسبانية .

وفي مكان آخـر يقول : تـوجهت إلى هنداي لمعـانقة صـديق ظننت انه صـديق (يعني فرانكـو) ، كما اني أصبت بصديق حقيقى اغتنم فـرصة انشغـالي بامـور اخرى ليعلن الحرب المشؤومة على اليونان .

وفي هذه الـوصية أمـور كثيره تتعلق بالعـالم العربي : بدل ان ثبتنـا نفوذ فـرنسة في سوريـة وتونس والجزائر والمغرب كان علينـا ان نساعد هذه الشعـوب على التحرر من الحماية الفـرنسية ، فـالعالم الإسـلامي اجمع هلل لانتصاراتنـا ، المصريون والعـراقيون والشرق الأدنى كله كان مستعدا للانتفاضة وكان من مصلحتنا وواجبنا ان نساعدهم ولكن وجود الإيطـاليين إلى جانبنا شل قدرتنا وخلـق بعض النفور منا عند أصـدقائنا المسلمين .

كان بمقـدورنا ان نصنع الكثير لهم ولكننـا أفسدنا مـوقفنا تجاههم كما أخطـانا في مواقف اخرى كثيرة إرضاء لحليفنا الإيطالي .

انتهت الحرب العالمية الثانية كما هو معروف بانتصار الحلفاء . وسحب أكثرية دول العالم الموقعة على ميثاق سان فرنسيسكو سفراءها من أسبانيا الفرنكية ، والدول العربية المستقلة آنذاك ولها تمثيل سياسي في أسبانيا لم تشأ ان تسحب سفراءها منها بل على العكس ساعدت فيما بعد على دخول أسبانيا في هيئة الأمم المتحدة في الخمسينات ولم يعترف فرنكو بدولة اسرائيل إرضاء للعرب الذين عقد معهم معاهدات صداقة ومعاهدات ثقافية وتجارية فأقبل الطلاب العرب على أسبانية جماعات جماعات حتى عُدوا بالألاف ، منهم اللبنانيون والسوريون والاردنيون والفلسطينيون حتى وصل عددهم فى بعض السنين إلى عشرة ألاف طالب عربي موزعين في كافة الجامعات الأسبانية وخاصة في كليات الطب .

واستمرت الحركة الطلابية العربية ناشطة في أسبانيا طوال الستينات ثم أخذت تضعف شيئا فشيئا لأسباب خاصة ولكنها لم تنقطع فظل التبادل الثقافى قائما . فقد فتحت أسبانيا مراكز ثقافية في كافة انحاء الوطن العربى وتبادلت البعثات الثقافية بين أسبانيا وكافة أقطار العالم العربي بحيث انه لم تبق دولة عربية واحدة لم ترسل طلابها إلى إسبانيا للتخصص في إحدى فروع المعرفة وخاصة الطب والأدب الاندلسي والفن . كما أقبل الاسبان على دراسة اللغة العربية وأدابها وترجم المستعربون الأسبان عددا كبيرا من الأدب العربي المعاصر ومازالت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية ناشطة ومازال الطلاب الأسبان مقبلين على دراسة اللغة العربية بل يمكن القول انهم تخطوا جميع من سبقهم من مواطنيهم في دراسة هذه اللغة وفي الوقت الحاضر يوجد رعيل لايستهان به من الشباب النشيط العامل في حقل الاداب والعلوم العربية من قديمة ومحدثة ومعاصرة ، والسلطات الأسبانية شجعت هذا النشاط بتقديم المنح للطلاب الأسبان الذين يريدون ان يحسنوا معرفتهم باللغة العربية .

يمكن القول ان هذه الحركة الأدبية الناشطة ابتدأت بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية لما أسست حكومة فرنكو في شمالي المغرب وهي منطقة إنتدبها آنذاك معهد للدراسات العربية في تطوان أطلق عليه اسم معهد فرنكو للدراسات العربية عمل فيه عدد من الباحثين اللبنانيين بنوع خاص فحققوا مخطوطات وترجموا مؤلفات أسبانية إلى العربية ومن العربية إلى الأسبانية ، وطبع هذا المعهد عشرات الكتب بالعربية

والأسبانية لمستشرقين معـروفين ، ثم انشئ المعهد الأسباني العربي للثقافة بمـدريد وهو معهد تابـع لوزارة الخارجية الأسبانية قـدم خدمات جلية للطـلاب إذ خصص منحا للطـلاب العـرب من كـافة البلـدان العـربيـة وطبع العشرات من الكتب الأسبـانيـة والعربية التي تدور حول مواضيع اندلسيـة وعربية على العموم وطبع القاموس العربي الأسباني والأسباني العـربي وهو تقريبا الوحيـد من نوعه في العالم وهو الـوحيد فعلا في الوقت الحاضر نجـده متداولا بين أيـدي العاملين في حقل الترجمات من العـربية إلى الأسبانية والعكس بالعكس وظل هذا المعهد عدة سنوات يقدم جوائز مالية سخية في الشعر العربي والأسباني منها جائزة ابن زيـدون وولّادة وابن خفاجة ، كما أصدر عدة مجلات : مجلة اوراق مازالت تصدر ومجلـــــــــة " كلمو " بالاسبانية توقفت عن الصدور ومجلة اخرى " اربسمو " مازالت تصدر.

كل هذه الأمور جـرت على عهد فرنكو الـذي وطد علاقاتـه على أحسن مايرام مع العالم العـربي وتبادل السفـراء مع كـافة الدول العـربية مـن أصغر دولـة إلى أكبر دولة وأيدته الدولة العربية في الانتساب إلى كـافه الهيئات التابعة لمنظمة الامم المتحدة إذ ان أسبانيا كانت على الصعيد الدولي تجد سندهـا في دول أميركا اللاتينيه ومجموعة الدول العربيـة فأيدتها في انضمامها إلى هيئة الأم المتحـدة و إلى منظمة اليونيسكـو وغيرها من المنظمات التابعة لهيئة الأمم المتحدة .

لم يشأ فـرنكو الاعتراف بـاسرائيل رغم الضغـوط التي تعرض لها من الـداخل ومن الخارج .

اندثر عهـد فرنكو وأقبل العهد الملكي واستمرت أسبانيـة مصرة على عدم اعترافها باسرائيل إرضاء للعـرب إلى ان اضطرت مكرهة إلى الاعتراف بالدولـة اليهودية بعد ان وجدت ان دولـة عربيـة كبيرة اعترفت بها وصالحتهـا . كما ان أسبانيـا تعرضـت ايضا للضغط من دول الجماعة الاقتصادية الأوروبيـة لكي تعترف باسرائيل إذ ان أسبانيا لا يمكن ان تدخل السوق الاوربية المشتركة التي تربطهـا باسرائيل علاقات تجارية قوية دون الاعتراف بـالدولـة اليهوديـة . غير ان اعترافها الـذي جـرى مؤخـرا لم يؤثـر على علاقتهـا بمنظمة التحرير الفلسطينيـة بل على العكس : اعترفت باسرائيل واعترفت ايضا بمنظمة التحرير الفلسطينية ورفعت تمثيلها فيها إلى رتبـة دبلوماسية عالية قريبة

من رتبة سفارة ، ولم تقر لاسرائيل بالاراضي التي استولت عليها في حرب 1967 بل إن السياسة الأسبانية ترى وجوب انشاء دولة فلسطينية في الاراضي المحتلة .

المشكلة الوحيدة بين أسبانية والوطن العربي هي مشكلة مدينتى سبتة ومليلية اللتين يطالب بهما المغرب وهي مشكلة قابلة الحل ومرتبطة بقضية جبل طارق الذي تطالب به أسبانية وهو في ايدي الإنجليز ، فعندما تحل مشكلة جبل طارق بين أسبانيا وانجلترا تنحل مشكلة سبتة ومليلية بين أسبانية والمغرب على ما اعتقد ويعتقد الكثيرون لانه ليس من دولة في العالم ترضى ان تكون أسبانية مسيطرة على بابي البحر المتوسط ، غير ان هذه المشكلة لاتمنعها عن ان تكون علاقاتها مع المغرب على أحسن ما يرام ، فالمغاربة حتى الآن يدخلون أسبانية بدون تاشيرة وكذلك الأسبان يدخلون المغرب بدون تاشيرة والتبادل التجاري على اوسع ما يكون بين البلدين .

أعرض المؤلف عن ذكر علاقات أسبانية بالعالم العربي لانه اعتبر هذه العلاقات مكثفة بنوع إنها تحتاج إلى كتاب على حدة ، وموضوع كتابه : " أسبانية من الدكتاتورية إلى الديمقراطية " فاقتصر على هذه الناحية دون سواها ، ولكن بما انه يكتب التاريخ إلى القراء في الوطن العربي ، وجدت ان المح بإيجاز لهذه الناحية حتى يدرك القارئ الكريم اننا نتحدث عن دولة صديقة للعرب سواء كانت ديكتاتورية او ديمقراطية ، وماضيها عربي صرف والآثار العربية موزعة في كل مدينة وقصبة وقرية ومحلة تجهر بهذا الماضي القريب الذي لم يمض عليه أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن ، وهذه الآثار الباقية تذّكر الشعب الأسباني ان العرب عاشوا على هذه الارض التي يعيش عليها مدة تسعة قرون ، فالكل يعلم ان العرب دخلوا أسبانية عام 712 مسيحية وأجبروا على الخروج منها عام 1611 .

لابد من كلمة شكر وتقدير للمؤلف لانه بذل جهدا كبيرا في تقصي الحقائق والحصول على المعلومات الدقيقة من أصدق المصادر والمراجع ومن الأشخاص انفسهم الذين عاشوا هذه الفترة من التاريخ الأسباني المعاصر .

سيمون الحايك

دكتور في الفلسفة

تمهيـــــــد

لقـد عشت التحوّل الأسبـاني فـرأيت كيف يصنع شعب مصيرَه . شعب بأكملـه قادة وقـاعدة ، فكراً وسـاعداً ، جامعـة ومصنعاً ، مدينـة وريفاً ، فلمست ماقـاله الشاعر العربي التونسي الراحل أبو القاسم الشابي من انه :

إذا الشعب يومـــــا أراد الحيـــاة

فـلابـد ان يستجيب القــــــدر

وأحب الشعب ، بل الشعـوب الأسبانية الحيـاة ، فاستجـاب لها القدر . أحبت الحياة في تعايش ووئام تحت ظل الحق والعدالـة وفي أمن وسلام فكان لها ذلك بفضل مجهود جماعي فيـه الخلافات والمنافسـات والمشادات والتضارب في الآراء ، وفيـه ما في الإنسان من محاسن ومسـاوئ، ولكنه كان مجهودا يرمي قبـل وبعد كل شيء إلى هدف فكان لابد من بلوغه وتم البلوغ اليه .

كانت كل هذه المشاهدات وما توحيه من أفكار وما تدفع اليه من مقارنات تفرض علي التفكير في ما تمر به بلادنـا العربية من أقصاها إلى أقصاها ومـا هي في حاجة اليه من تغيير نظم ، وإبـدال أساليب ، واتبـاع طرق ، وتوخـي سيــر ، وتحل بـأخلاق تبعثهـا من رقادهـا وترمي بها متيقظـة متحدة في حلبـة سباق الـزمن الذي لا يـرحم فتستعيد مكانتها وتسترجع عزتها وتمسح كرامتها مما لوّثته الأيام .

كنت أفكـر في كل هذا وكنت أزداد تأكـدا ان شيئـا من هذا لا يمكن ان يتم مـا لم يتحرر الإنســان العربي مـن مظالم السادة وقيـود نفسه ، مـا لم يتمتع الإنســان العربي بحقوقـه الأساسية وما لم يقـم بواجباته ويتحمل مسـؤولياته كخليـة حية وسط مجتمع حي سليم . كنت أرى ان لا شيء من هـذا يمكن ان يتم مـا لم يؤمن الحاكم والقـائد فينا انه حكم ومرّب لا حاكم وَسَيِّد وما لم يؤمن المواطن ان لا سيادة إلا سيادة الشعب ولا سلطـة الا للقانـون ولا أرى إلا مـا أجمعت عليـه الأمــة وان لا استقـــرار إلا بالتعايش ولا عدل إلا بالاصداع بالحق ولا أمن إلا باحترام الكل لحقوق الكل .

كانت هـذه تأملاتي وانـا أشاهـد وأحيي كيف يبني شعب حاضره ويعـد لمستقبله متعضا بالماضي ، معتبرا الحاضر ، ومتشوقـا إلى المستقبل فاندفعت نحو قلمي محاولا تدوين بعض ما شاهدت عله يصلح مثالا يذكّر إخواني العرب أيّا كانوا وحيثما كانوا ، إن الشعوب قادرة ، ان أرادت ، على صنع المعجزات وان شعـوبنا قادرة هي الأخرى

على النهوض والسير والرقي إذا ما تخلى كل فرد فيها عن غروره واحترم رأي أخيه واتخذ الحوار آلة وسلاحا ، عاملا بكلامه عز وجل " وجادلهم بالتي هي أحسن " .

كنت وانا أكتب الجزء الأول من هذا السفر ، أفكر في أوضاع بلداننا وأتابعها ، ويحضرني في مقدمتها وضع مسقط رأسي ، تونس الخضراء ، التي كانت آنذاك على فوهة بركان ، وكان وضعها شديد الشبه بالذي عرفته أسبانيا . فزاد هذا من حماستي في تسجيل التجربة الأسبانية ولسان حالي يعرضها على كل تونسي وكل عربي مؤكدا لهم انه بالإمكان أحسن وأكثر مما كان وانه " لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله " وكم انا سعيد انه قبل إنهائي هذا المؤلّف وقبل ان يخرج إلى النور ما احتواه وما دونته فيه ، تمّ في تونس تحوّل شبيه بالذي أردت عرضه وتخلصت تونس من كابوس مخيف لتدخل مرحلة الإبدال بالتي هي أحسن وإرجاع للشعب دوره وحقوقه وأملي الذي هو أمل كل عربي ، ان تواصل تونس مسيرتها على هذا النسق وان تحذو حذوها الأخوات العربيات وكل هذا ليس سوى تأكيد للفكرة التي دفعتني إلى الكتابة وهي " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين " .

تمنيت لو استطعت الوقوف عند هذا الحد في هذا التمهيد ولكن الواجب نحو القاريء يلزمني بإعطاء بعض البيانات منها انني لم أكتب تأريخا ولادراسة ولاتحقيقا بل سردت قصة محاولا قدر المستطاع الوقوف عند هذا الحد ولكن الضرورة إلى تعديه في بعض الحالات كانت أحوج وألزم . فالجزء الأول أو المدخل التاريخي ، ارتأيته ضرورة تمكن القاري من تقدير قيمة الحاضر ومنجزاته لانه شئنا أم أبينا ، ليس سوى وليد ذلك التاريخ . ورغم هذا فقد تحاشيت التعليق والحكم مقتصرا على السرد في أغلب الأحيان . وكذلك فعلت عند التعرض للزمن الحاضر فلم أدخل في متاهات الجزئيات وتحاليلها ومنها تقاليد أسبانيا في إصدار الدساتير أو تاريخ القوات المسلحة في أسبانيا وتصرفاتها عبر المرحلة التاريخية المعروضة هنا وبصفة خاصة ما أتته وما كانت عليه بعد الحرب الأهلية إلى اليوم وكيف عاشت تحت نظام فرنكو ، أو جزئيات تحركات الأحزاب المعارضة وظاهرة الخوف من الحزب الشيوعي وأسبابها ومناورات هذا الحزب وتكتيكه ، أو تأثيرات الاقتصاد وعوامله على مجرى الأمور والأحداث . لم أتوقف كذلك طويلا عند صورة تركيب حزب اتحاد الوسط الديمقراطي الذي تزعمه السيد أدولفو سووارث فلعب دورا كبيرا في بداية المسيرة ولا عند أسباب الصراع داخله ولا الدوافع التي أدت بالسيد سووارث إلى الاستقالة

وكيف أدى كل ذلك إلى فوز الاشتراكيين بأغلبية مطلقة ساحقة في مجلس الشيوخ والنواب وفي كل أجهزة الدولة . كما لم أتوقف لتحليل هذه الأغلبية وتحليل تأثيرها على الحياة السياسية في أسبانيا ولا للتمعن في فوائد ومضار الأغلبية المطلقة والأغلبية البسيطةوالتفضيل بينهما . كما لم أتعرض إلى مفهوم الشرعية لدى العسكريين وتأثيره في تصرفاتهم إلى غير ذلك من الأمور والأحداث والحالات التي تحتاج قطعا إلى مزيد التعمق فيها و إبداء الرأي بشأنها بعد تحليل أسبابها ومسبباتها . لم أفعل من كل هذا شيئا إلا بقدر ما أوجبته الضرورة لان غايتي ، كما أسلفت ، لم تكن سوى سرد ما وقع وطرحه أمام القارىء العربي ، على علاته دون تحريف ولا تعليق أو تحسين أو تلميع حتى أترك له ، بعد الاطلاع ، حرية التأمل دون مؤثرات وامكانية الدرس أو التحليل أو الاتعاض دون مكيفات مسبقة وعلى الدارسين من بعدي وأهل الاختصاص ان يقوموا بما أهملت وتحاشيت ان أرادوا ذلك وارتأوا فيه الفائدة والصلاحية .

بعد هذا ، لزاما عليّ الادلاء ببعض الإيضاحات ومنها اني استعملت عبارة " فرنكية " نسبة لنظام فرنكو أي " الفرانكزم " ولربما كان من الأفضل لغويا ان أقول " فرنكوية " لكني فضلت الأولى لخفتها وسلاستها . هناك ايضا ظاهرة انقسام أسبانيا إلى شقين تناحرا عبر التاريخ حتى أصبح تقليداالحديث عن جزأين من بلد واحد يحمل كل منهما اسم أسبانيا فلزمت تثنية اسم أسبانيا أو أسبانية إلى أسبانيين وأسبانيتين وكلاهما كما هو واضح في صفة النعت ففضلت التأنيث على التذكير للملاءمة حسب رأيي ولاني لم أجد أحسن من ذا ، فمعذرة إن أخطأت .

ولم يبق لي إلا إسداء الشكر والثناء إلى كل الزعماء والشخصيات الذين تفضلوا بمقابلتي ومحادثتي وتقديم جزيل المعلومات والايضاحات حول مواقفهم ومواقف غيرهم و إلى الزملاء الصحفيين الذين وضعوا تحت تصرفي مذكراتهم ومحفوظاتهم ، معبرا هنا عن أسفي لعدم تمكني من " صب " كل ما وجدت عندهم في مؤلفي المتواضع هذا ، لما في ذلك من فائدة لمن قد يقرأ هذا الكتاب .

وأخيرا ، لم يكن بالامكان أكثر مما كان وقد اجتهدت وقدمت فإن أصبت فلي أجران وان لم أصب فأجر واحد واني بذلك وبرضا القارىء لله شكور .

محمد عبـــد الكافي

مدريد في 18 شعبان سنـــة 1408

5 أبريل / نيسان 1988

الباب الأول
الفصل الأول

لمـاذا أسبانيــا

كيف مـا تكونـوا يـولى عليكم . ان هـذا الحديث المأثور لأصـدق مـا ينطبق على أسبانيا التي اصبحت شاهدا أو مثالا يذكر كلما دار الحديث حول الديمقراطية وسبل الوصول إليها بلا عنف ولاتصادم ولا شقاق ولا ضحايا .

فهذه البلاد ذات المتناقضات ، متعـددة الشعوب واللغات ، ثقيلة الماضي البعيد والقريب بـالانقلابات والثورات ، ذات الجروح التـي لا تزال دامية موجعـة من جراء حرب أهلية أتت على كل المفاهيم والقيم ودمرت كل صالح ومفيد ، هذه البلاد التي رزحت أربعين عـامـا تحت حكم وسلطـة رجـل واحـد ، بما في تلك السلطـة وذلك النظـام من سلبيات وإيجابيـات وعرفت الجوع والحاجـة والظلم وعرف نصف أهلهـا التشريد والهجـرة ، هذه البلاد التي كانت في شبـه عزلةعن العالم الـذي ولى لها ظهره طيلـة أربعين سنة فعـاشت في انطواء على النفس ، هـذه البلاد استطـاعت في وقت قصير جـدا ان تتحولّ من نظـام السلطـة الفرديـة إلى الديمقـراطيـة التعدديـة حيث السيـادة للشعب في ظل ملكيـة دستـوريـة عصريـة هي كما وصفهـا الملك نفسـه في خطاب مبـايعته مـؤسسة متفتحـة حيث يجد كل المواطنين مكانـا فسيحا لمسـاهمتهم السياسية دون تمييز من أي نوع كان ودون ضغـوط غير مستوجبة من طرف مجموعات متشيعة أو متطرفة . إن التاج يصون الشعب بأكمله وكل مواطن على حدة ضامنا عن طريق القانـون وبواسطة ممارسـة الحريات المدنية هيمنة العـدالة . إن الملكية ستعمل وفق مبـادىء الديمقراطـــية ، على استتبـاب الأمن الجماعي والاستقرار السيـاسي في أسبانيا ، وتضمن في نفس الوقت الوصول المنتظم إلى السلطة لكل الذين قد يتداولون على الحكم ، حسب رغبات الشعب المصرح بها بكل حرية " .

إن هـذا التحول من نظـام إلى آخر ، مقـابل له تمامـا ، من نظام السلطـة الفرديـة والرجل الواحد إلى سلطة وسيادة الشعـب ، وهذا التغيير الذي أعاد انتصاب الملكية بعد غيبة طـالت أربعة وأربعين عاما وبطـريقة مميزة ، وهذا التبـدل الذي جعل أكثر الجماعات والتيارات والمبادىء تباعـدا وعداء ، تتصافح وتتعامل وتتعايش دون عنف أو تصادم ، كل هذا كسا التجربة الأسبانية صبغة ألفتت إليها الانظار وجلبت إليها اهتمام العالم الخارجي خاصة وان محققي هذا التحول العظيم تميزوا بشبابهم وان بعض

التيار اليميني الذي ساند النظام السابق قد أجبر تحت الضغوط الشعبية إلى مسايرة الركب والسير مع الجميع في طريق الديمقراطية والتعددية مع طي صفحة الماضي وقبول مبدأ التعايش بين جميع الآراء والتيارات ، أساسا للنظام وقاعدة للحياة الجديدة التي سوف لا تهدف إلا إلى السلم والعدالة الاجتماعيين وتطور وتقدم البلاد سياسيا واقتصاديا وتقنيا والعودة إلى حضيرة الأمم والمجتمع العالمي آخذة مكانها اللائق المخصص والذي بدونه لا تكون .

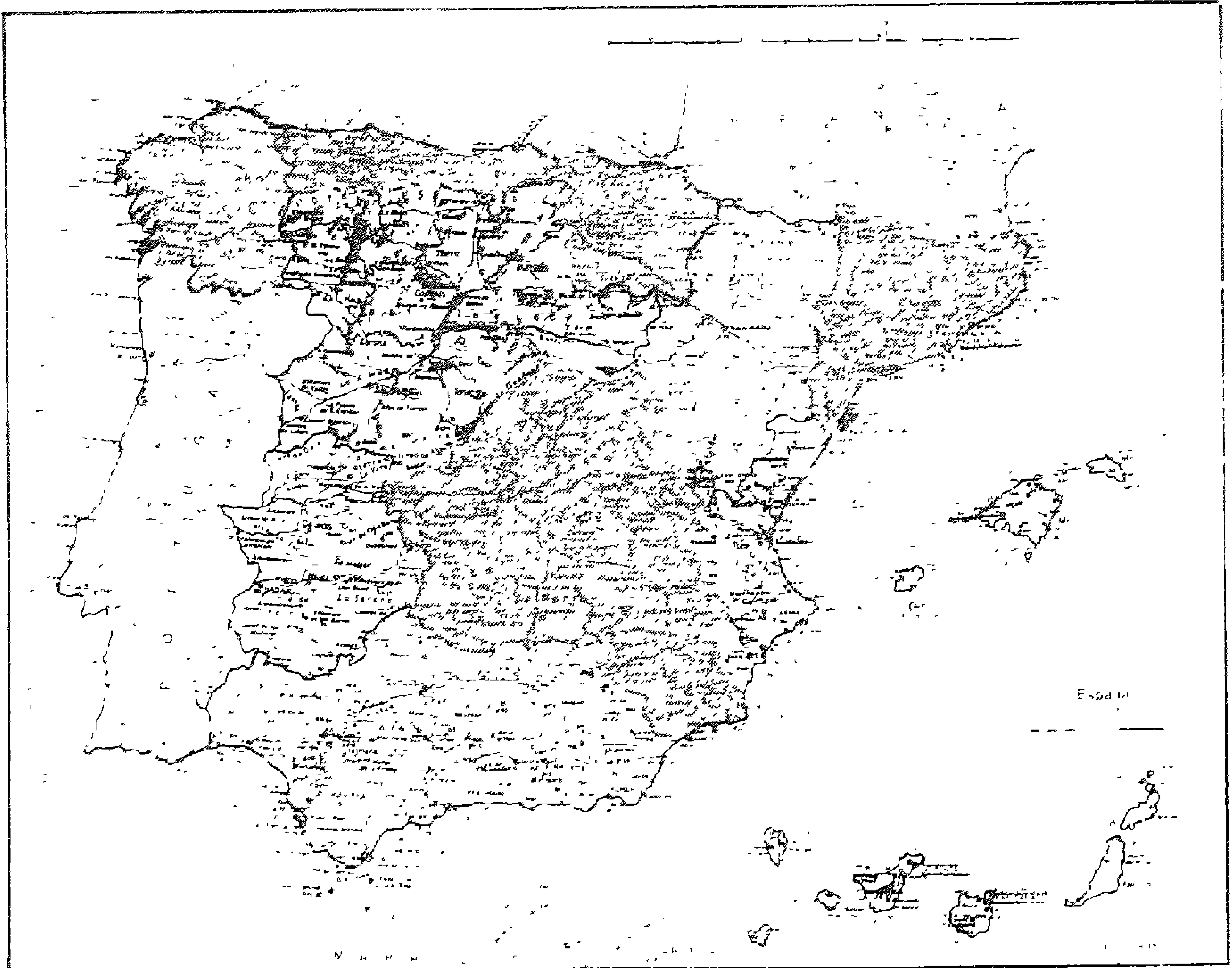
كل هذا تم في ظرف قصير جدا مقارنة بالصعوبات والمنجزات وبالرغم من تكهنات معظم الملاحظين الذين ترك الكثير منهم البلاد عندما قربت نهاية الفريق « الجنرال » فرنكو ، رئيس الدولة آنذاك ، خوفا مما كانوا يتوقعونه مخطئين .

كان السؤال الوحيد الذي يتردد على جميع الألسن هو " وبعد فرنكوماذا ؟ " كان الناس في الداخل وفي الخارج خاصة يتساءلون عما سيحدث بعد زوال فرنكو الذي جاء إلى السلطة عن طريق انتفاضة عسكرية تلتها حرب أهلية عديمة المثال في شراستها وشدتها وتعقيدها وتشابك المصالح الوطنية والعالمية فيها ، وقليلة الشبه في تخريبها وتدميرها وحتى وحشيتها في بعض الأحيان علاوة على عدد ضحاياها من موتى وجرحى وسجناء ولاجئين . كان الاستفهام عاما والرغبة ملحة لمعرفة ما سيقع ويحدث بعد موت هذا الرجل الذي قبع على كرسي السلطة قرابة الأربعين عاما من خلال نظام فريد في نوعه وشدته ومعالجته للأمور والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية حتى ان بعضهم رأى في نظامه فلسفة سياسية جديدة هي " الفرانكية " أو " الفرانكيزمو " نسبة للفريق فرنكو نفسه وظنوا ان هذا النظام سيبقى بعد صاحبه لكن كيف وبمن ؟ فهل يمكن ان يستمر الفرانكيزمو بدون فرنكو ؟ وإن كان كذلك ، هل كَوّن هذا النظام رجالا يستطيعون المحافظة على استمراريته ؟ هل النظام نفسه له وفيه من المقومات ما يجعله يبقى ويستمر أم كان كله مقاما على شخصية رجل واحد فينهار بزوال ذاك الرجل؟ وأخيرا والأكثر أهمية واعتبارا هو هل ان الشعب الأسباني بجميع مكوّناته وفئاته قابل ذلك النظام أم كان مفروضا عليه ومن ثمّ سيكون زوال صاحبه الفرصة الملائمة للتخلص منه ؟ وإن كان كذلك ، فكيف سيكون التخلص من هذا النظام ؟ أليس في ذلك مغامرة قد تؤدي مرة أخرى إلى الشقاق والتصادم ومن ثمّ الى حرب أهلية

أخرى بين شقي اسبانيا أو " الأسبانيتين " كما شاعت تسميتها ؟

كل هـذه الاسئلة وكثيرة غيرهـا كـانت تدور على الألسنـة وكثيرة أيضـا علامـات الاستفهام التي كانت بارزة في الأفق دون ان يجرأ أحد على الإفصاح باجابة أكيدة عنها لان تلك الإجابة الحقة الواقعية الثابتة كانـت بيد ثلاثة عناصر داخلية ، ثلاثة عوامل كامنة في الشعب أو هي وليدته منه انبثقت وإليه تعمـل .

قد يكون مفيدا لمن لا يعرف الكثير عن ماضي أسبانيا ، بعيده ، وقريبه ، ان نترك الآن جـانبا تلك العـوامل الثـلاثة التي كـانت تمسك بـالإجابـة عن المجهول لما بعـد فرنكو، ونلقي نظرة على تاريخ أسبانيا ، ولو سريعة موجزة حتى يسهل فهم الأحداث وتقييم المواقف والتصرفات حق الفهم والتقييم فتكون متابعة الحاضر مبنية على الواقع الأسباني لامنظورا إليه من خلال رؤى خارجية أو مفاهيم أجنبية .



تمهيـــد تاريخي

إن أسبانيا كما نعرفها اليوم هي فسيفساء من الشعوب واللغات ومجموعة من الدول والدويلات كانت قديما متفرقة منفصلة فتـوحدت حتى ضمتها رقعة جغرافية واحدة وظللها تـاج واحد فأصبحت دولة واحـدة سرعان ما تحولت إلى امبراطوريـة لا تغرب الشمس عنهـا وهذا دون ان تخسر شعـوبها المتعددة لغتهـا أو ثقـافتها أو عـاداتها بل بقيت محتفظة بشخصيتها وذاتيتها يعترف لها بها حينا وينكـر عليها ذلك أحيانا باسم المركزية والوحدة الوطنية فقبلت مرغمة لكن محافظة في صمت على مقـوماتها متحينة الفرصة لإبرازها .

إن موقع أسبانيا الجغرافي جعلها عرضة لموجـات متواصلة من النزوح الـبشــري . فهي جسر كبير ممتد بين أوربا وافريقيا وهي عـائمة بين المحيط الأطلسي غربا والبحر الأبيض المتوسط شرقا وجنوبا وبابها البحري الشمالي مفتوح على الجزر البريطانية ومن ثم على البحـار الشماليـة فأصبحت بهذا الموقع الممتـاز وبمنـاخها العـذب وطقسهـا المعتدل وثـرواتها المنجمية والزراعية مقصـد النازحين وبغية الغـازين فتحولت بحكم الظـروف والأحداث بمـرور الأيـام إلى ملتقى حضـارات ومصهـر أجنـاس وشعـوب ولغات . لقد أم شبه الجزيرة السلتيون والفينيقيون والأغريقيون والقرطاجنيون والرومان والغوطيون والعـرب المسلمون فأقام فيها كل منهم حضارة وبثّ ثقافـة وطريقة عيش أصبحت بمرور الزمن إحدى مكوّنات الذاتية والشخصية الأسبانية . وإذا أضفنا إلى هذه المعطيات ، العوامل السياسية وتـأثيراتها في تركيبات الشعوب والأوطان فهمنا أو قربنا من فهم هذا النسيج البشري العجيب وهذه الفسيفسـاء الحضارية الثقافية التي هي أسبانيا .

فيكفي ان نعود إلى أواخـر العهد الإسلامي بشبه الجزيـرة لنجدها مكوّنـة عند وفاة صـانشو الثـالث ر، ملك نافـاراً (1035) من مـايزيـد عن عشر ممالك هي ليـون وقشتالة ونافارا وأراغـون ومقاطعات قاطولونيا وكلها مسيحيـة وإلى ممالك ساراقسطة وطليطلة وبلنسية ووادي الحصن ﴿ باداخوث اليوم ﴾ ودانية وغـرناطة وقرطبة واشبيليا وهي تلك الممالك الإسلامية التي عرفـت بملوك الطوائف . وطبيعي ان ينشأ عن هذا الخلط والمزج تعدد في معظم الظـواهر الحيـاتية والثقافيـة ومنها التعبير اللغـوي الذي

اشتمل هو الآخر على لغات متعددة إلى ان جاء الرومان فحاولوا توحيدها في اللغة اللاتينية التي أثراها العرب بعد ذلك بكثير من المعطيات العربية . إلا ان تعدد الشعوب وتعايشها تسبب في تكوين عدة لغات وعدد كبير من اللهجات تفرعت في معظمها ، باستثناء الباسكية ، عن ما عرف باسم " الرومانكية " وهي بدورها تنتمي إلى اللاتينية . ولم تنعدم هذه الصورة حاليا إذ نجد في الوقت الحاضر لغات عدة ، لغات مستعملة يوميا وهي تختلف عن بعضها بكل وضوح . فهناك الباسكية وتستعمل في بلاد الباسك ونافارا ، والجليقية وهي أداة التعبير لدى سكان الشمال الغربي من شبه الجزيرة ويسمى جليقية ﴿ غاليثيا ﴾ والقطالانية وهي لغة أهل المنطقة الشمالية الشرقية وإمارة أندورّا بشيء من الاختلاف والفروق البسيطة يتكلمها أهل بلنسية وجزر الباليار . وأخيرا اللغة القشتالية ، لغة بقية البلاد وهي أيضا اللغة الرسمية للدولة والتي تعرف عامة باسم " اللغة الأسبانية " .

نشأت هذه اللغة في " كانتابريا " شمال البلاد . واللغة القشتالية هي تطوّر خاص للاتينية تم عبر القرون الوسطى . ولهذه اللغة اليوم عدة لهجات منها " البابلي لهجة أهل أستورياس و " الساياغيس " لهجة أهل ثامورا وليون و" التشارّو " لهجة يتكلمها أهل سالامنقة .

واللغة القشتالية أو الأسبانية هي اليوم ثالثة لغات العالم من حيث عدد الناطقين بها ومساحة البلدان التي تتكلمها وهي اللغة الرسمية في بلدان وسط وجنوب أميركا .

ليست هذه سوى لمحة تاريخية مختصرة عابرة وقد تكون غير مكتملة إذ ليس القصد منها كتابة التاريخ بل إعطاء صورة ولو باهتة عن شبه الجزيرة حتى يقرب القارىء من الواقع فيفهم الأسباب خير فهم ويقدر الأحداث أحسن تقدير . ولذا وكي لاندخل في ماليس قصدنا وهو كتابة التاريخ ، سنحصر نظريتنا بعد هذا التمهيد التاريخي في أحداث القرنين الماضيين ، الثامن عشر والتاسع عشر ، إذ ما حدث خلالهما كاف لإعطاء صورة عن الأوضاع في أسبانيا المعاصرة وهي التي تعنينا . ولابد قبل ذلك وكي تكون النظرة شاملة لعوامل الفهم والتتبع ، ان نستعرض ولو في اقتضاب أهم المراحل التى مر منها التاريخ الأسباني قبل القرنين اللذين حددناهما مرآة لكل المعطيات والعوامل التي أدت بأسبانيا إلى ما انتهت اليه في النصف الأول من القرن العشرين .

منشأ أسبانيا

إن أسبانيا الحالية يمكن اعتبارها وليدة نهاية العهد الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية اذ حاول من عرفهما التاريخ باسم " الملوك الكاتوليك " وهما فرناندو ﴿ الثانى ﴾ وايزابيل توحيد الممالك والامارات المختلفة تحت تاج واحد. فالملكة ايزابيل قد ورثت عرش قشتالة بعد حرب وصراع غير هنين وورث زوجها فرناندو عرش أراغون ، فانضمت المملكتان تحت تاجهما وكان هذا نواة الوحدة ولو الصورية لشبه الجزيرة .

إن النظام والتدبير السياسيين اللذين أقامهما هذان الملكان ، فرناندو وايزابيل ، ونمو عدد السكان والتوسع الاقتصادي الملحوظ والمنتعش بالمعادن الثمينة المجلوبة من العالم الجديد ، أميركا ، كلها عوامل قد مكنت أسبانيا من احتلال مركز مهيمن في أوربا طيلة قرن كامل ويزيد . إن العهود الملكية الثلاثة التي تتالت خلال هذه الفترة تعطي ثلاث صور وثلاثة مواقف لأسبانيا أمام أوربا والأوربي وتبرز كذلك تدرجا اقتصاديا عاما نحو الازدهار والرفاهية .

إن السنوات التي مرت تحت حكم ذلك الوجه والرجل العظيم ، كارلوس الأول أى من 1516 إلى 1556 ﴿ كان يسمى كارلوس الأول بأسبانيا والخامس بألمانيا التي ورث عرشها ﴾ كانت سنوات رفاهية وسنوات صلات وتعامل مفيد مع الدوائر والمراكز الثقافية في البلاد الواطئة وألمانيا و إيطاليا وكانت كلها تحت إمرته . تحت فيلبي الثانى (1556 / 1598) انطوت أسبانيا على نفسها وانغلقت دون التأثيرات الخارجية وتحولت إلى معقل الأصولية الكاثوليكية ضد الحركتين الاعتراضيتين ﴿ البروتستانت ﴾ اللتين تزعمهما " مارتين لوتر " و " جان كالفين " . وأخيرا وتحت حكم فيلبي الثالث 1598 / 1621 . انفتحت فجوات عديدة في صرح المملكة الأسبانية ولان تجنب هذا الصرح الانهيار فما ذلك الا " بفضل " تعب بلدان أوربا من الصراعات والحروب التي عرفتها في النصف الثاني من القرن السادس عشر واتخاذها مواقف مسالمة في بداية القرن السابع عشر .

مرحلة التدهور

جاء بعـــد هذا عهد فيلبي الرابع (1621 / 1665) وكـــارلوس الثانـــي (1665 / 1700) وهـو عهـد عـرف التدهـور السيـاسي والاقتصـادي للمملكـة الأسبانية . وقد ظهرت أولى علامات هـذا التدهور في أواخر عهد فيلبي الثاني الا ان فيلبي الثـالـث وأعـوانـه لم يعيروا ذلك اهتمامـا يـذكر . عـرفت البـلاد إذاك التجنيـد الاجباري المتواصل والهجـرة إلى أميركا وطرد الأقليات المتمردة واحتقـار المهن اليدوية وعـرفت حيـاة الأديرة والضغـوط الجبـائيـة التي أثقلت كـاهل الطبقات المتـواضعـة واجتاحتها الأوبئة وسني القحط وقلـة المحصول فتآزرت كل هذه العوامل حتى أدت إلى تململ سكان الممالك الأسبانية وخاصة مملكة قشتالة .

وبتداخل مـن فرنسا انتفضت شعـوب شبه الجزيـرة ﴿ البرتغال وقـاطالـونيا ثم في آراغـون والانـدلس ﴾ وعلى أثـرهـا انتفضت الممالـك الخارجيـة في كل من نابـــولي وصقيلية . ورغم كل الجهود أجبر فيلبي الرابع على توقيع معـاهدة سلـم مع فرنسـا ﴿ سلم البرانس ﴾ وبعد سنوات عـادت قاطالونيـا إلـى خريـطة شبه الجـــزيرة ﴿ قضت فترة مندمجة مع مقاطعة الـروسـونالفرنسية المجاورة ﴾ بعـــــد حصولها على ضمانات لاحتفاظها بمميزاتها .

عرض الأحـداث

وبدأ القرن الثامن عشر بمجيىء آل بربون إلى السلطة وتوليهم عرش أسبانيا وكان أول ملـوكهم فيلبي الخامس (1700 / 1746) الـذي عينه خلفـا لـه كارلــوس الثـاني . كانت الأوضـاع في البلاد غير مستقـرة ولا مطمئنة على وحـدة الامبراطوريـة الأسبانية في أواخر القرن السابع عشر فـارتأى كارلوس الثاني وهو على فراش الموت ان أمر البـلاد لن يستقر إلا إذا تولى العرش الأسبـاني رجل يحظى بتأييد ملك فرنسـا ولذا عين خليفة له فيلبي دي أنجو حفيد لويس الرابع عشر الفرنسي . وجلس فيلبي على عرش أسبانيا وعرف بفليبي الخامس .

ولم تكن هذه الخلافة لترضى غير فرنسا لان العداء القـديم الذى تكنه لأسبانيا كل من النمسـا وهـولاندا وانجلترا ، تسبـب في اندلاع الحرب التي عـرفت بـاسم حـرب الخلافة ، على العرش الأسباني طبعا ، وهي حـرب كان الدافع اليها في أوربا البحث عن طـريقة تـوازن بين دول القـارة بينما اتخذت داخل الممالك الأسبانيـة شكل الحرب الأهلية والتصادم بين مفهومين للدولة أحدهما يمثله كارلوس دي أوستريا ﴿ كارلوس النمساوي ﴾ الذي وقفت إلى جانبه مملكـة أراغون وثانيهما يمثله فيلبي الخامس الذي بعد معـارك طاحنـة انتصر على منافسـه المطالب بالعـرش واعترفت في الحال كل من هولاندا وانجلترا بفيلبي ملكـا على أسبانيا وامبراطوريتهـا بشرط التنازل عن ممتلكاتها الأوربية وترك الكثير من المزايا والتسهيلات التجارية التي كانت حبسا عليها .

وبعد ان قـوى فيلبي سلطته ونفـوذه وجه اهتمامه إلى النـواحي الاقتصاديـة والمالية وهي سياسـة واصل انتهاجها من بعـده فيلبي السادس وكارلوس الثـالث أدت هذه السـيـاسة إلى نزوح كبير للسكـان تجاه المناطق السـاحلية ﴿ قـاطالـونيا ، بلنسيـة ، جليقية ، بـلاد الباسك ﴾ وهكذا خسر وسط البـلاد هيمنته الاقتصاديـة التي كانت تميزه ولكنه عرف كيف يحتفظ بالسلطة السياسية . وهذه الثنائية التي ازدادت رسوخا وتطـورا خلال القـرون التـالية هي التي كـانت دومـا السبب في الكثير من التوتـرات والانتفاضات التي عرفتها أسبانيا .

إلا ان العواصف التى ستهزها حقا طيلة قرنين أو يزيد هي تلك التي تبدأ مع قيام

الثورة الفرنسية . ففي هذا الصدد يقول خيسوس بايون " ان فاجعتنا المعاصرة تنطلق مع الثورة الفرنسية إذ كل المشاكل التي واجهتنا خلال القرنين تكمن في الغزو الفرنسي المزدوج بالسلاح والأفكار " .

وفعلا فمنذ ذلك التاريخ والأحداث تتعاقب في أسبانيا متخذة في كل مرة شكلا أعنف وأشد . وقفت أسبانيا بكل حزم وعزم ضد ما أخذ يتسرب اليها من مبادىء وآراء مصدرها الجارة فرنسا حتى أدى الأمر إلى الحرب العلنية (1793) . إلا ان الظروف الدولية وضروريات الفترة أجبرت أسبانيا على تغيير موقفها من جارتها ولم تجد بدا من التحالف معها ضد انجلترا فكانت تلك الحيلة البحرية العظمى والهزيمة الكبرى التي تلتها ، هزيمة الطرف الأغر التي أدت بعد سنوات قليلة إلى صحوة المستعمرات الأميركية وبدء تحركها . إن الاستبداد التمديني لملوك آل بربون الأوائل ومحاولتهم القيام " بالثورة من عل " قد أيده شق من الشعب ولكن عارضه شق آخر حاول في بعض الأحيان التمرد والانتفاض .

أما الثورة الفرنسية فقد تسببت في تأصيل وتوطيد مواقف المصلحين ومعارضي الإصلاح على حد سوى مما نتج عنه ضعف وتأزم موقف المعتدلين . وتوالت بعد ذلك الأحداث . فقد نشأ الخصام بين أمير أستورياس الذي أصبح في ما بعد فرناندو السابع وبين أبيه كارلوس الرابع . فيجد نابليون في ذلك الفرصة السانحة لاحتلال البلاد ويدعو المتخاصمين لمقابلته في مدينة بايون وهناك ينصب نفسه حكما فيدفع الابن إلى التنازل لأبيه ثم يحصل من هذا الأخير على التنازل بدوره عن العرش ليجلس عليه أخاه خوسي نابليون . ، وكما هو طبيعي لم يقبل هذا التنازل إلا القليلون من الأسبان واحتذاء شعب العاصمة مدريد في انتفاضته ضد الحكم الفرنسي يوم 2 مايو ﴿ أيار ﴾ 1808 ، تحركت معظم المناطق الأسبانية وقاومت للتخلص من الدخيل الفرنسي فكانت حرب الاستقلال التي انتهت سنة 1814 .

وبينما كانت المعارك جارية بين الوطنيين والمحتلين ، اجتمع أعضاء البرلمان ﴿ لاس كورتس ﴾ في مدينة قادش حيث برز تياران ينادي أحدهما بالسيادة للملك والبرلمان وهو التيار الإصلاحي وثانيهما الليبيرالي الذي تأثر كثيرا بمبادىء الثورة الفرنسية فنادى بسيادة الشعب وإعلان دستور . وكان الانتصار للشق الثاني وتجسم

هـذا الانتصـار في دستور سنـة 1812 . إلا ان هـذا الحدث لم يكن ليعني الا القلـة المثقفة . أما غالبية الشعب الأمي الـذي لم يكن يبغي سوى طرد المحتل الفرنسي فقد رحّب بعودة فرناندو السابع الذي كان يرى فيه تجسيم الخير والعدالة . فاعتمد الملك على حماسة الشعب فاستطاع الغاء شـرعية البرلمان والمســك بزمام السلطة المطلقة . إلا ان هذا سوف لا يعنـي الاستقرار في البلاد التي سوف تعـرف سلسلة غير منقطعة من الصراعات البـلاطية والانتفاضات العسكـرية والشعبية والمحاولات الـدستورية والحروب الأهليـة والمشاكل والنـزاعات العـائليـة الملكية وأزمـات الوصـاية والخلافـة والحروب التحريـرية من طرف المستعمـرات الأميريكية وما إلى كل هـذا من انهيارات اقتصادية ومالية وما يترتب عنها من مشاكل اجتماعية .

إن تأثير التغيير الحاصل في فرنسـا على مستقبل أسبانيا قد أخـذ شكل ضياع تلك السيادة التـاريخية التي تمتعت بها من قبل . تبدأ الأمـور بمؤامرات وانقـلابات داخل البلاط . وزيـر يسقط وآخر يعلو ليسقط بـدوره تاركا المكـان ليعود اليه سلفـه الذي سقط . ثم ينعكس جو البـلاط على الطبقة السياسيـة " القيادية " فيكثر خصـامها ويشتـد تناحـرها حتى يصل الأمـر إلى الجيش أو الشارع فيكـون الانقلاب أو الثـورة الشعبية منظمة كانت أو غير منظمة . وقد تحدث الأستاذ المؤرخ ريكاردو دي لاثيارفا عن هذه الأوضــــاع فقـال " لما غرق تاريخ أسبانيـا العظيم على إثر هزيمـة الطرف الأغر ، كان قرن جديد يقترب وهـو القرن التاسع عشر وكان صبحه غير وضّاح حتى انه بإمكاننا تلخيص هذا القرن في كلمتين لتعريف مراحله الأكثر تعبيرا وتعريفه كلية للأسـف. وهاتان الكلمتـان هما " التغيير والفوضـى . . . انه قرن يبتـدىء وينتهي بكارثة . يبتدىء بهزيمة الطـرف الأغر ويختتم بسان تياغو كافيتي وكلتـاهما كارثـــة بحرية " (1) .

تتغير سرعة التاريخ الأسباني خلال القرن التاسـع عشر وتتمركز السياسة الداخلية في سطحيتها وتنعدم السيـاسة الخارجيـة بينما الفوضى تستمـر,وتنمو حتى ان المؤرخ خـوسي لويس كـومايـاس لخص ما حـدث خلال القـرنين في " 130 حكومـة و 9 دساتير و 3 ملـوك تخلع عن عروشها وخمسـة حروب أهليـــة وعشرات الانظمـــة المؤقتــة وعــــدد لا يحصى من الثـــورات يمكن تحديدهـــــا مؤقتـا في ألفي ثـورة " (2) .

ميلاد الأسبانيتين

لقد أشرنا سلفا إلى الازدواجية الأسبانية التي بدأت كنتيجة للسياسة الاقتصادية والإصلاحات التي بدأها فيلبي الخامس واستمر في تطبيقها من بعده فليبي السادس وكارلوس الثالث والتي قسمت البلاد إلى شقين متقابلين يتخذان في كل ظرف شكلا وفي كل تغيير لونا ولكنهما شقان متقابلان سميا " الاسبانيتان " أي أسبانيا ضد أسبانيا الأخرى وهي صورة وأوضاع مؤلمة فاجعة لم تنمح الا مؤخرا بعد بزوغ شمس الديمقراطية الحديثة . ويرى الأستاذ الكبير ريكاردو دي لاثيارفا ان " ميلاد هاتين الاسبانيتين قد جاء على أثر الثورة الفرنسية التي تأثر المجتمع الأسباني بمبادئها تأثيرا كبيرا واستحسن طرقها المعيشية فأحدث كل هذا تغييرا في المجتمع الأسباني فتبدل وجهه من النظام القديم إلى آخر ، لانجرؤ على تسميته جديدا لانه ولد متعبا ، ولكنه من الناحية الزمنية على الأقل هو نظام جديد . كان النظام القديم يحمل في نفسه ضمانا عقائديا كاملا ويعرف نفسه بقائمة من التعريفات كان مجرد الشك فى احداهما يعد كفرا فالكنيسة هي الدولة والنظام هو التاج والبرنامج الاجتماعي هو الجمود السياسي وبين النظامين القديم والجديد معبر أو ممر هو الثورة . ثورة هي قبل كل شيء تدرج ملموس وهو الأسلوب الفرنسي . . ولكنها أيضا تحول وتغيير غير مرتب ولا مكتمل . . . تغيير لم ينته طوال القرن التاسع عشر ﴿ ولعله لم ينته خلال جانب كبير من القرن العشرين ﴾ ولهذا فهو يحاول تحرير طاقته غير الراضية عبر شقوق وتصدعات التاريخ في شكل خيبات أمل ومأس وحروب أهلية " (3) .

أما الأستاذ كومبياس فهو يقول بخصوص هذا الازدواج أو هذا الانشقاق " ان تاريخ هذه المرحلة العابرة الضخمة هي ان ملايين الأسبان يغيرون " أرواحهم " على هامش مشاغل حكومات وانظمة الفترة المعينة . فتفكك الضمير الوطني يبرز ويتجسم سريعا في ما سمي الاسبانيتان " (5) .

وهكذا وجدت أسبانيا نفسها على عتبة القرن العشرين وهي مثقلة متعبة تقلصت امبراطوريتها وضعف حالها وأمامها التاريخ يجري والعالم حولها يتقدم ولابد لها من مسايرة الركب إن أرادت العيش والبقاء .

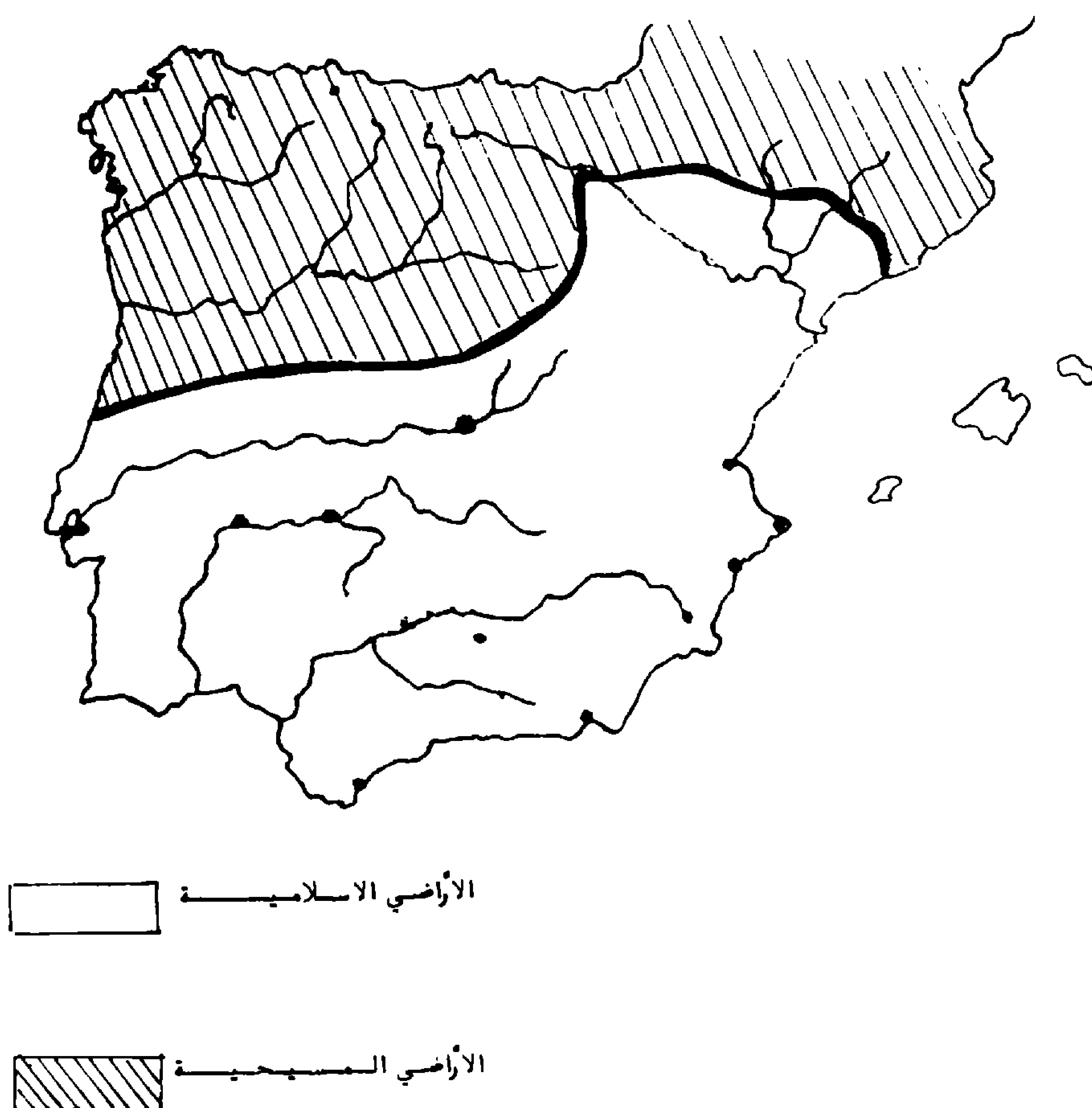
عــودة الملكيــة

إن مبايعـة ابن ايزابيـل الثانية ألفـونصو الثـاني عشر كملك دستوري يفتـح عهدا جديدا في التـاريخ الأسباني . فخلال هذه الفترة احتكـرت أقلية بورجوازيـة اقطاعية السلطـة السياسيـة ولـو انها حافظت على مظهـر ديمقـراطي لحكمها وذلك بتنـاوب الحزبين السيـاسيين الكبيرين على الحكم ﴿ الحزبـان الليبيرالي والمحـافظ ﴾ وإجـراء انتخابات عامة إلى غير ذلك .

وقد أمكن الابقاء على هذه الأوضاع والتصرفات دون تعب ولا شغب إلى ان جاءت سنة 1898 عندما خسرت البلاد بقايا مستعمراتها ﴿ كوبا وبويرتو ريكو والفيلبين ﴾ الشيء الـذى أيقظ ضمير الكثيرين من المواطنين الأسبـان فجعلـوا يطـالبـون بجعل أسبانيا " متنـاسبة مع الواقع " . وازداد الـوضع خطورة فـي عـام 1902 متصادفا ذلك مع جلـوس الملك ألفونصـو الثالث عشر على العـرش . فبينما كانت الأحـزاب التقليدية تتأكل في نزاعات داخلية كانت المجمـوعات السياسية غير المرتبطة بالملكية الحاكمـة ، كالجمهـوريين والجهويين ، تقـوى صفوفهـا بالطبقـات المتوسطـة ، وإن كانت قليلة ، بينما حبذ الاشتراكيون والفوضويون الطبقة الشغيلة . وعجز النظام عن استيعاب القـوات الجديدة وإرضاء المطـالب بينما فشلت كل المحاولات الإصـلاحية أمـام انانيـة أقليـة تخاف ضيـاع امتيازاتها وميل جـانب كبير من الجماهير العماليـة إلى الأعمال والحركـات الثوريـة . وأكبر بـرهان على هـذا تلك الموجـات من العنف التي انفجرت في شهـر يوليو ﴿ تموز ﴾ عام 1923 فقـام الفريق بريمو دي ريفـارا بفرض حلـه لمشكل عدم الاستقـرار السائد عن طـريق انقلاب عسكـرى أخر ودكتـاتوريـة أعادت الأمن والنظام وانهت حرب الـريف المغربي المستمرة منـذ عـــام 1908 وأقدمت على برنامج طموح من الأشغال العمومية ولكنها غفلت عن معالجة المشاكل الأسـاسية وهي الإصـلاح الجبائي وإعـادة توزيع الممتلكـات الزراعيـة إلى غير ذلك فيبقى النظام أو بقيت الـديكتاتوريـة واهية قضت عليها الأزمـة الاقتصادية العـالمية لعـــام 1929 . ففـي شهـــر ينايـــر ﴿ كانون ثـان ﴾ 1930 اضطر بريمـــو دي ريفارا إلى الاستقالة وبعد ذلك بخمسة عشر شـــهرا أي يـــوم 14 مـــن ابريل ﴿ نيسان ﴾ 1931 لم يجد الملك ألفـونصـــو الثالث عشر بدا من ترك العـــرش

﴿ دون التنازل عن حقه فيه ﴾ على اثر النتائج التي أفرزتها الانتخابات البلدية التي أجريت إذاك .

خريطة تبين حدود امارة قرطبة الاسلامية في القرن التاسع الميلادي



القرن العشـــرون

دخلت أسبانيا القرن العشرين بـالرجل اليسرى ، كما يقول التعبير الشعبي الدارج في أسبانيا نفسهـا . كانت ، كما رأينا ، كل المعطيات والعـوامل السلبية التي تسببت لها في الهيجان وعـدم الاستقرار وكثـرة المشاكل والمجابهات السيـاسية والاجتماعيـة قد ازدادت حدة وأكثرت الحاحا بوجوب إعطاء البـلاد كساء ملائما لحجمها ونشاطها ، كساء غير ذلك الذي ترتديه إذ هـو قد بلي وتهرأ ولم يعد يتماشى ومتطلبات الظرف ولا يتناسب وحاجيـات الجماهير . ومـــن هنـا جاءت تـــلك الحركة أو تـــلك الفلسفـــة الاصـــلاحية المعروفة باســم " التجديدية " أو الإحيائية والتي ليست بـوجهيها الاجتماعي السيـاسي والعقـائدي ، سوى مـوقف ناقـد وقفتـه مجموعـة من الشبـاب المثقف انطـلاقا مـن أرضيات اشتراكيـة أو فـوضـويـة فقوّت من النـاحيـة العقائدية ، وضع الحركة العمالية تجاه النكبة أو تجاه التجديدية (6) .

كانت رغبة التجديد ملحة لان الأوضاع الجديـدة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا قد غيرت النسيج العـام والتركيبـات الهيكليـة للمجتمع الأسبـاني وهـو مـا زاد في حـدة المشاكل التي كانت تواجهها البلاد منذ القرن السابق . فمن امبراطورية ذات مصادر ثـروة متعددة وأسـواق استيعابيـة كبيرة تقلصت وأصبحت بلـدا يفوق عـدد سكانـه الثمانية عشر مليـونا بقليل يجابه الفقـر بعد الغنى والجوع بعد الشبع والتخمـة ويعاني الظلم الاجتماعي والأوبئة ويتخبط في الأمية وتتوالى على تسيير شؤونه حكومات لم تهتد إلى المرض الحقيقي ومن ثم لم تقدم الدواء المطلـوب . فعم القلق ، وانتشر التشويش وازداد التململ وانبعثت مشـاعر التفـرقة والانفصـالية من نـومها فبرزت واضحـة في قاطـالونيـا وظهرت متحديـة في بلاد الباسك ورفعت رأسهـا ولو في حيطـة وحذر في جليقية وبلنسية وحتى قشتالـة قد تعرضت إلى تيار التفرقة فشـاعت فيها فكرة الحكم المحلي . وكما لـو كان كل هـذا غير كـاف فقد عم الشعب الشعـور بـالخيبة ومـركب الهزيمة ، نتيجـة ضياع كوبـا والفيلبين وبويرتـو ريكو فأصبح يبحث عن التجـديد والخروج مما هو فيه .

ولم يكن الجيش في معـزل عن كل هذه الأزمـات بل هـو أول من أحسها إذ أدمتـه الهزيمة العسكـرية التي أضـاعت آخر المستعمـرات وضربته في الصميم وجلبـت له

انتقاد وعداء الكثيرين خاصة منهم الليبيراليين الذين ناصبوه العداء حتى قبل الهزيمة أي قبل عام 1898 .

تقول الاحصائيات ان أسبانيا استقبلت سنة 1900 بعدد سكان يبلغ 18594000 ساكن يموت منهم ، حسب فيثانس فيفاس ثلاثون شخصا لكل ألف مقابل 18 لكل ألف أوربي وهكذا تكون نسبة الوفيات الأسبانية تقارب ضعف النسبة الأوربية . كما استقبلت نفس السنة ، مستهل القرن العشرين ، باستمرار وتزايد نزوح الريف إلى المدن وازدياد نسبي لعدد السكان وبلغ هذا التزايد أقصاه في جزر كاناریاس والاندلس . ويقول الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا في هذا الخصوص " يبدو ان الحكام الأسبان لم ينتبهوا أبدا إلى الاتصال الأكيد والتاريخي بين هذا التزايد والصراع الاجتماعي عندما لا توجد محليا إمكانات استيعاب اليد العاملة وانه إذا وجدت مشكلة اجتماعية جديدة تتلخص في الاستئصال الجماعي وتتحول شيئا فشيئا وفي مدى متوسط إلى مشاكل سياسية . إن الشعب الأسبانى المتأثر إلى أعمق جذوره بالهزيمة كان يواجه قرنا جديدا وكان جائعا . إن الجوع ومناطقه الحدودية - الاقتصاد العائلي والشخصي لسد الرمق - لايحدد نظرية مفتعلة لطبقات اجتماعية صالحة للدعاية التاريخية بل يعني التقسيم الثنائي الهائل إلى طبقتين حقيقيتين كبيرتين ، الأغنياء والفقراء ، تفصلهما طبقات متوسطة باهتة مكونة من الموظفين وأصحاب الحرف العمال ذوي التخصص وهي طبقات تعيش داخل الإعجاب الصامت تجاه الطبقة العليا والخوف من الانزلاق إلى الطبقة السفلى ، طبقة البروليتاريا . إن هذا التقسيم الحقيقي كان أرضا خصبة لزراعة نوع أخر من الدعاية هي دعاية التهديم والكراهية التي رفع لواءها الفوضويون انطلاقا من ارهابهم ونقابتهم الثورية الحديثة العهد . ولكن يشارك الفوضويين عن شبه دراية بقية المجموعات المنظمة الأخرى التابعة للثورة البروليتارية الأسبانية في الريف والمدن . . إن الشعب الأسباني الجائع كان ، طبعا ، أميا . فالإحصاء الرسمى لسنة 1900 يعطي نسبة 60٪ بينما نسبة الأمية الحقيقية قد بلغت بدون شك 80٪ . . . فوضع عصيب حرج كهذا عند عتبة القرن العشرين لا يمكن انقاذه إلا بإصلاح كامل . ولكن المؤسسات التي عليها تحقيق هذا الإصلاح لم تكن في وضع يمكنها من القيام به " (7) .

فـالجيش كما رأينـا كان متـالما منتقـدا فانطـوى على نفسـه ومشـاكله . والكنيسـة المستهدفة لعنيف الهجـومات من المعادين لها كانت منشغلة إذاك بالـدفاع عن نفسها سياسيـا أكثر من انشغالها بما يعـانيه الشعب . فلم يبق اذن من المؤسسات الـرئيسية الثلاث إلا تلك التي خرجت سليمة من آثـار الهزيمة وهي العرش . العرش الأسباني الـذي لم يكن هناك من ينـاقش بقاءه أو شرعيتـه بغض الطـرف عن الملك الذى قـد يجلس عليه وهو ما لايمكن قوله بالنسبة لغير العرش من المؤسسات .

رأينا حال الجيش والكنيسة ولم تكن حال البرلمان ﴿ لاس كورتيس ﴾ بأحسن منهما . لقد فقـد البرلمان الأمل ودوافعه ونخـرت جذوره مـن الأصل نتيجة كيفيـة انتخاب أعضائه الاستبـدادية فكـان يجابه المستقبل المجهول محرومـا من الثقة فيـه ومن صدق تمثيله . ومن ثم ، وبغياب أو شلل الهياكل الدستـورية كان لابد لنظام الأقليات من احتـلال مكـان تلك المؤسسـات والقيـام بـدورهـا حسب متطلبـات مصـالح تلك الأقليـات طبعـا ودون الاهتمام بمصـالح وحـاجيـات الأغلبيـة أو حتى ضـد تلك الحاجيات وتلك المصالح . كـانت هناك مجموعتان يمكن اعتبـارهما صاحبتي النفوذ أو مـالكتي وسـائل الضغط على صـانعي القـرار وهما المجمـوعـة الماليـة المتمثلـة في الاقطاعيين الزراعيين وأصحاب المصـارف وكبار أرباب الصناعة بالاضـافة إلى طبقة النبلاء بالعاصمة التي يمكن ضمها إلى هذه المجموعة نظرا لمواقفها إزاءها ومؤازرتها في بعض الأحيـان . أمـا المجمـوعـة الثانيـة فهي تلك المكـونـة من كبـار الأخصـائيين كـالمهنـدسين والمحامين ومحرري العقـود الـذين جمعت كل فـرع منهم هيأة أو جمعيـة يتحركون من خلالها فى الوجهة التي يرتأونها .

الأحزاب السياسية

كيف كانت تتحرك هذه القوى وما هي القنوات التي كانت تتسرب عبرها للتأثير على صانعي القرار ؟ هذا ما يصعب حصره أو تحديده خاصة إذا نظرنا إلى الأمور بمنظارنا العصري . فالتكتلات والأحزاب كانت تؤسس وتحل بسهولة وكثرة يجعل من عسير العسير حصرها وتحديد ميولاتها في أوقات وظروف محددة . ولكن قد لا يكون من الخطإ التأكيد بانه بالنسبة للفترة التاريخية التي حصرنا فيها اهتمامنا ، ونعني القرنين الماضيين ، كان هناك حزبان أساسيان هما الحزب المحافظ والحزب الليبرالي .

الحزب المحافظ : كان الحزب المحافظ حزبا ضخما قويا ، يتحرك من مركز الحكم ولكن كان يفتقد إلى التنظيم وحتى إلى مكتب تنفيذي مكتفيا بالقيمة التاريخية والسياسية التي يتمتع بها الكثيرون من رجاله الموجودين في الحكم أو قريبا منه والذين كانت تربط بينهم منهجية أساسها " منشور النبلاء " الصادر يوم 9 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1876 ، وكذلك نظرتهم إلى الغايات الكبرى وتأييدهم مكاسب الفكر المعاصر . كانوا يعيرون النظام والأمن العام أهمية قصوى ويقيمونه على أسس قوية واضعين في مأمن من الطوارىء الخطرة المبادىء الأساسية للملكية الأسبانية آنذاك . ولذا يمكن حصر سياسة الحزب المحافظ وفلسفة رجاله في مفاهيم أساسية ثلاثة هي - العقلية العصرية والأمن العام والملكية التي لم تكن في نظرهم سوى علامة على الاستمرارية التاريخية وضمان للأمن الاجتماعي وكل ذلك من خلال الانفتاح على العقلية المعاصرة السائدة بأوربا آنذاك .

الحزب الليبيرالي :

أما الحزب الثاني، الليبيرالي، فمن الصعب تحديد مأتاه ومنشأه اذ قد تمثل التيار الليبيرالي الرأسمالي في تكتلات وتجمعات عدة، اتحدت حينا وافترقت أحيانا ليعود البعض منها الى التوحد مرة أخرى . وهكذا إلى أن جاءت سنة 1880 فاتحدت عدة مجموعات ليبيرالية واندمجت فكان ميلاد الحزب الليبيرالي الذي تم خلال شهر مايو من تلك السنة .

وجاءت فترة صدرت فيها قوانين ضد الحريات فعرقلت الطباعة ولجمت الصحافة ومنع نشاط وتأسيس الجمعيات فانحصر النشاط الشرعي طيلة سريان مفعول تلك القوانين (من 1879 إلى 1881) في الأحزاب الملكية أو ما اعتبر كذلك من الحركات المسموح لها بالعمل .

ثم تغير الجو السياسي شيئا فشيئا فأبطلت تلك القوانين واحدا واحدا مابين شهري فبراير ﴿ شباط ﴾ ومارس ﴿ آذار ﴾ من سنة 1881 فأعيدت الحريات للصحافة ثم للمحاكم وللتدريس والطباعة وأخيرا وفي شهر يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1887 تحرر تأسيس الجمعيات فكان ذلك بمثابة البوابة الكبرى التي فتحت أمام الحركات العمالية وتحولها إلى أحزاب منظمة .

الحركة العمالية :

لقد مرت الحركة العمالية الأسبانية بين شهر يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1874 وشهر فبراير ﴿ شباط ﴾ 1881 بمرحلة من النشاط السري نظرا لانعدام الحريات وتعرضها للمضايقات والتتبعات ولم تبق نشيطة شرعيا سوى " جامعة الطبقات التجارية الثلاث " ببرشلونا و " جمعية فن الطباعة " بمدريد وهما جمعيتان نشاطهما أقرب إلى النشاط النقابي الاجتماعي منه إلى النشاط السياسي . ولكن لما عادت الحريات وأصبح التحرك مشروعا ، كبرت أهمية هاتين الجمعيتين وأخذ نشاطهما ، وخاصة نشاط جمعية الطباعة بمدريد ، لونا آخر وصبغة سياسية أكثر وضوحا ، خاصة بعد أن انضمّ اليها " الاتحاد الجهوي الأسباني " الفوضوي المنهج والذي تأثر كثيرا في نظامه وهياكله من جراء العمل السري والتحرك الدفين .

الحركة الفوضوية :

وجاءت سنة 1888 لتعرف تحولا كبيرا في مسيرة الحركة العمالية بأسبانيا . فالجمعيات أو المجموعات أو التنظيمات الفوضوية تعددت ونشطت كثيرا . ثم إن الفوضى نفسها ، كمبدأ سياسي أو كطريقة للعمل والمطالبة ، قد شاعت بين الطبقات العاملة الأسبانية وأحيت في مسؤوليها ميلا إلى التنظيم القديم فضموا

الشمل في ما عرف باسم " جامعة عمال المنطقة الأسبانية " . إلا أن هذا لم يعن الوحدة الشاملة إذ أن الفوضوية بقيت عرضة لاتجاهين تمثل أحدهما في مؤتمر برشلونا الذي صدرت عنه " معاهدة الوحدة والتضامن " والذي تغيب عن المشاركة فيه ممثلو منطقة الأندلس الذين كانوا يميلون إلى اتجاه ثان . وفي شهر نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ من نفس السنة انعقد مؤتمر بمدينة بلنسية تقرر أثناءه حل " الاتحاد الجهوي الأسباني " وتأسيس المنظمة الفوضوية لمنطقة أسبانيا . لقد لعبت الفوضوية في أسبانيا ، وخاصة في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، دورا بل أدوارا أثرت عظيم الأثر في الأحداث التي عرفتها وعاشتها البلاد وانبثقت عن تلك الفوضوية حركات وأحزاب أو هي نفسها قد تحولت إلى أحزاب كان لها وزنها في ماعرفته أسبانيا في أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي . ولذا فقد يكون من المفيد أو حتى الضروري معرفة فلسفة هذه الحركة أو مفاهيمها ومنطقها وطرق عملها ، معرفة أحسن للتمكن من فهم تصرفات ومرامي معتنقها . ولم نجد ، لاعطاء هذا التعريف ، أحسن وأوضح مما كتبه عنها الأستاذ خوزي ألفارث خونكو في كتابه " الأيديولوجيا السياسية للفوضوية الأسبانية " التي يرى فيها الكاتب " أربعة مستويات أولها وجود أسس فلسفية وأنتروبلوجية تحتل فيها مكانا مركزيا فكرة الحرية والاعتقاد في طيبة الإنسان الطبيعية والإيمان بالعقل وبالعلم وبالتقدم واقرار أخلاق طبيعية ومنطقية ﴿ عقلية ﴾ تعنى بالتضامن ومعبر عنها تكراريا بنمط وطريقة حنبلية مدققة . ثانيها نقد للمجتمع الموجود المقام على نظام اقتصادي رأسمالي وعلى فلسفة أخلاقية سلبية تحبذ الامتيازات ، بما فيها امتيازات الكنيسة الكاثوليكية ، وعلى الوطنية والنزوات الحربية التي تضع حدودا أمام التضامن وتؤدي إلى الحرب . أما المستوى الثالث فهو مثال المجتمع المستقبلي ويرمي إلى تنظيم غير استبدادي للمجتمع ، تنظيم أساسه الاتفاق كما يرمي إلى الشيّعة في الملكية وهذا طبقا لصيغ منها " لكل حسب عمله أو لكل حسب حاجياته " ، صيغ كانت موضوع نقاش وشقاق . وأخيرا المستوى الرابع ويتمثل في التلقائية أو العفوية ورفض المشاركة في السلطة ورفض الأحلاف والتسييس الباطني وكلها مواقف تقام عليها مناهج وأساليب تتأرجح تباعا من فكرة المقاومة الثورية المغذاة بالعمل السري إلى الثقة في الدعاية وقوة انتشار المبادىء ومنها إلى الدعاية بالأعمال أي عن طريق الحركة الارهابية "

وقـد سيطـرت هـذه الآراء أو هـذه المواقف المعقـدة على جـانب كبير من الجماهير الشعبية « البروليتـاريا » الأسبـانية وخـاصة منهـا القطاع العمالي القطـلاني والقطاع الفلاحي الأندلسي .

وكي تكـون صـورة الأحزاب والتكتـلات السيـاسيـة مكتملة لابـد من ذكـر تلك المجموعـات أو الفرق التي كـانت مناهجهـا مقامة على مماشاة واحترام دستـور سنة 1869 والتي انضوت إلى الحزب الدستوري ثم إلى وريثه وخليفته الحزب الاندماجـي وأخيرا إلى الحزب الليبيرالي الـــذي تأسس رسميا فـــي شهر يونيو « حزيران » سنة 1885 .

وهكذا يلاحظ من كل هذه التكتلات والتجمعات أن المناخ السياسي والاجتماعي كـان إطـارا فسيحا ومجالا خصبـا لبروز وتعـدد ثم مـوت فبعث الكثير من الحركـات والتكتلات لم تتضـح معالمهـا ومناهجهـا وبرامجهـا وغايـاتها كلية إلا في أواخـر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث تأسست أحزاب منظمة هيكليا وعقائديا ، أحزاب رسخـت قدمها على المسرح السيـاسي الأسباني ومن ثم عمـرت وبقيت حتى السـاعـة الراهنة رغم مرورهـا بفترات احتضار ومراحل اضطهاد واستبـداد ولجوئها إلى السرية والاغتراب .

الحزب الاشتراكي :

يجب الإيضاح أولا أننـا إذا تحدثنا هنـا عن الحزب الاشتراكي أو عن الاشتراكية في أسبـانيـا إنما نعني الاشتراكيـة ذات الطـابـع الماركسي لأنـه كـانت هنـاك وقبل الفترة التاريخية التي نتحدث عنها ، عدة حركـات واتجاهات اشتراكية ، عرفت بالاشتراكية المثالية أو الحركات الاشتراكية الاجتماعية وهذه لها تاريخها الذي يمتد إلى ماوراء القرنين المعنيين . ولـذا فقد لا يكـون من الخطإ اعتبـار الحركة الاشتراكيـة العماليـة الأسبانيـة منبثقـة عن الفيدراليـة المدريديـة الجديدة وعـن جمعية فن الطبـاعة التي استطـاعت إطاراتها ، كما أسلفنا ، أن تحافظ على استمرارية نشـاطها شرعيا أيام انعدام الحريات والاضطرار إلى العمل السري وأن تقوم بعض تلك الإطارات بربط الصلة بقادة الفكر الاشتراكي في أوربا آنذاك أمثال " لافارغ " و " ماركس " و " أنغلس " .

من بين هؤلاء القادة بابلواغليسياس الذي أسس وهو رئيس لجمعية فن الطباعة ، وبمعية خمسة وعشرين من زملائه وأصحابه الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني وكان ذلك بمدريد يوم 2 مايو ﴿ آيار ﴾ 1879 . كان هدف المؤسسين " بعث حزب يدعى اشتراكيا عماليا تكون سياسته منفصلة كليا عن تلك التي تتبعها الأحزاب البورجوازية كلها ، من أكثرها تقدما إلى أكثرها محافظة ، لأن المؤسسين كانوا يعتقدون أن أيا من تلك الأحزاب لم يكن يمثل مصالح البروليتاريا .

وانبثقت عن اجتماع التأسيس لجنة مكوّنة من خمسة أشخاص برئاسة بابلو اغليسياس نفسه ، كلفت بوضع برنامج هذا الحزب الوليد الذي سيلعب دورا كبيرا هاما في حياة أسبانيا المعاصرة . وقدمت اللجنة برنامجها الذي تمت الموافقة عليه يوم 20 يوليو ﴿ تموز ﴾ من نفس السنة وكان يهدف إلى ثلاث غايات أساسية وهي " ازالة الطبقات أي تحرير العمال تحريرا كاملا وتحويل الملكية الخاصة إلى ملكية اجتماعية أو ملكية المجتمع بأكمله والاستيلاء على السلطة من طرف الطبقة الشغيلة " وبالاضافة إلى هذه الأهداف الأساسية قدمت اللجنة برنامجا اعتبر الحد الأدنى لمطالب الطبقة العمالية إذ تلخصت فيه مطالب البروليتاريا المستعجلة وهو برنامج يمكن أن نعتبره أوضح وأشجع تصريح ونداء بحقوق الانسان ، حقوق تفوق الحريات التي وضعتها وضمنتها القوانين الليبيرالية . جاء في ذلك البرنامج مطلب واضعيه بخصوص " الحريات السياسية – حق الإضراب وتخفيض ساعات العمل ومنع تشغيل الأطفال دون التسع سنوات من العمر ومنع النساء من أي نشاط يفتقد إلى الوسائل الصحية أو المتعارض والأخلاق وسن قوانين تحمي حياة وصحة العمال وتكوين لجان مراقبة منتخبة من طرف العمال أنفسهم تقوم بزيارة مساكن العمال والمناجم والمصانع والورش والاطلاع على ملاءمتها صحيا واجتماعيا وأخيرا حماية صناديق الاسعاف والمنح للعجز من جراء حوادث الشغل " .

وتتبع هذه المطالب مجموعة أخرى تشمل التعليم الذي يبغيه البرنامج مجانيا في المرحلة الابتدائية وأن يكون علمانيا إلى غير ذلك من المطالبات التي من بينها مطالب اشتراكية بحتة كتلك التي تطالب الدولة " باقتناء جميع وسائل النقل والمرور وكذلك

المناجم وغابات الاشجار وغيرها ومنح خدمة هذه الممتلكات إلى كل الجمعيات العمالية المكونة أو التي تكوّن لهذا الغرض " .

لم يتخذ هذا الحزب صورته النهائية ولم تتضح معالم الاشتراكية الأسبانية إلا بعد فترة العمل السري أي في الثمانينات ﴿ من القرن الماضي طبعا ﴾ عندما الغيت قوانين المنع والحجر وأعيدت للجميع حرية الاجتماع والصحافة والطباعة . إذاك اتخذ الحزب الاشتراكي صورته ونظامه النهائيين إذ ركز مسؤولوه الجهود على أسس ثلاثة هي تنظيم الحزب وغرس جذوره في اطار الطبقة الشغيلة وتحديد ايديولوجية وأسلوب نشرها وتطبيقها على الصعيدين السياسي والعمالي .

أما من حيث التنظيم فقد قام الحزب على هياكل فيديرالية أي خلايا ومجموعات في كل منطقة يجتمع ممثلوها في مجلس أو مؤتمر وطني شامل ﴿ فيديرالي ﴾ وفي القمة مكتب تنفيذ وطني يدير ويسير دفة الحزب وسياسته التي كانت في عهدها الأول مستوحاة أو قل هي تقليد لما يقوم به الرفاق الفرنسيون في البلد المجاور خاصة منهم جول غيسد العظيم التأثير على بابلواغليسياس كما هو معروف ولو أن أسبانيا ، كما سبق أن قلنا ، كانت في كل هذه المرحلة التاريخية متأثرة جدا بما هو فرنسي وكل ما يحدث في أوربا وتريد أسبانيا اعتناقه ، تأخذه عن طريق فرنسا ومصبوغا باللون الفرنسي وهذا طبيعي أو يكاد يكون كذلك إذا أخذنابعين الاعتبار الجوار واللغة والقرابة الثقافية .

ولم يهمل مسؤولو الحزب الاشتراكى آنذاك وسائل الإعلام وأهميتها بالنسبة لنشر عقيدتهم ومبادئهم فأسسوا سنة 1886 جريدة اسبوعية أسموها " الاشتراكي " تصدر في مدريد فكانت إذن لسان حال الحزب بأسره ومكتبه التنفيذي بينما ظهرت نشرات أخرى داخل المناطق مثل صحيفة " المقاومة الطبقية " بمدينة بلباو و " الفجر الاشتراكي " في كل من خيخون وأوفيادو. أما الفلسفة والمبادىء والنظم الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تظهر وتبرز في كتابات ونصوص الاشتراكيين آنئذ فكانت ماركسية بحتة تمثلت في تصادم أو تقابل البورجوازية والبروليتاريا وفي الاعتقاد بأن الثورة كانت مرتبطة في الزيادة في حدة النزاع بين الطبقات والاعتقاد أيضا بأن

البـــورجـــوازيــة لاتستطيع المحـــافظـــة على هيمنتهـــا أمـــام الاضرابـــات وانتشـــار الأزمات " (9) .

كان الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني عند نشأته ماركسي النزعة وكان حزبا طبقيا ومن هنا ستواجهه في أول عهده مشاكل كبيرة مهمة ناشئة عن تحاليل مسؤوليه للواقع الاجتماعي وعن التكتيـك التي أرتأوا اتبـاعهـا تجاه مختلـف الأحـزاب الأخـرى " البورجوازيـة " في نظرهم خاصة منهـا الأحزاب الجمهورية وعن مـوقفهم تجاه الطبقة المثقفة والطبقـات المتوسطة وتجاه أهل الـريف وعماله . في هذا الخصـوص يكاد يتفق كل المؤرخين على أن الحزب الاشتراكى قد أهمل آنذاك التحاليل المطلـوبة حول الواقع الاجتماعي الأسباني ونتيجـة لذلك قـد أهمل أو كاد المشكل العمالي الفـلاحي وكذلك دور الطبقات المتوسطة . على قلتها ، في المرحلة الانتقالية نحو مجتمع جديد . ومهما يكن من أمر ، فان هـذا الحزب ، الذى انضمت إلى صفوفه منذ البـداية شخصيات ورجال من خيرة المثقفين عملت من داخلـه أو ساهمت في صحفه ونشراته مثـــل " أونامونـو " وغيره ، فإن هذا الحزب رغم اخطائه وتعثراتـه قد لعب دورا كبيرا في حياة أسبانيا وها هو لا يزال يلعبه إذ هو بعد خمسين سنـة تقريبا من الركود الكامل والغربة والعمل السري قـد استطـاع الوصـول إلى السلطـة وهـا هم رجـاله يحكمـون للـدورة التشـــريعية الثـانية (الأولى1982 - 1986 والثانيـــــة 1986 - 1990) في مصير أسبانيا بأغلبية مطلقة في مجلسي الشيوخ والنواب .

الحزب الشيوعي :

لم يظهر الحزب الشيوعي الأسباني إلى الوجود بشكله وتنظيمه المعاصر الا في أواخر الربع الأول من قرننا هذا ، القرن العشرين ، فكان من الطبيعي ، واحتراما للتسلسل التـاريخي للأحـداث إرجاء الحديث عنـه لحينه ، لكننـا فضلنا إدراجـه هنا مع بقيـة الأحزاب حتى تكـون الصورة المعاصرة لأسبانيا مـن هذه الناحية واضحـة جلية لدى القارىء البعيد علما عن التاريخ والـواقع الأسبانيين . والحديث عن الحزب الشيوعى يجر حتما للحديث عن كل الحركـات والتيارات الشيـوعية والعمالية بصفة عـامة التي سبقت ميلاد هذا الحزب . غير أن ذلك يطول حتما ويخرجنـا من مجالنا المحدود ولكن يمكننا القول بأن " السراب السوفياتي كـان يستقطب بقوة كبيرة كل الحركات الثورية

الأسبانية مهما كان لونها وميولاتها ولو أن كثيرا منها صحت عن الحقيقة المرة أمام خيبة الأمل في ما كانت تعتقده " .

ففي سنة 1920 قـرر الاشتراكيون والنقابات القـريبة منهم " المشاركة في العـالمية الثـالثـة ، أي الملتقى الشيوعـي العالمي الثـالث ، بشرط أن يبت في ذلك نهائيـا بعـد الاطلاع على تقرير الأستاذ فرناندو دى لوس ريوس على إثر مقابلته مع لينين . سافر الأستـاذ دي لوس ريـوس إلى مـوسكو وأمـام معارضتـه للصعـوبات التي تضعهـا الماركسية اللينينيـة في طريق النمو الـديمقراطي للحـرية أجابـه " فلاديميرايليتش " بسؤال قائلا : " الحرية ؟ ولأية غاية ؟ " (10) .

وما أن عرف الاشتراكيون والنقابيون التابعون لهم ذلك حتى سارعوا بقطع انتسابهم المتحمس للشيوعية العـالمية وهو ما أحدث في هاتين الحركتين الأسبـانيتين انشقاقات وانفصالات أدت إلى نشـوء الحزب الشيوعي الأسباني . فـرفض النقابـات الاشتراكية الانتماء إلى الشيـوعيـة العـالميـة نشأ عنـه تأسيس حـزب شيـوعي جهـوي تحت اسم الفيديرالية القطلانية الباليارية التي بعد طردها من الشيوعية الأرتودكسية إلى " الحزب التروتسكي الأسباني " واسمه الرسمي هو الكتلة العمالية الفلاحية التي تحولت بدورها وبعد اتحادهـا مع اليسار الشيـوعي إلى الحزب المكوّن سنـة 1936 والمسمى " الحزب العمالي للوحدة الماركسية " . أما رفض الحزب الاشتراكي المشاركة في الشيوعية العالمية الثـالثة فقـد أدى إلى تأسيس الحزب الشيوعى العمالي من طـرف بعض قدمـاء الحزب الاشتراكي . وفى شهر أبريل ﴿ نيسـان ﴾ 1920 قـــــام رسول الكرملين مخاييل بارودين بتكليف مكسيكي المولد " مـانوال راميرث " تأسيس مجمـوعة جديـدة هي الحزب الشيـوعي الأسباني . ثم أمـرت مـوسكو بـادماج المجمـوعتين فيطغى الحزب الشيـوعي العمالي على أخيه الحديث الحزب الشيـوعي الأسباني إلى أن يحدث انشقـاق جديـد في صفوف الحزب الاشتراكي (1921) فتنضم مجموعة من شبـابه إلى الحزب الشيوعي الأسباني فتقويه وتستولي على قيادته . ولكن كما يقول الاستاذ دي لاثيارفا " كل هذه النوادر لا يجب أن تضللنا إذ أن الواقـع هو أنه حتى سنة 1934 كان الحزب الشيـوعي الأسبـاني يفتقـد تماما إلى الجماهير والأهميـة السيـاسيـة " (11) . ولكنـه سيصمد وينتظر وسيلعب هو الآخر دورا ذا بال في ما سبق الحرب الأهلية وأثناءها ولم

يخل منه المسرح السياسي إبان الانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية وتثبيت هذه الأخيرة ، علاوة على ما قام به من مقاومة لنظام فرانكو، مقاومة تكاد تكون مستمرة متخذة في بعض الأحيان شكل حرب العصابات .

الكنفيدرالية الاسبانية لليمين المستقل « ثيدا » :

وختاما لهذا العرض المختصر للأحزاب التي لعبت دورا مهما في حياة أسبانيا السياسية خلال القرنين الماضيين وما انقضى من هذا القرن إلى بداية الحرب الأهلية (1936) لابد لنا من ذكر الحزب اليميني الذي تأسس في آخر وقت أي قبل الحرب الأهلية بقليل وفي خضم الهيجان والتحرك والتأزم الذي عرفته البلاد وهي على أبواب أعظم كارثة وأشد فتنة عرفتها .

أسس هذا الحزب سنة 1933 وأطلق عليه اسم " الكنفيديرالية الأسبانية لليمين المستقل " وهو نوع من التلاحم أو الاندماج بين مجموعات سياسية يمينية أهمها " اليمين الجهوي البلنسي " و" الاتحاد الجهوي لليمين الجليقي " و" اليمين الجهوي الزراعي " بالإضافة إلى مجموعات أخرى مسيحية المبدأ والمنهج . عرف هذا الحزب أو هذا التجمع بالأحرف الأولى للكلمات المكوّنة لاسمه وهي حسب التهجي الأسباني " ث ي د ا " أي " ثيدا " وبهذا الاسم المختصر سنشير ونتعرض لهذه الحركة من الآن .

كان برنامج الثيدا ، الذي لا ينص على شكل حكم معين ، يمينيا يتعارض ويتقابل مع برنامج الحكومة أنذاك ومع برامج معظم الحركات الموجودة آنئذ والمائلة إلى اليسار أو هي يسارية بحتة . وحتى الليبيرالية من هذه الحركات كانت بعيدة في غاياتها وبرامجها عن الثيدا التي ضمت حول برنامجها ملكيين وجمهوريين ومحافظين . ومن ثم كانت هذه الحركة تمثل في أغلب الأحيان مصالح ملاك الأراضي وأرباب العمل ولذا فقد عارضت دوما ووقفت ضد مختلف الاصلاحات الاجتماعية وخاصة منها تلك التي تمس بهياكل وأشكال الملكية الزراعية . فلا غرابة إذن ، والبلاد على ما

كانت عليه كما سنرى ، أن يتسبب دخول أعضائها الحكومة والإسهام فى تسيير البلاد، في مظاهرات عنيفة معارضة ، في كل من قاطالونيا وأستورياس .

وطبيعي أيضا أن ينحاز أتباع هذه الحركة إلى النظام الناتج عن انتفاضة يوليو « تموز » 1936 التي تسببت في الحرب الأهلية ولاغرابة كذلك أن ينضم معظم أعضائها إلى المنظمة السياسية التي كونها إذاك النظام وهي الكتائب الأسبانية التي أسسها خوزي أنطونيو دي ريفارا .

النقابات : إن الإشارة والحديث عن الأحزاب السياسية يجرنا طبيعيا إلى التعرض إلى النقابات والحديث عنها لأنها كانت دوما منتسبة بصفة أو بأخرى إلى حزب معين عن طريق المبادىء التي ينادي بها ويعتنقها ذلك الحزب . ونحن أمام هذه الحقيقة لانرى بدا من التعرض للحركة النقابية في أسبانيا خاصة وأن اتحاداتها قد لعبت منذ نشأتها أكبر الأدوار وأخطرها في الحياة السياسية الأسبانية وكان لدور النقابات تأثير كبير على سير الأحداث ، فاق في بعض الأحيان تأثير دور الأحزاب السياسية وقد لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا بأن النقابات بتصرفات قادتها وأعضائها قد أجبرت أحيانا هذا الحزب أو ذاك على اتخاذ موقف أو السير في اتجاه لم يكن ليتبعه لولا تأثير النقابات أو اتباعها سياسة الأمر الواقع .

ليس من السهل تحديد تاريخ معين لميلاد الحركة العمالية لأنها جاءت فى بدايتها تلقائية تمثلت في مشاركة العمال في هذا النشاط أو ذاك دفاعا عن حقوقهم أو مطالبة ببعض الامتيازات وكان هذا التحرك يجيىء داخل عمل سياسي عام تشهده البلاد تحت تأثير مجموعة أو مجموعات سياسية لغاية كثيرا ما تكون بعيدة عن حق العمال أو تحسين أوضاعهم . الا أنه يتكرر هذا التحرك وتحت تأثيرات داخلية وخارجية ، كاهتمام بعض المثقفين بمصير العمال أو الاطلاع على ما يجري في بلدان أخرى وخاصة فرنسا ، أخذ العمال في تنظيم تحركاتهم وتحديد مطالبهم وغاياتهم فأسسوا هنا وهناك وحسب الظروف والإمكانات مجموعات توحد صفوفهم وتنظم عملهم وتضم أسسا لمطالبهم وحاجاتهم . غير أن هذه الخطوة التنظيمية ظاهريا لم تقض على التعددية ولا على شيء من الفوضى في العمل إذ كانت هناك مجموعات كثيرة يدين كل منها بمذهب معين ويتبع أسلوبا خاصا في العمل يختلف في أكثر الأحيان مع مذهب أو أسلوب الغير .

الاتحاد العام للشغل : وتشتت القوى ، وإن انعدام الوحدة في العمل والتحرك دفع بعضهم إلى البحث عن جمع الشمل وتأسيس منظمة تلتقي فيها مختلف المجموعات وتعمل من داخلها إلى تحقيق حاجيات العمال ومطالبهم فجاء مؤتمر برشلونة المنعقد سنة 1888 الذي شاركت فيه عدة مجموعات ذات ميولات ماركسية واشتراكية وعنه انبثقت منظمة نقابية في شكل اتحاد سمي " الاتحاد العام للشغل " .

كان هذا الاتحاد دوما متأثرا بمبادىء المجموعات التي تكوّنه ومن ثم كان اتحادا اشتراكيا ماركسيا متصلا وثيق الصلة بالحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ولو أن الاتحاد حاول وادعى دوما المحافظة على استقلاليته وحرية تحركه . ورغم قلة عدد مشتركيه فقد تمركز هذا الاتحاد بسرعة في بلاد الباسك ومنطقة المناجم ، أستورياس ، والعاصمة مدريد التي عرف فيها الاتحاد انتشارا وتوسعا كبيرين بفضل انضمام جمعية فن الطباعة اليه وهي جمعية أسسها ويرأسها آنذاك بابلواغليسياس مؤسس الحزب الاشتراكي . وبفضل هذا الدفع الجديد من طرف جمعية الطباعة بلغ عدد مشتركي الاتحاد سنة 1899 ما يزيد عن الخمسة عشر ألف مشترك . وفي نفس السنة نقل مقر المجلس الوطني للاتحاد من برشلونة إلى مدريد وهناك ترأسه بابلواغليسياس نفسه .

لم تكن الظروف التي تأسس فيها الاتحاد وخطا فيها خطواته الأولى ظروفا سهلة بالمرة بل كانت مليئة بتغيير الحكومات وسياساتها ومليئة بالنزاعات والانتفاضات ولكنه بالرغم من ذلك استطاع الصمود والبقاء مزدهرا ومتزايدا عدد مشتركيه حينا ، ومنكمشا خاسرا الكثيرين من المنتسبين إليه حينا آخر دون أن يبتعد كثيرا عن خطه السياسي العام المعتدل بالمقارنة لغيره والذي تسبب له في مهاجمات كثيرة من الداخل والخارج وأدى به أحيانا إلى خسارة بعض عناصره الراديكالية المتصلبة . غير أن هذا لم يحل دون بحثه عن التقارب العملي وتنسيق النشاط والحركة مع غيره من النقابات المعروفة بخطها الفوضوي وتصلبها الشديد من ذلك ماتم بينه وبين الكنفيديرالية الوطنية للشغل « ثينيتى » فوضوية المبدإ والمنهج خلال الأسبوع المأسوي (25-30 يوليو [تموز] 1909) إذ اتفقت المنظمتان على خط عمل واحد فنسقتا نشاطهما

وكذلك كـان الأمر بالنسبة لـلاضرابات العامة التي نظمت خـلال سنوات 1910 و 1916 و 1917 . إلا أنـه كما سبق وأن قلنـا ، لم تكن سياسـة الاتحاد العـام لترضي الآخـرين للينها وقلـة " راديكـاليتها " فـاتسعت الهوة بينـه وبين غيره من النقابـات وخاصة منهـا الكنفيديرالية الوطنية للشغل التي حـاولت استيعاب الاتحاد عن طريق الوحدة والاندمـاج ولكن ذلك لم يتم بل زاد فـــي التباعـد بين المنضمتين خاصـــة إبــــان دكتاتورية بـريمو دي ريفـــارا (1923) . فقد أدان اتحاد الشغل استيلاء الجيش على السلطة ولكنه توصل إلى اتفاق مـع النظام العسكري جعل عددا من قادة الاتحاد يشاركـون في مؤسسات حكـومية رسمية ويقبلـون بالتضييقـات الدكتاتـورية فكانت منظمتهم المجموعـة النقابية الوحيـدة التي حافظت على شرعيتها وتحركت في شيء من الحرية مغتنمـة ذلك للتوسع وتقـوية نفوذهـا . لكن سبب لها هذا التصرف طبعا خـلافات داخليـة أدت بها إلى التخلي عن المهادنة وسيـاسة التفـاهم مع النظام الدكتاتوري .

ثم واجه الاتحاد مشكلـة نظام الدولة لما نودي بـاقامة جمهوريـة وبالعمل في سبيل تحقيق ذلك إذ أن قادته لم يأخذوا ، تجاه هـذه المشكلة ، موقفا محددا ولم يبدوا تصميما أو اقتناعا ظاهرا تجاهها بيد أن القاعدة العمالية داخل الاتحاد نفسه وخارجه قد أيدت فكـرة التغيير إلى جمهـوريـة ودفعت بتلك الحركـة دفعـا أدى إلى انتصـارهـا وإعـلان الجمهورية الثانية .

استمر الاتحاد رغـم العقبات والهزات فى النمو وفى تـوسيع قـاعدته حتـى زاد عدد مشتركيه سنـة 1923 عن المليون عـامل فأصبح بذلك أقـوى منظمة نقـابية وأكثـرها تأثيرا . إلا أن دخول الاشتراكيين الحكـومات الأولى للجمهـورية وعـدم القضاء على النضال الطبقي في البـلاد قد أثر على الاتحاد تأثيرا سلبيا وجعلـه يخسر عددا كبيرا من مناصريه وتتدهـور سمعته تدهورا كبيرا فاغتنمت ذلك المنظمات المنافسـة ، فوضوية المبدإ ، والتى ناصبت الجمهورية العداء باعتبـارها جمهورية بورجوازية . وأمام وضع الاتحاد المتـدهور قـام بعض القـادة والأعضـاء ونظرائهم بـالحزب الاشتراكي ينـادون بوجوب العدول عن المشاركـة في الحكم وعملوا في سبيل ذلك بجد إلى أن حققوه سنة 1933 ، وبعد سنة من ذلك مسكَ فرانشسكو لارغو كابايارو ، أحد الزعماء العماليين

الاشتراكيين البارزين بالأمـانة العامة للاتحاد فتصلبت بقيادتـه سياسة الاتحاد وجعل يبحث عن تقارب من النقـابات ذات النزعـة الفوضوية والشيـوعية بغية الـوصول إلى توحيد العمـل ، وحدة تحققت ثم تقوت بالحركـة الثورية التي جرت في شهـر اكتوبر «تشرين أول» 1934 فأثمرت التحالف الذي أنجب الجبهة الشعبية التي أوصلت بدورها اليسار إلى الحكم من خلال انتخابات فبراير « شباط » 1936 .

وعلى إثر انتفاضة يوليو « تموز » 1936 تعـاون الاتحاد مع منافسته الكنفيديرالية الوطنية للشغل على مقـاومة العسكريين المتنفضين وشارك بعض أعضـائه في حكومة الجمهـورية أثنـاء الفتنة فتسبب ذلك في ابتعـاد الكنفيديـرالية عنـه من جديـد . ولما انتهت الحرب الأهليـة التي خسرهـا الجمهوريـــــون واليسـاريـون معـا ، أجبرت مجموعات ومنظمات الاتحاد العام للشغل على الهجرة أو الحل أو العمل السري .

الكنفيديرالية الوطنية للشغل « ث . ن . ت . » : إن الكنفيديرالية الوطنية للشغل التي اشتهرت في تاريخ أسبانيا الحديث بالأحرف الأولى للكلمات الثلاث المكوّن منها اسمهـا «ث . ن . ت . » التـــــي يقابلهــــا بالعربيـــــة (ك ـ و ـ ش) هي جمعية عمال أسست ببرشلـونة سنة 1910 . ميـولاتها نقابية فـوضوية جـاءت نتيجة لاندمـاج عدة حركـات فوضـوية معظمها قطـلانية ولذا كـان مبدؤهـا الأساسي غير سياسي بل هو معارض للسياسة الأولى ولأي شكل من أشكال الدولة . ومن هنا جاء الاختـلاف الكبير بينهـا وبين الاتحاد العـام للشغـل ولـو أن هـذا لم يحل دون اتفـاق المنظمتين في بعض الظروف وتعاونهما في فترات وأمام أحـداث معينة . ومنذ تأسيسها قامت الث . ن . ت بتنظيم اضرابات عماليـة هامة لاعتقادها بأن اضرابـا عاما مكتمل الشروط يؤدي إلى انهيار وغرق الدولة فتسمح الفرصة إذاك باقامة الشيوعية الفوضوية . كانت معظم قوى الكنفيديرالية متمركزة حيث لها أيضا قيادتها المنظمة ايديولوجيا . وفى بـدايـة العشرينـات وقع اصطـدام وصراع شـديدان بين أنصـار الكنفيـديـراليـة ومجموعات من المسلحين في خـدمة أرباب العمل فكان اصطداما قويـا أدمى مدينة برشلونة وزاد الردع العنيف الشديد الـذي قام به حاكم المدينة والذي تسبب في موت أو سجن العديـدين من القادة النقـابيين فدفع أنصار ث . ن . ت إلى القيـام برد فعل أكثر عنفا وشدة .

إن انتصار الثـورة البولشيفية في روسيـا قد كان لـه أعمق التأثير على الكنفيديـرالية التي أرسلت نـوابا عنهـا لحضور ومتـابعـة أشغال العـالمية الثـالثة والنظـر في احتمال الانتساب اليها . إلا أن تيارا قويا داخل الكنفيـديرالية يعارض قيام حكومات العمال ودكتاتـورية البروليتاريا قـد انتصر في النهاية على الاتجاه الآخـر فلم يتم الانتساب إلى العالمية الثالثة .

ولما قامت دكتاتورية بريمـودي ريفارا (1923) أجبرت الكنفيديرالية على العمل في الخفاء والسرية وظهـرت في صفوفها ميولات نحو الاتفاق سيـاسيا مع جميع أعداء الدكتاتور وخاصة منهم الجمهوريين للاطاحـة بالدكتاتور ونظامه . لكن لم يكن هذا الاتجاه ليمـر دون تـرك أثـر إذ قـد تسبب في انشقـاق الفـوضـويين الأنقيـاء الخلص وتأسيسهم الجامعـة الفوضـويـة الأيبيرية ﴿ فـاي ﴾ التي طمحت إلى االإشراف على الكنفيديـرالية الأم دون بلوغ بل زاد هذا في شـدة الشقاق والخلاف خاصـة مع سقوط الدكتاتورية وبعد اعلان الجمهورية .

برز الخلاف العميق الفـاصل بين شقي الكنفيديـرالية بروزا واضحـا خلال صيف 1931 بمدريد ثم ازداد شدة بظهور التصريح الذي عرف باسم " بيان الثلاثين " .

كان هؤلاء ثلاثين من أهم قادة المنظمة ينـادون بإنشاء جبهة شعبية واسعة يرونها ضرورية للقيـام بثورة . ولم يكن هذا سوى نـداء واضح للتعاون مع القوى اليسـارية الأخرى ، بما فيها اليسار الجمهوري ، فقوبل هذا التحـرك بمقاومة شديدة من طرف الراديكاليين المنضوين تحت لواء الجامعة الفوضوية الايبيرية ﴿فاي﴾ الذين استطاعوا منـــذ ذلك الحين السيطرة علـــى الكنفيديرالية ومصيرها .

نظمت الكنفيديرالية اضرابـات عامة عديدة خاصة في قاطـالونيا والأندلس حيث لها كثير من الأتباع ، وقوبلت اضراباتها دوما بعنـف شديد من طرف السلطة دون أن يفت ذلك في ساعدها أو يضعف من نشاطها وتحركها . وفي انتخابات 1933 أمرت المنظمة أتبـاعها بـالامتناع عن التصـويت مما أدى إلى إعطـاء السلطة لليمين ولم يكن تصرفها هذا لشيء سوى معارضتها الشديـدة للنظام الجمهوري وأي نظام دولة أخرى وقامت - كما هو طبيعي - حركة معارضـة للحكومة اليمينية وليدة انتخابات 1933

إلا أن الفوضوية لم تسهم فى هذه المعارضة كجبهة موحدة . فبينما شارك أتباع الكنفيديرالية في ثورة 1934 بأستورياس إلى جانب الاشتراكيين امتنع اخوانهم من مؤازرة الحكومة الإقليمية بقاطالونيا . لكن عمليات القمع التي تبعت هذه الأحداث والتى أدت بالكثيرين من القادة الاشتراكيين والفوضويين إلى السجن أقنعت هؤلاء الأخرين بالحاجة لتأييد الجبهة الشعبية فوقفوا إلى جانبها وساعدت أصواتهم على انتصار مرشحي اليسار .

في شهر أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1936 انعقد مؤتمر بمدينة ساراقسطة انضمت على أثره إلى الكنفيديرالية من جديد تلك الأقلية التي تبعت حركة الثلاثين الذين كونوا بعد انفصالهم منظمتهم النقابية الخاصة . ولما اندلعت الحرب الأهلية أيدت الكنفيديرالية قيام الجمهورية منذ اللحظة الأولى واحتل عدد من أعضائها مناصب وزارية في حكومة الجمهورية وفي الحكومة المحلية ﴿ الجينيراليتات ﴾ بقاطالونيا وبذلك تكون قد تخلت عن مذهبها ومبدئها التقليدي المنادي باللاسياسية والمعارض لأي تعاون مع أية حكومة أو الإسهام فيها . وبتقدم الحرب الأهلية اقترحت الكنفيديرالية القيام بثورة اجتماعية في ماوراء الخطوط الخلفية للقتال وشرعت فعلا في حركة مهمة بكل من قاطالونيا وأراغون محاولة اقامة الملكية الاشتراكية . ولكن مثلها كمثل منافسها الأول ، الاتحاد العام للشغل ، لم يبق أمامها بعد انتصار العسكريين في الحرب الأهلية ، إلا الحل والهجرة والعمل السري .

الجامعة الفوضوية الايبيرية ﴿ فاي ﴾ : أشرنا فيما سبق إلى الانشقاق الذي حدث داخل الكنفيديرالية الوطنية للشغل على إثر مناداة بعض مسؤوليها بالاتفاق والسير مع كل أعداء الدكتاتورية وخاصة منهم الجمهوريين بغية الإطاحة بالنظام الدكتاتوري وذكرنا أن المتصلبين قد أسسوا جمعية أخرى سموها " الجمعية الفوضوية الايبيرية " ﴿ فاي ﴾ وكان ذلك على إثر اجتماع عقدوه بمدينة " ليون الفرنسية " . وفي سنة 1927 عقدوا سريا مؤتمرا أساسيا بمدينة بلنسية وضعوا فيه القواعد التي ستعمل عليها منظمتهم . وبعد سقوط الملكية خرجوا من سريتهم وتوصلوا سنة 1932 إلى السيطرة على المؤتمر الأقليمى للكنفيديرالية الوطنية الفوضوية المنعقد ببرشلونة ومن إزاحة النقابيين من مراكز القيادة بها .

وهكذا وبمبدئها المعادي للنظام الجمهوري والرامي إلى غرس الشيوعية الفوضوية استطاعت هذه المنظمة أن تلعب دورا مهما جـدا خلال السنوات التي سبقت الحرب الأهلية .

الفصل الثاني

ألفونصو الثالث عشر

أشرنا في ما سبق أن أسبانيا دخلت القرن العشرين بالرجل اليسرى ، كما يقال ، إذ كانت البلاد تعيش مرحلة حاسمة من تاريخها اتسمت وتميزت برغبة عامة وحاجة أعم إلى التغيير تغييرا كاملا شاملا عميقا ، وذلك وسط أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية معقدة مضعضعة عرضة لتيارات كثيرة عنيفة آتية من كل جانب داخل البلاد وخارجها . وأهم هذه التيارات والتأثيرات تلك الناتجة عما يجري بفرنسا وروسيا وبصفة عامة ما كان يحدث بأوربا وانعكاساته المباشرة وغير المباشرة على الحياة في أسبانيا .

وكل هذا أحدث ، كما ذكرنا سابقا ، حركة تجديدية قوية منطلقة من أرضيات متباينة المبدأ والعقيدة ومتباعدة المنهج والأسلوب كالاشتراكية مثلا أو الفوضوية فتقوت بها الحركات العمالية وازداد بها النقد والانتقاد وعم أوكاد العمل بعقل أو بدونه بحثا عن التغيير " التجديد " الذي كان بعضهم يبغيه جذريا عميقا .

لم تكن الحركة التجديدية مجرد رد فعل بسيط أمام الكارثة التي واجهتها أسبانيا والمتمثلة في خسارة بقايا امبراطوريتها ، لأن التجديدية كفكرة أو حتى كفلسفة كانت قد ظهرت قبل ذلك بكثير ولو أنه كان ظهورا في شكل حدس أو شعور أمام أحداث متوقعة . لكن تلك الفكرة أو ذلك الشعور سيتحول على اثر الكارثة إلى حركة وطنية تشمل كل مطالب الطبقات الشعبية من اقتصادية إلى أدبية وثقافية إلى سياسية . ان هذه الحركة التجديدية ستتوالى موجاتها وتتواصل إلى ما بعد الملك ألفونصو الثالث عشر والحرب الأهلية وهي تتلخص حسب الأستاذ ريكاردودي لاثارفيا في مقولة أو شعار يحمل ذكريات ومخاوف فاجعة وهو " انقاذ أسبانيا " . إن هذا الشعار يحتاج إلى دراسة جدية دقيقة كشافة لأن كلمتيه قد طبعتا حياة الكثيرين من الحكام الأسبان منذ " سلفالا " و " كامبو " إلى " بريياتو " و " فرانكو" (12) لكن هذا الانقاذ الذي يردده ويطالب به الحكام والجماهير على حد سوى هو ممّ وممّن؟ مم وممن يجب انقاذ أسبانيا؟ لاشك أنه من شعور خفي دفين في النفوس يتوقع التفكك والشقاق ويخاف من المستقبل الذي لا يراه جليا ولايتوقعه مطمئنا ولا مريحا " .

ووسط هـذه الحيرة والبحث عن طريقـة " لإنقاذ أسبـانيا تقـوم مؤسسة كـان من المفـروض أن تكون هي الـدافعة للتجـديـد المنادى بـه أو للبعث المطالب بـه ونعني الجامعة التي ، رغم كل ما يجري حولها استمرت جامدة راكدة عديمة الفاعلية ، كثيرة الجدل ولم تكن سوى وكر للشقاق بين أقلية اجتماعية ضيقة استطاعت مزاولة فصول الجامعة ، بـدون مواظبة أحيـانا ، والاستماع إلى محاضراتها المملة المضجـرة المركزة على الآداب وحدها ناسية ومهملة العلوم التقنية مثلها في ذلك كمثل أغلب الطبقة المثقفة في البلاد . ومن ناحية أخرى كانت الأحزاب المتداولة على الحكم تعاني حالة انحلال وتفكك . لقـد سلطت عليها الجماهير تهمـة عدم النجـاعة السياسيـة التي أدت إلى الكـارثة ، وهي محقـة في ذلك ، لأن تحوّل الأحـزاب إلى " عائلات " سيـاسية كـان يظهـرها كل يـوم أكثـر عجزا عن جمع أنصـارهـا فما بالك بمـواجهـة مشاكل البـلاد الحقيقية ، البـلاد المنهكة المتعبة . فالبرلمان كـان فاقدا لكل بادرة وأمل وكـان مهزوزا من أصوله وجذوره بسبب انتخابه المزور أو المفروض ولذا كان يسير نحو مستقبل غير واضح ولا محدد يحدوه الحرمـان من الايمان بنفسـه وبشرعيتــه في تمثيلـه الشعب بكل طبقاته . وهكذا وأمام هذا التفكك أو أنعدام الإطـار القانوني الدستوري للنظام قام حكم الأقلية بدور المؤسسات الدستورية .

كـانت هناك كما أسلفنـا مجموعتـان رئيسيتان في السلطـة تمثلان حكم الأقليـة أو "الأوليغاركية " وكانت في بداية القرن العشرين تعتبران مجموعتي الضغط الكبيرتين . أولى هـاتين المجموعتين هي تلـك الممثلة لـلأقليـة " المالية " ونعني مـلاك الأراضي والمصـارف وأرباب الصنـاعة الكبـار وقـد يضاف اليهم نظـراؤهم أربـاب الصناعـة بقاطـالونيا ولـو أن هؤلاء قد احتفظـوا دوما بـاستقلال تحركاتهم وتـدخلهم المباشر في السياسة المدريديـة أي سياسة الحكومة المركزية . لكن لابد من اضـافة الطبقة النبيلة التي رغم قلة عـددها قدمت إلى المجمـوعة الماليـة مساعدات تـذكر ممكنة إيـاها من استعمال ألقابها وامتيازاتها كما استعـانت المجموعة بما عرف بـالتقنيين وهم في الحقيقة أصحـاب المهن والحرف الــذين يبرز من بينهم المحـامــون لما لهم من تأثير اجتماعي وسيـاسي والذين قـدمـوا كبير الخدمات للمجمـوعـة دون أن يشعروا بـاستعمالها لهم واستغلالها إياهم .

أما المجموعـة الثانية ، التى تلتقي مع الأولى في التأثير على قرار الـدولة ، فكانت مكونة من تكتلات أو جمعيات المهندسين المدنيين والحقوقيين ومحامي الدولة .

وكانت الحركة العمالية في تطور مستمر مركـزة مجهوداتها على التجمع العمالي الذي بلغ شكـلا جماهيريا فى بـداية القرن . والغـريب الـلافت للنظـر هو أن الجمعيـات العمالية الأكثر نمـوًا هي تلك التي تفتقد إلى أية عقيـدة معينة وتلك المنادية بـالمقاومة المبـاشرة الراميـة إلى تحسين مستـوى العيش والعمل وفي هـذه وتلك يكمن قسط من الفوضى وانعدام الدقة والتحـديد في كل شيء ، في الأرقام وفي المفهوم السياسي وغير ذلك " إذ أن جــزءا كبيرا من هـذه الجمعيــات كـانـت واقعـة تحت تأثير نـــوع من الراديكالية المصبوغة بمعاداة الكنيسة والمبالغة الكلامية " والذي يزيد في الفوضى هو وجود نقابـات كاتوليكية قد تكـون ذات نوايا حسنة وأهداف نبيلـة ولكنها كانت غير عملية وغير ناجعة .

أمـا الحركة الفـوضويـة فكانت تتصف بـالتفكك على المستوى التنظيمي ولـو أنها كانت تبذل مجهودا دعائيا كبيرا ضـم إليها معظم الحركات الجماعية الفلاحية الأندلسية وبعض المجمـوعات المنعـزلة ذات التمركـز الخاص في مناطـق كثيفة السكـان بالمدن والتي كانت تميل إلى الأعمال الارهابية .

ومن جهـة أخرى كـانت الاشتراكيـة تبحث عن تقـوية تمركـزهـا بسرعة وتـواصل متزايدين دليل عليهما تزايد عدد المنتسبين اليها خاصة الى الاتحاد العام للشغل .

ثم إن الجهوية أو الروح اللاقليميّة قـد احتلت مكان الصدارة من الحياة السياسية الوطنية إلى جانب مشاكل جديدة تمثلت في حـدة التوترات الاجتماعية مما أظهر رجالا جـددا أغلبهم من الشباب ، جـاؤوا بأفكار جـديدة تجاه المشـاكل الجديدة وكـذلك اتسموا بقلـة صبرهم تجاه الزعماء الشيـوخ الذين يمثلون الاستمـرارية في الـدفاع عن مجتمع قائم والدفاع عن مصالح اجتماعية خاصة واقتصادية أخص لفائدة مجموعات مهيمنـة ولـذا كـان من الضروري اصلاح الكثير . الا أن الجمـود الـذي قـوبلت بـه محاولات الإصلاح العديدة قد أبرزت الذروة الكأداء القوية المفروضة من جانب بعض ذوى المصالح ذوي رد الفعل الدفاعي التلقـائي بينما الحزبان الرئيسيان المتداولان على السلطة يواجهان أزمات ومشاكل داخلية تحول دونهما ودون تحقيق أي تغيير .

كـان الحزب المحـافظ يعـاني أزمة البحث عن صـورة لـه إذ طغت الحيرة عليـه بين اعتناق محافظـة عنيفة تمكنـه من الفوز في الانتخـابات دون اعتبـار الطرق والـوسائل الموصلة لـذلك أو اعتناق محافظة أكثـر شبها بالمحافظـة الأوربية المحترمة لـلأشكال والأساليب ولو على حساب الفشل في الانتخابات إذ المهم هو المحافظة على المبادىء الأخلاقية ومبادىء التعايش .

أما الحزب الليبيرالي فقـد حاول الإصلاح إلا أنـه فشل في ذلك فتدهورت أوضـاعه ويمكن ارجاع ذلك إلى ثلاثة أسباب هي رفـض ومقاومة الإصلاح من ذوي المصالح المكتسبة وايقـاف الانفتاح نحو اليسار بـالرغم من تغلغل التيار الجمهـوري بالبرلمان وببلـديـات أهم المدن وهـو تغلغل يمثل قـوة سيـاسية كبيرة سـدت الطـريق أمـام الليبيراليين . أمـا السبب الثـالث فهـو كما قلنـا نزول الشبـاب إلى الميـدان السيـاسي وتحركهم خاصة ضد الشيوخ من أهل السياسة وقادتها .

وهكذا بـالنظر إلى كـل هذا ، وغيره كثير ، فان الـوضع في أسبـانيا في نهايـة القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين يمكن تلخيصه في مـا يلي " نكبة أو كارثة كبيرة أحسها الشعب في أعمق أعماقه فأثر ذلك في الـدولة والأمة بأجمعها ورأى الجميع فيها خيبة تاريخية للشعب قاطبة خسرت فيها البلاد آخر ما تبقى من امبراطوريتها وعانت من جرائهـا الطبقات الضعيفة إرسال أبنـائها إلى الموت وتحملت الفاقـة وتعرضت إلى المرض وواجهت انخفاض الدخل والمحصول .

صورة محزنة تلك التي كانت عليها البـلاد " حكم أقلية " فشلت سياسيا ولكنها لم تسقط لأن معـارضيها مشتتـون وغير منظمين . أزمة سيـاسية وقطيعـة عميقة تمس العقيدة والفكر . بورجوازية غير مندمجة في الوضع . طبقة شغيلة تغزو فكريا صحوة الضمير العـام وتنـادي في عدة منـاسبـات بـالعنف واستعمال القـوة . وأخيرا فإن " التجديديـة " بوجهيها النبيلين الاجتماعي السياسي والعقائدي والموقف النـاقد الذي وقفته مجموعـة من الشباب المثقف انطلاقـا من أرضيات اشتراكية أو فوضـوية معززة بذلك وضع الحركـة العمالية ، والتغيير الثقافي المترجـم عنه بالتمـدين ، قد أصبحت كلها الشعـار الدائم والمطلـب الأصلي الذي تدور حـوله معظـم الحركات وتنـادي به معظم الأفواه .

جلوس ألفونصو

وفي مثل هذه الظروف العصيبة ، ووسط عدم الاستقرار والرضى إن لم نقل الغضب وفي خضم هذه التيارات الكثيرة العديدة المتشابكة الطرق والسبل والغير واضحة المرامي والأهداف ، جلس على عرش أسبانيا ذلك الذي " ولد ملكا " ألفونصو الثالث عشر آل بربون وكان ذلك يوم 17 مايو ﴿ أيار﴾ 1902 عندما بلغ سن السادسة عشرة وهي السن القانونية التي تؤهله للجلوس على العرش وتحمل مسؤوليات التاج ومشاكله .

ولد ألفونصو الثالث عشر سنة 1886 بعد وفاة أبيه ألفونصو الثاني عشر فتولت أمه ماريا كريستينا ، من آل هابسبورغولورينا ، الوصاية على العرش من يوم وفاة زوجها ألفونصو الثاني عشر سنة 1885 إلى أن بلغ ابنها السن القانونية سنة 1902 فتكون قد أشرفت وقادت شؤون البلاد سبع عشرة سنة تميزت كما رأينا بتداول المحافظين والليبيراليين على السلطة وبمواجهة البلاد مشاكل داخلية وخارجية من كل نوع فتكون قد سلمت ذلك الشاب المراهق تاجا وميراثا . كان الأول أَشَقّ تاج في التاريخ الأوربي وكان الثاني أكثر المواريث حزنا في التاريخ الأسباني ، تاريخ القرن التاسع عشر الذي بدأ بكارثة وانتهى بأخرى . كارثتان بمقدورهما تحويل أي وطن إلى العدم وأي شعب إلى الانهيار باستثناء هذا الشعب الأسباني العجيب الكثير الألغاز .

جلس ألفونصو الثالث عشر على العرش إذن والبلاد في حاجة إلى قيادة شديدة المراس ، قوية الارادة ، لها برنامج سياسي ، اقتصادي ، اجتماعي يشمل مختلف فئات الأمة ويتماشى مع متطلبات الزمان وحاجيات الشعب التي تزايدت وتطورت وأصبحت ضرورية في معظمها مثل النور الكهربائي وحد أدني من التعليم وقراءة الجرائد والتنقل من مكان الإقامة إلى غيره أيام الأحد ووسائل النقل في المدن الكبيرة إلى ومن مكان العمل . وكانت كل شروط القيادة هذه منعدمة لدى الملك الشاب الفاقد للخبرة الكافية نتيجة سنه والفاقد أيضا لمستشارين نصحاء نزهاء إذ الرشوة والفساد

طاغين على أبرز الشخصيات الحائمة حول العرش وداخل مقاصر وأبهـــاء القصر أو داخل وحول الحكـومة ممـا جعل " رامون بـاربينيا " يقـول في كتابـه " من اقتصاد أسبانى " (13).

أنـه " في كل المعـامـلات التجـارية تظهـر ، تحت ستـار الاستشـارة أسماء وزراء سـابقين ورؤسـاء وزارات سـابقين حتى أني لا أدري إلى أي حـد كـانت المغـامـرات السياسية مرتبطة بمصالح ذوي السلطة المالية لكن بالإمكان أن نقول بأنه قبل قرن من ظهور الهاتف الآلي كان الكي دورسي ﴿ مقر الحكومة الفرنسية ﴾ ودوانئغ ستريت رقم 10 ﴿ مقر الحكومة البريطـانية ﴾ باتصال آلي بالحكومات الأسبـانية التي كانت أشبه شيء بتلك الخيول الخشبيـة في ناعورة مـدن الملاهي تصعد وتنـزل لكن لا على صوت الموسيقى القوية بل على مرافقة قوية من النار والانفجار ورائحة البارود . " ان في هذا اشـارة واضحـة للتـدخل الأجنبي في الاقتصـاد والماليـة الأسبـانيين وتأثير ذلك على الحكـومات المتتـالية التي كـانت مشلولـة فاقـدة لكل أو معظم المتطلبات فلم تقـدم للملك الشاب أي عون أو مساعدة بل زادته مشاكل وتعقيدا للأمور .

كـان ألفونصـو الثالث عشر كما وصفـه ريكـاردو دي لاثيارفـا ، نبها متيقظـا ذا تصميم ، مولعـا بالأزيـاء الرسمية والجنـود والمحركـات ، مؤمنا بـالكاثـوليكية التي حاولـوا تلقينه ايـاها وهو رغم كـل شيء لم تفارقه الـرغبة العميقـة في تطبيق الدروس الثلاثة التي تركها لها أبوه وهي أولاً ، أن يكون رمزا وقائدا للجيش وثانيا أن يبقى فوق الـرجال والأحـزاب وثالثـا أن يقوم في صمت بـدور الموحد للنظـام والملكية والقـوى السياسية الحقيقية بالبلاد " .

يجمع المؤرخون على أن الملك ألفونصو قد فشل في تطبيق وصيات أبيه الثلاث لكن بعد أن بذل كل ما في امكانه لتحقيـق ما أراده أبوه . أن المؤرخين في نظرنا المتواضع ، قد ظلموا أو لم ينصفوا الملك ألفونصو ، لأنه كيف كان يمكنه أن يكون رئيسا أو قائدا لجيش لم يكن موحدا في مشاعره ولا في مطالبه ولا حتى في غـاياته بالإضافة إلى توغل السياسـة في صفوفه ولـو في شكل مستتر ؟ وكيف كان يمكنـه أن يكون فوق الـرجال والأحزاب وقـد أختلط هؤلاء وأولئك وسط خضم الحيرة والتـذبذب والفـوضى وعدم الوضـوح ؟ ولذا فلم يبق للملك مـا يوحـد ولا ما يقـود بل بقي هـــو نفسه عـرضة

للأحـداث التي جرته كما جرت البـلاد بمن فيها إلى تلك الكارثـة وهي الحرب الأهلية التي بذل الملك ألفونصو كل ما في وسعه للحيلولة دونها و إلى سقوط الملكية قبل ذلك قال عنه السيد ألفونصو نفسه " كان انحدار الملكية يبدو مؤكدا وتتابع تدهور النظام لم يكن سوى تسلسل انهيار شعب لم يقبل أن يشخص لنفسه علته " .

لم يكن الملك مخطئا في حكمـه وتحليله لأن الشعب الأسباني في عهد ألفـونصو ، لم يكن بكل قواه وتنظيماته وتكتـلاته التي لا حصر لها ، يعرف هو نفسه ما يـريد أو أنه كان يريد الكثير ولم يكن يعرف من أين يبدأ فـوجه أنظاره إلى القمة واحتار بين الملكية والجمهـورية وبين اليمين واليسـار وبين الاقتصـاد الحر والاقتصاد المسير فـاختلطت الأمور وتشابكت السبل وانعدم الوضـوح . وفي هذا الصدد ، أو بالأحرى في وصف الشعب الأسباني ومواقفه تجاه المبادىء السيـاسية عن طريق الأحزاب ، بنقل بتصرف ما كتبه الصحفـي الشهير أميليو روميرو في كتابه " رسـائل إلى أمير " إذ يقول " نادر جدا أن نجد في أسبـانيا حزبا سيـاسيا حقق استراتيجية تأقلم ومسايـرة ، مثل الذي يسميه الألمان " السياسة الواقعية " ويسميه الانجليز " التفكير الإيجابي " . فاليمين الأسباني ، الجديد أيام الجمهورية الثـانية مثلا والمتألق منطقيا من الأوساط الملكية في مناطق ليبيرالية أو محافظة ، قد فاز في انتخـابات برلمانية وأحرز على الأغلبية وفي هذا الوضع لم يقـرر اسقاط الجمهـورية ولكنـه حاول اعتدالها ضـد تطرف أنصـار الملكية القدامى ، الثـائرين ضد الجمهوريـة وضد اليسار المشط في تصرفـاته . لكن انتفض اليسار فـــي ثـورة أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1934 لمنع مـا أسماه تشويها للجمهـورية المعلنة قبل ذلك بثلاث سنوات " (14) .

فمن هنا نرى أنه طيلة عهد ألفونصـو الثالث عشر ومن بعده أيام الجمهورية ومن قبلـه أيضـا أيـــام الـوصـايـة وأواخـر القـرن التـــاسع عشر ، اختلطت الاتجاهـات والعقائديات فكـان الأشخاص والأحزاب تهزهـم التيارات وتـدفعهم المعتقدات وكل منهم يرى أنـه وحده قد أمسك بـزمام الحقيقـة ولا حقيقة غير حقيقته ومن هنـا جاء الشقاق وعدم التفاهم ومن ثم عدم الاستقـرار . فخلال عهد ألفونصو الثالث عشر وحده ، أي بين يوم 17 مايو ﴿ آيـار ﴾ 1902 ويوم 14 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1931

تداولت على السلطة إحدى وثلاثون حكومة تناوب فيها بانتظام يكاد يكون حسابيا دقيقا ، المحافظون والليبيراليون دون أن تصل أي منها ، مع بعض الاستثناء ، إلى تحقيق ما يرضي الجميع ويستجيب إلى معظم الطلبات .

لكن لسنا هنا لنحلل عهد ألفونصو الثالث عشر أو لنحكم عليه أو له وإنما لاعطاء لمحة تاريخية تمكن من فهم وتبصر التجربة الأسبانية في الانتقال من الدكتاتورية والحكم الفردي إلى الديمقراطية وهو موضوعنا الأساسي إلا أنه ليس من السهل تلخيص أحداث عهد ألفونصو الثالث عشر ، على قصره ، ولو أننا سنحاول ذلك مؤمنين سلفا بعدم الايفاء بالمقصود . قد لايكون خطأ تقسيم عهد ألفونصو الثالث عشر ، كما فعل الكثيرون ، إلى ثلاث مراحل أو ثلاث حركات طول كل منها عشرية أو تكاد ، فنغطي بذلك التسعة والعشرين عاما التي بقيها الملك ألفونصو على العرش . أما العشرية الأولى فهي عشرية المحاولات أو عشرية الصحوة إذ حاولت خلالها أسبانيا استعادة ثباتها بعد الهزة العنيفة التي تعرضت لها اثر ضياع كوبا والفيلبين وبويرتوريكو فقامت بسلسلة من المحاولات التجديدية على مختلف المستويات وفي الكثير من القطاعات ولكن كان ذلك في احتشام وسطحية فلم يرض أي انجاز أحدا . وتنتهي هذه العشرية بمحاولة رئيس الحكومة " خوزي كاناليخاس " الذي ضد كل الرياح والتيارات وحتى ضد صبيانيات حزبه نفسه ، أراد أن يحقق ما نادت به أو بعض ما نادت به الحركة التجديدية فكانت محاولة التقت مع الأمل الوطني العام وانتهت بعد أن دامت ثلاث سنوات بمقتل الرئيس كاناليخاس في شهر نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ من سنة 1912 .

وتتميز العشرية الثانية ، بين سنتي 1913 ، 1923 بتخبط أسبانيا وسط العديد من الرجات والهزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الرامية إلى تحقيق الديمقراطية فأكدت فشل الليبيرالية بالبلاد ، حسب ما يراه كثير من المؤرخين .

وثالثة العشريات ولو أنها لم تكتمل ، أي من سنة 1923 إلى سنة 1931 . فقد كانت العشرية الدكتاتورية التي قادها الفريق بريمو دي ريفارا والتي دمجت نفسها في العرش والتاج أو جرت العرش والتاج للاندماج فيها وفي أخطائها لكن لا في انجازاتها فأطالت عمر الملكية بعض الوقت ولكنها أدت إلى سقوطها .

يجب أن لا ننسى أن أسبانيا التـي جلس ألفونصو الثالث عشر على عـرشها كانت بلدا أقطاعيا ، أقلية محدودة العدد من أهله ذات سعة ورفاهية وهي مكوّنة من ملاك أراض وصناعيين وأصحاب مصارف بينما الأغلبية السـاحقة التي قدرت بما يزيد عن 70٪ أو ما يعادل الخمسـة ملايين نسمة ويزيد كـانت تعاني الجوع والبرد وبين هذين الطـرفين طبقة متـوسطـة منعدمـة أو تكاد . ومـن هنا جـاء اليأس والقلق والتململ والبحث عن حل أو طريق يؤدي إلى مستقبل أفضل . ولكن عجز الحكومات والقادة عن تحقيق أي تحسين يذكـر لحالة الطبقات الكـادحة انفجرت هـذه لتصبح تكتلات متعددة اتسم معظمها بالثورية واتسمت نسبة غير صغيرة منها بالعنف والارهاب .

لقد تأسست سنـة 1905 النقابـات الكاثوليكيـة الأولى ولعلها جـاءت كرد فعل تلقائي أمـام تعدد ونشاط الحركـات العمالية اليسارية وخـاصة الفوضـوية . وتأسس التحالف القطـلاني تحت اسم " تضامن قـاطالـونيا " بمدينـة برشلـونة خـلال سنة 1906 فكـان حـركة مـن تلك المناديـة بـالسيـاسـة الاقليميـة وبالاستقـلال الـذاتي لقاطـالونيا ذات الشخصية والـذاتية والثقافـة الخاصة علاوة على اللغة . وفى مـدينة برشلـونة أيضـا تأسست سنة 1907 حركـة التضامن العمالي . ثم جـاء ميلاد الحزب الراديكالى سنـة 1908 متبوعا بتكوين الكنفيديـرالية الجهوية للعمل بقاطـالونيا بينما الكنفيديـرالية الوطنية للشغل ﴿ ث . ن . ت . ﴾ التي ستحتل صـدارة الكفاح العمالى بالاشتراك مع الاتحاد العام للشغل الاشتراكي النزعـة ، فقد تأسست ، كما رأينا سلفا عند الحديـث عن الأحزاب والنقـابات ، في شهر أكتـوبر ﴿ تشرين أول ﴾ مـن عام 1910 . وبعـد سنـة أي عـام 1911 أسس تضـامن العمال البـاسكيين ولاتظهـر الكنفيديراليـة الكاثوليكية الـزراعية على المستوى الوطنـى العام إلا عام 1916 . وفي سنـــــة 1918 أسست المجمـوعة الديمقـراطية المسيحيـــة وبعـــد ذلــــك بسنــــة أي عــــام 1919 أسست الكنفيـديراليـة الـوطنية للنقـابات العماليـة الكاثوليكية . وتتواصل هذه الفسيفساء من الأحزاب والنقابات والمجموعات والفرق في الاتساع فيـؤسس الحزب الشيوعي الأسباني سنـة 1920 والحزب الشيوعي العمالي الأسبـاني سنة 1921 ثم ينـدمج الاثنان في مـا سمي حـزب أسبانيـا الشيوعي عـام 1922 . وفي نفس السنـة تولـد الحركة القطـلانية والحزب الاجتماعي الشعبي . أمـا الاتحاد الـوطني فقـد أسس عـام 1924 وبعده بسنـة ظهـر الاتحاد الليبيرالى للطلبـة

وللحركة الجمهورية ثم ظهر عام 1926 الحلف الجمهوري فالفيدرالية الجامعية المدرسية (1927) والفيدرالية الفوضوية الايبيرية (1927) .

فخلال عهد ألفونصو وحده ظهرت عشرون حركة أو منظمة جديدة علاوة على سابقاتها مثل الاحزاب المحافظ والليبيرالي والاشتراكي العمالي والاتحاد العام للشغل وغيرها ، فكان من الصعب بل ومن المستحيل السيطرة على هذا النسيج الغريب من الحركات ، كما كان من الصعب جدا أن يتم اتفاقها أو على الأقل اتفاق أغلبها على وضع برنامج موحد والعمل على تنفيذه وتحقيق طموحات الجماهير من خلاله .

وكما لو لم تكن العوامل والمشاكل الداخلية كافية فقد أثرت على الوضع السياسي والاجتماعي الأسباني في هذه الفترة عوامل خارجية فقد تكون حرب الريف بالمغرب ، بزعامة وقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي ، أشدها تأثيرا وقد يكون ذلك لانعكاسها المباشر على المجتمع الأسباني ماديا وأدبيا ، انعكاس يلمسه المواطن العادي إذ الحرب تلتهم الكثير من الأموال التي هو في أشد الحاجة اليها ثم أنها تسببت في ارتفاع تكاليف الحياة وطلبت منه التضحية بأبنائه فلذات كبده وعونه على صعاب الحياة .
وزادت كارثة أنوال ، تلك المعركة التي انتصر فيها الأمير عبد الكريم ورجاله انتصارا كبيرا ملحقا بالقوات الأسبانية عظيم الخسائر وأشدها ، زادت في بلبلة الأفكار وفي هيجان الجماهير معطية الفرصة للحركة الثورية وخاصة الفوضوية لاغتنام عدم الرضى السائد لفائدتها أي تحويله إلى إضرابات عامة ومشادات مع السلطة والشرطة وحتى مع الجيش في بعض الأحيان فنزل الحوار إلى الشارع في شكل مظاهرات واصطدامات بدلا من أن يبقى داخل البرلمان الذى شل تماما في وقت ما ولم يعد يعقد جلساته وان عقدها فلإعطاء النواب الفرصة للتراشق بالسباب والشتائم أو لاظهار مقدرتهم الكلامية وخطاباتهم البليغة المصقعة .

غضبت الجماهير وثارت ومرة أخرى طالبت بتحديد المسؤوليات عن هزيمة أنوال وغيرها مما يعانيه الوطن من تدهور اقتصادي ، أنقذه بعض الشيء عودة رؤوس الأموال الأسبانية من كوبا ومن ثم جاءت المقولة " لم يضع كل شيء في كوبا " وتدهور اجتماعي بعيد الحدود وتفكك يهدد البلاد بالتبعثر إلى دويلات وطوائف .

الأسبوع الفاجع : كانت البلاد على فوهـة بركان كما يقال دون أن تظهر دلائل على أن الماسكين بمقاليد الأمور على دراية بذلك . فالعنف والارهاب في تزايد مستمر حتى بلغ أعتاب الملك بل هدد شخصه بالذات . فبينما كانت عربته مارة به صحبة عروسه فكتوريـا أوخينيا قرب الميـدان الأكبر وسط مدريـد ألقى أحد الفوضـويين قنبلة على العربة ونجا العـروسان بأعجوبة . إلا أن التحريات قد أكـدت أن المؤامرة مدبرة من طرف أحد مفكري الحركة الفوضويـة . كان ذلك يوم 31 مايو ﴿ أيار ﴾ 1906 وهي سنة عرف آخرها أحداثا أثـرت كثيرا في المستقبل القريب . أولها تقديم الحكومة قرضا ماليا كبيرا لاتحاد احتكاري صحفي ليبيرالي ﴿ تروسـت ﴾ وثانيها مؤتمر الجزيرة حيث تأكدت الحمايـة على المغرب وثالثهـا وثيقة آميانس التي بعثت بمـوجبها حركة نقـابية جديدة في أوربا مقامة على أسس غير التى كانـت مقامة عليها النقابات من قبل ولو أن الفـوضويـة ستستمر في أسبـانيا مستعملـة الارهاب والعنف إلى أن قـامت الحرب الأهلية ، ورابعهـا قانون يعطي العسكـريين حق الفصل في القضايـا التي لها مساس بالوطن أو بـالجيش وأخيرا وليس آخرا إصدار قانون جبـائي اعتبره الجميع ، باستثناء المستفيدين منه وهم قلة ، حماية من طرف الدولة للقطاع الخاص في مجال الصناعة .

وقد حاولت الحكومة برئاسة أنطـونيو ماورا (1907 - 1909) القيام بالثورة من القمة فأنشأت صناعة بحرية ناجحة وأعطت حق الإضراب ومنحت البلديات المزيد من السلطة وغير ذلك من الخطوات الجريئة إذا عرفنا أنها حكومة محافظة . إلا أن تلك الخطوات لم تغير من الـوضع شيئا . وضع تتـالت فيه الأحداث بسرعـة فائقـة . فقد انتصر التضامن القطالاني في انتخابات 1907 فزادت جسارته خاصة وأن الحكومة لم تهتد لارضاء طلباته علاوة على ميلاد تضامن آخـر قريبا من المجموعات الفوضوية ، تؤازره صحيفة قـوية التأثير هي جريدة " صولي " . وتوسع نشـاط الحزب الراديكالي بزعامة آليخادرو لورو الذي اتخذ من العنف شعارا ومن الإرهاب وسيلة إلى أن جاءت انتفاضـة مليلة بـالمغرب واضطـرت الحكومـة إلى إرسال المزيـد من الجنـود إلى ميدان القلاقل والحرب فوجد الفوضويون في ذلك فـرصتهم لإثارة الشعب في برشلونة وحمله على العصيـان ورفض ارسـال أبنائه إلى ميـدان الحرب . فـوقعت في مينـاء برشلـونـة اصطدامات قويـة كانت الشرارة لما عرف بالاسبوع الفاجـع أو الأسبوع المأسوي الذي بلغ أشده بين يومـــي 25و30 مـــن شهر يوليـــو ﴿ تموز ﴾ 1909 . فالتضامن

النقابي نـادى للاضراب العام يوم 26 مغتنما عـدم الرضى بإرسال الجنـود إلى المغرب فتبعه الجمهـوريون والاشتراكيون ﴿ الاتحاد العـام للشغل ﴾ والفوضويـون . لقد بلغ العنف خلال هذا الأسبوع أقصاه إذ هدمت وحرقت أكثر من خمسين عمارة ، بعضها كنائس ، وشنع بجثث القتلى إلى غير ذلك من الأعمال الرهيبة الشنيعة الدامية .

وجاء رد فعل الحكـومة شـديدا حـاسما يوم 30 يـوليو ﴿ تموز ﴾ عن طريـق فيالق مشتركة بين الحرس المدني والجيش الذي تصرف ببالغ الشراسـة هو أيضا وبمعزل عن الحكومة وأوامرها فحكم بالاعدام على خمسـة أفراد من بينهم فرامشسكو فيرير غوارديا من مفكري الفـوضويين الـذي أثار اعـدامه عاصفـة سياسيـة هوجـاء داخل البلاد وخارجها حتى أن وزير الداخلية أذاك قـال " نفذ الحكم وعلى أثره اجتاحتناالتيارات الفوضوية والماصونية والثورية بالعالم " . أما في الداخل فقد اغتنمت معظم الحركات المعارضة حادثة الإعدام وتحت ستارها طالبت بسقوط الحكومة وخاصة رئيسها ووزيره للداخليـة بحثا عن مقـاومة الضغط والقمع والـرعب الحكومي كما اتخذت المعـارضة شكـلا سيـاسيـا آخـر تمثل في تجمع أو " كتلــة اليســار " التي تكـونت من ملكيين وجمهـوريين والحزب الليبيرالي بكل فئـاتـه وطـوائفـه والمنتمين إلى الـوسط والائتـلاف الجمهوري الاشتراكي والحزب الاشتراكي العمالي الأسباني . وهذه الكتلة برزت للوجود يـوم 7 نوفمبر ﴿ تشرين ثـان ﴾ 1909 وسـاندهـا " التروست " الصحفي وكـانت مـراميها تتلخص في جملـة أجـاب بها الناطق بـاسمهـا في البرلمان عن خطاب وزيـر الداخلية الذي فند كل دعاوى الكتلة وأفحم من مثلوها ، إذ قال النائب باسم الكتلة طبعا " فإما السلطة وإمـا الجمهورية " عرفت سنــة 1910 ميـلاد الكنفيديرالية الـوطنية للعمل وهي كما رأينـا تجمع نقابي ورث مـا كان لـدى التضامن العمالي ومعـه ولدت الفـوضوية النقـابية في أسبانيـا . وهكذا سيصبح للحـركة النقابيـة وجهان أو تياران أحدهما معتدل والثاني فوضوي ارهابي . وسرعان ما استحوذت الكنفيديــرالية ﴿ ث . ن . ت . ﴾ على جماهير البروليتيريـا وعقـولها في بـرشلــونـة والمنطقـة الشرقيـة ﴿بلنسية ومـا اليها ﴾ ثم اشبيليـا والأندلس لتمتد بعـد ذلك إلى ساراقسطـة ومنطقة الشمال . لم يمض عام على تأسيسها حتى حجر نشاطها فبقيت تعمل في الخفاء بينما حـاولت المنطقة المنـافسة لها ، الاتحاد العـام للشغل ، السيطرة على الطبقـة العاملـة واحتكارهـا فنودي في هـذه الفترة بالـوحدة النقـابية بحثـا عن ازالة الخصم أكثـر من

البحث عن الوحدة والوئام وبين التوفيق في بعض الشؤون وعدمه وبين الهدوء النسبي أيضا والاضطرابات والقلاقل وبين بريق الأمل وظلام اليأس قامت الحرب العالمية الأولى التي بقيت أسبانيا أثناءها على حياد تام ﴿ أم الملك نمساوية وزوجته انجليزية ﴾ ورغم هذا فقد أسهمت في ضعضعة هياكل البلاد .

وبانتهاء الحرب شاعت فكرة " ولسن " المنادية بتحرير الأقليات وهو ما اغتنمه القطالنيون للمطالبة بحكم ذاتي مضيفين بذلك ذريعة أخرى لتبرير مواصلة الإضراب الذي استمر في التزايد تحت ذريعة أخرى ، قد تكون حرب الريف وانتصارات الأمير عبد الكريم من أهمها وأكثرها وقعا على أنفس الشعب الذي أصبح مرة أخرى يطالب بتحديد المسؤوليات .

في هذه الأثناء وفي حرب الريف بالذات سيبرز أحد الضباط لجرأته وشجاعته ومقدرته ، فيذكر اسمه وتبدأ سمعته في الانتشار حتى يأتي يوم يلعب فيه دورا تاريخيا كبيرا فيرتبط اسمه باسم أسبانيا وتاريخها ويتحكم في مصيرها مدة طويلة وهذا الضابط هو فرانشسكو فرانكو الذي بصفته أصغر رائد في الجيش الإسباني وبمعية زميل له هو مليان أستراي ، بصفته أكبر مقدم في الجيش ، أنشأ قوة اللفيف لمجابهة حرب المغرب ، وهذه القوة أشبه شيء بقوة اللفيف الأجنبي داخل الجيش الفرنسي ، وقد لعبت دورا حاسما بالمغرب ومع فرانكو خلال الحرب الأهلية .

دكتاتورية بريمو

أما الأحداث في أسبانيا فتسير من سيء إلى أسوأ اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم سياسيا . فالاضطرابات تتوالى ، والاتحادان الرئيسيان للحركة النقابية الاتحاد العام للشغل والكنفيديرالية الوطنية للشغل ﴿ ث . ن . ت . ﴾ وصلا إلى الاتفاق وتنظيم العمليات والاضرابات المشتركة كلما دعت الحاجة وانعدم الاستقرار خاصة في مدينة برشلونة حيث انعدم القانون واحتلت الفوضى شوارع المدينة وانتشر الإرهاب في أهم نقاط البلاد حتى أن سنة 1921 وحدها سجلت في باب الجريمة الاجتماعية 18 اعتداء على أرباب عمل و12 اعتداء على رؤساء أحزاب و56 ضد أعوان الشرطة و142 ضد العمال . وفي يوم ونصف من يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1921 سجلت 21

عملية اغتيال وهذه الأرقام وحدها كـافية لاعطاء فكرة عن جو الحيرة الرهيب السائد في البـلاد وعن نتائجـه خاصـة لما بلغ الإرهـاب أوجه بمقتل رئيس ثـالث للحكومـة يـــوم 8 مـارس ﴿ آذار ﴾ 1921 والرئيـس المغتال هـو ادواردو داتـو الذي سبقـه كضحية العنف والارهاب كل من الرئيسين كانوفاس وكاناليخاس .

كان الرأي العام غـاضبا كما رأينا وثائرا أحيانا يـرى أن النظام الليبيرالي يقضي يوميا على البعث التجـديـدي الـذي أمّلتـه الجماهير يسـاعـده على ذلك عـدم الاستقـرار السياسي حتى أن الملك نفسه قـد جرفه التيار الغـاضب المعارض وأصبحت له نفس آراء الجماعير فعبّر عن ذلك في خطاب ارتجلـه أثناء حفل بقرطبـة صفقت له الجماهير طويلا وأصبح مؤكدا أن تغييرا ما لابد وأن يحدث .

وكان ذلك فعلا وجاء الحل على يد الجيش إذ فـرض الفريق بريمو دي ريفارا حله للقضاء على عدم الاستقرار وانعدام الأمن وتشويش النظـام فوجه يوم 13 سبتمبـــر ﴿ أيلول ﴾ 1923 منشورا إلى الملك يخبره فيه بعزم الجيش وهو في مقدمته على افتكاك السلطة ويهدد بأن " ثورته المعتدلة " ستكون " دموية " إن هي لاقت أي مقاومة ولم تلاق ثورته أية مقاومة تذكر إذ استقال رئيس الحكومة المدني أمام عجزه عن القيام بأى اجراء وفي اليـوم الموالي هاتف الملك الفريق بـريمودي ريفارا في مقـر قيادته ببرشلـونة وأخبره بقبوله الانقلاب . وفي يوم 15 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ صدر المرسوم الملكي بتعيين الحكومة العسكرية مرؤوسة من طرف قائد الانقلاب فكان في ذلك نهاية زوبعة تحديد المسؤوليـات والمحاسبات على الاحداث وانتصـار السلطة العسكريـة التي وجدت ، وهنا الغـرابة في الأمـر ، تأييدا حماسيـا شديـدا من الرأي العام والشعبي وكـذلك من الطبقـة المثقفـة ولا أدل على ذلك ممـا نشره الكـاتب الفيلسـوف خـوسي أورتيجـا إي غاسيت آنذاك فـي جـريدة " أل صـــول " ﴿ الشمس ﴾ إذ قال " إذا كانت الحركة العسكرية قد بحثت عن التوحيد ذاتيا مع الرأي العام وتصبح شعبية جدا فمن الحق القـــــول بأنها قد حققت ذلك تماما . فلنقـدّر اعتـــــراف الجماهـيـــر الشعبية الكبيرة بالجميل الذي تشعـــر به تجاه أولائـــك الفــــرقاء العظام الذين حققوا بكل تجـــــرد وكرم مطـامع عشرين مليـــــونا من الأسبان دون أن يكلفهم ذلــك أي مجهــود " .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من عهد الملك ألفونصو الثالث عشر ، مرحلة تحكم أثناءهـا في مصير البلاد ومقاليـد أمورها ضـابط عسكري وصل إلى السلطة بـرغبة أو طموح منه ولكـن بموافقة وتعيين الملك أيضا فكـان ممثلا ومؤيدا للقـوات العسكرية بأكملها ولذا لم تكن عمليته انتفاضة شلة من العسكريين ليحلوا محل الحكام المدنيين بل هي حركة كل القوات المسلحة قـامت بها لتضع حدا لحالة وأوضاع أضرت بالبلاد فـرغبت في تحسينها . ومـن ثم نجد أن القـوات المسلحـة بأكملهـا قد أقـدمت على المغـامـرة السياسيـة والادار يـة إذ حتى البلـديـات والمصـالح الاقليميـة قد تـرأسهـا العسكريـون . لكن مهما كانت الأسبـاب والغايـات ففترة حكم بريمـو دي ريفارا لم تكن سوى ديكتاتورية حاولت الكثير وحققت بعض ما أرادته ولكنها كانت وستبقى دكتاتورية .

دكتاتورية بريمو دي ريفارا

انتصر إذن العسكريون وجـاؤوا إلى السلطة وسط حماس وتأييد يكـاد يكون جماعيا وقبل الملك انتصاب هذه الدكتاتورية لأنه في تلك الظروف التي كانت تعيشها البلاد لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا ودون شك لم يكن يجب عليه أن يفعل شيئا لأنه باتفاق كل المؤرخين الـواقعيين لم يكن هنـاك طـريق آخر لأن عهـدا إذاك قـد انتهى ، عهـد تقهقرت فيه الملكية وولت ، وستسقط هذه الملكيـة لكن لا تحت ضربات أعدائها بل بأيدي أنصارها الدستوريين . لقد انهار بنـاؤها السياسي بنفسه والمدافعون عنها وعن سيـاستها قـد فقدوا الايمان بـالنظام عـدة سنوات قبل سقـوطه وانهيـاره خاصـة وأن الكثيرين منهم لم يكونوا يؤمنون بالملكية ولا بالملك .

استلم ميغال بـريمو دي ريفـارا السلطة وهـو لايدري مـا استلم . كانت حـركته مغامرة سياسية شاركت فيها كل القوات المسلحة في وحدة أو شبه وحدة ضد السلطة المدنيـة العـديمـة الفـاعليـة والمهينـة أيضـا وفي نفس الـوقت لمشـاعـر العسكـريين وحسـاسيتهم فكـان نظـامـه ، حسب النـاطق بـاسمه راميرو دي مـايثـو، ملكيـة عسكريـة . إن هذه التسمية ليست عفـوية لأنه لابـد من التذكير أن الملك ألفونصو الثالث عشر كان يشعر بنفسه عسكريـا قبل كل شيء ، عسكريا محترفا لا شرفيا وهو دستوريـا وشرعيا ، القـائد الأعلى للقوات المسلحـة وهذه وظيفة ومهمة قـد أداها الملك بكل جدية

استلم ميغال بريمو دي ريفارا السلطة وغايته تحقيق الكثير من الإنجازات ، فقد جاء في بيانه الأول الذي أعلنه يـوما قبل تنفيـذ الانقلاب أي يـوم 12 سبتمبـر ﴿ أيلـول ﴾ 1923 " لقد حـان الوقت الذي نخشاه أكثـر مما ننتظره ﴿ لأننـا كنا دوما نود أن نعيش في ظل الشرعية وأن تحكم هذه الأخيرة الحياة الأسبانية بلا انقطاع﴾ لنستلم الـزمام ونستجيـب إلى المطلب الصارخ الآتي من الكثيريـن المحبين لأسبانيـا والذين لا يـرون لها انقاذا آخر غير تحريرهـا من احتراف السياسة ومن الرجـال الذين بسبب أو بآخر يقدّمون لنا إطارا من البؤس والتعاسة وفساد الأخلاق بدأت كلها عام 1898 وها هي تهدد أسبانيا بنهاية قريبة فاجعة ومهينة . . . إذن نحن سنتحمل كل المسؤوليـات ونتولى الحكم أو يتـولاه رجال مـدنيون يمثلون أخـلاقنا وفلسفتنـا . لسنا مطالبين بتبرير عملنا هذا ، فالشعب يطالب به ويفرضه نتيجة لما يلي اغتيال أساقفة وولاة سابقين وأعوان سلطة وأرباب عمل ورؤساء فرق وعمال . واعتداءات جريئة لا يعاقب عليهـا وانخفاض في قيمة العملـة وتبذيـر الملايين في نفقات سرية وسيـاسية ضرائبية مشكوك فيها نظرا لميولاتها وخاصـة لأن الذين يحركونها يتبجحون بقلة أخلاق خليعة ودسائس سياسية دنيئة متخذة لها ذريعة مأساة المغرب وحيرة وانعدام ثقة تجاه هذا المشكل الوطني الخطير وانعدام الانضباط الاجتماعي مما جعل العمل باطلا وغير ناجع والانتاج الزراعي والصناعي مزعـزعا مفلسا ودعاية شيوعية لا رادع لها وضعف ايمان وانعدام ثقـافة وعـدالة متأثرة بـالسياسـة ودعاية انفصـالية مفضـوحة وتأثيرات عاطفية مغرضة حول مشكل تحديد المسؤوليات . وأخيرا ، ، لنكن منصفين ولنعترف بعمل واحد قـامت به الحكـومة وعـاشت بفضله تسعـة أشهر ، نظـرا لطيبة الشعب الأسباني الـلامتناهية ، وهـذا العمل هو الضغط على الميسر ومتـابعته ولو أن المتـابعة كانت ضعيفة وغير كاملة .

اننا لم نأت لنبكي حسرة وحيـاء على كل ذلك بل لنضع له عـلاجا سريعـا وحاسما ولذلك نحتاج إلى مساعدة الوطنيين الطيبين . . . نحن لا نريد أن نصبح وزراء واننا لا نشعر بطموح أكثر مـن الرغبة في خدمة أسبانيـا . إننا بمثابة الحرس المحلي ، ذي التقاليد الأسبـانية الاسطورية المشرفة ، ونحن مثلـه نأتي وشعارنا " السلم ، السلم ، السلم ، ولكنهـا سلم مشرفـة في الخارج وسلم مقامـة على الحزم الملائم وعلى الـردع العادل في الداخل .

هذا هـو موقـف بريمو دي ريفـارا وهذه هـي مطامحه . فهـل كان لـه ما أراد ؟ تتضارب الآراء عند الاجابة عن هذا السـؤال لكن إذا نظرنا إلى سنوات حكمه بتجرد ودون اعتبار الميولات السياسية وجدنا أنه قد نجح في إعادة استتباب الأمن والقضاء قضاء يكـاد يكون كاملا على الارهـاب وأعمال العنف واستطاع إنهاء حـرب الريف المشتعلة منذ سنة 1908 على أثر استسلام البطل عبد الكـــــريم يوم 26 مايـــو ﴿ أيار ﴾ 1926 وإعـلان نهايـة الحرب رسميا يـوم 10 يوليـو ﴿ تموز ﴾ 1927 . ونجـد أيضـا أنه أدخل إصـلاحـات على الـزراعـة فتحسنت نتيجة لـذلك التجـارة الخارجية ، وقام بإصـلاحات عديدة في قطاع المالية ولو أنهـا إصلاحات جمدتها الطبقات الثرية المعادية لأي تغيير ، عـداء أعماها عن التطور فبقيت مسمرة في ما تعتبره امتيازات مستحقة دائمة ثم إنه أعطى دفعا للاقتصاد محررا مختلف قطاعاته وخاصة المصارف . ولعل القطاع الـذي حقق أعظم الإنجازات هو قطاع الأشغال العامة الذي حسن ووسع وأنشأ فيه من الطـرقات مما جعل الشبكة الأسبانية تصبح أحسن شبكـة طرق في أوربـا عند انتهـاء فتـرة الديكتـاتوريـة ، حسب معظم أدلاء السياحـة والطرق في ذلـك الوقت وأسس كنفيـديراليـات استثمار الميـاه السطحية متقدما بذلك عما عرف بمشاريع " نيـوديل " الأمريكية ، كما أسس مجلسا وطنيا للسكك الحديدية بنسبة تطويرها وعمل على الزيادة في استعمال الطاقة الكهربائية وبناء مجموعة من النزل في أماكـن تاريخية أو ذات ميزات طبيعية بقي البعض منها إلى أن جاء الازدهار السيـاحي الذي عرفته أسبـانيا منذ الستينات فسـار المسؤولون عن السياحة في نفس ذلك المنهج وإلى اليـوم تولي مصالح السياحة عنايـة خاصة بهذا النوع من النزل المعروف باسم " بارادور " .

ولعل أهم عمل أو على الأقل العمل الذي كـان له صداه خارج البـلاد هو انشاء الشركة المحتكـرة لتجارة النفط والوقود " كـامبسا " كشركة حكوميـة مختلطة فكان ذلك بمثـابـة القنبلـة وسط الاحتكـار النفطي العـالمي المتمثل في السبع أخـوات اللاّتي تتزعمهن شركة استاندارد أويل ، وكن يردن احتكار رقابة المنتوجات النفطية بأسبانيا بمعية آل روكفيلير .

لقد رفض الـوزير " كالفـوصوتيلـو " بشدة رغبة المجمـوعة العالميـة واستطاع

بمساعدة المصارف االخاصة انشاء تلك الشركة التي أفسد بها اندماجا كان وشيكا بين شركات ستاندارد وشل والشركة الأسبانية للنفط التابعة لمجموعة جوان مارتش . وكي لا تختنق السوق الأسبانية اتفق كالفوصوتيلو مع الاتحاد السوفياتي على استيراد نفطها من آبار البحر الأسود بشرط ، قبلته موسكو بكل سهولة ، وهو رفع الحماية والعون السوفياتيين عن الحزب الشيوعي الأسباني .

كانت هذه الخطوة ناجحة سياسيا واقتصاديا ولكنها كلفت الكثير لكل من بريمو دي ريفارا والملك نفسه جالبة لهما اعداء الأخوات السبع اللآتي أخذن من يومها يتدخلن في السياسة الداخلية للبلاد فاشترين مجموعة من الصحف ذات الميولات الليبيرالية وتزعمن بذلك الهجومات المتكررة ضد الدكتاتور ونظامه وحتى ضد الملك ، الذي أشار الى ذلك في بعض تصريحات له بعد تركه العرش .

ولان حققت الدكتاتورية بعض المنجزات في المجال الاقتصادي والأمني فهي قد فشلت في الميدان الاجتماعي والسياسي ، فقد استلم العسكريون السلطة لوضع حد للفوضى بكل مظاهرها ، حسب دعواهم ، إلا أنهم لم يفعلوا شيئا من الناحية السياسية من شأنه أن ينظم الأمور ويرتب الحياة الدستورية . فبعد المرحلة الأولى التي عاشتها البلاد تحت الاحكام العرفية انتظر الجميع العودة إلى الحياة البرلمانية ولكن استمرت حالة الطوارىء ، واستمر العسكريون في مختلف مراكز السلطة المركزية والمحلية ولو أن الفريق بريمو دي ريفارا شكل حكومة " مدنية " أي أن بعض أعضائها من المدنيين الذين لم يكونوا ينتمون مباشرة إلى أي حزب أو ايديولوجية ظاهرة بل كانوا ، جميعهم ، تقنيين متخصصين ، ولعل هذا هو الذى جعل الدكتاتورية تحقق ما حققته اقتصاديا . وقد وجه الدكتاتور بريمو منشورا أو تعليمات في شكل منشور إلى أعضاء الوزارة قبل أن يتم تشكيلها رسميا جاء فيه " أن حكومة الوحدة الوطنية يجب أن تترك في الاعتبار الثاني السياسة العقائدية وتهتم قبل كلّ شيء باتخاذ اجراءات وتدابير إدارية مستقيمة " .

فهل استقامت هذه الحكومة ورجالها ؟ رأينا أنها استطاعت أن تحقق بعض المنجزات الاقتصادية وأن تحرز على إنهاء حرب الريف ولكنها لم تصل بذلك إلى إرضاء الشعب الذي قبل الانقلاب أو حتى تحمس له طمعا في التغيير المنشود

والموعود ، إلاّ أن الأمور بقيت على حالها أن لم تزدد تعكـرا . فالحياة البرلمانية قد جمّدت والنقابية أخمدت واضطهدت والرغبـات الأقليمية حرّمت واعتبرت انشقاقا وتمردا وكل هـذا إلى جانب عدم إنجـاز ما كان ينتظره الجيش نفسـه من تحسينات تقنية بالنسبة للقوات المسلحة ورفع مستوى حياة المجندين ، فأخذ الغضب ينتشر شيئا فشيئا في الأوساط العسكـرية مما جعل مدة الدكتاتوريـة تعرف عدة محاولات انقلابية أخمدت طبعا ولـم يخرج بعضها عن طور النوايا والأخذ والرد .

وكثيـر من الضبـاط السامـين قد نـاصبـوا الـدكتـاتور العـداء أيضـا إذ أن بعض التغييرات في سلم الـرتب قد مس مصالحهـم وأحالهم على التقاعـد فرأوا في ذلك إضعافا للقوات المسلحة التي يرونها في حـاجة إلى التطور تقنيا وعسكريا من ذلك فصل الطيران في سلاح مستقل وتـزويده بالتقنيات المتقدمـة آنذاك . وما من شك أن أهم إصلاح عسكري أنجز أثنـاء الدكتاتورية هـو انشاء الأكاديميـة العسكـــرية ﴿ التي مقرها اليوم مدينة سـاراقسطة ﴾ سنة 1927 واسناد ادارتها إلى " رجل عرف بخبرته التنظيمية والاداريـة بالاضافة إلى تفوقه التكتيكي وهـو أصغر فريق في أوربا آنذاك وهـو فرانسكو فـرانكو باهـامونتي . تـولى فرانكو ادارة الأكـاديمية التي أراد الدكتـاتور بـريمو بانشـائها وضع حد للخـلافات والحـزازات السائدة بين مختلف الأسلحة وذلك عن طريق تربية عناصرها داخل جو ومحيط واحد .

وفشلت الدكتاتوريـة في انشاء مؤسسات سياسية قوية . فـالاتحاد الوطني الذي أسس ليكـون تجمعا شعبيـا لم يعط النتائج المنتظـرة منه لانعـدام القادة والـزعماء الأكفاء القادرين على اجتلاب الجماهيـر واثارة حماسها . ثم إن تأسيس الجمعية الاستشاريـة التي من مشمولاتهـا إعادة الحيـاة إلى طبيعتها هو اعتـراف ضمني بأن الحياة قد فقدت مجراها الطبيعي ثم أنه اعتداء على نص وروح الدستور الجاري به العمل ﴿ دستور سنة 1876 ﴾ حسب معظم الساسـة الذين رأوا في تلك المؤسسة جمعيـة تأسيسية فثـارت ثائرتهم وشـرعوا في التحـرك بعد هـدوء نسبي . وأخطأت الدكتـاتوريـة أيضا بتـدخلها في الشـؤون العدليـة فجلبت لنفسها عـداء وتهجمات الطبقـات المثقفة ، أهل العلـم والأدب الذين استقـال البعض منهم من كـراسيهم الجامعية احتجاجـا . فالدكتاتورية التي أرادت أن تكون ثوريـة في ما هو اقتصادي

ومحـافظـة في مـا هـو اجتماعـي ، ولو بشيء مـن التجديـد ، قـد دخلت حـالـة الاحتضـار بدخول سنة 1929

كانت تعيش أيامها الأخيرة وسط عداء المجموعات السياسية قديمها وجديدها، عداء إن أضيفت اليه الخيبة وعدم الرضى في الأوسـاط العسكرية والشعور بالمهانة والاضمحلال تحـت وطأة الحكم السائد داخل الطبقـات الشعبية والمـؤسسات ، لاحت علامـات النهايـة لهذا النظام الـدكتاتوري الـذى جاء ليحقق الآمـال فخيبها فارضـا على الشعب ، بكل طبقاته ، بـاستثناء ذوي المال والجاه ، ثمنـا ثقيلا من انعدام الحـريات والضغوط المتنـوعة صعبة الاحتمـال . فبدأت الجماهيـر تتحرك والنظام يشدد ردعه وقمعه . إضراب في برشلونة يسحق من جذوره ومحاولة انتفاضة من طرف سلاح المدفعية تقمع هي الأخرى واحتجاج طلابي وآخر جامعي مؤيدان باحتجـاج رجال الفكر وغيرهـا من التظاهرات والمعارضـات وضعت النظام ، ومن ورائه الملكية ، على شفا الهاوية .

وهكذا وفي الأسبوع الأخير من شهر يناير ﴿ كـانون ثان ﴾ 1930 شعر الدكتاتور باقتـراب النهايـة ، فقبل ذلك بأسبوع استقـال وزيره للاقتصـاد لعدم مـوافقته على السياسة الاقتصادية التي أصبحت تنفذ بتدخل من رئيس الحكومة . وفي 26 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ بعث الدكتاتور برسالة دورية إلى قادة حاميات المناطق يطلب منهم الاجابة بأقصى السرعة عن سؤال واحد هو " هل تستطيع الدكتاتورية أن تعوّل على مسانـدة القوات المسلحة ؟ " وجـاءته الردود بـاردة مثلجة فليس بين القـادة سوى اثنين يمكن اعتبارهما في صفه . فأخذ إذن يفكر في النهاية الوشيكة ويحاول إعداد خلفه . ولكن دعاه الملك يوم 28 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1930 واتفقا على أن يقدم بريمـو دي ريفارا استقـالته . وفي نفس اليـوم كلف الملك الفريق دامـاسو بيـرنغر بتشكيل حكومة تحت راية وفي ظل دستور 1876 الذي أوقف العمل به أو كاد عند انتصاب الدكتـاتورية يوم 13 سبتمبـر ﴿ أيلول ﴾ 1923 . وبعد فترة قصيـرة خرج بريمو دي ريفارا ، بعد القيام بمحاولة تآمر ضد الملكية ، وقصد فرنسا حيث توفي يوم 16 مارس ﴿ آذار ﴾ 1930 .

لقد قيـل وكتب الكثيرون عن بـريمو دي ريفـارا وحكمه ونظـامه الـذي كان دون

شك دكتاتوريا ، ولكنه لم يخل من الرغبة في الإصلاح . فبعد أن توصل إلى تهدئة منطقة الـريف المغربي وانهـاء حربهـا أرادأن يفعل كل شيء على عجل وفي وقت واحـد . أراد إصـلاح الماليـة والاقتصـاد وانجـاز أشغـال عـامة كبـرى والإصـلاح العسكري في القوات البرية والبحريـة وتحوير القوانين وبرامج التعليم وما إلى ذلك ولكنه أخطأ الـوسائل والطرق أيضـا في تقديره لعمـر نظامه ودوامـه لقد علق وحكم على هذا النظـام رجل عسكري آخر أصبح في ما بعـد دكتاتورا ولمدة أطـول ، وهو الفريق فـرانكو ، الـذي كما قـال هو نفسه " قـد كرس السـاعات الطـوال للتفكير السياسي حول دكتـاتورية بريمـو دي ريفارا ولاحظ بخصوص ما كـان يراه انجازات موفقة ثـلاثة أخطاء أولها اصرار السيـد ميغال بريمو دى ريفـارا على اتباع الأسلوب الذي وصفه بأنه " اعتـداء دستوري " وثانيها انعدام السياسة في دكتاتـوريته وثالثها الأمعان في اعتبـار حكمه مؤقتا دون أن يقـدم على تغيير النظام من أسـاسه ، ذلك النظام الذي أجبرت الملكية على أن تخلفه لا حبا في الانقلاب ولكن لعجز ظاهر لدى ذلك النظام" .

سقط الدكتـاتور وترك الملك متهما بـالتواطؤ معـه خاصة وأن بريمـو دي ريفارا حاول دوما ادماج القصر في نظامه ومقرراته وتصرفاته أو التظاهر بأن نظامه هو نظام القصر وهـو ما جلب للملـك ألفونصو الكثيـر من التهم والتهجمات ممـا أدى إلى تركه العـرش كما سنرى . ولكن ها هـو الملك ألفونصو الثالث عشـر نفسه يوضح كيف وفي أيـة ظروف قبل تعيين الـدكتـاتور على رأس الحكـومة . يقـول الملك " أصدر بـريمو دي ريفارا بيـانه الشهير ووضع علـــى أهبـــة الحرب حاميـــته ﴿مقرهـا برشلونـة﴾ تؤيـدها حاميـة مدريد وليس ثمـة من يستطيع إثبات تـواطؤ مع المتمـردين . فبمحضر جميع أعضـاء الحكـومة سألتهم قـائلا بـالنظر إلى مـوقف الجيش هل يمكن أن تضمن لي إعادة استتبـاب الأمن فى أسبانيا وحمايـة الملكية والحكومـة ؟ فكان الجواب الذي حصلت عليـه هو أنه لم يكن بالامكـان تأكيد أو ضمان أي شـيء . إذاك بعث إلي الفريق بـريمو دي ريفـارا ببرقية يضمن لـي فيها المحافظة على النظام العام والولاء للتاج وإعادة اقامة الضمانات الدستورية بمجرد القضاء على الفوضـى . لم أتردد إذن لأن الأمر كان يقضي بـالاختيار بين المجهول وبين سلامة ممكنة " (15) .

ومن جهة أخرى يروي ابنه دون خوان آل بوربون ﴿أبو الملك الأسباني الحالي﴾ بأن أباه ألفونصو الثالث عشر كان يحدثه في المهجر لينقل له تجاربه وملاحظاته ولذا فهو يرى أن أباه " رأى في أنقلاب بريمو دي ريفارا محاولة تحول دون سقوط الملكية أو على الأقل تؤجل سقوطها . ففي سنة 1922 كان الملك ألفونصو قد ربط أمتعته " خياليا " ورضى بالدكتاتورية ظنا منه أنها سوف لا تدوم سوى الوقت الكافي لإعداد العودة إلى الأوضاع الطبيعية على أسس جديدة . كان يرغب في أن يعد بسرعة دستور جديد حتى يمكن ادماج الشعب إدماجا حقيقيا في الواجبات السياسية وكان نص مسودة الدستور الذي أعدته لجنة خاصة نصا ممتازا " (16).

ويتحدث الملك ألفونصو الثالث عشر مرة أخرى عن هذه المرحلة من عهده فيقول " صعد الفريق بريمو دي ريفارا إلى منصة السلطة عندما هجمت الأمة على الديماغوجيين وأجبر على ترك السلطة لأن الأمة التي استرجعت نبضها شعرت بعدم الراحة بدون الديماغوجيين . إن فشل الفريق بريمو عجلت به الأزمة الاقتصادية العالمية . ففي نفس الوقت الذي اصطدمت فيه التجارة بجدار الأزمة العالمية ورأى العمال أنفسهم وجها لوجه مع أنتاج آخذ في الانخفاض، ألقيت كل المصائب والمحن على كاهل الدكتاتور وأخذ الناس ينادون بانعقاد جلسات البرلمان " (17) .

وسواء أنجحت دكتاتورية بريمو دي ريفارا أم فشلت فهي ليست سوى مرحلة أخرى من مراحل التاريخ الأسباني قد أنطوت ومعها آمال شعب ظن ، ولو لبرهة أنه محققها وبقي ليجابه ما تبقى من مصيره .

المشهد الأخير : إن عهد ألفونصو الثالث عشر المليء بالأحداث والأزمات والصراعات بما في ذلك الحروب ﴿ الحرب العالمية الأولى وحرب الريف ﴾ هو أشبه شيء برواية فاجعة تتابعت فصولها لتؤدي إلى حل هو سقوط الملكية وقيام الجمهورية وتحقيق الفرحة للجميع أو هكذا ظن واضعو فصول تلك الرواية . فبعد سقوط الدكتاتورية وتكليف الملك الفريق داماسو بيرنغر بتشكيل الحكومة بدا جليا ما كان يأبى الكثيرون أن يروه رغم أنه ظاهرة سياسية تفرض نفسها وتعيد لأسبانيا صورتها التي أصبحت تقليدية وهي انقسامها إلى أسبانيتين . فقد كانت هناك كتلتان كبيرتان متقابلتان تجران إلى صفيهما بقية الأمة أي تلك الأغلبية غير

المبالية . إن أسبانيا قد وقعت مرة أخرى في سياسة القطبين التي عرفتها خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وفي سنة 1930 كان التقسيم السياسي العام لأسبانيا ، حسب الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا ، تقسيما يفضي إلى أسبانيتين ويشمل آراء الأقليات ومختلف مفاهيم رجال الفكر ومفاهيم العسكريين ويمثل سياسات الأسبانيتين الصغيرتين وكان يتجزأ الى كلمتين رنانتين واضحتين هما " جمهوريون وملكيون " (18) .

كان الأمر إذن من خلال كل المعطيات الأخرى كالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتحرك العمال للمطالبة بصلاحها والأوضاع الثقافية وخروج الأساتذة والطلبة من سكونهم منادين بإصلاحها والأوضاع العسكرية من حيث حالة الجنود المادية وحاجة الجيش إلى التطور ومماشاة العصر منحصرا في أي النظامين تحتاج أسبانيا ، النظام الملكي أو النظام الجمهوري . وكان طبيعيا أن تميل الكفة لفائدة الجمهورية فهي المأمول الذي لم يجرب بعد فيبقى حاملا لكل مواصفاته الطيبة الحسنة بينما الملكية قد جربت وها هو الواقع يثبت عدم صلاحيتها ، ولا أدل على ذلك من أعمال حكومة بيرنغر وتصرفاتها .

كانت حكومة مكوّنة من أضعف المحافظين عادت من يومها الأول إلى الليبيرالية في الأقتصاد ولعل أصحّ التعبير هو أنها كانت عديمة أية سياسة اقتصادية بينما أول ما كانت تحتاج اليه البلاد هو سياسة اقتصادية واقعية مرنة تخرج الوطن من الأزمة الحادة التي كان يعانيها وتسكت أو تهدىء من ثورة الطبقات الشغيلة والطبقات المحتاجة . لكن الحكومة كانت ضعيفة فلم تقدم ولم تستطع تحقيق أي تقدم في أي مجال كان . فقد حكمت بالدستور لكن دون مشاركة المجالس ، وخاصة البرلمان ، ولذا كانت حجة الدستوريين أن الملك اعتدى على الدستور فلم يعد صالحا ولذا وجبت الدعوة إلى تشكيل برلمان تأسيسي جديد ليقرر مستقبل وطبيعة النظام مع تعطيل وظيفة الملك ودوره مؤقتا ريثما يبت في الأمر .

كان عدم الرضى عاما والغضب شاملا حتى أن " الآتينييو " ﴿ المركز الثقافي الأكاديمي لمدريد ﴾ أصبح مركزا للمعارضة ومن أعلى منصته وجهت أكبر التهم

وخاصة تهمة الرشوة ، ضد الجميع بما في ذلك الملك ، فالمعارضة لم تعد ضد الحكومة بل ضد النظام . لقد بقيت الحكومة وحدها في عزلة دون أي اتصال أو ارتباط بالمجموعات السياسية التي تقوّي كل يوم من تهجماتها ضد النظام وتضم صفوفها وتوحد جهودها فتوجب ذلك باجتماع انعقد في مدينة سان سيبا ستيان يوم 28 أغسطس ﴿ أب ﴾ 1930 ضم قادة وزعماء المجموعات السياسية التالية : الحلف الجمهوري والحزب الجمهوري الراديكالي الاشتراكي واليمين الليبيرالي الجمهوري والحركة القطالانية وحركة قاطالونيا الجمهورية والدولة القطالانية والمنظمة الجمهورية الجليقية المستقلة . ومن جملة مقررات هذا الاجتماع إنشاء لجنة ثورية مكلفة بتنظيم تغيير النظام وذلك عن طريق انتفاضة عسكرية يؤيدها المدنيون . لكن لم تكن المجموعات المساهمة في لقاء سان سيباستيان تتمتع بقاعدة شعبية عريضة ولذا كان لابد وأن تبحث عن تأييد المنظمات العمالية وهذا ما فعلت إذ توصلت اللجنة الثورية إلى الاتفاق مع الحزب الاشتراكى العمالي ونقاباته ، الاتحاد العام للشغل ، وما أن جاء شهر نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ من نفس السنة حتى تحصلت اللجنة على تأييد ومساندة المنظمة العمالية الأخرى ، الكنفيديرالية الوطنية للشغل ﴿ ث . ن . ت . ﴾ ذات الميول الفوضوية .

كانت التهجمات تتوالى على النظام ولم تكن آتية من الجمهوريين فحسب بل ومن أكبر الأحزاب الملكية أيضا . وفي هذه الأثناء ، وضمن الحملة الدعائية التهجمية أعلنت اللجنة الثورية بمدريد عن انتفاضة ستنفذ يوم 15 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1930 . إلاّ أن أحد النقباء ، فيرمين غالان ، سارع بمعية جنود حامية مدينة خاكا فأعلن الجمهورية وتحرك يوم 12 فكان له اصطدام مع القوات الموالية للملكية وأحبطت حركته واعتقل مع زميل له وحوكما بسرعة من طرف محكمة عسكرية وأعدما حالا وكان ذلك يوم 14 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ فأصبحا أول شهداء الجمهورية .

وبعد شهرين من هذا الحادث سقطت حكومة الفريق بيرنغر ولم يتم تشكيل

حكومة جديدة إلاّ بعناء ومشقة . فأيام النظام أصبحت معدودة ولم يبق الا انتظار الانتخابات البلدية ، بينما الاضطراب والقلق آخذان في الازدياد خاصة اثر محاكمات بعض العسكريين والساسة من طرف محاكم اعتبرتها المعارضة وريثة عدم الشرعية التي أتت بها الدكتاتورية .

ووسط هذه الأجواء المكهربة والحبلى بالأحداث جاء يوم 12 أبريل ﴿نيسان﴾ يوم الانتخابات البلدية التي تقدم اليها الملكيون دون أن يصلوا إلى توحيد صفوفهم والمعارضة بعد أن توصلت إلى التحام جمهوري اشتراكي لم يترك خارج الصف سوى بعض الشيوعيين .

أسفرت الانتخابات عن فوز الجمهوريين في المدن الهامة بينما فاز الملكيون في القرى والدواخل . هذه على الأقل هي النتيجة الأكثر شيوعا لأن الأرقام الحقيقية لنتائج تلك الانتخابات لم تعرف رسمياً حتى اليوم وقد لن تعرف أبدا . ويكفي للدلالة على تضارب الأقوال والإحصائيات الخاصة بهذه النتائج ما جاء بلسان قلم مؤرخين معاصرين شهيرين أحدهما ملكي النزعة يميني الاتجاه وهو الاستاذ ريكاردو دي لاثيارفا وثانيهما جمهوري النزعة يساري الاتجاه ونعنى الأستاذ مانوال تونيون دي لارا . فالأول يقول في كتابه القيم " التاريخ الأساسي لأسبانيا الحالية " بأن " الأرقام الرسمية " ﴿ لنتائج الانتخابات البلدية تلك ﴾ هي هذه = 22150 نائبا ملكيا مقابل 5775 نائبا جمهوريا فليس هناك مجال للشك بأن النصر الملكى العام كان ساحقا . " أما الثاني فقد جاء بالمجلد التاسع من " تاريخ أسبانيا " الذي أشرف عليه وبقلم الأستاذ بيار ماليرب بأن النصر الساحق كان من نصيب الجمهوريين " الذين فازوا في احدى وأربعين عاصمة محافظة من مجموع خمسين عاصمة وكان عدد النواب هو 39501 نائبا من الجمهوريين والاشتراكيين و 34238 نائبا ملكيا أو من يمكن أن يعتبروا ملكيين " . فالفرق كبير جدا بين التقديريين كما يلاحظ مع العلم أن هناك تقديرات أخرى عديدة .

فمهما يكن من أمر ، وأيا كانت الأرقام الصحيحة الواقعية ، فإن الجانب الملكي وخاصة الحكومة والملك ، قد شعروا بالهزة وأخذوا يبحثون عن مخرج عبر سبل خاطئة .

فبعد أن أشعرت الحكومة بأن القوات المسلحة والحرس المدني سيبقيان على حياد في حالة حدوث ما يستوجب استعمال القوة ، انعقد مجلس وزراء حضره الملك وقال أثناءه رئيس الحكومة متعجبا " لقد نامت أسبانيا ملكية واستيقظت جمهورية " . هذا ويضيف أحد الوزراء قائلا " لدي شعور أريد التعبير عنه وهو أنه بعد انتخابات أمس تبدو الملكية لي غير شرعية " . بينما يقول ثالث " ليس ثمة الا حلين : الخضوع للهزيمة أو الاجابة بالعنف " .

كان الملك في جاحة إلى أقل من ذلك ليتخذ قرارا راوده منذ سنة 1917 ، خاصة وأنه كان يشعر بأن الشعب قد حرمه حبه وعطفه وأن المد الدعائي المغرض ضده قد غمر كل الحدود وأنه مهما يكن من أمر فهو لن يقبل ، لن يتسبب في حرب أهلية فترك العرش موجها بالمناسبة بيانا إلى الأمة قال فيه " بكل عزم وتصميم أريد الابتعاد عما هو دفع مواطن ضد آخر في حرب أهلية . إني أبتعد ولا أتنازل عن أي من حقوقي لأنها ليست ملكي فقط بل هي وديعة متراكمة من طرف التاريخ . إني عن طواعية أوقف ممارسة السلطة الملكية وأبتعد عن أسبانيا معترفا لها بذلك بأنها وحدها سيدة مصيرها " . وبينما هو في المهجر صرح لبعضهم يقول " لم يكن بإمكاني تجاهل أبعاد تلك الانتخابات التي كانت موجهة ضد شخصي مباشرة . فالافتراءات قد اقتلعت من قلوب الأسبان حبا كنت أعتز به وأفخر " .

وهكذا ترك الملك ألفونصو الثالث عشر العرش وفي مساء يوم 14 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1931 خرج من قصره بمدريد متجها إلى قرطاجنة ومنها أبحر إلى هجرة طويلة انتهت بوفاته ولم تعد رفاته إلى الوطن إلاّ بعد عودة الملكية والديمقراطية لأسبانيا وكان ذلك يوم 19 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1980 .

وفي هذه الأثناء ، وفي نفس الوقت تقريبا كانت الجمهورية تعلن في كل المدن تقريبا وسط حماسة جماهيرية شديدة . صفحة تطوى وأخرى تفتح وتلك سنة الحياة وليس لها تبديلا .

الحياة الأدبية : لا يمكن أن نترك الحديث عن عهد ألفونصو الثالث عشر دون التعريج على الحياة الثقافية والأدبية بصفة خاصة ، لأنه لا يمكن التحدث عن ثقافة

عامة ذات جذور وأبعاد شعبية بينما الشعب في معظمه أمي . ولذا فالنهضة أدبية بحتة ولو أن السياسة قد اندمجت فيها في كثير من الأحيان أو أن بعض قادة الفكر قاموا بنشاطات سياسية في هذا الاتجاه أو ذاك .

إن ما هو مؤكد ومحرز على الإجماع أن عهد ألفونصو الثالث عشر كان عصرا فضيا، ان لم يكن ذهبيا ، بالنسبة للفكر والآداب . عصر اختلط فيه جيلان أدبيان وهما جيل 98 أي 1898 في عنفوان نضجه ومجده وانتاجه ومن نجومه اللماعة الشهيرة أونامونو والأخوان ماتشادو وأثورين وباروخا وجيل 27 الشاب الذي لمعت فيه نجوم أدبية كثيرة قد يكون أشهرها ولظروف معروفة فيديريكوغارثيا لوركا وخوزي أنطونيو بريمو دي ريفارا . ثم أن هناك نخبة جامعية عبر عنها بالجسر الرابط بين الجيلين وهي أيضا قد شملت شخصيات لمعت محليا وخارجيا وفي شتى فروع الأدب والفكر . وما من شك أن أشهر أسم وألمع نجم فى هذه العائلة هو الفيلسوف خوزي أوتيغا إي غاسات. كانت أعمال هؤلاء الكتاب والمفكرين تنشر وتتحصل في مجلتين لعبتا دورا كبيرا في الربط بين مختلف العناصر والاتجاهات وفي بعث تيار ، بل ثورة تنادي بالتجديد فى الأسلوب والشكل الجمالي . وهاتان المجلتان هما " مجلة الغرب " التي يشرف عليها أورتيغا أي غاسيت وتسير في تيار فكره ورؤيته و " المجلة الأدبية وصاحبها أرنيستو خيميناث كابايرو وهي التي تزعمت الحركة الجمالية .

كان الانتاج زاخرا والنوعية جيدة والمواضيع المعالجة متنوعة وذات مرمى بعيد يتصل دوما بالأصول والجذور الأسبانية . كانت نهضة أدبية شاملة فضمت الملكيين والجمهوريين والمستقلين والاعتباريين واللا اعتباريين والكاثوليكيين وأدباء العاصمة وكتاب مختلف المناطق ولكنها كانت في نفس الوقت مقصورة على النخبة منحصرة في طبقة أرسطوقراطية دون أن يصل نشاطها المتعدد الوجوه إلى مجموع شعب كان لا يزال غارقا في تخلف ثقافي. لم يكن هناك من يفكر أو يهتم بثقافة شعبية حقة في أسبانيا ولو أن غارثيا لوركا سيعمل في ما بعد ، بعد إعلان الجمهورية على محاولة إيصال صوته إلى الطبقات الكادحة في القرى النائية عن طريق فرقته للتمثيل " البراكة " . إلا أن ذلك المجهودالفردى الذي جاء بعد عهد ألفونصو ، لا يمكن اعتباره بأي حال ، برنامجا لبعث ثقافة شعبية .

إن قائمة المفكرين والأدباء الذين لمعوا وجادوا وأجادوا خلال عهد ألفونصو الثالث

عشر طويلـة يتعذر إعطـاؤها كاملـة ولو أن الإفادة والانـارة تفرض ذكـر بعض حملة القلم في تلك الفترة ومنهم خـورخي غيـان ، داماسـو ألـونصو ، رافـاييل ألبيرتى ، فيثنتي ألكسنـدر ، فـرانشسكـو أيـالا ، ايمليو غـارثيـا غـومث ﴿ شيخ المستعـربين حاليا﴾ ، وغيرهم .

ولم يكن العصر فضيا أو ذهبيا في الآداب وحدهـا فالفنون التشكيلية والموسيقى قد أحرزت هي الأخـرى على نهضة وتطور جعلهـا تتعدى حدود البـلاد لتنتشر وتروج في الخارج . ففي عالم الرسم مثلا قد لمع فنانون أمثال سورويا ثولوواغا والعباقرة العالميين بيكـاسو وصـولانـا وميرو وغريس . كما ذاع صيـت المهندس المعماري غـاودي زعيم التجديد والحركيـة ثم إن أوربا بأسرها تمتعت ولا تزال تتمتع بانتاج الموسيقـار دي فايا وألبانيث وغرانادوس .

وهكذا فان عصر الملك ألفونصو الثالث عشر ، قد يعرف بعصر الفوضى أو عصر الحيرة أو عصر الظلم الاجتماعي أو الانهيـار الاقتصـادى ، فهـو - دون شك - ومن الناحية الثقافية البحتـة ، عصر ذهبي معطاء ، زخرت أرضيته بالمجيد من المفكرين والأدباء والفنانين الـذين لا يزال البعض منهم على قيد الحياة يواصل انتـاجه وعطاءه رغم ثقل السنين وتقلبات السياسة .

الفصل الثالث

الجمهورية

كان يوم 13 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1933 يوما حاسما في حياة أسبانيا إذ صدرت فيه رسميا نتائج الانتخابات البلدية التي أمالت الكفة لفائدة الجمهوريين إن لم يكن عدديا فحسيا وواقعيا لأنه في ذلك اليوم ، بينما كان مجلس الوزراء مجتمعا برئاسة الملك باحثا عن حيلة أو مخرج كانت شوارع معظم المدن الأسبانية في هيجان حماسي تنادي فيها الجماهير المتراصة بحياة الجمهورية التي أعلنت فعليا في بعض المدن حتى أنه ما أن جاء صباح يوم 14 حتى كانت الجمهورية واقعا ملموسا . إن أعضاء اللجنة الثورية المنبثقة عن اتفاقية سان سيباستيان قد أصبحوا أقرب شيء إلى حكومة مؤقتة ، وبين هتافات وحماسة الجماهير ، شقوا طريقهم من مركز اللجنة إلى مقر الحكومة حيث أعلنوا رسميا قيام الجمهورية . كانت الساعة الثامنة مساء ، وفي نفس الوقت تقريبا ، خرج الملك ألفونصو الثالث عشر من قصره مغادرا البلاد لتبدأ بالنسبة له مرحلة هجرة ثقيلة وبالنسبة للبلاد مرحلة آمال وخيبة ، مرحلة تقدم وتقهقر ، مرحلة سعي وفشل ، مرحلة هي في النهاية تجربة مرة ستفضي إلى ما هو أمر وأقسى .

الميراث : ترك الملك ألفونصو الثالث عشر العرش دون التنازل عليه ولا على أي من حقوقه بل كان نزولا عن طواعية ومحاولة منه للحيلولة دون تصادم الأسباني ودون نشوب فتنة . غادر العرش إذن تاركا للجمهورية التي تلته ميراثا قليل في التاريخ ثقله وعدد ونوعية مشاكله . ترك للمسؤولين الجدد بلدا يسوده الاقطاع ، تحكمت في شؤونه أقلية ماسكة بالثروة ومصادرها متمركزة فى مواقعها ، رافضة لأي تغيير أو أي تجديد خاصة إذا كان ذلك ماسا بمصالحها أو رأت فيه خطرا يهدد مكاسبها ، ترك الملك للمسؤولين الجددبلدا ، غارقة أغلبية شَعْبَهُ في الأمية والفقر أو حتى في الجوع والمهانة ، بلدا انقسم شقين : غني وفقير ، متعلم وجاهل ، يميني ويساري ، ملكي وجمهوري ، جامد ومتحرك . بلدا تشتتت قواه الحية فكريا أو جسمانيا داخل نسيج معقد من الأحزاب والمنظمات والجمعيات والنقابات يصعب حصرها أو فهم مباديها وغاياتها وتحركاتها .

لكل هذا أراد النظام الجديد أن يكون دستوريا ديمقراطيا خالصا ولكنه لم يقدم على تغيير اجتماعي بالمعنى الصحيح أي لم يقدم على تغيير طريقة الانتاج أو إدخال

إصلاح اجتماعـي للقضاء على المظـالم وتصفية البالي القـديم ومماشاة العـالم الرأسمالي المعاصر الذي كان يعيش فيه . (19) .

المشاكل : كان النظام الجديد ، أي الجمهورية ، يواجه مشاكل من كل نوع تحتاج كلهـا إلى حلول سريعـة نظـرا لانعدام صبر الجماهير التى أيقظتهـا الحاجـة وحركتهـا قيادات نقابية وفـوضوية عاقدة العزم على تغيير الأوضـاع و إخراج العامل من شقائه وعبـوديتـه ، ولكنها تصطـدم بتعنت ومعـارضـة أقلية رأت أنها قـد سلبت السلطـة السياسية وتخشى سلبها السلطة الاقتصادية .

ما من شـك أن أهم تلك المشاكل وأصعبها حـلا ، رغم ضرورة الاسراع بها ، هي المشاكل الاقتصـادية . ان التأخير الهيكلي الـذي كانت عليه أسبـانيا قـد خلق وضعا وشكلا زراعيا ذا بال . كانت هناك فـوارق كبيرة في الملكية وكان هناك تضخم سكاني إلى جانب انتـاج منخفض وانعدام طلب لليد العـاملة داخل المدن مما لم يسـاعد على تخفيف الوطأة على الريف . " إنه لا يمكن فهم مشكلة الريف والقطاع الزراعي دون أخذ المشاكل الاقتصادية بعين الاعتبار . فـالسوق الداخلية ضعيفة جدا والصادرات في معظمها زراعية ومنجمية والتأخر التقني واقع ملموس والمركزية الاحتكارية مهيمنة تحميها قوانين جبائيـة . وهذا بالأضافة إلى التشابك الكـامل المحكم بين البورجوازية العليا ، الزراعية والمالية والتجارية ، . وهي بورجوازية مكوّنة مما يقرب من مئة عائلة لاغير تتصرف طبقا لمفاهيم النظام القديم ، نظام الاقطاع الزراعي " (20) .

وكما لو لم يكن هذا كافيا في حد ذاته ، فهو يقع وسط تشابك هيكلي عالمي متأزم .

ولايقل عن الاقتصـاد أهميـة وخطورة ، مشكل الجنسيـات أو الحكم الـذاتي . إن أسبانيا ، كما سبق وأن ذكرنـا ، وحدها تحت تاج واحد وحكم مركـزي الملك فرناندو وزوجته ايزابيل المعروفان باسم " الملوك الكـاثوليك " وذلك على أثر استرجاع أسبانيا من أيـدي المسلمين . ولكن لم تفقـد بعض المنـاطق شخصيتها ومكـوّنـاتها بل زادتها الأيام حـدة وازداد المواطنون فيهـا تعصبا . تـأتي قاطـالونيـا في المقدمـة متبوعـة ببلاد الباسك ثم جليقية وكلها تنادي بحكم ذاتي يعطيها نوعا من الاستقلال عن الحكومة المركزيـة لتبرز شخصيتها وذاتيتها وتستعمل لغتهـا وترفع علمها . ولم تـزدها مركـزية

الـدولة التقليـدية الا تصلبـا كما زادت المشكل تعقيدا ممـا أدى إلى التشنج والتوتـر ، واجهتها الجمهوريـة مبكرا . إن هذا المشكل كـان أحد المواضيع التي شملهـا مؤتمر سان سيباستيان ومقرراته .

ثم إن الكنيسة هي الأخـرى كانت مشكلا أو حتى عقبة في طـريق الجمهورية لأن الكنيسة بعـد الهزات التي لاقتها خـلال القرن التـاسع عشر ، عادت ومتنـت الصلة بالعرش وبالوضع القديم مما زاد في صـلاتها وتأثيرها على الحياة العامة ، لا عن طريق التعليم الـذي كـانت تهيمن على جـزء كبير من مـؤسساتـه ولا عن طـريق وظيفتهـا الطبيعية وتـدخلها في الحيـاة العائليـة فحسب بل عن طريق نشـاطات أخـرى أيضا تتمثل في منظمات تـابعـة لها ولـوظيفتها مثل " العمل الكـاثـوليكي " و " الجمعيـة الكاثوليكية الوطنية للدعـاية " ومنظمات مهنيـــة أخـــرى ربطتها بالديـــن مثل " الكنفيديرالية الكاثوليكية الزراعية " ذات عظيم التأثير ﴿ كان أمينها العام الأستاذ الشاب آنـذاك خوزي مـاريا خل روبلس الـذي سيلعب دورا هامـا عن طريـق هذه المنظمـة وعن طريق حـزب يميني أسسه وهـو الذي عـرف باسم ثيـدا ﴾ والنقابـات الكاثـوليكية العمـاليـة وفيديراليـة الطلاب الكاثـوليكيين والجمعية الـوطنية للمعلمين الكاثوليك وغيرها . فبكل هذا كان واضحا أن الكنيسة لم تكن بعيدة عن السياسة ولم يخف بعض مسؤوليها ميولاتهم اليمينية .

وأخيرا لا آخرا ، فالمشاكل لا تحصى ، نجد مشكلا هو في الحقيقة نتيجة طبيعية لما تقدم ونعني التـأخر الثقافي والتربـوي الذي كـان بارزا واضحا رغـم المجهودات التي بذلها الكثيرون من المربين ورجال الفكر .

القوات الاجتماعية : أمام هذه المشاكل وكثرتها وتعقيدها ، ماهي القوى والمنظمات الاجتماعية التي كـان يمكن للجمهوريـة أن تستند عليها أو تتعـاون معها لمعـالجة ما تشكـوه البـلاد من مشـاكل وصعـاب ؟ كـانت البـلاد تزخـر بـالأحـزاب والمنظمات والنقـابات والجمعيـات ، منهـا المحلي العامل داخـل منطقة معينـة وطبقـا لسياسـة منحصرة فى حاجيات تلك المنطقة ومنها ماهو قومي وطني ينظر في سياسته إلى البلاد ككل ويعمل طبقا لـذلك . ثلاثـة من هذه الأحزاب جمهـورية النـزعة لها وزن يمكن اعتبـاره بينما هناك أحـزاب أخرى ذات نفـس الاتجاه ولكنها ضعيفـة نسبيا . فهنـاك

الحزب الراديكالي والراديكالي الاشتراكي والعمل الجمهوري وأقل من هؤلاء قوة وانتشارا نجد الحزب الجمهوري الفيديرالي واليمين الليبرالي الجمهوري وهو حزب ذو صبغة محافظة .

أما الحزب الأكثر تنظيما وقوة في الاتجاه اليساري فهو دون شك الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ووراءه مؤسسته النقابية المنظمة والقوية هي الأخرى ، الاتحاد العام للشغل . وكمؤسسة عمالية هناك أيضا الكنفيديرالية الوطنية للشغل ذات النزعة الفوضوية التي ، مثل الحزب الشيوعي ، وكان إذاك صغيرا ، لاتقف من الجمهورية موقف المؤيد إذ تتنافى فلسفتها الفوضوية مع أي نظام معروف .

وإلى جانب هذه المنظمات ذات الشكل والنشاط القومي ، نجد حركات أخرى مقصور نشاطها على منطقة محدودة مثل اليسار الجمهوري والعمل القطلاني الجمهوري والوحدة الاشتراكية بقاطالونيا بينما الحزب الوطني الباسكي ونقابته ، التضامن العمالي الباسكي ، يعملان في بلاد الباسك . في جليقية كانت نشيطة المنظمة الجمهورية الجليقية المستقلة ولحق بها منذ سنة 1931 الحزب الجليقي .

كانت كل هذه التشكيلة من الأحزاب والجمعيات والنقابات تعمل ، ولو نظريا ، لمساندة الجمهورية وشد أزرها ولو أنها في الواقع قد أضرت بها نتيجة التفرقة وعدم توافر أو تنسيق الجهود .

أما الصف المقابل أي الكتلة الاجتماعية الاقتصادية التي هيمنت سابقا وفقدت مراكز إدارة وتسيير الدولة بعد ذلك فقد كانت تمر بأزمة حادة في ما يتعلق بتمثيلها ، فالأحزاب القديمة التي تداولت على السلطة قد اضمحلت وبقيت مجموعات صغيرة غير ذات تأثير يذكر ، كمجموعة الدستوريين أو المجموعة الديمقراطية الليبرالية . كانت هناك أيضا الوحدة الملكية الوطنية ولكنها لم تكن تتمتع بسمعة لدى الرأي العام وأهم منها نواة الفاشيتية المتمثلة في الحزب الوطني الفاقد لأية قاعدة ثابتة . فهل يعني أن الفراغ السياسي قد تم وتأكد بالنسبة لليمين ؟ لا ، طبعا ، لأن الفرق السياسية الكاثوليكية لا تزال عينا ساهرة وهي منظمات هامة جدا ذكرنا أهمها عند

الاشارة إلى تأثير الكنيسة ودورها . وإضافة إلى تلك المنظمات كانت هناك اتحادات ذات صبغة أو طابع مهني تتحرك وتعمل للدفاع عن أرباب العمل والوقوف في وجه النقابات والتحركات العمالية . نذكر من بين هذه الاتحادات كنفيديرالية الأعراف ﴿ أرباب العمل ﴾ الأسبانية والكنفيديرالية النقابية وتنمية الشغل الوطني ببرشلونة ورابطة المنتجين الباسكيين والجمعية العامة لمربي المواشي وأخرى لملاك حقول الزيتون وثالثة للمزارعين وغيرها دون نسيان الغرف التجارية والصناعية وما اليها .

الانجازات : ما من شك أننا أطلنا في سرد وتعديد مختلف الكتل الممثلة للقوى الاجتماعية في البلاد وما كان ذلك منا الا رغبة في إعطاء القارىء صورة أكثر وضوحا وأقرب إلى الواقع الذي كانت عليه الجمهورية الفتية ، وليدة الصدف أكثر منها وليدة التخطيط والتنظيم ، أن تواجهه . لقد عاشت البلاد الأسابيع الأولى من إعلان النظام الجمهوري في حماسة وفرحة يحدوها الأمل الواسع العريض وهو ما قوى عزيمة المسؤولين فسارعوا بالشروع في الإصلاحات والحكومة لا تزال مؤقتة فأصدروا قانونا زراعيا اجتماعيا وأخر للإصلاح العسكري والإصلاح التربوي وحوّروا قانون الانتخابات وتم الاعتراف بحق قاطالونيا في حكومتها الذاتية الاقليمية ، وكذلك الشأن بالنسبة لبلاد الباسك ولو بشيء من المشقة والمشاكل ، وأنشئت محاكم أو لجان الشغل المختلطة وحددت ساعات العمل اليومي إلى ثماني ساعات بالنسبة لكل القطاعات بما في ذلك القطاع الزراعي الذي حدد لعماله الأجر الأدنى أيضا . صدر كذلك في هذه الفترة قانون وجوب استثمار الأرض أو استلامها من طرف مؤسسات ريفية أو تعاونيات لاستثمارها . لقد أريد بهذا القانون اصلاحاً زراعياً ولكنه كان اجراء غير كاف بالنسبة للوضع الذي كان عليه توزيع الأراضي وملكيتها في القطاع الزراعي ونظرا لحالة الفلاح الأسباني المادية والأدبية ولكنه بالنظر إلى الأوضاع السياسية إذاك يمكن اعتباره ثورة عديمة المثيل بالنسبة للحياة الريفية الأسبانية وهو أيضا بمثابة الكارثة بالنسبة لكبار الملاك الذين أطلقوا العنان لصحافتهم اليمينية المسيحية فبدأت الحملة ضد الجمهورية . ولم يكن الإصلاح المدخل على أوضاع العسكريين ليجد الصدى المطلوب أو النتائج المقصودة لأنه من ناحية قد مس بمصالح ومكاسب أكثر من ثلاث مئة من كبار الضباط ﴿ من بينهم فرانكو ﴾ ومن ناحية أخرى أضعف الجيش عن طريق قانون التقاعد المبكر، لا من أعداء الجمهورية

فحســـب ، بـــل من أنصارها أيضا .

أما في الإصــلاح التربوي والتعليمي فقد أنجـزت خطوات هامة مفيـدة لاتنكر إذ أحدث العديـد من المدارس ورفعت أجور المربين ونظمت دورات لتدريبهم وأنشىء مجلس بيداغوجـي لنشر الثقافة في الريف إلى غير ذلك . الا أن جعل التربيـة الدينية اختيارية وعدم فصلها عن البرامج و إعطائها حـريتها قد صيّر الخطوة عاملا آخر من عوامل غضب اليمين والكنيسة واغتنام الفرصة للزيادة من مقاومة الجمهورية .

ومن جهة أخرى فانه رغم المقاصد الطيبة ومحاولة الاسراع بالتغيير من قبل الحكومة المؤقتـة ، فقـد خمد حماس الجماهير التي عبرت عنـه بشدة خـلال الأيـام الأولى وبـرز تمسك الكتلـة التي كانت مـاسكة بـالاقتصاد والثـروة بولائهـا لمصالحهـا ومكتسباتها فوضعت كل العراقيل في طريق الإنجازات مستعملة الأجهزة الإدارية المركزية والاقلية وواصلت تهجمها على الجمهورية وقراراتها بينما أخذ الصف المقابل ، صف الفلاحين والعمال والطبقات الكـادحة المحرومـة فــي التململ والتحـرك وقـــد ضاق صبره وأثارتـه مناورات المنظمـــة الفوضويـــة « ث . ن . ت . » التي انتصر التطرف في صفوفها بعد مؤتمرها الـذي أنعقد في تلك الفترة . وانعقد أيضا في نفس الوقت مؤتمرَ الحزب الاشتراكي للنظر في مشاركة زعمائه في الحكومة أو البقاء خارجها فانتصر الرأي الأول وتقرر التعاون مع حكومة الجمهورية وأعـد برنامج لتقديمه إلى البرلمان ومناقشته وكان برنامجا تقدّميا طموحا .

الانتخابات : وسط هذه الأجـواء المكهربة والأوضاع غير المستقـرة وغير الواضحة وفي خضم المؤتمرات التي كانت تعقدها الأحـــزاب والنقابــات حدد يوم 28 يونيو « حزيران » لإجراء انتخابات المجلس التـأسيسي . وخلال الحملة الانتخابية جرت أحداث زادت الأوضاع توترا منها قلاقل عمالية سببها ارتفاع عدد العاطلين خاصـــة

بين العمال الـزراعيين ، وذلك لـرفض الملاّك خـــدمـة أراضيهم ممـا أدى في بعض المناطق « طليطلـة مثلا » إلى زحف العمال على الأراضى غير المحروثـة والتعاون على زراعتها وخدمتها .

جرت الانتخابات دون أحداث تذكر وفاز فيها التحالف الاشتراكي الجمهوري واليسار القطلاني أمام اليمين الذي كان ممثلا في " العمل الوطني " . وهكذا عقد البرلمان التأسيسي أولى جلساته يوم 14 يوليو ﴿ تموز ﴾ وكان تشكيله النهائي كما يلي : 116 نائبا اشتراكيا و 90 راديكاليا و 56 راديكاليا اشتراكيا و 36 من اليسار القطالاني و 26 من العمل الجمهوري و 26 عن الزراعيين و 22 عن اليمين الليبيرالي الجمهوري و 16 عن المجموعة في خدمة الجمهورية و15 عن الحركة الجليقية و 14 عن بلاد الباسك ونافارا ﴿ الحزب الوطني الباسكي ﴾ و 3 نواب عن الرابطة القطالانّية و 4 نواب ليبيراليين ديمقراطيين ونائب ملكي و 14 فيديراليين وممثلين لأقصى اليسار .

والملاحظ في تكوين هذا المجلس هو ولوج قاعته لأول مرة من طرف العمال فكان لهم صوت مباشر في البرلمان وهو ما لم يحدث من قبل .

التأهب : بعد تشكيل البرلمان التأسيسي وتشكيل أول حكومة أخذت مختلف الكتل تتأهب للحركة الفعلية . هذه للحصول على حقوق مفقودة وتلك للقضاء على الجمهورية بعد احباط مجهوداتها وأعمالها .

وهكذا نجد أن الحكومة الجديدة قد اضطرت لمواجهة اصضرابات عمت اشبيليا و، منطقتها ، إضرابات سرعان ما تحولت إلى مشادات واصطدامات بين المضربين ورجال الأمن أدت إلى مقتل أحد العمال و إلى اعتقالات كثيرة فى صفوفهم . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى تصرف القوات المكلفة بالحفاظ على الأمن تصرفا عنيفا انتقاميا وحشيا منه قذف أحد البيوت بالمدفعية .

أما في الصف المقابل فكان الكارليون ﴿ نسبة إلى أنصار التيار المطالب بالعرش منذ حروب الخلافة التي بدأت خلال القرن الثامن عشر ﴾ يتآمرون بالتعاون مع بعض كبار الضباط في الجيش للاطاحة بالجمهورية وطلبوا من الحزب الوطني الباسكي السير معهم في هذا الإتجاه ولكنه رفض ذلك . ومن جهة أخرى كان الكاردينال بيدرو سيغورا قد استقرّ في جنوب فرنسا ومن هناك تآمر هو الآخر عن طريق أساقفته

وقساوسته إلى أن أوقفت السلطة بعضهم فاكتشفت لديهم الكثير من الوثائق المفصلة لخطته فسارعت الحكومة بالاتصال بالفاتيكان ، الذي كان مؤيدا لحركة سيغورا ، وتوصلت معه الى اتفاق .

ولم يكن كبار الملاك وأرباب الصناعة والمال ليبقوا دون نشاط بل أخذوا يستعدون للوقوف بأكثر حزم ضد الجمهورية فأسسوا جمعية توحد صفوف وعمل ملاك الأرض كما هو الشأن بالنسبة لأرباب الأعمال فكان مولد جمعية مالكي الضيعات الزراعية .

الدستور الجديد : كان كل هذا ، وغيره ، يجري بينما انكبت لجنة على اعداد دستور جديد أتمته وقدمته للمناقشة داخل المجلس النيابي يوم 16 سبتمبر (ايلول) 1931 وسرعان ما تحول النقاش إلى صراع كلامي وتبادل تهم وشتائم لما تعلق الأمر بالموافقة على الفصلين 26 و27 المتعلقين بعلاقة الكنيسة بالدولة . فقد نص الفصلان على حل عدة مؤسسات تابعة للكنيسة وتأميم ممتلكات هذه الأخيرة ولم تهدأ الحالة إلاّ عند بلوغ حل وسط . وبعد شهرين من بدئها تمت المناقشة بالمصادقة على الدستور ، فجاء دستورا ضامنا لحقوق الإنسان في أشكالها العائلية والاقتصادية والثقافية ، ناصا على إمكانية نزع الملكية الخاصة للفائدة العامة مقابل تعويضات مناسبة ، معطيا حق الانتخاب لكل المواطنين من الجنسين ، البالغين سن الثالثة والعشرين ، سامحا بالطلاق ومشيرا في فصله الأول إلى أن " أسبانيا جمهورية ديمقراطية عمالية تقام داخل نظام حرية وعدالة . والجمهورية تشكل دولة متكاملة متماشية مع الحكم الذاتي للمناطق " .

وهكذا صودق على هذا الدستور يوم 9 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1931 وانتخب الأستاذ الكالا ثامورا أول رئيس للجمهورية . وكانت الحكومة المؤقتة قد استقالت هي الأخرى وشكلت أول حكومة جمهورية يوم 15 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1931 وكان رئيسها الأستاذ مانوال أثانيا الذي حرص على أن تكون حكومته ممثلة لمجموعة الأحزاب اليسارية والطبقات العمالية وأن تكون حكومة إصلاحية .

خطواتها : رأينا ما جاء في بعض فصول الدستور من قرارات جديدة مثل حقوق

الانسان الاقتصادية وحريته في اختيار تعليمه وثقافته ، وحق الجميع ، بما في ذلك المرأة ، في الاقتراع ، وشرعية الطلاق ، وحق المناطق ذات الشخصية المختلفة في حكم ذاتي واستقلال اقليمي وكلها خطوات جديدة جريئة لم تكن لترضي أنصار الجمود والمحافظة على الأوضاع القائمة لما فيها من ضمان لمصالحهم . وأقدمت الحكومة في هذا النطاق على سن قانون إعطاء قاطالونيا استقلالها الذاتي وقانون إصلاح زراعي قدمتهما إلى البرلمان حيث فازا بأغلبية كبيرة ووضعا حالا حيز التنفيذ ولو أن الإصلاح الزراعي تعطل وتعثر كثيرا فلم يحقق ما جاء فيه وما رمي اليه فاتخذت السلطات إجراءات عرضية منها السماح للفلاحين باحتلال الأراضي التي لم يخدمها أصحابها لمدة سنتين متتاليتين واستثمارها لفائدتهم . فأرضت بذلك بعض مطالب الفلاحين وهدأت غضبهم ولو لحين .

<u>الوضع الاقتصادي الاجتماعي</u> : يمكن القول أن الجمهورية واجهت في سنتها الأولى وضعا اقتصاديا مشجعا . فمحصول سنة 1932 كان حسنا في جملته زراعيا وتجاريا واسترجعت الصناعة بعض قوتها بعد الركود وتزايد عدد الشركات الخفية الاسم المحدودة كما ارتفعت نسبة الاستثمار ورفعت عدة مصارف من رؤوس أموالها فثبتت الأرصدة فيها وسجلت الكهرباء ارتفاعا في فوائدها وكذلك الأسمدة والورق .

لكن مقابل هذا كانت البطالة تزداد استفحالا يوما بعد يوم . فالسياسة أثرت فيها كثيرا إذ أن كبار الملاك الزراعيين قد رفضوا خدمة أراضيهم كرد فعل للمطالبات العمالية والإصلاحات المعلنة من طرف الحكومة . كما أن الاستثمار والقروض في قطاع البناء قد تعطلت ثم إن الأزمة العالمية قد أثرت في هجرة اليد العاملة فأصبح اتجاهها عكسيا أي عودة لا هجرة حتى أن عدد العاطلين قد قدر خلال شهر يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1932 بقرابة النصف مليون عاطل أكثر من نصفهم في القطاع الزراعي . (21)

<u>ردود الفعل</u> : وكما هو طبيعي وأمام استفحال البطالة ونفاذ صبر الطبقات الكادحة الباحثة عن الخروج من مآسيها في أقصر الآجال ، كانت هناك ردود فعل مختلفة الأساليب والتأثيرات . فقد كانت الإضرابات تتكرر وتتوالي وتتواصل حتى أن سنة 1933 مثلا قد عرفت أكثر من ألف إضراب أغلبها في قطاعي الزراعة والمناجم لأن أرباب العمل لم يثنوا عن عزمهم على احباط كل الإصلاحات وبقوا أوفياء

لأيـدولـوجية ومفـاهيم النظـام القـديم مـؤمنين بقوتهم وتحكمهم في مصـادر الثـروة والشغل . وكان يساند هذه الأقلية المهيمنة على الاقتصاد والمالية ، أقلية أخرى مكوّنة من البورجـوازية العليا والطبقة الأرسطـوقراطية ورجـال الكنيسة الذين كانـوا يعملون بدوافـع خاصة وحسـب تعليمات من الفاتيكـان جاءت في منشور سري يطـالبهم " بالدفاع عن الدين والنظام الاجتماعي " ، ومن كثير من العسكريين المرتبطين عاطفيا بالنظام القديم .

تكررت المشاغبات من طرف العمال وتعـددت تظاهراتهم في العديد من المدن مثل اشبيليـا وبرشلـونـة ومـدن الشمال والمناطق المنجميـة وتسربت تلك العـدوى وذلك الهيجان إلى الـريف . ان المحرك الأكبر للعمال في هذه المظـاهرات هو الكنفيديـرالية الوطنيـة للشغل ﴿ ث . ن . ت . ﴾ الفوضـوية التي طالبـت لهم بيوم شغل ذي سبع ساعات والتي ازدادت مواقفها من الحكومـة تشددا وتطرفا كلما تشددت هذه الأخيرة في القمع والـردع . ولم يكن تشـدد ردع الحكـومـة ليميل كفـة التطـرف داخل الكنفيـديراليـة فحسب بل تعداهـا إلى صفوف الحزب الاشتراكي ونقـاباتـه ، الاتحاد العام للشغل ، حتى أصبحت أية مظاهـرات أو أي إضراب تصادما بين المتظاهرين ورجال الأمن تسقط أثناءه الضحايـا ويعتقل الكثيرون . جرى ذلك في الأندلس وفي منطقة سالامنقـة وفي طليطلة ليتحول الصدام من الـريف إلى المدن فتشهده معظمها مثل بلبـاو وساراقسطـة وقادش وقـرطبة دون أن تشـذ العاصمـة مدريـد أو الحاضرة برشلونة ومنطقتها حيث بلغت انتفاضـة " يوبريغات " أقصى حدود الخطر مما أدى بالحكـومة إلى سن قـانون خاص للـدفاع عن الجمهوريـة وإلى إبعاد مئـة وأربعة من مسؤولي الكنفيديرالية الوطنيـة للشغل إلى غينيا فاحتلت المزارع وحرقت الآلات وساد التوتر وعمت رائحة الثورة في كل مكان .

تآمر اليمين : جاء هيجان وتحرك الطبقات العاملة نتيجة لنفاذ صبرهم ولتصرفات الطبقة المهيمنة اقتصاديا التي عرقلت بكل ما لديها من وسائل ، ولديها الكثير ، كل إصلاح أو تغيير ترى فيه مسّا بمصالحهـا . فقد رفضت تطبيق تحديد ساعات العمل ، كما رفضت خـدمة المسـاحات الكبرى من أراضيهـا انتقـاما واكثـارا للبطالـة ومن احتيـاج العمال وشنت واسع الحملات الـدعـائيـة المعاديـة لكل تصرفـات الحكومـة

والمؤسسات العمالية وصبغت دعايتها بصبغة " الدفاع عن الدين " كي تجلب إلى صفها أكثر ما يمكنها من الجماهير.

وليس هذا فقط بل مدت يدها ونسقت نشاطاتها مع غيرها من المتآمرين مثل الكنيسة وبعض المجموعات الفشستية الحديثة العهد والتكوين والتي ربطت الصلة بروما والفاشستية الإيطالية التي قدمت لها المساعدات المادية والأدبية. ولعل أخطر تآمر هو ذلك الذي قام به الفريق سان خورخو القائد الأسبق للحرس المدني والذي حولته الحكومة الجمهورية عن ذلك المنصب. كانت الأسباب عديدة تلك التي دفعت بسان خورخو إلى تزعم الانتفاضة. فمنها ما هو شخصي ومنها مايشترك فيه مع جانب من قادة الجيش الذين ناصبوا الجمهورية العداء. ولكن الأهم من كل هذا هو صلة بعض النوادي السياسية وزعمائها به مثل أليخاندرو لورو، زعيم الحزب الراديكالي الذي أخذ يبتعد أكثر فأكثر عن الخط الجمهوري ويميل تدريجيا إلى اليمين ومثل خلايا العسكريين الملكيين المتقاعدين حديثا بموجب قانون التقاعد الذي سنته الجمهورية ﴿ قانون آثانيا ﴾ وبعض الخلايا الغريبة الأخرى إلى جانب عدد من ممثلي مصالح كبار المزارعين. إن فكرة الوحدة الوطنية التي يراها اليمين مهددة بقانون الأقاليم لم تكن غريبة هي الأخرى عن تحرك الفريق سان خورخو الذي حاول احتلال اشبيليا مقر قيادته، بينما حاولت مجموعة أخرى مؤتمرة بأوامره احتلال مركز البريد والمواصلات بالعاصمة والسيطرة عليها بعد ذلك. لكن الحكومة كانت مطلعة على خطته فلم تنجح في أي مكان واضطر القائد الفاشل إلى اللجوء إلى البرتغال فحكم عليه بالإعدام غيابياً بعد محاكمة دامت سنتين ولو أن الحكم قد ألغي بعد ذلك.

كانت عملية طائشة غير محكمة، فاقدة لأية قاعدة شعبية تذكر أو أي تأييد واسع داخل صفوف الجيش، لكنها كانت كافية لتنبه الحكومة إلى شيء مؤكد وهو أن الجمهورية في خطر.

الحكومة بين نارين : بين اليمين وأنصاره من الاقطاعيين وكبار الماليين والعسكريين ورجال الدين، وبين اليسار وما فيه من مؤسسات فوضوية ومتطرفة فقد أنصارها الصبر والانتظار، وقفت الحكومة بين نارين، اطفاء إحداها يزيد في لهيب الأخرى. وكي تتغلب على كل المشاكل التي جابهتها لم تستعمل الحزم اللازم

ولا الثبات الضروري بل ترددت في كل حين و إذا مـا اتخذت القرار أوكلت تنفيذه إلى جهاز اداري لم يتغير منذ العهـد السابق للجمهوريـة فكان أكثر طواعيـة للاجراءات والأساليب التي اعتاد عليها ولعله أمن بها وبنجاعتها من طواعيته للمفاهيم الجديدة وحاجيـاتها من ذلك أن مجابهة الإضرابات والمظـاهرات قد أوكلت إلى حـرس مدني لم تتغير هياكلـه ولا مسؤولوه ، في معظمهم ، فتصرف بعنف وشـدة ووحشية في بعض الأحيان شـوهت وجه الجمهـورية في أعين أكثـر أنصارهـا حماسا بـالاضافـة إلى نزول الجيش إلى الشـوارع في بعض الحالات ممـا ركـز في ذهـن وعقليـة مسـؤوليـه حـاجـة الجمهـوريـة إليه و إلى مسـاعـدتـه فـازداد ايمانـا بدوره الضروري في سيـاسـة البـلاد واستقرارها .

لكل هذه الاسبـاب كان ردع القائمين بـالإضرابات والمظاهرات أو الاحتجـاجات ردعا عنيفا سقطت تحته الضحايا العديدة من الجانبين المتقابلين فزاد هذا التصرف في اتسـاع الفجـوة بين القسمين المتـواجهين من البـلاد واعتبر الشق العمالي وخـاصـة الفـوضـويـون منه ، حكـومة الجمهـوريـة مواليـة للشق الآخر ، شق أربـاب العمل ورؤوس الأموال أو على الأقل هي قد أصبحت مسيرة من طرفه .

<u>التكتلات</u> : وطبيعي أمام أوضـاع كهذه أن يبحث كل فريق عن طريقـة يدافع بها عن نفسه ومصالحه فالتفتت معظم الأحـزاب والمجموعات والجمعيات والمنظمات إلى تنظيم صفـوفها ومـراجعة بـرامجها والنظـر في تحالفاتها متهيئـة بذلك لكل الطـوارىء ومستعدة لمجابهة أي " عدو " أو خصم .

ففي الاتجاه اليسـاري والجمهـوري بصفـة خـاصـة ، لم يسجل تقـدم محسـوس للأحـزاب بل بقيت على حالتهـا ومستوى تمركـزها في الأوسـاط والقاعـدة الشعبية . ولعل أكثر هـذه الأحزاب جمودا أو قلة نمـوّ ، حزب الحركة الجمهوريـة ومثله الحزب الراديكالي الاشتراكي . أمـا الحزب الفيديرالي فقد انشق على نفسه ومـال المنشقون منه إلى أقصى اليسار . والحزب الـوحيد بين هـذه المجموعة الـذي سجل تقدمـا وتقوى بعض الشيء هو الحزب الـراديكالي بزعامـة أيخاندرو لورو الـذي نادى بارساء قـاعدة للجمهوريـة وجعل من حزبـه محور السياسـة لبورجوازيـة متوسطـة . وتقوى الحزب الشيوعي هو الآخر ولو أن عدم دراسته لحقيقـة أوضاع البلاد جعلته يفتقد إلى برنامج

عمل مناسب واستراتيجية لائقة ولكنه رغم ذلك قد أثر كبير الأثر في معظم الأحداث وخاصـة في مؤتمر الـوحدة النقـابية الذي تـولدت عنـه الكنفيديـرالية العـامة للعمل الموحـد. هذا بينما الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني بقي يعـاني نزاعـاتـه الداخليـة والتيارات المتضـاربة التي تتنازع قـادته ولو أنـه بالـرغم من ذلك بقي الحزب الرئيسي المواجه لليمين لما تأزمت الأمور وتقابل الشقان وجها لوجه .

أما الحركة العمالية اليسارية فقد سارت في نمو مطرد وازدادت مع الأيام والأحداث قوة . فالاتحاد العام للشغل التابع للحـزب الاشتراكي العمالي قد ارتفع عدد منخرطيه خاصة بعـد أن انضم اليه عمال الزراعة الذين كـانوا تابعين للفيديراليـة الوطنية لعمال الأرض بينما تـوصلت الكنفيديـرالية الـوطنية للشغل ﴿ ث . ن . ت . ﴾ إلى إبعـاد من عرفـوا باسم " الامكـانيين " وهم المعتدلون ، أبعـدتهم عن قيادتها وسلمت مقـاليد أمورها إلى أمين عام الفيديرالية الفـوضوية الأيبيرية ﴿ فاي ﴾ فأحرزت على المزيد من الأنصار والأتباع نتيجة ماقامت به من مواجهة وصراع .

كـانت الأوضاع مختلفـة على الصعيد الإقليمي . ففـي برشلـونة مثـلا بدا اليسـار منسجما بالـرغم من انشقاق مجموعـة لتؤسس مـا سمّي بالحزب القومي للجمهـورية اليسـاريـة . أمـا في مـا يخص الحركة العماليـة فقـد تقـوت وازدادت الكتلـة العماليـة الفلاحيـة وازداد ميولها إلى اليسار وتحت تأثيرهـا أسست الفيديـرالية العمالية للـوحدة النقابية .

وفي بلاد الباسك ابتعد الحزب الوطني الباسكي عن حلفائه التقليديين واهتم أكثر من قبل بـالأوضاع والمشـاكل الاجتماعيـة فاتخذ شكـل حزب ديمقـراطي مسيحي ، ساهمت نقابته بفاعلية في النزاعات الطبقية .

وبـالنسبة لـلاتجاه اليمينى أي الكتلـة التي خسرت مراكـز القـرار السياسى فقـد ركزت الجهود في بناء هياكلها وإطارات حركتها واستعدادها عن طريق أحزاب أرادتها ممثلة لإيـديوليجيتها نـاجحة في عملها مستمـرّة في نشاطها . ومن أهم مـااتخذته من تدابير هو تطوير حزب العمل الوطني الذي غيّر اسمه فأصبح يدعى العمل الشعبي والـذي نظم صفوفـه في شكل لجان محليـة وعلى مستـوى المحافظـات بـالاضافـة إلى

إحداث فرع للشباب ومنظمة نسائية . ورغم هذا فقد حدث نزاع داخل هذا الحزب حول أي الاتجاهين ، الملكي أو اليميني ، يتخذ فكانت الغلبة لأنصار اليمين مما تسبب في استقالة أحد القادة وتأسيسه حزب التجديد الأسباني .

إلا أن أهم حدث وأقوى دفع للاتجاه اليميني هو تأسيس الكنفيديرالية الأسبانية لليمين المستقل التي عرفت واشتهرت هي الأخرى بالأحرف الأولى للكلمات المكوّنة لاسمها فصارت " ثيدا " التي انخرط في صفوفها أعضاء وأنصار من معظم الجمعيات والتكتلات التي يعمل من خلالها كبار الملاك وأرباب العمل والصناعة والمال مثل العمل الشعبى وفرع شبابه . يقول المؤرخ الأستاذ مانوال تونينون دي لارا في التعريف بهذا الحزب " أنه ظهر أو قدم نفسه كمدافع عن الكاثوليكية وأيضا عن " التنظيم النقابي للاقتصاد " الذي دافع عنه البابا بيو الحادي عشر سنة 1931 ، ثم إن هذا الحزب يدين الإصلاح الزراعي الذي يعارضه بإصلاح أخر مقام على تقسيم ضيعات دولية أو مهداة طواعية من طرف أصحابها ، كما يطالب بحماية جبائية لمنتجي الحبوب وبقضاة مهنيين للجان المحلفين المختلطة ويتزعم طبعا حملة لمراجعة وتحوير الدستور في سبيل " حماية المبادىء الاساسية للمدنية المسيحية " كما يمثل هذا الحزب العقلية المحافظة لمجتمع زراعي سلطوي فلا طلاق ولا زواج مدني . فالمرأة مكانها البيت ، أما العائلة والملكية والسلطة الخ . . فكلها قيم تحتاج الى الدفاع عنها في مفهوم هذا الحزب . لقد كتب خيل روبلس ﴿ رئيس الحركة ﴾ مرات عديدة بأن ثيدا مصيره الوقوف ضد الثورة " (22) .

أي ثورة يعني رئيس الثيدا بتصريحه ؟ لاشك تلك المتمثلة في تغيير علاقات الانتاج في الريف والقطاع الزراعي . أما بقية عناصر البرنامج من دين وأخلاق ونظام ومركزية الخ . . فلم تكن سوى تسترات أيديولوجية .

ووراء الثيدا وقفت الجمعيتان القويتان وهما الجمعية الوطنية الكاثوليكية الزراعية والجمعية الكاثوليكية الوطنية للدعاية . كما وقفت وراءه النقابات العمالية الكاثوليكية وغيرها . وهكذا عن طريق هذا الحزب الثيدا ، استعادت الكتلة المهيمنة

اقتصاديا تمثيلها وحركية قاعدتها الاجتماعية والسيطرة على قاعدة شعبية بالريف وعلى بعض أوساط البورجوازية المتوسطة بالمدن . كما جلبت إلى صفها عددا كبيرا من النساء حتى أن عددهن قد بلغ ، حسب بعضهم ، نسبة 40٪ من مجموع منخرطي الثيدا . وهكذا كان هذا الحزب الوسيلة التي أخذت بها الكتلة الاقتصادية المهيمنة طريقها نحو العودة إلى السيطرة على مراكز القرار وسار الاثنان في انسجام تام إلى سنة 1936 لما نادت الكتلة باستعمال العنف المسلح بينما الحزب عارض ورفض ذلك لأن الصفة الأساسية التي يمكن أن يوصف بها الثيدا هي اعتناقه الشرعية والعمل بالطرق والوسائل المشروعة وداخل النظام لأن المشكل في مفهوم قادته هو مشكل طبقة لا مشكل نظام . وفي خط مواز لهذا أسس أرباب العمل والأعراف منظمات مهنية عديدة للدفاع عن مصالحهم فكوّنوا الاتحاد الوطني الاقتصادي الذي تحوّل بسرعة إلى محور منظمات الأعراف تحت الجمهورية إذ تحت لوائه انضمت الجمعيات المهنية لمربي المواشي والمزارعين والصناعيين الخ . . ومعها أيضا جمعيات موظفي المصارف والشركات المساهمة . وقد نادى هذا الاتحاد من يومه الأول بأن " الأصل الاساسي للثورة الوطنية يتمثل في منتوجاتها الزراعية والحيوانية والغابية " . ونادى بعقد جمعية عامة اقتصادية زراعية حضرها ممثلوها يزيد عن ثلاث مئة جمعية فكان الاجتماع بمثابة إعلان حرب منظمة ضد الإصلاح الزراعي .

وبمعزل عن هذا الاتحاد استمرت كنفيديرالية الأعراف في نشاطاتها ومقاومة قرارات الحكومة وأي تغيير تقدم عليه يشتم فيه مساس بالمصالح المكتسبة . وقد يكون من المفيد الاشارة إلى النشاط الذي كان يقوم به من منفاه كالفو صوتيلو ، الذي تولى وزارات تحت دكتاتورية الفريق بريمو دي ريفارا ، وهو نشاط متمثل في حملة دعائية ضد النظام يقوم بها عن طريق الاسطوانات المسجل فيها خطاباته وأفكاره وعن طريق الصحافة .

المنعرج : أمام تشعب الأمور وتراكم المشاكل ، وأمام شبه شلل أعمال الحكومة ونشاطاتها في سبيل تطبيق ماتراه ضروريا من إصلاحات وتحويرات ، أقدمت على خطوة خطرة غيرت وجهة السياسة الأسبانية ولو لحين وهي حل البرلمان ودعوة الشعب لانتخابات عامة . لاشك وأن أصحاب القرار أملوا من وراء هذه الخطوة

الحصـول على أغلبية كبيرة تمكنهم من العمل بـراحـة وسرعة ومن إخـراج البرلمان من الركود والجمـود الذي غرق فيــــه حتى أصبح أشبه شيء " بسـوق عكاظ " يتبارى تحت قبته الزعماء لإبراز خطابتهم وطلاقـة لسانهم أكثر من مباراتهم للوصول إلى اتخاذ قرار مفيد .

دعي الشعب لـلانتخابـات تطبيقا للقـانون الجديـد الذي أعطى حق الانتخـاب للمـرأة فتقدم يـوم 19 من شهر نـوفمبر ﴿ تشرين ثـان ﴾ 1933 مايـزيد عن ثمانيـة ملايين ونصف مليـون ناخب وسط جـو أقــل ما يقـــال عنه أنـه مكهرب . ورغم ذلك فقد جـرت الانتخابـات في هدوء ودون حـوادث تذكـر مما أقـام الدليل على أن الشعب بأسره يمينه وشمالـه ، عامله وفـلاحه ، غنيـه وفقيره ، كان يأمل الكثير من نتـائج تلك الانتخابـات ، يأمل حـلا بل حلـولا لمشاكلـه الكثيرة وتسـويـة عاجلـة لأوضاعه المعقدة ولا يتم ذلك إن لم يكن عن طـريق برلمان حي ، عامل ، فيه أغلبية قادرة على اتخاذ القرار وتحويله إلى الواقع بتنفيذه بالسرعة المطلوبة . ولذا فقد تقدمت مختلف التيـارات إلى هذه الانتخـابـات بحماس كبير ولكن ببرامج وفي أوضاع مختلفـة فبينما دخل اليسار هذه المعركة متفرقا مشتتة قواه ، فاقدا لأي برنامج محكم متفق عليه من مختلف التيـارات ، فقـد دخلهـا اليمين متحـدا مجندا لها كل منظماتـه وجمعيـاتـه وأحزابه وفي مقدمتها الشيدا لأنه كان مصمما على الوصول إلى السيطرة على البرلمان مركز القرارات السلطوية .

لقد ركزت الكتلة اليمينية حملتها على ثلاثة محاور جعلتها ملخص برنامجها وهي :

1 - مراجعـة ما أسمتـه بالتشريع العلماني الاشتراكي للجمهـورية ، بما في ذلك مراجعة الدستور .

2 - الدفاع الصادق الشـديد داخل البرلمان ، عن مصالح البلاد الاقتصادية مع الاعتراف للزراعة بأولويتها واعتبارها أساس الثروة الوطنية .

3 - اصدار عفو عام عن كل المساجين الذين ارتكبوا مخالفات سياسية .

وبهذا المحور الثـالـث رمى زعماء اليمين إلى تطمين الجيش والحرس المدني والظهور

بمظهر المتحرر القابل للمعارضين والمعارضة لأن قرار عفوسياسي سينتفع منه عدد من قادة اليسار ، خاصة الفوضويين المبعدين ، ولكنه سيسمح للفريق سان خورخو قائد انتفاضة يوم 10 أغسطس ﴿ أب ﴾ وزملائه الذين شاركوه المحاولة وكذلك السيد كالفو صوتيلو بالعودة إلى الوطن معترك الحياة السياسية وهما شخصيتان ، عسكرية ومدنية ، لهما وزن كبير ومقدرة لاتنكر.

تمت الانتخابات بفوز اليمين فجاء تشكيل البرلمان على النحو التالى :

227 نائبا عن الاتجاه اليميني و144 نائبا عن حركة الوسط و 101 نائبا عن الاتجاه اليساري . وهكذا يمكن القول أن المجموعة المتحكمة في الاقتصاد ومناصريها قد ربحوا هذه الجولة فجلس في البرلمان من يمثلها علاوة على جلوس عدد صغير من أفرادها مباشرة . ويلاحظ في نتائج هذه الانتخابات فوز خوزى أنطونيو بريمو دي ريفارا ابن الدكتاتور في عهد ألفونصو الثالث عشر وهو شاب أسس قبل الانتخابات بشهرين تقريبا (29/ 10/ 1933) حزبا ذا طابع فاشستي سمي في ما بعد " الكتائب " وهو حزب سيلعب دورا خاصة في عهد فرانكو .

دخلت البلاد بعد هذه الانتخابات وستبقى طيلة سنتين تقريبا ، فترة غير واضحة المعالم أسماها المؤرخ الأستاذ ريكاردو لاثيرفا الفترة الخاطئة لأن معظم الحركات والأحزاب والساسة لم يهتدوا إلى طريقتهم المثلى للتلاحم مع الجمهورية . فلا الراديكاليون التحموا معها ولا اليمينيون الكاثوليكيون أخلصوا لها .

وهذه الفترة قد عرفت فيها مرحلتان ، أولاهما الحكومة يرأسها الراديكاليون بتأييد من زعماء الثيدا ، وثانيتهما بمشاركة الثيدا مباشرة فى الحكم وكان في مقدمة أعضائها في الحكومة ، رئيسها السيد خل روبلس الذي تولى وزارة الدفاع .

الخارج وتأثيره : خلال هذه الفترة كانت تجري في أوربا أحداث لم تخل من التأثير ولو بطريق غير مباشر في أحداث أسبانيا أو في عقليات ساستها واتجاهاتهم . فهتلر في ألمانيا يزداد كل يوم قوة وتزداد حركته النازية تمركزا مما جعل الاهتمام بكتابه " كفاحي " اهتماما كبيرا في مختلف الأوساط الحزبية . وفي النمسا تم محق

الاشتراكيين والقضاء على نشاطهم . أما في فرنسا فان اليسار قد أخذ في التلاحم وضم الصفوف بينما قام بيار لافال بتركيز سلطة فاشستية . ففسر الاشتراكيون الأسبان كل تلك الأحداث بأنها تآمر ضد الاشتراكية ، ونادوا بضرورة ولزومية الثورة الاجتماعية .

أما روما والفاتيكان بمعية رجال الكنيسة في أسبانيا نفسها فهم مسؤولون في نظر الرأي العام الأسباني والعالمي عن تقديم المزيد من المد والمساعدة العميقة الواسعة للجبهة السياسية التي تهيأت للوقوع على الجمهورية والقضاء عليها .

استعداد للثورة : كانت الجمهورية إذاك بيد اليمين فعليا مما جعل اليسار يرى وجوب الاستعداد للثورة وقوفا ضد ثورة أخرى يرى زعماء اليسار أن اليمينيين لابد وأن يقوموا بها أن عاجلا أو آجلا . وهكذا انقلبت الأوضاع . كانت السلطة تحت سيطرة اليساريين فعارض اليمينيون مقرراتها وبرامجها بتوجيه وتحريك من أصحاب المصالح من رجال المال والأعمال وكبار الملاك ، وها هي السلطة الآن بيد اليمينيين واليسار يستعد للمقاومة والصراع . لكن ، هل اليسار وحده قد أخذ يستعد للمقاومة والثورة ؟

كلا ، فتلك كانت حال كل الأحزاب والحركات . والغريب أن عدوى الفاشستية قد تفشت إلى الأوساط السياسية الأسبانية . فكانت معظم الأحزاب تنظم صفوفها من جديد على أسس أو طبق طرق فاشستية بحتة .

فالكنفيديرالية الوطنية للشغل « ث . ن . ت . » التي قاطعت الانتخابات استعدت للثورة في حالة انتصار اليمين وهذا ما كان . ففي 8 ديسمبر « كانون أول » أقدمت على تحرك كانت الحكومة على علم به فأوقفت العديد من قادة النقابة وحجزت كميات من الأسلحة . إلا أن هذا لم يحل دون حدوث قلاقل ومشادات عنيفة في عدة أماكن مثل مدينة ساراقسطة حيث استمر الصدام إلى يوم 14 ومثل مدينة بلنسية ومناطق ريوخا والأندلس وغيرها حيث احتل الثائرون مراكز الحرس الوطني « المدني » وجرى قتال سقطت له الضحايا فكان ثمنه خمسة وسبعون قتيلا ومائة جريح من بين المتظاهرين و3 قتلى و18 جريحا من بين رجال

الأمن . أما الاعتقالات فقد بلغت 800 معتقل أو يزيد . ولم تكن هذه الكنفيديرالية هي الـوحيدة التي تهيـأت للثورة أو قـامت بمشـاغبات فقـد نـادى زعماء النقابـات الاشتراكية بإقـامة تحالف عمالي ونـادى الشيوعيون ، ولـو أنهم لم يكن لهم آنذاك وزن كبير ، باقامة الأحـلاف اليسارية فحققوا شيئا من ذلك بقاطالـونيا عن طريق الكتلة العمالية والفلاحية واليسار الشيوعي ذي الاتجاه التروتسكي . أما في بلنسية فقد أسس الاستقلاليون الراديكاليون حـزب اليسار البلنسي وأسس آخرون اليسار الجمهوري ، هـذا بينما الحزب الاشتراكي العمالي ، القطب المقـابل لليمين الممثل في الثيـدا والـذى تدور السياسة حوله ، يحاول القضاء على خلافات داخلية تتعلق بالاتجاه الذي يقضي الظرف اتباعه وتوصل في النهاية إلى قرار الاستعداد والوقوف بالثورة ضد الثيدا ان هي تحركت . بقي اتحاده العمالي ، الاتحاد العام للشغل ، ومنظمـة الشباب التابعـة له ، فقد بـدا أكثر تطرفـا وشدة كانت بـالنسبة للاتحـــاد نتيجة ضغوط المنظمـة العمالية المنافسـة ﴿ ث . ن . ت . ﴾ وبالنسبة لمنطقـة الشباب تحت تأثير أمينها العـام الشاب سان تياغو كاريو الذي أدار عجلـة القيادة نحو اليسارمقتربا أكثر وأكثر من الحزب الشيـوعي الذي مـا انفك يلح على وجـوب اقـامة جبهـة مضـادة للفاشستيـة الا أن مساعية بقيت دون جدوى إلى أن جاءت أحـداث ﴿ إضرابات واعتداءات من طرف عناصر من الكتائب انتهت بمقتل شخصين ﴾ قربت بين شباب الحزبين الاشتراكى والشيوعي فـدخل هذا الأخير في ما عرف بـاسم الأحلاف العمالية وكان انتسـابه لهذا الحلف في 12 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ 1934 .

أما في بلاد الباسك فقد أخذ الحزب الـوطني الباسكي في الابتعاد عن حركات اليمين واقترب أكثر وأكثر من الحزب الاشتراكـي وجاء قمع السلطة ليدفع بـزعمائه وقادته الى المعارضة فأصبحوا في الصف اليساري .

وهكذا نـرى أن منظمات وأحزاب اليسار كانت تبحث عن هـويتها وتحاول تنظيم صفوفها استعدادا للثورة التي أصبحت وشيكة الاندلاع في نظرهم ، بدفع من اليمين وخـاصـة حـزبـه الـرئيسي ، الكنفيديـراليـة الأسبـانيـة لليمين المستقل أي الثيـدا .

وماذا كان يحدث داخل الأوساط اليمينية؟ أولا مواصلة عدم الاعتراف بشرعية النظام ثم التجنيد والتكتل والاستعداد . فحزب التجديد أخذ في تجنيد كل اطاراته وعناصره الحية وتكوين ميلشيا ، والكارليون يضعون البرامج والمخططات لانتفاضة مسلحة ، والكتائب حديثة التأسيس تتهيأ هي الأخرى بأسلوب مطابق تماما لأسلوب الفاشستية الايطالية وحققت خلال الشهر الثاني من عام 1934 (13/ 2/ 1934) الالتحام والاندماج مع منظمة الشباب العمالي الوطني النقابي « خونس » والنقابات الطلابية الجامعية « سايو » وبرز في مقدمة هذه الكتلة الشاب اللامع المحامي خوزي أنطونيو بريمو دي ريفارا ، مؤسس الكتائب الذي توصل إلى توقيع اتفاقات مع الحزب التجديدي والحزب الملكي فحصل عن طريقهما على المساعدات المادية التي ستعين حركته على التأهب للثورة .

أما الثيدا ، فهي خلافا لبقية الأحزاب اليمينية ، قد بقيت محافظة على مبدئها وإيمانها بوجوب احترام الشرعية والعمل في نطاق القانون إلى أن تصل السلطة ثم منها تتصرف . فقد ردد رئيسها خيل روبلس المرات قائلا " سنحتل السلطة مع أي نظام وبأي مكان ومهما كان " . وفعلا وصل حزبه الثيدا إلى السلطة وتولى هو نفسه شؤون وزارة الدفاع .

لكن هذه الواجهة التي كان يظهر بها هذا الحزب هي في الواقع مخالفة للعقلية والسياسة التي تنتهجها منظمة الشباب القريبة منه والمسماة شباب الحركة الشعبية « خ أ ب » التي كانت تضم عددا كبيرا من المتطرفين فاشستيي النزعة .

في خط مواز لهذه التحركات كان تأثير الثيدا على الحكومة وتصرفاتها يتزايد بوضوح . وكانت اتصالات بعض عناصر اليمين بالمسؤولين الإيطاليين تتوالى . فقابل بعضهم الدوتشي موسوليني مصحوبا بالعقيد لونغو وتقرر إذاك تقديم إيطاليا المساعدات لأقصى اليمين الأسباني تتمثل في التزويد بالأسلحة والمال وتدريب الشباب . وفي نفس الوقت تأسس المجلس المركزي للوحدة العسكرية الأسبانية

﴿ أومي ﴾ وهي جمعية انتسب اليهـا عدد من كبـار الضباط منهم الفريق مـولا الذي قاد انتفـاضة 18 يـــوليـــو ﴿ تموز ﴾ 1936 التـــــي كانت بـداية الحرب الأهلية .

صورة اجتماعية : من السهل الملاحظة من كـل هذه التحركـات الحزبية أن إهمال الأوضاع الاجتماعية كـان عاماً شامـلا ولو أن الجميع يدعي الرغبـة في معالجتها وحل مشاكلها . فالحكـومة قامت بتنفيذإصلاح زراعي طفيف قابلـه ، رغم ضعفه وعدم كفايتـه ، كبار الملاك بـالمقاومـة فأحبطوا نتـائجه . واصطـدمت الحكـومة بـالسلطة المحلية بقـاطالونيـا وببلاد الباسك مما أثـار المشاعر القـومية في تلك المنطقتين اللتين كانتـا تشهدان ، وخـاصة قـاطالونيـا ، تململا كبيرا وحـركة عماليـة رائدة يسيطر على معظمهـا الفـوضويـون . كـانت الأجـور قـد نزلـت إلى مستوى العجـز عن الإيفـاء بـالحاجيات الضروريـة ، والبطالـة بلغت وتعدت السبع مـائة ألف عاطل أكثـر من نصفهم من قطاع الزراعة . وأصدرت الحكومة في هذه الفترة العفو السياسي الا أنه لم يشمل اليسـاريين ولا الفوضـويين النقابيين مما زاد في غضـب الطبقات العـاملة بينما شمل العفو الفـريق سان خـورخو فتمكن بـذلك من إدارة وحبك تآمره انطـلاقا من مـدينة استـوريل بـالبرتغال ومكن الفـريق مـولا من العـودة إلى مركـزه داخل الجيش والزعيم كالفـوصوتيلو من استرجاع مقعده بالبرلمان . وكي تقـرب الصورة من الواقع يجب التـذكير بأن الحرس المدني كـان في معظمـه متعـامـلا مع الملاك والمتحكمين في الثـروة والشغل مما قـوى غضب عمال الفـلاحـة في ضيق صبرهم فتقـدموا بمطـالب حصروها في عشر نقـاط منها العودة إلى نظام التنـاوب بين العمال عند منحهم الشغل وعدم قبول العمال الأجانب عن منطقة الشغل وتقنين تشغيل الالآت الزراعية وتطبيق قانون الايجار وتشكيل لجان مختلفـة في كل بلدية وغيرها . إلا أن هذه المطالب قـــد وقع رفضها فكانت الإضرابات والاصطدامات العنيفة (13 قتيلا) والاعتقالات (7 آلاف) وإغلاق مقرات الاتحادات العمالية وغير ذلك من التتبعات .

وباختصار ، كـان الوضع الاجتماعي على أدنى درجة من الانهيار يسـوده التدهور

وعدم الإنجاز بل الالغاء والعدول عن انجاز ما تقرر من قبل وترك الطبقات الشغيلة تتخبط في فقرها وبطالتهـا وحيرتها وطعمه لمختلف التيارات المثيرة بينما انشغل الجميع بالاستعداد للثورة إلى أن أتتهم كما كانوا يأملون .

التجربة : لما حل شهر أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ مـن عام 1934 كانت البلاد على فوهة بركان وكانت ، علاوة على اقتصـادها المتردي ، وأوضاعها الاجتماعية المتدهورة وجوهـا السيـــاسي المكهرب ، ومنظماتها السياسـية المشتتة المتفـرقة ،كانت فـاقدة للسلطة الحقيقيـة التي تأمر فتطـاع وتقرر فيتم التنفيـذ ، فما كان من الحكـومة إلا أن استقالت ، وتشكلت حكومة جديدة شارك فيهـا رجال حزب الثيدا مشاركة مباشرة هذه المرة فكـان الاسهام الفعلي في السلطة التنفيذيـة " اشارة الثورة " لـدى الأوساط اليسارية وخاصـــة نقابـات ﴿ ث . ن . ت . ﴾ الفوضـوية . فأعلن الإضراب العام يوم 5 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ فقامت الحكومة عند علمها بقرار الإضراب بتفتيشات كبيرة أدت إلى اكتشاف وحجـز كميات من الأسلحة أدّعى الذين وجـدت لديهم أنها للدفاع عن شرعية الجمهورية ، وكان اكتشافها في قاطالونيا وأستورياس .

بدأ الإضراب العام وكان بمثـابة " حرب صغيرة أو تمرين على الحرب الكبيرة " في مقاطعـة أستورياس الكثيرة المنـاجم . فبينما توصلت قـوات الأمن من إخماد القلاقل بسرعة وفي يوم واحد في كـامل البلاد تقريبا ، بقيت أستورياس ميـدانا لصراع شديد عنيف . إن مـا يقـارب الثلاثين ألف عـامل منجمي ومعهم إطـارات الاتحاد العـام للشغل قـد صمدوا يقـاومون القـوات الحكوميـة طيلة أسبـوعين فمنذ أولى سـاعات الصدام احتـل العمال مخازن السلاح واستـولوا على ما فيهـا من أسلحـة وذخيرة فكان ذلك سنـدا آخر لهم لمواصلة الكفـاح إلى جانب مسـاندة الشعب الـذي وقف معهم وقفة الـرجل الواحـد . احتل " الثوار" ، عـلاوة على عاصمة المنطقـة ، قرى ومـدنا عديدة وأعلنوا سلطة البروليتاريـا وشرعوا في تنظيم شؤون السكان والمكان . توسعت انتصـارات العمال المتغلبين على القـوات النظاميـة المحليـة المكـوّنـة من ألف وستمائة جندي (1600) ومن تسع مائة حرس مدني (900) فبدا خطر انتشار الثورة ورغم

القضـاء عليها في كل المنـاطق الأخرى بما فيهـا مدريـد حيث لم يتحرك الاشتراكيـون خلافا لما كان منتظرا وهو دون شك خذلان من طرف المسؤولين الاشتراكيين بالعاصمة أضر بأخوانهم خارجها .

وفي نفس اليوم الـذي اندلعت فيه هذه الأحـداث عين وزير الدفاع كمستشـار له الفريق فرانشسكو فـرانكو باهامونتي ، وهو من ألمع وأبرع كبـار الضباط أنذاك إذ كان قد أعطى البرهان على مقـدرته وذكائه وشجاعتـه في عدة مناسبات وخـاصة في حرب الـريف بالمغـرب حيث أسس ، كما رأينـا سلفا ، جيش اللفيف على صـورة اللفيف الأجنبي الفرنسي .

عين فرانكو مستشارا لوزير الدفاع إذن وكلف في الحين بالتغلب على الثورة فجعل يشجع قائد المنطقة على الصمود والصبر بينما أمر بجلب قواته " اللفيف " ووحدات نظامية من افريقيا أي من المغرب ، فـأتت بحرا وأنزلت في ميناء خيخون بشمال البلاد لتـزحف على مدينـة أوفيادو المهـددة . وهكذا وبحـرمان الثـورة من هذين الميـناءين وبتطبيق مخطط فرانكو تغلب القائد الحكومي على الثـورة بعد أسبوع من اندلاعها ولو أن تصفيتها دامت أسبوعا آخر .

إن تسمية هـذه الحوادث بالحرب الصغيرة تسمية محقة مـا من شك . فعدد القتلى كان مرتفعا جـدا ولو أن الأقوال متضاربة عند تحديـد الرقم وعلى أي حال لم يقل هذا العدد عن ألف ومائتي قتيل وما يـزيد عن ألفي جريح في جانب العمال بينما خسرت القوات النظاميـة 284 قتيلا و 900 جريح ، حسب الإحصائيات الرسميـة وهو ما يدفع الى الاعتقاد بأن الأرقام الحقيقية أعلى من ذلك بكثير.

ولان كانت ضحايا الانتفاضة نفسها كثيرة في حد ذاتها ، فإن ضحايا القمع الذي تلاهـا لم تكن قليلة العدد هي الأخرى وهـي تمتاز بأنها مكونة من كبـار الشخصيات وأبرز الـزعماء متعرضين أجمعهم لمختلف مظاهـر القمع كان السجن أقلها ثقـلا يقول المؤرخ الكبير الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا في " تـاريخه الأساسي لأسبانيا الحالية " "

إن أسوأ مظاهر القمع الحكومي استمراره الذي يعني دوام الخوف المغـذي بكل أنواع الأساطير وبواقع مؤسف وأكثر من مـؤسف . فمن شهر أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ إلى ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ استمـر خطر " الثوار " فوقع في الايقاف عـلاوة على آثانيـا ﴿ رئيس سابق للحكـومة ﴾ مجموعـة من القادة ضمن آلاف أخرى من الثـانويين . ترددت الحكومة طويلا ، من أكتوبر إلى فبـــرايـــر ﴿ تشرين أول ، شباط ﴾ أمام تنفيـذ أو إعفاء المحكـوم عليهم بالموت . فـالحل كان غير عـادل وأثار المنهـزمين إلى درجة من الحدة المعقولـة لأنه تمثل في أن الحكومة اليمينية المتوسطـة ﴿ حكومة الاتجاه الوسط اليميني ﴾ تقرر ، بمشـاركة فعلية من طرف حزب الكنيسـة ، حياة أو موت رجال ، لأسباب سياسية وذلك وراء ظهر العدالة العامة . لم يتم إعدام أحد بالنسبة لأحـداث قـاطالـونيـا بينما أعـدم أربعة من آستـوريـاس . أربعـة رجال يمـوتـون ، شـــرعيا ، من أجل أكتوبر الآستورياني ويكون موتهم في فبراير 1935 " (23) .

ويواصل الأستـاذ دي لاثيارفـار فيقول " إن ثـورة أكتوبر بقـاطالـونيا ، وخـاصة بآستورياس كانت المقدمة السريعة الحاسمة للحرب الأهلية الأسبانية لسنة 1936 . ﴿ فقد كـانت هنـاك كل العناصر ﴾ الطـرفان المتقـابلان والـرموز وانقسـام الأحزاب والعواطف والـدعاية والكـراهية والخوف . كـان هناك القمع المجرم من هـذا الطرف وذاك لم ينقص إلاّ عامل واحد هو انقسام الجيش الذي يمثل الشرط الأساسي بالنسبة للحرب الأهلية ولوأنه توفر في آستورياس ولوفي شكل مجهض " .

هكذا كـانت حوادث أكتوبر 1934 الـدامية وهكذا وبها وقفت البـلاد على شفا هاويـة الفتنة ولم يعـد يفصلها عنها الا الـوقت اللازم للأطـراف المتنازعـة كي تستعد وتتهيأ ولبعض العقلاء كـي يحاولوا إيجاد موطن للـوئام والوفـاق ولكن دون جدوى ، وللحكومة كي تجد فرصة لانجاز مـاتنوي انجازه أو البعض منه إلاّ أن ما تم تحقيقه لم يكن ليرضي أحدا .

الفصـل الأخير : كـانت الحكـومـة كما رأينـا ، تحت تأثير حـزب الثيـدا وكبـار

الإقطـاعيين تطبق أو تحاول تطبيق سياسـة وسط يميني وهـو مـالا يفي بالغـرض أو يـرضي السواد الأعظم مـن الشعب الذي يشكـو كل أنـواع الحاجـة والحرمان وتكـاد تقضي عليه البطـالة التي أصبح عدد الـواقعين تحت وطأتها يزيـد عن سبع مائة ألف عـاطل أي ثـلاثـة مـلايين من الجيـاع ولـذا فكلهـم وكل من اليهم كـانـوا يتهمـون الجمهـورية بما يقـاسونـه دون النظـر إلى لونها أو ميـولاتها أو مبادئهـا . ورغم ضرورة الإسراع بأي حل اجتماعي مناسب ، فإن اليمين يطالب بلسان رئيس الثيدا ، بالعودة إلى الوراء وإلغاء كل القـوانين والخطوات التي تمت منذ تنازل الملك وقيـام الجمهورية مع قلـة مـا تم . وهكـذا ، وبعـد لأي ومنـاقشـات أقـدم البرلمان على ألغـاء تمليك الفلاحين وحق تأجير الأراضى فكـانت نتيجة ذلك أن أطرد كل من حاز أرضـا وكان الطـرد فى قلب الشتـاء وبعد أن خـدم الفلاحـــون المسـاكين أراضيهم المحـازة أو المستأجرة ، بعد أن ظنوا أنها أراضيهم ، فجاء الطرد تصرفـا أنانيا ، انتحاريا ، قاتلا من طـرف الحكـومـة والملاك معا ، فقضى على التـأثير الطيب الذي تـركتـه الخطـوة الإصـلاحيـة الـوحيـدة التي أنجـزتها الجمهـوريـة وهي تمليـك عشرين ألف فـلاح مساحات زراعية .

لم يكن الوقت وقت إصـلاح أو تقدم بل وقت نزاع وتقاتل ولـذا فقد إنكبّ اليسار على ما أصبح ضروريا حيويا وهو وحـدة الصف وساعده على بلوغ غايته ذلك القمع الحكـومي الذي لم يفـرق أو يميز بل ضرب كل من رآه يستحق الضرب من العنـاصر اليسارية . كان الحزب الاشتراكي يعاني النزاع بين اتجاهين انتصر أحدهما وهو المعتدل في أوساط القادة والمفكرين ، وانتصر التيار الأكثر تطرفا في أوساط الشباب وجماهير القـاعدة . هـذا بينما بقي الجمهوريـون المتطرفـون على الهامش فكوّنـوا سرا " الاتحاد العسكري الجمهوري المضاد للفاشستية " أما الشيوعيون فقد حاولوا جلب الجيش إلى عقيـدتهم فلم يسجلوا نجـاحا يـذكـر إلاّ في أوساط السـلاح البحري وكـان نجاحـا محدودا ، ورغم هذا فقد واصلوا عملهم في سرية أكثـر منها علانية وصمدوا محافظين على مواقفهم القـائلة بأن " الفـاشستية لن تمر " و" نحن نـاضل وسنناضل لإقـامة حكومة عمالية زراعية لدكتاتورية البروليتاريا في بلادنا " .

وباختصار فان الظرف والأوضاع السائدة ، والخوف من تحرك عسكري يميني باد في الأفق ، وأمام قرب انتهاء أربع سنوات على وضع الدستور ، ومن ثم امكانية وحق تحويره ، الذي سيكون ان تم ، على يد الحكومة اليمينية ، توصل اليسار إلى تكوين ما عرف بالجبهة الشعبية ولو أنها جبهة لم يتفق أصحابها إلاّ على الرغبة في إنقاذ الجمهورية لأن الجبهة من حيث البرامج والسياسات فقد كانت تتنازعها تيارات عديدة تتلخص في برنامجين متقابلين تقريبا تتبناهما الأحزاب الجمهورية من جهة والأحزاب العمالية من جهة أخرى فكبر الخلاف حول تأميم المصارف وتأميم الأراضي وسيطرة العمال على الصناعة إلى غير ذلك . ولكن وبعد كل شيء كان اتحاد اليسار داخل الجبهة الشعبية اتحادا تكتيكيا على الأقل ، وهذا كاف .

وكان اليمين هو الآخر ، ولو في تشتت وشيء من التفرقة ، يتصرف تحت وطأة الخوف من " ثورة عمالية بروليتارية شيوعية ماصونية ملحدة " ، أو سمها ما شئت ، فما هي إلا ثورة مخيفة وبأي من تلك الصفات وصفت فهي كفيلة بتحريك الجماهير وإثارة حماسة الجيش قبل كل شيء . فاليمين ، وخاصة السيد خل روبلس زعيم الثيدا ، لم يلعب سوى ورقة الجيش ولم يكن يتحرك الا بعد جس نبض قادة القوات المسلحة واستطلاع درجة قبولها فكرة الانتفاض والعصيان . ولذا فقد اِنتهى به الأمر إلى دخول حكومة السيد " لورو " واستلم فيها مقاليد وزارة الدفاع فقرب اليه الفريق " فانخول " وعين الفريق فرانكو على رأس قيادة الأركان بعد أن قضى مدة قصيرة مسؤولا في المنطقة المحتلة من المغرب حيث ربط من جديد صلاته " بالجيش الأفريقي " الذي سيكون دوره حاسما في ما بعد . أما الفريق مولا فقد عين في المغرب حيث سيجد المجال لإعداد خطة انقلابية .

ولم تكن الكنيسة لتبقى محائدة في مثل هذه الظروف بل كانت تتحرك في حذر وحيطة طبعا وتتبع الأحداث عن كثب وهي راضية بحكومة يديرها حزب هو في الواقع حزبها ونعني الثيدا .

غير أن كل هـذا لم يكن سوى الـوجه السيـاسي لما هو أخطر وهـو تكويـن الجماعات المسلحـة أو الميليشيـات . ففي الجانب اليســاري أراد الحزب الاشتراكي أن يـوحـد تكوين هـذه المجموعـات تحت ظل الجبهة الشعبيـة ولكن الأحداث الثـورية لم تقبل ذلك بل أخذت في تكوين جماعاتها على حدة ومثلها فعل الشيوعيون .

أما اليمين فقد رأيناأنه معوّل قبل وبعد كل شيء على الجيش ولكنه لم يهمل تأسيس الميليشيات إذ قرر قادة الثيدا تحويل أعضاء الحزب وأنصاره إلى ميليشيات في خدمـة الجيش . ثم أن حزب الكتائب ، رغم بقائه وحـده بعد أن أهمله الجميع ، أسس هو الآخر فـرقه الهجومية وربط صلاتـه بالجيش حتى أن زعيمه الشاب المحـامي خوزي أنطونيو قـال في اجتماع للمكتب التنفيـذي " أن الجماهير الزراعية ستأتي إلينا ، وفي أوساط الجيش لنا كل يوم مجال أوسع . فواجبنا إذن هو أن نسير رغم كل النتائج نحو الحرب الأهلية " .

وكما لو أن هـذا لم يكن كافيا فقـد عمد الـزعماء ، علاوة على صراعاتهم الكـلامية داخل البرلمان إلى طرح المسائل في الشـارع ووسط الجماهير مما قضى على ما يمكن أن يسمي حكومة أو سلطة أو نظاما .

في البرلمان يقول خوزي كـالفو صوتيلو " إن امكانيـة الحوار البرلماني قد فقدت إلى الأبد " وسمي عند ذلك الجيش بأنه " العمود الفقاري للوطن " مقابلا بذلك عبارة رئيس الثيدا خل روبلـس الذي سمي الجيش " الذراع المسلح للـوطن " . ولم يفت هذا على حصافة كبار ضباط الجيش وخاصة الفريق فرانشسكو فرانكو ، الذي لاحظ وهو يتتبع الأحداث انقسـام الجيش كانقسام بقية الشعب . فعلا . كـانت الحكومة منقسمــة وهي تشرف لاتحكم ، على زحف جماهيري ذى وجهين متقـابلين وقــوات مسلحة هي الأخرى أصبحت شقين يصعب التحامهما إذا ما حدث ما هو منتظر .

وبتقدم سنة 1935 تقدمت الأحداث ولكن بسرعـة مهولة وسط إجواء على درجة كبرى من التوتر والتشنج وما هو أخطر ، عـدم الثقة . وهكذا وأمام العجز الكامل

سقطت الحكومة يوم 9 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ وبـدأت بذلك أزمة طويلة . ويجس خل روبلس مرة أخرى نبض الجيش فيخبر بأن فرانكو يشعر بأن الجيش منقسم وهذا معنـاه أنـه لا يزال مترددا وسيبقـى كذلك إلى أن يعلـن الفريق مـولا الانتفـاضـة كما سنرى .

أعاد رئيس الجمهورية الرئيس المستقيل لإدارة الحكومة مع إصدار قرار بإجراء انتخابات عامة يوم 16 فبراير ﴿ شباط ﴾ 1936 . وهكذا بدأت الحملة يوم 7 يناير ﴿ كانـون ثان ﴾ في جو متأثر كبير الأثر بحوادث أكتـوبر وظهر ذلك جليا في خطابـات الزعماء . فهذا يرى بأن البـلاد أصبحت كتلتين متقابلتين لا تمكن مصالحتهما وآخـــــر يرى بـأنه " سيجري صراع بين الأسبانيتين " . كـــــان جـو الانتخـابات أقـــــرب إلى جـو حرب منـه إلى استشـارة شعبيـة حتى أن القلاقــل والمشاغبات والحوادث التي وقعت لم تكن لتحصى .

انتهت الانتخابات بفـوز اليسار الـذي استلم السلطة في الشارع حيث تركها سلفــه ، وخطت البـلاد الخطـوة الأخيرة الحاسمـة نحـــو الهوة مما جعل جريـدة " المداولة " بعد معرفـة النتيـجة " ها هي ذا أسبانيا . تركوها مقسمـة إلى نصفيـن بدقة محـزنة تكـاد تكون حسابيّة " .

كان البرلمان المنبثق عن هذه الانتخـابات مكوّنا من ممثلين عن ثـلاثة وثلاثين حزبـا موزعين إلى 297 نـائبا عن اليسار و 125 عـن اليمين و 51 عن الوسط وكما يقول أحد المؤرخين " كانت خريطة الانتخابات نسخة طبق الأصل تقريبا من الخريطة الأساسيـة التي قامت عليها الحرب الأهلية في أواخر شهر يوليـــو ﴿ تموز ﴾ من نفس السنة " .

وفي نفس السنـة أيضـا وفي الـوقـت الـذى تبلبلت فيـه الأفكـار واحتـارت النفـــوس اختلطت الأوراق ، طلب فـرانكـو من المسـؤولين إعـلان حـالـة الطوارىء ولكن عـــارضه الجميع ولكنه أعلنهـا في بعـــض المنـاطق غير عابىء

بـــرفض المسؤولين فألغى رئيس الدولة قرار فرانكو وأعلن بدلا عنه حالة الحذر مع فرض الرقابة على الصحافة ممـا أبقى الشعب بعيدا عن وضوح الرؤيا وجلاء مجـرى الأمـــور إلى أن أعلن العصيـان وبدأت الحـــرب .

بتحـوّل السلطـة من اليمين إلى اليسار تحولت معهـا الظنـون والتهم بإعـلان الثورة . فبعد ما كان اليسار يخاف ثورة عسكرية من اليمين ، أصبح هذا الأخير يخاف ثورة عمالية يتهم اليسار بإعدادهـا . فأين جانب الصحة من هذا؟ ما من شك أن بعض القـادة الكبـار في الأتجاه اليسـاري لم يخفـوا نـوايـاهم وعـزمهم بخصـوص ذلك . والنقابـات الفـوضويـة لم تخف هي الأخـرى معارضتهـا بل عـداءها لأي نـوع من أنـواع الحكم بما في ذلك سلطـة أو حكم الـدكتـاتوريـة البروليتـاريـة التي ينـادى بها البعض مثـل الحزب الشيـوعي . ولكن وفي نفس الوقت لم يعـد سرا على أحد نـوايا اليمين واستعـداداته ولا ما كـان يطبخ داخل بعض النوادي العسكرية المنسجمة معه . ولكن الـذي حدث هو أن عفوا عاما أعلن ونفـذ في الحين فخـرج من السجـن آلاف المعتقلين فضـاعفـوا من تعكير صفو النظـام ومن ازدياد العنف فعاد دخان الحرائق يـرتفع إلى السماء وتواصلت الاضطرابـات والقلاقل في الريف واستؤنف احتـلال المزارع والضيعات وقتلت المواشي وحرقت المحاصيل . كانت الاضطـرابات في كل مكان وكل القطاعات وتعدت الأمـور كل هذا حتى بلغت الأغتيالات الشخصيـة التي ذهبت ضحية لها عدة شخصيات فبـدت البلاد حقا في مرحلـة ثورية لا يؤتمن أثنـاءها لا على الأمـلاك ولا على الأنفس . عـرفت الأحـزاب العمالية اليسـاريـة في هـذه الفترة القصيرة ارتفاعـا ملموسا في عـدد المنتسبين اليها ، وانضم فعليـا شباب الحزب الاشتراكي إلى الشيـوعيين بينما شباب الأحزاب اليمينيـة ينسلخ منهـا ليندرج في صلب حركة حـزب الكتائب بينما حزب الثيدا يتحول هو الآخـر إلى حزب ثوري ينظم رجـالـه ، كما رأينا سلفـا ، في شكل ميلشيـات ويخبر بذلـك مســـؤولي منظمـة " الـــوحـــدة العسكـرية الأسبانية التى أخذت هي الأخرى في تنظيم صفوفها من جديد .

وتزداد الأحـداث تراكما وسرعـة بعض الأقاليم تطـالب بحكمها الـذاتي مثل قاطالونيـا وبلاد الباسك وجليقية ، ومنطقة الأنـدلس تطـالب بضـم ولاية واد الحـص ﴿ باداخوث ﴾ ومـرسيا اليه وغير ذلـك كثير . وفي شهـــر مـــارس ﴿ آذار ﴾ أصدر قانون يجبر أربـاب العمل والملاك على اعادة تشغيل المطرودين من عملهم من أجل ثـورة أكتوبر . وتتـداخل الطبيعة في الأمـر فتهطل الأمطار بشدة لم تعرف خلال القرن كلـه فتأتي على المحصول وتختم الصورة الحالكة هذه بشروع عمال الـزراعـة بالـزحف على المزارع الكبرى فتضفي الحكـومـة شيئـا من الشرعية على ذلك بعد ارسالها قوات الأمن للردع والتأديب .

الضربة القاضية : كانت عين بعض الضباط في الجيش ساهرة تتابع وتترقب للتدخـل أن اقتضى الأمر ولهذه الغـاية اجتمع في أحـد البيوت الفـرقاء فـرانكو ومولا وأوغاث وفـاريلا وفنخول وآخرون معهم وكونوا شبـه مجلس ثوري واتفقوا باقتراح من فرانكـو على الانتفاضة العسكرية ضـد الجبهة الشعبية إذا آن الأوان وأصبح الوضع لا يطاق . وهكذا افترق المتآمـرون دون تحديد موعد للعصيان . وقصد مولا مدينة بامبلونا في الشمال حيث عين قائدا عسكريا للمنطقة وفرانكو جزر كاناريـاس كحاكم عسكري هناك .

لم يطل الانتظار . فبعد مدة قصيرة جـرى اعتداء على بعض رجال الجيش في مدينة قلعة هينارس بالقرب من مـدريد وآخر في شمال المغرب فأعطت الحكومة الحق للمعتدين أو من اعتبروا كذلك وعاقبت أفراد الجيش القريبين من الحادث فاعتبر ذلك المتربصون القلقون عداء ضد القوات المسلحة من جانب الحكومة .

وفي يـوم 12 مارس ﴿ آذار ﴾ تعتـدي عناصر من حـزب الكتائب على أحـد الأسـاتذة فتعتقـل الحكومـة أعضـاء المكتب التنفيذي للحـزب بما فيهم رئيســه خوزي أنطـونيو بـريمو دي ريفارا الـذي استمر في تسيير حـزبه من السجن في مـدريد أولا ثم من سجن آليكـانتي حيث نقل ، ومن السجن أيضا يستمـر في

إدارة حركة الكتائب الانتفاضية . ولقد رفض خوزي أنطونيو بادىء الأمر التعامل مع الجيش وعارض ترشيح الفريق فرانكو لانتخابات جزئية في مدينة كوونكا ولكنه بعد لأي وافق على التعاون طبقا لبرنامج الفريق مولا .

وسط هذه الأجواء الملغومة ، قام بعض رجال الفكر بمبادرة ودفع الأستاذ كلاوديو صانشث ألبورنوث بمحاولات المصالحة بين مختلف الأحزاب المتقابلة والإتيان بمسؤوليهاالى التفاوض حول مشروع تشكيل حكومة من معتدلي الحزب الاشتراكي وتقدميي الثيدا تفاديا للنزاع والحرب . ولكن باءت هذه المساعي بالفشل مثل مساع أخرى تبعتها وهي مساع اقترحت اقامة دكتاتورية جمهورية وهي فكرة تتماشى وما يراه الفريق مولا .

فشلت المساعي الطيبة إذن وفي يوم 14 أبريل ﴿ نيسان ﴾ أثناء الاحتفالات بعيد الجمهورية أطلق بعض الملكيين أمام المنصة الرسمية مفرقعات من تلك التي يلعب بها الأطفال فعم الهلع ، ظنا بأن المفرقعات كانت جدية ، ومات أحد صغار ضباط الحرس وسط الفوضى وتحت ضغط الازدحام ، فكان هذا الحادث وحوادث أخرى مشابهة حافزا ليحدد الضباط المتأهبون يوم 20 أبريل ﴿نيسان﴾ موعدا لانتفاضتهم لكنهم عدلوا في آخر لحظة عندما تأكدوا من اطلاع الحكومة على برنامجهم ونواياهم .

وتوالت أيام القلق والانتظار فضاق الفريق مولا ذرعا بهيأة الضباط المشاركة معه وبترددها فاتخذ القرار بمفرده وشرع في إصدار بياناته تهيئة للساعة الصفر بينما الحوادث تتكرر في الشارع وفي الريف . ففي أواخر شهر مايو ﴿ أيار ﴾ جرى اصطدام عنيف بين مجموعة من الفلاحين الثائرين وقوات الحرس المدني كانت نتيجته سقوط 19 قتيلا مما أدى بالحكومة إلى تحوير وتعديل بعض القوانين العدلية وإحداث محاكم لتحديد المسؤوليات السياسية والبت فيها وهي محاكم تتركب من قضاة ومحلفين ﴿ تحولت هذه المحاكم في ما بعد وأثناء الحرب الأهلية إلى محاكم ثورية ﴾ وإصدار قانون الإصلاح الزراعي يوم 11 مايو ﴿ أيار﴾ فبدأت الحرب الأهلية بالبرلمان .

بينما كانت هذه الحرب الكلامية جـارية ، عقد الحزب الشيوعي مؤتمره ونظم ما أسماه الميلشيا المضـادة للفاشستية قوامها ألفي شخص . أما الفـريق فرانكو الذي لم يقـرر حتى ذلك الحين الاسهام الفعلي في حركة زمـلائه ، فقد أرسل من مقر قيادتـه بجزيرة تينيريفي ﴿ أرخبيل كـاناريـاس ﴾ رسالة إلى رئيـس الحكومة يلفت انتباهـه فيها إلى الكـارثة التي تقترب من الوقـوع فوق الـوطن ويطلب منه الـوقـوف دونها . فلم يجبه رئيس الحكـومـة وهكـذا قرر نهائيـا الانضمام فعليـا للحركـة الانقلابية وكـان ذلك في أول شهر يوليـو ﴿ تموز ﴾ وفي نفس الوقت ، يصدر مسـؤولو حزب الثيـدا أمرا إلى أنصارهـم ليكـونوا في خدمـة رجال الجيش والوقـوف معهم ومساعـدتهم فـــي حـالة قيامهـــم بالتحـــرك . ﴿ يـؤكد بعضهم أن هذا الأمر أصدروه منذ أوائل 1936 أي قبل ستة أشهر﴾ .

واقتربت الساعة وبدأ العد للوراء . عفو عام يصدر فيفسر بأنه اعتراف بثورة أكتوبر وتقديرا لمن قاموا بها . فرانكو يبعث برسول إلى لندن ليؤجر له طائرة تنقله في شبه سرية مـن كناريـاس إلى المغرب . حزب الثيـدا يقدم للفريق مـولا معونة ماليـة قيمتها نصف مليون مـن العملة المحلية آنـذاك . وأخيرا أشتعلت الفتيلة وطـارت الشرارة إذ قـام بعض المنتسبين للكتـائب باغتيـال أحـد أفـراد الحرس المـــدني ، حـديث الـــزواج ، أمام بيته وهو الـذي كان على ما يبدو مسؤولا على تدريب أفراد الميلشيـا المضادة للفاشستية . ومن الغد ليـلا قامت جماعة ، يقال أنها من أعوان الحرس المدنى ، باخراج السيـاسي خوزي كالفوصوتيلو من بيته وأطلقوا عليه النار ثم ألقوا بجثته في الطريق .

لم تكن الأمور في حاجة إلى المزيد ، وما حدث وجرى كان كافيا ليبرز انقسام البلاد إلى شطرين حتى في أمواتها . وهكذا خرجت الأسبانيتان من الغد يوم 14 يوليو ﴿ تموز ﴾ لدفن ضحيتيهما ثم لتتقابلا .

لم يعرف بـالضبط أي يوم قرره مولا لإعـلان العصيان وقيام الثورة ولـو أن يوم 18 يوليـو ﴿ تموز ﴾ اعتبر رسميا يـوم الانطلاقـة . أما التحـرك الفعلي فلم يبدأ

بأسبانيا ذاتها أي بشبه الجزيرة بل قام به فيلـق الطابور المغربي في المنطقة الواقعة تحت حمايـة أسبانيـا وكـان ذلك يـوم 17 يوليـو « تموز » وتلت ذلك تحركـات فرانكو في جزر كاناريـاس وكايبو في اشبيليا ومولا في بامبلونا .

وكما قال خـوزي أنطونيـو " كان على الوضع أن ينفجـر فانفجـر " . انفجر الوضع وبانفجـاره نزل الستار على فصل آخر من حيـاة أسبانيا ، فصل مليىء بـالمحاولات والطمـوحات والآمـال والآراء والمذاهب والمخططـات والتحركـات والإضرابـات والمشادات والمجـادلات والنزاعـات والصراعـات والاصطدامـات وكذلك بالضحـايا والآلآم والدموع وكل ذلـك في سبيل تغيير أو تجديد أو تطور وتحسين كان ضروريا لحاجة الجماهير له ولزوميا لأن الظروف أصبحت تفرضه . ولكن ، لا المطالبون بهذا التجديد عرفوا كيف يقترحونه ويقدمونه ولا المعارضون له فهمـوا لزوميتـه وضرورته فانتصـب الإدعاء والتحدي في وجـه وأمام الأنـانية والجمـود فكان طبيعيـا وضروريا أن يـرفع الستار مـرة أخرى على فصل آخـر ، فصل الفتنة التي لا تـدع ولاتذر ، فصل الدمـاء والدموع ، والـوحل والعذاب والجوع والهدم والتخـريـب ومـا هـو أفظع وأمــر ، فصل البغض والكــراهيـة والانتقـام . بين من ومن ؟ بين المواطنيين الأخـوة أبناء البلـد الـواحد والتـاريخ الـواحـد والمصير المشترك رغم النـاكـرين المتنكـرين . وكما قـال الـدبلـومـاسي والكـاتب الأسباني الشهير سـالفادور دي مـادا رياغـا " بدأت الحرب الأهليـة كفاجعة اسبانية حقة . جـاءت نتيجة لتشابك عاطفتين سياسيتين تتحكمان في الأسباني وهما الدكتاتورية والانفصالية . جاءت نتيجة لقلة الماء وكثرة النيران في مزاج وجبليّة الأسباني " (24) .

الباب الثانى

الحرب الأهلية

مدخل : لقد أطلنا ولا شك في عرض حياة الجمهورية الثانية وأحداثها رغم عزمنا ومحاولتنا تلخيص ما جرى خلال تلك السنوات المليئة بالعواصف والزوابع الاجتماعية والسياسية . إلا أن الرغبة في إعطاء القارىء صورة أقرب ما تكون من الاكتمال ولمحة أقرب ما يمكن من الحقيقة كي يضع الأحداث والتحولات والتغييرات في إطارها الصحيح ، قد فرضت علينا شيئا من التطويل ولو أننا رغم ذلك قد اضطررنا إلى إهمال الكثير من الوقائع والعدول عن ذكر الكثير أيضا من التفصيلات وتجنبنا الدخول في الجزئيات ايمانا منا بأن الغاية من هذا الكتاب هي الجزء الثاني منه أي التحوّل التاريخي من الدكتاتورية إلى الديمقراطية دون عنف ولا اصطدام بل بالحوار والكلمة الحسنة وما العرض التاريخي الذي نحن بصدده سوى محاولة لوضع القارىء داخل إطار يمكنه من فهم أهمية هذا التحوّل وقيمته التاريخية والإنسانية والسياسية .

إن القارىء الراغب في معرفة تاريخ أسبانيا أو حقبة معينة منه له مكتبة ضخمة جدا من المؤلفات القيمة المتنوعة من تأليف كتاب ومؤرخين لهم باع ومتخصصين في هذا المجال .

كذلك الشأن بخصوص الحرب الأهلية التي قد لا نبالغ أن قلنا بأنه لم يكتب قط ، كما وكيفا وتنوعا ، أكثر مما كتب عن الحرب الأهلية الأسبانية . فقد عالجها من جميع أوجهها الحربية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية والعاطفية ، كتاب من جميع الجنسيات ، وبكل اللغات ، منهم من عاشها في لحمه ودمه وتابع مجراها وهو في خضمها كالساسة والمفكرين والعسكريين الأسبان أو المراسلين الصحفيين والمتطوعين الأجانب وغير هؤلاء وأولئك كثيرون ومنهم من تناولها عن بعد وعالجها بعين الدارس الباحث الباردة المستقلة .

ولذا فنحن سنكتفي بعرض مجمل لها وبعجالة حول أهم مراحلها لأنه كما سبق وإن قلنا فللمهتم الكثير من المصادر المختصة المنفصلة ولأننا نرى أنه بالتفاصيل أو بدونها وبتتبع المعارك والأحداث بانتظام وتواريخ أو بدونها فان كلمة " الحرب "

وحـدها و" الحرب الأهليـة " أو " الفتنـة " بالـذات تكفي بأن تضع أيـا كان أمـام حقيقتهـا وهي ليست سوى إجـرام وموت وتكسير وتحطيم وهـدم ، وفقر ومجاعـة ، وتـرمل وتيتم ، وقضاء على الحاضر والمستقبل وسـط أو في أعماق جب مليىء بالـدم والدمـوع والوحـل . إنها الوحشيـة التي تحركها الأنـانية والكـراهية والعـداء والانتقام والحسد فتقضي على أجمل وأنبل ما وهبه الله الإنسان وهو إنسانيته .

إلا أننا نـرى أنه قبل التعرض لهذه المرحلة أو أحـداثها ، من المفيد جـدا التعريف بالإنسان الأسباني من حيث أصله وجنسه ومزاجه وأخلاقه وتكوينه حتى يكون ذلك مساعدا لفهم تصرفاته في السلم أو في الحرب ولربما أعطيت له من خلال ذلك بعض الأعذار للكثير أو القليل من تصرفاته وتعامله مع الأحداث ومعاملاته .

<u>الطبيعة الأسبانية</u> : ليس من السهل أبدا تحديـد وصف أو تمييز أو خصلـة واحدة لشعب بأسره وأصعب من ذلك إذا كان كالشعب الأسباني الذي هو في الواقع مجموعة شعوب متعددة الأصول متشابكة المؤثرات العـرقية والثقافية زادت طبيعة شبه الجزيرة نفسها والظـروف السياسيـة والأنظمة في تعطيل وتأخير انـدماجهـا واختلاطهـا كليا لتكوّن بشرية متقاربة الملامح والطباع والظواهر والخصال والمميزات . فالبلاد مقسمة جغـرافيا إلى منـاطق تفصل بينها سـلاسل من الجبـال والمرتفعات تـزيد في عـزلها عن بعضها وتتفـاوت ثرواتها وغنـاها ممـا ميّز سكـان منطقة عن سكان أخـرى من حيث مستويـاتهم الثقافيـة وتفتحاتهم للتيـارات التمدنيـة والانمائية . فـالجليقي في أقصى الشمال الغربي المتعرضة أرضه لرياح وعواصف البحر الكانتابري والمحيط الأطلسي ، العائش في طقس كثير الأمطار يتصارع مع أرض فقيرة مقسمة إلى قطع عائلية صغيرة لا تكاد تعطيه ما يسد رمقه ورمق أهله ، يختلف عن القاطالاني الذي تهب عليه وعلى منطقته أنسام البحر الأبيض المتوسط المنعشـــة الحاملة له ثقافات وتقنيات وأخلاق المدنيات القـديمة التي كـان الشـــــرق مهدا لها ، وكـلاهما يختلف عن القشتالي الـذي انحصرت أرضـه القاحلـة الوعــــرة الصعبة وســـــط مجموعـــة من الجبـــــال والربى العـارية في معظمهـا والأراضي البور والسهـول الجرداء أو عن الأنــــــدلسي الـذي يتنقل على أرض خصبة متنـوعة الثمـرات طقسها لطيف وجوهـــا منعش لهـــا هي الأخـــرى نافـــــذة كبيرة تطل على الشرق عبر البحر

الأبيض المتوسط الغني بالثقافات وعلى افريقيا عبر مضيق جبل طارق الذي مع سلسلة جبال البرانس في الشمال يشكلان حدودا طبيعية لشبه الجزيرة الايبيرية أو أسبانيا حسب الاسم المتداول الآن .

وقد تعددت الأنظمة في أسبانيا وتداولت السلط إلا أن جميعها اتبع المركزية في حكمه وادارته وذلك منذ أن بدأت عملية توحيد البلاد على يدي فرناندو ملك أراغون وزوجته ايزابيل ملكة قشتالة اللذين أسماهما البابا اسكندر السادس سنة 1492 " الملوك الكاثوليك " تقديرا لما قدماه من خدمة للمسيحية .

كانت قشتالة هي القوة الغالبة في تلك الوحدة أو نواة الوحدة الأسبانية فاعتبرت نفسها قلب أسبانيا النابض وروحها وحاميتها طالبة ، وفي بعض الأحيان مجبرة ، بقية المناطق على الالتفات إليها دوما واعتبارها اعتبارا خاصا . وهذا غير طبيعي إذ أن طبيعة البلاد الجغرافية ذاتها تحول دون ذلك " وتشجع إبراز الهوية الخاصة للمجموعات الصغيرة وتنمي الانفصالية " (25) . ثم إن السلط تعامت في كل عهد ونظام عن أهمية وسائل المواصلات وانشاء ما يربط منها بين قشتالة ، وخاصة العاصمة مدريد في الوسط ، وبين بقية المناطق المحيطة والساحلية فيسهل التبادل ويكثر الاتصال فيكون التقارب والتلاحم إن لم يكن الاندماج الكلي . وبالاضافة إلى كل هذا فان أسبانيا هي البلد الأوربي الوحيد الذي عرفت أغلبية أرضه الحضور العربي الاسلامي طيلة ثمانية قرون وهو أيضا البلد الذي رفض أخلاقية الرأسمالية وبدد ثروة المستعمرات الأمريكية دون الحرص على اقتناء مصادر ثروة جديدة أو تكنولوجيا حديثة . وهكذا ولكل هذه المعطيات وغيرها نجد أن أسبانيا أكثر البلدان أو من أكثرها تعقيدا بالنظر إلى طباع أهلها وميزاتهم البشرية والوطنية .

<u>التعريف</u> : بالرغم من هذا يمكن القول أن الأسبان لهم مجموعة ثابتة من الملامح والمميزات الوطنية وفي هذا الصدد يقول غراهام " إن الفارس القشتالي دون كيخوت والعاشق الأندلسي المخصب دون خوان قد تركا وراءهما صورة تفرض نفسها كمثال للميزات الأسبانية " (26) . ويعتبر بعض الملاحظين أن العنف والقساوة ميزة من ميزات أسبانيا والأسبان . فتاريخها يضم تعذيب محاكم التفتيش

والقمع في البلاد الواطئة وقهر الوطنيين الأصليين في العالم الجديد وحربان أهليتان خلال القرن التاسع عشر وأخرى في هذا القرن . ومع صورة القساوة والعنف نجد أن التعصب الذي " دونما تغيير ، يتسم بطابع ديني مثل الصراع الكاثوليكي لإخراج العرب والغيرة الصليبية عند استعمار أميركا وقلة مرونة محاكم التفتيش وصلابة انتماء الكارليين إلى تقاليد الكنيسة والتاج وحركة الكتائب من خلال حملتها لتحرير أسبانيا من " الخطر الأحمر " أثناء الحرب الأهلية الأخيرة " فأسبانيا هي حسب هؤلاء الملاحظين ، هي بلد الأبيض والأسود ، بلد الكل أو لا شيء ، بلد الايمان الذي لا يعرف الشك ، بلد الحركة بدون حدود متوسطة " (27) .

وقد تبدو تلك العبارة التي يطلقها معظم الأوربيين على أسبانيا وهي " أنها مختلفة " أو ما معناه أن أسبانيا تختلف عن غيرها وخاصة عن البلدان الأوربية ، قد تبدو هذه العبارة دالة على مميزات الشعب الأسباني وهو ما لا نراه صحيحا . فالاختلاف الذي يراه بها الأوربيون وغيرهم ليس سوى تلك الثروة الكبرى من الثقافات وآثارها التي زرعت في كل مكان وفي كل نفس بشبه الجزيرة حتى بدت في شكلها وملامحها ومعالمها ، وبالطبع ، في بعض مظاهر حياة أهلها ونشاطاتهم ، بدت مختلفة عن أخواتها من الأقطار الأوربية وقد يكون هذا الأختلاف كبيرا مميزا . فأي الأقطار الأوربية له مثل أسبانيا ثروة تمتد معماريا من الروماني إلى العربي مرورا بالرومانيكي والغوطي دون نسيان " الموثارابي " أي المستعرب " و " المدجّر " وهو ذلك المزيج الجميل الفريد من نوعه في الفن المعماري والذي تنفرد به أسبانيا دون غيرها لا بين بلدان أوربا فحسب ، بل بين كل بلدان العالم . ثم أين هو البلد الأوربي الذي له جوهرة من الآجر والجبس مثل أسبانيا بقصري الحمراء وجنة العريف أو ثروة هندسية مائية تمتاز ببساطتها وقدمها ونجاعتها كنظام السواقي بمنطقة بلنسية أو مجموعة من المدن والقرى النظيفة البيضاء المنتشرة في كل أنحاء الجنوب أو هذا العدد الذي يصعب حصره من الفنون والصناعات الشعبية الجميلة العتيقة والمحافظة إلى اليوم على دورها الاقتصادي علاوة على الذي أعطاه اياها نمو وانتشار السياحة فسميت " فولكلورا " أو هذه الأنواع المتعددة المختلفة من المنتجات الزراعية بما فيها من حبوب

وفـــواكه كثيـــر منهـا عرفته أوربـــــا عن طريق أسبـانيا الذي لقنته بـدورها عن طريق العرب والمدنية الإسلامية ؟ يقول روبرت غراهم في هذا الشأن " الخطأ الأساسي في الـرؤية التقليـدية إلى أسبانيـــــا سـواء من طرف الأجـانب أو من طرف الأسبـان أنفسهم ، هو انعدام المنظـور للتمييز بين ما هو خـاص بالبلد وبين الظواهـر العامة لمراحل معينة من نموه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي "(28).

ومهما يكن من أمر فالأسبـاني هو إنسان أنوف معتـز بنفسه دون تكبر وهو في نفس الوقت خنوع متواضع وهو ما يبدو متضاربا مع صفته الأولى . وهو أيضا شهم غيور تجعل منه عـاطفته الفياضة كـريما حنونا سريع التلبية لنـداء الضعيف أو المحتمي به وهـو في بعض الأحيـان جلف خشن الطبـاع وهذا مـا يخفي الكثير من رقـة شعـوره ورومانطيقيتـه التي لم تأت عليها صعـوبة المناخ ولا شـدائد الدهـر . والأسباني كثير الكـلام سريعه ، قـوي الصوت وهـذا مـا يحول دوما دون حسن إصغـائه لمحدثـه أو مجادلته فينعـدم التفاهم وتقارب الآراء المطلـوب أحيانا . وأخيرا لا آخرا فـان الإنسان الأسبـاني كثير الانتقاد لنفســه وذويه الخواص والعـوام ولكنه لا يقبل بسهـولة انتقـاد الآخرين له أو لوطنه بسبب عزة النفس وقوة الشهامـة والكرامة ولوأنه كثيرا ما يتصاغر أمام الأجنبي خاصة إذا كان أوربيا مما دفعنـا إلى القول بأنه " يشكو مركبا تجاه أوربا " وإن أهملنا فلن نهمل ظاهرة الفـردية ولا سرعة التحمس والانفعال دون غضب مضر . ومن جهة أخـرى فان الإنسان الأسبـاني كان ولا يـزال يقدس العلاقـات والروابط العائليـة ولذا فهـو أب « أو أم » وفير العاطفة والعنـاية بـالأبناء كثير الصلـة بالأهل والبلدة . أمـا الشعـــــور الديني فكان دومـا قويـا لديه مشـوبا بشيء من التعصب ولكنه آخذ الآن في الفتور ومائل إلى التحرر أو الابتعاد عن العقيدة المنغلقة .

هذه في نظـرنا ملامح شخصيـة الأسباني ومزاجـه ولو أننا نكـرر القول بأنها ليست وصفة نموذجية ثابتة لكل أسباني أيا كان ، ولكنها أقرب شيء إلى ما هو سائد دارج . ويلاحظ في هـذا الوصف تضارب بعض الميـزات مع بعض آخر وهـذا دون شك هو الميـزة التي قد تبرز لـدى الأسباني أكثـر من غيره وإلا فهو إنسـان بخصالـه وسيئاتـه وبعواطفه ومشـــــاعره يدفعه الأمل والطموح كما يخضع للشدائد والخنـــوع ، كثـير

الصبر في ثورة وعناد ، سريع التحرك في قوة وتصميم . ولعل أحسن وصف وأصدقه بالإضافة لما سبق هو الذي ذكره الكاتب والمعلق السياسي المعروف الأستاذ أميليو روميرو إذ قال " نحن شعب ذو مشاعر انتسابية ، وبدون ذكاء مستعد للتحاليل . ثم إن لنا تقاليد عنف وانحصار وراء متاريس سياسية لا نتحرر منها . إن الشعب الأسباني يفتقد إلى حس سياسي مفسر أو عملي بل هو متحمس أو غائب أو مستاء وهو في معظم الأحيان لا يصوت لفائدة أحد بل " ضد أحد " (29).

اندلاع الحرب : هذا إذن هو الإنسان الأسباني الذي واجه سنة 1936 حربا أهلية امتازت بفظاعتها وشدتها . اندلعت هذه الحرب كما رأينا ، رسميا يوم الثامن عشر من يوليو ﴿ تموز ﴾ 1936 ولو أن أول من تحرك من العسكر الذين شقوا عصى الطاعة في وجه الحكومة الشرعية آنذاك ، حكومة الجمهورية برئاسة كاسارس كيروغا هم ضباط حامية مدينة مليلة بشمال المغرب ، تلاهم الجنرال ياغوي الذي سيطر على مدينة سبتة بالشمال المغربي أيضا وكان ذلك يوم 17 يوليو ﴿ تموز ﴾ . ومن الغد ، يوم 18 وجه الفريق فرانسكو فرانكو عن طريق إذاعة جزر كانارياس حيث كان حاكما عسكريا ، نداء الى الشعب والقوات المسلحة يطالبهم بالانتفاض ثم امتطى الطائرة " دراغون رابيد " التي استأجرها سرا من لندن واتجه إلى المغرب فقضى الليلة الأولى بالدار البيضاء أي في المنطقة الخاضعة آنذاك للسلطة الفرنسية ليلتحق يوم 19 بمدينة تطوان . تلا ذلك تحرك جانب من القوت المتمركزة باشبيليا تحت إمرة الفريق كايبو دي يانو الذي استطاع وصحبه ﴿ 100 رجل و15 من ميليشا الكتائب ﴾ وبمساعدة عامل المفاجأة استطاع السيطرة على المدينة بعد شيء من المقاومة التي دامت بضع ساعات .

وأخذ التمرد في الانتشار عبر منطقة الأندلس . فبعد اشبيليا تتمرد قادش ثم العامرية وويلبا وشيئا فشيئا يتسع الخرق وتدخل البلاد في حالة فوضى وانعدام وضوح للرؤيا مما جعل فهم الأحداث يصعب ، لا على من كان يعيشها آنذاك فحسب ، بل حتى على من يريد اليوم متابعتها وسبر غورها لاستخلاص العبرة والدرس .

اشتعلت أول شرارة كما رأينا ، في مليلة أي على أرض المغرب لا فوق تراب شبه

الجزيرة وكان هذا كافيا لإعطاء الحكومة إشارة الخطر لتتخذ الخطوات اللازمة للقضاء على التمردفي مهده وهي العليمة بما يطبخه الفريق أميليـو مولا الذي لم تعد نواياه ولا نوايا زملائه سرا على أحد . ثم ان ضبـاط حامية مليلة ، لما تمردوا معلنين العصيان ، قد سجنـوا قائدهم في مكتبه دون أن يقطعوا خط الهاتف فتمكن بـذلك من الاتصال شخصيا بـالحكومة واشعـارها بالموقف وخطـورته ولكن لم يتحـرك أحد للوقـوف أمام الخطر الـداهم وانحصر الأمر في إذاعة خبر الحدث من محطـة مدريد مع الاشـارة أنه أمر غير مزعج . الا أن الشعب في مدريد رأى الأمـر بعين أخرى وخرج تحت قياداته الحزبية والنقـابية المختلفـة ينادي بـاعطائه السـلاح للدفـاع عن نفسـه وذويه إلا أن الحكومة قد رفضت ذلك فتكون قد أحسنـت صنعا لو أنها وقفت بحزم وجد لتدارك الموقف . لكن حدث مـا يخالف ذلك وهو استقالـة رئيس الحكومة واعترافه لـزملائه بأنـه يفعل ذلك لانعـدام الـوسـائل وعـدم استطاعتـه إخماد العصيـان . أمـا رئيس الجمهورية فقد وجه أنظاره تجاه المصالحة والمهادنة والتفاوض فكرس يومين أو أكثر في متـابعة اتصـالات أحـد الساسـة المكلف بتشكيل الحكـومـة ، بقيادة التمـرد ، وفي مقدمتهم الفريق أميليو مـولا ، لاقناعهم بالاقلاع عن عزمهم فرفضـوا رفضا باتا كما دلت على ذلك الأحـداث ولو أن مـادار بين المتمـردين والمكلف بتشكيل الحكومـة لم يعرف تفصيلا حتى الآن .

عـدل إذن السيد مـارتينث باريـو عن تشكيل الحكومـة ، بعد فشل محاولاتـه مع المتمردين ، فكلف بتشكيلها السيد خـوزي خيرال الذي عقد مجلس وزرائه الأول يوم 19 يوليـو ﴿ تموز ﴾ أي بعد مضي يـومين على أول تحرك عصياني وهو وقـت أكثر من كاف لتمكين التمرد من الانتشار . وأول قرار اتخذته حكومة السيد خيرال كان السماح بتوزيع الأسلحة على النقابات العمالية والأحزاب الممثلة في الجبهة الشعبية ، علما بأن الأسلحة لم تكن متوفرة بتلك الكثرة التي تمكن من تسليح شعب كامل .

وسواء وزعت الحكـومة الاسلحـة أم لم توزع ، فـان الأحزاب والمنظمات التي بقيت بعيدة عن الحكم ، إذ لم يشركهـا الرئيس الجديد في وزارته هـذه المرة ، أخذت منذ أن سمعت بما حدث في المغرب ، في تنظيم رجالها واعـداد العدة لكل الطوارىء مصدرة في الليلة التـالية لأول تحرك عسكري بلاغـات لأتباعها وأنصـارها تحثهم على التأهب

ووضع أنفسهم تحت تصرف الحكومة . وكان طبعا في مقدمة هذه الأحزاب ، الاشتراكي الذي كان إذاك الهيكل الوحيد المنظم إلى جانب الحزب الشيوعي واتحاد الشباب المكون من الحزبين ، فانكب الجميع على تكوين المجموعات القتالية وتخزين وتنظيم التموين واتخاذ التدابير الأمنية انتظارا للدفاع عن العاصمة التي ستكون ، ما من شك ، هدف المتمردين الأول .

وهكذا ومن أحداث اليومين الأولين ، ظهر جليا ضعف الحكومة الشرعية وعدم قدرتها على اتخاذ أي قرار حازم ينفذ في حينه ، كما ظهرت سلطات موازية لها هي سلطات الأحزاب واللجان والبلديات إذ كان كل منها يتصرف بمعزل عن الآخرين وفي بعض الأحيان ضد الآخرين .

كان هذا يجرى في الجانب الشرعي ، جانب الجمهورية وحكومتها . أما في الجانب الآخر فقد رأينا كيف كانت التحركات تتتالى وكيف وصل الفريق فرانكو إلى تطوان واستلم أو أفتك قيادة جيش افريقيا الذي كان يعد أحسن وأقوى تنظيم داخل القوات المسلحة الأسبانية وهو جيش تربطه بفرانكو روابط متينة إذ كافح ضمنه خلال حرب الريف وتولى قيادات فيه على مختلف المستويات وهو مؤسس فرق " اللفيف " كما رأينا .

لم يتم سقوط مليلة ولا سبتة ولا تطوان دون مقاومة من قبل النظاميين إلا أنه تم القضاء عليها بشراسة وعنف وتلت ذلك عمليات قمع وانتقام شديدة انتهت في الكثير من الأحيان بإعدام من وقع تحت وطأتها فلم يسلم من ذلك حتى قريب فرانكو الذي لم يحل دون إعدام قريبه .

ومن ذلك الحين ، أي منذ أن تمركز فرانكو بمدينة تطوان ، أخذ هذا الأخير يتصرف وكأنه الحاكم المطلق غير معير أي وزن لزملائه الآخرين وفي مقدمتهم الفريق مولا ، الذي يعتبر المتمرد الأول والرأس المدبر للتمرد مع سان خورخو اللاجىء بالبرتغال ومنه يحرك خيوط المؤامرة . لم تكن نية فرانكو طبعا البقاء بشمال

المغرب بل هيأ قـواته لعبور مضيـق جبل طارق وفتح جبهة على أرض شبـه الجزيرة . فوجه من حيث هو نـداء إلى كل القوات المسلحة ينـاديها للانتفاض والتمـرد ولو أن نداءه لم يصل إلى غايتـه إذ التقطه ضابط المواصلات العسكريـة فقطع الخطوط وحال دون ابلاغـه مقصده . وفي نفس الـوقت بعث فرانكـو إلى إيطاليا وألمانيـا طالبـا مده بوسائل نقل تمكنه من تحويل قواته من المغرب إلى أسبانيا .

أما مولا فقد شكل " مجلس الدفـاع الوطني " أي " مجلس قيادة الثورة " بالتعبير الحديث ، وأعلن حـالـة الحرب ، حـالـة الطـوارىء والأحكام الاستثنـائيـة ، وأمـر بتشكيل المحاكـم العسكرية وأصـدر بلاغـا يشرح فيه أسبـاب التمرد ويحث الشعب على الـوقوف إلى جـانب المتمردين زاعما كبقيـة المتمـردين الآخرين أن تصرفهم دافعـه انعدام السلطة في البلاد وما صنيعهم الا لإنقـاذ أسبانيا ولمصلحتها ، لأن " الظروف غير العادية التي تمر بها أسبانيا والتي تعود أساسا إلى انعدام السلطة العامة كلية لدى أولئك الـذين كان من المفـــروض أن يمسكـوا بها عن طـريق ما خـولوه من شرعيـة دستورية وهذا ما يجبرني ، وأنا لا أفكر الا في مصالح أسبانيا العليا وفي الجمهورية ، أن أستلم مسؤوليـة القيادة المطلقـة للمكـــان . . وما الغـاية الوحيدة سـوى إعادة استتاب النظام الضروري للسير الطبيعي للحياة الوطنية " (30) .

هكذا كان يدعى مـــولا وفرانكو وكايبـــو وكل القـادة العسكريين الذين مالوا إلى التمرد . لم يكن هؤلاء القادة مخطئين تمام الخطإ لأنه ولأن كـانت الحكومة بمدريد مستمرة في شرعيتها ودستوريتها فقد بقيت هناك عديمة السلطة والنفوذ تقريبا . بقي وزير الـدفاع وحده يصحبـه الأمين العام للوزارة لكـن بدون جيش منظم منضبط بل بمعية مجموعات قتالية عمالية وفرق الطليعة الهجومية وبعض من قوات الحرس المدني الـذي لم تكن تعرف ميـولاتها الحقيقيـــــة في ذلك الحين . أما الشرطـة فقد غلبتهـا الأحـداث عـلاوة على عدم التـأكد من استمـرار ولائهـا ، وهي الغيـورة من تـدخل اللجان المدنية في أعمالها ومسؤولياتها .

أما في الخارج وعلى الصعيـد الدبلوماسي ، فإن العـديد من سفراء الجمهوريـة قد انضموا إلى التمـرد فتركوا سفاراتهم وقـاموا بأنشطة حـالوا بها دون تقديم المسـاعدات للجمهوريـة أو سلموا وثائق سرية إلى دول أجنبيـة مثل ألمانيا النازية . كـان كل هذا

إذن يعطي بعض الحق للقادة المتمردين في دعواهم ولكنه لا يبرر بأي حال تصرفهم لأن واجبهم آنذاك كان الوقوف إلى جانب تلك السلطة والعمل على تعزيزها وجعل القوات المسلحة ، كما هو واجب وطبيعي ، " الذراع المسلحة " للدولة ، تعمل في سبيل تقويتها وحمايتها ومساعدتها على تركيز النظام والأمن ، لاعلى مقاومتها والوقوف ضدها .

فقائد في مكانة وسمعة الفريق فرانشسكو فرانكو كان بامكانه ، وكذلك مولا وغيرهما ، إنقاذ الحكومة من التدهور واعطاؤها السند الذي كانت تحتاجه لفرض هيبتها والتغلب على مصاعبها السياسية والاقتصادية باشعارها بوقوف القوات المسلحة موحدة متراصة إلى جانبها مستعدة لتنفيذ أوامرها ، خدمة للمصلحة العامة ومصلحة الشعب الذي ليست القوات المسلحة سوى صورة منه وانعكاس له . وبعبارة أوضح ، كان على القادة العسكريين وكل أفراد القوات المسلحة ، البقاء بعيدا عن السياسة ومتاهاتها وعدم الغوص فى طينها وأوحالها العفنة . لكن القادة المتمردين كانت تحركهم غايات أخرى غير تلك التي ادعوها وزعموها . .

<u>انتشار الحرب</u> : رأينا كيف اندلعت الشرارة الأولى وكيف أخذت النارتتقد هنا وهناك في شيء من الفوضى وعدم الوضوح . فهذا تمرد ينجح وآخر يفشل وثالث يتمركز أو يسقط حسب الظروف المحلية للمكان وتوفر عنصر المفاجأة أو انعدامه وولاء هذه القوة أو تلك من مختلف الأسلحة داخل القوات العسكرية وحسب قوة التنظيم الشعبي ومقدرة لجانه الدفاعية . فبعد يومين من التحرك الأول ظهر فوز التمرد في قشتالة وسالا منقة ونافارا وثامورا وآلبا شمالا ، واشبيليا وقادش وقرطبة جنوبا بالاضافة إلى جزر كاناريـاس وجزر الباليارس باستثناء مينوركا . غير أن هذه الانتفاضات الأولى لم تكن لتحدد الموقف النهائي لأن ذلك سوف لا يتم الا بعد أسبوعين أو ثلاثة أي بعد الأسبوع الأول من شهر أغسطس ﴿ آب ﴾ .

فمدينة مدريد اشتعلت فيها شرارتان احداهما في ثكنة كارابنشيل احدى الضواحي القريبة والثانية في قلب المدينة ، بثكنة الجبل ، حيث تمردت الحامية معززة بعدد من عناصر حزب الكتائب ومن الملكيين انضم اليهم الفريق فانخول وزميله

فرنانـدث كانتانا . أمـا حركة كارابنشيل فقـد أخمدت في الحين وفي شيء من السهولة لكن ثكنة الجبل أبدت مقاومة عنيفة أجبرت القوات النظامية ولجان الدفاع المدنية إلى إقامة حصار شـديد حـولها ثم قذفهـا بالقنـابل من الطـائرات والمدفعية الـــى أن خمـــدت المقاومة وسقطت الثكنة يـــوم 20 يوليـــو « تموز» في أيدي النظاميين الـذين بـذلوا الجهـد الكبير لحمايـة المستسلمين من غضب الشعب ونهشـه إيـاهـم . استسلمت الحامية وأسر الفـريق نانخـول وزميله فـرنانـدث وأعدمـا بعد يـومين رميا بالرصاص دون محاكمة تذكر .

هكـذا سيطرت القـوات النظاميـة أو الشرعية على مـدريد وعـززت تحصينها بعـد ذلك ، فبقيت بأيديها إلى آخر الحرب رغم الهجومات المتكررة المتواصلة التي قامت بها بـلا انقطاع وبكل شراسـة وشدة قـوات المتمردين . أمـا معركـة ثكنة الجبل هـذه ، فستبقى في ذاكرة شعب مدريد أسطورة تحكي فظاعة وضراسة تلك الفتنة .

عرفت مدينة بـرشلونة هي الأخرى محاولة من قبل المتمردين الـذين خرجوا بقواتهم فجـر اليوم الأول لاحتـلال المراكز الحيـوية من المدينـة لكنهم وجدوا قـوات المقاومـة الشعبية متأهبة فتصدت لهم حتى أجبر البعض منهم على التراجع بينما واصل البعض الآخر الصمـود فدارت معـارك على درجة كبيرة من الضراوة والشـدة واستمرت إلى أن أخذ قائد الحرس المدني قراره باحترام الشرعية وقدم ولاءه لرئيس الحكومة المحلية فمالت الكفة لصالح الشرعية وانهزم التمرد . ويحكى أن حديثا دار بين الفريق آرانغوران قائد الحرس المدني الذي ناصر لحكومة والفريق غوديث القائد المتمرد وكان يطلب التفاهم بعد أن غلب على أمره فقال الأول لمخاطبه " لو أعدمتني غدا تكون قد أعدمت فريقا احترم ووفى بكلمته وقسمـه العسكري لكن إذا أعدمناك نحـن غدا نكون قد أعـدمنا فريقا خـائنا أخل بكلمته وشرفه " لكـن إخماد الانتفاضة في برشلونـة لا يعني سيطرة الحكومـة على الموقف فيها أو امساكها بـزمام الأمور لأن ذلك قد ضـاع من بين يديها نهائيا وأصبحت السلطة الفعلية في أيـــــدي قادة النقابـــات الـــوطنية للشغل « ث . ن . ت . » ومن معهم من بقية المنظمات التي كوّنت " لجان الميلشيات المضادة للفاشستية " وهي اللجان التي أصبحت فعليا صـاحبة الأمر والنهي تنظم التموين والدفاع والأمن بينما بقيت حكـومة قاطالونيا المحلية «الجينيراليتـات» تحكم صوريا وتسيّر شكليا .

كان الأمر شبيها بما جرى في مدريد وبرشلونة في كل من بلنسية والعامرية ومالقة وغرناطة ولو أن هذه الأخيرة قد تغلب فيها التمرد في النهاية وجرت فيها كما في غيرها عمليات قمع وتتبع سقطت لها الضحايا العديدة كان أشهرها بالنسبة لمدينة غرناطة الكاتب الشاعر فيديريكو غارثيا لوركا . لم يكن هذا القمع منحصرا في مكان أو زمان بل كان عاما شاملا وقام به الطرفان الا أنه اكتسى من جانب المتمردين أكثر شدة وبروزا لأنه كان قمعا " رسميا " ينفذ من طرف المسؤولين أو بأمر منهم وهم الذين جاؤوا للدفاع عن الأمن والنظام . فكثير من بلاغاتهم حثت وأشارت إلى ذلك فقالت " . . . . . . إن أي نقابة مهنية يجري إضراب في صفوفها أو تعطيل في العمل يمكن اعتباره إضرابا ، سيعدم في الحين كل الأشخاص الذي يتكوّن منهم مكتب تلك النقابة ويعدم معهم عدد مساوهم يتم اختياره من بين أصحاب تلك المهنة . . . ونظرا لقلة اِعتبار الأوامر التي جاءت في بلاغاتي أحذر وأنبه إلى أن أي شخص يقاوم أوامر السلطة أو يعصي التعليمات التي بالبلاغات التي صدرت أو التي ستصدر في ما بعد ، سيتم إعدامه دون محاكمة " (31) .

استمرت الحركة من الجانبين حثيثة بغية احتلال المواقع والتمركز فيها وتحصينها وانقضت الأسابيع الأولى في تكوين الطوابير والفرق التي كانت تتقدم في هذا الاتجاه أو ذاك ولا تتوقف حتى تجابهها طوابير وفرق الجانب الآخر . فالفريق مولا وجه قواته نحو مدريد جنوبا ونحو بلاد الباسك شمالا ، موليا أهمية كبرى لهذه الجبهة التي ، علاوة على قيمتها المعنوية لها قيمة اقتصادية استراتيجية . فالمنطقة صناعية من الدرجة الأولى والاستيلاء عليها سيمكن المتمردين من مصانع تكون عونا كبيرا على المجهود الحربي . ثم إن المنطقة محدة بفرنسا واغلاق هذا المنفذ على النظاميين عون كبير للمتمردين . أما الفريق فرانكو فقد توصل إلى الحصول على مساعدة مهمة من إيطاليا وألمانيا مكنته من إقامة جسر جوي فوق مضيق جبل طارق ونقل جيشه الأفريقي إلى أرض شبه الجزيرة حيث انطلق من اشبيليا نحو الشمال ليخترق جبهة منطقة استريمادورا ويربط بين جيشي مولا في الشمال وكايبو في منطقة الأندلس .

وقبل ذلك تحركت القوات النظامية أيضا تجاه اشبيليا وقرطبة وغيرهما من الأماكن المتمردة بالأندلس وكانت قوات مختلطة بين نظاميين ومجموعات قتالية مدنية ﴿ ميليشيا ﴾ في حين فتحت القوات الجمهورية بمنطقة قاطالونيا جبهات ثلاث

لايقاف زحف قوات مولا ومنع توسع التمرد من تلك الناحية .

وهكـذا ، ومـا أن حل شهـر أغسطس ﴿ آب ﴾ حتى تحددت المنـاطق الموالية للسلطة والمتمردة ، فانقسمت البـلاد إلى جزأين يفصلهما خط ذو منعرجين يمتد من الشمال الشرقي وينتهي بالجنوب الغربي . وكما لكل قاعدة شذوذ ، فإن هذا التقسيم له هو الآخر شذوذ تمثل في شريط ساحلي يطل على بحر الكانتابريكو ولا يفوق عرضه الأربعين كيلو مترا ويضم بعضا من جليقيـة وأستورياس وبلاد البـاسك ، بقي مواليا للنظام الشرعي ومنفصلا عنه ترابيا بالمناطق المتمردة " (32) .

إذاك فقط وباقتراب الخريف ، تأكد لدى الطرفين ، الشرعي والمتمرد ، أن الحرب ستطول ، وأن ما كان يعتقد انقلابا ، ليس هـو في الحقيقة سوى فتنة رهيبة اجتاحت البلاد وستـدوم قرابـة الثلاث سنـوات تزرع الـدمار والخراب والـدم والدمـوع وتجمع حصاد البغض والكراهيـة والتعصب والتبعية ، تبعية لمبادىء وأفكار وأيديـولوجيات زحفت على البلاد من شتى المصـادر الخارجية فأفسـدت بدل الإصلاح وأخـرت بدل التقدم وأفقـرت بدل الغنى لأن أكبر مصيبة عـرفتها أسبانيـا وأشد خطرا داهمهـا منذ القرن التاسع عشر أو حتى قبله بقليل وحتى الحرب الأهلية ، هو استيرادها فلسفات وأيديـولوجيات أو مبادىء ظهـرت هنا وهناك في العـالم المحيط بها ، وأرادت تطبيقها دون مـا تحوير أو اقتبـاس فكانـت لها رداء غير لائق ومركبـة يستعصي تسييرها لعـدم مماشاتها والمتطلبات الداخلية حسب الظروف والمعـطيات الموجودة .

معارك مشهورة : تأكـد الجميع إذن من أنها حـرب لا انقـلاب وأن هـذه الحرب ستطول فتمت مواجهتهـا بما تتطلبه من شجاعة وصبر وتضحية إلى جانب مـا تفرضه من تمويل وتموين وتسلـح وتحالف . وليست الحرب الأهليـة لتشـذ عن غيرهـا من الحروب . فهي أيضا لها أبطالها وضحاياها ومعـاركهـا وملاحمهـا " الخالدة " ﴿ حبذا لو لم تكن لتخلد ﴾ وما يدور حول كل ذلك من الأساطير والروايات .

واشتهرت خلال الحرب الأهلية معارك عدة ، تعدت أنباؤها حدود البلاد لطولها أو فظاعتها أو بطـولاتها . وقد تكون معركة مـدريد في المقدمة لطـولها وتقلباتها إذ حاول المتمردون احتلالها منذ السـاعة الأولى للتمرد وصوّبوا نحوها طـوابير عديدة حاصرتها من كل الجوانب تقـريبا غير أنها صمـدت صمودا مثـاليا رغم قلـة التنظيم والتنسيق

ودافع عنها طوال الثلاث سنوات جيش خليط بين نظاميين ولجان دفاع مدنية والطابور الخامس الشهير الذي أشرف على تكوينه وتدريبه الشيوعيون وقد تقوى مفعولهم منذ بداية الحرب وأصبحت لهم فاعلية لم تكن لتخطر على بال قبل ذلك لحداثة حزبهم وصغره . ولكنهم عرفوا كيف ينظمون أنصارهم ويستغلون الأحداث والظروف فأصبحوا إلى جانب الاشتراكيين وبمعية اتحادي النقابات ، الفوضوي والاشتراكي ، أسياد الموقف في المناطق الموالية للجمهورية ومن المتحكمين في سير الأحداث .

وداخل أسوار مدريد معركة ثكنة الجبل التي أشرنا اليها سلفا ، كانت هي الأخرى من تلك المعارك التي لا تنسى لما تميزت به من شدة وعنف وللضحايا التي سقطت أثناءها ، ولم لا ، لكل ما عكسته من مقدرة الإنسان على نسيان إنسانيته وطواعيته لأهواء وعواطف وأفكار تجعل منه آلة للدمار والموت .

ومعركة أخرى أصبحت أيضا أسطورة خاصة لدى المتمردين ، المنتصرين في مابعد إذ جعلوها رمزا للبطولة والتصميم والثبات ودليلا على مقدرة فرانكو الحربية .

دارت هذه المعركة في حصن مدينة طليطلة وحواليه إذ فيه احتمى يوم 22 يوليو ﴿ تموز ﴾ العقيد خوزي موسكاردو ومعه ما يزيد عن ثماني مائة حرس مدني وقرابة المائة والخمسين جنديا وعدد من المدنيين يفوق المائتين وعدد آخر من الرهائن إلى جانب نساء وأطفال الجنود والمتطوعين . تحصن موسكاردو داخل القلعة ومنها واجه حصارا طويلا وقتالا عنيفا قامت به القوات الشرعية . طال الحصار والقتال وتخللها تفاوض ونداءات للاستسلام قوبلت كلها بالرفض من جانب القائد المحاصر الذي لم يلن حتى لما اعتقل المحاصرون ابنه ودفعوه لإقناع أبيه هاتفيا حتى يحول دون موت ابنه الذي سيعدم في حالة عدم الاستسلام . ورفض الأب بشدة وأعدم الأبن واستمر القتال .

في هذه الأثناء قام الفريق فرانكو بعملية بقيت وستبقى لغزا قابلا لجميع الحلول والتأويل . فبعد أن احتلت قواته مدينة ماردة وربطت بذلك جبهتي الجنوب والشمال وجهها نحو مدريد لتساهم ، مع القوات الأخرى المحيطة بالعاصمة ، في

إخضاعها واحتلالها . ولكن فجأة غير فرانكو خطته وأمر قواته بالتوجه نحو طليطلة ونجدة المحاصرين بالقلعة .

ما الذي كان يبغيه ياترى من وراء هذا التحول المفاجىء ؟ هل تذكر حالته ووضعه سنة 1921 لما حوصر بمدينة الناظور بشمال المغرب ، فرق قلبه وهب لنجدة زميله المحاصر داخل قلعة طليطلة عرضة لأعنف القصف وأفظع الهزائم؟ أم هو توقع عدم جدوى هجومه على مدريد حيث اشتم ، وهو الخبير بشؤون القتال ، رائحة الهزيمة أو على الأقل عدم النجاح ؟ أم هو رأى في عملية القلعة فرصة تعطيه انتصارا يلفت إليه الأنظار داخليا وخارجيا حيث استرعى وضع القلعة بطليطلة وصمود من فيها كل الأنظار وأصبح حديث الصحف والشوارع؟

مهما تكن الدوافع التي حركت فرانكو يوم 24 سبتمبر « أيلول » وأدت به إلى تغيير وجهة قواته ، فهو قد ضرب ضربة جارف علقت على صدره وساما آخر جني ثماره في ما بعد . توجهت قوات فرانكو الافريقية نحو طليطلة وهاجمت محاصري القلعة ففكت الحصار وأنقذت العقيد موسكاردو وصحبه وبذلك كتبت أسطورة أخرى من أساطير هذه الحرب .

في الجنوب الغربي من طليطلة وفي الطريق الصاعد غربا نحو الشمال بين اشبيليا ومدينة سالامنقة ، مدينة واد الحص « باداخوت » حيث جرت معركة أخرى بقيت عالقة بالأذهان لا لضراوتها وثبات المقاومين فحسب بل للمجزرة البشرية التي تلتها . كان المهاجمون هذه المرة من صفوف المتمردين والمقاومون أنصار الحكومة الشرعية . وبعد قتال دام عنيف شديد ، سقطت المدينة يوم 14 أغسطس « آب » في أيدي القوات المتمردة بقيادة الفريق جاغوى الذى أطلق لقواته العنان فقامت بعملية " تطهير " أعدمت " أثناءها أعدادا كبيرة من الجنود والمتطوعين والمدنيين ، ثم جمعت السكان في حلبة مصارعة الثيران بالمدينة وأجرت عليهم عملية إعدام جماعي كانت وستبقى من بين أكثر أحداث الحرب فظاعة وشناعة زاد من وقعها تصريح الفريق جاغوي قائد الحملة لمراسل جريدة " نيويورك هيرالد " الأمريكية المرافق لقوات المتمردين إذ قال له إجابة عن سؤال بخصوص المجزرة " أعدمناهم طبعا . ماذا كنت تنتظر مني ياسيدي ؟ أكنت تريدني أن آخذ معي أربعة آلاف أسير أحمر ضمن فيالقي وأنا أحاول التقدم بأقصى السرعة ؟ أم تريدني أن أتركهم ورائي كي تصبح واد الحص حمراء مرة أخرى ؟

" ملحمة " أخرى من الملاحم المشينة ومـذبحة يخجل المرء من ذكرها تلـــك التي تعرضت اليهـا مدينـة مالقـة في شهر فبرايـر ﴿ شباط ﴾ من عـام 1937 . لقد رأت قيادة المتمـردين وجوب القيـام بتخفيف الضغط عن قـواتها الجنوبيـة وعزل التهـديد المستمر الذي تتعـرض إليه غرناطة ، كما رأت في مينـاء مالقة نقطة استراتيجيـة هامة سيمكن احتـلالها من تقـديم سنـد كبير للعمليات البحـريـة وتخفيف وطأة هجمات الأسطول النظامي على مضيق جبل طـارق فقررت المبادرة بالهجوم على مـالقة ونفذت ذلك بواسطـة ثلاث جبهات كـانت إحداها مكـونة من فـرق ايطالية بقيـادة الفريق ماريو رورواتا . كـان المهاجمون يفوقون الحماة عددا وعدة وكـانت تحميهم مظلة جوية افتقـد اليها المدافعـون عن المدينـة الـذين لم تنجدهم قطع البحـريـة الـراسية بمينـاء قرطاجنـة لأسباب بقيت غامضة وخذلتهم قيـادتهم التي أكلها الخلاف وأتت عليها مـؤامرات بعض القـادة الشيوعيين . هكـذا وفي مثل هذا الـوضع ، حاولت المدينـة المقاومـة ثم أذعنت للـواقع واستسلمت فاتحة أبـوابها للمحتلين بعد أن هـرع سكانها خارجهـا فتكوّنت منهم طـوابير بشرية من كل فئـة وجنس : نساء وأطفـال ، شيوخ وعجـز مختلطون ببقـايـا العسكـريين والمتطوعين المدنيين ، يـدفعهم الخوف ويجريهم الرعب نحو الفضاء الفسيح والمستقبل المجهول . لم يكن ذلك المستقبل بعيدا ، فهو وراءهم بل فوقهم تمثل في هجومات متتالية بالقنابل والمدافع أطلقها عليهم المنتصرون دون ما رأفة ولا شفقة ولا تمييز فكانت مـذبحة أخرى من تلك التي ما انفك الإنسان يقوم بها ضد أخيه الإنسان .

وآخر مثـال نذكـره ، وهو ليس الأخير ، ولكنه دون شك أكثـر الأحداث فظـاعة واجراما ، وأوسعها شهرة وتأثيرا ، هز في حينه شعور الناس في الداخل والخارج وبقى مثالا ورمـزا للقمع والقتل والتدمير ، مخلـدا في لوحة رسمهـا الفنان الأسبـاني العالمي بابلوبيكـاسو وتركها وديعـة في الخارج على أن لا تعود إلى اسبانيا إلا إذا عـادت اليها الديمقراطية وهو ماتم منذ أكثر من سنة (33) .

وغرنيكـا هي بلدة في شمال أسبـانيا ، بمقـاطعة بـلاد الباسك وهي بشجـرة فيها شهيرة ، تعتبر مقــدسـة إذ فيهــا وتحت تلك الشجــرة ، يقيم البـاسكيــون معظم احتفالاتهم الرسمية وخاصة منها تأدية القسم عند استلام سلطة أو مسؤولية . ليست البلدة مـركزا استراتيجيـا ولا معقلا عسكـريا ولا مـركبا صنـاعيا رغم كـل ما حـاوله بعضهم لاسدال كل ذلك عليها . هي بلدة صغيرة شبه مقدسة ، يقطنها مــا يقرب

من أربعة آلاف ساكن . كانوا مثل عادتهم في مثل ذلك اليوم من الأسبوع ، يوم السوق الأسبوعية ، يتعاطون أنشطتهم في دعة وطمأنينة حتى فتح الجحيم عليهم أبوابه ، مرسلا فوق رؤوسهم أسرابا متتالية من الطائرات تقذفهم بأنواع جديدة من القنابل المدمرة والمحرقة المبيدة . جولة تلو جولة قامت بها الطائرات في سماء البلدة ولم تتركها حتى صارت غرنيكا حطاما ورمادا وأشلاء بشرية مبعثرة حيث لم يصلها لهيب القنابل المحرقة الحديثة الاختراع ليحيلها رمادا . كانت الطائرات ألمانية وألمانا طياروها تابعين لفرقة " كاندور " التي أرسلها هتلر لمساعدة المتمردين ، ضمن ما أرسل اليهم من مساعدات ، والتي كانت تعمل تحت إمرة الفريق مولا المباشرة وامرة فرانكو بصفته القائد الأعلى والمسؤول الأول بين قادة التمرد . لم تكن عملية كهذه لتبقى مجهولة ولو أنها جرت داخل حرب أهلية مثل الحرب الأسبانية وسرعان ما طارت أنباؤها ونتائجها إلى كل أنحاء العالم ، فاهتز الضمير الإنساني ﴿ ولم يفعل شيئا كعادته ﴾ واحتج من احتج وغضب من غضب ولام من لام فجنى المتمردون أسوأ الدعاية لحركتهم وسمعتها وسمعتهم . فأنكروا أولا مدعين أن من قاموا بذلك هم " الحمر " الشيوعيون المسؤولون عن المفرقعات بأستورياس وواصلوا بكل جرأة ادعاءهم هذا طيلة سنوات ثم شيئا فشيئا وبعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بكثير

اعترفت الصحافة التابعة لنظام فرانكو بأن تدمير بلدة غرنيكا كان من صنيع النازيين دون الاشارة إلى ما كان يفعل النازيون هناك وفي تلك الظروف ، ولا ما هي مهمة فرقة " كاندور " بالذات التي قامت بتلك الإبادة بشهادة أحد الباقين من أفرادها ، وأوتي به للمشاركة في برنامج تلفزي عن الحرب الأهلية الأسبانية (34) .

إن مايزيد في فظاعة هذه المذبحة الشنيعة هو أنها لم تأت نتيجة قتال أو صراع بين جانبين بل هي قساوة وشراسة تصب دون شفقة ولا رحمة على رؤوس الآمنين الأبرياء دون سابق انذار . والذي يضاعف من وطأتها الأليمة هي أنها كانت عملية تجريبية لأسلحة جديدة ووسائل تدمير حديثة كانت ألمانيا تعدها للحرب العالمية التي كانت على الأبواب ووجدت في غرنيكا حقل تجارب مثالي فأتت فعلتها فيها وجنى حلفاؤها

الجانب المتمرد الأسباني ، نتيجتها السريعة وهي الانهيار المعنوي للمقاتلين الباسكيين في الجانب الشرعي الذي كانوا يدافعون دفاع المستميت عن أرضهم التي هاجمها الفريق مولا يبغي ثروتها الصناعية الهامة .

هذه هى قصة ، بل أسطـورة غرنيكا ، المخلدة في لوحـة بيكاسو التي تحمل نفس الاسم وسيبقى يوم 26 أبـريل ﴿ نيسان ﴾ 1937 من بين تلك الأيـام التي يذكـرها التاريخ فيندى لها جبين الإنسانية .

القمع والإرهاب : إن حادثة غرنيكا تؤدي طبعا إلى الحديث عن عمليات القمع والارهاب التي تميزت بهـا الحرب الأهلية الأسبانيـة حتى كادت أن تصبح صفة من صفاتها ونعتا مجسما لها . كـان قمعا في شتى الأشكال والصور : خوف ورعب ، حيـرة وقلق ، شك وريبة ، عـدم طمأنينـة وعدم استقـرار ، وإعـدام فموت بـدون محاكمة أو بمحاكمة شكلية . كان قمعـا يرتكب باسم الوطن والعدالة أو الدين أو غير ذلـك من المبادىء السـامية النبيلـة وكلها براء منـه لأن الطبيعة لا تعكـس فلا يستعمل النبل الدناءة ولا العـدالة الظلم ليقوم هذا أو تزدهر تلك . كـان قمعا يأتيه الجميع ويتعرض لـه الجميع ، بصفة رسمية وغيـر رسمية ، يسمى قصاصـا هنا ، ومحاكمة هناك ، وتطهيرا في مكان آخر واجراءات وتدابير احتياطية في غير ذلك ، وكلـه ليس سوى خـوف من الخوف يـزرع الخوف . رأينـا كيف بدأت الاعتـداءات الشعـواء قبل اندلاع الحـرب بصفـة فعلية ولكن القمـع المنظم " فيصعب تحديـد المكان أو الـزمان حيث بدأ . إن كـلا الطرفين يتهم الآخر بأنـه السبادىء كأن ذلك وحده يكفي لتبـرير ما يأتيـه وما يقوم به أنصـاره في هذا المجال الأليم . قـد يكون القمع قد بدأ قبل الحرب فتضاعفت موجاته أثناءها فكان المتمردون في كل ثكنة أو حامية يعدمون أول ما يعدمـون كل قائد أو ضابط زميل يرفض مسايرتهم أو الخروج عن الشرعية مثلهم ، ثم أصدر مجلس الدفاع الوطنى ﴿ مجلس قيادة الثورة ﴾ أمرا يعلن حالة الحرب أو الحصار أو الاستثنـاء وتشكيل المحاكم العسكرية التي كانت تصدر أحكامها بالإعدام بأكبر السهولة وكان أول من تحاكمهم ، العسكريون الذين يرفضون التمرد وهكذا يطبق " القانون " الخارج عن القانون .

وفي المنطقـة التي بقيت مواليـة للسلطة الشـرعيـة كانت معظم عمليـات القمع تأتيهـا الفرق القتاليـة غير النظـامية ، دون علم السلطـة في كثير مـن الأحيان ودون مـوافقتها . وهكـذا كان القمع والـرعب والارهاب والخـوف سائدا في كل مكـان ، معرضا له كل إنسان ، في منطقـة التمرد يأتي أغلبه من عل وفي الأخرى يأتي أغلبه من أسفل وفي الحالتين زاد الكذب والوشـاية والأغراض الشخصية والجهل أو عدم معرفة حقائق الأمور والحالات في توسيع رقعة ذلك التصرف المجرم فزاد من مآسيه

وضحاياه ، ضحايا عرفوا الشهرة أمثال الشاعر غارثيا لوركا الذي أعدمه المتمردون أثناء حصار غرناطة ضمن عمليات البحث عن المشكوك فيهم والقضاء عليهم ، وخوزي أنطونيو بريمودي ريفارا مؤسس حزب الكتائب وزعيمه الروحي الذي وقع في قبضة الجمهوريين فسجن ثم أعدم بعد محاكمة قيل وكتب عنها الكثير فوصفت بالشكلية والتحيز والكذب وهناك حتى من أنكر وجودها . لكن المحاكمة جرت فعلا وتولى فيها خوزي أنطونيو الدفاع عن نفسه ، وهو المحامي والبرلماني المقتدر الفصيح ولكنه أعدم رغم كل شيء . وهناك مئات بل آلاف من الضحايا الأخر التى نزل عليها المعصار وهي بريئة في معظم الأحيان . فقد أعدم أو سجن فعذب ثم أعدم أفراد من كل فئات الشعب : معلمون ، أطباء ، رجال دين ، راهبات ، عمال علاوة على المجازر الجماعية التي ذكرنا بعضها ونضيف فنذكر " قرية الأختين " بالأندلس التي أبيدت عن آخرها ولم يبق بها الا شخص واحد يعلم الله كيف نجا وعملية " باراكووايوس " التي اتهم بها الشيوعيون بإعدام عدد كبير من الأسرى يبلغ الألفين حسب بعض الروايات وهو رقم مبالغ فيه طبعا مبالغة مشطة إذ الحقيقة لا تتعدى المائتين وهذا وحده كثير ، وحملة الطائرات الإيطالية التي انطلقت من جزيرة مايورقا الخاضعة آنذاك للطرف الوطنى و إمطارها برشلونة بالقنابل فاستنكر ذلك الألمان أنفسهم و. . . و. . . ولافائدة في مواصلة سرد الأمثلة لأن الواقع الأليم هو أن " عوامل متعددة تشابكت ، وظروفا سنحت ، في المنطقتين الشرعية والمتمردة ، أدت إلى انفجار هذا الجو من القمع والرعب طوال الحرب ، واكتسى صبغة أشد ، خلال أشهر صيف سنة 1936 . عوامل منها العامل المشترك مثل الحرب ذاتها والعناصر غير المراقبة والانتقامات الشخصية والضغط والمتابعة السياسية ومنها العوامل الخاصة بكل منطقة التي تزيد في إبراز المطاردة وتضفي عليها صبغة معينة " (35) .

قد يكون من المفيد للقارىء إعطاؤه أرقاما تؤكد وتجسم فظاعة هذا القمع ولكن تضارب الروايات وتباعد الأرقام بين رواية وأخرى ، كما رأينا بالنسبة لعملية " باراكووايوس " ، يجعلنا نتحاشى الأخذ بهذا الأدعاء أو ذاك تاركين للقارىء المهتم فرصة الرجوع إلى المؤلفات الكثيرة التي عالجت الموضوع دون البت نهائيا بشأنه ولو أن دراسات الأستاذ خيزوس سالاس تعتبر من الجميع أكثر الدراسات جدية وأقربها إلى الواقع . من هذه المؤلفات " المقابر الكبيرة تحت القمر "

لجورج بيرنانوس ، و" القمع في ساراقسطة " للويس جرمان و " الجمهورية والحرب الأهلية " لغابريال دجاكسون و " حرب في أسبانيا " لخيزوس بيرث سالاس و " القمع والايديولوجية بالمنطقة الوطنية " لألبيرتو ريغ تابيا و " مأساة آليكانتي " لأندري أولمان وغيرها كثير (36) .

إن كل كاتب قد انتحى بهذا الخصوص ، منحى يتماشى وميولاته السياسية أو يرضى عاطفته الحزبية أو مشاعره العقائدية أو يستجيب لمتطلبات الساعة والمكان الذي كتب فيه أو له أو من أجله . أما نحن ، فبعد الاطلاع على الكثير من تلك الأرقام وبالأخص بعد سماع وصف عدد غير قليل من الأشخاص الذين عايشوا تلك الفترة وأحداثها فاننا لا نعير الأرقام وزنا لأنها أمام الجو الرهيب الذى عاشه الناس إذاك والضغط النفساني الذي تعرضوا له والخوف والشك وعدم وضوح المصير الذي قضوا تحت وطأته وفي عذابه ما يقارب الثلاث سنوات لم تعد ذات معنى ولأننا بعد أن سمعنا الروايات المختلفة أصبحنا نعتقد أن الذين ما توا قد أنقذوا من عذاب أمر وأشد وأثقل ، تحمله الذين عاشوا أمواتا طوال الثلاث سنوات أو ماتوا أحياء طوال تلك الفترة .

إنه إذا ما انعدمت المفاهيم وأهدرت المثل وديست أبسط الحقوق الإنسانية فإن الموت يصبح نجاة يحسد عليها الأحياء أمواتهم .

تطور الحرب : بدأت الحرب بتمرد بعض القادة العسكريين ظنه هؤلاء انقلابا سيفصم الأمور عن عجل ، ولم تعره السلطة الشرعية الأهمية الحقة لتقضي عليه في المهد ومن ثم تحول الأمر إلى حرب طاحنة ، قاوم فيها نصف البلاد نصفه الآخر بكلما سمحت به فنون الحرب العصرية آنذاك من عتاد وسلاح وتقنية وهندسة فتعددت الجبهات ، منها الرئيسي ومنها الثانوي ، يحتد القتال فيها حينا ويهدأ أحيانا ليعود أعنف وأشد بفضل تنظيمات جديدة أو قوات مستحدثة أو مساعدات وصلت من الخارج الذي وجد في المأساة الأسبانية حقل تجارب لمخترعات قتالية جديدة أو مجالا خصبا لزرع مبادئه وآرائه ، فدفع الشعب الأسباني ، أسبانيا الثالثة أي تلك الأغلبية التي لم تكن لهذا الجانب المقاتل أو ذاك ، دفعت الثمن غاليا

أثناء الحرب وسنوات عديدة بعدها .

أما الجبهات الرئيسية فهي جبهة الجنوب منطلقة من اشبيليا ، وجبهة أو جبهات مدريد المحاطة من كل جانب تقريبا ، وجبهة الشمال منطلقة من بامبلونا ومنها تفرعت جبهات أستورياس وبلاد الباسك وأخيرا جبهة نهر الايبرو ومنه إلى قاطالونيا .

قامت القوات المتمردة ، التي أصبحت تسمى الوطنية ، بتوجيه طوابيرها نحو مدريد على جبهات ثلاث انطلقت أولاها من بلد الوليد وتحركت الثانية من بامبلونا بينما خرجت الثالثة من برغش وتمركزت هذه القوات بثلاث نقاط بالقرب من مدريد هي واد الرمل ونافا ثيرادا وسوموسييارا . عرفت هذه الجبهات ملاحم بلغت أحيانا أشد درجات العنف لأن المواطنين يرون في سقوط مدريد ، نصرا كبيرا ونهاية الحرب بينما الجمهوريون يرون فيها مقر السيادة الشرعية ورمزها ولو أن الحكومة سارعت بالخروج منها واستقرت بمدينة بلنسية على الساحل الشرقي . وكانت المعارك ، كما هو طبيعي ، تشتد وتفتر وكانت المبادرة تأتى من هذا الجانب أو ذاك حسب الظروف . لقد رأينا كيف أن الفريق فرانكو بعد نزوله بجيشه المغربي وفرق اللفيف باشبيليا، قدم المساعدة لجبهة الجنوب بقيادة الفريق كاييو وتوجه نحو استريمادورا شمالا وحقق ما خططه وهو احتلال مدينة ماردة وخلق الوصل بين جيشي الجنوب والشمال ثم اتجه نحو مدريد التي عدل عن مواصلة مهاجمتها لأسباب مجهولة وفضل نجدة المحاصرين بقلعة طليطلة فحررها ووجه قواته نحو أستورياس التي خبر قوتها النضالية وشدة مقاومتها لما كلف باخماد ثورة أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1934 التي تحدثنا عنها سلفا . وهناك شاركت وحداته في معارك مدينة أوفيادو التي تعد هي الأخرى إحدى المعارك الأسطورية التي عرفتها حرب أسبانيا . ولعله من الحق أن نذكر ، ونحن بصدد الحديث عن قوات فرانكو أنها كما قلنا مكونة من فرق اللفيف المعروفة بجرأتها وحتى وحشيتها ﴿ يكفي تذكر أعمال وتصرفات اللفيف الفرنسي بالجزائر ﴾ ومن

فرق اللفيف المغاربة الأشاوس المجندين بالمنطقة التي كانت خاضعة للحماية الأسبانية حتى أنه حسب ما يقال ، لم يبق بالمنطقة رجل بلغ سن التجنيد لم يشارك في حرب أسبانيا . لكن ما أردنا الإشارة اليه ليس عددهم بل فاعليتهم التى برهنوا عنها في كل مناسبة وميدان حتى أن خبر وصولهم إلى مكان ما من ميادين القتال كان وحده كافيا لبث الهلع والفزع في أهل المنطقة وكذلك في المقاومين بها ولعل هذا وغيره دفع بفرانكو إلى إظهار شيء من الاعتراف لهم بالجميل فكوّن حرسه الرسمي ، الحرس الرسمي لرئيس الدولة من الطابور المغربي وظل أفراد الحرس منهم وبزي رسمي خاص إلى أن استقل المغرب .

عدل فرانكو إذن عن مواصلة هجومه على مدريد وأثار ذلك القرار ما أثاره من عدم موافقة وغضب خاصة من طرف قائد الجبهة الفريق جاغوي . ولكن لم يعن هذا شيئا . أما مولا ، فما أن احتلت قواته مدينة ايرون على الحدود الفرنسية حتى بعث بتعزيزات إلى جبهات مدريد فعرفت المعارك دفعا جديدا ودارت في الخاراما والمدينة الجامعية وطريق لاكورونيا ووادي الحجارة وكلها مناطق على أبواب مدريد التي لم تستسلم رغم شدة وصعوبة الحياة بداخلها حيث اختلط الخوف بالخطر وهذا بانعدام الأساسيات الحياتية أو قلتها وندارتها علاوة على تصرفات الانتهازيين وسوقهم السوداء .

ولمقابلة هذه القوات وصدها وجهت الحكومة قوات أخرى أساسها الفرق القتالية المدنية ، الميليشيات ، لأن الحكومة ، وهذا من أعظم أخطائها المرتكبة قد حلت الجيش النظامي وعولت على تلك الفرق وحماسها الفياض ناسية فوضاها وعدم انضباطها خاصة أنها فرق منتسبة إلى شتى الأحزاب والمنظمات . ولكن تجربة مدريد ، وبعد بضعة أشهر من بدايتها أكدت لسلطة الجمهورية أنه لا يمكن مجابهة حرب طويلة الأمد ولا مقاومة جيش عسكري منظم بمثل تلك الفرق القتالية فأخذت في تنظيمها شيئا فشيئا في شكل وحدات عسكرية حقيقية أو " جيش شعبى " يقوده طبعا عسكريون محترفون ولكن تحت أشراف قيادات شعبية كانت تمسك في معظم الأحيان بالقيادات المتوسطة . كان جيش مكونا من الفرق القتالية الشعبية ومن المتطوعين

القليلى الخبرة في استعمـال السلا وقليلي المعـرفة بفنـون القتال ولذا كـان هــــذا الجيش "شعبيا" في تكوينه وتركيباته الإجتماعية ودوافعه ولكنه لم يكن جيشا لأنه كان يفتقد الى الفاعلية والى ما هو أساسي حيوي لكل قوة محاربة ونعني الإنضباط والنجاعة والتقنيـة العسكرية. ورغم هذا فقـد صمد المقاومون واستعصـت مدريد على مريديها وبقيت جمهورية الى آخر يـوم وباحتلالها ودخولها يـــوم 28 مارس ﴿ آذار ﴾ 1939 انتهت الحرب أو كـادت لأنه بقيت ثـلاثة أيام أخـر توالت نـاءها استسـلامـات مـا تبقى من الجيش الشعبي الـذي تـراصت فلـولـه من جمـاعـات المدنيين على رصيف ميناء اليكانتي حيث انتحر عديدون من أفراده بأسا وخوفا من المجهول.

وقـد سبقت هذه النهـاية، نهـاية مقـاومة مـدريد، أو جيش الـوسط كما كـان يدعى، عملية وصفت بأنها خيانـة أو هي تمرد آخر أو أنشقاق أو حتى حرب أهلية داخل الحرب الأهليـة. وخلاصتها هي أن العقيـد كاسـادو، رئيس جيش الوسط التابع للجمهورية، فتح على أثـر سقوط منطقة قاطالونيـا، مفاوضات مع المقدم ثنتانيـو رئيس الجاســـوسية الــــوطنيـة ﴿ أي التابعـة للمتمردين ﴾ بـالمنطقة الجمهوريـة بعد اتصال تم مع السفارة البـريطانية. كـانت غاية هذه المفـاوضات انهاء الحرب وحقن ماتبقى من دماء والبحث عن اتفاق يضمن الوفاق والتعايش. قبل فرانكو إجـــراء المفاوضات إذا هي سارت نحو الاستسلام غير المشروط تقريبا في حين أن رئيس الحكومة السيـد نغرين والشيوعيين كانـوا مصممين على مواصلة المقاومة في المنطقة الوسطى، منطقة مدريد. توقفت لفترة اتصالات ومحادثات العقيـد كاســـادو وأعوان الفـريق فـرانكـو في الــــوقت الذي قـرر فيـه قيـادة الكنفيديرالية الـــوطنيـة للشغل، "ث. ن. ت." ايقاف القتال وأوعزوا لممثليهم بمدريـدبالاتفاق مع العقيـد كاسادو والذي التقى بـرئيس الحكومة بحضـور القادة العسكريين الرئيسين الذين قرروا جميعـا وجوب ايقاف العمليات الحربية بأي ثمن إلا رئيس الحكومة الذي بقي ثابتا على قراره بوجوب وضـرورة مواصلة الكفــــاح "متفقا في ذلك مع وجهة نظر الشيوعيين". وهكذا أدت هذه المواقف المتقابلة إلى انشقاق تفاقم حتى أخذ شكل حرب أهلية صغيرة داخل الحرب الأم. فالرئيس نغرين سلم معظم القيادات لأنصاره من الشيوعيين فتمرد العقيد كاسادو ضد ذلك

وشكل بمعية ضباط سامين آخرين وبعض الساسة المتواجدين بمدريد وبدون مشاركة شيوعية طبعا ، مجلس دفاع جديد أمسك بكل السلطات وفتح محادثات جديدة مع رجال فرانكو محاولا الوصول إلى اتفاق حول ايقاف القتال وانهاء الحرب إلا أن الشيوعيين لم يقبلوا من ذلك شيئا ولم ينصاعوا إلى الأمر الواقع فتسببوا في حرب داخلية دامت أسبوعا أو يزيد فزادت مدريد شقاء على شقائها ودماء على دمائها إلى أن وصلت نجدات عسكرية من جبهة وادي الحجارة القريبة من مدريد فأخمد العقيد كاسادو تلك " الثورة " الصغيرة وسط نهر من الدماء .

أما جبهة الجنوب ، وجبهة الأندلس التي يقودها الفريق كايبو فقد تخبطت في مشاكل عديدة وواجهت مقاومات عنيفة مصممة مما جعل توسعها لا يتم إلا بعناء وبطء وكان دوما يحتاج إلى مساعدات خارجية قدمها أولا جيش افريقيا المكوّن من اللفيف والمغاربة والذي أنزله فرانكو كما رأينا ، بمدينة اشبيليا بمساعدة الطائرات التي قدمتها له إيطاليا وهكذا وبأخذ ورد توصل جيش كايبو إلى ربط جبهته بجبهة غرناطة ثم توجه ومعه جيش فرانكو والفيالق الإيطالية نحو مالقة إلى أن تم احتلالها كما سبق وصف ذلك .

لكن بين كل الجبهات ، وباستثناء مدريد لما لها من صبغة سياسية ورمز سيادة اكتست جبهة أراغون ، جبهة الشمال كما أسميناها ، أهمية خاصة ، لأسباب عدة ، منها أن القائد الأول للتمرد وهو الفريق مولا كان يعمل هناك كانت تمسك في معظم حيث كانت قيادته العامة . ثم أن هذه الجبهة تهدد منطقتين هامتين وحساستين وهما قاطالونيا شرقا وبلاد الباسك شمالا . كانت المنطقتان تتمتعان بحكم ذاتي وكانتا تشكلان محور الصناعة الأسبانية إذ فيهما تجمعت أكبر نسبة من المصانع المختلفة الانتاج . ولذا فمنذ اليوم الأول قام الجمهوريون برد الفعل محاولين ، لا إيقاف اتساع رقعة التمرد فحسب ، بل استرجاع عواصم الولايات الثلاث وهي ساراقسطة ولاردة وهويسكا . الا أن الجيش الجمهورى كان ، كما رأينا ، مكونا في معظمه من الفرق القتالية المدنية وكما هو طبيعي لا ولن تستطيع

الميليشيات الوقوف بنجاعـة أمام جيش عسكري محترف منضبط . ولكن رغم هذا فالقـوات الجمهوريـة ستستطيع التمركز علـى خطوط نهر الايبـرو الذي سيصـــبح هــو الآخـــر جبـهة عنيـدة قاتـلة استعصـــت عــلى القـــــوات الوطنـية « المتمرديـــن » إلى آخـر أيام الحـرب إذ لم تتمكن تلك القـوات من عبور نهـر الايبرو هذا الا في 15 نـوفمبر « تشرين ثان » 1938 وبـذلك انفتحت أمام قوات مولا وفرانكو أبواب قاطالونيا .

في هـذه الأثناء أرادت حكـومة قـاطـالونيـا المحلية « الجينيـراليات » القيـام بمحاولة تبغي استرجاع جزيرة مايورقا رغم رفض الحكومة المركزية ومعارضتها تلك الفكرة .

جرت المحاولة ولكنها باءت بالفشل ، كما كان منتظرا ، وأعطت الفرصة لقوات الوطنيين ومعهم القوات الإيطالية للقيام بعمليات قمع شديدة واسعة النطاق .

وفي اتجاه آخر نحو الشمال ركز الفـريق مولا اهتمامه على ايرون ، على الحدود الفرنسية الأسبانية ، ليتمكن من إغلاق هذا المنفـذ وقطع المدد إلى قاطالونيا الذي قد يأتيها من فـرنسا وفعلا تمكن من احتلال تلك المدينة في 4 سبتمبر « أيلول » 1936 . إلا أن هـذا لم يعن نهـايـة جبهـة الشمـال المكـونـة مـن بـلاد البـاسك وأستـوريـاس وسـانتنديـر حيث ستجـرى معـارك على غـايـة من العنف والشدة والوحشية « لقد ذكرنا سلفا مجزرة غـرنيكا وحصار أوفيادو » ولـــم يتم احتلال الشمال والقضـاء على المقاومـة المباشرة إلا عنـدما تدخلت الـوحدات المغـربية واللفيف فسقطت بلباو ، عاصمة بلاد الباسك ، يوم 19 يونيو «حزيران» 1937 ومدينـة سانتندير ، عـاصمة الولايـة الأخرى ، في 26 أغسطس «آب» من نفس السنة . انتهت المقاومة المبـاشرة، كما قلنا لتحل محلها مقاومـة أخرى ، مقاومة حـرب العصابـات التي تكوّنت من فلـول جيش الشمال التـابع للجمهوريـة والتي شرعت في الحين في القيام بعملياتها انطـلاقا من جبال المنطقة إلا أن ذلك سوف لا يقض مضجع الـوطنيين وســـريعا مـا انطفأت الشـــرارة وانــــدثـــرت الحـــركة .

بانتهاء القتال في بلاد الباسك وفي أستورياس وسانتندير وسقوط الشريط الساحلي الشمالي نهائيا في أيدي الوطنيين تركزت الجهود على جبهة الايبرو حيث ستطول المعارك ويصعب تقدم الوطنيين والجمهوريين على حد سواء إلى أن حل يوم 28 أكتوبر « تشرين أول » . في ذلك اليوم الذي كانت فيه برشلونة تودع المتطوعين العالميين الذين ساهموا في الحرب إلى جانب الجمهوريين ، قامت قوات الوطنيين بهجوم مضاد هو السابع من نوعه ، معززة بنيران مدفعية كثيفة شديدة ، وجعلت تضغط على قوات الجمهورية إلى أن أجبرتها على الانسحاب عابرة النهر إلى الوراء ، وما أن جاء يوم 15 نوفمبر « تشرين ثان » حتى أنتهت العملية وبها انتهت معركة نهو الايبرو وبذلك بدأت فعليا المرحلة الأخيرة من معركة قاطالونيا .

ما يقرب من ثلاث مائة جندي ، تحت قيادة أبرز كبار الضباط وبمعية وحدات إيطالية تحت أمرة الفريق غامبارا ، انطلقوا جميعهم يوم 23 ديسمبر « كانون أول » نحو الخطوط الدفاعية معززين بما يقرب من ألف قطعة مدفعية وخمس مائة طائرة وعدد كبير من الدبابات فالتحم الجيشان مرة أخرى ليتقاتلا أعنف وأشد القتال دفاعا عن مواقعهما شبرا شبرا حتى الأسبوع الأول من يناير « كانون ثان » لما أخذت قوات الجمهورية تنسحب شيئا فشيئا تحت ضغط القوات المعادية فسقطت المدن الصناعية واحدة تلو الأخرى وسقطت تاراغونا يوم 15 يناير « كانون ثان » وجيرونا يوم 4 فبراير « شباط » من سنة نهاية الحرب ، سنة 1939 .

عبر رئيس الجمهورية الحدود الفرنسية يوم 5 فبراير « شباط » والتجأ في البلد المجاور بنيةالاستقالة ولكنه بقي يعمل « وماذا يعمل يا ترى » بالسفارة الأسبانية بباريس بينما عقد رئيس الحكومة اجتماعا وزاريا قرر مواصلة المقاومة بالمنطقة الوسطى والجنوبية والشرقية « مدريد / بلنسية » وانتقل إلى هناك .

أما المقاتلون فقد واصلوا تقهقرهم تحت ضغط المهاجمين وعبروا الحدود الفرنسية فيلقا تلو فيلق وما أن حل يوم 13 فبراير « شباط » 1939 حتى أسدل الستار على جبهة قاطالونيا التي كانت بمثابة الدرع لجبهة مدريد / بلنسية التي رأينا كيف انهارت هي الأخرى بعد " مؤامرة أو " محاولة " أو " خيانة " العقيد كاسادو . فبعد تفاقم وتتالي الهجومات من جانب الوطنيين الذين تمركزت معظم جيوشهم حول

مدريد وتوافرت جهودهم عليها بدأ التعب يأخذ مأخذه من المقاتلين وعندما حل يوم 28 مارس ﴿ أذار ﴾ كـانت الجبهة قـد زالت ولم تعد هنـاك مقاومـة تذكـر فدخلت العاصمة طـلائع قوات الوطنيين ظافـرة تتبعها شاحنات تحمل المؤونـة والطعام لتلك العاصمـة التي استعصت عليها طيلـة قرابة الثـلاث سنوات . ولم يبق الكثير لنهـاية الحرب . لقد انتقل مسرحهـا إلى بلنسية حيث توافرت الجهود لاخـلاء المواقع واخراج أكبر عدد ممكن من الأشخاص الراغبين في اللجوء إلى الخارج . حاول العقيد كاسادو وبعض من رفاقه الاتفاق مع عناصر من الكتائب حول خلق فترة انتقال الى أن تصل القوات الوطنية فلم يحقق ذلك وركب الباخرة ولجأ كغيره من القادة إلى الخارج .

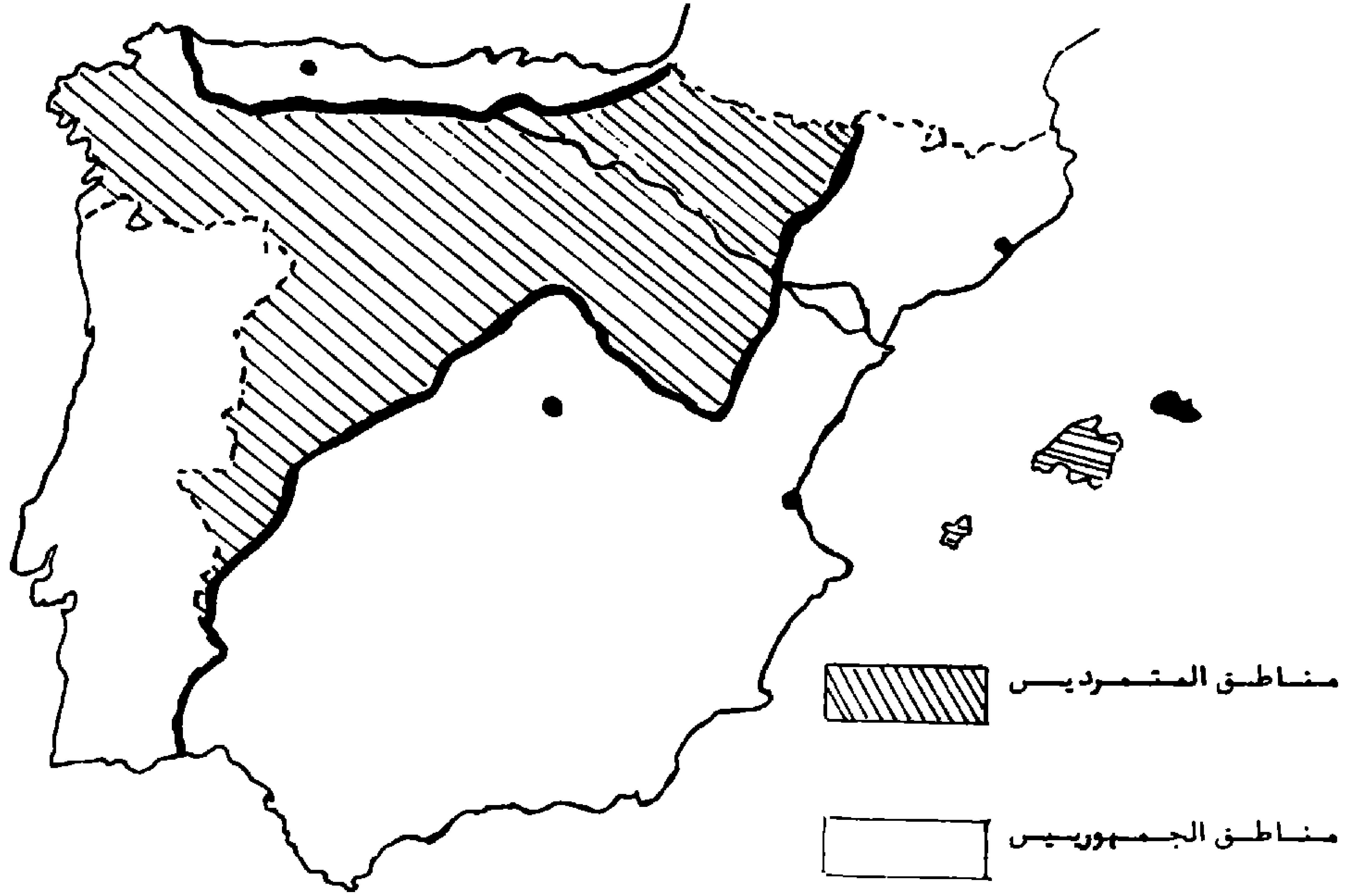
في تلك الأثناء " كـان ميناء أليكانتي مكتظـا بأكثر من خمسـة عشر ألف نسمة : ضباط عسكريون ، سيـاسيون ، نساء ، أطفال ، مقاومون ، كـانوا كلهم يمسكون بخيط أمل أخير ، وهو وصول بـواخر خيالية أكثر منها حقيقيـة ، لتأخذهم فتحول دون سقوطهم بين أيدي المنتصرين . . . . كان هناك مـا يشبه العالم المصغر لما كانت عليه المنطقة الجمهورية . كانـوا كلهم في انتظار بواخر من المفروض أن تأتى ولكنها لم تأت ولن تأتي . سـوف لا تأتي سـوى بواخـر فرانكـو ولكن قبلها ، وفي مغـرب يوم مسحب ممطر ، يوم 30 مارس ﴿ أذار ﴾ دخل أليكانتى الجنود الإيطاليون تحت قيادة غامبارا " (37) . هناك وعلى رصيف الميناء جرت محاولة مقاومة دافعها اليأس قبل أي عقل أو تخطيط ولكن ، هيهـات . لقد انتهت الحرب وخسر من خسر ، وانتصر من انتصر . انتصر المتمـردون ، وهـم الآن الوطنيـون ، ويـوم أول أبريل ﴿ نيسـان ﴾ 1939 أعلن الفريق فـرانثسكو فـرانكو الذي أصبح القـائد والرئيس الأوحـد بدون منازع ، أعلن نهاية الحرب في بلاغ كتبه بخط يـده يقول فيه " في هذا اليوم ، والجيش الأحمر أسير منهزم ، بلغت الجيـوش الوطنيـة آخر أهدافهـا العسكريـة . لقد انتهت الحرب " .

التدخل الأجنبي : خطأ ولاشك وصف الحرب الأسبـانيـة بـالأهلية أو اعتبـارهـا كذلك فهي لم تتـوفر فيها من معطيات الحرب الأهليـة سوى الرقعة الأرضيـة وجنسية أبطالها الظاهرين البارزين في الصورة والذين سيجني المنتصر منهم حصادها وثمارها وحتى هذه المعطية الأخيرة مشكوك في تمام صحتها لأن ثمار الحرب الأسبانية قد جنتها أوربـا بأسرهـا ونتائجهـا انعكست مبـاشرة أو بالتعـدي على مجرى الأحـداث في كل



مشهد من الحرب الأهلية بمنطقة ترول

خريطة اسبانيا تبين المناطق التي تمردت والمناطق التي بقيت على ولائها للجمهورية عند اندلاع الحرب الأهلية في شهر لوليو (تموز) ١٩٣٦



خريطة تبين مواقع حرب العصابات التي قامت بها المعارضة الشيوعية ضد نظام فرانكو من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٥٠ نقلا عن بونس براد س/ أ. سوريل / آغوادو صانشث/ ليميا بيرث.



المحيط الـذي تقع فيه أسبـانيا . أمـا معطيـات الحرب العالميـة فقد تـوفرت كلهـا أو معظمها فى هذه الحرب فالتأثيرات الفكرية والعقائدية والسياسية والدبلوماسية وحتى الاقتصاديـة التي مهدت السبيل اليها كـانت في معظمها خارجيـة ومن شتى البلدان والبقاع . فـالليبيرالية مثـلا أو الاشتراكية أو الشيـوعية الماركسيـة أو غير الماركسية أو الحركة النقابية وغيرها كثير ، كانت كلها نظـريات وأفكار وعقائد آتية من الخارج وما هو أخطر هو أنها كانت مسيرة من الخارج تقريبا عن طريق شكل أو آخر من أشكال المنظمات أو الاتحادات العـالمية لهذه العقيـدة أو تلك . أما مـن الوجهـة الاقتصاديـة فقيمة الـرأسمال الأجنبي وعدد الشركات الأجنبيـة يكفيان للدلالـة على مدى تأثيرهما وإعطاء صورة عن ثقلهما في ميزان القوى داخل أسبانيا ويكفي لذلك التذكير بعملية انشاء شركة " كامبسا " الحكومية لاحتكار نشاط وتجارة النفط والمحروقات وبالزوبعة التي أقامتها بسبب ذلك كبريات المؤسسات النفطية فى العـالم ﴿ الأخوات السبع ﴾ والتي انتهت ، ولـو بصفة غير مبـاشرة ، بسقوط الملـك ألفونصو الثـالث عشر عن العـرش . ثم إن تأثير الشركـات الأجنبيـة يجلب معـه حتما تـدخل حكـومـات تلك الشركات في السياسة الاسبانبة وهو ما تم دوما ولا يحتاج إلى بـرهان خاصة منه تدخل بريطـانيا وفرنسا . يكفي كـذلك التذكير بما قالـه بخصوص هذا ، رامون بـاربينيا في كتابه " مـــن اقتصاد أسبانيا " وهو أنـــه قـــبل قرن من ظهور الهاتف الآلي كان الكي دورسي ﴿ مقـر الحكــومـة الفـرنسيـة ﴾ ودوننغ ستريـت رقم 10 ﴿ مقـر الحكومة البريطانية ﴾ بـاتصال آلي بالحكومـات الأسبانية التي كانت أشبـه شيء بتلك الخيول الخشبية فى ناعورة مدن الملاهي تصعد وتنزل لكن لا على صوت موسيقى قوية بل على مرافقة قوية من نار وانفجار ورائحة بارود" .

إلى جانب هذه المعطيـات الممهدة للحرب والمتسببة فيها ، نجـد المعطيات الأخرى وهي الإسهـام الفعلي في الحرب بالـرجال والعتاد والسـلاح وحتى المال ، ولـو أن هذا الأخير وثمن الأسلحة كذلك ، قـد بقي دينا سددته أسبانيا من دمهـا متمثلا في مواد أولية ، منجمية وغير منجمية ، قدمتها بأرخص وأبخس الأثمان مقابل تلك الديون ، فالرجال الذين حاربوا في الفتنة الأسبانية وشـاركوا فيها مشاركة مباشرة فعالة كانوا من كل جنس وقطـر . شـارك في حـرب أسبـانيـا الفـرنسيـــون والبريطـانيـون والألمان

والإيطاليون وغيرهم من جميع أقطار أوربا تقريبا بما في ذلك روسيا ولم تتخلف الولايات المتحدة ولا الكانادا عن المشاركة بالمتطوعين ، كغيرهما من البلدان التي أرسلت الالآف من أبنائها نجد من بينهم أفرادا لمعت أسماؤهم في ما بعد في عالم السياسة أمثال ويلي برانـدت المستشار الألماني السابق أو جوزيف تيتو رئيس يوغوسلافيا أو بالميرو توليياتي الزعيم الإيطالي أو جورج أورويل وغيرهم كثير . وكما كانت المساهمة البشرية عالمية ، كذلك كانت المساهمة بالسلاح والعتاد الذي أوتي به من كل مكان ، من روسيا ومن ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا والمكسيك والولايات المتحدة وبعبارة مختصرة ، من جميع أقطار العالم التي كانت تنتج الأسلحة . ولعل الأكثر مرارة والأشد وقعا في هذا الخصوص هو أن نسبة غير صغيرة من تلك الأسلحةكان يؤتى بها ، وهي الحديثة الاختراع والصنع ، لتجربتها وتتبع مفعولها تمهيدا واستعدادا للحرب العالمية الثانية التي لم تكن الحرب الأسبانية لها ، سوى مقدمة تجريبية لمختلف أنواع الأسلحة والطرق والمخططات الحربية .

لم تكن هذه الحقيقة لتخفي عن القادة الأسبان وقتئذ لأنها جاءت على لسان مبعوث أسبانيا إلى دورة جمعية الأمم ﴿ أو عصبة الأمم كما شاع اسمها آنذاك ﴾ المنعقدة في 16 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1939 بمدينة جنيف مقر الجمعية فقال " نعم، أيها السادة ، إن الشعب الاسباني الجريح ، المهمل المخذول ، سيواصل المقاومة . لم يكن بالاستطاعة اعادة استتباب السلم داخل العدالة فلم يبق لنا سوى المقاومة حتى الموت . لكن سيأتي يوم تتذكرون فيه تنبيهنا وتعرفون إذاك أن أسبانيا كانت أول ميدان لمعارك الحرب العالمية الثانية التي تقترب ولا مناص " (38) .

كانت إذن حربا " عالمية مصغرة " ولذا فمنذ الساعة الأولى قام الجانبان الأسبانيان المتنازعان ، وكأنهما كانا مؤمنين بذلك ، بالاتصال بالأقطار والحكومات المتناسقة سياستها وأيديولوجيتها مع تيار واتجاه كل منهما ، بحثا عن السند والمساعدة . ولم تشذ الكنيسة عن هذا وقد وجدت في الفاتيكان طبعا الحليف الخارجي الذي استعمله واستغل تأثيره ونفوذه الجانب المتمرد أو الوطني ، كما كان يدعى ، جاعلا من تمرده وحربه حركة أو حربا صليبية ضد الشيوعية والالحاد .

عرف قـادة الجناحين المتقابلين حقيقـة الوضع وهـو طول الحرب وعالميتهـا فسارع كـلاهما إلى الاتصال بمن يعتبره في صفـه ويرى أنـه حليفـه . اتصل رئيس الحكومـة الشرعية بـالسيد ليون بلـوم رئيس حكومة الجبهـة الشعبية الفرنسيـة فحصل منه على وعـود بالمسـاعدة وشـد الأزر لكن لم ينفذ من وعـوده إلا النادر القليل لأن بـريطانيـا حالت دون ذلك مقنعة " حليفتها " فـرنسا بأن التعقل والحذر يشيران بعدم التدخل والبقاء على حيـاد لأن الصراع داخلي بحت لا يصح " حشر الأنف " فيه . فقـامت قيامة الصحافـة الفرنسية الحرة تهاجم الحكومة وتنتقد موقفها الـذي رأت فيه خذلانا وخيـانة للشعب الاسبـاني بينما أيدت الصحـافة اليمينيـة حياد الحكـومة المزعـوم . كذلك زعمت الولايات المتحدة وقوفها موقف الحياد في النزاع الدائر في أسبانيا ولو أنها في الـواقع قـدمت المساعـدات للمتمـردين عن طـريق شركاتها أو عن طـريق ألمانيـا وإيطاليا ، مساعدات تمثلت في التزويـد بالنفط والطائرات والشاحنات والأسلحة . ولم تشذ روسيا أول الأمر . فهي أيضا قد ادعـت الحياد تقرّبا من فرنسا وبريطانيا بغية الوقوف في وجه ألمانيا الهتلارية . .

لجنـة عدم التـدخل : ضمن هـذه السيـاسـة والمواقف ظهرت الحليفتـان فـرنسـا وبريطانيا بفكرة كانت بمثابة " الأضحوكة " التي انخدعت لها حكومة أسبانيا والتي ستكون من أبرز وأقـوى العوامل في خذلان وخيبة الجمهـوريين . وتمثلت هذه الفكرة في أنشاء ما سمي بـــــ " لجنة عدم التدخل " التي حدّدت مهمتهـا في متابعة تنفيذ قرارين رئيسيين وهما الحيـاد تجاه النزاع الاسباني ومنع إرسال الأسلحـة والعتاد الحربي إلى أسبـانيا . جـاءت هـذه الفكـرة من الجانب الفرنسي في شكل اقتراح تقـدمت بـه لإيطاليا وانجلترا فسارعت هذه الأخيرة إلى الموافقة عليه ، وما أن تم شهر أغسطـس ﴿ آب ﴾ 1936 حتى تبنتـه أغلبية الـدول الأوربية وفي مقـدمتها إيطـاليا والبرتغـال وألمانيا وبولاندا وبلجيكا والاتحاد السوفياتي وغيرها .

ليس هـذا مجال تحليل أسبـاب هـذا الموقف الجماعي فهي واضحـة أسـاسهـا من جانب من عـرفوا بعد ذلك بـالحلفاء ، الخوف من هتلـر وسياسته ومن جـانب هذا الأخير وحليفه موسوليني خداع الحلفاء وضمان تخليهم عن الحكومة الشرعية الأسبانية بينما ، هما ، سينفـذان مـا يناسبهما لفـائدة المتمـردين . وهكـذا أشعرت الحكـومـة لأسبانيـة بالقـرار فقبلته بشرط أن يطبـق على الجانبين المتنازعين دون تحيـز ولا تمييز .

وعلى أثر ذلك أنشىء ما سيعرف عالميا باسم " لجنة لندن " التي ستشرف على متابعة احترام الاتفاق . وكما هـو طبيعي في مثل هذه الحالات التـي تتضارب فيها المصـالح والغايـات ، تحولت اجتماعات اللجنة واللجـان الصغرى المتفرعة عنهـا إلى جلسات جدل ونقاش وتناحر بين مندوبي ألمانيا و إيطـاليا من جهة ومندوب الاتحاد السوفياتي من جهة أخـرى فلم ينتج عن أعمالها إلا ما أضر بالأوضاع وزاد في تشعبهـا لأنه ، إن كانت الـدول الحليفة قد احترمت قرار عـدم التدخل ، ونعني خاصة فـرنسا وانجلترا والاتحاد السـوفيـاتي فان دولتي المحـور ، ألمانيـا وإيطـاليـا ، واصلتا مـد المتمـردين بالمساعدة والعون .

رأينا سلفا كيف بعث فرانكو برسول إلى روما يطلب مده بوسائل نقل لعبور مضيق جبل طارق وكذلك فعل مولا فتقابل الـرسولان مع المسؤولين الكبار في إيطاليا حيث تردد الكـونتي تشيانـو أول الأمر نظـرا لقرار عـدم التدخل ولكنـه وافق في النهـــاية وكذلك فعل هس ثم هتلـر الذي قابله المبعوثـان وتقرر تقديم المساعـدة الفورية عن طريق شركات تجارية أسست حالا لتلك الغـاية فأرسلت الدفعات الأولى في مستهل شهر أغسطس تمثلت في طائرات مكنت جيش فرانكو من عبور المضيق وأسلحة أنزل جانب منها في شمال المغرب وجانب آخر في شمال أسبانيا لتسليح جيش الفريق مولا. وتـواصلت هذه المسـاعـدة طوال الحرب متخـذة كل يـوم شكلا أوسع وأعم ، منهـا ارسال بعثـة عسكرية ألمانيـة ايطالية لتقوم بـدور المستشار للمتمردين وللـدراسة على العين لكل ما يحتاجونه من سلاح وطائرات ورجال .

لم تقف دولتا المحور عند هذا الحد بل تعدتاه إلى الاعتراف بأسبانيا المتمردة، اعترافا أعلن يوم 18 نوفمبر « تشـرين ثـان » وأبـــرمت إيطاليـــا في نفس الشـــهـــر « نوفـمبر / تشرين ثان 1936 » معاهدة مع فرانكو .

كان هذا يجري بينما فرنسا مثلا لم تكتف بمنع بيـع الأسلحة أو تقديم أية معونة إلى أسبانيا الشرعية آنذاك ، بل منعت حتى مـرور المساعدة عبر اراضيها . وفي النهاية لم يقف إلى جـانب الحكومـة الجمهـوريـة سوى الاتحاد السـوفيـاتي لأسباب غنيـة عن التعريف . فدولتـا المحور تريان في حرب أسبانيـا فرصة للشيوعية العالميـة الراغبة في التـوسع عبر أوربـا إذا ما انتصر الجمهـوريـون والاتحاد السـوفياتي يـرى في انتصـار

المتمردين تعزيزا للفاشستية المهددة التي ستجد في مواني أسبانيا وموقعها الاستراتيجي ركيـزة هامـة إذا مـا قامت حـرب بين التيـارين ووقفت أوربا ، بين هـؤلاء وأولئك ، متخاذلة وزادت تخاذلها تأكيدا باستسلامها أمام طمـوحات هتلر أثناء اجتماع ميونخ الشهير . ولذا بعد أن وقـف الاتحاد السوفياتي مترددا أول الأمر ، غير من مـوقفه وقرر المساعدة التي بدأها باقامة العلاقات الدبلوماسية بينه وبين حكومة الجمهورية وأتبع ذلك بإرسال المستشارين والسلاح الذي واجه صعوبات جمة في إيصاله لبعد المسـافة ورفض الدول مـروره من أراضيها والحصـار الذي اقامتـه الوحدات البحـرية التـابعة للمتمردين بمساعدة الغواصات الايطالية والألمانية على موانىء الجمهورية .

وأمام خذلان الحكومات الرسمية للجانب الشرعي من الشعب الاسباني ، تحركت الشعوب الأوربية محاولة نجدة الشرعية في أسبانيا فانعقد بدفع من عدة منظمات مؤتمر أوربي للدفاع عن الجمهورية الأسبانية والسلم فكان انطلاقة للعديد من الاجتماعات والتظاهرات غايتها اثارة الرأي العام وجمع المعونات للشعب الاسباني .

وكما جمعت المعـونـة المادية المكـونـة من طعـام وملبس وغيره ، وهي معـونـة قـد تواصلت في المهجر بعـد انتهاء الحرب ، فتح باب التطوع فتكـونت فيالق حاربت في صفوف الجمهوريين وهي التي عرفت بـاسم " العالميين " الذين كان من بينهم ، كما أسلفنا ، وجوه لمعت على مسرح السياسة العالمية في ما بعد .

وهكذا وكما يقول الأستـاذ ريكاردو دي لاثيارفا " ولدت الحرب الأسبـانية وماتت كنـزاع اسباني بحت ، كتصفيـة حسابـات بين الأسبان بعـد مرور دهـر على مستنقع مليىء بالخوف والكراهية . ولكن منذ الأسابيع الأولى وحتى الأسابيع القبل الأخيرة، منــــذ أغسطس ﴿ أب ﴾ 1936 الـــى نوفمبر ﴿ تشرين ثـــــان ﴾ 1938 على وجـه التحديـد ، أسهمت أوربا والعـالم بكل نشـاط وحركـة في الحرب الأسبانيـة ، وأسهمـوا قبل كل شيء ،عن طـريق تقسيم الضمائر والمواقف السيـاسية لفـائدة كل طرف مـن الطرفين الاسبـانيين . ان المساهمة الفكريـة تحولت ، منـذ أول وهلة ، إلى مشاركة فعلية . فالمجموعات البشرية والأفراد والدول تدخلوا بأشكال مختلفة في تطور الحرب الأسبانية ، وبهذا أعطوها هيكلا عظيما ، هيكل حرب عالمية وأيديولـــوجيـة وسيـاسية وبـذلك بقيت البنيـة الأصلية للحـرب الأهليـة بين الأسبان سليمـة ، لأن

الكثيرين من الأجانب الذين شاركوا فكريا أو ماديا في الحرب الأهلية هذه ، لم يكن لهم فيها أي نفع واقتصروا على بث وإشعاع مشاكلهم الخاصة وانقساماتهم الخاصة ، الوطني منها والعالمي ، على النزاع الأسباني " (39) .

الحركة السياسية لدى الجمهوريين : قبل أن نتقدم في وصف الأوضاع والتقلبات السياسية التي عرفتها المنطقتان المتنازعتان خلال الحرب ، تجدر بنا الملاحظة ، ولو عرضيا ، بأن الجانب الجمهوري ، أي الشرعي ، كانت حربه سياسية ، تبدو الحركة العسكرية فيها لزوما آخر ضمن اللزوميات العديدة التي تحتاجها كل دولة ومهمة تلك الضرورة في الوقت ذاك ، الدفاع عن النظام المهدد . أما الجانب الوطني ، أي المتمرد ، فكان العمل العسكري قوامه الأساسي وما السياسة سوى ضرورة يحتاجها كل نظام يريد أن يصبح دولة . وهكذا بينما توفرت للجانب الجمهوري الدولة وكيانها ، عمل بتصرفاته على تفككها وانهيارها ، كان الجانب الوطني يعمل لبناء دولة جديدة انطلاقا من حركة عسكرية وبناء على ما تحققه من انتصارات .

ما الذى يجري داخل المنطقة الموالية للجمهورية أو بتعبير أحسن في المنطقة التي بقيت تحت سلطة الجمهورية ؟ كان هناك استمرار لما وصفناه أو حاولنا وصفه أثناء الحديث عن الفترة التي سبقت اندلاع الحرب ، وهو تعدد مراكز القوى والسلطة والنفوذ ، والخلافات والانشاقاقات والمنازعات التي صيرت كل منطقة أو مدينة أو حيٍّ ، دولة ، وكل حزب أو منطقة أو نقابة ، حكومة حتى فقدت الحكومة الحقيقية المركزية كل سلطة أو نفوذ أو هيبة ومن ثم فلت من يدها القرار والتنفيذ والانجاز . وفي هذا الصدد يتحدث رئيس الجمهورية نفسه ، السيد مانوال آثانيا ، واصفا تلك الحالة فيقول " إن الطموحات والخلافات والخصومات والنزاعات وانعدام الانضباط التي عرقلت الجبهة الشعبية لم تتوقف خلال الحرب بل تضاعفت . لقد ظن الجميع أنه بفضل الحرب ، سيحصل ، عن طريق العمل المباشر ، على ما لم يكن ليحصل عليه بصفة عادية عن طريق الحكومات . لقد تحطمت الرمانة إلى ألف قطعة وبالضبط من حيث كانت تبدو الشقوق فيها " (40) .

كانت الحكومة الشرعية إذن فاقدة لما تستوجبه الظروف من حزم وسلطة ونفوذ

ففقدت المراقبة على البلاد حتى أنه كثيرا ما حدث خلال الفترة الأولى من الحرب ، أن اتصلت الدوائر الرسمية هاتفيا بمنطقة ما ، فكان المتمردون هم المجيبين عن مكالمتها . وبدل العمل على ضم الشتات وتوحيد مراكز القرار ، وخاصة في ما يتعلق بالعمليات العسكرية ، بادرت إلى حل الجيش النظامي وابداله بما سمي بالجيش الشعبي الذي كان خليطا من الجنود والميلشيات والمتطوعين الخاضعين جميعهم لشتى القيادات والتيارات السياسية والعقائدية حتى أن إعلان حالة الحرب والطوارىء التي أعلنت في كل المناطق التي خضعت للعصيان ، قوبلت في المنطقة الجمهورية باضراب عام .

أسست كل منطقة سياسية أو نقابية مجموعاتها المسلحة وأنشئت قيادات لتنسيق أعمالها لكن دون جدوى . كانت أهم هذه المجموعات الكتيبة الخامسة الشهيرة التي أسسها الشيوعيون والتي حصلت شيئا فشيئا على أهمية وتأثير كبيرين وذلك لما أظهرته من حركية ولأنها أصبحت مركزا للتنظيم والتدريب العسكري يشرف عليه عدد من الضباط المحترفين فصار بأيدي الشيوعيين جيش منظم وليس بأيدي الحكومة والسلطة المركزية .

كانت هذه الأخيرة تتخبط برئاسة السيد خيرال وسط الفوضي وتعدد السلط بالولايات والبلديات حيث انهارت سلطة الحكومة وحلت محلها سلطة شعبية عفوية متعددة الآراء والأهداف ، متضاربة أحيانا ، دون وحدة ولا أنسجام سياسي فتميزت بأشكالها المتعددة واستراتيجياتها المختلفة وجاءت انعكاسا لتعددية الحركة العمالية والنشاطات الحزبية ونتائجها في أحوال وظروف كانت أحوج ما تكون فيها إلى الوحدة والنظام والتنسيق . قامت اللجان الشعبية بمسؤولية السلطة فأدارت كل مظاهر الحياة المدنية من نظام وأمن عام واسكان وأشغال وتنظيم وسائل الانتاج . وقد برز هذا بأكثر وضوح في مدريد وبرشلونة وبلنسية ومعظم المدن الكبيرة حيث بدت بكل جلاء سلطتان ﴿ ولو أنها في الواقع سلطات متعددة ﴾ أحداهما السلطة الحكومية والثانية هي ما عرف بالسلطة الثورية دون أن يتمكن أحد من توحيدهما أو تنسيق نشاطهما فأدى ذلك إلى سقوط حكومة خيرال والضغط على رئيس الجمهورية لاسناد رئاسة الحكومة إلى زعيم جماهير الجبهة الشعبية السيد فرانسكو لارغو كابايارو الذي سارع بتشكيل حكومة ضمت ممثلين عن كل الأحزاب المشاركة في الجبهة الشعبية ولم

يشترك فيها الفوضويون الذين لم يكونوا ضمن الجبهة الشعبية ولو أنه بعد شهرين أدخل تحويرا على وزارته وضم إلى الحكومة أربعة وزراء من الحركة الفوضوية كانت بينهم أول امرأة اسبانية تتولى وزارة .

تعددت الحكومات ولكن لم تحل المشكلة وبقي الجانب الجمهوري فاقدا لمخطط أو غاية سياسية واضحة أو مثل أعلى يهدف إلى بلوغه الجميع ويؤكد هذا أحد كبار الضباط الذي بقي مواليا للجمهورية وقاد الكثير من معاركها وهو الفريق فيثانتي روخو رئيس الأركان المركزية الذي قال " في المجال السياسي ، لم تحدد الجمهورية لنفسها غاية ، خليقة بشعب سيد مصيره أو طامح إلى أن يكون كذلك . . . كان لكل حزب لدينا غاية سياسية مختلفة ولذا ، فبالرغم من اتفاق الجميع حول الجزء الأول من المشكلة وهو دحر الفاشستية والدفاع عن الحرّية والديمقراطية ، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للجزء الثاني والغاية الخلاقة التي كان كل واحد يبحث عنها بطرق متباعدة إن لم تكن متقابلة " (41) .

تشكلت إذن الحكومة الثانية برئاسة لارغو كاباليرو ، الثالثة منذ بداية الحرب ، أي في أقل من أربعة أشهر ، وركزت هذه الحكومة سياستها على تعزيز الخط الذي رسم منذ شهر سبتمبر وهو الرامي إلى إعادة بناء الهيكل الاقتصادي وتقوية السلطة ومحاولة تحقيق الوحدة . الا أن الخلافات السياسية لم تزل وهو مازاد في صعوبة مهمة حكومة السيد لارغو كاباليرو . وأول صعوبة واجهتها واقتضت منها الاسراع في الانجاز هي معركة مدريد وما تمثله من أخطار . فقابلت ذلك بقرار أول هو نقل الحكومة إلى بلنسية وتلته بآخر يقضي بتشكيل للدفاع عن مدريد ثم تكوينه يوم 7 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ وكان في عدد أعضائه وانتسابهم للأحزاب والمنظمات مطابقا لما كانت عليه الحكومة . أما من حيث سلطاته فكانت واسعة تكاد تكون مطلقة مما أحدث حساسيات وغيره بين المجلس والحكومة لكن دون أن يؤثر ذلك على علاقات المجلس بالقادة العسكريين المشرفين على جبهة مدريد لأن المجلس لم يتدخل في ما هو عسكري وقصر نشاطه على إدارة الأمن العام وتسيير الخدمات العمومية كالتموين والنقل واخلاء السكان المدنيين وحركة المواصلات ألخ . . . غير أن خلاف أعضاء المجلس ورئيس الحكومة سيتفاقم فيأمر هذا الأخير بتحديد مهام المجلس ثم أصدر

أمرا بتشكيل مجلس جديد أحدث تغييرا طفيفا في اسمه وهو مجلس سيستمر في أعماله الى شهر أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1937 تاريخ حله ونقل أغلب مهماته إلى مجلس بلدية مدريد الذي أصبح أعضاؤه يعينون من طرف الأحزاب والنقابات بكل ما يحمل ذلك من نزاعات وخلافات . وفي نفس الوقت تقريبا أحدثت الحكومة المجلس الحربي الاعلى (4/ 11/ 36) ومهمته حسب قرار تأسيسه توحيد إدارة الحرب والاشراف على تسييرها .

أما من الناحية الدستورية ، فقد سارت الأمور سيرها الطبيعي أو حاول المسؤولون جعلها تسير سيرا طبيعيا ولو كان ذلك من حيث الشكل والمظهر فقط . فالبرلمان واصل عقد جلساته ولو في مواعيد تزداد كل يوم تباعدا وبحضور نواب يزداد كل يوم عددهم نقصا . والحكومة واصلت نشاطها هي الأخرى ساعية الى التوفيق بين المتطلبات الدستورية وحالة الحرب فأعلنت " حالة الانذار " ﴿ لا حالة الحرب أو الطوارىء ﴾ ونظرت في وضع الشريط الساحلي الشمالي الذي بقي مواليا ولكن منفصلا ترابيا عن بقية المناطق الجمهورية فأسدلت الصبغة الشرعية على اللجان المكونة هناك بموجب الحرب وهكذا أحدث ﴿ أو أسدلت الشرعية ﴾ مجلس أستورياس وليون ومجلس سانتاندير وبرغش وبالانثيا والمجلس الثوري لأراغون .

كانت كل هذه المجالس تعمل في شيء من الاستقلالية وعدم التبعية علما بأن كل مجلس منها تحركه سياسة وعقيدة تختلف تماما عن غيره من المجالس . فهذا عمالي بحت والآخر فوضوي ورغم هذا فقد واصلت حكومة السيد لارغو كابايارو مجهوداتها لتنسيق النشاط السياسي والإداري العام فأمرت بالغاء وحل كل اللجان والمكاتب الدفاعية التي تأسست عند قيام التمرد وأعطت الصلاحية للولاة أو المحافظين لتأسيس المجالس البلدية من ممثلين عن الأحزاب السياسية والنقابات طبقا لأهمية كل منها في المكان المعني . ولا فائدة من التذكير بالنزاعات والخلافات قبل وبعد تشكيل كل مجلس .

اهتمت الحكومة أيضا بالحياة العامة في ماوراء الجبهات القتالية فأصدرت مراسيم وقوانين لضمان الأمن العام وسير العدالة فألغت الرقابة والتفتيشات وحلت ميليشات الحراسة ووحدات قوات الشرطة والأمن ووضعتها تحت سلطة وزير الداخلية ومدير

الأمن العام والمجلس الـوطني للأمن الحديث النشأة هو الآخـر . والتفتت بعد ذلك إلى العدالـة فأصدرت لها مـا تحتاجه من قـوانين لمقاومة الـرشوة داخل الجهـاز العدلي وأخرى لتقويته وتعزيز سلطته وغيرها لمقـاومة السوق السوداء وإعطاء المرأة مزيدا من الحريات وإصدار عفو عن كل المحكـوم عليهم قبل الخامس عشر من يوليو «تموز» واحـداث حضـائر شغل ومحاكم شعبيـة وإعطاء المتهم حـق الدفـاع عن نفسـه دون الحاجة إلى توكيل محام . وأولت الحكومة اهتمامها كذلك بالمجال الصحي والاجتماعي فأحدثت مصالح وخـدمات صحية ومجالس لحماية القصّر والطفولـة ودورا للحضانة وللعجز ولجنة وطنية للاجئين إلى غير ذلك . وباختصـار قامت حكومة السيد لارغو كاباليارو أو حاولت القيام بثورة اجتماعية وإصلاحية بصفة عامة كأنها لم تكن في حالة حرب أو لعلها ظنت أن تلك الإصلاحات من شأنها أن ترغب في السلم فتقضى على الحرب .

وبينما كانت الحكـومة المركزية تقوم بكـل هذا تصرفت الحكومات المحليـة وخاصة حكومة قاطالونيا تحت تأثير القوى والعوامل السياسية والحزبية بترابها فحاولت تعزيز سلطتها والتصرف بأكثر استقلالية عن الحكومـة المركزية وضمان الأمن العام بالتغلب على الفوضى والهيجـان وغير هذا من التصرفات التي لم تحل دون التوتـر الذي استمر في التصاعد مع مرور الأيـام تحت تأثير منظمة الشغل " ث . ن . ت . " القوية التأثير في مختلف دواليب الحكومة وخارجها والتي كانت تريد ثورة عمالية حقيقية للوقوف في وجه الفاشستية . كانت بسياستها وبالسعي إلى الاحتفاظ بهيمنتها في خلاف مستمر مع الحكومة المحلية من جهة ، رغم أن لها فيها وزراء غير قليلين ، ومع بقية الأحزاب والنقابـات الـــى أن حدث الانفجـار وأصبحت برشلـونة يــوم 4 مايــو «أيار» 1937 أشبه شيء بميدان قتال إذ قامت فيها انتفـاضة هاجم أثناءها أنصار نقـابات الث . ن . ت . وحلفـاؤهم المراكز الـرسمية للحكـومة ومصـالحها الإداريـة والفنية بعـد أن تحصنوا وأقامـوا المتاريس وكـذلك فعلت الحكومة المحليـة والأحزاب والنقابات المعارضة لسياسة فوضويي الث . ن . ت . .

أمـام هذا الـوضع الخطير ، والمعارك العنيفـة الدائرة في شـوارع برشلـونة ، قـررت الحكومـة المركزيـة حسم المشكلة فـأرسلت قواتها بين بحـرية وجـوية وبـرية "لأتحاد

التمرد الـداخلي " كما فوضت بعض الوزراء لإجـراء المفاوضـات مع المقاتلين وحسم الخلاف . وبعد لأي أمكن الـوصول إلى حل ، فهدأت الحالـة يوم 7 مايـو ﴿ أيار ﴾ وعاد الشغالون إلى العمل وسوّي الوضع ولو لحين إلا أن هذه الأحداث قد تكلفت بما يزيد عن خمس مائة قتيل وقرابة الألفي جريح .

وأحداث مثل هـذه وغيرها لم تكن لتمر بسلام على حكـومة السيد لارغو كـابايارو التي واجهت خلافات جديدة فوق خلافاتها أو لتجعلها تصمد طويلا أمام مناورات تهجمات الحزب الشيوعي الذي أصبـح ذا قوة وتأثير ، مؤيدا تأييـدا مطلقا من طرف موسكـو ، التي طرد رئيس الحكومة ممثلهـا من مكتبه وطلب حالا تغييره لتـدخله في شؤون الـدولة . كـان لرئيس الحكومـة مخطط عسكرى يوليـه أهمية كبيرة وكـان ينوي الاشراف على تنفيذه بنفسـه متنقلا إلى الجبهة التي سيحدثهـا وذلك بشن هجوم كبير على خطوط الـوطنيين بمنطقة استريمادورا فيكسر وحدتهم الترابية التي أتم التحـامها جيش فرانكو كما رأينا . لكن لم يلق مخططه التأييـد الكامل من زملائه وبعد أخذ ورد ومحاولات لاجتناب الأزمـة الوزاريـة في تلك الظروف ، فـوجيء باستقـالة ثـلاثة من وزرائه فقدم هو أيضا استقالته يوم 14 مـايو ﴿ أيار ﴾ فخلفه أحد الوزراء المستقيلين هو السيد خوان نغـرين بعد ثلاثة أيام من المساومـات حول الوزارات التي سيحصل عليها كل حزب ومنظمة داخل الحكومـة الجديدة التي تم تشكيلـها يوم 17 مايـــو ﴿ أيار ﴾ ليلا .

سقط السيد لارغو كابايـارو إذن بعد أن أنجز الكثير في المجال السياسي والإداري والاجتماعي وحتى العسكـري إذ هو الـذى قضى على الفـوضى التجنيـدية وفـوضى اللجان الدفاعية وشكل الجيش الشعبي فاستقرت الجبهـات وثبتت . ولعل أهم ما أنجزه لارغو كابايارو وحكومتاه هـو ما يمكن اعتباره ثورة اقتصادية حققت الكثير مما عجـزت حكومـات الجمهـورية عن انجـازه أيـام السلم وهي إنجازات في معظمهـا اشتراكية الغايـة والفحوى من ذلك أن المصارف وجانبـا كبيرا من القطاع الاقتصادي تم إخضاعـــها لسلـطة و إدارة الحكـومة بمساعدة ومشـاركة النقابــــات ثم إن تجارة الذهب والعملة وجهت هي الأخرى إلى قنوات حكـومية كما منع تصدير العملة في المجـال المالي أيضا نظمت سياسة القـرض التى توسع مفعولها إلى مجالات عديدة من الحياة في ماوراء الجبهة وأحدثت إدارة عامة للاقتصاد وشرطة مالية إلى غير ذلك .

وشمل الإصلاح الاقتصادى أيضـا قطاع الزراعة وامتلاك الأراضي الفـلاحية فأصدر في شهر أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ قرار يقضي بنزع الملكية عن كل الأراضي التي تدخل أصحـابها في أي نشـاط معـاد للجمهـوريـة والسماح بـاستثمارهـا من طـرف العمال والفلاحين المقيمين في الدائرة البلديـة التي تقع فيها الأرض على أن يتم هذا الاستثمار فرديا أو جماعيا حسب رغبة أغلبية المنتفعين من العملية . ولهذا الغرض أحدث معهد الإصلاح الـزراعي الذي أشرف على تطبيق المقررات التي مكنت في النهايـة عددا من الفـلاحين من امتـلاك أراض خـاصـة بهم كما حـالت دون صغـار الملاك وسيـاسـة التعاونيات التي كانت تهددهم .

أمـا في القطاع التجـاري والصنـاعي فبعد احتـلال وتسيير الشركـات التي تركهـا أصحابها وهربوا إلى المنطقة المتمردة أو تعاملوا مع المتمردين تسييرا فوضويا من طرف العمال ، تدخلت الحكومة وحاولت تنظيمها وتنمية انتاجها ثم اصدرت قرارا حددت فيه تأميم ومراقبة الشركـات والمؤسسات الضرورية للمجهود الحربي واحترمت ، وهذا جدير بـالاشارة ، كل الشركات والمؤسسات الأجنبية ولـو أن تطرف أو حماس الطبقة الشغيلة في بعض المنـاطق تعدى قرارات الحكـومة فاحتلـوا أو سيروا بعض الشركات الأجنبية مما أدى إلى تركها من جانب أصحابها أو تدخل قناصل دولها لإنقاذها .

كل هذا إن دل على شيء ، فانما يدل على أن عهد السيد لاغـور كابايارو كان عهد الإصلاح و " الثورة " الاقتصادية الاجتماعية بمعزل عن الحرب وأهوالها .

أزيح لارغـو كابـايـارو إذن وأوتي بنغرين الا أن التغيير لم يأت على الخلافـات ولا المناورات بالرغم من تصميم الرئيس الجديد على أن تكـون حكومته حكومة الانتصار بعد استعـادة السيطرة والسلطـة وهي غايـة حاول الـوصول اليها عن طـريق الكبت والقمع والتتبع ضد العديدين من قادة الأحزاب والحركات نزولا عند رغبة الشيوعيين أو تحت تأثيرهم مما جعل من حكومة نغرين حكومة " ستالينية " ترتكز أولا وبالذات على القمع والتصفية .

كلما تقدمت الأيام تدهورت الأوضاع السياسيـة أكثر فأكثر فأحدث هذا خلافا في الـرأى حول مآل الحرب بين رئيس الجمهـورية ورئيـس الحكومـة . فبينما كانت هـذه

الأخيرة تبحث عن الغلبة والنصر وتخطط للقتال حتى الموت أو النصر كما كان يردد رئيسها السيد نغرين ، كان رئيس الجمهورية يستبعد ذلك ويحاول عن طريق مبعوثين خاصين إلى بريطانيا ، ايجاد مخرج سلمي عن طريق التفاوض أو التصالح بعد ايقاف العمليات الحربية وحقن الدماء . وبعد أخذ ورد ونقاش وجدل بين كل الأطراف تم التغلب على فكرة رئيس الدولة وتلت ذلك أزمة وزارية أخرى شكل ، على أثرها ، السيد نغرين نفسه حكومة جديدة ببرنامج قوامه الحرب والقتال " حتى النصر " وأردفه بما عرف باسم " نقاط نغرين الثلاث عشرة " وهي عبارة عن ملخص للشروط التي يجب أن تتوفر لانهاء الحرب والأسس التي ستقوم عليها الحياة الأسبانية بعد ذلك

وفي هذه الأثناء وبينما رئيس الحكومة يقوم بمحاولة تفقدية في مختلف الجبهات جرت محاولة احداث أزمة وزارية أو تأسيس وزارة موازية بدعوى أن غياب رئيس الحكومة عائد إلى استقالته . فقطع السيد نغرين جولته التفقدية وعاد حالا ليمسك بمقاليد الأمورمجددا عزمه على الكفاح وثقته في النصر . إلا أن محاولات ازاحته لم تتوقف إلى آخر يوم من الحرب واستمرت أيضا المحاولات لإجراء تفاوض أو تصالح ، مع الطرف المقابل رغم كل الدلائل على أن فرانكو لن يقبل أية مهادنة خاصة في تلك الظروف التي ظهر فيها تفوق قواته على قوات الجمهوريين وتأكدت سلبية الحركات والمنظمات العالمية إزاء اخوانهم في العقيدة السياسية المحاربين في أسبانيا وابتعاد الحكومات الأوربية حليفة الجمهوربين " نظريا " ، عن حكومة الجمهورية وفي مقدمة تلك الحكومات الفرنسية والبريطانية . وهكذا تدهورت الأوضاع تدريجيا ، سياسيا وعسكريا وتخللت ذلك تنازلات جديدة من جانب نغرين ﴿ نقطه الثلاث عشرة تقلصت إلى ثلاث فقط ﴾ مؤامرات وانقسامات كتلك التي تزعمها العقيد سيخسموندو كاسادو لوبث والتي تحدثنا عنها سلفا ، إلى أن تم النصر ، لكن للطرف المقابل . وتلاشت الجمهورية وحكومتها وأنصارها فمنهم اللاّجيء ومنهم الأسير ولعل أسعدهم من مات وهو كريم .

<u>لدي الوطنيين</u> : هكذا كانت الأوضاع السياسية في صفوف الجمهوريين . حكومة ، بل حكومات ضعيفة فاقدة للحزم والسيطرة على الموقف ، وسلطات متعددة متضاربة ، وخلافات دفعت إلى المناورات والمؤامرات والتقاتل ، وحلفاء تميزوا بسلبيتهم وخذلانهم ، ومنظمات عالمية أضرت أكثر مما نفعت ، وبطولات فى

ميادين القتال وصمود شعبي افتقد إلى القيادة العسكرية الموحدة وإلى الانضباط والنظام . أما في الصف المقابل ، لدى المتمردين وقد أصبحوا وطنيين بعد ذلك ، فقد كانت الأوضاع في أولها معرضة هي الأخرى إلى شيء من الفوضى وتعدد القيادات والسلطات ولكن توفرت لديها عوامل عديدة عجلت بازالة الارتجال والسير بحزم وانضباط في خط واضح جلي نحو هدف مرسوم محدد . وأهم هذه العوامل هي الجدية التي واجه بها القادة في مركز القرار متطلبات حركتهم بوضوح للرؤيا لديهم ووحدة الغاية والهدف بالنسبة للجميع بالاضافة مقدرة عسكرية لاتنكر . وهكذا ومنذ الأسبوع لقيام الحرب ، سارع الفريق أميليو مولا ورفاقه إلى تأسيس هيكل قيادي تتمثل فيه السلطة العليا التى ستستقطب كل القيادات والمسؤوليات لتصبح شيئا فشيئا نواة حكومة . فحكومة حقيقية تدير بحزم وشدة وعنف في بعض الأحيان شؤون المناطق الخاضعة لها والتى ستخضع في ما بعد . ففي يوم 24 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1936 أي بعد أسبوع من اندلاع الحرب كوّن الفريق مولا " مجلس الدفاع الوطني " ﴿ مجلس قيادة الثورة ﴾ وسمّى منطقته الترابية " الدولة الأسبانية " مما يدل على أن الغاية واضحة جلية وهي اغتصاب الدولة أو تأسيس دولة . أسندت رئاسة هذا المجلس إلى قائد جمهوري بارز هو الفريق ميغال كاباناياس فيرار ولم يدرج الفريق فرانكو بادئ ذي بدء ضمن أعضاء المجلس ولو أن ذلك تم بعد أسبوعين تقريبا لما بدأت تظهر نتائج عمليات الجيش الأفريقي الذي يقوده فرانكو والذي لا يقبل بزعامة غيره .

كان مولا هو المحرك المدير لهذا المجلس طبعا وقد وضع له غايتين اثنتين أساسيتين وهما خلق نواة ادارية لا سياسية ، للدولة القادمة ، وقيادة عسكرية موحدة ، ضرورية لضمان النجاح . لم يضع المجلس وقته وحالا انكب يعمل فأعلن يوم 27 يوليو ﴿ تموز ﴾ حالة الحرب والأحكام العرفية في " كامل تراب الوطن " ﴿ تأكيد جديد للغاية وهي دولة جديدة لأسبانيا بأسرها ﴾ وحدد البلاغ الإجراءات التي ستطبع الحياة منذ ذلك الحين وهي وضع السلطات العدلية بأيدي العسكريين ، وفرض الرقابة على الصحافة ودور النشر ، ومنع التجمع والإضرابات وحجز وسائل النقل والمركبات لفائدة المجهود الحربي إلى غير ذلك . ثم ألغي علم الجمهورية وأعاد العلم السابق وأحدث لجانا لإدارة كل قطاعات الحياة ونشاطاتها من مالية ومصرفية

إلى اجتماعية واقتصادية وثقافية ومكاتب للصحافة والدعاية ولجنة لإعادة تنظيم الأجهزة العدلية وأخرى للصناعة والتجارة ، وبعبارة مختصرة ، تصرف المجلس وسعى ليصبح سلطة مركزية ذات سيادة ونفوذ موحدة ، توازي وتقابل الجمهورية وتفرض على الدول الأجنبية ، علاوة على الجماهير الشعبية ، الاعتراف بها كحكومة ثم دولة .

حرص المجلس أيضا ، ومنذ خطواته الأولى على أن لايترك للسياسة الحزبية ولا للساسة أي منفذ يتسربون منه اليه فأهمل حتى الذين تعاونوا مع قادته مغلقا الطريق أمام أي نوع من الحياة البرلمانية والحزبية وجعل من برنامجه نظاما قوامه الجيش وأساسه القوات المسلحة فأصدر في شهر سبتمبر « أيلول » أوامر بحل كل الأحزاب التي تكوّنت منها الجبهة الشعبية لدى الطرف المقابل وبحظر كل حركة سياسية أو نقابية مهما كان مبدؤها أو ميولاتها مع الأمر بحجز كل ممتلكات الأحزاب والمنظمات وتسريح موظفيها ولم تستثن هذه الاجراءات ولا حتى الأحزاب الملكية والكتائب واتحاد الشباب التي أيدت التمرد ووقفت في صفه ولو أنه سمح للجمعيات المهنية بمواصلة نشاطاتها ولكن بعد اخضاعها لهيمنة المجلس ورقابته .

ثم جاء الاهتمام ببناء الدولة فوضع حجرها الأساسي بواسطة قانون صدر في 30 سبتمبر « أيلول » ينظم شؤون البلديات ويعتبر " البلدية الحجر الأساسي الذي ترتكز عليه الدولة " . وحيث إن أي دولة لابد لها من اقتصاد فقد أولى مسؤولو مجلس الدفاع الوطني هذا القطاع اهتمامهم في ساعة مبكرة وكانت أولى خطاهم في هذا الخصوص هي إلغاء منجزات الجمهورية " الماركسية الشيوعية " في نظرهم ، فأمروا في 28 أغسطس « آب » بالغاء الإصلاح الزراعي وكل قوانين الجمهورية التي خولت للفلاحين استثمار الأراضي التي يخدمونها أو التي سمحت بالتأميم وما إلى ذلك .

طبيعي إذن أن تؤثر كل هذه التصرفات والإجراءات الحازمة السريعة في الحياة العامة وراء خطوط القتال ، فتميزت بالحماسة والابتهاج ومشاعر النصر وزادت الدعاية المبرمجة في إيقاد تلك المشاعر وإذكائها حتى أن حالة الحرب قد نسيت أو كادت.استمرت المتابعات واعمال القمع والانتقام دون أن تلفت الأنظار كثيرا الا من قبل الذين استهدفتهم وتحملوا وقعها وثقلها . يقول المؤرخ الأستاذ تنيون دي لارا في

هذا الصدد ، وهو يساري يكاد يكون متعصبا " إن الجو العام الذي عاشه الناس إذاك كان جو انبساط وفوز مغذ إلى حد كبير من طرف الصحافة والإذاعة وبالمظهر الحربي الذي يبدو عليه الجيش . إن هذا الجو قد منع بروز خوف وضيق الجماعات التي تعرضت للتتبع والقمع والتصفية .

لقد تغير المظهر الخارجي للحياة ، شعارات جديدة ، وأعلام جديدة ، وأزياء جديدة . . . خفق علم الجمهورية إلى أن زال في منتصف شهر أغسطس ﴿ آب ﴾ لما أبدل بما سيصبح " العلم الوطني " وإلى جانبه العلم الأحمر والأسود شعار الكتائب . لقد دخلت الشعارات العسكرية الحياة المدنية وهكذا أصبح عاديا مشاهدة رجال ونساء على رؤوسهم كمّة جنود اللفيف أو الطاقية الحمراء أو الخضراء منذ منتصف شهر أغسطس ﴿ آب ﴾ ، وبسبب دخول قوات جاغوي مدينة واد الحمص ﴿ باداخوث ﴾ أحيت كل المدن الحدث بتظاهرات واستعراضات أثارت الفرحة والحماسة في السكان .

لقد نظمت المؤخرة " خطا ثانيا " وانبثق تطوع مهمته حراسة المدن وتقديم الخدمات الثانوية . . . " (42) .

لم تكن الأحزاب ، اليمينية طبعا لتستكين بسهولة رغم كل هذه الحركة والإنجازات والحماس . فقد أرادت بكل تصميم أن تجد لنفسها مكانا في هذه الدولة الناشئة ، دولتها ، وبكل طريقة . فظهرت أزمات داخل كل حزب على حدة فعرفت القيادة كيف تواجهها وتزيلها أو تستوعبها . منعت طبعا منعا باتا محرمة كل الأحزاب السياسية بما في ذلك حزب " الثيدا " رغم أنه يميني تعاون زعماؤه تعاونا وثيقامع قادة الانتفاضة وكان في مقدمتهم ، كما رأينا سلفا ، زعيم الثيدا السيد خل روبلس . لكن كانت هناك أحزاب أخرى ظنت أنها تستطيع التعايش مع النظام الجديد لتشابه الميولات بينهما مثل حزب التجديد الأسباني والحزب الوطني الاسباني وشباب الحركة الشعبية وطبعا حزب الكتائب .

تحرك أولا ومبكرا الملكيون " الكارليون " بمحاولتهم إنشاء أكاديمية عسكرية لمجموعاتهم القتالية التطوعية ﴿ ريكيتي ﴾ فكان رد فرانكو صاعقا رافضا للفكرة

رفضـــا قـاطعا وأمــــــر بابعـاد زعيمهم الى البرتغـــال واخضاع المجمـوعات للانضباط العسكري وما أن حل شهر ينـاير ﴿ كانون ثان ﴾ 1937 حتى كانت كل المجموعـات القتاليـة المدنية خاضعـة للسلطة العسكـرية . كان هـذا كافيـا لافهام السيـاسيين المتحزبين أن لا مجال لهم في هـذه " اللعبـة " وأن مـا يبحث عنه القـادة الوطنــيــــون هـو الـــــوحــــدة بأي ثمن وأن الحياة بعـد الآن ستــدور حـــــول الجيش والسلطة العسكــــــرية التي لابد وأن تكـون محور الدولـة الناشئـــة وقوامها .

ولأن لانت الأحزاب الأخرى بسرعة ، فان الكتائب التي تقوت كثيرا وكثر المنتسبون إليها بسرعة ، رأت أن لابد لها أن تلعب دورا في النظام الجديد .

حزب الكتائب أسسه كما أشرنـا سابقا المحامي الشاب خوزي أنطـونيو بريمو دى ريفارا سنة 1933 ووضع له برنامجا عقائديا وسياسيا في ستة وعشرين نقطة أساسية . فـالكتائب ، حسب قـانونها وبـرنـامجها ، أسست لتعمل على تحقيق وحـدة أسبانيـا وتأميم الأراضي المؤجرة وازالة الشركات المساهمة الصناعية وتحسين الأجور داخل نظام دولة متين . وجعل المؤسس لأعضـاء الكتائب زيـا رسميا يتمثل في القميص الأزرق والطاقية الحمـراء تقليدا للحزب النازي الألماني أو الفـاشستي الإيطالي ، الا أن زعيم الكتائب المؤسس ، خوزي أنطـونيو ، قد أعدم في المنطقة الجمهـورية ومعظم القادة الآخرين مـوقوفـون في سجــــون الجمهـورية . ولـــــذا لم تكن للكتـــــــائب قيـــــادة ذات هيئـة وسلطة يخضع لها الجميع فتنازع الزعماء وتكوّنت الكتل فاغتنم فـــــرانكو ذلك ليـزيح الجميع بمناورات قـام بها أنصاره بـدعـوى الوحـدة وتجنب الشتات وغايتها القبض على كل معالم ومظاهـر الحياة في الدولة الجديدة . وبعد أيام من التناحـر والتآمر والتقاتل أيضـا ﴿ هجوم مجموعة منـاصرة للسيد هيديـا الفائز في انتخابـات جرت لرئاسـة الحزب على بيت مجموعة منـاهضة مات أثنـاءه شخصان﴾ اغتنم فرانكو الفرصة " فقرر وقع وأذاع " قرار الوحدة السياسية الذي دمجت بموجبه كل الأحـزاب " الشرعية بالمنطقـة الوطنيـة في حزب واحـد هـــو الكتائب الأسبـانية التقليدية ، " الخـونس " ﴿ الشباب العمالي الوطني النقابي ﴾ الذى سيصبح الواجهة السياسية للنظام وسيستمر كذلك إلى ما بعد الحرب إذ بقي طيلـة عهد فـــرانكـــو

" الحركة " أي الحزب الأوحد الذي مر منه معظم أو كل الذين تولوا مسؤولية في الدولة أيام حكم فرانكو وإلى أن مات .

صعود فرانكو : ما من شك أن الفريق فرانشسكو فرانكو كان يطمح ويفكر ويهيىء نفسه لزعامة أسبانيا " لإنقاذها " منذ مدة طويلة وقبل الحرب الأهلية بكثير . فهو المتتبع منذ ارتقائه إلى المرتبات العالية في السلم العسكري ، لكل ما مرت به البلاد من أحداث ، وهو المتمعن والدارس والناقد لدكتاتورية بريمو دي ريفارا في عهد ألفونصو الثالث عشر ، وهو القائل بأنه شعر يوما ما بأن عليه أن يقوم بدور هام في حياة أسبانيا . ولكنه لم يعلن طموحه ولا أظهر لهفة وتسرعا وراء بلوغ مقصده بل تصرف بحكمة وتعقل وصبر وسرية ، مجيدا اغتنام الفرص واستغلالها لفائدة مخططه . وساعده حسن الحظ على ذلك . فقد مات الفريق سان خورخو المعترف به من الجميع كأول رئيس للتمرد ، فى حادث طائرة كانت ستنقله من منفاه بالبرتغال إلى أسبانيا وإلى الآن لم توضح حقيقة ذلك الحادث . ثم إن تضارب المصالح السياسية والطموحات الشخصية قد مهدت السبيل لزعامته وفتحت له الطريق إلى القمة في شيء من السهولة ودون ما احتياج منه إلى التآمر أو المناورة . كان ينظر إلى الفريق مولا كقائد طبيعي للنظام الجديد أو حتى كايبو قائد الحركة بالأندلس . ولكن شخصية فرانكو وزعامته لأقوى الجيوش الأسبانية وأكثرها تنظيما وفاعلية ، وعمليته " الاستعراضية " التي حرر بها قلعة طليطلة ، وعدم شفافة أفكاره ونواياه ، كلها عوامل جلبت اليه أنظار عدد من القادة العسكريين الملكيّي النزعة ، فرأوا فيه الرجل الذي يستطيع إنقاذ الموقف وتسيير دفة المركب واعادة النظام الملكي إلى البلاد . وهكذا اقترحوه لاستلام القيادة والزعامة وحصلوا على تصريحات أغلبية أعضاء مجلس الدفاع ، فقبل فرانكو دون تردد وعلى عجل شرع في تركيز وتقوية سلطته والامساك بكل مقاليد الأمور . صدر قرار تعيينه يوم 29 سبتمبر 1936 واستلم السلطة بمدينة برغش يوم 1 أكتوبر « تشرين أول » ثم انتقل حالا إلى مدينة سالامنقة التي جعل منها " العاصمة " المؤقتة لدولته الناشئة موزّعا أجهزتها بين ثلاث مدن هي سالامنقة وبلد الوليد وبرغش وفي نفس يوم استلامه السلطة شكل " المجلس التقني للدولة " الذى لم يكن سوى حكومة ستتصرف تحت رئاسته كحكومة دولة ذات سيادة ستعمل وتجبر العالم الخارجي على

الاعتراف بها . فعلت ذلك حالا ألمانيا وإيطاليا ووقعت معها هذه الأخيرة معاهدة تعاون . أما فرنسا وبريطانيا فلم تفعلا إلا في آخر أيام الحرب (27/ 2/ 1939) رغم رغبتهما اتيان ذلك قبل هذا التاريخ بكثير . لم يرض فرانكو بمجلسه ذاك طويلا فحوله إلى حكومة اسما وفعلا شكلها رسميا يوم 30 يناير ﴿كانون ثان﴾ 1938 وبدأ عن طريقها يضع الأسس والقوانين للدولة الجديدة التي تشمل أو ستشمل كامل تراب الوطن . في نفس يوم تشكيل الحكومة صدر قانون الإدارة المركزية للدولة تلته على مر الأيام قوانين أخرى ستصبح بمثابة الدستور للدولة نظمت وبرمجت الاقتصاد والتعليم والثقافة وكل أوجه النشاطات الحياتية .

وبمثل هذه الإدارة وعلى هذه الصورة ، تواصلت الحرب بمدها وجزرها إلى أن أنتهت بسقوط الجمهورية وانتصار الوطنيين الذي غنم فرانكو كل شرفه ونتائجه .

الكنيسة : من الضروري قبل انهاء هذا الفصل التعريج على دور الكنيسة خلال الحرب الأهلية . فهي طبعا ودون لف ودوران معادية للنظام الجمهوري لا لجمهوريته ، بل لميوله اليساري وبروز الحركات الماركسية والشيوعية والفوضوية فيه . وزاد في هذا العداء تصرف جانب من الجماهير الشعبية أيام الحكم الجمهوري وقيامهم بحرق الكنائس وقتل الرهبان والراهبات ولذا قامت الكنيسة كما رأينا ، بنشاط كبير ضد الجمهورية عن طريق منظمات تابعة لها وبتعاون مع بعض الأحزاب اليمينية .

ولما قامت الحرب وقف رجال الكنيسة إلى جانب المتنفضين طبعا ، جاعلين ، وكذلك فعل فرانكو ولو أن بعض المؤرخين يفسرون أقواله ومواقفه تفسيرا آخر، جاعلين من الحرب الأسبانية حربا صليبية ضد الكفر والالحاد . فقد صرح إذاك أسقف مدينة سالامنقة فقال - أننا نحن المقاتلين - مسيحيين كنا أو مسلمين ، لسنا سوى جند الله ولسنا نقاتل ضد رجال آخرين ولكن ضد الالحاد والمادية " (43) .

تعاون رجال الكنيسة تعاونا وثيقا مع القادة الوطنيين دون أن يطلب منهم هؤلاء ذلك ، بل قبلوه واستغلوه فهو سلاح حاد نفاذ . والحديث عن الكنيسة يعنى أيضا الفاتيكان لأن الكنيسة الأسبانية كاثوليكية رومانية فهي إذن تابعة للفاتيكان خاضعة

لتعليماته وتعييناته . إلا أن الفاتيكان قد تظاهر بالحياد وعدم التدخل بينما قامت جريدته وصحافته بالهجومات العنيفة المتتالية ضد أسبانيا " الشيوعية " . وشيئا فشيئا ظهر في الفاتيكان تياران ، أحدهما معارض لأي نظام دكتاتوري سلطوي ، وآخر مائل بكل وضوح للمتمردين وحركتهم .

أما فرانكو ، وهو الرجل الحصيف الذي يجيد استغلال المواقف ، فقد رأى في الأوضاع الحربية والسمعة التي شاعت في العالم حول تصرفات قواته بعد تدمير غرنيكا ، ما من شأنه أن يعرقل خطاه فاغتنم " ولاء " رجال الكنيسة وأوعز إلى أحد الكرادلة اعداد رسالة رعائية وجهت إلى العالم أجمع بفضل ما أعطاها نظام فرانكو وأجهزته الدعائية من سعة إذاعة ونشرا فكانت بمثابة الفتوى التي تبرر التمرد وتعطيه الصبغة الشرعية الدينية لأنه حال دون " ثورة شيوعية " ولأن الكنيسة وإن كانت لم تتآمر ضد النظام الجمهوري ، فهي الآن وقد بدأت الحرب ، تزكي وتضفي الصبغة الشرعية على التمرد الذي تعتبره آلة ووسيلة لإنقاذ الدين وأسبانيا . فجاء هذا النداء في حينه ليكثف التأييد الجماهيري حول فرانكو ونظامه .

هكذا كانت الحرب الأهلية تصفية أو محاولة لتصفية المشاكل وضغائن كامنة منذ حقب . جاءت بمثابة التعبير عن عجز دولة وشعب ومجتمع بهيآته ، ومنظماته عن إيجاد طريقة مناسبة للتعايش والتفاهم . طرفان يتقابلان ، تحركهما نفس المعطيات وإن كانت في بعض الأحيان خاطئة وهي خوف كل طرف من محق الطرف الآخر له والحماسة لفكرة أو مبدإ مثل الاشتراكية أو الشيوعية أو الليبيرالية أو الراديكالية ... . وادعاء مقاومة عدو غير موجود أو هو ليس كما كان يتصوّر . فالشيوعية كانت غير ذات بال والفاشستية لم تكن سوى قلة . وكما هو طبيعي في مثل هذه الحالات هناك المسهم الفعلي ﴿ المتحزب ﴾ وهناك الجماهير ، وهي الطرف الثالث ، الطرف الصامت ، الطرف المجرور جرا أو المغلوب على أمره بينما الأحداث تجري وتبرمج باسمه . . . انها الخوف من القمع والانتقام باستعمال القمع والانتقام " (44) .

وما من شك أن أحسن ما نضيفه بعد كل هذا هو مقتطف من خطاب رئيس الجمهورية الأستاذ مانويل آثانيا ألقاه بمناسبة مرور سنتين على اندلاع الحرب إذ قال :

في حرب أهليـة لايتم الانتصار ضد خصم ولـو كان هذا مجرمـا ، و إبادة الخصم غير ممكنة . فمهما كان عدد الآف القتلى الذين يسقطون من هذا الجانب أو ذاك ، سيبقى دائما ، من الاتجاهين ، عدد كاف ستواجههم لا محالة مشكلة ما إذا كان ممكنا أو غير ممكن مواصلة العيش معا " .

وهذه فعـلا هي المشكلة التي واجهها الأسبـان بعد أكثـر من أربعين عاما وعـرفوا بفضل التجرد والحكمـة والواقعيـة والسماحة والتعلق بـالديمقراطيـة وحق الجميع فى العيش الكريم ، عرفوا كيف يجدوا لها حلا فكان التعايش وأمكن المستحيل .

مقارنة : مهما حاولنا التخلص فاننـا لا نستيطع الهروب من الخضوع إلى إغراء قوي وهـو المقارنة بين الشقين ، الجمهوري والوطني ، اللذين تحاربا وتقـاتلا وهـم أخوة ، قتالا مستميتـا مدمّرا طيلة مـا يقرب من الثلاث سنوات . لقـد خضع لهذا الإغراء أو لهذه الضرورة معظم الذين تناولوا الحرب الأهلية بالبحث والدرس إلا أن معظمهم قد ركـز الجهـد والاهتمام على النـواحي الماديـة وحـاول كل منهم ، حسب معتقـداتـه السياسية ، إبراز تمتع الطرف المعاكس لآرائه وميوله بأكثر امكانات مادية وخاصة منها السلاح والعتاد والمعونة الأجنبية فهذا يؤكد حصول الوطنيين ﴿ المتمردين ﴾ على سند كبير ثابت مستمر من طرف إيطاليا وألمانيا وغيرهما مما جعلهم يتفوقون جوا وبرا . جوا بعدد الطائرات وحـداثتها وبرا بقوتهم الناريـة بفضل عدد المدافع من كل نوع وحجم علاوة على المصفحات والـدبابات . وآخر يعكس كل هـذا ويحاول إثبات أن الجانب الجمهوري هو الذي حصل منذ البداية على نصيب الأسد من حيث الرجال والسلاح والعتاد بينما يؤكد آخر أن الجانبين حصلا طـول الحرب والقتال على امكانات متشابهه متقـاربة في عـددها وقـوتها ووجـود السند الخارجي ومـا الفرق الا في المقـدرة وحسن التصرف .

أما نحن فسنلتفت في مقـارنتنا أو موازنتنا إلى النـواحي المعنوية أو حتى النفسـانية ولو أن هذا لا يحول دوننا ودون إعطاء فكرة ولو إجمالية عن إمكانية الطرفين على الأقل عند اندلاع الحرب في أيامها الأولى .

مـا أن أعلن التمرد ومـرت الأيـام القليلة الأولى حتـى " رسمت " الحدود بيـــن الجانبين ، فكـان الجانب الجمهـوري يسيطـر على إحدى وعشرين عـاصمـة ولايـة

ومساحة ترابية تقرب من 270 ألف ك . م . مربع آهلة جميعها بأربعة عشر مليون ساكن بينما سيطر المتمردون على تسع وعشرين عاصمة ولاية قرابة 230 ألف ك . م . مربع بالاضافة إلى منطقة الريف المغربي التي كانت خاضعة لحماية أسبانيا . أما عدد السكان في هذه المناطق فيقدر بعشرة ملايين نسمة تقريبا .

كان للجانب الجمهوري كل الساحل الشرقي على البحر المتوسط ونافذة على الأطلسي وأخرى على البحر الكانتابركو شمالا إلى جانب الحدود مع فرنسا . وكان للجانب المتمرد حدود البرتغال ونافذة بحرية بالمضيق ، وبينما تميزت المناطق التي بقيت تحت السلطة الشرعية بكثرة سكانها وصبغتها الصناعية ، إذ فيها انحصرت أهم المصانع . تميزت المنطقة التي تبعت المتمردين بالصبغة الزراعية إذ معظمها أراضٍ لزراعة الحبوب أولا وأساسا ثم الكروم وبها مساحات كبيرة للمرعى إلى جانب ما بها من مناجم فحم . وكل هذه الأراضي قليلة السكان كما هو معروف بالنسبة للمناطق الزراعية .

بقي إلى جانب الجمهورية أي الحكومة الشرعية ، أكبر جانب من قطع الأسطول ولكن بدون قادة ولا إطارات بينما القطع القليلة التي انضمت إلى التمرد كانت طواقمها مكتملة . أما بالنسبة لسلاح الجو فان نسبة 80٪ من الطائرات بقيت في حوزة الجمهوريين ومعها 95٪ من الميكانيكيين و35٪ من الضباط وانضمت النسب الباقية إلى التمرد . وبالنسبة للقوات البرية فقد رأينا كيف أن الجانب الجمهوري قد حل جيشه بينما الجانب المتمرد قد حصل على انضمام 51 ألف جندي و 27 ألف رجل أمن . وفي صف الضباط الكبار بقى مواليا منهم للجانب الشرعي 13 فريقا « لواء » بمناصب قيادية و22 آخرون . أما المتمردون فهم 4 فرقاء « ألوية » بمناصب قيادية و 18 بدونها (45) .

بقيت المساعدة الخارجية الصعبة الحصر أو التقدير ولوأنها متعادلة إذ نظر إليها عبر عدد البلدان التي مدت رسميا وباستمرار الجانبين المتقاتلين بالسلاح والعتاد والخبراء لأننا نجد ، في هذه الحالة ، إيطاليا وألمانيا من جانب والاتحاد السوفياتي والمكسيك من جانب آخر . لكننا نعرف أن كلا الجانبين قد وصلته معونات من مصادر أخرى ولو أن المرجح هو أن الطرف المتمرد كان أسعد حظا على الأقل من حيث سرعة الإرسال ونوعية المدد والمستشارين واستمرارية المعونة .

بعد هذا ، وبعد ملاحظة تقارب الامكـانات وحجمها بالنسبة للطرفين ، يتساءل المرء عن أسبـاب هزيمـة الجمهـوريين الذين رغـم كل شيء ، كانـوا في مـركز القـوة والشرعية وهـو ما كان يكفي ، نظريـا ، للتغلب على التمرد . ولابد لكل معـركة من منتصر ومنهـزم ، غـالب ومغلوب ، لكن لكل انتصـار أسبابـه وللهزيمـة أسبـابها ومبرراتها ولذا لماذا انتصر الوطنيون وانهزم الجمهوريون ؟ بسيط جدا أن يجاب عن هذا السؤال لأن الحرب لان كانت الأسلحة والمعـدات هي أدواتها الضرورية ، فهي في نظرنا ليست الأساسيـة ولا الفعالة . فسلاح في يـدي طفل أو مجنون أو صاحب عاهـة هو غيره إذا كان بين يـدى شاب متحمس متـدرب مؤمن بغـاية سيستعمل السـلاح من أجلها . ولـــذا فإن الجانب الجمهوري ، سـواء توفـرت لديه الأسلحـة والعتاد أو لم تتوفـر ، سواء أكـان في مركـز القوة أو الضعف ، وسـواء أكانت الظـروف لصالحه أم ضده ، فهو منهـزم لا محالة لأنه في معظمه كـان مشتتا مفرقا ، لاتهزه عقيـدة واحدة ولا غاية واحدة ولا إيمان واحد بل اتحد رجاله في عدم الوحدة . لقد فقد الجمهوريون وضوح ووحدة الغاية واعطائها شيئا من القداسة حتى تحرك المشاعر والهمم وتدفع إلى الموت بغية النصر أو الخلـود في عالم الاستشهاد . رغم هـذا فقد استمات الكثيرون في القتال وأظهروا الشجـاعة والإقدام وضربوا في بعض الأحيان الأمثـال بالبطولات لكن خذلهم عدم وجـود قيادة واحدة حازمة عـازمة ، سريعة القرار نافـذة الفكر وخذلهم حلفـاء أو أنصار بتقـاعسهم عند الحاجـة أو بتـدخلهم في إعداد المخططـات واتخاذ القرارات بما يتماشى ومصالحهم الخاصة ، لا ما يضمن النصر للمحاربين .

وخـلافا لهذا فقـد حرص الجانب الـوطني على أن تكون لـه قيادة مـوحدة واسعـة السلطات فكانت له وكانت عسكـرية ذات خبرة ومقدرة وعزم وتصميم . وحرصت القيادة من جانبها أن يكون للقتال مثل وغاية فجعلت منه حربا " صليبية مقدسة " ضـد " الشيوعيين والماسـونيين الملحـدين الكفـار " فشحذت بـذلك الهمم وقـوت الحماسة وضمنت الطـاعة وعـدم مناقشة الأوامـر ولا القرارات . وإذا أضفنـا موقف الحلفـاء الحازم ومعـونتهم الفعـالة كمّا وكيفـا واستمـرارا ، فهمنـا من أين أتى النصر وكيف ولماذا .

والآن ، لابد لنـا أن نتساءل و كما تساءل "خـوزي بريمو دي ريفـارا" ، مؤسس الكتائب وواضع فلسفتها ومبادئها وميثاقها . نتساءل كما تساءل هو ، بينما كان قابعا

في سجنه ينتظر الإعدام الذي حكمت به عليه محكمة " شعبية " لدى الشق الجمهوري ، وهذا التساؤل ملخصه : ما الذي سيجري لو انتصر المتفضون ؟ ستبقى أسبانيا منقسمة على نفسها إلى شقين كما كانت . وكما كتب خوزي أنطونيو فان قادة التمرد ان انتصروا " ليسوا سوى مجموعة من الفرقاء شريفي النوايا ولكن نظرتهم السياسية ضعيفة " ولذا سيبقى من وراء انتصارهم " الحركة الكارلية القديمة الفظة عديمة التسامح ، وتبقى الطبقات المحافظة الكسولة القصيرة النظر ، ذات المصالحات الكثيرة ، وتبقى الرأسمالية الزراعية والمالية وهذا يعني سد الطريق في بضع سنوات أمام كل إمكانية لبناء أسبانيا عصرية ، علاوة على انعدام أي شعور وطني بعيد المدي . وكرد فعل لكل هذا ستقوم مرة أخرى ثورة سلبية " .

هل كانت رؤى مؤسس الكتائب صحيحة ؟ هل كان حقا ما رآه من داخل وأعماق سجنه وما تنبأ به قبل موته ؟ كان ولم يكن ، إذ انه أصاب وأخطأ ولكن كان تشاؤمه في محله لأن الأيام التي كانت تنتظر أسبانيا والشعب الأسباني بعد الحرب لم تكن ليحسدا عليها لأن طريقهما لم تفرش حريرا ولا زهورا ، لأن التعايش كقطعة الزجاج إذا تصدع أو انتهكت حرماته من الصعب جدا التحامه وجبره .

الباب الثالث
الفصل الأول

عهد فرانكو

ليس غـريبا ، أو هـو طبيعي أن يخلف حـربا أهليـة " عـالمية " كـالتي منيت بها أسبانيا نظام مثل نظام الفريق فرانكو . فهي حرب أدى اليها تراكم المشاكل المتعددة المختلفة ، اقتصـادية كـانت واجتماعية وثقافيـة وحتى دينية بقيت دون حلـول طوال قـرون ولما أرادت السلطـات الجمهـوريـة حلهـا أو حل البعض منهـا ، لم تشترك في محاولاتها كل الأطراف المتعـددة النزعات والميـولات ، مشاركـة فعالة فجـاءت حلولها مـرضية لشـق دون آخر أو لجزء آخـر من المواطنين ، فبـدت منقوصـة ولـو اكتملت وعـرجاء ولـو صحت . ولعل الخطأ الأول قـد تمثل في الدستـور نفسـه الذي وضعـه الجمهوريـون سنة 1931 ، إذ جـاء كغيره من الدساتير السـابقة جميعهـا ، ثمرة رأي ومجهود جانب واحد من الشعب وذا اتجاه واحد ومبـادىء سياسية أو عقائدية واحدة فانعـدمت فيه الصفـة الأساسية لصـلاحية ونجاعـة أي دستور وهي أن يكـون مظلة قانونية شرعية تظلل الجميع وقاعدة أو أرضية أساسية يتحرك فوقها الجميع دون ميز أو إكراه إلا ما يفـرضه القانون الذي يمثـل رأي وحاجة الأغلبية " الساحقـة العريضة " دون إهمال رأي وحاجة الأقلية أو الأقليات .

ثم إن الحرب الأسبـانية قـد تشـابكت فيها العـوامل السلبيـة كالأغـراض والطمع الخاص للأفـراد أو المجموعـات وكالمصالح الماديـة الطبقية والعقائديـة بالإضـافة إلى عوامل خارجية بدافع المصالح الاقتصادية والاستراتيجية وحتى العقائدية المذهبية ثم إن " الـوطنيين " ﴿ وهم الجانب الذي تمرد على السلطـة الشرعيـة ﴾ قد أطلقـوا على أنفسهم هذا الاسم منكرين به الشعور الوطني والإخلاص للوطن على الجانب المقابل الذي لم يكـن في نظرهم أخـا مخالفا في الرأى أو خصما بل عـدوا للوطن والـدين يجب القضاء عليه . ومن هذا المفهوم ، مفهوم العداء للوطن والدين ، جعل الوطنيون من كفاحهم حـربا صليبية ضد الكفـر والماسونية والشيوعيـة " وهو ما أباح الـرقاب وما للرقاب فكان ما كـان من قتل وإعدام وسجن وتعذيب وتحقير وانتقام . لكن قبل أن نسترسل في عرض عهد ونظام فرانكو ، لنعرف أولا من هو فرانكو هذا .

تعريفه : هو فرانشسكو فرانكو بـاهامونتي المولود بعد منتصف الليل بقليل من يوم 4 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ من سنة 1892 بمدينة الفرّول مـــن منطقـــة جليقية بأقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية . كان أبوه نيكولاس محاسبا في إحدى البواخر وكانت أمه " بيلار " ابنة ضابط بقسم التموين بالبحرية الأسبانية . وكانت عائلة فـرانكو تتمتع بجانب من الاحترام وشيء من الرفاهيـة ولو أن سيرة الأب الذي اشتهر بأنه زير نساء قد أخجلت باستمرار أفراد العائلة الذين وجدوا في الأم الشديدة التدين والخيّرة تعويضا عن الأب وتصرفاته فكان تأثيرها ولا شك قويا على ابنها .

كان كل أمل فـرانكو الانخـراط في البحرية الأسبـانية إلا أن ذلك الأمل قـد ضاع بسبب اغـلاق مـدرسة مـدينـة الفـرّول وشدة المتطلبـات المشترطـة لـدخول المدرسـة البحرية . ولذا رأى فرانكو نفســه مجبرا على تحويل وجهته والانخراط في القوات البرية فدخل وهو في سن الخامسة عشرة الأكاديمية العسكرية بطليطلة وهو ما سيؤثر تأثيرا عميقا في حياتـه وحياة عائلته . " فابتعـاده مبكرا عن الحياة المدنية مضافـا إليه إيمانه العميق بأنه في خـدمة الله والـوطن قد جعـلاه دائما منعزلا " ، وجعل تصرفاتـه إبان وبعد تخليـه عن القيادة العسكريـة المباشرة مطبـوعة بطابع عسكـري صرف ومتجهة اتجاها عسكريا بحتا فنظرته إلى الحكم والحكـومة وإلى الهياكل والمصالح الدائرة حولها وكل ما يترتب عـن هذه وتلك من أعمال أو خدمـات ، كانت نظـرة عسكريـة أثرت حتى في تعبيره فأصبحت لديه السلطـة " قيادة " ورئاسة الدولة " مـركز القيادة " . وما من شك أن هذه العقلية وهذا المفهوم هما اللذان جعلا منه آمرا لا يقبل النقاش أو " العصيان " إذ وصفه صهـره وأحد كبـــار مساعـديه السيد سيرّانو سـونيار فقال " لقد أصدر الأوامر دوما ولم يترك الفرصة أبـدا لمعارضة شبيهة بتلك التي يواجهها محام أو سياسي .

قد لانخطيء عنـدما نقول بأن أولى خطى فرانكـو كانت في ميدان القتال لأنـه ما كاد يتخـرج من الأكاديمية بطليطلـة حتى أرسل إلى المغرب ليشارك في حـرب الريف وفي معركة " كـرت " بالذات سنة 1912 . هناك وفـــــي صائفـة سنـــة 1916 جرح فـرانكو جرحـا خطيرا كاد يذهب بحيـاته ولكنه نجـا ورقي بسبب ذلك إلى رتبة نقيب ومنذ ذلك الحين بـدأ اسمه يلمع في أوسـاط الجيش الإفريقي وبعـد سنة ، أي

عام 1917 تـــم نقله إلى مدينة أوفيادو بشمال البلاد حيث تعرف على الآنسة كارمن بولو التي أصبحت زوجته بعد ست سنوات . وفي نفس سنة 1917 شارك فرانكو في قمع انتفـاضاتٍ واضطـرابات منطقة أستـورياس فألفـت الحدث اهتمامه بـالأوضاع الاجتماعية ومن ثم السياسيـة بالبلاد . إلا أن مصيره يبدو مرتبطا بـالمغرب وافريقيا إذ أنه نقل ثانية إلى الريف المغربي سنة 1920 وهو برتبة رائد . هناك بصحبة ضابط آخر يتقدمه في السن هو السيد " ميّان أستراي " أسس النواة الأولى للّفيف الأجنبي الذي سيصبح مع مرور الـزمن قوة ضـاربة فعالـة ضمن القوات العسكـرية الأسبانيـة ويد فرانكوالضارية الحاسمة أثناء الحرب الأهلية . وفي تلك الأثناء عاش فرانكو عن قرب كارثة عسكرية كبيرة ومأساة داميـة تمثلت في معركة " أنوال " بشمال المغرب التي كبد فيها الأمير عبد الكريم الخطابي وجيشه أفدح الخسائر وأشنع الهزائم للقوات الأسبانية فكانـت كارثـة ثانية اهتـز لها الضمير الأسباني بـأسره مثل كارثـة كوبـا عام 1898 ، وأحسهـا الجيش في عظمه مثل الأولى . أمـا فـرانكو فقـد دفعتـه هذه الأحـداث إلى الاهتمام بالسياسة فأصبح ، وهو الانعزالي بطبعـه يشارك في مناقشات سياسية داخل الجيش فتوليـه الصحافة وآراءه أولويـة على غيره ، فيزداد اسمه شهرة ولمعـانا . ولكن حذره وحيطته الطبيعيين جعلاه يمتنع عن مهاجمة الجيش .

قامت كما رأينا سلفا ديكتـاتورية بريمو دي ريفارا سنـة 1923 فرحب بها فرانكو وبقضائهـا على الحكومـات الليبيرالية الضعيفـة آنذاك تـرحيبا كبيرا لأنـه وهو المؤمن بـالقوة والمعجب بها ، لا يقبل بـل يحتقر الضعف والضعفـاء . إلا أن الترحيب شيء والموافقة شيء آخر . فالسياسـة التي اتبعها بريمو دي ريفارا لم تكن لترضي الكثيرين من زملائه العسكريين من بينهم فـرانكو الذي أسهم في محاولة ، احتجاز الـدكتاتور بريمـو أثناء زيارتـه المغرب سنة 1924 . الا أنـه ستجرى في تلك الآونة مقـابلة بين فرانكو ، وهو إذاك برتبة مقدم والـدكتاتور بريمو دي ريفارا ، أفضت إلى تفاهم كبير بين الرجلين . وكما هـو معلوم ، قام الأمير عبـد الكريم خـلال عام 1925 بهجمات عنيفة ضـد المناطق الخاضعـة للهيمنة الفرنسيـة من المغرب ، مكبـدا الجيش الفرنسي أيضا أكبر الهزائم فحـانت بذلك الفرصة أمـام أسبانيا للعمل المشترك مع فرنسـا ضد عبد الكريم وكـان الانزال الشهير الذي تم يوم 8 سبتمبـــر « أيلول » عام 1925 والذي قاد فرانكو أثناءه الخطوط الأمامية فكان انتصاره في تلك المعارك سببا في ترقيته

إلى رتبة فريق مما دعا إلى نقله إلى مدريد أولا حيث قضى مدة قصيرة ثم إلى مدينة ساراقسطة حيث أسندت اليه إدارة الأكاديمية العسكرية وهو منصب بقي فيه ثلاث سنوات .

ولعله من المفيد التوقف قليلا عند فترة دكتاتورية بريمو دي ريفارا وتحليل تأثيرها على فرانكو وموقفه منها . لقد رأينا أن فرانكو قد قبل بل رحب بانتفاضة بريمو ولو أنه لم يبد تحمسا ظاهرا فهو غامض بطبعه فيصعب جلاء ما يدور بخلده . ثم تحول ذلك القبول أو الترحاب إلى تحفظ فتمرد ليصل في النهاية إلى تعاون يتزايد عمقا مع الأيام . ولان دل هذا التغيير في المواقف على شيء ، فانه يدل على نفس حائرة تبحث عن شيء لاتجده . هناك من رأى في ذلك انتهازية فرانكو بينما رأى فيها آخرون تعقلا وحسن تفكير وواقعية . ومهما يكن من أمر فان حركة بريمو دي ريفارا ستكون بمثابة التجربة أو التمرين لفرانكو الذي سيستخلص من أخطائها العبر ومن منجزاتها ما يفيده مستقبلا .

إن ما يمكن اعتباره مؤكدا هو أن انتفاضة بريمو دي ريفارا وجدت تجاوبا كبيرا في نفس فرانكو وقد أعجب بالكثير من منجزاتها خاصة منها الاقتصادية والعسكرية ﴿ أنهاء حرب الريف بالانتصار على عبد الكريم ﴾ ولعل هذا الإعجاب هو الذي أدى به إلى اختيار يوم سقوط دكتاتورية بريمو تاريخا لإعلان أول حكومة له أثناء الحرب الأهلية وعَين بنفس الحكومة ثلاثة من وزراء بريمو كأنه يريد بذلك أن تبدو حركته وحكومته امتدادا لحركة بريمو التي سقطت نتيجة أخطاء يجب تحاشيها وتحاشي أهمها وهو ذلك الشقاق الذي ظهر وسط القوات المسلحة الأسبانية حول وجوب أو عدم مشاركة العسكريين في الحياة السياسية والادارية للبلاد إلى ابتعاد الجيش عن نظام أسهم في اقامته وتركيزه وهذا دون شك ما جعل فرانكو يقيم كل نظامه على العسكريين وعلى المفاهيم العسكرية أسلوبا و إدارة وانضباطا وحتى لغة ومفهوما .

استمرت حياة فرانكو المهنية في صعود وبروز متواصلين إلى أن حدث ما سيمسه مباشرة . فقد أغلقت سلطات الجمهورية الأكاديمية العسكرية بساراقسطة وكان ذلك بمثابة الاعتداء على فرانكو نفسه الذي كان يفتخر كثيرا بما أنجزه بها وهو انجاز اعترف له به الجميع . وكما لو لم يكن ذلك كافيا فقد صدر عن الرئيس آثانيا أمر وضع

النقطـة السـوداء الأولى في ملف فـرانكو المهنـي فكان أول اصطـدام لـه مع النظـام الجمهوري تقوقع على اثره فرانكو وحصر مجال صداقاته فأحدث ذلك تغييرا ملحوظا على طباعه وتصرفاته .

لم يحل هـذا دون التفات القـادة السياسيين اليـه . فلما وصل الوسط اليسـاري إلى السلطـة عام 1933 وبعـده الوسط اليميني سنـة 1934 ، أنجـرّ فـرانكو إلى حلبـة السياسة فكان له تعاون كبير مع لورو وبصفة خاصة مع خل روبلس زعيم " الثيدا " الذي تولى شؤون وزارة الدفاع .

وفي ربيع 1934 رقته الحكومة الراديكالية الماسكة بالسلطة أنذاك إلـى رتبة فريق أول ومن مكتبه بـوزارة الدفاع نظـم وأدار عمليات قمـع ثـورة أكتوبـر « تشرين أول » 1934 وعين خـلال 1935 رئيسا سـاميا بـالمغـرب ثـم رئيسـا للأركان العامة المركزية .

لقد وصل فرانكـو إلى القمة وقد عرف واشتهر اسمـه بين السياسيين وفي الأوساط العسكرية حيـث يذكر فيعجب به ثم أنـه لم يعد نكرة ولا ضابطا من ضمـن مجموعة ضباط بل هـو فرانكو البطل المقدام لـدى البعض لمأثره في حرب الريف وهـو القائد لدى البعض الآخر لتكوينه وقيادته للفيف الاجنبي وهو المدير والاداري لدى آخرين لما أنجزه سنوات إدارته الأكاديمية العسكرية وهو أيضا المخطط الاستراتيجي المجرب وقـد أعطى البرهان على ذلك خـلال عمليات الانـزال والتمركـز بشمال المغرب أثنـاء حرب الريف وخلال عمليات قمع ثورة أكتوبر 1934 بمنطقة مناجم أستورياس . ولذا هاهو الآن يدخل المجال السياسي لكن في حذر وحيطة دون جلبة أو ضوضاء . يتقرب اليه بعـض الساسة ويستشيرونه وهو يـزن الكلمات والحركات حتى لا يكشف عما يضمـر فبدا في صـورة العسكـري المنضبط الوفي لعهـده وقسمـه ، الثابت الـولاء لدولته ولـو كانت جمهورية يسـارية رغم أنه قبل وبعد كل شيء محسـوب منذ القديم على اليمينية واليمينيين .

وهكـذا تابع عن قـرب ، ومن مكتبـه بوزارة الـدفاع كل محاولات الانقـلاب التي حرض عليها وزير الدفاع خل روبلس خلال سنة 1935 ولكنه نصح بعدم تنفيذها

بحجة افتقادها أسباب وشروط النجاح وفي مقدمة تلك الشروط وحدة الجيش وتكتله حول فكرة واحدة ومبدأ واحد .

هل كان فرانكو مجدا حقا ومخلصا في نصحه أم كان يتحين الفرصة لنفسه فيبعد كل من بدا أنه سابقه إليها ؟ من العسير الإجابة عن هذا السؤال وعن أسئلة أخرى عديدة حول تردده إلى آخر لحظة في المشاركة في انتفاضة سنة 1936 حتى تحملها وتحمل مسؤولية إيقاد شرارتها الفريق مولا وحده وانضم فرانكو إلى الحركة في اليوم الموالي . فهل كان خائفا ؟ أو كان يعد بمفرده حركة لا يريد أن يفسدها عليه أحد ؟ أو هل كان يرى أن العوامل الضامنة للنجاح لم تتوفر ؟ أو هل كان يغار من رئاسة مولا أو رئاسة سان خورخو وتقدمهما عليه فيها وهو المحب للرئاسة والقيادة ؟ أم هي عدم ثقة في أولئك الزملاء وفي تمكنهم من قيادة السفينة إلى مرسى السلامة والنجاح ؟ هذه وغيرها أسئلة ستبقى لدينا دون جواب لأن السر قد ذهب به صاحبه ولانظن أنه قد باح به إلى أي من أوفيائه القليلين . أما ما كتب عنه حتى الآن ، وهو كثير منوع ، فلم يتعرض إلى ما يجيب عن هذه الاسئلة وغيرها بل ركزت معظم المؤلفات التي تمكنا من الاطلاع عليها ، على ثورية فرانكو وجعلت منه المنتفض الأول والقائد الأوحد للتمرد مبررة وطنيته وغيرته وتدينه جاعلة من تلك المشاعر الدافع الأوحد لتمرده وتحركاته . وهذا قد يكون طبيعيا منتظرا من كتاب موالين لفرانكو ونظامه أو كتبوا ونشروا في عهده وتحت رقابته لكن حتى ما قرأناه من كتب المعارضين له أو ذوي الاتجاه المعاكس لاتجاهه لم نجد فيها ما يجيب عن تلك التساؤلات .

ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت نواياه ومطامح فرانكو الخفية وما كان كامنا في خبايا نفسه بهذا الخصوص ، فإنه من المؤكد أن وصول الجبهة الشعبية إلى السلطة والشك في تآزر فرانسكو لارغو كابايارو مع الشيوعيين جعل فرانكو يصمم على وجوب العمل والتحرك ويفكر جديا في الانقلاب في شهر فبراير « شباط » لكنه يتراجع مرة أخرى متعللا بنفس الأسباب السابقة وهي وحدة الجيش الايديولوجية والسياسية . وهكذا بقي بين مد وجزر ، محافظا على صلته بزملائه المعدين للتمرد ومجتمعا بهم عديد المرات ومظهرا ولاءه للسلطة العليا وإخلاصه لوظيفته رغم شعوره بالألم لتعيينه حاكما عسكريا على جزر الكاناریاس معتبرا ذلك إبعادا له وشبه عقاب . وهناك في كناریاس جاءه نبأ التحرك ومن هناك تحرك هو أيضا كما رأينا عند الحديث عن الحرب وأطوار اندلاعها .

هذا في اختصار هو فـرانشسكو فرانكو الضابط الذى تحكم في مصير أسبـانيا قرابة أربعين عاما أي من شهر أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1939 إلى أن مـات يوم 20 نـــــوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1975 .

كان في نيتنا تخصيص باب للحديث عن شخصيـة فرانكو وتحليل نفسيته وعقليته وتكوينـه السياسي ومن ثم استنتاج مفهوم لتصرفـاته ومواقفـه ولكننا عدلنا خـوفا من الابتعاد عن غـاية هـذا الكتاب خاصـة وأن المؤلفات التي عـالجت شخصية فـرانكو عديدة وفيرة وصـدرت عن كتاب مختلفي الجنسيات واللغات والميـولات فيجعل هذا من اليسير على الراغب التزود بـالكثير من المعلومات والآراء حول هـذا " الكاوديّو " أي القائد .

أما تعريفه بمعنى إعطاء معادلة لـه فقد جادت كل الأقلام التي عنيت به وفاهت كل الشخصيات القريبة منـه والبعيدة عنه ، المناصرة له والمعاديـة بتعريفات متعددة بقدر ما هي مختلفة أو متباينة .

لقد عرفه الصحفي الشهير أميليو روميرو بأنـه " حدث تاريخي جاء مثل غيره من قبلـه لمحـاولـة إصـلاح الأوضـاع عنـدمـا عجـز السيـاسيـون عن ذلك وتعطلت أو استحـالت الديمقـراطية ، ثم انفـرد بالحكـم والـرأي وأصبحت أوتوقـراطية " . أمـا البرلماني رامون تامـامس أستاذ الاقتصاد بجامعـة مدريد وأحد زعماء اليسـار بأسبانيا فقد قـال : " إن فرانكـو كان نتيجة لتـاريخ أسبانيـا المتدهـورة " (48) . سئل مرة الأمير دون خوان آل بـوربون ، والـد الملك خوان كـارلوس ، سئل عـن فرانكـو فقال "ليس من السهل تشبيه فـرانكو "ومشابهته بسيـاسيين أوربيين معروفين ، بسياسيين أوربيين أو أميريكيين لأنـه أسباني أسـاسا وابن أرضـه أي جليقي . لـه ميزات هتلـر وموسوليني من حيث آرائه بخصوص الحكم الفـردي لكن له في ذلك أساليبه الخاصة منها تفـرقة الأعداء والخصـوم وفرض إرادته والاستغنـاء عن الآخرين . انـه مثلهما قد ارتأى من أول وهلة ملاءمة الحكم الفردي وفائدته " .

أما نحن فنرى فيه رجلا من أولئك الذين كبر طموحهم واختلط فيهم حب الذات بحب الـوطن حتى امتـزج الشعـوران لـديهم فأصبحـوا يـرون أن صـلاح الـوطن في

صلاحهم ومن رأى غير ذلك فهو خائن لا مكان لـه فينحّى وتنحيته تولد القمع ومن هنـا جاءت الـدكتاتـوريـة يغذيها فضـول الانتهـازيين وتطبيلهم . وها هي فلسفتـه وفلسفة أنصاره تقـول فتؤيد حكمنا " نحن حققنـا وحدة أسبانيا والأسبـان ولذا فان المعارضين لنا هم معارضون لأسبانيا ، وهم الخارج أو أعوانه " .



الفصل الثانى

عقود وخمسيات

هذا الرجل الطامح الطموح ، الذي عاش يشكو مركب قصر قامته وتفوقه في الدراسة والتكوين هو الذى قال " من يوم أن رقيت إلى رتبة فريق وأنا في الثالثة والثلاثين من عمري ، وضعت في دروب ذات مسؤوليات خطيرة بالنسبة للمستقبل . . كنت نظرا لسني وسمعتي مطالبا بتقديم خدمات ذات أهمية للوطن فأخذت في إعداد نفسي لذلك محللا التاريخ السياسي المعاصر ، دارسا تطور المصالح السياسية والقانون والاقتصاد السياسي ومتحدثا حول المشاكل الوطنية . كانت هذه الدراسة تدفعني للتمرد ضد الأساطير السياسية التى لم تكن تتحمل أي تحليل عميق ولكنها كانت مقبولة من الآخرين نتيجة كسلهم الذهني " . وهو الذي ظن ثم اعتقد أن الأقدار قد بعثته لإنقاذ بلاده فتربع على كرسي القيادة فيها حاكما بأمر ، ناهيا ، يسيرها ومن فيها حسب ما عن له وارتأى فجعل من أيام حكمه الطويل عهدا بارزا من عهود الحكم في أسبانيا ومرحلة تاريخية من أهم وأبرز مراحل التاريخ الأسباني لأنها رغم كل مساويها وأتعابها قد تولدت عنها وجاءت كنتيجة لها كل العوامل والمعطيات التي ستجعل ما كان مستحيلا في أسبانيا ممكنا فيحقق ما كان عسيرا تحقيقه وهو تعايش جميع الأسبان بمختلف أصولهم العرقية أو اللغوية وبمختلف مشاربهم العقائدية والسياسية تحت مظلة واحدة هي مظلة الدستور والديمقراطية .

وهذه المرحلة من التاريخ الأسباني ، التي أسميناها عهد فرانكو ، قد قسمها كثير من المؤرخين والكتاب إلى تقسيمات عدة . فمن جزأها إلى عقود وغيره إلى حكومات إلى غير ذلك من التقسيمات المعقولة المتماشية مع واقع تدرج الأحداث خلال هذا العهد حسب نظرة الكتاب اليها . أما نحن فقد ملنا إلى أبسط تجزئة وأسهل تقسيم متبعين مجرى الأحداث أيضا لكن في شكلها السياسي العام الذي طبع كل جزء أو مرحلة بطابع مميز عن الذي طبع المرحلة السابقة أو الموالية وهكذا وجدنا أن تقسيمنا ينتج خمسيات تكاد تكون نهاية كل منها حدا فاصلا ، ولو أن الأحداث والتطورات والتفاعلات في حياة الشعوب تبدأ وتنتهي تدريجيا فلا يمكن بأية حال إقامة حد لها معيّن إلا تعسفا وهذا ما كان منا ولكن غايتنا من وراء ذلك التقرب والوضوح .

من المعلوم أن الحرب الأهلية انتهت " رسميا " يوم أول أبريل ﴿ نيسان ﴾ عام

1939 . فهل يعتبر عهد فرانكو ابتداء من هذا التاريخ أو من يوم تشكيله أول حكومة برئاسته في أول فبراير ﴿ شباط ﴾ 1938 والحرب لم تزل إذاك في أوجها ، أو نعتبر عهده قد بدأ يوم سلم له زملاؤه رئاسة " مجلس الدفاع الوطني " فاستلمها يوم أول أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1936 ؟ .

نعم إن تأثير فرانكو المباشر والقوي في تسيير دفة الحكم قد بدأ مع هذا التاريخ الأخير ، لكن قبله وبعده كان له تأثير أيضا إلا أنه لم يكن تأثير الحاكم المفرد كما لم تكن سلطته على أسبانيا بأسرها بل انحصرت في ما خضع منها لاحتلال الجانب المتمرد المسمى بالوطنيين . ولذا سنعتبر عهد فرانكو قد بدأ مع نهاية الحرب الأهلية وإصداره آخر بيان لها يوم أول أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1939 فيكون تقسيمنا له يبدأ من سنة أربعين وينتهي بموت صاحبه في آخر سنة 1975 . وهكذا ستكون لدينا سبع خمسيات تميزت أولاها بمواصلة توطيد وتركيز النظام ولو أنها تميزت كذلك بعمليات " التطهير" وتصفية الحسابات من المهزومين والانتقام ممن اعتبروا أعداء أي من كانوا إلى جانب الجمهورية ولو لم يكونوا جمهوريين . كانت خمسية سعى فيها النظام الجديد إلى التغلب على الأوضاع والعمل من أجل البقاء . أما الخمسية الثانية الممتدة من سنة 1945 إلى سنة 1950 فهي خمسية العزلة والصراع الخارجي صراع سيعطي نتائجه خلال الخمسية الثالثة 1950 / 1955 التي استطاع النظام أثناءها وضع أقدامه في الأوساط والمنظمات الدولية العالمية . أتت بعد ذلك الخمسية الرابعة 1955 / 1960 ، خمسية التكنوقراطيين ، كما أسميناها ، إذ أبرز النشاطات فيها قام بها وزراء تميزوا بتقنيتهم وحنكتهم الفنية الاقتصادية أكثر من أية ميزة أخرى . وتلت ذلك الخمسية الخامسة ، 1960 / 1965 ، فكانت ثمرة مجهودات الخمسية السابقة فعرفت بمرحلة الانطلاقة نحو النمو الاقتصادي . وهكذا تأتى الخمسية السادسة 65 / 70 فتتميز بظهور المعارضة على السطح ، وهي التي لم تنعدم ، لأن المعارضة لا تحديد لبدايتها سوى بداية العامل الذي أدى اليها ولذا فان الإشارة إلى تاريخ معين ، عند الحديث عن المعارضة ، لايراد منه إلا تحديد الظروف التي أصبحت فيه المعارضة قوة ، إن لم تكن فعالة قادرة على التغيير أو فرض الإصلاح فهي على الأقل قوة متحركة في شيء من المعقولية والاستمرارية والانسجام ووضوح الهدف . لأن المعارضة في معناها المجرد البسيط ، موجودة دائما ولو في شكل سلبي صامت خاصة تحت الأنظمة التعسفية الظالمة .

ولذا فإن معارضة نظام فرانكو بـدأت معه ولم تنقطع ، وما نسبة خمسية معينة اليها سوى لبروزهـا وظهورهـا على الساحة بأكثـر وضوح وجـرأة . وختامـا تأتي الخمسية الأخيرة وهي خمسية الأفول والسقوط وانتهت كما رأينا بموت فرانكو في 20 نـــوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ سنة 1975 .

تعريف النظام : قبل أن نشرع في سرد بل إيجاز تاريخ هذه المرحلـة وإعطاء صورة ولو مصغـرة لها وذكر أهم أحداثهـا وانعكاسات هـذه الأحداث على الحياة الأسبـانية وتطورها تحت هذا النظام الذي سمي " الفرنكية " نسبة لفرانكو ارتأينا وجوب إعطاء تعريف لـه يمكن القارىء من تصوّره تصوّرا حقيقيـا كاملا لأنه ولأن بـدا لأول وهلة دكتاتـورية أو حكما فـرديا فقد اكتسى صبغـة خاصة ميـزته عن الأنظمـة المشابهة أو المتقاربة .

وقد قمنا ونحن نعـد لهذا الكتاب مواده ومعلوماته ، باستجـواب عدد من الزعماء والشخصيات التي برزت على مسرح الحيـاة السياسية الأسبانية خلال العقـود القريبة الماضية ، وطلبنا من كل منهم الاجابة أولا عن مجموعـة ثابتة من الأسئلة ثم الدخول في حوار عـن الأوضاع السـابقة والـراهنة فكانـت لقاءات مفيـدة جدا نشكـر عليها أصحـابها . أما الأسئلـة الثـابتـة الموحدة التي وجهت إلى كل مـن تكرم باستقبـالنا والأجوبة التي حصلنا عليها فقد جمعناها وضمنناها ملحقا لهذا الكتاب .

أول هذه الأسئلـة هو " كيـف تعرّف عهـد فرانكـو ؟ " فجاءت الأجـوبة عـديدة مختلفـة بـاختلاف أراء وميـولات المجيب وتحرره من العـاطفيـة والعصبيـة والتعصب والانجرار إلى الحكم التعسفي اللا متعقل .

إن السيد خوزي ماريـا دي أريلثا ، الدبلوماسي البارز ، المعـروف بميولاته لملكية القوية ، يعرف النظـام الفرنكي بقوله " انه نظام تولـد عن حرب أهلية وان كل نظام هذا مولـده معرض إلى أن يصبح دكتاتورية ومن الصعب أن تفضي أية دكتـاتورية إلى تحول سلمي نحو الديمقواطية ومن هنا جاء الإعجاب بالتحول الأسباني " (49) .

أما الأستاذ المؤرخ ريكـاردو دي لاثيارفا فقد تبنى تعريف أستـاذ آخر من مفكرى

النظام نفسه هو الأستاذ رودريغو فرنانـدث دي كارفاخال الذي وصف النظام بأنه " دكتاتـورية دستـورية انهائيـة " اعتمادا على القوانين التشريعيـة السبعة التي أصـدرها فرانكو على مدى سنـوات حكمه والتى كانت بمثابة الـدستور الذي تسير البلاد على ضوئه وفي خطه .

وألقينا نفس السؤال على الصحـافي المعروف السيد أنطونيو نوفـايس فقال " هناك تعـــريف مثالي وهو أن النظام دكتاتورية لينتها الثورة . أما أنا فأسميه سلطة فردية " ليس هـذا مايـراه السيـد فراغـا ايريبـارني زعيم اليمين والـوزير الأسبق في إحـدى حكـــومات فرانكـو . فهو يـرى أن نظام الكـاوديّـو هو النظـام الرمـزي للفصل بين عهدين .

نستطيع مواصلة نقل التعريفات إلى ما لا نهاية إذ هي كما قلنا كثيرة متعددة مختلفة أما نحن فنـرى فيه نظـاما جـاء نتيجة التعصب ورفض آراء الغير ، وزرع في أرض الحقد والضغينة مرويا بالـدم والدموع فأثمر التعسف والقمع . ومهما يكن من أمر ، فهو نظام استمـر أربعة عقود تقريبـا فبصم أسبانيا بطابعـه الخاص وأفضى ، خلافا لكل التكهنات ، وكل مخططات عمده وأنصـاره ، إلى نظام مخالف تماما ، مقام على الحريات والوفاق والتعايش . وقد لا نبعـد كثيرا عن الحقيقة إذا قلنا أن صاحب هذا النظام وعماده الـرئيسي ونعني فرانكو ذاته ، هـو الوحيد الذي كـان يعرف ويتيقن أن نظامه سـوف لن يستمر بعده وسوف يتعـرض إلى تغيير قد يكون جذريـا . فقد كان يقول لـلأمير خوان كـارلوس ، الـذي أصبح بعده ملكـا على أسبانيـا بموجب قـانون الخلافة الذي وضعه فرانكو نفسه ، " ان السلطة لها موارد تستجيب لكل شيء ، لأن السلطة تعطي واسع الحريـة للعمل والتحرك . إن فيهـا امكانـات كثيرة " . إن هذه العبارات ليست سوى اشارة أو إيعاز أو درس يـوحي بأن من يستلم السلطة بامكانه تغيير ما يشاء حتى ولو كـان نظام " الكاوديّو فرانكو " . وهذا مـا تم فعلا وما أقدم عليه وأنجزه الأمير بمجرد مبايعته ملكا على البلاد .

سنة التطهير : لكن لنتتبع الأحـداث ولا نسبقهـا ولنعـد إلى نهايـة الحرب ونتتبع الخطوات التي خطاها فـرانكو خلال السنة الفاصلة بين آخـر بيان عسكري له يعلن فيه نهاية الحرب وبين بداية الخمسية الأولى حسب تقسيمها سالف الذكر .

دخلت قـوات المتمردين " الـوطنيين " مدينـة مدريد العـاصمة منتصرة وبـذلك اعتبرت الحرب منتهية ولو أنها استمـرت لأيام قلائل في مدن السـاحل الشرقي بلنسية وأليكـانتي وقرطـاجنة ، وهي المراكـز والمواني التي خـرجت منها آخـر فلول القـوات الجمهورية وآخر قوادها ومناصريها نحو الهجرة والغربة والمستقبل المجهول .

انتهت الحرب وظن الشعب البسيط أن سـاعـة الخلاص قـد دقت وتحت تأثير الدعايـة أمن السواد الأعظم منه بأن ساعة نصر قـوى الخير على قوى الشر قد حلت وحتى بعض جنـود الجمهـوريـة والكثيرين مـن أهـاليهم قـد وصل بهم الظن بأن " الجانب الآخـر ليس شيئا كما كـانـوا يعتقدون أو كما كـان يقال لهم " . وزاد في هـذا الاستبشار الـواسع النطاق تصـديق الكثيرين للشعار الـذي لوّح بـه فرانكـو وأجهزة دعايتـه وهو " لا بيت بـلا نار ولا أسباني بـلا خبز " ففـرح الجميع بالـدفء الموعود والشبع المنتظر .

أما فـرانكو ، وقـد أصبح الرجل الأول والحاكم المطلـق بدون منازع ، فقـد انكب ورجاله على طمأنة النفوس لكسب الأنصار والمؤيدين ، وتوطيد أركان النظام الجديد بما يحتاجه من قوانين واجراءات وتنظيمات . فمنذ اليوم الأول لنهاية الحرب أي من يوم أول أبريـل « نيسان » 1939 الـــى أول شهر سبتمبر « أيلـول » جاب فـرانكو معظم المناطق التي عرفت بولائها للجمهوريـة وبمعارضتها له وحاول خلال الأشهر الخمسية تلك ، شرح غاياته وأهدافه واعدا بكل خير ومبشرا بالسعادة والرفاه ، فكان يـؤثر على الجماهير التي تجلب لسماعـه " رغم افتقاره لسليقـة الخطابـة ورغم ضعف وأنوثة صوته " .

إلا أن خطابات الإقناع هـذه وأبواق وطبول الدعاية كانت مرفـوقة بالانتقام والجزر والتأديب والقمع . فـالمحتشدات الكثيرة المرتجلة غصت بجنـود الجمهوريـة وعمداء البلديات والمستشارين والضباط والقادة النقابيين ومسيري المنظمات وكل من يوسم ، إن حقـا أو بـاطـلا ، بصلتـه وولائه أو انتمائه لأية مـؤسسـة أو هيأة أو إدارة تـابعـة للجمهورية . إن العذاب والشدائد التي كانـت تنزل بمعصارها على شقي أسبانيا ، أصبحت الآن تسير في اتجاه واحـد وتنـزل على شق واحد فقط حتى أن رافـاييل أبيبـا كتب يقول " كان الألم في جانب واحد كما لـو أن أسبانيا واحدة فقط كان لها الحق في

أن تبكي موتـاها جهارا وأن تـرفع إلى الملاء عظمة خسـائرها ، بينما أسبانيـا الأخرى لم يكن لها الحق إلا في الصمت والاعتراف بـالـذنب " . لكن حتى الصمـت قـد منع أحيـانا لأن النصر والسلم قـد أصبحا بـالنسبـة لعدد كبير جـدا من الأسبان يعـادل السجـون والمحتشـدات والمحـاكم الحربيـة المستعجلة وطـوابير تنفيـذ الإعـدام . إن عمليـات " التطهير " التي ستستمـر طويـلا وعمليـات القمع التي ستتـواصل هي الأخرى قد بلغـت حدودا لا توصف وقد تعطي عنهـا صورة ولو باهتـة ، آخر أبيات الشاعر الأسباني الكبير ميغـال هيرناندث " الذي مات سجينا وهـو في ريعان شبابه بعد أن حصده منجل القمع والحقد . لقد مات وهـو يقول " كانت السجون تزحف وسط رطوبة العالم ، كانت تتثاقـل عبر الدروب المظلمة في اتجاه المحاكم ، باحثة عن رجل ، باحثة عن شعب ، تلاحقه ، تمتصه وتبتلعه " .

هكذا يـوصف العام الأول مـن عهد فـرانكو من النـاحية السياسيـة بل الإنسـانية البحتـة . وهو أيضـا عـام التنظيم والتنصيب والشروع في إعطـاء البـلاد مؤسسـاتها الضرورية لإدارة دواليبها وذلك بإصدار التشريعـات والقوانين وهي عملية ستتواصل على مدى مـا يزيد عن العقـدين إذ انتهت عملية التأسيس أو وضع ما يسمى بـــ " القوانين التأسيسية " في شهر يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1967 بإصدار القانون الاساسي للـدولـة الــذي سبق نشره اجـراء استفتـاء بشأنــه وكـان ذلك خلال شهـــــــ/ ر ديسمـــــبر ﴿ كانون أول ﴾ من سنة 1966 .

والجدير بالتذكير والملاحظة هو أن هذه التشريعات والقوانين كانت توضع وتصدر بأمر ورأي وحسب أهـواء فرانكو وحـده لأنه القائد الأوحـد والرئيس الأعلى والحاكم المطلق بموجب قوانين عمل استصدره من زملائه ورفقائه إبان الحرب فأسدل الشرعية على اللاشرعية . فقد عين ، كما رأينا سلفا ، رئيسا للدولة الأسبانية عندما " بايعه " رفقاؤه بمدينة برغش سنة 1936 ، وهو رئيس الـدولة والحكومة معا بموجب القانون الصادر في 30 من يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1938 وكما لو لم يكن كل هذا كافيا فقـــد أصــدر في 8 أغسطس ﴿ آب ﴾ 1939 قانـونـا يعطيه صـلاحيـة تعدي مـداولات وقرارات مجلس الوزراء وموافقته وإصدار ما عنّ له مباشرة .

على مثل هـذه الأسس سيقام هـذا النظام الـذي سنستعرض مـراحله خمسيـة بعد خمسيـة لكن قبـل الشروع في ذلك يجب التـذكير بأنــه مـا أن انتهت الحرب الأهليـة

الأسبانية ، أي ما أن أخذ نظام فرانكو في تركيز نفسه وتنظيم البلاد حسب أهواء القائد ، حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية فوضعت الحكومة الأسبانية وأسبانيا في وضع حرج دقيق سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . فالمنتصرون الحاكمون في البلاد آنذاك كانوا من الناحية الفعلية حلفاء النازية الألمانية والفاشستية الإيطالية اللتين قدمتا لهم أثناء حربهم كبير المساعدات وعظيم التأييد . وكانت البلاد من الناحية الاقتصادية في أشد الحاجة إلى بعث اقتصادها ومؤسساته التي قضت الحرب على بعضها وقضى التغيير السياسي والمذهبي على بعضها الآخر فكان لابد من مجهود جبار لأحياء الأراضي المهملة وترميم أو بناء المصانع المدمرة وبعث الحياة في الحركة التجارية . أما من الناحية الاجتماعية فالحمل أثقل والمشاكل أصعب إذ كانت البيوت والمدارس والمستشفيات أطلالا خربة وآلاف ملايين المواطنين يشكون الفاقة للمأكل والملبس والمسكن ويبحثون بلا طائل عن عمل ، وعن خدمات طبية تخفف الألم وتبعد الوباء .

الفصل الثالث

الصراع من أجل البقاء

بمثل هذه الأوضاع الصعبة داخليا وخارجيا استقبل عهد فرانكو خمسيته الأولى التي ستكون خمسية العمل من أجل البقاء وتركيز النظام . لقد أشرنا إلى الشدة والقوة والتعسف التي استعملها النظام وأصحابه ضد جانب كبير جدا من المواطنين وهي تصرفات استمرت على طول الخمسية الأولى بكل عنف وبلاهوادة . يقول روبرت غراهام في كتابه " تشريح ديمقراطية " إن " موجة القمع التي دامت واستمرت قرابة العشر سنوات ابتداء من نهاية الحرب ، قد ذهب ضحيتها عدة آلاف من الأشخاص . كانت الصحافة مراقبة خاضعة ، وعدة مظاهر من الحياة أصبحت عسكرية ، وأخذت العدالة العسكرية على عاتقها جرائم توهمتها موجهة ضد النظام بينما مقاليد السلطة قد أمسكت بها يدا شخص واحد هو فرانكو . وهكذا كانت أسبانيا خلال السنوات الأولى دكتاتورية فاشستية " . ديكتاتورية مأخوذ على فرانكو فيها أنه لم يظهر أية شفقة ولارحمة كما لم يظهر شهامة ولاعفوا عند المقدرة . فهو وأنصاره لم يعتبروا الحرب أهلية بل هي حرب صليبية ضد قوى الشر وضد الشيوعية والماسونيين والمتهترين . أليس فرانكو هو القائل " يجب اعادة تنصير ذلك الجانب من الشعب الذي أرتد بفعل سموم عقائد هدامة ؟ ولـذا جاء القمع " ليطهر" البلاد من كل تلك الأوبئة حتى أن عدد ضحايا هذا " التطهير " قد بلغ نصف مليون ضحية . أما الآلام والفواجع والمواجع والاهانات فلا حصر لها ولا وصف حتى أنه إلى غاية سنة 1980 كان من بين الأسبان من لا يزال يبحث عن أهله . ولو صدقنا ما جاء في مذكرات الكونت تشيانو ، وزير خارجية إيطاليا الفاشستية وصهر موسوليني ، فإن الفوضى والأخذ بالثأر والانتقام الشخصي قد أودت بما يتراوح بين المائتين والمائتين وخمسين ضحية يوميا . كان يبعث باليساريين أو بكل من يوصف بأنه " أحمر " إلى المحتشدات والمعسكرات والأشغال الشاقة بالمناجم وحظائر الشغل مثل أشغال بناء مقبرة الشهداء ﴿ فايي دي لويس كاييدوس ﴾ في منطقة جبلية على مقربة من مدريد (50) .

وإذا تركنا القمع والظلم والحيف وغير ذلك مما كان يرتكب باسم استتباب النظام والأمن ، وجدنا أن فرانكو قد كرس الجانب الأكبر من هذه السنوات الخمس في

إصـدار القوانين والمراسيم لتـوطيـد ملكـه . فعلى مدى سنتين تقـريبـا تتالى إصـدار القوانين القمعية من جهة والرامية لإعادة بناء الدولة من جهة أخرى ، بنائها من أعلى إلى تحت دون أهمال أيـة إدارة أو مصلحة . فمن الأركـان العـامـة إلى المعهد الـوطني للصناعـة مرورا بمجلس الاقتصاد الـوطني ، كل دواليب الدولة خضعت للتحـوير والتغيير و إزالة من فيها وتعويضهم بمن تأكـد ولاءهم وكان معظمهم آتيا من الجيش الذي أشركه فرانكـو في كل مظاهر الحياة وقطاعاتها إلى آخر يـوم من حياته أو آتيا من الكتائب . إلا أنه فى كل هذا ستتركز الحركة القوية في العمل على خلق " ازدواجية " أجهزة الدولة بأجهزة أخرى تابعـة " للحركة " التي ليست سوى حزب الكتائب بعد أن غيرت هيـاكله وحـوّرت فلسفته فأصبـح حزب النظـام الأحد وأصبحت فلسفتـه ومنهجه وأسلوبه ما أراده فرانكو الذي أصبح بالطبع الرئيس الأعلى للكتائب مفضلا تسميتهـا " حركـة " لأنه كـان يبغض ويخشى كل ما هـو حزب أو مـاشابـه ذلك . وهكذا سميت هذه الحركة " الكتائب الأسبانية التقليدية والمجالس الهجومية الوطنية النقابية " وصارت ، وهي ما أصبحت عليـه ، الاطار المذهبى السياسى الذي ارتكز عليه نظـام فرانكو ، وألهي به فـرانكو أنصاره والشعب والكل كـان من تدبير وتنظيم صهره رامون سيرانو الذي تـولى أيضا مقاليد السياسة الخارجية وعرف بميـوله للنازية الألمانية .

لاحاجة للتذكير بأن سلطة فـرانكو داخل وعلى الحزب أو " الحـركة " كانت مطلقة " مقننة مشروعة " . فقد رأينا كيف حصل عن طـريق قانون 8 أغسطـس ﴿ آب ﴾ 1939 على مطلق السلطة للتشريع و إصدار القوانين طبقا للبند السابع من القانون المشار اليه والذي جاء فيـه أن " لرئيس الدولة الحق في كامل السلطة وأسماها لإملاء الأوامر القانونية ذات الصبغة العامة . . . وتتمركـز فيه بصفة مستمرة دائمة صلاحيات ومراسيمه وقراراته التي تأخـذ كلها شكل قوانين تكون سارية المفعول ولو لم تمر مسبقا على مداولات مجلس الوزراء وذلك إذا دعت أسباب مستعجلة " .

كـذلك سيكـون وضعه في الحزب بـل فوق الحزب الـذي جـاء قـانونـه الأسـاسي ليضاعف من سلطات فرانكو ويعززهـا . فهو " الزعيم الوطني " ، " المسؤول أمام اللـه والتـاريخ وفيـه تتجسم كل القيم وكل الشرف " ، شرف الحركـة التـي من صلاحياته أيضا تعيين خلفه على رأسها .

ولم يفت فرانكو ولا مساعدوه الـذين وضعوا كل هذه القوانين والتنظيمات أن يترك الباب مفتوحا أمام إمكـانية عودة الملكية ، لكن لا تلك التي سقطت قبل سنوات ، بل أحداث ملكية جديدة ولو من نفس السلاسة التي منها الملكية التي سقطت سنة 1931 . وبهذه الحيلة والتلاعب بالكلمات وضع أحبولـة وقع فيها خصومه الملكيون ورد بها عن نفسه الكثير مما كان يمكن أن يلحقـه نتيجة تحركات الملكيين ، من بينهم عدد من زملائه في السلاح وخاصة منهم الـوريث الشرعي المطالب بالعرش الأسباني آنذاك الأمير دون خوان آل بوربـون الذى سنفرد له ولحركته وتعاملـه مع فرانكو فصلا خاصا ولـو موجزا لأن تحرك دون خوان كان له في نظـرنا تأثير كبير على الأحداث التي انتهت بعودة الملكية ولو أنها تعدته لتتجسم في ابنه خوان كارلوس الملك الحالي .

إن النشاط النقابي قد أحرز هو الآخر على اهتمام وعناية واضعي أسس النظام لأنه هـو الآخر قـوة يجب أن تروض وتـوضع تحت مظلة السلطـة العليا . لهذه الأغـراض ولغيرها أصدر قـانون الوحدة النقابيـة في شهر يناير «كانـون ثان» 1940 فقضي به على التعددية وعلى حق الإضـراب وغيره من الحقوق المعترف بها للعمال . ولحق ذلك قانون أسس التنظيم النقابي الصادر فـي شهـــــر ديسمبر « كانون أول » 1940 الذي جعل من أسبـانيا " نقابـة منتجين عظيمة " وأعطى الكتـائب حق رئاسة كل الهيئات عن طريق نيابتها الوطنية النقابية (51) . وينص القانون أيضا على أن رئيس كل نقـابة وطنيـة يعين من طـرف القيـادة الوطنيـة للحـركة - أي لحزب الكتـائب - وبـذلك وضعت النقابـة فعـلا ومباشرة تحت هيمنـة الحزب خـاصة وأن كل القـادة النقابيين وعلى كل المستويات يتم تعيينهم من طرف قادة الكتائب حسب ترتيبهم .

وطبيعي أيضـا أن ينـال الشباب ومـا إليـه ، حظه الكبير مـن العنايـة والتقنين ، فأمليت في أواخـر نفس السنـة ، تعليمات وقـوانين تنظيم جبهـة الشبـاب بغيـة ضم الطفولة والشبـاب وتكوينهم تكوينا عقائديـا يتماشى والنظام . كما تضاعف الاهتمام بالفرع النسائى للكتائب « الحركة » وتقويته وتنظيم ميليشيا الكتائب .

وطبيعي أيضا أن لا يهمل الأمن الذي ، بالاضافة إلى كل القوانين السابقة الصادر معظمها أثناء الحرب والأحوال الاستثنائية وبقيت سـارية المفعول بالرغم من السلم و " الحياة الجديدة " التي وعـد بها المواطنون ، سيعرف صدور قـوانين جديدة من

شدة الرقـابة وكابوس الشرطة ورجال الأمن . وهكـذا أصدر فى أول مارس ﴿ آذار ﴾ 1940 قانـون " قمع الماصونية والشيـوعية " وكان قانـونا ذا مفعول رجعي تـلاه سنة 1941 قانون آخر هو قانون أمن الدولة .

أمـا الجانب الديني للنظـام فقد رأينـا كيف أنـه منذ البـداية ، ومن الأيـام الأولى للحرب ، قد جعل فرانكو وصحبه منها حربا صليبية تبشيرية لإنقاذ الوطن من أيدي " الملحديـــن الكفرة " واستمـر هـذا المخطط والأسلـوب طيلة عهـد فـرانكو وبـلا هوادة . فلم يكن إذن في حاجة إلى طلب تأييد الكنيسة أو مساعدتها إذ هي منه واليه وهي واقفة إلى جـانبه وقفـة حازمـة مستمرة مشاركـة إياه في الـرقابـة والتربية والقمع الأخلاقي .

بكل هذا ، وغيره كثير ، أقيمت دولة هياكلها وقوانينها تتماشى ونوعيتها وهي دولة ذات السلطة المطلقة وهذا ما يؤكد باستمرار في مقدمات القوانين والنصوص الرسمية وحتى في الخطابات الرسمية .

وضعت إذن الأسس الأولى للنظام وكانت أسسا ثلاثة هـــي الجيش والحـركـــة ﴿ حـــزب الكتائب ﴾ والكنيسة ، وفوق الكل " كاوديّو " أي القائد الذى لم يوزع السلطات بعـد نهاية الحرب بل زاد في تـركيزهـا في شخصه وبيـديه محافظـا على توازن تفرضه الظـروف ، بين الثالوث جيش ، حركة ، كنيسة ، سـادًا الطريق أمام كل من قد يحاول القيام بمعارضة ولو شكلية تجلب حوله تيارا مناهضا للقائد . ولذا بني دوما اختياراته وتعيينـاته على الولاء له وجعل مـن الوفاء لشخصه شرطـا أساسيا للتعيين في أي منصب . كـان من الطبيعى إذن أن يحتل العسكريـون أعظم نسبة من الـوزارات والمصـالح العـامـــة لقـربهم منـه ومعـرفتـه لهم ولخوفـه المشـط من السيـاسيين ومن الديمقراطية معتبرا بما آل اليه النظامان السابقـان لنظامه بسبب الساسة والديمقراطية ولانقطاع حماس الجماهير والقاعدة وأبتعادها عن النظام بينما هي أساس وجوده .

فى هذه الأثناء ، قامت كما رأينا ، الحرب العالمية الثانية ، فألقت بالنظام في وضع لايحسد عليـه . فالبلاد مهدمـة محطمة تحتاج إلى إعادة بنـاء وتعمير ، والشعب ممزق مشتت جائع عار مشرد ، يحتـاج إلى المأكل والملبس والمسكن والشغل ، والعالم حول

أسبانيا قد انقسم إلى جبهتين متحاربتين منشغلتين عن أسبانيا وحاجياتها الملحة . ثم إن أسبانيا هذه محسوبة ، بحكم قادتها الجدد ، على إحدى الجبهتين ، جبهة المحور المكونة من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية فاليابان .

لكن بعد الدهشة والحيرة ، أخذ المتخصصون ، وفي مقدمتهم فرانكو نفسه وصهره رامون سيرانو سونيار الذي كان في الوقت نفسه الفكر الايديولوجي للنظام وزيرا للخارجية ، في إعداد مخطط واتخاذ موقف يتناسب والظروف فانتهى الأمر إلى اعتناق مبدإ الحياد ، حياد تتزعمه أسبانيا للبحث عن حل يسوّى الخلاف بين المتحاربين لكن لم يلاق هذا الموقف اهتماما ولا اعتبارا من المعنيين فتغير الحياد إلى " عدم المشاركة في الحرب " وهو موقف يفتقد إلى الوضوح والجلاء ، أساسه ، كما هي العادة لدى فرانكو ، التلاعب بالألفاظ وعدم الافصاح عن كوامن النفس ولو أنه زل مرة واحدة وعبر بوضوح عن استعداد أسبانيا للدخول في الحرب ، إلى جانب ألمانيا طبعا ، وذلك فى رسالة بعث بها إلى هتلر يوم 14 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1940 يعبر فيها عن رغبته في عدم البقاء على جانب إذا كان " الفوهرر " في حاجة لذلك (52) لكن يظهر هنا أيضا أسلوب فرانكو المناور لأنه قد ربط استعداده بوجوب أعطاء أسبانيا فترة استعداد وتحضير تقدم لها أثناءها ألمانيا مساعدات من عتاد ومؤونة .

هل كان فرانكو فعلا ينوي الدخول في الحرب إلى جانب ألمانيا؟ أم هي مجرد حيلة يطمئن بها حليفه ويغنم من ورائها معونة بلاده في أشد الحاجة إليها وهي في الوقت نفسه ربحا للوقت ؟

تبقى هذه الأسئلة هي الأخرى دون جواب شاف ولو أن الدلائل تجعل المرء يميل إلى صدق النية في المشاركة لتجانس الأنظمة وتقارب الأفكار وتشابه الأساليب ولقائمة من المطالب أرفقت بعرض الدخول فى الحرب إلى جانب المحور تشمل الرغبة في احتلال المغرب ومنطقة وهران بالجزائر والصحراء الغربية وتمد يد السلطة الأسبانية على ساحل غينيا إلى مصب نهر النيجر . مهما يكن من أمر فان عرض فرانكو قد قوبل ببرود وتحفظ من جانب الألمان ولو أنهم لم يهملوا تماما اقحام أسبانيا في الحرب لأهمية موقعها الاستراتيجي ولذا فقد اغتنم " هانرش هملر " الرئيس الأعلى لكل فروع الشرطة الألمانية النازية زيارة أداها لمدريد بدعوة من سيرانو سونيار ، ليدعو بدوره

فرانكو لمقابلة هتلر ، وتمت المقابلة يوم 23 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1940 بمدينة هندايا على الحدود الأسبانية الفرنسية . تقابل فرانكو أيضا مع موسوليني الذي دعاه هو أيضا ، ورغم كره فرانكو السفر إلى الخارج فقد تحوّل صحبة وفد كبير من أعوانه وأعضاده إلى مدينة " بورد يغيرا " وفي " فيلا مارغاريتا " دار اللقاء التاريخي بين الدكتاتوريين وهو لقاء سيسفر ، مثل اللقاء مع هتلر ، على لا شيء له قيمته بالنسبة لفرانكو .

رجع فرانكو من اللقاءين بخفي حنين ، وماربح منهما سوى تأكيد ارتباطه بالمحور وتوسع نشاط النازية الدعائي والجاسوسي بالأراضي الأسبانية وانطلاقا منها .

رغم هذا لم يلق فرانكو السلاح وواصل ، بمعية أعضاده يتقدمهم سيرانو سونيار الذي كان وزيرا للخارجية ، البحث عن طريقة للأحراز عن رضا هتلر والمشاركة في الحرب حسب رغبة وشروط الجانب الأسباني . كان فرانكو والكثيرون من مساعديه يؤمنون ايمانا قاطعا بانتصار المحور وعلى رأسه ألمانيا النازية ولذا كان لابد من البحث عن وسيلة للحصول على " عضوية نادي المنتصرين " للتمكن من الجلوس حول المائدة يوم اقتسام الغنيمة . ولذا وقع فرانكو مع هتلر بروتوكولا سريا على انضمامه إلى الحلف الثلاثي متعهدا دخول الحرب إلى جانب قوات المحور بعد أن تكون هذه قد قدمت له المساعدات العسكرية ويقرر تاريخ المشاركة باتفاق الأطراف الثلاثة مع الأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات العسكرية المشار اليها آنفا . لكن رغم هذا فإن فرانكو لم يكن ليترك حيطته ومناورته لأنه يخاف لو دخل حربا طويلة سيصعب على الشعب الأسباني تحملها وهو الخارج من حرب أهلية دامية ومن ثم فهو يخاف على نظامه من جراء مغامرة كهذه . فهو كما يقول المثل العامي كان " يريد الحج والسلامة " وسيخسر الأثنين .

لقد جاء هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي فرصة ليظهر المسؤولون الأسبان تحمسهم لسياسة وخطوات هتلر ليبرزوا تصميمهم على مكافحة الشيوعية حيث هي فقرروا المشاركة في الحملة ضد روسيا ، لكن بعد الأخذ والرد وبعد الوصول إلى حافة دخول الحرب مباشرة ، تقرر تكوين فرقة من المتطوعين ألح العسكريون على أن تكون تحت قيادة البعض منهم وهكذا كان ففي يوم 13 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1941

غادرت أسبانيا فرقة المتطوعين الأسبانية ﴿ الفرقة الزرقاء كما سماها الكتائبيون فعرفت بهذا الاسم ﴾ وكانت تضم قرابة 19 ألف رجل بين قادة وضباط وجنود .

كان فرانكو كما قلنا ، يؤمن مثل الكثيرين من مستشاريه بالفوز وانتصار المحور الا أن هذا لم يمنعه من المحافظة على حيطته الطبيعية وحذره المعتاد فأبرم مع البرتغال اتفاقا يقضي بتكوين كتلة أيبيرية ﴿ أسبانيا والبرتغال ﴾ للدفاع المشترك ، وأبلغ الولايات المتحدة موافقته على انزال القوات الحليفة بأسبانيا لأنه صدق الإشاعات التي روجها الحلفاء حول احتمال إنزال في أسبانيا لغزو أوربا وما كانت تلك الإشاعات سوى تحويل للأنظار لأن الانزال تقرر أن يكون في شمال أفريقيا وذلك ما تم فعلا يوم 8 نوفمبر﴿ تشرين ثان ﴾ 1942 .

فالواضح إذن هو أن فرانكو وصحبه كانوا يميلون إلى قوات المحور ويتعاطفون معها ومع سياستها وأساليبها وكانوا يؤمنون بنصرها إلا أنه كما يقال و ما بالطبع لا يتغير ، وفرانكو سيزيد في تأكيد هذه القاعدة لأنه في هذه الحالة أيضا سيخضع لطبعه الحذر المتلاعب فيضع الجسور ، ولو كانت واهية ، في اتجاه الحلفاء الذين قد تدور العجلة لصالحهم وينتصرون . لكن هذا التلاعب سوف لا يجديه كثيرا لأن الحلفاء قد صنفوه ووضعوه ونظامه في جانب المحور وسيقفون منه موقفا مناسبا لميولاته كما سنرى في ما بعد .

لكن في الوقت الحاضر ، أي والحرب جارية فان الطرفين المتقابلين في حاجة لأسبانيا ولذا ضغط كل منهما يبغي فصلها وقطيعتها عن الآخر . وبعد لأي نجح رئيس الحكومة البريطانية عن طريق سفيره في إبعاد فرانكو وبلاده ولو قليلا ، عن ألمانيا فتغير " عدم دخول الحرب " إلى " حياد " وانقطع مد ألمانيا بمعدن " التنغستين " ﴿ فولفرام ﴾ وتزويد بريطانيا به وأغلقت القنصلية الألمانية بطنجة وأطرد عدد من الأعوان الألمان ﴿ جواسيس ﴾ وكل هذا مقابل تعزيز التبادل التجاري مع بريطانيا وكذلك مع الولايات المتحدة التي وعدت بالترخيص لعدد من كبريات شركاتها مثل " الجنرال ألكتريك " و " وستنغهاوس " و " أ. ت. ت. " بالاستثمار في أسبانيا والتعاون مع الشركات المحلية المماثلة وقد تم ذلك فعلا .

قام فرانكو بكل هذا في سبيل ضمان مركزه وبقائه في السلطة وكذلك المحافظة على نظامه الذي سيواصل توطيد أركانه بإصدار المزيد من القوانين واحداث المزيد من المؤسسات من ذلك أحداث مدرسة الصحافة ، وكلية العلوم السياسية والاقتصادية سنة 1942 وإصدار قانون تكوين " لاس كورتيس " ﴿ البرلمان ﴾ في 17 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1942 وهو قانون جعل من هذه المؤسسة هيكلا آخر يضفي الشرعية على سلطة فرانكو الذي احتفظ لنفسه ، لا بحق تعيين أعضاء مكتب البرلمان فحسب ، بل بتعيين نسبة كبيرة من النواب الذين سيسجلون فيه بحكم مناصبهم الوزارية أو غيرها في الإدارة العامة و" الحركة " وما هو أهم ، حقه في إسدال الصلاحية أو عدمها على القوانين التي يشرعها المجلس .

لكن مهما يكن من أمر ، فهذا البرلمان الفاقد للأسس الديمقراطية في تكوينه قد أسدل على الدولة رداء من الشرعية والانتظام فخفف من وطأة التهمة والضغط الموجهين ضدها من الخارج والقائلة بأنها دولة التعسف والأمر الواقع .

بهذا البرلمان وبغيره من المؤسسات واصل فرانكو تركيز دولته الجديدة ولو أن هذه السنوات سيواجه فيها صراعا ذا بال بين مختلف التيارات والاتجاهات التي يبحث كل منها عن احتلال مكان بارز مميز تحت شمس فرانكو داخل أجهزة دولته . لم يكن ذلك ليخفي على حصافة فرانكو ولا على ذكائه فجعل يناور كعادته ويقرب ويبعد ، وسلاحه القوى في كل ذلك هو التحويرات الوزارية التي اعتبرت دائما مؤشرا لميولاته في تلك الآونة . ومنذ السنة الأولى لهذه الخمسية قرب اليه رجلا سيبقى إلى أن " نسف " بعملية ارهابية ، عضده الأقرب والأوفى والأخلص ونعنى الأميرالاى " لويس كاريرو بلانكو " الذي عينه في 5 مايو ﴿ أيار ﴾ 1941 كاتب دولة للرئاسة أي المحرك الرئيسي والمساعد الأساسي لفرانكو في مهمته كرئيس حكومة .

وخلاصة القول هو أن هذه الخمسية كانت فترة البحث عن مكان وسط اللعبة السياسية والحربية العالمية وكانت فترة تركيز النظام واقامة أسس الدولة ، هذه الدولة التي ستعرف خلال هذه السنوات بدولة الـ 145 ألف سجين سياسي ، ودولة الالاف من العمال المسخرين اجباريا ودولة الجوع والسوق السوداء ومستثمريها الذين أثروا على حساب جوع وفاقة السواد الأعظم من الشعب . وهي أيضا فترة الرقابة

الشديدة المشطة على الصحافة وغيرهـا وما ترتب عنها من تعيين وفرض مدراء الجرائد على أصحابها وفترة عودة أصحاب رؤوس الأموال إلى هيمنتهم ونفوذهم . وهي أيضا فترة تركيز النظام واحكام ربطه حتى يسير في الطريق " السوى " الطريق الذي رسمه فرانكو والذي جعل الوجود الأسبـاني منحصرا داخل الهيكل الذي بناه ونظمه سيرانو سونيار والذي تلخص في شعار من ثلاث كلمات هي : دولة ووطن وزعيم .

الفصل الرابع

العـزلـة

تتناسب الخمسية الثانية مع نهاية الحرب العالمية وانهيار فزوال المحور وزعمائه . وهي خمسية ليست أحسن من سابقتها بالنسبة لنظام فرانكو على الصعيد الداخلي . فالجدب والجفاف قد امتد إليها وأجبراها على استيراد القموح ومواد أساسية أخرى مثل النفط والقطن والسماد . لم يكن من السهل الحصول على تلك الحاجيات لتأثير الحرب من جهة ولمقاطعة أسبانيا من طرف معظم الدول فلم تجد رحمة وعونا إلا من قبل الجمهورية الفضية التي مدتها بالحبوب واللحوم . وطبيعي والحالة تلك أن تستمر المجاعة وأن تحاول اليد العاملة العودة إلى الزراعة في نفس الوقت الذي يهاجر فيه الكثيرون من القرى إلى العواصم الكبيرة للعمل في قطاع الخدمات .

كل هذا سيدفع المعارضين وغير الراضين إلى التحرك والنشاط ولو في نطاق محدود إلا أنه كاف ليوقظ عين فرانكو التي لم تنم والتي واصلت تسليط نظراتها وضرباتها إلى من أراد له حظه التعيس أن تكون له صلة قرابة أو رأي أو موقف يحلو لأي أن يصفه بالمعاداة للنظام أو بعدم التحمس له أو بالميل إلى " الحمر " وأعوانهم .

ورغم هذا فان المنظمات العمالية أو ما تبقى من رجالها قد تآزروا وتحركوا فطبعوا سريا جرائدهم ، في شكل مناشير ، ووزعوها على نطاق واسع فتعرضوا كما هو طبيعي للإيقاف فالسجن والتعذيب .

وتحرك كذلك قادة الاتحاد الجامعي المدرسي وحاولوا القيام بنشاط معارض ولكن سرعان ما سقطوا في فخ الشرطة وأوقفوا ليعرفوا المصير المنتظر لكل معارض . تحرك أيضا اتحاد المثقفين الأحرار الذي تأسس في شهر نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ سنة 1944 وأصدر منشورات أسبوعية وشهرية استمر صدورها بانتظام إلى سنة 1947 .

قد لا تكون هذه المعارضة ، أو هذه المحاولات لتعجز فرانكو الذي قد متن جهازه بل أجهزته الأمنية الشرطية أيما تمتين فلم يعد يخشى على نفسه ولا على نظامه في ذلك الوقت على الأقل . لكن تحركات الملكيين وعلى رأسهم الأمير دون خوان ، ووريث

التاج وولي العهد المطالب بالعرش ستقلق فرانكو وتقض مضجعه وستتطلب منه ، لدرء أخطارها ، كل حنكته وحيلته ومقدرته على التلاعب والمناورة . فالأمير دون خوان آل بربون قد وجه لفرانكو رسالة يقترح فيها نقل السلطات ويشير إلى ضرورة عودة الملكية لاعادة توحيد أسبانيا (53) . وقام أيضا سبعة وعشرون نائبا بالبرلمان « لاس كورتس » وكلهم من الجانب المنتصر طبعا ، بتوجيه عريضة لفرانكو يطالبون فيها بعودة الملكية بالاضافة إلى ظهور مناشير سرية وزعت في كامل البلاد تطالب هي الأخرى بانهاء حكم فرانكو وعودة الملكية ، بينما أصدر الأمير دون خوان من مدينة لوزان السويسرية ، بيانا بتاريخ 9 مارس « آذار » 1945 يصف فيه النظام بعدم الشرعية ويلح على وجوب عودة الملكية ، ملكية ستكون دستورية تظلل كل الشعب بمظلة القانون .

ولعل أخطر هذه التحركات في نظر فرانكو هو تأييد بعض الضباط السامين ممن برزوا أثناء الحرب وهم يقاتلون إلى جانبه ، تأييدهم لهذا التيار المعادي والمطالب بعودة الملكية والذي لم يعد تيارا " خارجيا " أو معارضة " الحمر " المهزومين بل هو يضم رجال أعمال ومدراء بنوك ووزراء . وفوق كل هذا يظهر الخطر الذي لا يحتمل اهمالا ولا تأجيلا وهو قيام بعض أولائك الضباط بالاتصال ببعض رجال الجبهة الشعبية الجمهورية والبحث عن وفاق معهم وتنسيق العمل في سبيل بداية عهد جديد .

وهكذا ، وبفضل تسرب المعلومات ، تأكد لدى فرانكو أن الأمر جدّ خطر يحتاج منه إلى إتخاذ اجراء عاجل حاسم سيبدأه بالتفكير جديا ومنذ الآونة ، في " دسترة " نظامه في شكل ملكية . وفي الأثناء أبعد من استطاع ابعاده من الضباط واستعمل حيلته ودهاءه في اقناع المدنيين الأقوياء الذين يحتاج اليهم أولا يقدر عليهم بعدم جدوى صنيعهم وقام في نفس الوقت صحبة أعضاده باتصالات جماهيرية لبعث الحماس والقضاء على التأثيرات . بكل هذا استطاع أن يعيد للجبهة الداخلية تراصصها حوله تاركا لمصالح الأمن والشرطة والحرس الوطني القضاء على نشاطات وتنظيمات المعارضة التي ، بعد محاولة أحداث حرب عصابات قام بها ما يقرب من ألفي مقاوم مسلح احتلوا منطقة بأسرها « وادي آران بالشمال » وبعد تأسيس نواة عصابات مقاومة في العاصمة وبعض المدن الأخرى ، ركنت إلى المقاومة السلبية متحينة الفرص المناسبة .

الجفاء الخارجي : لكن إذا استطاع فرانكو اسكات المعارضة داخليا ، ولو لحين ، فالأمر يختلف بالنسبة للخارج حيث تكوّنت ضده وضد نظامه جبهة معادية تتهمه بالفاشستية والتعاون مع المحور والمشاركة في الحرب بارساله " الفرقة الزرقاء " إلى الجبهة الشرقية . كانت معارضة قوية منوعة ولكنها مشتتة رغم محاولات الشيوعيين لتوحيدها وضم الصفوف ومع هذا فهي ستقوم بالاتصالات العديدة في كل مكان وخاصة الاتصال بقادة الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية وحكوماتهم لحملهم على عدم الاعتراف بنظام فرانكو وإعلان عدم شرعيته وتطبيق مبادئ الحرية والديمقراطية تجاه أسبانيا وشعبها .

ما أن انتهى فرانكو من وضع جبهته الداخلية على " الطريق السوي " حتى انتهت الحرب وسقط المحور وبرزت نتيجة لذلك مبادىء ستكون قاعدة التعامل بين دول وشعوب العالم أهمها الحرية والعدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان الطبيعية وحق الشعوب في تقرير مصيرها . وللسهر على ضمان هذه المبادىء وتحقيق احترامها أنشئت في مدينة سان فرانسسكو بولاية كاليفورنيا ﴿ الولايات المتحدة ﴾ جمعية الأمم المتحدة التي خلفت " عصبة الأمم " المؤسسة سنة 1919 لتصبح المسرح الذي تفصل فيه أي مشاكل من هذا القبيل . من أول العرائض والشكاوى التي قدمت للجمعية الأممية الناشئة عريضة المعارضة الأسبانية تقدمت بها " الهيأة الأسبانية للتحرير " التي تطالب بعدم قبول أسبانيا فى عضويتها وهكذا فعلت فلم " تقبل أسبانيا لأن حكومتها قد حصلت على السلطة بمساعدة بلدان المحور ثم تعاونت معها " .

كان لهذا القرار معناه البعيد المثقل بالعواقب فكان وقعه على فرانكو شديدا مما دفعه إلى زيادة التحرك وتزيين نظامه حتى يبدو أكثر تحررا ، ولو شكليا ، فيحسّن صورته في الخارج ويقلل من وطأة التهمة الموجهة اليه . فتقدم يوم 16 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1945 إلى برلمانه يطلب من نوابه المصادقة على ما أسماه " قانون امتياز الاسبانيين " فحصل عليها " بالاجماع " . وهذا القانون الذي أصدر يوم 17 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1945 وحوّر بموجب " القانون التنظيمي للدولة " الصادر في 10 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1967 ، هو أشبه شيء " بدستور مصغّر " أهداه للشعب الأسباني تحت تلك الضغوط الخارجية وجاء في مقدمته " أن الدولة الأسبانية تعلن أن المبدأ

المحرك لتصرفاتها هو احترام كـرامة وسلامة وحرية الإنسان معترفـة له وهو العضو في المجموعة الوطنية بواجبات وحقوق تضمن التمتع بها ضمن الصالح العام " .

ولم يكتف بـذلك إذ تـوجـه يوم صـدور القـانـون إلى الشعب عن طـريق المجلس الوطني للحـركة بخطاب كـان بمثابـة الدرع أراد به درء خطـر التهجمات التي توالت عليه وعلى نظـامه من كل جانب وخـاصة منها المتمثلـة في حركة دون خـوان المطالب بالعرش .

وهنـا سيظهر حقـا دهـاء فرانكـو وقـوة مناورتـه . فقـد طمأن المطالبين بـالتغيير وبالحريات والحقوق المشروعة ببعض ما نص عليه القانون الصادر يومها وطمأن وهذا أهم شيء ، الأمير دون خـوان إذ أشعـره بأن النظـام سيحـافظ على الملكيـة لكن كما يريدها هو . وبهذا التلاعب والمداهنة والدهاء ترك باب الأمل مفتوحا أمام دون خوان كي يخفف من حـركته أو يشلها وهـدده في الوقت نفسـه بإعلان أن الملكيـة سوف لا تكون استمرار السابقة بل تنصيب ملكية جديدة وهذا المفهوم يحمل معه ما يحمل من التهديـد إذا تذكرنا أن هنـاك فرعا آخر من العـائلة المالكة ، فرع الكـارليين ، لا يزال يطالب هـو الآخر بـالعرش الذي شـن من أجله عدة حـروب كما رأينا سلفـا . قال فرانكـو ، من جملة مـاقال في ذلك الخطـاب " إن أخطر المشـاغل التي هيمنت على عقلي طوال هذه السنين التسع ، هو ضمان خلافتي والوصول داخل نظامنا التأسيسي إلى تحديد شكل وأسلوب تحقيقها تماشيا مع إرادة الأسبانيين ودون أضرار تلحق الدولة ولاخطر يهدد استمرار العمل الذي أنجزته حركتنا " .

ويستمر فرانكو في تزيين وتنميق نظامه فيصدر قانون الإدارة المحلية الذي " يجعل عمداء البلـديات معينين مـن طرف الحكـومة بينما النـواب ينتخبون طبقـا " للاقتراع العضوي " وهـذا يعني أن ثلثهم تنتخبهم النقابـات العمودية والثلث الثـاني تنتخبه الجمعيات الأسرية ، التي لم توجد فعلا أبدا ، والثلث الأخير يتم باختيار أعضائه من بين رؤساء العائلات والأسر التي تتكون منها البلدية " .

في هذه الأثنـاء اجتمع الحلفاء الثـلاثة الكبار ، تشرشل وستـالين وترومن بمـدينة بوتسدام وتناولـوا بالبحث ، ضمن ما تباحثوا فيه ، موضـوع أسبانيا فعارض تشرشل بكل شـدة إتخاذ أي أجراء ضد فـرانكو لأن بلـده ، حسب الرئيـس البريطاني ، " لم

يزعج الحلفاء " ولتجنب حرب أهلية أخرى . ثم أن ما يجرى في أسبانيا هو في نظر السياسي البريطاني أمر داخلي صرف ، لايجوز لأي كان ، طبقا لمبادىء وقانون الأمم المتحدة نفسها ، التدخل فيه . وطال النقاش وطال معه تصلب تشرشل ولم يحل المشكل الا بعد أن سقط هذا الأخير في انتخابات بلاده وخلفه في رئاسة الحكومة البريطانية الزعيم العمالي كليمنت آتلي . اقتصر ستالين آنذاك على المطالبة بعدم قبول أسبانيا في عضوية الأمم المتحدة فتم الاتفاق على ذلك بسرعة نظرا " لماضي نظام فرانكو ومصدره " . تم الاتفاق بين الثلاثة الكبار يوم 28 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1945 ومن يومها ستتوالى التهجمات على نظام فرانكو واتخاذ المواقف ضده . فالجمعية العامة للأمم المتحدة أعلنت يوم 9 فبراير ﴿ شباط ﴾ 1946 أن نظام فرانكو المفروض بالقوة بمساعدة قوات المحور ، لا يمثل الشعب الأسباني وهذا يدفع إلى عدم امكانية إسهامه في الشؤون العالمية " . وأما الحكومة الفرنسية فقد ذهبت إلى ما أبعد من ذلك إذ وجهت بتاريخ 27 فبراير ﴿ شباط ﴾ من نفس السنة عريضة إلى الثلاثة الكبار تعتبر فيها نظام فرانكو تهديدا للسلام في أوربا وتعلن عن نيتها رفع هذه المشكلة إلى مجلس الأمن ثم أرفقت كل هذا بقطعها علاقاتها مع أسبانيا مغلقة حدودها معها على طول وعرض جبال البرانس .

بعد أسبوع من ذلك ، في 4 مارس ﴿ آذار ﴾ نشرت وثيقة حول أسبانيا وقعتها حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تعلن فيها ادانتها النظام الفرنكي ولكنها تتعهد في نفس الوقت بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأسبانيا. وهي تشير من جهة أخرى إلى " أنسحاب فرانكو سلميا وحل حزب الكتائب وتشكيل حكومة مؤقته عن طريق قادة أسبانيين وطنيين أحرار ويكون ذلك متبوعا بعفو عام وعودة اللاجئين وحرية الاجتماع والانتخابات الحرة " ويأمل الموقعون أن لا تعود أسبانيا إلى مجابهة " فظائع مرارات الحرب الأهلية " .

كانت رغبة الحكومة الفرنسية الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك إلا أنها وجدت معارضة من طرف الحليفين الآخرين . لكن أخذت بولاندا الأمر على عاتقها وأعادت مشكلة نظام فرانكو " المهدد للسلام " إلى مجلس الأمن ووضعتها أمامه في جلسته المنعقدة يوم 17 أبريل ﴿ نيسان ﴾ . إلا أن خطوة بولاندا هذه لم تحظ باجماع

أعضاء المجلس فأحيل الأمر طبقـا لما أصبح عادة لدى هذه الهيئة العـالمية ، إلى لجنة خاصة وهـذا معناه اخماده في طريق مسدود الا أن هـذا لايعني أن الموضوع قد نسي أو أهمل لأن الجمعية العامـة للأمم المتحدة قـد عادت إلى بحثه والتصـــويت يوم 13 ديسمبـــــر ﴿ كانون أول﴾ 1946 على قرار يدين النظام القائم في أسبانيا ويطالب الدول الأعضاء بسحب سفرائها من أسبانيا وعلى أنه ان لم يتم في وقت معقول تشكيل حكومة نابعة من إرادة الشعب فان مجلس الأمن سيـدرس الإجراءات المناسبة والرامية إلى إصلاح الوضع . كان هذا نتيجة تحرك المعارضة في المهجر ونشاط الأمير دون خوان وأنصاره .

فقد تأسست جمعية الملكيين فى بداية 1936 وبدأت نشاطها المطالب بعودة الملكية ممثلة في شخص دون خوان الذي غير اقامته من مدينة لوزان السويسرية إلى استوريل بالبرتغال كأنـه كان يبغي التقرب إلى موطن الأحـداث فيسهل على أنصاره في الداخل مهمـة الاتصـــال بـه في ظـروف يمنع فيهـا النظـــام على المواطنين السفـر إلى الخارج ويسحب جواز السفر بـأسهل ما يكون . ورغم هذا فقد تحول إلى استـوريل عدد من كبار أنصار الأمير دون خـوان ووضعوا أسس جمعية أو تحالف الملكيين وهي أسس إن لم تكن دستـورا ديمقـراطيـا كـامـلا فهي على الأقل قـاعـدة لأقـامـة نظـام ملكي ديمقـراطي . إلى جـــانب هـذا كـانت بعـض أصـوات الجمعيـة الـوطنيـــة للقـوات الـديمقراطيـة تطالب بـالتفاهـم وتنسيق العمل مع الملكيين الذين لم يـرفض البعض منهم ذلك بل قام بـاتصالات في هذا الشـأن لكن بشرط ثابت دائم لانقاش فيـه هو عدم مشاركـة الشيوعيين في أي مشروع أو أية حركة . ورغم هذا فـان عضوا بارزا من أعضاء الـث . ن . ت . ، اتحاد النقابات الفـوضويـة ، قد انتقل إلى استـوريل حيث اتصل بالقادة الملكيين كما فعل ذلك أيضا ممثل عن الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني بـالمهجـر وذلك بغيـة تكـوين جبهـة متراصـة ضـد العـدو القـوي . أمـا حكـومـة الجمهوريـة ، بل حكومات الجمهـورية لتكرار سقوط احـداها وصعود أخـرى . فقد حـاولت ونجحت بعض الشيء في حمل جمعيـــة الأمم المتحـدة على إتخاذ ذلك القـرار الـذي أدان نظام فـرانكـو ولكنها لم تستطع اقنـاع العالم ، وخـاصـة الدول الأوروبيـة والولايات المتحدة بالاعتراف بها ولم تستطع كذلك تكوين وحدة انسجام لا في داخلها ولا وسط المعارضة بأكملهـا رغم محاولة رودولفـــو يوبس الذي تـولى رئاسة الحكومة

في 9 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1947 فوضعت ، كأساس لسياستها التفاوض مع الملكيين وأسندت المهمة لأحد أعضائها لكن فشلت المحاولة كمثيلاتها التي منها تلك التي تمت بايعاز أو وساطة وزير الخارجية البريطاني أنيورين بيفن ، بين السيد خل روبلس زعيم " الثيدا " وأحد الزعماء النشطين المحيطين بدون خوان وبين انداليثو برياتو الزعيم الاشتراكي .

كان حرص بريطانيا على حل المشكل الأسباني جزء من خطة ستشمل أوربا الغربية ترمي أولا وأساسا إلى وقف التيار الشيوعي وسد الطريق في وجهه ، وهو الذي برز وانتشر بصفة ملحوظة على أثر الحرب العالمية الثانية ، من مظاهر تلك الخطة طردالحكومة الفرنسية عددا كبيرا من أعضاء الحزب الشيوعي الأسباني المقيمين بفرنسا واغلاق كل نواديهم ومكاتبهم محجرة على جميعهم ، بما في ذلك القيادة العليا ، كل نشاط أو حركة . وكما لكل قاعدة شذوذ ، فان محاولة توحيد الجهود لمقاومة نظام فرانكو ، قد أحرزت مرة على تحقيق هذه الرغبة فتجسمت في الاتفاق الذي أبرم بمصيف سان خوان دي لوث بجنوب الساحل الأطلسي الفرنسي ، يوم 30 أغسطس ﴿ آب ﴾ من سن 1948 بين الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني وكنفيديرالية القوات الملكية ، والذي اشتمل على ثماني نقاط أشار فيها المتفقون إلى أهم المسائل التي كانت تشغل بالهم وبال الجميع والتى تعتبر أساسا لنظام يخلف نظام فرانكو . فقد جاء في تلك النقاط الثماني الإشارة إلى العفو العام وحقوق الفرد العامة ، والنظام والأمن العامين ، وتصحيح الوضع الاقتصادي وإزالة كل تعسف والانتماء إلى الكتلة الغربية وضمان الحرية الدينية مع اعتبار خاص للدين الكاثوليكي واستشارة الشعب ليقرر نظاما بديلا يرتضيه .

لكن لئن نجح أصحاب النوايا الطيبة في إبرام الاتفاق فانهم لم ينجحوا في اِخراجه من بقائه حبرا على ورق وجمد حيث هو فلم تكن له فاعلية ولانتائج ، ونسفه فرانكو من أساسه باحدى مناوراته كما سنرى .

رد الفعل : لم يكن فرانكو نائما طوال هذا الوقت طبعا ولم يكن ليترك الأحداث تغمره بل استعمل كل ذكائه ودهائه ومقدرته على المناورة وجند كل أنصاره وأصحاب المصالح والمستفيدين من نظامه لشن حملة داخلية وأخرى خارجية فيؤمن بالأولى وضعه ويفك بالثانية الحصار .

لقد استغل قـرار الأمم المتحدة ، الذي كـان يعلم عدم كبير فاعليتـه ، ليطلق عنان أبواقه الدعائية ، وهو في مقدمتها طبعا ، لإثارة الحماس والغيرة على الوطن المستهدف من أعدائه وأعداء الله و إثارة الحمية والنخوة التي تأبى الانصياع لإرادة الغير الباحث عن انتهاك كرامة الـوطن والأمة . لقد عرف فرانكو وأجهزتـه كل الأوتار الحساسة في مختلف فئات الشعب فأعطوا كل فئة شرابها من معسول الكلام ومثيره وتحصلوا بذلك على التفاف كبير حول القائد ورجاله .

وانكب ، كما رأينـا ، على إعطاء نظـامـه بعض الملامح الـديمقراطيـة ، بإصـدار مجموعة من القوانين والمراسيم من أهمها وأكثـرها تأثيرا على مصير أسبانيا السياسي هو قانون الخلافة الصادر في 31 مـارس ﴿ آذار ﴾ 1947 والذي سيخلفه بموجبه الأمير خوان كارلوس على عرش أجداده ملكا على كل الأسبان لكن هذا القانون الذي أراد به فـرانكـو ازالـة كل الشكـوك التي حـامت حـول نـوايـاه في الحكم ودحض كل الآراء والتقولات التـي تكاثـرت حول الموضـوع ، قد أثار مـوجة مـن الاستنكار والمعـارضة خاصة من طرف دون خوان الذي أبلغ فحوى القانون في نفس يوم صدوره عن طريق عضد فرانكو الأول كاريرو بلانكـو الذي أرسل إلى مدينة أستوريل لهذه المهمة . فقد أصـدر دون خـوان منشورا رفض فيـه القـانـون وفحواه الـذي تضمن أول مـا تضمن التأكيد على بقـاء فرانكو في السلطـة مدى الحياة ثم انه أكـد وركز القوانين الأسـاسية وانشـاء " مجلس المملكـة ﴿ (54) ﴾ كأنـه مجلس وصـايـة ﴾ ومجلس التـاج وتنظيم اجراءات الخلافـة التي احتفظ فرانكو لنفسـه بشأنها بكل الحقوق بما في ذلك " تغيير اسم المرشح للخلافة في أي وقت شاء و إلى آخر يوم من حياته " .

أصدر هذا القانون ثم عرض على الشعب في استفتاء عام حتى يبدو الأمر مطابقا ، ولو ظاهريـا ، لما يطالب به الكثيرون وخاصة لما تبغيه الأمـم المتحدة والدول الأوربية التي تحيط بأسبانيا .

اطمأن فـرانكـو على وضعـه الـداخلي وجبهتـه داخل الحدود ثم التفت إلى الخارج يبغي فك الحصار الذي فرض عليه وعلى البـلاد من أجله . ما من شك من أنه " إذا سألتم اللـه فاسألـوه البخت " والبخت سيكـون في معظم الشـدائد حليف فرانكـو ونصيره . فقبل أن تنتهى هذه الخمسيـة من عهد فرانكو " انـدلعت " الحرب الباردة

وبموجبها ستعرف سياسة الرئيس الأميريكي ترومن تحولا ملحوظا وستعرف أوربا تحركات كبيرة عميقة منها مشروع مارشال الاقتصادي لإعادة بناء أوربا ﴿ الغربية طبعا ﴾ وإخراج الشيوعيين من عدة حكومات أوربية إلى غير ذلك من المواقف السياسية التي جعلت العالم موقوفا على كتلتين ، شرقية وغربية ، شيوعية و " حرة " وسيكون في كل هذا فرصة فرانكو ليفتح لنفسه ولنظامه طريقا نحو فك الحصار والخروج من العزلة ثم أخذ مكانه بين أنظمة العالم .

لم يكن فرانكو وأعضاده في حاجة إلى كبير الحنكة أو إلى قوة الدهاء للتغلب على أصحاب الأفكار والمواقف المعادية . فمعظم القادة والمسؤولين الأوربيين والأميريكانيين طبعا ، قد لينوا من تصلبهم ولم يعد نظام فرانكو ، فى نظرهم ، فاشستيا كما لم يعد يوضع في ميزان المعادلة بين الدكتاتورية والديمقراطية بل أصبح في نظر معظمهم قطعة هامة جدا داخل اللعبة الجديدة ، لعبة الكتلتين والصراع الحاد بينهما الذي يشمل ، بالنسبة للغرب ، ايقاف التأثير والتسرب الشيوعيين خاصة بعد " انقلاب براغ " واندلاع الحرب الأهلية اليونانية .

جند فرانكو نخبة من رجاله ليجوبوا العالم عارضين بضاعة يعرفها ويعرف قيمتها الجميع وهي مركز أسبانيا الاستراتيجي ووجوب عدم بقائها خارج الصف الغربي لما عرفت به منذ أن استتب فيها هذا النظام الجديد من عداوة للشيوعية ومقاومة لها ، ولم تنته هذه الخمسية أي قبل أن تتم سنة 1950 كان الحصار المضروب على أسبانيا قد تفلل وبدأت العلاقات بينها وبين مختلف الأقطار تتطبع أو على الأقل تسير نحو التطبيع . ففي يوم الثامن من أغسطس 1947 عاد الى مركزه بمدريد سفير الجمهورية الفضية وفي أوائل 1948 فتحت فرنسا حدودها مع أسبانيا واقترح بعض النواب في الولايات المتحدة تمكين أسبانيا من مساعدات مشروع مارشال وسبق كل هذا عدم موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تسليط العقوبات على نظام فرانكو نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1947 الى غير ذلك من الخطوات التي " تسابقت " الدول على اتخاذها وكانت ترمي في معظمها إلى التقرب إلى أسبانيا وعدم ابقائها في عزلة كي لا " تنحرف " أي يجرى بها ما لا يحبذه أحد . وانطلاقا من هذا المفهوم بدأت المساعي بعد الآراء تنتشر وتعم لصالح قبول أسبانيا في عضوية الأمم المتحدة .

وطبيعي أن تضع الـولايات المتحـدة ، وهي زعيمـة الكتلة الغـربية ، عيـونها على أسبـانيـا وموقعهـا الاستراتيجي ومـا يمكنـه أن يقدم من عظيم الفـائدة والخدمـات للحلف الأطلسي الحديث التأسيسي والذي أبدت الولايات المتحدة رغبتها في انضمام أسبانيـا إليه مبدية هـذه الأخيرة استعدادها لذلك . ولكن إذا مـا استحال ذلك لأي سبب كان ، ﴿ بقية أعضاء الحلف لم يقبلوا آنذاك هذه الفكرة ﴾ فلابد من ايجاد حل آخر وهو استعمال الولايات المتحدة وحدها الموقع الاستراتيجي الاسباني واستغلالها ، بمفردها ، التسهيـلات والمساعدة التي قد تقـدمها أسبـانيا عند السماح بـاستخدام أراضيهـا . واستعدادا لـذلك تكثفت الاتصالات والـزيارات بين الـولايات المتحـدة وأسبانيـا من ضمنها تلك التي قامـت بها بعثة عسكريـة يقودها رئيس لجنـة القوات الجوية بـالكنجرس الأميريكي وقد صرح رئيس البعثـة بعد مقابلتـه لفرانكو وعـودته الـــى بلده بأن " كل الذين يقـاومون الشيوعية عليهم أن يفهموا الفائدة التي تكمن في دخول أسبانيا الأمم المتحدة والحصول على عضويتها " .

هكذا كـان ، وقررت الأمم المتحدة يـوم 4 نوفمبر ﴿ تشرين ثـان ﴾ 1950 الغاء قـرارها الصـادر في شهـر ديسمبر ﴿ كـانون أول ﴾ 1946 وبـذلك فتح البـاب على مصراعيه أمام أسبانيا وبدأت لها مرحلة جديدة .

في هذه الأثنـاء واتباعا لعادتـه ، لم يتوقف فرانكو عن المنـاورة على كل الخطوط . فبينما كـان رجالـه يعملـون على فك الحصار في الخارج ، وشرطتـه وحـرسه يقمعـان المقاومـة في الداخل ، كان هو يعمل على سـد ثغرة قد يفيض عليه منهـا الماء ويغمره فأوحى بتنظيم لقاء بينـه وبين الأمير دون خوان وتم ذلك اللقاء يوم 25 أغسطـــس ﴿ آب ﴾ 1948 على متن يخت فـرانكـو الخاص في عـرض الشـاطىء الشمالي قـرب مدينة سان سباستيان وتم في هـذا اللقاء الاتفاق بين الرجلين على ارسال الأمير خوان كارلوس ، ابن دون خـوان ، ليدرس ويتكوّن في أسبانيا . تم فعـلا سفر الأمير يوم 8 نوفمبر ﴿ تشريـن ثان ﴾ 1948 وبهذا ضرب فـرانكو عـدة أهداف بحجـر واحد : طمأن دون خوان عن الـوضع والمستقبل وشل نشاط أنصاره الـذين لم ينظروا إلى ذلك اللقاء بعين التأييد أو التحمس وأفشل أتفاق " سـان خوان دي لوث " الذي تم بين الملكيين والاشتراكيين لأن اللقاء أثار شكـوكا ساورت الاشتـراكيين والمعـارضة بصفة عامة حول صدق نوايا دون خوان وإخلاص الملكيين .

ليس ابتعادا عن الحقيقة اعتبار هذه المرحلة وكيفية انتهـائها نصرا ثانيا لفرانكو وقد يكـون نصرا رئيسيا ركـز ومتّن أسس النصر الســابق ، النصر الحربي ، ومن ثم وطـد النظام ودعمه فبقي واستمر طويلا .

الفصل الخامس

التمـركــز

لذا دخل فرانكو بنظـامه الخمسية الثالثة وعقـد الخمسينات يحدوه الأمل والثقة في المستقبل . فالجبهة الداخلية متـلاحمة و " الشعب " ملتف حوله والحصار الخارجي قـد تـلاشـت معظم أسـواره وصـوت الخارج أصبح أضعف من صـــوتـه وفي الأفق علامات و إشارات دنوغمامة تحمل غيث المسـاعدة والعون الخارجيين اللذين سيكونا حبل النجـاة من الهوة والانهيار الاقتصـادي الذي كـانت تتردى فيه البـلاد وشعبها . شعبها الذي رغم كل المظـاهر الخارجية والصور اللماعـة التي كانت ترسمها الـدعاية وأجهزة الإعلام ، لم يكـن " كله " وراء فرانكو ولم ينعم كله بالخبز والمسكن كما وعدوه قبل عشر سنـــوات ، وجـانب كبير منـه غـارق في الجوع والحاجـة ومبعــد عن كل القطاعات والمجالات الحياتية وذلك تحت مفعول سياسة التفرقة والتمييز بين الغالب والمغلوب وتحت تأثير رحى القمع التي لم تتوقف عن دورانها طاحنة في طريقها أعدادا كبيرة ممن ألصقت بهم تهمة الصلـة أو الانتماء لأي شيء أو نشاط محرم . فلم يكن مع النظام إذن مجموعـات العمال الذين لم يتوقفوا عـن القيام بالإضرابات خـاصة في بلاد الباسك وفي قـاطالونيا ولم يكـن معه آلاف العمال الزراعيين الأندلسيين المبتين جـوعا وفاقة ولا مئات الآلاف من أهالي وأقارب المساجين والمبعدين ولا رجال الفكر المنتمين إلى اتحاد " رجـال الفكـر الأحـرار " ولا غيرهـم من حملـة القلم المستعملين الصمت سلاحا ولاعمال منطقة مدريد ولا السواد الأعظم من مواطني الأقاليم ذات الشخصية الاعتبـارية التي ألغـاهـا النظـام فحرم على المواطنين هنـاك حتى التخـاطب بلغتهم المحلية خـارج البيوت ورغم هـذا " فالشعب كلـه معه " . لكن لم يكن هـذا ليقلق فرانكـو أو رجالـه لأن السلطة الماليـة معهم والكنيسـة مؤيـدة لهم مباركـة خطواتهم وصغار التجـار منساقون يحدوهـم الأمل في مستقبـل أسعد وجيش موظفي الـدولة ، بعد عمليات التطهير ، لا حق له في الكلام أو ابداء الـرأي خاصة وأن مرتبه مضمون بضمان الوضع وازدهار اقتصاده .

استقبل فرانكو المرحلة الجديدة بحكومة جديدة شكلها فـــي شهر يوليو ﴿ تموز ﴾ 1951 وأراد منها أن تكون ، حكومة الحرب الباردة وحكومة العلاقات مع الولايات المتحـدة وحكومـة تركيـز الدولـة الأسبانيـة في المحافل الـدبلومـاسية الغـربية ففيهـا

استحدث منصب وزير أمن عام لمجلس الوزراء وضع فيه رجلا يعتبره أوفى أوفيائه وهو الأميرالاي لويس كاريرو بلانكو الذي سيقوى تأثيره على مجرى الأمور والشؤون وعلى قرارات فرانكو إلى أن يصبح المرشح الحقيقي الأول لرفع لواء " الفرنكية " وضمان استمرارها بعد فرانكو . وتميزت هذه الوزارة أيضا باحداث وزارة جديدة وزارة الأخبار والسياحة التي ستلعب دورا هاما على جبهتين إعلامية واقتصادية عن طريق نمو وتطور السياحة . لكن ما يلفت الانتباه أكثر من أي شيء آخر هو إسناد وزارة التربية الوطنية إلى رجل ، هو الأستاذ خواكين رويث خيمانث ، ستدفعه طيبته أو " سذاجته " كما أسماها البعض ويحدو به إيمانه الراسخ بالحرية إلى محاولة تحرير النظام من الداخل ومصالحة الأسبانيين في ما بينهم ناسيا أو متناسيا أن ذلك النظام ليس سوى دكتاتورية ذات سلطة شخصية فردية قد توطدت أسسها قبل وقت قصير فلن تقبل أية محاولة لتغيير وجهتها ولا أساليبها لكن من اجتهد ولم يصب فله أجر واحد هو ما حصل عليه الأستاذ رويث خيمانث الذي بعد صراع ومحاولات دامت أربع سنوات ونصف تقريبا ، لم ير غير الاستقالة سبيلا ليأخذ بعدها طريقا آخر هو طريق المعارضة بالرأي وبالقلم .

بالحكومة الجديدة إذن دخل فرانكو عتبة الخمسينات وهي التي ستعطيه سنة 1953 ثمرتين هامتين ستغذيان النظام فيزداد قوة واستقرارا . أولى الثمرتين كانت الاتفاقية البابوية المبرمة مع الفاتيكان والتي أعطت أسبانيا بعض الامتيازات وكانت بمثابة اعتراف بشرعية واستقرار النظام الاسباني والثانية هي الاتفاقية المبرمة مع الولايات المتحدة وهي معاهدة تعاون اقتصادي دفاعي سمحت بموجبها اسبانيا بإقامة قواعد بحرية وجوية أميريكية على أراضيها مقابل مساعدات اقتصادية وبذلك دخلت أسبانيا مجموعة دول الحلف الاطلسي والحلف نفسه بصفة غير مباشرة وبأرخص الأثمان بل أكثرها ربحا وأعظمها فائدة .

قبل ذلك ، أي سنة 1952 كانت أسبانيا قد حصلت على عضوية منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة وستحصل على كرسيها في المنظمة العالمية نفسها في نهاية الخمسية إذ قبلت عضويتها في الأمم المتحدة يوم 15 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1955 .

وعرفت هذه الخمسية أيضا تحسنا في الوضع الاقتصادي فألغي العمل بالتقسيط فـي المواد الغذائية وانهاء العمل بالبطاقات للحصول عليها سنة 1952 وشرع في انجاز مشروع باداخوث للتنمية والإصلاح الزراعي كما عـرفت نصرا سياسيا آخر لفرانكو تمثل في توصله إلى اقناع دون خوان ، وريث عرش أسبانيا ، بالسماح لابنه خوان كارلوس مواصلة دراسته العليا بأسبانيا فوافق الأب على ذلك بعد مقابلة مع فرانكو جرت باحدى الضيعات بالمنطقة الغربية من البلاد ناحية البرتغال .

وهكذا ، وإذا استثنينا بعض الإضرابات التي قام بها الطلبة هنا وهناك يمكن القول أن هذه الخمسية التي غطت النصف الأول من الخمسينات كانت سعيدة على فرانكو ، وتوالت فيها الإنجازات والانتصارات فما أتمها الا ونظامه راسخ الأسس ، شرعي المظهر ، آمن داخليا ومحتل مكانه خارجيا وفي المحافل الدبلوماسية العالمية ولو كان ذلك ببعض التحفظ من طرف العديد من الدول .

الفصل السادس

غزو التكنوقراط

قـد يستغـرب القـارىء من تسميـة هـذه الخمسيـة التي تمثل النصف الثـاني من الخمسينات والتي كـان يمكن أن نسميها " انفجار الطلبـة أو مولـد نقابة أو مـرحلة التغيير " أو ما شئنـا من الأسماء التي تنطبق عليهـا لكثرة مـا عرفته مـن أحداث على مختلف المستويـات فهذه الخمسية هي التي تم أثنـاءها استقلال المغرب وجـرى فيها الاعتداء الثلاثي على مصر وقـامت فيها انتفاضة المجر وحصل فيها الشـاعر الاسباني المهاجـر خوان رامـون خيمانث على جائزة نوبل لـلأدب ومات فيها بيـو باروخـا أحد مشـاهير رجال الفكـر وهـو من مجموعـة مـا سمي بجيل 98 كما مـات أثناءهـا 15 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1956 آخـر رئيس حكومة للدولة الأسبانيـة إبان الجمهورية ورمز المقاومـة اليائسة خلال الحرب الأهليـة ونعني الدكتور خوان نغـرين الذي توفي ببيتـه بالمهجـر بباريس . وهي أيضـا محاولة التغيير أو البحث عن الانفتـاح وبدايـة هجرة اليد العـاملة إلى أوربا وبداية استرجاع المعـارضة أو المقاومة الداخليـة أنفساها والشروع في تنظيم صفوفها وغير ذلك كثير من الأحداث التي يمكن أن تعرف بها هذه الخمسية .

لكن فضلنا تعـريفها بـالتكنوقـراطيين لأن سيطرة عـدد منهم على مجرى الأمور في البلاد ، كانت أبـرز مظهر لهذه الفترة التي تأثرت والبلاد بـأجمعها بأعمالهم ومنجزاتهم وأسلوب عملهم .

كـانت البلاد والنظـام في حاجـة إلى صـورة جديـدة تظهر بها أمـام العالم بعـد أن انفتحت لها أبوابه وكان الوضع الاقتصادي في حاجة إلى تغيير في البرامج وفي أساليب العمل وكان الهيكل السيـاسي المحيط بفرانكـو والماسك بمقاليد الأمـور في البلاد في حـاجة هـو الآخـر إلى تجديـد وتغيير . فقد اشتـد الصراع بين مـا يمكن أن نسميهم بـالتقليديين أو رجـال الساعـة الأولى ونعنى رجال الثـامن عشر من يوليـو ﴿ تموز ﴾ ورجال الحكومة أي الكتائب الذين عاشوا ويعيشون بما وضعوه للنظام من الشعارات والتقنيات التي كانت تنتمي كلها إلى فترة الحرب وعقليتها ، وبين رجال آخرين أكثر واقعيـة وأقل تحمسـا لعقليـة الحرب . ومـا مـن شك أن الأخيرين أصلح للفترة التي كانت تعيشها البلاد . ولذا لم يتردد فرانكو في القيـام بتحوير وزاري تحوير جـذري

ينـــم عـــن النية في احداث تغيير كبيـــر في مخططات وبـــرامج البـلاد السياسية والاقتصاديـة . فقد أعلـــن يـوم 25 فــبـــراير « شبـاط » 1957 عن تشكيل الحكـــــومة الجديدة التي ، خلافا لسابقتها ، احتـوت على اثني عشر وزيرا جديدا أي لم يحتفظ فرانكـوفيها من القـدامى الا بالأوفيـاء له وفي مقدمتهم كـاريرو بـلانكو الذي كان له ضلع كبير في هذا التحـول وفي نوعية الوزراء الجدد . كان معظمهم من التقنيين الممتـازين في اختصـاصاتهم وكـانـوا بشكل مـا بعيدين عـن السياسـة ذات الصبغة اليومية المتحزبة ولو بدون حزب ، كانوا طبعا قريبين أو متعاطفين مع القوتين الرئيسيتين في البـلاد وهما رأس المال والكنيسة . لكن الجديـد حقا في الأمـر ، والذى لابد مـن الاشارة إليـه هو أن ثلاثـة على الأقل من أبـرز الوزراء الجدد ، إن لم يكـونوا أبرزهم ، قـد أسندت إليهم وزارات حساسـة « التجارة والأشغال العامـة وفي رئاسة الحكومـة » وهـم معروفـون بانتمائهم إلى جمعيـة دينية " غريبـة غامضـة " كما وصفها الكثيرون وهي " الأوبس داي " « العمل فى سبيـل اللـه » التي ستسيطـر منـذئذ وبواسطة رجالاتها على الحياة والمسيرة الأسبانية عـدة سنوات تاركة ، خاصة في الحقل الاقتصادي ، آثارا ومنجزات لاتنكر ولـو أن الجمعية أنكرت دائما أن يكون لها دور في هذا الشأن أو أن يمثلها أولئك الـرجال ، مؤكدة أن كل عضـو من أعضائها يتصرف ويعمل بصفته الخاصة البحتة وبكل حرية واستقلال عن الجمعية .

ليس من الصعب تصديق هذا لكن لكل هذه المجموعة من التقنيين قاسم مشترك فان لم يكن الجمعية والانتساب إليها فهو جبهة سيـاسية أو اقتصادية أو فكرية عمل رجالها من أعلى المستويات داخل السلطـة فغيروا الكثير دون أن يلمسوا ما كان محرما لمسه وهو السلطة الفردية المجسمة في فرانكـو ، فاستمر باب الديمقراطية مغلقا رغم الفجوات العديدة التي أحـدثتها المعارضة العمالية والطلابيـة والتي بدأ نسيم التحرير يتسرب منها لكن دون أن يهب قويا فيلاحظ . لم يمسوا بسلطة فرانكو مباشرة ولكنهم نجحوا في وضع وانجاح " مخطط تنمية اقتصادية " أدخـل في كل أسبانيا جوا جديدا يحدوه الأمل والرجاء في سياسة متفتحة استجـاب لها بنجاعة وصدى كبير طرح قانون الدولـة الأساسي الصـادر في أواخر سنـة 1966 على الرأى العـام فقوبل بتـأييد كبير (55) . كان المخطط الـذي أسموه " مخطط الاستقرار " يرمي إلى إخـراج البلاد من ركودهـا الاقتصادي وفقـرها ثم تـوجيهها نحو أوربـا اقتصاديـا أولا فسياسيـا . ولذا

فتحت الحدود للحركة في الاتجاهين فسمح بهجرة العمال إلى الخارج وباستجلاب السواح إلى الداخل وبقبول الاستثمارات الخارجية دون تحديد . بكل هذا أخذ وجه أسبانيا يتغير شيئا فشيئا . كانت مغلقة عن العالم الخارجي ، جامدة لاتماشي التطور المحيط إلا عن بعد وفي تؤدة . لكن الآن ستدخلها تدريجيا صور للحياة جديدة وأساليب حديثة وسيحدث هذا تأثيرا في النفوس وانطباعا في العقليات . إن التغيير الأساسي الذي بدأ سنة 1957 كان اقتصاديا لكن جاء نتيجة تغيير سياسي أي تغيير في الرجال العاملين في قمة الهرم فحل التقنيون محل السياسيين أو العقائديين وكان ديدنهم تعصير أجهزة الدولة واتخذوا النجاعة شعارا للعمل والحركة . وبذلك أدخلوا العقلانية والنظام على الأساليب الادارية في جهاز الدولة والمؤسسات الشبه دولية وأحدثوا هيئات ومؤسسات جديدة واستصدروا لكل ذلك مجموعة من القوانين كانت لهم ولنشاطهم سندا شرعيا ومنها قانون النظام التشريعي لإدارة الدولة وقانون الإجراءات الإدارية وقانون الاتفاقات الجماعية الذي حطم من الأساس القوانين والتراتيب المعمول بها قبلهم في مجال الشغل والمعاملات الأجنبية وأحدث نوعا آخر من الترابط والإتفاق بين الأطراف الاجتماعية وهو ما عرف منذئذ بالاتفاقيات الجماعية التي فتحت الباب أمام الطبقة الشغيلة لمناقشة ومفاوضة الأطراف الأخرى بخصوص حقوقها وطلباتها .

ريح التغيير : إن غزو التكنوقراطيين سوف لا يعرف حدا وستتسرب أفكارهم وأساليبهم إلى كل أجهزة الدولة التي ، حسب قول أحدهم ، " لابد لها من اتباع مبادىء وأساليب تنظيم المؤسسات الخاصة إذا هي أرادت النجاعة والانجاز " قد تكون هذه الغاية نفسها ، والنجاعة والانجاز ، هي التي دفعت الى تجديد تشكيل تركيبة البرلمان الذي تعرض في دورته التي بدأت سنة 1958 لتغيير ما يزيد عن 46٪ من أعضائه الذين عوضوا بعناصر جديدة ، كثير منها سيلعب دورا بارزا في محاولة تفتح النظام وتحرره ثم تركيز الديمقراطية في البلاد بعد وفاة فرانكو. ومن أبرز هذه العناصر الأستاذ مانوال فراغا ايريباني زعيم التيار اليميني والنائب بالبرلمان الأوربي في هذه الآونة .

لم يتوقف التغيير عند هذا الحد بل تعداه أيضا إلى العماد العقائدي للنظام ونعني

حزبـه الأوحد أو حـركته كما كان يحلـو لفرانكو تسميتهـا والتي كانت الكتـائب دوما نـواتها الأساسيـة . فقـد أصدر فـرانكـو بموجـب السلطات الـواسعـة غير العاديـة والممنوحة له مدى الحياة " قـانون مبادىء الحركة " الذي أتى أولا على النقاط الست والعشرين التي تكون منها قانون ومبدأ حـزب الكتائب والتي سارت في ضوئها الحركة طوال هــذه المــدة . صدر هــذا القانون يــوم 17 مايــو ﴿ أيار ﴾ 1958 وجاء ، كأنه دستور ، فرسم صورة أسبانيا كما أرادهـا واضعوه وحدد المفاهيم والمبادىء التي ستسير على ضوئهـا بموجـب هذا القـانون الـذي أشار إلى " وحـدة وعظمة وحـرية الوطن " الذي سيكون نظامـه " ملكية تقليديـــة ، كاثوليكية ، اجتماعيــــــة ، نيابية . . . " أما من الناحية الديمقراطية والحريات العامة فإن القانون قد تناساها أو أنه نظـر إليها من منظـار سابق ، ذلك الذي نظـر منه العقائديـون السابقـون الذين نظمـوا الكتائب والحركـة إذ أنه نص على أن " المشـاركة الشعبيـة في المهام التشريعيـة وغيرها من المهام والأعمال ذات المصلحة العامة ، فهي تتم عن طريق العائلة والبلدية والنقابة وغيرها من الهيآت ذات التمثيل العضوي المعترف به قانونيا لهذا الغرض . ان أية منظمـة سياسية مهما كان نهجهـا تأتي خارجة عن هذا الأسلـوب النيابي تعتبر غير شرعية . . . " وخـلاصة القـول هو أن ريح التغيير وابـدال الصورة بأخـرى قد هبت بدخول التكنوقراطيين مراكز الحكم والقرار وقد تم ذلك بإيعاز ومباركة أقوى رجل في النظام ، بعد فرانكو طبعا ، هـو وزير الرئاسة آنذاك لويس كاريرو بلانكو . ثم ان قانون المبادىء قد ألغي أو أبعد المرحلة الأولى من نظـام فرانكو التي تميزت بالعقائدية المطلقة المتزمتة ولكنه لن يتعدى ذلك إلى قبول التعددية الحزبية أو النقابية فذلك محرم في مـذهب فرانكـو ولا يمكن بحـال أن يقبله وفعـلا لم يحقق ذلك الا بعـد وفاتـه كما سنرى .

عرفت هذه الخمسية أحداثا أخرى ذات أهمية أيضا لأنها لم تكن سوى اشارة لما هو آت وعلامة على ما سيحدث . فقد وجه طلبـة الجامعات مكتوبا للسلطات التربوية يطالبون فيه بعقد اجتماع عام لانتخاب ممثليهم في النقـابة الطلابية التابعة للحزب أو الحركة والتي ككل النقابـات الفرنكية تتبع الطريقة العمودية في تكـوينها والتي كانت طوال سنين يدا من أيدي النظـام إن لم تكن عصى من عصيه التي تنظم بها الأمور فى الأوساط الطلابية وبها ترجع إلى الجادة كل من يتيه عنها أو يضل الطريق " . لكن لم

تستجب الإدارة إلى طلبهم وأمام سكوتها قام الطلبة باحتلال إحدى الكليات واستولوا على مقر النقابة " الحكومية " ثم خرجوا وتظاهروا في شوارع العاصمة وهي أول مرة يعارض النظام فيها جهرة وعلى قارعة الطريق منذ الحرب الأهلية . كانت مظاهرة ضخمة سارت من الجامعة إلى وزارة التربية بينما هاجم حرس فرانكو مبنى الكلية وبعد اعتداء على العميد والاشتباك مع الطلبة المتواجدين هناك ، أجبرهم هؤلاء على التراجع . تصرف فرانكو نتيجة لهذه الأحداث تصرفه المعهود فعزل وزير التربية الذي حاول ، كما قلنا ، تحويل وجهة النظام نحو التفتح والتحرر وعزل معه عميدي جامعتي مدريد وسالامنقة . لكن وللمحافظة على التوازن المعهود في تصرفاته عزل أيضا الوزير المكلف بالحركة وأمينها العام المساعد وهكذا ضرب يمنة ويسرة لتبقى كالعادة نواياه مجهولة وأحكامه سرا لا يعرفه غيره . عرفت هذه الخمسية أيضا قلاقل أخرى تمثلت فى إضرابات عديدة قام بها العمال في عدة أماكن ومناطق من البلاد خاصة حيث تمركزت الصناعات كما عرفت هذه الفترة ميلاد " اللجان العمالية " التى ستنمو وتتطور لتصبح اتحادا نقابيا ضخما يقتسم اليوم المجال النقابى العمالى مع الاتحاد الآخر اشتراكي الميول والاتجاه بينما اللجان شيوعية الميول .

لكن الذي جذب الانتباه ، ولو أن السلطات لم تعره اهتماما آنذاك ، هو بروز المعارضة في أوساط الكنيسة التي بدأ البعض من رجالها يكتب ويعملون لفائدة الشغالين ومطالبهم ومن ثم يعارضون إجراءات السلطة وتصرفاتها بالرغم من تعاطف كبار أئمة الكنيسة معها . كان تحركا بسيطا " خجولا " كما يقال ولكنه بداية وكان كافيا ليدل على أن الأوساط الكنيسية بها هي الأخرى تيارات مختلفة أو حتى متقابلة فيما يتعلق بالنظام والأوضاع السائدة ونتائجها .

هذه إذن نظرة مجملة لأهم ما عرفته خمسية النصف الثاني من الخمسينات والتي عرّفناها بخمسية التكنوقراطيين وهي أيضا خمسية بداية انطلاقة اقتصادية وإصلاح وظهور لملامح المعارضة . لكن لأن عرفت بعض المجالات نوعا من الانفتاح أو إمكانية التحرك ، فهذا لا يعني أن النظام قد لان أو أصبح قابلا لما رفضه من قبل . لقد استمر النظام محافظا على شدته وتصلبه بخصوص كل ما هو حريات أو أحزاب أو منظمات أو ديمقراطية رغم كثرة القوانين المتعلقة بالنظام والأمن العام فقد أصدر قانون جديد للأمن العام بتاريخ 30 يوليو « تموز » 1959 نص على أنه تعتبر

مخالفـة " أي تـوقف جماعي عن العمل واغـلاق أو تعطيل المؤسسـات بطـريقـة غير مـرخص بها " ويعتبر مخالفـا لمفهومـه ونصـه " كل أولائك الـذين ينشرون أو يثيرون المشاغبات أو يوصون بها أو يبررون العنف أو أيـة وسيلة أخرى تؤدي إليه . وفي شهر سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ 1960 أصدر قانون آخر هو قـانون اللصوصية والإرهاب مضافا لما سبقه من قوانين استعملها النظام بكل شدة وتصلب ضد كل من حـــدثته نفسه " بالخروج عن الطريق السوي " .

الفصل السابع

النمو الاقتصادى

إذا كـان النصف الثاني مـن الخمسينات قـد شهـد تغييرا في نوعيـة رجـال الدولـة وتكوينهم ومبادئهم ، فتغير نتيجة لذلك اتجاه السيـاسة الاقتصادية بوضع أسس لها ومخططات جديـدة وما يحتاجه كل ذلك من قـوانين فإن النصف الأول من الستينات قد شهد الانطلاقة الاقتصادية الفعلية التي سيكون لها تأثير كبير على الحياة في أسبانيا لأن شبح الحاجة والبطـالة قـد ابتعد تدريجيـا وبدأت تظهر طبقـة متوسطـة انعدمت دومـا فى أسبانيا أو كانت صغيرة محدودة الـوزن والتأثير . لم تعرف أسبانيا ، وقد لن تعرف ، نمـوا وتطورا كبيرا مدهشا كـذلك الذى عرفته في الستينـات فحققت " نموا اقتصاديا بلغ معدله 7٪ سنويا فـالمداخيل الحقيقية للفرد قد بلغت معدل نسبة يفوق 6٪ سنويـا وهذا الرقم هو ثـلاثة أضعاف مـا كان عليه متوسط الـدخل في السنوات السابقة لعهد فرانكو وخمسة أضعاف ما كان عليه الدخل الفردي منذ أوائل القرن إلى اقـامة الجمهـورية . والفترة التي تحققت فيهـا أكبر نسبة لهذا النمـو هي الواقعـة بين سنتى 1961 و 1964 . " فخـلال هذه المدة كـانت أمـاكن عدة في أسبـانيا تبـدو وكأنها حظيرة شغل وبنـاء كبرى ، وعمال قطـاع البنـاء تخاطفتهم شركـات المقـاولـة المتنـافسة . كـان كل ما ينتج يبـاع وكـان لشركة " سيـات " لصنع السيارات قـوائم طويلـة بأسماء الراغبين في اقتنـاء سيارة والمنتظـرين لمدة طويلـة دون أن يشترطوا لـونا للسيارة المنتظرة أو يمكنوا من اختياره .

إن عدد مـالكي السيارات ومستعملي جهاز الهاتف والغسـالة وجهاز التلفـزة يدل على سرعة ارتفاع المقدرة الشرائيـة التي عمت البلاد . ففي 1960 كانت هناك عشر سيارات فقط لكل ألف سـاكن فارتفعت هذه النسبـة إلى 58 سنة 1969 وإلى 111 سيارة مقـابل كل ألف نسمة سنـة 1975 . كانت البلاد سنـة 1960 لا تنتج سوى مليـوني طن من الفـولاذ سنويـا ولم ينتـه العقـد حتى بلغ الانتاج سبعـة مـلايين طن يستهلك معظمهم داخليـا . يقول روبرت غـراهام في كتـابه " تشريح ديمقـراطية " معالجا هذا الموضوع " إن ازدياد الاستهلاك قد أدى إلى ارتفاع مواز للمرتبات والأجور التي شهدت الصناعيـة منها خلال الستينات ارتفـاعا متوسطه 7٪ وهو مـا اِنجرّ عنه تحسن في مستوى المعيشة " لقد تغيرت الوجهة الجديدة للاقتصاد ، كما سبق وأن قلنا

سنـــة 1959 انطلاقـــا من " مخطط الاستقرار " الـذي كان عبـــارة عن حـــزام تقشف سبق تحرير الاقتصـاد ودفع التنمية فكان بمثـابة المحرك الـذي دفع الآلة على طريق الانجاز الذي لعب فيه الخواص أكبر دور وأنجعه .

" فالمخطط قد أصلح أكبر الأخطاء والإعوجاجـات التي أحدثها الاكتفاء الذاتي والرشـــوة التي أصبحت وبائية مـــزمنة ولم تعد تقـوم بمهمـة الدفع والتشجيع كما كان ذلك في إيطاليا حيث ساعـدت الرشوة على دوران عجلات النظام . ثم إن المال المتأتي من اقتصاد مواز ﴿ اقتصاد مستتر يعمل بـدون تراخيص رسمية ولو أن السلطة تعلم بوجـوده ﴾ كان يعـاد استثماره فى إيطاليـا بينما في أسبانيـا كان مآلـه الاختزان في الحسابات الجارية بالمصارف الأجنبية في الخارج والاستعمال في مضاربات عقارية .

إن مخطط الاستقرار كـان الإشارة الأولى التي أعطـاها النظـام إجابة عـن المصالح الجماعية للمجمـوعة التجارية . إن مصـالح هذه البورجـوازية الناشئة كـانت بصفة متماشيـة مع الدكتـاتوريـة . فهـذه الأخيرة كانت تبحث عن فـوائد والأخرى مهتمـة بالاحترام والاستقـرار السياسي . فلم يكن أفضل لفـرانكو من انفجـار ﴿ بوم ﴾ يبرز معجزة التعصير والتطـوير ويرفع مستويـات المعيشة . وليس أحسن للأثـرياء الجدد من قروض بفوائد بسيطة ويد عاملة رخيصة وحرمان العمال من حق التكتل والتنظيم وسـوق في اتســاع متـواصل وارتفــاع في الأداءات على الـواردات وأسعـار مــرتفعـة للممتلكات الرئيسية . فالعلاقة إذن بين النظام وهذه الطبقة الجديدة كانت أكثر من رمزية " (56) .

لم تكن هذه الخمسية مقصور الإنجاز فيها على الاقتصاد . فقد عرفت هي الأخرى احـداثا سيـاسية ذات بـال كـان لها تأثيرها ورد فعلهـا المبـاشر على مستقبل أسبانيـا وخروجها سالمة من مأزق الـدكتاتورية والسلطة الفردية المطلقة إلى الملكيـة الدستورية والديمقراطية التعددية بما تحتويه من تعايش وانسجام بين كل ميولات ومذاهب وآراء المواطنين .

لقد ذكرنا سلفـا مقابلة أخرى جرت في احدى الضيعات بغـرب البلاد بين فرانكو ودون خوان آل بـربون بخصـوص مواصلـة الأمير خوان كـارلوس ﴿ الملك حـاليا ﴾

دراسته الجامعية بأسبانيا . حدث هذا بسيط في مظهره ، عميق في معناه ، قوى تأثيره على مجرى الأحداث المستقبلية . فبقاء الأمير حال دون القطيعة الكاملة بين المطالب بالعرب ، الأمير دون خوان ، وبين صاحب السلطة والقول والفصل ، فرانشسكو فرانكو . وانعدام القطيعة هذا حال دون توجيه فرانكو أنظاره وجهة أخرى لضمان خلافته وتعيين من سيتولى أمور البلاد بعده ، من غير سلالة آل بربون أو من فرع آخر من فروعها غير الذي تسلسل ونزل منه دون خوان فابنه خوان كارلوس .

وما من شك أن أعظم وأهم حدث تميزت به هذه الخمسية هو لقاء " ميونخ " أو " تواطؤ ميونخ " كما أسمته أجهزة فرانكو الاعلامية التي أطلقت العنان لغضبها الذي لم يعرف حدودا متماشيا في ذلك مع غضب فرانكو نفسه الذي استلم خبر الحدث وهو وأجهزته أكثر ما يكونون انشغالا بالوضع الاجتماعي والأمني اللذين أثرت فيهما تأثيرا كبيرا أحجام وأعداد الإضرابات العمالية والمشاغبات الطلابية وما هو أكثر وقعا ، تحركات القساوسة ومواقفهم المؤيدة للشعب في معارضته لأساليب الحكم وانعدام الحريات وهدر الكرامة والحقوق حتى أنه جاء في تصريح أحد القساوسة قوله " ليس وراءنا خمسة وعشرون عاما من السلم بل ربع قرن من النصر " مشيرا بذلك إلى التفريق الذي استمر سائدا بين المنتصرين والمهزومين وسياسة الغلبة التي كانت تتبعها الحكومة ولم تتخل عنها حتى النهاية .

لم يكن الحدث سوى اجتماع أو مؤتمر عقدته الحركة الأوروبية بمدينة ميونخ عاصمة بافاريا الألمانية الغربية من يوم 5 إلى 8 يونيو « حزيران » 1962 . لكن الجديد فيه والمهم هو أن 118 شخصية اسبانية ، بعضها أت من داخل البلاد وبعضها الآخر من المهجر قد التقت وشاركت في المؤتمر كوفد موحد يمثل أسبانيا بالرغم من تباين مذاهب تلك الشخصيات السياسية وميولاتها الاجتماعية ورغم العداء الذي كان يسود العلاقة بين مختلفها . إن المائة وثمانية عشر فارسا كانوا يمثلون مختلف تيارات المعارضة لنظام فرانكو باستثناء الشيوعيين والفوضاويين . فقد التقى هناك وتصافح ممثلون عن كل الأحزاب التي يشملها اطار السياسة الأسبانية والتي تجابه البعض منها ضد البعض الآخر في حرب أهلية دامية وستبقى مثالا يتعظ به من يريد الاتعاظ بالمآسي والألام ولو حلت بغيره .

ثمانون من الذين شاركوا في اللقاء قدموا من داخل أسبانيا ممثلين عن الديمقراطية الاجتماعية المسيحية واليسار الديمقراطي المسيحي والحركة الاجتماعية الديمقراطية وجبهة التحرير الشعبية وغيرها وكان أبرز المشاركين السيد خـــل روبلس زعيم " الشيدا" تحت الجمهورية ووزير الدفاع فيها وهو معروف بميولاته الملكية وبصلته المتينة بدائرة الأمير دون خوان آل بربون ، ووريث عرش أسبانيا آنذاك . أما من المهجر فالبقية وكانوا يمثلون الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني والمجموعة الجمهورية الديمقراطية الأسبانية والحزب الوطني الباسكي وشارك جميعهم جنبا لجنب في أعمال المؤتمر وفي اللجنتين الاسبانيتين اللتين كلفتا باعداد نص اللائحة المتعلقة بالأوضاع في اسبانيا.

لم يكن الأمر يتعدى وضع الشروط والمتطلبات التي يرى المؤتمرون وجوب توفرها في أي بلد أو نظام يريد الانتماء إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية وهي شروط لخصت في خمس نقاط هي : أن تكون للبلد مؤسسات نيابية حقة وديمقراطية وأن تضمن قوانينه حقوق الشخص بازالة الرقابة الحكومية وأن يعترف فيه بالشخصية الذاتية لمختلف المجموعات الطبيعية ويضمن الحريات على أسس ديمقراطية وحق الإضراب والسماح بتكوين منظمات لمختلف تيارات الرأي العام وأحزاب سياسية مع الاعتراف بحق المعارضة لكن هذا في نظر فرانكو أقرب شيء إلى الكفر خاصة وأن رجالا كانوا أعداء بالأمس ﴿ وعاش على عدائهم ونفورهم فرانكو ونظامه ﴾ قد تصافحوا اليوم وتواعدوا بطي صفحة الماضي والعمل من الآن ، كل في نطاقه ومكانه وحسب معتقداته على تغيير الأوضاع فى أسبانيا نحو الانفتاح والتحرر وهيمنة سلطة الحق والقانون على الجميع وللجميع . وهذا هو ما لا يفهمه فرانكو ولا الكثيرون من رجال نظامه ولذا فقد عم الغضب والاستياء وتعالت الأصوات بالسب والشتم متبوعة بالإجراءات التعسفية الظالمة ، مثل النفي في بعض صغريات الجزر الأسبانية أو التتبعات العدلية بموجب تهم ملفقة كالإضراب وغيره .

ومهما تكن تصرفات السلطات والنظام بأسره ، فان خطوة كبيرة هامة قد خطتها أسبانيا نحو الوحدة والوئام ، وضربة كبيرة وجهتها للفرنكية التي بعد انتمائها إلى معظم المؤسسات والمنظمات الدولية وبعد تحالفها مع الولايات المتحدة عن طريق

المعاهـدة الثنائية الدفـاعية الاقتصاديـة وزيارة الرئيس آزنهاور لإسبانيـا وبعد تصريحه الشهير الذي قال فيه حسب جريدة نيوز ويك الصادرة يوم 22 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1960 " لم أشعر أن هناك خوفا في أسبانيا فكل أولائك الذين التقيت بهم قد تحدثوا إليّ بكل حرية " ، بعد كل هذا لم يبق سوى دخول المجموعة الأوربية الحديثة الانشاء والتي طلبت أسبانيا الدخول في عضويتها في شهر فبراير الذي سبق المؤتمر ، والقضاء بذلك على مركب سـاور البلاد طويلا من يوم أن قال نابليـون " بأن أوربا تنتهي عند جبال البرانس " .

لكن ها هي الأمور تتعقد من جراء هذا المؤتمر و " خيانة " من لا يعملون صراحة وجهارا حسب قول فرانكـو نفسه في خطاب ألقاه بضواحي مدريـد أثناء تخليد ذكرى إحدى معارك العاصمـة أثناء الفتنة إذ جاء في خطابه قـوله " ان الأمر يتعلق بالصراع الصريح النبيل الذى جرى البعض منه يوما ما في ميادين القتال لدينا ، بل باجراءات غير معترف بها وبالطعن والافتراء وشراء الضمائر وتنمية الخيانات وبكل ما هو دنيىء سافل وهو ما يميز تلك المنظمات .

لكن كل هـــذا لم يحل دون الاستمـــرار في الاتجاه الـــذي سبـق اتخاذه في أواخـــر الخمسينـات وهو الاعتماد على التقنيين والسير قـدمـا في الانفتاح الاقتصـادي فأبقي فرانكو في حكومته التي شكلها يوم 10 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1962 على كل التكنوقراطيين وخطى أخرى هـي إبدال وزير الاخبـار والسياحـة الذي جسّم الـرقابـة المتشددة أيما تجسيم بـاستاذ جـامعي سيعمل أو يحاول دفع النظـام نحـو الانفتـاح والتحرر وهـو الأستاذ مانـوال فراغـا ايريبـارني الذي لعب دورا مهما في مجال حـرية الصحـافة التي خففت عليها الـرقابة تخفيفا كبيرا ملحـوظا ومدهـا بقانون جديـد اعتبر ثورة في ذلك الوقت وحتى اليوم لاتزال فصول كثيرة منه صالحة مناسبة .

ولم يحل ذلك أيضا دون تصـاعد نشاط الحركات المعارضـة التي لم تعد مقتصرة على الطبقة الشغلية بل تعـدتها إلى الأوساط الطلابية ورجال الفكر فتشهـد هذه الخمسية ميلاد الكنفيدرالية الديمقراطية الجامعيـة الأسبانية التي ضمت أساتذة بارزين منهم أنريكي تيارنـوغالبان الذي لعب هو الآخـر دورا مهما في مقاومة الدكتاتـورية فتعرض كغيره إلى العـزل والسجن والإهانـة والمراقبة لكنـه مثل الكثيرين من زملائه وطلبتـه ،

واصل العمل وساهم بقسط كبير في بناء الديمقراطية التي تنعم بها البلاد اليوم ومات وهو عميد بلدية مدريد للدورة الانتخابية الثانية فبكته البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولا شك أنـه سيبقى رمز الكفـاح ورجل الفكـر الذي ليس لـه سـوى كلمته وسيلـة وسلاحا .

الفصل الثامن

بروز المعارضة

نحن الآن في النصف الثـاني من الستينـات وفي بلـد تغيرت صـورتـه كما تغيرت تشكيلته الاجتماعيـة إذ أصبحت فيه طبقة متـوسطة عريضـة كانت منعدمـة أو تكاد وظهر جيل جـديد لم يعش الحرب الأهلية وفي كثير من الأحيان لم يسمع عنهـا لامتناع الأبـاء وغير الأباء عن اثـارة ذلك الموضوع الأليـم وما يحيط بـه من " محرمات في نظـر السلطة القـائمة . في سنـة 1965 بدأت خمسيـة جديـدة كان يمكن لنـا تسميتها " الصحـوة " أو " اليقظة " أو " الجيل الجديـد " أو " البحث عن المفقـود " أو غير ذلك من عديد الأسماء والنعوت والأوصاف التي تنطبق جيدا وهذه الخمسية وتتماشى ومـا شهدتـه من أحـداث وتحركات كـانت في معظمها حـاسمـة بالنسبـة للمستقبل القريب الـذي تلاهـا . لكننا فضلنا تسميتهـا بروز المعارضـة لأنه كـان من المفروض تخصيص باب كامل للمعـارضة ضد نظام فرانكـو وحكمه ولكن لا الباب يكفى ولا المجال يناسب ، إذ ليست المعارضـة موضوعنا الرئيسي ولو كـان الأمر كذلك لاحتاج إلى مجلدات . لكن لابـد لنا ونحن نستعـرض عهد فـرانكو ونظامـه من الحديث عن المعـارضة التي لم تنقطع أبـدا وبدأت ببـداية النظـام متخذة أشكـالا متعددة ومتبعـة أساليب مختلفـة حيرت النظام حينا وقمعهـا أحيانـا إلى أن انتصر الحق وعلا وحققت البلاد مطمحها في الحريـة والديمقراطية . وعند الحديث عن المعارضـة لابد من ذكر حقيقتين لا جـدال فيهما وهما أن المعـارضـة بمختلف أشكـالها وطـرقهـا وأسـاليبهـا واتجاهاتها السيـاسية والعقائدية لم تستطع ازاحـة فرانكو عن السلطة بل بقي متشبثا بها ماسكا مقاليـدها إلى أن أنهكته السنون فمات وسنه ثلاثة وثمانـون عاما وهو رئيس للدولة . أما الحقيقة الثانية فهى أن الشيوعيين على مختلف مستوياتهم قد تحملوا أكبر نصيب من هذه المعارضة التي كانت ثمرة مجهود جماعي متنوع ولو أنه لم يوّحد .

أما اختيـارنا لهذه الخمسيـة للحديث عن المعـارضة فهـو عائد إلى تميـز هذه الفترة بحركة بارزة منها ومقاومة متزائدة . فهي في هذه الفترة قد خرجت نوعا ما من سريتها وكشفت عن وجههـا وأصبحت تتحرك تحت ضـوء الشمس وفي الشوارع والطـرقات بعـد أن قضت أكثر من عقـدين تعمل في الخفـاء ولا يظهـر من أعمالها إلا ما كـانت تتسرب أخباره عن طـريق المناشير السريـة أو من لسان إلى أذن . فـالصحافـة كانت

ملجومة والرقابة شديدة ولم يكن ينشر إلا ما يروق للنظام وما يجمّل صورته فدفع هذا الوضع بالكثيرين إلى " المغامرة " بالاستماع إلى إذاعة لندن أو إذاعة الحزب الشيوعي السرية التي كان يظن أنها تبث من داخل البلاد لإذاعتها أحدث الأنباء وأخبار أجد الأحداث بالرغم من أنها كانت تبث من الخارج لكنها كانت تعتمد على شبكة اتصالات ثابتة ناجعة العمل والانجاز .

بدأت المعارضة كما قلنا ، وكما هو طبيعي ، مع النظام الذي قاومته وقاومها فكانت مجهودا وتضحيات فردية وجماعية خليقة بكل احترام وتقدير . لقد اتخذت المعارضة أشكالا مختلفة واستعمل المعارضون كل الوسائل التي تمكنوا منها وكل الحيل التي أوصلها إليهم تفكيرهم واجتهادهم فأصابوا حينا وأخطأوا أحيانا وكانوا واقعيين مرات وخياليين مرات أخرى فكان لأعمالهم تأثير يذكر في بعض الأحيان وذهبت مجهوداتهم سدى أحيانا أخرى لكن نحن واثقون من أن كل تلك الأنشطة والعمليات قد أفادت على الأقل في " خلق شعور وحدة وجو توافق وتناسق ديمقراطيين كان لجميعها تأثيره في ما بعد . أكيد أنه في كثير من الأحيان كانت نتائج العمليات التي أنجزها أعداء الفرنكية قليلة الفائدة والتأثير على الوضع ، لكن جميعها وكل واحدة منها كانت نواة ديمقراطية وحبة أو حفنة تراب قدمت لبناء وتشييد المجتمع الحر الجديد " (57).

انبثقت المعارضة مع دخول طوابير المنتصرين في الحرب الأهلية ومسيرتهم في استعراضات في شوارع كل مدن أسبانيا حيث تنفس الجميع الصعداء لنهاية الحرب لكن دون أن يشمل الفرح الجميع لأن جانبا كبيرا من المواطنين " سيدخل منذ ذلك الحين النفق الطويل ، نفق القمع والمحتشدات والسجون أو دهاليز الاختفاء السرية " فقد بدأ العهد بالرعب إذ كان يعدم الفرد دون تمييز ولا محاكمة وكانت أسبانيا كلها أقرب شيء إلى سجن كبير فظهرت المقاومة المسلحة في شكل عصابات انتظارا أو أملا في أن يقضي الحلفاء على إثر الحرب العالمية الثانية على فرانكو ونظامه . وفشلت هذه المحاولة كما فشلت كل محاولات توحيد المعارضة والمقاومة لكن شيئا فشيئا تكاثرت المجموعات وتحركاتها فكانت الإضرابات العمالية والعمليات الإرهابية الفردية والعصيان المدني ◆ إضراب شعب برشلونة عن استعمال وسائل النقل

العمومية في شهر مارس ﴿ آذار ﴾ 1951 والتظاهرات الطلابية ومواقف رجال الفكر والقلم إلى غير ذلك من مظاهر ونشاطات معارضة حتى إذا ما جاء عقد الستينات كانت المعارضة منتشرة واسعة القواعد مما جعل من الصعب انتسابها لحزب أو أحزاب معينة واقتصارها على أنصار تلك الأحزاب . فإلى جانب الحركات الحزبية والنقابية كان هناك نشاط مجموعات عاملة ذات صبغة مهنية أو غيرها وقفت كلها مواقف سياسية أثرت على الحياة العامة ومجراها . من بين هذه المجموعات المنظمات الكاثوليكية وخاصة منها منظمتها العمالية والشباب العمالي وغيرها كثير .

" منذ سنة 1942 ورغم الظروف المختلفة التي لا تسمح بالمعارضة بدأت هذه تتبلور وكانت لها صور متعددة . إحداها ما يسمى بالمعارضة الملكية المكونة في الحقيقة من رجال كلهم من البورجوازية العليا وأوساط قريبة منها بدأوا يبتعدون عن السلطة الفرنكية المطلقة كلما بدأ نجم المحور النازي يأفل وتدور الأمور معاكسة له . أما الثانية فكانت ذات مظهر ديمقراطي سميت أيضا معارضة جمهورية لأنها شملت أحزاب ومجتمعات الطبقات المتوسطة والأقاليم ذات الشخصية الخاصة ومختلف التيارات العمالية وأخرى تشكل النوعين الأولين هي المعارضة في الخارج مع العلم بأن القيادات العليا للأحزاب الديمقراطية وللحركات العمالية قد عملت وسيرت دوما من الخارج " (58) .

<u>محاولات</u> : استمرت المعارضة الحقيقية تعمل بدون نظام ولاتنسيق فالحزب الشيوعي واصل سياسته الباحثة عن تحقيق وحدة وطنية دون أن يشاركه فيها أي من الأحزاب الأخرى . والحزب الاشتراكي استمر يشكو تصادم الاتجاهات فى داخله وداخل نقابته التي جددت تنظيم هيكلها في المهجر وكانت تعاني تصادم الاتجاهين المسيطرين عليها وهما التعاون مع الشيوعيين وعدم التعاون معهم ، بينما جرت محاولات لتأسيس اتحاد آخر في الداخل . نفس المحاولة قام بها المنتسبون للنقابات الفوضوية ث . ن . ت . دون أن يصلوا إلى نتيجة وبقوا كما بقي النقابيون الاشتراكيون ، تابعين لقيادتهم في الخارج . في الوقت نفسه تواصلت المجهودات وتعددت المجموعات التي منها الاتحاد الوطني للقوات الديمقراطية الذي كانت رغبته وهدفه المحافظة على استمرارية تاريخية الديمقراطية الجمهورية وجعل حرية القرار بخصوص الأشكال السياسية ودواليبها أمرا ممكنا . وأنشئت أيضا بفرنسا المجموعة

العسكريـة الجمهوريـة الأسبانية التـي ضمت ما يقرب من 300 ضـابط من الجيش الذي حـارب إلى جانب الجمهـورية . كما أنشيء " تحالف القـوات الديمقـراطية " بـداخل البلاد وآخـر مواز لـه وسميّـه بمنطقة قـاطـالونيـا و" تجمع القوات المسلحـة الجمهوريـة الأسبانيـة " وعدد كبير من المجمـوعات داخلا وخـارجا ، بـاتصال بين الفرعين أحيانا ، إذا كان للمجمـوعة أصل في الخارج ، وبدون أي أتصال أو تنسيق أحيانـا أخرى . بـالاضافة إلى هـذه الشبكة الواسعـة المشتتة من الفـرق والتشكيلات يجب اضـافة تلك الكثيرة أيضـا التى اتخذت طابعـا اقليميا بحتـا وحصرت أهدافهـا وغاياتها ونشاطـاتها في الإقليم الذي تنتسب إليه ونذكر بالـذات تشكيلات وحركات إقليم قاطالونيا وبلاد الباسك .

وهكذا بدت صورة البـلاد وهي مزروعة تكتلات وجماعات وبـرزت فيها وخارجها شبكة عريضـة منوعة من أعشاش وخلايا المقـاومة وإن دل ذلك على شيء فأنما يدل على أن جانبا كبيرا من الشعب الاسباني لم يهضم ولم يقبل الهزيمة وهو مصمم على أن لا يذعن للدكتاتورية ولا إلى قمعها .

وكما قلنا سلفـا ظن الكثيرون من الأسبان أن الحلفاء إذا مـا انتصروا سيعملون على الاطاحة بنظام فـرانكو لتعامله وتعاونه من دول المحـور ولذا رأوا من واجبهم مواصلة الحرب ، لكن ضد المحور هـذه المرة ، مع استئنافها في شكل آخر ضد فـرانكو . أما هـذا الشكل الأخير ، فقد ذكـرنـا في ايجاز واقتضـاب المحاولات التي قـام بها الحزب الشيوعي بتنظيمـه عصابات في عدة نقـاط بالتراب الاسباني نفذ عـدد منها عمليات جريئة واحتل مواقع لكن سرعان ما خسرها وأجبر المقاومون الذين نجوا ، على اللجوء أو الأختفاء ومواصلة العمل سرا .

أما الطريقة الأخرى وهي مقاومة المحور ، فقد كنا أسعد حظا واستطاع المناضلون الأسبان اثبات شجاعتهم وتعطشهم لانتصـار الحق والحرية . فقـــد انضم مـــا يزيـــد عـــن الستـــة آلاف متطوع الـــى القـــوات الفرنسية بالداخـــل ﴿ف . ف . أ . ﴾ وهي القوات التي نظمت داخل فرنسا بعد احتلالها من طرف الألمان والتي أدارت وقامت بـالمقاومة ضـد المحتل وبمساعدة الحلفـاء سريا وبغير ذلك من الأعمال إلى أن تم تحريـر فرنسـا من النازيـة فأبلوا البـلاء الحسن حتى أن بعض المدن قـد حررها المقاومون الأسبان وحدهم مثـــل " تارب " و " آلبى " و " بو" وغيرها

وساهموا مع قوات فرنسية في تحرير مدينة تولوز وخاصة تحرير مدينة باريس العاصمة فكانوا هناك ضمن جيش اللواء لوكلارو وهم أول من وصل إلى بلدية باريس حيث استقبلوا من طرف المجلس الوطني للمقاومة .

لكن ، كما أشرنا إلى ذلك في حينه ، لم يقف الحلفاء من نظام فرانكو الموقف الحازم والعدائي الذي كان يظنه ويأمله الكثيرون من الأسبان بل اكتفوا بأدانته إدانة لم تدم هي الأخرى طويلا فألغيت ليحل محلها التعاون والتبادل الاقتصادي والدفاعي فكانت خيبة الأمل لدى الذين ظنوا خطأ أن انتهاء الحرب العالمية الثانية هو نهاية الظلم وانتصار الحق وهو انهزام العبودية وفوز الحرية إذ الواقع هو ما قاله شاعر تونس الشهير أبو القاسم الشابي :

" لاعدل الا ان تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب " .

لاشك وأن كل شيء يتطور حتى المعارضة التي ما أن دخلت الخمسينات حتى أصبحت ذات أبعاد أوسع داخل البلاد ولم تعد أهدافها ولاغاياتها صورة تعكس خلافات وأوضاع البلاد خلال الحرب (1936 / 1939) كما لم تعد مكونة ممن كانت لهم مسؤولية أو كانوا طرفا في النزاع والقتال إبان الحرب الأهلية ، بل سرى فيها دم جديد ، وحمل لواءها جيل جديد فكانت لها استراتيجية مختلفة عما كانت عليه وأهداف هي الأخرى مختلفة . وباختصار يمكن القول كما قال المؤرخ الأستاذ تونيون لارا في كتابه " أسبانيا تحت الدكتاتورية الفرنكية " بأن المعارضة في الخمسينات تغيرت إلى أشكال ثلاثة : أولا في أهدافها لأن الحلول ذات الطابع العنيف أو التمردي قد أصبحت أقلية ثانيا في تركيبها السياسي والاجتماعي والجيلي لا لظهور معارضين لم يعيشوا الحرب فحسب ، بل لوجود جوانب من الطبقة المتوسطة ذات اتجاه سياسي معتدل لم تكن موجودة في المعارضة التي تلت الحرب وثالثا في شكل تنظيمها إذ أن انغراسها في المراكز الجامعية من جهة وداخل المنظمة النقابية ﴿منظمة حكومية وحيدة كما هو معلوم﴾ سيكون النواة لشبكة من العناصر أخذت تتمركز في مواطن الشغل والمدارس المهنية وغيرها عند انتهاء الخمسينات " .

<u>الثوب الجديد</u> : من هنا يمكن أن نستنتج أن هذا العقد كان بمثابة مرحلة

المخـاض أو فترة التنقية التي خلعت فيهـا المعارضـة ثيـابها وأشكالها البـالية لتبـدلها بمكونـات وعناصر وطرق وأهـداف جديدة تتماشـى وتتناسب والظرف الـذي تعيشه البـلاد وهـو مـا لم يفهمه معظـم القادة المعـارضين بـالخارج لجهلهم حقيقـة الأمـور بالداخل وعدم معرفتهم ما أصبحت عليه البلاد والعباد بعد أكثر من عشرين عاما . لذا تسببت هـذه الحال في الكثير من النزاعـات بين القيادات في الـداخل والقيادات بالخارج بلغت حدود الشطط والحدة والقطيعة في بعض الأحيـان وكانت هذه ظاهرة عامـة لم يسلم منهـا أي حزب أو مجموعـة وما الفـرق إلا في المنتصر ولو أنـه في معظم الحالات والأحـزاب كان الفـوز للقيادة بـالداخل إلا الحزب الشيـوعي فقد حـافظت قيادته العليا بالخارج على مركزها ومكانتها لما أظهرته من مرونة أولا ثم لكثافة الاتصال بين الجانبين فكان كلاهما امتدادا للآخر .

أشرنا سابقا وعدة مرات أيضا إلى كثرة الأحزاب والمجموعات والخلايا التي تكونت منها المعـارضة وهذا أمـر ولئن كان يؤسـف له ، فهو طبيعي بعض الشيء إذا اخـذنا بعين الاعتبـار ظاهـرتي العمل السري وشدة القمع . ولهذا يصعب علينـا كما صعب على غيرنا إعطاء قائمـة كاملة بكل الكتل ، كبيرة كانت أو صغيرة ، أسهمت بشكل أو بآخر في معـارضة نظـام فرانكو خـاصة وأن الأمر ليس مـوضوعنـا الرئيسي . لكن سنحاول إعطاء القـارىء فكرة عن أوسع تشكيلة ممكنة من الجمعيـات والخلايا التي قامت ، في نظرنا ، بعمل ذي نتائج ولـو بعيدة أو استقطبت عددا كبيرا من الأنصار والمنتسبين .

كانت هناك ما يمكن أن نسميه بالمعـارضة الملكية المكونة في معظمها من الطبقات المهيمنة مالياً واقتصاديـا والتي تبحث عن تغيير كبير في الآلة السياسية دون أن تبدي رغبـة واضحة في تغيير الأوضـاع الاجتماعية . وكـان هناك مـا يسمى بالـديمقراطيـة المسيحيـة التي ، بعد تشكيـلات عدة وفـروع كثيرة وأسماء أكثر ، أسفـرت على اسم اليسار الـديمقراطي المسيحـي كأن المسؤولين أرادوا بذلـك " التقرب من مجمـوعات أخرى والتعاون معها " . كان هذا التنظيم يتزعمه الأستاذ خل روبلس الوزيرالأسبق بالجمهـورية ورئيس " الثيدا " الشهير وهـو زعيم معروف بميـولاته الملكية وقـربه من الأمير دون خوان آل بـربون . ثم كـانت هناك عـدة تنظيمات اشتراكية غير تـابعة ولا

منضوية تحت لواء الحزب الأشتراكي العمالي الذي كـان يشكو منذ أواخر الخمسينات وإلى بداية السبعينات مرض الصراع والخلاف بين الـداخل والخارج الذي تحدثنا عنه سلفا . من تلك التنظيمات الاشتراكية التي تعاونت عند الحاجة مع الحزب الاشتراكي نذكـر الجمعية الاشتراكيـة الجامعية والحركة الاشتراكيـة بقاطـالونيـا إلى جانب الحزب الاشتراكي الموحد بقاطالونيا .

كذلك الأمر بـالنسبة للحزب الشيوعي الـذي عقد خارج أسبانيـا مؤتمره السادس فأتى بالسيد سانتياغو كارّيو إلى الأمـانة العامة فعرف الحزب تحولا كبيرا وأخذ منعرجا كان لـه أثر كبير على تاريخ الحزب وتاريـخ أسبانيا . لقد أدخلت على قـانون الحزب تحويرات تميـزت بالمرونة والاعتدال كما نـودي باستدعاء الحزب للقيـام بكل التنازلات بغية الوصول إلى تفاهم مع كل قوات المعارضة . جـدير بالذكر أيضا الحركة المسيحية القطالانية والديمقراطية المسيحية بقاطالـونيا وفروع الشباب التابعة للأحزاب الكبرى كالحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي .

ولابد أيضـا من التذكير بالتنظيمات التابعـة بصورة أو بأخرى إلى الكنيسـة . فهذه الأخيرة ، كما عرفنـا ، وقفت إبان الحرب وبعـدها إلى جانـب فرانكو ونظـامه وأيـدته وباركته وأصبغت أو كادت صفة القداسة على حـربه وحركته من بعدها . لكن شيئا فشيئا تطورت الأمور وظهر من بين رجـال الكنيسة ، خاصة من بين الشباب منهم ، أي القساوسة المتصلين مباشرة بعامة الشعب وجماهيره الدنيا في صغار المدن والقرى ، ظهر رجـال لمسوا مآسي تلك الجماهير وقسـوة الحكم عليها وانتبهوا إلى مخالفـة النظام المحتمي بالدين لأبسط تعاليم الدين ومنها العدالة والحق والرحمة . وفي هذا الصدد ، قـال لنا الأستـاذ خـواكين رويث خيمانات محامي الشعب حـاليـا وأحد كبـار الاتجاه الـديمقراطي المسيحي الـذي حـاول من كرسي وزارة التربيـة الـوطنية أن يجعل نظـام فرانكو أكثر انفتاحا ويسمح بأكثر قدر من الحريات العامة فلم يفلح مسعاه فعاد إلى ميدان الفكر ، وهو من رجاله ، ولما حانت الفرصة ساهم ، عن طريق مجلة أصدرها بعنـوان " كراسـات للحـوار " في تغيير عقلية لا المسيحيين فحسب بل في عقليـات مختلف الفئات داخل المجتمع الاسباني . قال لنا الأستاذ ، في مقابلة معه خاصة بهذا الكتاب ، " قد تأثر المسيحيون بالبـابا يوحنا الثالث والعشرين وبما صدر عن مجلس

الفاتيكان فى عهـده فكان عظيم التأثير في تغيير العقلية الدينيـة لدى جانب كبير من المسيحيين فأرادوا آنـذاك أن يطـرحوا جـديـا مسألـة التعايش وهكـذا فعلـوا في ذلك الاجتماع المشترك الذي عقده القساوسة والأساقفـة والذى أنتهي بالعناق مه المغلوبين واتخاذ موقف طالب المعذرة للافراط الذي اقترف والأخطاء التي ارتكبت " .

بهذه الـروح ظهرت المعـارضة الكنيسيـة أول ما ظهـرت داخل الحركة العماليـة عن طريق منظمتين نشطتا أيما نشاط في أواخـر الخمسينات وهما الشباب العمالي المسيحي والأخوة العمالية للحـركة المسيحية ، ثم تطورت مـع مرور الأيام إلى معارضـة سياسية يعلنها القسـاوسة في عـدة مناسبـات وعلى أشكال مختلفـة كالتظـاهر في الشـوارع أو الاعتصام بالأديرة علاوة على مد يد المسـاعدة إلى المعارضين الآخرين بايوائهم أو ايواء ملتقياتهم واجتماعاتهم السرية .

وهناك طبعـا المنظمات العمالية التقليديـة كالاتحاد العام للشغل الاشتراكى النـزعة وبقايا النقـابات الفوضويـة " ث . ن . ت . " وحركات جديـدة ولدت داخل النظام وبالـرغم منه مثل الاتحاد النقابي العمالي وبعـده اللجان العمالية . لكن لا تكـون هذه الصورة قـريبة من الحقيقة ، ولو أنها صـورة غير مكتملة ، إلا إذا ذكرنا حـركتين لعبتا دورا هاما على مسرح السيـاسة الأسبانية خـلال العقود الأخيرة . أولاهما هي " جبهة التحرير الشعبية " التي أنجبتها الظروف والتي رغم طابعها الاشتراكي حرصت فوق كل شيء على بلوغ توحيد حركة المعارضة وحدة لاتصدع فيها ، وهكذا ضمت الجبهة نفسها عناصر امتدت ميولاتها من أقصى اليسـار إلى اليمين مرورا بالوسط ولذا انتهى كل منها في الحزب الملائم لميولاته بعد انحلال الجبهة ، التي كان لها أيضا فرع شباب تحت اسم اليسار الجامعي الجديد .

أما الحركة الثانية فهي باسكيـة المنشإ والهدف . فالحزب الوطني الباسكي قد عرف في الخمسينات انخفاضا في حماس جانب من أنصـاره الشبان خاصة منهم الآتين من الطبقة البـورجوازية الصغـرى . وبعد فترات من النـزاع والأخذ والرد وبعـد انفصال بعض العناصر وتأسيس حركة خـاصة بهم ، احتد الموقف بين هؤلاء الشباب والحزب فكانت القطيعة . وفي صيف 1958 أسست أغلبيـة المنفصلين فى بداية عام 1959 منظمة باسكية جـديدة أسموها " أووسكادي تا آتكاتاسـونا " أي وطن وحرية وهي

منظمة عرفت منذ ذلك الحين بالأحرف الأولى من كلمات أسمها الثلاث فصارت " ايتا " نفس " ايتا " الانفصالية الارهابية التي لاتزال إلى اليوم تقض مضجع السلطات الأسبانية رغم كل الحريات الممنوحة والسائدة في البلاد وهي التي لاتزال تذهب بأرواح العديد من الضحايا الأبرياء .

بدأت " ايتا " نشاطها بكتابة الشعارات على الجدران وتعليق العلم الباسكي في الأماكن العامة وزرع ايديولوجيتها عن طريق نشرية اسمها " توتيك . مع بداية الستينات تعرض أعضاؤها إلى الايقاف والسجن فشرعت هي في عملياتها الإرهابية . وأخيرا وإلى جانب ماذكرنا ، وغيره كثير ، قد تكتمل الصورة بعدد من الجمعيات الطلابية وحركات الشباب التي سيكون لها أيضا دورها الكبير والتي سيخرج من الكثير منها الرجال الذين حققوا ما كان خيالا فمكنوا البلاد من الانتقال من دكتاتورية فردية إلى ديمقراطية جماعية دون عنف ولا هزات وكثيرون اليوم في أعلى المناصب المسؤولة عن تسيير دفة البلاد ومؤسساتها .

بهذه المجموعة الكبيرة من الكتل والمنظمات والمجموعات والنقابات تصاعد العمل وتضاعف نشاط المعارضين متخذا كل الأشكال الممكنة : إضرابات عمالية وطلابية (309 إضرابا سنة 1968) جرائد ومناشير سرية ، عرائض وتصريحات ﴿ منها عريضة القساوسة الشهيرة التي وقعها 339 قسيسا من بلاد الباسك انتقدوا فيها انعدام الحريات وعدم إنسانية تصرفات الشرطة ﴾ ، إحياء ذكرى أحداث هامة ﴿ مثل موت الشاعر أنطونيو ماتشادو الذي ساهم في إحياء ذكراه كل رجال الفكر تقريبا باستثناء القلائل المتعاملين مع النظام ، والذي تبعه اعتقال جماعي للمشاركين ﴾ ، وغير ذلك من الوسائل السلمية رغم كل ما يجابهه المعارضون من تعذيب واعتداء على الجسد والكرامة وما تقابل به الجماهير المتظاهرة من خشونة وحتى وحشية في بعض الأحيان .

<u>روح التعايش</u> : لم تقتصر المعارضة على مجابهة السلطة والحكام وقوانينهم بل سعت أيضا إلى زرع روح جديدة بين المواطنين ، روح بعيدة عن آثار الحرب الأهلية وبقاياها من بغضاء وحقد وكراهية ونفور وحب انتقام . سعت إلى خلق تصالح فتفاهم بين كل المواطنين لأن الوطن واحد وهو وطن الجميع . ونعود مرة أخرى إلى ما قاله لنا في

هذا الخصـوص الأستاذ خواكين رويث خيهانث وهـو أن " التصالح أسهم فيـه أيضا المسيحيون المتأثـرون بقرارات الفاتيكان ومثال البـابا يوحنا الثـالث والعشرين فعملوا على تغيير عقلية المسيحيين في أسبانيا الذي ساهمت فيـه بصفة فعالة جماعة المبشرين والأساقفة وفي مقدمتهم الكاردينال أنريكي اي تارانكون الذي لعب دورا هاما في هذا الاتجاه ، ومن جهـة أخرى نجـد أن عدة زعماء مـاركسيين قد فهمـوا أنه لم يعـد ممكنا التصرف تحت تأثير الحقد وأنـه لا يمكن السير عن طريق الأخذ بـالثأر أو الانتقام . ويجب هنا الاعتراف بأهميـة موقف السيـد سانتيـاغو كاريّـو بهذا الصدد . لقـد كان مقتنعـا بأن الحزب الشيـوعي يجب أن تعترف بـه الملكية وإذاك يسهم في ديمقـراطيـة أسبانيـا ، وفي تقدم سلمي . وكان الأمـر كذلك . كان زعيم الحزب الشيـوعي أمينا مخلصا وفقـا لهذا الشرط . وفي الحزب الاشتراكي كان يـوبس أمينه العـام ولما أنتخب فيلبي غونثـالث لذلك المنصب أصبح واضحا أن كل المعطيات الايجابيـة قد تجمعت للتصالح " .

بهذه الروح دعت منظمات منها الحزب الشيوعـي ، كما رأينا في قول الأستاذ رويث خيمانث وجبهة التحـرير الشعبيـة واليسار الديمقـراطي المسيحي والعمل الاجتماعي الـديمقـراطي ولجنــة التنسيق الجامعيـة والحركـة الاشتراكيـة بقـاطــالـونيـا والاتحاد الديمقراطي القاطـالاني ، دعت إلى تنظيم مظاهرة سلمية بكامل تـراب الوطن تدعو المواطنين إلى التصالـح ونسيان الماضي وفتح الباب للتعـايش في كنف الـوئام والأخوة الوطنيـة . وزعت المناشير لتهيئـة الرأي العـام وتهيأت البلاد للحـدث ، لكن تهيأت معها أجهـزة القمع والتعسف الحكـومية وأجهـزة اعلامهـا فكانت الـدعايـة المضادة والتذكير بروح الفتنة وكانت أيضا الاعتقالات على أوسع نطاق .

وهكذا لم يأت النصف الثـاني من الستينات حتى كانت المعـارضة عاملا فعـالا له تأثيره في الأحداث متخذة لنفسها صبغة جديـدة وأشكالا تنظيمية حديثة . فهي منذ أوائل الستينـات قـد تمركـزت في الـداخل واعتبرتـه مسرحهـا الطبيعي ثم إنها عملت وانتشرت بين الطبقـات الشعبية على اختـلافها وتميـزت أيضا ، على الأقل في أوسـاط القادة ، وبـالميل إلى عزل الحزب الشيـوعي أو الابتعاد عنه كأنها تـريد بـذلك اسقاط أكبر حجة استعملها النظام أثناء الحرب أولا ثم خـلال الأربعة عقود التي حكم فيها

البلاد ، وهي أنه جاء لمحاربة الشيوعية التي تؤمر وتسير من الخارج فهي إذن غير وطنية ، أو لعل المعارضة قد شعرت بالحضور الأميركي في البلاد وقدرت تأثيره الكبير و تأثير بقية الدول الغربية ان دعت الحاجة فحاولت طمأنة الجميع عن أن مسارها غير معاد للغرب ولا هو متأثر بما قد يأتي من الشرق . ورغم هذا فقد واصل الحزب الشيوعي نشاطه المكثف كبقية المنظمات وفي بعض الأحيان أكثر منها وأعم وأنجع مستعملا كما قلنا المرونة واللين في موافقه ومطالبه ومبتعدا عن خط موسكو حتى كادت أن تكون القطيعة كما سنرى في حينه . وكما كانت المعارضة تنظم صفوفها وتنسق نشاطاتها وتكيف تحركاتها وتعبيراتها بما يتطلبه الظرف ، وكذلك السلطة كيفت نفسها وحورت أسسها وهياكلها بما يتماشى والظروف وبما تقتضيه الأوضاع حسب ما كان يراه فرانكو والمقربون منه ومن قراره .

لقد بدأ النظام هذه الخمسية بتحوير وزاري جديد أجراه في 7 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1965 تميز بعدة ظواهر . أولاها نوعية الوزراء ومراكزهم داخل المجلس وهنا نلاحظ الحرص على إيجاد أكثر انسجام بين الأفراد ، وصعود المقتدرين منهم إلى الوزارات الحساسة وذات الانعكاس الواسع على البلاد والشعب . وثانيتها الاستغناء عن خدمات الوزراء الذين استهلكتهم السلطة أو الذين لم تعد تتماشى عقلياتهم والظرف إذاك . والظاهرة الثالثة هي ابقاء وزارتي " الحركة " ﴿ أي الحزب ﴾ والأخبار والسياحة بأيدي رجلين عملا ما استطاعا من أجل التفتح وإدخال بعض المرونة والحرية على الأساليب والنظم المتبعة حتى ذلك الحين . أولهما هو الأستاذ خوزي سوليس الذي استطاع الحصول على تجاوب كبير في الأوساط النقابية الأوربية وحتى السياسية وثانيهما وهو الأكثر أهمية وتأثيرا هو الأستاذ مانوال فراغا ايريبارني الذي من منصبه كوزير مسؤول عن الأخبار والسياحة قد أعد الوسائل الأساسية لفتح باب الديمقراطية فى القطاعين السياسي والثقافي وأهم تلك الوسائل قانون الصحافة والطباعة والنشر الذي ، وان كان منقوصا ، فهو في تلك الظروف بمثابة الثورة العميقة التى غيرت بشكل واضح ملموس وفي عمق مشهود صورة الأعلام وخاصة منه السياسي ووضع وسائل النشر والاخبار . فهذا القانون الذي صدر في 18 مارس ﴿ أذار ﴾ 1966 قد وعد به الاستاذ فراغا منذ توليه الوزارة سنة 1962 وهذا التأخير يدعو إلى الظن بأنه جابه صعوبات جمة لإصداره ولكنه أصدره

فخفف به وطأة الرقابة وفتح به المجال للصحفيين كي تتسرب مقالاتهم فتنتشر ولو وسط بحر من المنشورات والنصوص الرسمية .

وهذا القانون قد ساعد أيضا على تحطيم الاحتكار الكامل الشامل الذي كان يشكو منه ميدان الإعلام لأنه مكن من ظهور بعض النشريات الجديدة أو تطور بعض القديمة . ما من شك أن أبرز وأهم المطبوعات الجديدة هي مجلة " كراسات للحوار " التي صدرت تحت إدارة ومسؤولية الأستاذ خواكين رويث خيمانث الذي تولى ، كما أسلفنا ، وزارة التربية لعدة سنوات حاول منها دفع الوضع إلى الانفتاح واتخاذ شكل أكثر إنسانية وتحررا ولكنه اصطدم بجدار التصلب والتعصب فأبعد عن تلك المسؤولية . أما الآن فها هو يستغل قانون الصحافة الجديد ولربما أيضا صداقته مع الأستاذ فراغا فهما زميلان في مجال التدريس الجامعي ، فيصدر مجلة ظهرت من يومها الأول بمظهر المسرح الذي فوقه ستلتقى كل المساهمات وفوق ركحه سيجري الحوار بين كل الاتجاهات والميولات فأصبحت ، وهذا ما أراده لها صاحبها ، مجلة كل المعارضة .

من الخطوات الأخرى التي اتخذها النظام لتكييف نفسه ومماشاة الأحداث والأوضاع قانون تأسيسي آخر هو قانون نظام الدولة الصادر في 10 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1967 . إنه عبارة عن دستور محدود المرامي ، مقتصر على نظام أو هيكل الدولة فجاء واصفا لها بأنها مملكة دون الأشارة إلى مصدر السلطة فيها . أما عقيدتها أو ايديولوجيتها فقد أخضعها القانون الجديد هذا ، إلى مبادىء وتعاليم الحركة الوطنية التي حددها وبينها القانون الصادر في 17 مايو ﴿ أيار ﴾ 1958 . وتبرز أيضا في القانون الجديد صورة الملك مقيدا بمجلس المملكة ﴿ كأنه مجلس وصاية ﴾ واسع السلطات . ويتبين من هذا القانون أن النظام كان يبحث ، تحت ضغط الأحداث والمعارضة دون شك ، عن اتخاذ صورة أخرى أو شكلا آخر لكنه لم يكن مستعدا ليضحي في سبيل ذلك بتمركز السلطة أو إتيان ما من شأنه أن يهدد بقاء سلطة فرانكو الفردية وهيمنته . ولذا أبدلت الدكتاتورية الفردية بدكتاتورية " نبلاء " أو إلى حكم أقلية من " النبلاء " يدورون في فلك الرجل الأول خاضعين لتعييناته واشاراته مؤتمرين بأوامره منفذين لتعليماته .

لكن رغم هذا فإن شيئا جـديدا قد تأكد بموجب هذا القـانون وهو ضمان الخلافة ومن وراء ذلك محاولـة ضمان استمـرار النظـام بمـوجب التراتيب والإجـراءات التي حددها هذا القانون فبدا كل شيء " موثـوقا محكوم الوثاق " حسب تعبير أحد رجال النظـام . لكن سنرى أن الشعـوب قادرة على فك أي قيـد أو وثاق وكيف أن الأمـور ستجري بخلاف ما ظنه قائل هذه العبارة المتداولة .

<u>التحدي</u> : كـان يمكن لنا أن نسمي هـذه الخمسية بـالصراع الطلابي أو الطـلابي العمالي لأنها بدأت باصطدام السلطة والطلبـة الذين نجحوا في مقاومتهم حتى أجبروا السلطة إلى حل اتحاد ﴿ نقابـة ﴾ الطلبة الحكومي الذي كـان يعد نقابة طـلابية وكان جهازا من أجهزة السلطة للسيطرة والهيمنة وتسليط سوط العقاب على كل خارج عن الصف أو غير ممتثل .

اصطدم الطـلاب بالسلطـة واستمر ذلك التصـادم الذي شمل كما رأينـا مختلف الفئات والطبقات الشعبية التي تحملت ما تحملتـه ، بمختلف مستوياتها ومراكزها ، من ظلم وعنف وحيف مثلما كان الأمـر بالنسبـة لأعضاء الكنفيديـرالية الديمقـراطية الجامعيـة الأسبانيـة التي أسست سنة 1963 وضمت طـلابـا وأساتـذة نذكـر منهم الأستاذ أنـريكي تيارنو غـالبان والتي قامت بأنشطـة متعددة تعرضت من جـرائها إلى العقـاب والتعسف والقمع . فقد أقصي الأستـاذ تيارنـو غـالبان وبعض زمـلائه عن كرسي التدريس بالجامعة وسجنـوا بعض الوقت ولم يعودوا إلى وظائفهم الا بعد تغيير الأوضاع .

لكن المعركة السياسية الحقة التي جرت بين السلطة والمعارضة ككل وفي آن واحد ، هي تلك التي أثارتها السلطـة نفسها عنـدما قررت تقـديم قانون الخلافـة إلى استفتاء شعبي مدعيـة أنها ترمي من وراء ذلك إلى إسدال ستـار الديمقراطية وثـوب الجماعية علي ذلك القـانون الـذي لم يكن في الحقيقة سـوى محاولة الحفـاظ على النظام وضمان بقائه بعـد فرانكو . وهـذا فعلا ما رأتـه المعارضـة خاصة بعـد أن لاحظت أن الحملة الحكوميـة لفائدة الاستفتاء ركزتها وسـائل الاعلام الرسمية ﴿ ولم يكن هنـاك غيرها ﴾ على فرانكو نفسه كما لو كان الاستفتاءغايتـه تركيز " الكاودّيو " وتمتين وضعه ونظامه ولـذا لم يكـن من المعــارضـــة ، بمختلف تيــاراتها واتجاهــاتها ، من الملكيين

والديمقراطيين المسيحيين يمينا إلى الشيوعيين يسارا ، إلا مطالبة الشعب بالامتناع عن التصويت وكانت الحجة فقدان الضمانات القانونية والسياسية وتلك هي الحقيقة. وانطلاقا من هذا المفهوم وقع رؤساء كل الكتل والمجموعات المعارضة ، وثيقة وجهوها إلى الحكومة فلم تقبلها وأعيدت إلى مرسليها . نتيجة لذلك ، قامت عدة شخصيات في مقدمتها الأستاذ خواكين رويث خيمانث ، الوزير الأسبق وصاحب مجلة " كراسات للحوار " ، بتوجيه لائحة احتجاج إلى القائد فرانكو أشاروا فيها إلى الحيف وفقدان العدالة وتساوي الفرص والإمكانات تجاه وخلال الحملة الاستفتائية . لم يغير كل هذا طبعا من موقف وتصرف الحكومة بل دفعها إلى النداء بوجوب المشاركة والإدلاء بالصوت و إلا تعرض الممتنع إلى عقاب اقتصادي . وجرى الاستفتاء وكانت نتيجته ايجابية طبعا وبذلك تحصل النظام " رسميا " على تأييد أكبر مما حصل عليه عام 1947 .

لكن هذا النجاح " الرسمي " لم يحل دون بروز حقيقة لم تعد تخفي على ذي لب وهى أن المعارضة أصبحت ملموسة في كل مكان وعلى كل المستويات الشعبية وأنها أصبحت واقفة وجها لوجه مع السلطة داخل نفق بلا منفذ وسوف لن تهدأ البلاد أو تجري الأمور طبيعية إلا بانفتاح النظام وتغيير أساليبه أو بسقوطه أو بالقضاء على المعارضة وهو ما أصبح مستحيلا .

غير أن السلطة لم تقتنع بذلك وظنت أنها قادرة مرة أخرى على قمع ومحق المعارضة فزادت في شدة معاملاتها ونشطت محاكم الأمن العام ، الشهيرة المخيفة ، ثم أعلنت حالة الطوارىء في ولاية غيبوثكوا ﴿ بلاد الباسك ﴾ أولا (21 أبريل نيسان) 1967 وفي كامل التراب الاسباني ، ثانيا ﴿25 يناير كانون ثان عام 1969﴾ وكانت نتيجة ذلك اعتقال أكثر من مائتي أستاذ وطالب وكل هذا بينما المعارضة تشتد وتعم هي الأخرى فتتالت واشتدت المظاهرات الطلابية وكثرت الإضرابات العمالية وتهاطلت الغرامات والايقافات على الصحافة والصحفيين وظهرت العمليات الارهابية من طرف منظمة " ايتا " وغير ذلك من أشكال التصادم بين القوتين وما ينتج عنه من ضحايا عرفوا الايقاف والتعذيب أو الموت .

في هذه الأثناء وفي يوم 22 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1969 بالذات ، تحركت نخبة من

رجال النظام ، قد يكون بايعـاز من فرانكو ، لإعداد وتنظيم الخلافة فقدم إلى البرلمان « لاس كورتس » مشروع يقترح الأمير خوان كارلوس آل بربون ، ابن ووريث العرش الاسبـاني دون خوان آل بـربون وحفيـد الملك ألفونصـو الثالث عشر الـذي تخلى عن السلطة عنـد قيام الجمهورية ، اقترح ليكـون خلفا لرئيس الـدولة بعد وفاتـه طبعا . وتمت موافقـة البرلمان على تعيين الأمير خوان كارلوس خليفـة لفرانكو وبرتبـة وتسمية ملك يوم 22 يوليو « تموز » 1969 .

لكن هذا الحدث الهام الذي ستكون له انعكاسات عميقة سعيدة على أسبانيا ليس هو خـاتمة هذه الخمسيـة بل ستنتهي بحدث محزن ، بفـاجعة سـوف تهتز لها أسبـانيا بأسرها ، وسيكـون لها صدى كبير في العالم مما يجبر النظـام على التراجع في قرار اتخذه فيثبت ، قد يكون هذا لأول مرة ، قوة المعارضة وتصميمها . وخلاصة الحدث هو أن محكمة حربية فتحت يوم الثالـث من ديسمبر « كانون أول » 1970 محاكمة بمدينة برغش ضد ستة عشر مواطنا مـن بلاد الباسك تابعين لمنظمة " ايتا " وطالبت النيابة لستّـة منهم حكما يقضي بـالإعـدام . وسرت في البـلاد كهـربـاء السخط والتـذمـر والاستنكـار حتى بــدا الأمـر وكأن الشعب بأسره مـدان في القضيـــة التي انتقـد كل المحامين أخطاءها و إجـراءاتها القانونية وأساليبها التعسفية عـلاوة على ما تعرض إليه المتهمون من اعتداء على أشخاصهم وأجسادهم . لم تشهد البلاد توترا أشد من ذلك الذي سـادها بسبـب هذه المحاكمـة ولم تعرف البـلاد تآزراكذلـك الذي أعـرب عنه الجميع تجاه المتهمين . فـالاجتماعـات والتظـاهـرات تتـالت بـلا انقطـاع فى كل الجامعات ، وأصبحت الكنـائس والمصانع والميادين العـامة في منطقة الباسك صـوتا واحـدا يحتج وينـدد تحت قيـادة قسـاوسة المنطقـة وتـؤيـد كل تلك الاحتجـاجـات بإضرابات عمالية على أوسع نطـاق . وفي قاطالونيـا اعتصم 300 من رجال الفكر في معبد ليعبروا عن استنكارهم واحتجاجهم . أما في العاصمة مدريد فقد اجتمع ممثلو عدة منظمات من المعارضة لاتخاذ قرار موحد ففاجأتهم الشرطة واعتقلت معظمهم .

جـرت المحاكمـة حيث أظهر المتهمـون شجـاعة وتصميما أذهل الحكـام أنفسهم وأخافهم فـالتجأوا إلى اخلاء القـاعة بينما كـانت حناجـر المتهمين والحاضرين تنادى بحياة الباسك وتردد نشيد محاربيها .

استمرت المحاكمة إلى ما بعد أعياد الميلاد التي قضاها الناس عامئذ في قلق وحزن وتوتر . ويوم 28 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ أعلنت الأحكام وكان من بينها تسعة بالإعدام على ستة من المتهمين وبالسجن لأعداد مختلفة من الأعوام على البقية من ذلك مثلا خمسون عاما لاثنين من القساوسة . نزلت الأحكام كالصاعقة على كل الناس ، فعم التأثير وساد الحزن وعادت حركة الاستنكار وبدأ العمل من أجل الحصول على عفو من رئيس الدولة . لم يكن الاستنكار مقصورا على المعارضة ، بل هناك مؤسسات داخل النظام قد استنكرت هي الأخرى تلك الأحكام منها بعض الصحف وبعض أعضاء مجلس المملكة . كما لم يكن الاستنكار محصورا داخل أسبانيا بل تعداها إلى معظم البلدان الأوربية التي بعثت ، باستثناء فرنسا ، تُطالب بالعفو والرحمة .

وأمام هذه الموجة العارمة من الاستنكار والمطالبة بالعفو لم يجد فرانكو بدا من الرضوخ إلى المنطق والواقع فتراجع لكن مختفيا وراء جهاز من أجهزة الدولة إذ اجتمع أعضاء مجلس المملكة يوم 30 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ ومن الغد نشر العفو عن المحكوم عليهم بالإعدام ستتهم .

كان هذا نصرا لايستهان به للمعارضة ولتصميم ووحدة الشعب تجاه حدث من الأحداث كما أنه دليل على أن النظام لم يعد كما كان عليه إذ أنه تعرض قبل ذلك إلى مثل هذه الحملة الداخلية والخارجية بمناسبة محاكمة أحد القادة الشيوعيين هو " خوليان غريماو " الذي حكم عليه بالإعدام سنة ثلاث وستين ونفذ فيه الحكم رغم كل الاحتجاجات والتدخلات والمطالبات بالعفو التي انهالت على فرانكو من كل أنحاء العالم بما في ذلك رؤساء الدول وحتى البابا يوحنا 23 تدخل وطلب العفو على المتهم .

ومهما يكن من أمر فان ريح التغيير بدأت تهب على أسبانيا . فالنظام بدأ يهرم والمعارضة أصقلتها الأحداث والعالم حول أسبانيا أصبح أكثر اهتماما بما يحدث ويجري داخلها . والحكومات المعترفة بنظام أسبانيا ومتبادلة معه العلاقات الدبلوماسية لم تعد تخشى الاتصال ﴿ إن لم نقل الاعتراف ﴾ بالمعارضة وزعمائها ، غير عابئة بردود فعل الحكومة الأسبانية ورئيسها . من ذلك أن وزير الخارجية الألمانية ، والتر شيل

أنـذاك ، اقتبل عددا من ممثلي المعـارضة هم السـادة رويث خيمانث وتيارنـو غالبـان وستروستغي وأريلشـا . ثم إنه داخل النظـام نفسه تكـاثر عـدد الذين أصبحـوا يرون وجوب الانفتاح ومجارات التغييرات الاجتماعية والاقتصادية العميقة التي تعرض إليها المجتمع الاسباني فأصبح ، نتيجـة رشد وثقافـة الأجيال الجديدة المتحررة مـن عقدة الفتنة الأسـبانية ، ونظـرا لتطور أسلوب الحياة ومستوى المعيشـة لدى مختلف الفئات والقطاعات بالمدن والقرى ، وتحت عـامل التلقيح الثقافي والسياسي والمدني الذي تم نتيجة هجرة العمال إلى الخارج وتوارد السـواح على البلاد ونظرا لغير ذلك من العوامل أصبح المجتمع الاسباني غير قابل لنظام كنظـام فرانكو ودكتاتورية كـدكتاتوريته التي بدأت وقتئذ كالبئر الجاف المظلم وسط واحة أينعت فيها خضرة الديمقراطية وازدهرت وما تلك الواحة سوى أوربا المحيطة بأسبانيا من كل جانب .

كل هذا سيدفع النظام والمعارضة إلى مراجعة مواقفهما وتحوير سياستهما وأساليبهما طبقا لما تتطلبه الظروف أنذاك ، لكن ، دون أن يسجل أي تقارب أو بداية تفاهم بل بالعكس تصلب المتجابهون وتشددت أساليبهـم فازداد التوتر وارتفعت درجة التشنج وأخذت كل القوى تتنظم وتتحفز لأن النهاية لم تعد بعيدة والهدف أصبح على ملمس اليد والثمرة قد نضجت ولم يبق إلا اقتطافها أو تحريك الشجرة لتسقط .

الفصل التاسع

الأفـــول

ما من شك أن العرض الـذي قدمناه عن المعارضـة في أسبانيا خلال عهـد فرانكو وخاصة خلال النصف الأخير من الستينات ، قـد جاء منقوصا لايعطي سوى صورة باهتـة عما كانت عليـه في الواقع . لكن ، كما قلنا سلفـا ، ليس ممكنا الاحـاطة بهذه الحركة في صفحـات معدودات خـاصة إذا لم يكن الموضوع أسـاسيا بل هـو عرضي ، الغاية منه زيادة الايضاح والمساعدة على فهم ما جرى وتحقق في أسبانيا بدخولها عهد الديمقراطية بطريقـة وأسلوب جلبا لها إعجاب وتقدير العالم وجعلا منهـا مثلا يذكر فيحمد ويدفع إلى الاعتبار به والحَذو حذوه .

إن المعارضة اتخذت في أسبانيا جميع الأشكال الممكنة والصور المحتملة واستعملت كل الطـــــــرق والأسـاليب والتجأت إلى كل الحيل والمنـــــــاورات ولـذا استحقت ، ومـازالت ، اعتناء واهتمام المتخصصين فأفـردوا لها مجلدات منهـا الجامع الشامل ومنها المـركز على مظهـر خاص أو فترة معينـة ومن أهم ما قرأنا بخصوصهـا " أخبار معارضـة الفرنكية " للزميلين الصحـافيين فرناندو خـاورغي وبيدرو فيغا ، والأبواب الطـويلة التـي خصصها لها الأستاذ المؤرخ مـانوال تـونيون لارا في " تـاريخ أسبانيا " الذي أشرف على انتاجه في عشرة مجلدات و " رجال المقاومة " ﴿ الماكي ﴾ في أسبانيا " لأغوادو صانشث و " معركـة من أجل قاطالونيا مستقلة " لجزيب بيثت و " غـدا أسبانيـا " لسانتيـاغو كـاريو " و " الطـالب ببرشلونـة " لجوزيب ماريـا كولـدميرو و " الكل ضد فـرانكو " لأنـريكي ماركو نـادل و " اسبان في المقـاومة " لألبيرتو فرناندث و " المقاومة الداخلية في أسبانيا فرانكو " لفالنتينا فرناندث فارغس وعدد كبير من المؤلفات التي قد يطول على القـارىء سردها الآن . وما من شك أيضا أن عرضنا قد أهمل أو لم يعط العديـد من المنظمات والحركات ومن الشخصيات أيضا حقهـا في الذكـر والتعريف بما قـامت بـه لكن هذا مـرده ضيق المجال علما بأن هـذه المعـارضة قـد ساهم فيهـا ، كل حسب طاقتـه وموقعـه ، عدد كبير وكبير جـدا من المواطنين . ولعل الميـزة التي تجلب الانتبـاه وتفـرض الاحترام هي تنوع وعـدد الـذين عملوا فعلا وضحوا فعلا داخل اطار المعارضة في سبيل تحقيق الديمقراطية واسترجاع الحريات . فالمعارضون النشطون كانوا من كل فئات الشعب وشرائحه بدرجة جعلت

المتناقضـات تلتقي فيحتضن القس في كنيسته أو الناسك في ديره منـاضلين شيوعيين يتنكرون بـدورهم بثياب رجال الديـن ويحضرون القداس ويشاركون فيـه ، ليجتمعوا بعد ذلك داخل الكنيسة وفي حماية عبّادها .

والخلاصة هي كما قال الأستاذ تونيون " لارا " أن " الحقيقة التاريخية لذلك العهد تعطينا الدليل على أنه بالرغم من الصعوبـات التى كانت موجودة فإن الحركة العمالية والطلابيـة ﴿ بما فيهم الأساتذة ﴾ وكـذلك الحركات الاقليمية في قـاطالونيـا وفي بلاد الباسك ، كانت التعبير الحقيقي عن قوة مضادة للسلطة أو مقاومة لاستعمال السلطة الفـرنكية . وهـذه الصفة لاتعـود عليها لأنها معـارضـة من خارج الكتلـة السياسيـة والاجتماعية الاقتصادية المهيمنة فحسب ، بل أيضا لأن قراراتها وطريقة تنفيذها تلك القرارات أو على الأقل محاولة تنفيذها ، كانت الوحيدة طيلة سنوات عديدة في مجابهة قرارات السلطة وتنفيذها " (59) .

حلت والحال هذه الخمسيـة الأخيرة ، خمسية الأفـول ، أفول نجم النظـام وسقوط مؤسسـه وقائده ، لا تحت ضربات العدو أو عنف المعـارضين ، بل تحت ثقل الزمن وعبء السنين وتأثير المرض .

لم يتعظ الحكام وفي مقدمتهم فرانكو طبعا بما كان يجري داخل البلاد وخارجها من تغييرات وتأثيرات وسـدوا آذانهم عن سماع أي صـوت ينـادي بالانفتـاح والحريـة بل استعـادوا تصلبهم واستمروا كما لـو لم يكن هناك مـا يدعـو إلى القلق فأصدروا سنـة 1970 قـانون التربيـة العام الـرامي إلى إدمـاج التربية في النظـام الراسمالي المعـاصر وأصدروا سنة 1971 (17 فبرايـــــر ﴿شباط﴾) القانون النقابي الذي لم يكن تغييرا ولاتحررا كما وعـد واضعـوه . لم تغير السلطـة تصرفـاتها ولا أسـاليبهـا تجاه المواطنين والمعارضة فأوقفت في شهر فبرايـر ﴿ شباط ﴾ 1971 المجلة الأسبوعية " تريبونفو " ﴿ الانتصار ﴾ كما أغلقت الجريدة اليومية " مدريد " (25 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1971 وحجـرت رابطـة المحـامين بمـدريـد (1972) ثم أوقفت في شهـر يـونيـو ﴿حزيران﴾ قادة اللجان العمالية ، وهي النقـابات الشيوعية الميول التي كانت تعمل في السر من داخل النقابـة الوطنيـة ، الحكومية الـوحيدة ، والتي فـرضت نفسها على الساحة منذ أول ظهورها سنة 1964 .

مولد نقابة : إن قانون الاتفاقات الجماعية الصادر عام 1958 قد أحدث وضعا جديدا بين العمال الاسبان لأنه فتح أمامهم باب المساهمة ، ولو نسبيا ، في مداولات إعداد الاتفاقات الجماعية وهكذا جاءت الإنتخابات النقابية سنة 1960 ليستغلها الشيوعيون ، بصفة منعزلة عن الحزب واستجابة لمبادرات شخصية لا إلى تعليمات ، ويبدؤون بذلك تسربهم إلى المنظمة النقابية بصفة أكثر نظاما وتخطيطا . وسيمر عقد أو ما يقاربه قبل أن يشرع الحزب الشيوعي في استغلال الامكانيات الشرعية المتاحة أمامه استغلالا كاملا وهذه الامكانيات هي النقابات " اللجان العمالية " ورابطات المحامين . كان مارثيلنو كاماتشو وزميله خوليان آريثا يعملان في شركة " بركنس " فرع أسبانيا فانتخبا في لجنة الاتصال النقابي بها . ومن هذا المركز تمكنا من الاتصال المباشر المستمر بزملائهما الذين صوتوا لهما بالإجماع عند ترشحهما لذلك المنصب ثم بالاتصال بأعضاء لجان شركات أخرى مثل " بيغاسو " وبزملائهم العمال في مدارس التكوين النقابي دون أن يلفتوا إليهما الأنظار ودون أن يهملوا الحذر والحيطة . وتناسب هذا النشاط مع تضعضع وضع النقابة العمودية من جراء الإضرابات المتتابعة وأصبح جليا أمام العمال عجز هذا الهيكل الرسمي الهرم عن الدفاع عن مصالحهم ووجوب إيجاد سبيل آخر لضم شملهم والسهر على حاجياتهم . فاغتنم كاماتشو وزميله آريثا تلك الفرص وجعلا يجتمعان كل أسبوع مع عدد من العمال يزداد ضخامة يوما بعد يوم في نفس مقر النقابة الرسمية بدعوى متابعة المناقشات حول الاتفاق الجماعي لعام 1964 وخلق الفرص المناسبة للعمل عن طريق التشدد فى مطالبهم التي يريدون تحقيقها في ذلك الاتفاق .

وهكذا أسفرت المداولات على جمعية عامة عقدت يوم 2 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ 1964 في المقر الرئيسي للنقابة حيث حضر محلفو وأعوان الاتصال من مختلف شركات الصلب والمعادن . كانوا أكثر من ست مائة عضو أنهوا أعمالهم بانتخاب ما أسموه " اللجنة العمالية " التي فاز بعضويتها بالرغم من مناورات الرسميين مارثيلينو كاماتشو وأربعة من زملائه فكان ذلك ميلاد أول " لجنة عمالية " سرعان ما أصبحت مثالا احتذاه العمال في مختلف القطاعات والمناطق فكونوا لجانهم وهكذا تعددت اللجان فما كان من كاماتشو وصحبه إلا ربط الصلة بينها وتنسيق أعمالها ونشاطاتها فأصبحت أشبه شيء باتحاد نقابات عمال داخل النقابة الرسمية الوحيدة .

لكن رغم الحذر والحيطة ظهرت الحقيقة جلية أمام المسؤولين ولم يكن منهم سوى استعمال الشدة وتوجيه العقاب المختلف الأشكال إلى قادة تلك اللجان التي أصبحت فعلا " اللجان العمالية " أي اتحاد النقابات العمالية التي ستلعب من يومها دورا اجتماعيا وسياسيا يزداد خطورة وتأثيرا والتي سيستغلها الحزب الشيوعي ، كما أسلفنا ، للقيام بنشاطاته وهو المنوع المحجر الملعون . وهكذا اعتبر يوم 2 سبتمبر ﴿ تشرين أول﴾ 1964 يوم أنشاء وميلاد " اللجان العمالية " التي هي اليوم ثاني اتحادين نقابيين يقتسمان بالتساوي تقريبا النشاط العمالي النقابي على الساحة الأسبانية وهو اتحاد يميل إلى الحزب الشيوعي بينما الاتحاد الآخر اشتراكي النزعة وهو ذلك الذي أسسه بابلو اغليسيا مؤسس الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني الحاكم اليوم بأغلبية مطلقة في مجلس النواب والشيوخ .

استمرار التصلب والمعارضة : استمرت الحكومة التي انفصلت رئاستها منذ يوم 21 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1973 عن رئاسة الدولة والتي أصبحت تحت رئاسة كاريرو بلانكو ، الصديق الوفي والموظف الممتثل ، والمؤمن " بعقيدة " النظام وروحه ، استمرت في تعنتها فأوقفت العمل باستقلالية جامعات مدريد وأقالت رئيس الأركان العامة العليا اللواء ديات أليغريا المعروف بآرائه وأفكاره التحررية إلى غير ذلك مما يدل أكبر الدلالة على أن السلطة قد أعماها التصلب والتعصب عن مشاهدة الحقيقة التي أصبحت ملموسة في كل مكان وعلى جميع المستويات وهي أن الشعب يبغي حريته ، ويطالب بالتغيير . لكن لاتصلب السلطة وتشددها ، ولا الزيادة في القمع والأعمال البوليسية من اعتقالات وتعذيب ﴿ أو حتى دفع إلى الانتحار أو الأعدام في شكل انتحار مثل ماحدث يوم 21 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1969 عندما ألقى طالب بنفسه من نافذة مركز الشرطة حيث كان يجرى معه استجواب ، ولا الكثرة في إعلان حالات الطوارىء ستستطيع قطع دابر رأس المنظمات المعارضة . فالكنيسة عرفت تزايدا وتصاعدا في تحرك أعضائها فنتج عن ذلك ابتعاد أكبر عن السلطة وماسكيها . لقد ظهر هذا جليا بعد موت المطران مورثيو رئيس أساقفة أسبانيا وخلفه المطران فيثانتي أنريكي إي تارانكون الذي واجه مؤامرة كبيرة محكمة لمنع انتخابه لكنه عرف كيف يتغلب عليها وتولى مقاليد الكنيسة التي دخلت تحت رئاسته في مجابهة صريحة مع النظام . فقد نادت الجمعية العامة للأساقفة المنعقدة في سبتمبر ﴿ أيلول ﴾

1971 بحرية التعبير وحرية الاجتماع والحرية النقابية والسياسية داخل إطار التعددية كما طالبت بحق الأقليات العرقية في إبراز شخصيتها وثقافتها وبإلغاء المحاكم الخاصة واحترام السلامة الجسدية وعدم التعذيب وما هو أشد من كل ذلك على النظام هو انتقادها للاتفاقية البابوية التي أعطت الحق لفرانكو في تعيين الأساقفة والتي اعتبرها النظام إحدى منجزاته التي يفتخر بها ، كما انتقدت الجمعية العامة للاساقفة " الكاثوليكية الوطنية " وهي ما يمكن أن نسميه محور عقيدة أيديولوجية النظام . ومما جاء في اللائحة الختامية لهذه الجمعية إعلان المجتمعين عن " اعترافهم في تواضع بكل ما ارتكب من أخطاء وطلبهم العفو لأنهم لم يعرفوا في الإبّان ، كيف يكونون وزراء تصالح وسط شعبهم المنقسم على نفسه من جراء حرب بين أخوة . . " فكانت هذه اللائحة بمثابة تصحيح ما جاء في الرسالة الرعائية التي صدرت باسم الأساقفة سنة 1937 (60 مكرر) .

أما الأحزاب فقد ضاعفت من نشاطتها وتنظيم صفوفها من ذلك أن الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ، وهو حزب تاريخي كما هو معلوم ، قد عقد مؤتمرا بفرنسا كان حاسما في تاريخه وتاريخ الحركة الوطنية في البلاد إذ فيه برز جيل جديد جاء من داخل البلاد فهيمن على المؤتمر وعلى أعماله مما دفع بالقيادة القديمة العائشة في المهجر إلى ايقاف المؤتمر لكنه استمر بدونها وانتخب في نهاية أعماله قيادة من 14 عضوا ، 9 منهم من الداخل و5 من الخارج وقرر أنه من الممكن القيام بعمل موحد مع جميع الكتل والمنظمات المعارضة بما فيها الحزب الشيوعي . لكن المؤتمر المصيري حقا ، والأخير الذي يعقد خارج تراب الوطن ، هو المؤتمر الثالث عشر الذي انعقد من يوم 11 إلى يوم 13 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1974 بقرية سورازن ، قرب باريس عاصمة فرنسا ، والذي تولت أعماله مجموعة الداخل ، أي الجيل الجديد ، فهيمنت إذاك مجموعة إشبيليا التي يتزعمها فيلبي غونثالث ، الذي كان اسمه الحركي " ايزيدورو " ، وألفونصو غيرا أو " أندريس " . وهكذا صعد فيلبي غونثالث إلى الأمانة العامة وتحت زعامته سيعرف الحزب مصيرا آخر وسيتخذ منعرجا إن لم يُرض تمام الرضى الأرتودكسيين من الاشتراكيين فهو قد أوصل الحزب إلى الحكم وقيادة البلاد بأغلبية مطلقة لأول مرة في تاريخه .

عقد الحزب الشيوعي الأسباني هو الآخر مؤتمرا سنة 1972 اعتبر بداية التحول في

منهجه وفلسفته وأصدر على أثره ماعرف باسم " معاهدة الحرية " . كان الحزب الشيوعي في تلك الآونة يعمل على عدة جبهات لفرض وجوده بالاضافة إلى نكرانه ومقاومته من طرف النظام وسلطته فهو معارض أيضا من طرف معظم التنظيمات السياسية التي رفضت دوما التعاون معه أو إدماجه في أي قرار أو ميثاق جماعي اتخذته وحتى لما فعلت لم تحترم تعهدها ازاءه .

وكما فعل الحزبان الاشتراكي والشيوعي تهيأت كل الأحزاب والمنظمات الأخرى فتأسست بقاطالونيا الجمعية الدائمة التي شملت كل الاتجاهات بالإقليم وجندت كامل شعب قاطالونيا خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة النظام . وفي بلاد الباسك ضاعف الحزب الوطني الباسكي ، وهو الحزب التقليدي التاريخي بالاقليم ، ضاعف تمركزه وانتشاره بين مختلف الفئات الشعبية وعبر عن قوته وتأثيره بمختلف التظاهرات والنشاطات ولم تتخلف النقابات عن الركب فعقد الاتحاد العام للشغل مؤتمرا في أغسطس ﴿ أب ﴾ 1973 نظم فيه صفوفه وهياكله وانتخب لأمانته العامة السيد نيكولاس ريدوندو الذي رشح في مؤتمر الحزب الاشتراكي الذي انعقد بفرنسا والذي أشرنا إليه آنفا ، رشح لمنصب الأمين العام ولكنه لم يقبل مفضلا النشاط النقابي فكانت له أمانة الاتحاد التي لا يزال يحتفظ بها إلى اليوم .

وإلى جانب هذه التنظيمات والتأهبات ، لم تتوقف المعارضة عن أعمالها الميدانية فتوالت الإضرابات العمالية وتكاثرت المقالات والمنشورات وتوالت الاجتماعات سرية وشبه سرية وعلنية وكثرت الدراسات فتأسس المجلس الديمقراطي وهو عبارة عن حلف للعمل المشترك الذي شارك فيه الحزب الشيوعي الأسباني والحزب الاشتراكي الشعبي الذي أسسه الأستاذ أنريكي تيارنو غالبان بعد أن انفصل عن الحزب الاشتراكي العمالي ، وحزب الشغالين الأسباني والتحالفات الاشتراكية وعدد من الشخصيات المستقلة وكانت أولى طلبات هذا المجلس هي الانتقال إلى الديمقراطية وانهاء الدكتاتورية . كما تأسست " المنصة الديمقراطية " التي لم تكن سوى حلف آخر للعمل المشترك ضم هذه المرة الحزب الاشتراكي العمالي واليسار الديمقراطي المسيحي والحزب الوطني الباسكي والمنظمة الثورية العمالية والاتحاد الديمقراطي المسيحي بقاطالونيا وبلنسية وبعض المنظمات الأخرى وطالبوا هم أيضا بالانتقال إلى الديمقراطية ووضع حد للدكتاتورية . وفي نفس الفترة ﴿يونيو/ حزيران﴾ 1975

أسس السيد أدلفـو سووارث صحبة جمع من الشخصيات السيـاسية " اتحاد الشعب الأسباني " بينما فضل الأستاذ مـانوال فراغا ايريبارني والأستاذ أريلثـا وبعض الساسة الأخرين التحـرك داخل تنظيم في شكل شركة فأسسوا شركة " فـاديسا " التي لم تكن في الواقع سوى تنظيم سياسي أو حزب مستتر.

مقتل كاريرو: لكن لنعد قليلا إلى الوراء وإلى عام 1973 الذي سينتهي بحدث هو دون شـك أهم وأعظم ماحـدث خلال هـذه الخمسية إذا استثنينـا موت فـرانكو نفسه . ففـي صباح يـوم 30 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ قـامت جماعـة تابعـة لمنظمة " ايتا " بعملية جريئة صعبة قضت بها على حياة الرجل الذي أصبح القائد الثاني للنظام والذي كان مرشحا ليكون حامي النظام والساهر على استمراريته بعد فرانكو .

كان من المعتاد ، طيلة عهد فرانكو . أن لاتنتشر الأخبار السيئة أو أنها تحور وتنمق ليخفف وطـؤهـا داخليـا . وفي يــوم 20 ديسمبر ﴿ كـانــون أول ﴾ 1973 تلقت السلطات في أسبانيا ضربة قاسية للغايـة . فرئيس الحكومة الأميرالاي لويس كاريرو بلانكو ، أصدق وأوفى مسـاعدي فرانكو طيلة اثنين وثلاثين عـاما قد اغتيل في قلب مدينة مدريد .

" جرى انفجار كبير صبـاح هذا اليوم بحي سالامنقا بمدريـد أسفر عن عدد من الجرحى وحتى الآن لم يعرف بعـد سبب الانفجار . . . " بهذا البلاغ المنقـوص المبتور اعترفت السلطة بما حـدث وجاء هذا الاعتراف بعـد ثلاث سـاعات تقريبـا من وقوع الحادث . والواقع هـو أن كاريرو بـلانكو كان قد حضر القـداس بالكنيسة كعـادته صباح كل يـوم وخرج متجهـا إلى مكتبه وإذا بـانفجار قـوي جدا دوى تحت سيـارته المصفحة نتيجـة عبوة كبيرة من المتفجرات وضعت في نفق حفر خصيصـا تحت بلاط الشارع فقذف بها خمسة عشر مترا بعيدا عن حيث كانت فاصطدمت بجدار الكنيسة ثم وقعت في فنـاء بيت مجاور . فمات في الحين سائق السيـارة والحرس الخاص المرافق للرئيس ومات هذا الأخير وهو منقول إلى المستشفى . كان الانفجار قويا والعبوة كبيرة حتى أنها تركت بالمكان حفرة اتساعها عشرة أمتار على سبعة .

كانت العمليـة من انجاز منظمة " ايتا " الانفصـالية الباسكيـة التي قضت ستة

أشهر في إعداد ضربتهـا وكانت النية متجهـة أول الأمر إلى اختطاف كاريـرو بلانكو واحتجازه إلى أن يتم اطلاق سراح بعض المعتقلين الباسكيين لكن بعد أن عين كاريرو رئيسا للوزراء وتعززت الحراسة حوله ، تغيرت الخطة وأصبحت ماتمت عليه . إن هذا الاغتيال هو أول ضربة توجه إلى قلب النظام وصلبه منذ نهاية الفتنة سنة 1936 .

كانت السنون قد أوهنت قوى فرانكو وأنقصت تدريجيا من مقدرته على تسيير دفة الحكم والسهر بعنـاية وشدة على نظامه فتنـازل شيئا فشيئا على بعض صـلاحياته إلى الوفي كاريرو بلانكو إلى أن سلمه رئاسة الحكومة في شهر يونيو ﴿ حزيران ﴾ من نفس سنة 1973 . لم يكن فرانكو قد سلم صديقه رئاسة الحكومة فحسب ، بل سلمه في الواقع مصير الدولة لأنه ما من شك " الرجل الوحيد الذي سيحافظ على أسبانيا على درب الوحدة والقيم الكاثوليكية واحترام ميراث النصر الذي تلا الحرب الأهلية وذلك رغم سنه التي بلغت إذاك السبعين عاما . لقد عمل لويس كاريرو طويلا إلى جانب فرانكو وكان له دور مؤثر في كل المحادثات والمفاوضات التي دارت بين " الكاوديّو " والأمير المطالب بـالعرش دون خوان آل بـربون . ثم إن قـانون الخلافة واجـراءاتها قد أعده كاريرو بلانكو وأراد به أن تكون الملكية التي تأتي بعد فرانكو " ملكية كاثوليكية معاديـة للشيوعية والليبيراليين وتكون متحـررة مستقلة عن أية تبعية خـارجية في جميع شؤونها الداخلية والخارجية " .

كانت هذه نظرة كاريرو بـلانكو وبعض رجال ذلك النظام إلى الملكية التي سترث فرانكو وهي نظرة أقل مـا يقال عنها أنها غير ديمقراطية وتتنافى تمامـا مع ما تطالب به كل الفئات والمنظمات بالبـلاد وما أصبح صيحة واحدة وهتافـا واحدا صادرا عن كل الحناجر وهو الديمقراطية الحقة والحريات للشعب والسيادة له ومصيره بيده .

لم يبك فرانكـو طيلة حياتـه كما بكى كاريـرو بلانكو ولكنـه فاه بعبارة آنـذاك تدل دلالة واضحة ، في نظرنا ، على بعد نظر فرانكـو ويقينه بأن ما سيحدث بعده بالبلاد لن يكون أبدا مـا أراده هو ولا ما كان سيحاول كـاريرو بلانكو المحافظـة عليه . لقد ردد آنذاك مثـلا شعبيا يقـول مامعنـاه " لاشر يأتي إلا ومعه خير " . نعـم فشر موت كـاريرو بـلانكو قـد أتى دون شك بخير وفير للبلاد لأنـه جنبها متـاعب جمة وحتى احتمال اصطدامات جديدة كما جنب الملك مشقـة الصراع مع رجال يمسكون حوله

بخيوط الإدارة وهياكل البلاد ، أو كما صرح السيد خوزي ماريا أريلثا وزير الخارجية الأسبق وسفير فرانكو في بيونس آيرس وواشنطن وباريس والذي كان إذاك بعيدا عن نظام يرفض الانفتاح والتحرر ، ومع هذا فقد كان من بين القلائل الذي علموا بالحادث بعد بضع دقائق فقط من وقوعه بالرغم من أنه كان على مسافة بعيدة من العاصمة . فقد اتصل به أحد كبار مسؤولي الأمن برئاسة الحكومة ونقل له النبأ فصرح لمراسل جريدة " لوموند " الفرنسية يقول " ان موت كاريرو بلانكو قد اقتضب عملية الخلافة بما لا يقل عن خمس سنوات .

نصف الساعة الأخير : كان هذا وغيره صحيحا . فموت كاريرو بلانكو كان المنعرج الذي اتخذته الأحداث والتطورات بالبلاد ومن يومها ستجري الأمور بسرعة مذهلة وتراكم الأحداث مما يجعل تتبعها وتنظيمها زمنيا غير سهل ولابسيط . فقد عين فرانكو على رأس الحكومة السيد كارلوس آرياس نافارو الذي كان وزيرا للداخلية وهو رجل مخابرات وعلى علاقة وثيقة مع وكالة المخابرات الأمريكية . تولى السيد آرياس مقاليد الحكومة في يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1974 وتقدم إلى الشعب والأمة ببرنامج طموح في نظره سيحقق للبلاد تطورها الطبيعي في ما تبقى من حياة فرانكو وبعده . لكن برنامج السيد آرياس نافارو والخطاب الذي قدمه به يوم 12 فبراير ﴿ شباط ﴾ 1974 لم يكونا ليرضيا أحدا في البلاد سواه . ففي داخل النظام والحكومة نفسها كان الرجعيون أو قل المحافظين كما يسمون أنفسهم يرون في ماقدمه السيد آرياس عقوقا وابتعادا عن روح ومفهوم 18 يوليو ﴿ تموز ﴾ أي روح الانتفاضة والنظام الذي تلاها . أما الليبيراليون والمتحررون داخل النظام والمعارضة خارجه فقد رأوا في برنامج الحكومة الجديد تمسكا بما كان عليه النظام من تحجر وتصلب وعدم مسايرة للظروف والمطالب الشعبية ورغبات الجماهير التي لم تعد تقبل بغير الديمقراطية بديلا .

لم يكف هذا بل تضاعف تشابك الأمور بمرض فرانكو في شهر يوليو ﴿ تموز ﴾ من نفس السنة سنة 1974 فأدى ذلك إلى إتخاذ خطوات أخرى منها تطبيق البند رقم 11 من القانون التأسيسي للدولة وتعيين الأمير خوان كارلوس للقيام بمهام رئاسة الدولة بالنيابة بينما التوتر والحيرة يتضاعفان ويسيطران على الجميع

وانتظار ما سيحدث أصبح ثقيلا مملا ولم يكن على الألسن ولا في العقول سوى سؤال واحد هو " ما الذي سيحدث بعد فرانكو ؟ " .

إن الذي سيحدث آنذاك هو أن فرانكو قد استرجع قواه واستأنف نشاطه واستعاد سلطات رئاسة الدولة يوم أول سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ بينما حكومته تواصل تتبعاتها للمعارضين فتعدم ﴿ سلفادور بوتج أنتيتش ببرشلونة ﴾ وتعتقل الكثيرين ولو كانوا قساوسة وما أعيب عليهم أتوه في نطاق مهامهم الدينية وداخل معابدهم ﴿ 3 مارس / آذار أوقف مون سنيور آنيوفيروس ﴾ وتسجن السياسيين بالعشرات والمئات وتوقف وتحجز الصحف والمجلات وتحاول في الوقت نفسه تطبيق برنامجها فتقدم إلى البرلمان قانونا جديدا ينظم تشكيل وتسيير الجمعيات وتصدر قانونا ينظم حق الأضراب . في هذه الأثناء تتابع المعارضة التي تعددت تشكيلاتها وتكتلاتها وأحزابها بشكل فاق كل معقول أو مظنون ، تتابع نشاطها على كل الجبهات متعرضة لكل الضربات . فالإضرابات لم تنقطع بل تضاعفت ، والاجتماعات تكاثرت والأحلاف تعقد وتحل ، وأحزاب جديدة عديدة تتأسس ، والإرهاب يتصاعد فبدت البلاد كالمرجل يغلي وصمامه يتحرك منذرا بقرب الانفجار .

لم يكن رجال القوات المسلحة ليتخلفوا عن الركب فالجيش هو الذي قام بالانتفاضة وهو الذي أتى بالنصر على " العدو " وهو الذي قاد البلاد قرابة الأربعة عقود عن طريق قائده فرانكو ومنه أكثر من 114 ضابطا تولوا مناصب وزارية طيلة العهد وغيرهم كثيرون أسندت إليهم مناصب عليا غير وزارية ولاسياسية كإدارة المؤسسات والشركات الاقتصادية وغيرها . لكن هذا الجيش هذه القوات المسلحة هي الأخرى قد جرى في عروقها دم جديد وقد أصبح من مكوناتها جيل جديد له روح جديدة وعقليات أخرى ومشاعر تختلف عما كان عليه الجيل السابق من أحاسيس وأفكار ومشاعر فتعارضت أفكارهم مع ما كانوا يعيشونه يوميا كجنود أو كمواطنين . وهكذا قرر جمع منهم تأسيس حركة داخل القوات المسلحة للعمل من أجل تحرير البلاد من وطأة الدكتاتورية والسير بها على درب الديمقراطية ومن ثم تحرير القوات المسلحة من عقدها " التاريخية " وإخراجها من جمودها والعمل على تطويرها وتعصير أسلحتها وأساليبها . بمثل هذه الروح وهذه الغايات تأسست " الوحدة

العسكرية الـديمقراطية * ، 28 ديسمبر ﴿ كانـون أول ﴾ 1974 وباشرت أعمالها في الحين إذ كثف أعضاؤها اتصـالاتهم بزملائهم من ناحية وبقيادة الأحـزاب من ناحية أخرى وخاصة منهم قـادة الحزبين التاريخيين الاشتراكي والشيوعي . إلا أن نشاطهم هذا ستضـع له حدّا ضربـات الحكومـة التي اكتشفت الأمـر فاعتقلت قـادة المنظمة الرئيسيين وكان ذلك يوم 29 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1975 .

ليس هذا كل ماقامت به الحكومة في مجال القمع والحد من الحريات . فقد قدمت للمحاكمة أمام محكمـة حربية خاصة عددا من المتهمين بانتسـابهم إلى الجبهة الثورية الشعبيـة المضـادة للفـاشستيـة التي قامـت بعدة عمليـات أرهـابيـة خـلال السنتين الأخيرتين . وتمت المحاكمة بكل ما يعتريها من خلل قانوني ومخالفات إجرائية ، تمت بإصدار خمسـة أحكام بالإعـدام يوم 17 سبتمبر ﴿أيلول﴾ 1975 سرعان مـا صادق عليها مجلس الوزراء يوم (26) ونفذ الإعـدام في خمسة مواطنين فجر يوم 27 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ بالرغم من الموجة العارمة من الاحتجاجات والتدخلات والتوسلات التي جـاءت من داخل البـلاد ومن خـارجهـا و إن دل هـذا على شيء فـانما يـدل على أن فـرانكو، ورئيس وزرائه كـارلوس أريـاس غير مستعدين للتخلي ولـو قيد أنملـة عن نظامهما الدكتاتوري وأساليبه التعسفية المانعة لأي تحرر أو انفراج .

هكذا رأت المعارضـة الوضع في تلك الآونة وهكذا رآه العـالم الخارجي الذي استاء كثيرا للإعدامات المتكررة فشن على فرانكو ونظامه حملـة اعلامية تنديدية شديدة منها مطالبة حكومة المكسيك بطرد أسبانيا من جمعية الأمم المتحدة ومنها قرار مجلس وزراء السـوق الأوربية المشتركـة بتأجيل المفاوضـات مع أسبانيـا إلى أجل غير مسمى وختم ذلك بإصدار حكم محكمة لاهاي الدولية بشأن الصحراء الغربية التي كانت خاضعة للحكم الأسباني وتبعه قرار الأمم المتحـدة بنفس الخصوص ونص الاثنان على وجوب انهاء استعمار تلك المنطقة و إعطاء الفرصة لساكنيها بتقرير مصيرهم .

غير أن كل ذلك لم يكن ليحيـد الحكومـة عن ضـلالها وقابلتـه بتظـاهرة ضخمـة نظمتها بلدية مدريد لتأييد فرانكو فالتقت الجماهير المؤتى بها من كل مكان ، التقت في السـاحـة المواجهة للقصر الملكي بمـدريـد ومن شرفتـه وجه فـرانكـو الهرم بعض الكلمات إلى تلك الجماهير فكانت آخر صلـة له بالشعب مباشرة . فـالمظاهرة نظمت

يوم أول أكتوبر ويوم 21 منه أعلن رسميا مرض الكاوديو.

دخلت البلاد بهذا الإعلان المرحلة الأخيرة أو نصف الساعة الأخير كما يقال قبل أن تطوى صفحة لتفتح أخرى . لذا كان القلق والحرج والحيرة تسيطر على رجال الدولة وخاصة المحافظين المتصلبين منهم ، وكان الأمل ورغبة بلوغ الهدف يهيمنان على قادة المعارضة وأعضائها فاندفع الجميع في سباق مدوخ مع الزمن أو ضده بينما تولى الأمر الأمير خوان كارلوس مرة أخرى رئاسة الدولة بالنيابة فيجابه في وحدة وانفراد فترة من أحرج وأصعب ما عرف في حياته ومن أدق ما عاشت أسبانيا والأسبان . استمر هذا الحال بكل ما حواه من أحداث ﴿ كالمسيرة التي نظمها المغرب ضد الصحراء والأوضاع في تلك البلاد﴾ ومواقف معادية أو نافرة أو غير فاهمة لموقف الأمير ودوره إلى أن دقت الساعة ومات فرانكو يوم 20 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1975 بعد أن حاول الذين حوله إطالة عمره بكل وسيلة فعرّضوه وهو في الثالثة والثمانين من العمر إلى سلسلة من العمليات الجراحية التي لم تفعل سوى إطالة فترة التوتر والانتظار المقلق داخل أسبانيا وخارجها .

موت فرانكو : مات فرانكو الذي تردد طويلا قبل أن يقرر المشاركة في الانتفاضة التي أدت إلى الحرب الأهلية والتي أتت به إلى القيادة فرئاسة الدولة وتسيير البلاد عبر نظام سلطة فردية مطلقة دامت قرابة الأربعة عقود . مات فرانكو الذي لو عاش له ثلاثة ، الفريق سان خورخو والفريق مولا ومؤسس الكتائب خوزي أنطونيو أو أحد هؤلاء الثلاثة لما كانت له القيادة ولا الرئاسة . فأي من الثلاثة عاش مع فرانكو كان ولابد أن يعرقل مسيرته ويعطل صعوده . مات فرانكو الذي قال عنه الفريق ميغال كاربانيياس . وبعد أن سلم له رئاسة مجلس الدفاع الوطني في فجر الانتفاضة " أنكم ، موجها كلامه لبقية زملائه الذي عملوا لفائدة رئاسة فرانكو ، انكم لا تعرفون فرانكو كما أعرفه . فقد خبرته وهو يعمل تحت امرتي داخل جيش افريقيا . . . فإذا ما أعطيته القيادة كما طلبتم فإني أعطيه أسبانيا وسيعتقد أنها ملكه ولن يترك أحدا يحل محله لا خلال الحرب ولا بعدها و إلى أن يموت " .

مات فرانكو بعد أن جمع لنفسه كل الألقاب وبعد أن تربع إلى " جانب " عرش بلاده أسبانيا فكان طيلة عهده ملكا بلا تاج . فهل فكر يوما في تتويج نفسه ؟ سؤال

لا يستحق الإجابة عنه الآن لأن فرانكو قد مات دون أن يسلم مقاليد الحكم وكان أنسب لو فعل ذلك قبل وفاته بعدة سنوات لأنه كان في آخر عهده عجوزا شاخ جسميا وعقليا فجعله ذلك غير قادر على مواجهة الأمور بمثل ما يجب أن تجابه به " . لكن ذلك ، كما يقول غراهم غرين ، أعطى الفرصة للأسبان كي يفكروا في ما بعد الفرنكية . وهكذا لم تعارض بعد موته إلا أقلية رجعية وجوب التحول إلى الديمقراطية " . مات فرانكو وترك ، حسب ظنه ، " كل شيء موثوقا محكم الوثاق " لكنه في الواقع ترك وراءه كل شيء في حاجة إلى الربط والتوثيق . نعم لقد أنجز في عهده الكثير فهو كما قال عنه الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا " قد استلم بلدا فقيرا وتركه وهو غني أو يكاد . استلم بلدا زراعيا وسلم بلدا صناعيا وبلد خدمات . استلم بلدا أغلبيته في بعض المناطق الحيوية أمية فاستطاع خلال عهده أن يخفض ذلك بصفة ملحوظة . استلم بلدا بلا حاضر وسلم بلدا جاهزا للمستقبل ، بلدا لقنه درسه الأساسي في كلمة واحدة رددها على مسمعه آلاف المرات وبكل الوسائل وهي . . الوحدة . . . وكان عهده وسط مشاكله وأخطائه أطول عهد سلم وخصوبة في كل تاريخ أسبانيا المعاصرة (60) .

لكنه لم يعرف كيف يوحد هذا الشعب الذي طالبه بالوحدة . فقد حافظ على التفرقة والشقاق بعدم استعماله العفو عند المقدرة وعدم اعتبار نفسه رئيسا لكل الأسبان لأنه رغم إدعائه ذلك فهو لم يعترف بنصف أسبانيا واعتبره عاقا مارقا خارجا عن الملة والدين فعامله معاملة العدو . ثم أنه ترك شعبا تربى وسط الخوف والشك وعدم الطمأنينة مغذى بأفكار وعقيدة محجرة جامدة تركزت وانحصرت في الوطن الواحد والدين الواحد والقائد الواحد أي الأوحد " القائد الموهوب والملهم والمرسل والمسؤول أمام الله وأمام التاريخ " لاغير . مات فرانكو والأفق الخارجي تغشيه الغيوم المنذرة بالعواصف . فالبلاد لم تجد تحت حكمه مكانها بين الحقائق والأوضاع الجديدة في العالم . " فهو لم يحدد ولم يركز موقفها تجاه الولايات المتحدة إلا على مدى قصير وكذلك فعل تجاه العالم الاشتراكي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط والعالم العربي وبصفة خاصة تجاه أوربا التي يمكن فعلا أن تبتدئ الآن بالنسبة لأسبانيا من حدود البرتغال . هذا بينما التلاقي المحتوم بين أسبانيا جديدة وأميريكا لاتينية جديدة لا يزال موقوفا بعامل الجهل والحنين وبقايا الجدال حول أحلام الامبراطورية " (60) .

مات فرانكو وبموته أغلقت أسبانيا بابا من أبواب دهاليز التاريخ لتفتح آخر

ورغم هذا فقد قابل الشعب الأسباني الأحداث بهدوء موزون يصحبه الاعتقاد بأنه أمام المستقبل المجهول يتحتم على كل فرد الإسهام في بناء ذلك المستقبل ولا يتم ذلك إلا بالتعايش في أمن وسلام . مات فرانكو فبكاه ، رغم كل شيء ، الكثيرون لأن الشعوب لا تنسى ولا تنكر الفضل ولذا رغم معارضته أو الحقد عليه فقد سار الشعب في صفوف طويلة لوداعه وايداعه مقره الأخير . مات فرانكو بعد أن ترك كل شيء " موثوقا محكم الوثاق " لكن لأية غاية ؟ فكان فرانكو رغم حذقه وذكائه قد نسي بأن الشعوب تصمم أحيانا على أن تصنع تاريخها بنفسها و إذا صمّمت أنجزت .

الباب الرابع

دون خوان والخوانية

إذا المرء تجرد من كل وضيع ، وتـاقت نفسـه إلى كل رفيع ، فتعالـت عن المظاهـر الدنيا ، وسمت إلى المبادىء العليا ، نال من الإكبـار عظيمه ومن التقدير وافره وذكر دوما مع الخالدين . هذا ما نقدم به وما ينطبق تماما في نظرنا على صاحب السمو دون خوان آل بريون ، كونت برشلونة ، والد الملك الأسباني الحالي دون خوان كارلوس ابن ألفونصو الثالث عشر الذى تخلى عن العرش قبيل إعلان الجمهورية تفاديا لمغبة الفتنة التي رغم تضحيته لم تسلم منها البلاد .

أردنا قبل الدخول في موضوعنـا الرئيسي ، تخصيص هذا الباب القصير لهذا الرجل الذي نرى أنه لو لم يقم بما قام به لما كان للملكية أن تعود بهذه السهولة وهذا الهدوء إلى أسبانيـا وان هي عادت كان من الممكن أن تخرج من سـلالة آل بربون هـذا إن لم تعد الجمهورية وإن لم تتعرض البلاد الى فتنة أخرى .

أفردنـا له هـذا الباب على قصره ، كي نعطـي ولو لمحـة عما قدمه الـرجل لعـرشه وبـلاده وكي نطلع القارىء ولـو في ايجاز على رأي وأفكـار ومبادىء هـذا الذي كـان مفـروضـا أن يتـولى قبل ابنـه مقاليـد البلاد ويجلس قبلـه على عـرش أجداده احترامـا للتسلسل الشرعي الطبيعي للتـداول على عـرش آل بـربـون بأسبـانيـا . لكن أرادت الظروف ، داخليـة وعالمية ، وأراد فـرانكو ، أن يحل محله ابنـه الذي مـا من شك أنه تبنى مفهومـه للملكية ودورها من مفهـوم أبيه لها وهذا من الـدواعي التي أدت بنا إلى تخصيص هذا الباب لهذا الرجل النزيه القنـوع ، الوفي لمبادئه ، المؤمن بالحرية والعدل والمساواة وبأن دور الملكيـة الأول هو ضمان هـذه الحقوق للمـواطنين وصونها من كل معتد أو جبار.

حياته : ولد دون خـوان آل بربون وبـاتنبارغ بقصر " لاغرانخـا " على بعد سبعين كيلو مترا عن مدريد فكان الابن الثالث للملك ألفونصو الثالث عشر وزجته فكتوريا أوخينيا آل باتنبرغ .

لم يكن دون خوان ولا أي عارف متصل بالقصر الملكي وقوانينه وتشريفاته يحلم أو يظن أو ينتظر أن يصل دون خوان يوما إلى ولاية العهد ومنها إلى العرش ، لأنه كان ثالث الأبناء وأصغرهم ولذا كان يجب أن يموت أو يتنازل ثلاثة قبله ، هم أبوه وأخواه ، كي يصبح ذا حق في الجلوس على العرش . ولذا ولبعده عن ذلك الاحتمال تمتع في طفولته بشيء من الحرية والتخلص من شدة قيود تراتيب القصر .

درس دون خوان أول ما درس على يدى مدرسات أوتي بهن لتعليمه وأخويه اللغات فكانوا يعيشون ، كما قال هو نفسه ، بعيدين عن كل ما هو سياسة . ولما بلغ العاشرة عين له أساتذة عسكريون ثم التحق كجندي بمدرسة السكك الحديدية . وعند التفكير في المستقبل وفي الدراسة التخصصية وجه نحو الهندسة . لكن بحكم صلته بمحيط البحرية ونشاطاتها في مدينة سان تاندير مال إلى هذا التخصص وفضل أن يصبح بحارا . عرض ذلك على والده ، الملك ، فكان جوابه " إذن إلى الأمام وهيىء نفسك للمدرسة البحرية . فاجأه تخلي والده عن الحكم ثم إعلان الجمهورية وهو بالمدرسة البحرية فما كان منه إلا الإسراع إلى قاعدة جبل طارق القريبة حيث وصل يوم 15 أبريل « نيسان » 1931 فجرا ومنها وعلى متن باخرة مدنية إيطالية سافر إلى جينوا وبالقطار قصد باريس حيث التحق بعائلته . لم يكن أحد هناك ليهتم به وكان عليه أن يفكر فى مستقبله وهكذا فعل فهو يقول " لقد فكرت بأنه لو استطعت لأتممت دراستي البحرية التي بدأتها بأسبانيا والتي تعجبني فحل أبي هذه المشكلة بسرعة إذ قال لي " سأذهب إلى انجلترا لأرى إن كان الملك جورج الخامس يقبل أن تلتحق بالبحرية البريطانية " وفعلا ذهب . وبما أن أحداث أسبانيا كانت قريبة العهد فقد وجد أبي الملك البريطاني متأثرا جدا بها وبدون تأخير ألحقت بمدرسة " الأشبال الملكية " بدورت مونث بعد أن أجرى لي امتحان دام ساعات .

وهكذا واصل الأمير دون خوان دراسته العسكرية البحرية تلك ، وبقي تابعا للبحرية الملكية البريطانية إلى أن تحصل على رتبة نقيب بعد قضاء مدة تدريبية عملية على ظهر البارجات " انتربرايز " و " أيرن ديوك " و " ونشستر " وأرادت الأقدار أن تجعل ممكنا ما كان أقرب الى المستحيل . ففي سنة 1933 ، جرى وسط العائلة المالكة وهي في مهجرها ما لم يكن في الحسبان . فقد تنازل الأخوان

الأكبران عن جميع حقـوقها في الملك وبـذلك أصبح دون خـوان ولي عهـد وأمير أستورياس كما يقتضي العرف . فالأخ الأكبر ، دون ألفونصو شرح أسباب تنازله وهو زواجـه بسيـدة ليست من سـلالة ملكيـة . أمـا الثـاني ، دون خـايمي ، فلم يشرح الأسباب التى لم تكن سوى عجز جسدى ناتـج عن مرض أصابه في صغره فخلف له الصمم وصعوبـة الكلام . ومهما يكن من أمر فقـد تنازل الاثنان وها هـو دون خوان الذي كان بعيدا عن المسؤولية الكبرى ، وعن السيـاسة ومشاكلها ، ها هو يجد نفسه وسط المعمعة ، وليـا لعهد ملك في المهجـر ، بلاده في اضطـراب ونزاعـات وصحته تحتاج إلى كبير العناية من جراء ضعف في القلب يشكوه . وجد نفسه في الصف الأول وفي المقدمة لمجابهة المسؤولية ، مسؤولية المحافظة على العائلة والعرش وإعطاء أسبانيا ما تحتاجه مـن استقرار وعدل ورفاهية . كانت هـذه مسؤوليات الأمير الشاب إلا أن الأحداث والظـروف ستضعه في أول درب طـويل مليىء بالأتعـاب لا ينتهي ولايبلغ الأمير مداه الا عن طريق ابنه وبعد موت فرانكو أي بعد نيف وأربعين سنة .

الحرب الأهلية : إن أول الأحداث التي واجهها الأمير دون خوان هي الفتنة التي اندلعت بأسبـانيا في 18 يوليـو ﴿ تموز ﴾ 1933 فأتت على البلاد ماديـا وأدبيا والتي وجدته وهـو شاب متحمس يغلي في عروقه دم الشهامـة والغيرة على الوطن فما كان منه ، وهو الحر آنذاك من وثائق الملك وما تفرضه على الملك من اعتدال وحياد وسعي للمصـالحة بين المواطنين ، ما كـان منه الا أن اجتـاز الحدود الفرنسيـة الأسبانيـة عبر جبال البرانس صحبة جمع من الرفاق واتجه جميعهم تحت اسماء مستعارة نحو الخطوط الأمامية بغيـة المشاركة في الحرب وبمنطقة مدريد ان أمكن . إلا أن مجمـوعة الشباب هذه لم تستطع اجتياز مدينة أرانـدا بشمال أسبانيا إذ اعترضهم هناك نقيب يبلغهم أن على " الأمير دون خوان آل بربون أن يعود من حيث أتى ويعبر الحدود ثانية في الاتجاه المعاكس لأن دخوله أسبانيا يجب أن يتم بصفة أخرى ، حسب قول النقيب .

عـاد إذن الأمير إدراجه ومـا هي إلا أشهر حتـى عاوده الحنين إلى مشـاركة أنـداده التضحيـات والمشاق في حـرب يشارك فيهـا الأجانب ويـذهب ضحيتها الـوطن . لم يحاول اجتياز الحدود هـذه المرة بل كتب إلى فرانكو ، بصفته المسـؤول الأول عن قيادة الجيش " الوطني " وقال له : حضرة الفريق المحترم ، لما كانت الحرب الأسبانية ذات

صبغة داخلية بحتة ، حاولت ، بطريقة قد تكون غير ناتجة عن سابق تفكير ، حاولت المشاركة في الحرب مدفوعا بمشاعر بعيدة عن السياسية . اني أفهم وأحترم الدوافع التي أدت بالسلطات العسكرية آنذاك إلى منعي من الانخراط في الجيش .

لكن المعركة اليوم تزداد ، على ما يبدو ، اتخاذ شكل معركة ضد أعداء من الخارج فتصبح حربا على كل اسباني حقيقي في سني أن يحتل مكانا فيها ثم يذكر الأمير فرانكو بدراسته العسكرية ويقترح التحاقه بباخرة حديثة الصنع وعلى أهبة الإبحار . لكن فرانكو لم يكن مستعدا لقبول وجود الأمير معه في القتال لأن ذلك من شأنه أن يقربه من الشعب ويفضي عليه من البطولة ما يفضى فيسد ذلك الطريق أمام فرانكو ،الطريق نحو السلطة وهو الطامع فيها العامل من أجلها ولو أنه سيجيب الأمير بما لا يفضح نواياه بل ما من شأنه أن يدل على حكمة وإخلاص والكل في فائدة العرش وأصحابه إذ يقول في جوابه . . . " حقا ان الصراع الذي نقوم به قد تعدى حدود الدولة ليدخل إلى المجالات العالمية لأنه لم يعد مقصورا على مصير أسبانيا فقط بل ومصير المدنية الغربية أيضا ومعها الكنيسة الكاثوليكية المهاجمتين بشدة من طرف الشيوعية الروسية ، بمشاركة وتعاون حكومات خارجية معينة .

كان يمكن لي أن أسرّ كثيرا لاستطاعتي الاستجابة لرغبتكم ، الأسبانية والشرعية معا ، في المحاربة في سبيل قضيتنا ضمن قواتنا البحرية . لكن تفرد شخصيتكم لا يسمح بتمكينكم من الخدمة تحت مجرد رتبة ضابط ، لأن حماس البعض وفضول الآخرين يحول دون تحقيق تلك المطامح النبيلة . هذا دون نسيان المرتبة التي تحتلونها داخل التسلسل العائلي والواجبات المترتبة عن ذلك والتي تفرض على الجميع ، وتتطلب من جانبكم التضحية برغبات على درجة من الوطنية مثلما هى نبيلة ورشيدة ،في سبيل مصلحة الوطن . . . " وأسرّ فرانكو للشخصية التي حملها رسالته إلى الأمير بقوله " إن من واجبى عدم تعريض حياته لأي خطر ، لأنها قد تكون غالية علينا يوما ما . . . فإذا ما عاد يوما من الأيام ملك على رأس الدولة ، فهذا الملك يجب أن يأتي مصلحا ذات البين ولا يجب أن يعد من الغالبين " .

كان الأمير دون خوان معروفا بعدائه للشيوعية وقد يكون هذا الشعور هو الذي أدى به إلى الرغبة في حمل السلاح ضد " الأعداء الخارجيين " . ثم إنه لم يكن يؤمن

ولايقبل بـالفاشستيـة ولا النازية ولـذا لم يكن ميله إلى المشـاركة في الحرب إلى جـانب الوطنيين تأييدا منه لسياسة التعاون والتعامل مع المحور فقد قال في إحدى المناسبات " أنا لم أؤمن قط بـالفاشستية ولا بـالنازيـة . أما بقاؤنـا في روما فلم يكن إلا لأنِ أبي الـذي هاجمتـه الشيخوخـة كان يشعـر بشيء من الراحـة هناك وفضلنـا نحن العيش بقربه .

انطلاقا من هـذه المشاعر كان ، على الأقل عاطفيـا ، مع الحلفاء لما قامت الحرب العالمية الثـانية التي شعر بقدومها مسبقا ، وكـان مؤمنا ايمانا قاطعا بـانتصار الحلفاء والديمقراطية وانهزام المحور والأنظمة الدكتاتـورية . كان هذا ايمانه حتى في أعز أيام ازدهار المحور وتسجيله انتصارات باهـرة ضد الحلفاء الشيء الذي تسبب لأمه وله في أتعاب وقلق من طرف السلطات الفاشستية الايطالية مما أجبر والدته أولا وهو بعدها على التحول إلى سـويسرا والإقامة هناك بعـد وفاة والده الملك ألفونصـو الثالث عشر الذي وافـاه الأجل في 28 فبراير ﴿ شباط ﴾ من سنـة 1941 والذي ترك وصيـة يقول فيها " إنه لم يتنـازل عن العرش يوم 14 أبريل ﴿ نيسـان ﴾ 1931 ولذا لم يتنازل عن حقوقه المشروعة فيه وهي التي ينقلها إلى ذريتـه حتى يستعملوها عندما يتناسب ذلك مع مصلحة أسبانيا " .

بتنازل الأخوين الأكبرين وبموت الوالد أصبح دون خـوان رئيسا لسلالة آل بربون وملكا على أسبانيا ولو أنه يعيش بحكم الظروف بعيدا عن عرشه ووطنه إذاك ، بعث برسـالة لأمه يقول لها فيهـا بعد اخبارها بقبـولة تلك المسؤوليات العظيمـة " ولما تشاء إراده الله بأن أضع على جبيني تـاج أسبانيا . . . وعندمـا تأتي ساعة قيـامي بواجبي وتحقيق رغبتي في خدمة وطننا ، سأبذل الجهد في ضمان وحـدته المعنوية واستمراريته التاريخية والـدستورية وسوف أخفف بكـل عطف وسلطة أبويين آلاما لاتـزال حديثة وألبي بنجاعة مطامح الجماهير الأسبانية الراغبة في حياة أحسن وأكثر عدلا . . " .

<u>وجها لوجه</u> : هذا هو الرجل ، الملك الشرعي المطالب بعرشه والذي سيقف طوال سنوات في صراع سياسي دبلوماسي مع فرانكو والماسك بزمام الحكم في البلاد والحاكم بأمره فيها .

ثلاثة كانوا يطالبون بالسلطة في أسبانيا ويدعون الشرعية لهم فيها . ملك في المهجر ورث العرش عن أبيه الذي تخلى عن السلطة وغادر البلاد حقنا للدماء وتحاشيا لتصادم الأسبان في ما بينهم ولو أن صنيعه لم يغير مما خافه شيئا . وحكومة جمهورية في المهجر هي الأخرى . أجبرت عليه بعد انهزام أنصارها وفوز الجانب المتمرد عليها وأنصاره . وحكومة نابعة من الجانب المنتصر تمسك بزمام الأمور في داخل البلاد وتعتبر نفسها الحكومة الشرعية الوحيدة ورئيسها " القائد الملهم الذي لا يحاسب إلا أمام الله والتاريخ " لاينوى التخلي عن مركزه وسلطته بدعوى أنه تحت حكم ذاك أو أولائك ستسقط البلاد مرة أخرى في أيدى الالحاد والماصونية والشيوعية العالمية وهو ما لا يرضاه لها . ومن هذا المنطلق سيقوم صراع مستمر لن ينقطع إلا بموت فرانكو .

كان أول اتصال بين هذا الأخير والأمير إذاك ، عندما رغب ولي العهد الإنضمام إلى القوات الوطنية والمشاركة في الحرب الأهلية فمنعه فرانكو عن ذلك بلباقة ودبلوماسية محنكة . ومن يومها ستعرف العلاقات بين الرجلين تقلبات عدة وستتعرض إلى مد وجزر إلى أن جاء مد الحياة وأخذ في جزره فرانكو وسلطة فرانكو فأوداهما في غياهب التاريخ .

أما المعارضة ، بحكوماتها الجمهورية المتتالية وأحزابها المتعددة ومنظماتها وفرقها العديدة المشتتة القوى فقد رأينا أنها استمرت متخذة كل الأشكال ، قائمة بكل المحاولات جدلية كانت وسياسية ودبلوماسية وعملية وصلت إلى حد العنف والأرهاب . وأما دون خوان وأنصاره فقد كانت مطالبتهم سلمية مبنية على الحوار مع الطرف الثالث ، فرانكو ، أكثر من أي شيء آخر . ولذا فقد تمثل الصراع أكثر ما تمثل في مراسلات بين دون خوان وفرانكو تتخللها من حين لآخر مقابلة مباشرة يوعز بها فرانكو لتنفيذ خطته التي يبدو أنه رسمها من أول يوم ولم يحد عنها إلى أن مات(61) .

كانت أولى المراسلات تلك التي أشرنا إليها وكانت نتيجة لرغبة دون خوان حمل السلاح والإسهام في القتال الذي كان دائرا في البلاد . أما مراسلاته وهو ملك فقد بدأت ببرقية التعزية التي وجهها فرانكو بعد وفاة الملك ألفونصو وألحقها برسالة لم تخل من التحيل والمراوغة ولا من التهديد أذ فيها يشير فرانكو إلى أنصار دون خوان ويحذره

منهم واصفا اياهم بالقلة والانتهازية والبحث عن الاستفادة الخاصة وهو يعلم أن من بينهم ضباط سامون لا يزالون حوله وبقربه ، أسهموا معه في الحرب وفي تحقيق الانتصار وبايعوه مسلمين له السلطة إذ كان ظنهم أنه مثلهم سيعيد للبلاد ملكها بمجرد أن تستقر الأمور . فيجيبه دون خوان ، الملك ، قائلا " اني أفهم من سعادتكم حرصكم على تحاشي المس بالملكية وبشخصي . . . لكن الظروف التي جعلت مني الممثل للسلطة الملكية تدفعني إلى الفهم بأنه علي القيام بواجبي . تجاه أسبانيا وأنه لا يمكنني أن أترك نفسي ترتاح إلى حياة الرفاهية وعدم الاهتمام . ان هذا الواجب هو علي أمام الله وبكل إخلاص لا أستطيع رفضه . . " ويعاود فرانكو الكرة فيجيبه قائلا " إن مصالح الوطن العليا ، سواء أكانت داخل البلاد أو خارجها ، هي شديدة الوثاق بانجاز برامج حركتنا ﴿ يعني الحزب الواحد الذي جعل منه العمود العقائدى الذي يقوم عليه نظامه ﴾ وهو أيضا الطريق الوحيد لسموكم وللنظام الذى تمثلونه والذي ، إذا ما دعاكم الواجب يوما لخدمة أسبانيا ، اتخذتموه لتتويج عملنا بعودة النظام التقليدى الذى بالنسبة لي أنتم له الممثل الأوحد والشرعي وحتى يستطيع ذاك النظام الحصول على القوة والسلطة الكاملة التي آملها . . . "

لقد قال " الكاوديو " كلمته وهي التي كانت وستكون إلى النهاية الحد الفاصل بين الرجلين .

التباين : إن مفهومي الرجلين للملكية ودورها كانا متباينين تماما ولامجال للتقارب بين وجهتي النظر . ففرانكو ، كما جاء في رسالته آنفة الذكر وكما سيردده المرات العديدة ، كان يشترط ﴿ في حالة احتمال قبوله عودة الملكية وتخليه عن الحكم وهو ما لم يكن يفكر فيه ولا يريده ﴾ أن تكون ملكية " سلطوية " بعيدة عن التحرر والحرية وخاصة بعيدة عن قبول الأحزاب وتياراتها وفوق وقبل كل شيء ، لابد لها وأ تكون ضامنة استمرارية مبادىء ومفاهيم نظام فرانكو و" حركته " .

أما الملكية التي ينادي بها دون خوان فهي في نظر فرانكو " ليست سوى المدخل للجمهورية والشيوعية " .

كان الكاوديو يرى أنه لا ولن يعيد الملكية إلا بعد أن يتم " ثورته " وهذا يعني

إبعـاد ذلك الاحتمال قـدر المستطـاع ومـا هو إلا ربحـا للـوقت وتمويها يتحـاشى بـه الضغوط الكثيرة التي نزلت عليه والتي أزعجته في بعض الأحيان وهي ضغوط داخلية يقوم بها الملكيون وخاصة سامي الضباط الـذين لايستطيع فرانكو نكران ما أبلوه أثناء الحرب ولا فضلهم عليه . وضغوط خارجية نتيجة تحركات دون خوان وصحبه ونتيجة نشاط المعارضة داخل ظروف عالمية لم تكن في صالح فرانكو ولا في صالح نظامه .

لقد كتب دون خوان إلى أحد أوفيائه يقول " لقد استلمت من " جينير السّمــو " ﴿ الفـريق الأعلى ﴾ رسائل مسهبـة في ما يخص الاعتبـارات التاريخيـة . . . ولكن لمّا ظهر في تلك الرسـائل ولأول مرة شيء ملموس ونهائي ، كان لينذرني أنـه ينوي اعادة تنصيب الملكيـة عنـدمـا يـرى أنـه أتـم عملـه الثـوري وإذا مـا تـوحّـدت ذاتيـا مع الكتائب . . " .

هذه هي إذن آراء فرانكو وشروطه وهذا ما لم يقبله دون خوان ولا كان يستطيع قبوله إذا احترم نفسه وضميره ومبادئه وفعلا احترم كل ذلك ولم يجد مفهومه لدور الملكية ولو قيـد أنملة ذلك المفهـوم الذي رسمـه دون خوان في رسـالة بعث بها إلى " الكـونت " روداثنو يقول فيها " أريد التأكيد بأني أعـرف جيدا الواجبات التي يفرضها على حقي في تاج أسبانيـا . . . وأجدد اعتقادى بأن الملكية يجب أن تكـون لجميع الأسبانيين ، طبقا لمتطلبات ومفهـوم الملكية وحسب تعريف أساتـذة الفكر الملكي . واليوم ، كما بـالأمس . فإن التاج فـوق كل المصالح الحزبيـة أو الطبقية وهـو أجنبي عن كل روح ضغينة أو قمع وهو ما يجعله يستطيع تجسيم العدالة الضرورية لاقامة الوحدة المعنوية للـوطن الأسبـاني " ويقول في منـاسبـة أخـرى " . . . إن عودة الملكيـة تحمل معهـا وجــوب صياغـة كل القوانين ، الأساسية أو الأدنى منها حقوقيا وسيـاسيا ، باتفاق إرادة الملك مــع المؤسسـات التشريعيـة التي تعكـس تمثيـلا وطنيـا حقيقيـا . فمتى خضعنا ، حاكما ومحكوما ، للقانون ، حصلنا على دولة القانون التي أرغب في أن أراها مقـامة ومـوطدة في أسبـانيـا . إن الملكية يجب أن تسعى إلى غـايـة هي من أهدافهـا الأساسيـة وهي مصالحة كل الإسبـان . عقليتان ومفهومـان وإرادتان متقـابلتان ولن تلتقيا . اجتمعتـا من أجل وطن واحد وتبـاعدتـا في طريقـة محبة هذا الـوطن وشكل الحكم المطلوب له . في خريف سنـة 1942 جرت سلسة من الأحداث غيرت مجرى

الحرب العالميـة وبدا المحور الـذي كان قبل قليل محرزا على أبهر الانتصارات يتـدهور وتتدهور أوضاعه العسكرية مما أشار بوضوح إلى أن الحرب آخذة وجهة أخرى لا شك وأن منتهاها انتصار الحلفاء . أمام هذه الأحداث أخذ كل المعارضين لنظام فرانكو في التحرك طمعا في مساعدة الحلفاء لهم على الاطاحة بنظامه الذي تعامل مع المحور بل كان نتيجة مسـاعدته وتأييده . كان الملكيون ، وفي مقـدمتهم دون خوان ، يرون أن أنتهاء الحرب بـانتصار الحلفاء سيضع أسبـانيا أمام حلين وهما عودة الملكيـة أو عودة حكومـة الجبهة الشعبية وأمـام هذا الأحتمال الأخير سرى في الأوساط الملكيـة نوع من التشنج الدافع إلى الإسراع بالحركة والانجاز حتـى أن الفريق كندلان ، وهو من أشهر كبار الضباط بقرب من فرانكو ومن أكثر الملكيين وفـاء وحماسا ، قال مطالبا بوجوب إنجاز تنصيب الملكيـة " يجب انجاز ذلك بفـرانكو والا بـدون فرانكـو أو حتى ضد فرانكو " قال هذا وأجرى في الوقت ذاته مقابلة مع فرانكو نفسه محاولا اقناعه بدوران الدوائر على المحور وأن هذا يقضي وجوب عودة الملكية وملاحظا له أن أسبانيا داخليا معدومة الدولة وأن رئيسها هـو في الواقع رئيس حزب وجانب من البلاد وأن الكتائب قد فشلت وأن لا حل إلا الإسراع بعودة الملكية . ولكن فرانكو لم يأبه بكل ذلك وكان رده حسب ما ذكـره الفريق كنـدلان نفسه في رسـالة إلى دون خـوان ، هو أن الملكيين ليسوا سـوى " أربع قطط " وأن الكتائب مغروسـة في البلاد وهو يرى أن التـاج يعود بلا منازع لدون خـوان . ثم يشير الفريق كنـدلان بأن العودة لابـد وأن تكون نتيجـة لنهاية الحرب العالمية ويلمح إلى الاستغناء عن فرانكو أي القيام ضده .

نظرا لتسـارع الأحداث عـاد دون خوان واتصـل بفرانكو ليـلاحظ لـه " الأخطار العظيمة التي تتعرض لها أسبانيا بسبب النظام الـوقتى القائم وأن هذا ناتج عن ثلاثة أشيـاء هي تجسيم السلطـة وتفردهـا فى شخص واحـد بـدون قانـون أسـاسي شرعي ودستوري ، والانقسام العميق الذي عليه الرأي العـام السياسي والعاطفي في أسبانيا وأخيرا الوضع الناشىء عن الحرب العالمية . . . إنى لا أرى إلا طريقة واحدة لتحاشي العقبة التي ستقف في طـريق مستقبل أسبانيـا عند تنظيم أوربا إذا مـا انتصر الطرف الأخر وهذه الطريقة هي الإسراع باقامة نظـام وطني جديد متحرر من أية مسؤولية أو تعهد مضر . . . " .

واضح من كل هذا أن الحوار ليس إلا حـوار أصمين وهو أنه لن يؤدي إلى مـا كان

يأمله ويبغيه دون خوان وهو عودة الملكية كي تتجنب أسبانيا انتقام أو ازدراء أو نسيان الحلفاء لها بعد نصرهم وتتجنب أيضا عودة حكم الجبهة الشعبية باشتراكييها وشيوعييها ، لأن دون خوان كان واثقا من أن الحفاء لن يهملوا الاهتمام بأسبانيا ولن يغفروا لفرانكو ونظامه التعاون مع المحور لذا سيعملون ويساعدون على تغيير النظام وليس من بديل مناسب سوى الملكية التي لم تشارك في الحرب الأهلية فهي إذن ترضي الطرفين اللذين تنازعا في حرب أهلية طاحنة . ولم يدر قط بخلد دون خوان أن هناك احتمالا آخر وهو بقاء فرانكو لأن الحلفاء ليسوا كما كان يتصورهم وهذا فعلا ما كان .

القطيعة : وصف عام 1943 بأنه عام انعدام الصبر لكثرة التحرك وكثرة المتحركين في كل الأوساط وخاصة بين الملكيين حتى أن دون خوان وجه يوم 3 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ 1943 برقية لفرانكو كانت أشبه بالانذار والتحذير جاء فيها " . . لم يعد هناك وقت للضياع إذا قررت سعادتكم الإسهام في تجنب أضرار كبيرة قد تلحق وطننا الحبيب وذلك بتسهيل عودة الملكية عودة غير مشروطة . . . لكن إذا تشبثت سعادتكم بعدم تغيير الشروط المرفوضة مني والتى وضعتموها أمام عودة الملكية فأحدثتم بذلك القطيعة النهائية . . . وسأكون مجبرا على اللجوء إلى الوسيلة الوحيدة التي تتركها لي الظروف وهي اشعار الرأي العام بشرح كامل للأحداث . . . "

ليس هذا ما من شأنه أن يزعج أو يحرك فرانكو . فهو مصمم على البقاء وعدم إخلاء المنصب وإن هو فعل ، وهذا بعيد الاحتمال ، لن يكون لملك مثل دون خوان أو مثل الذي يرسمه دون خوان . أصبحت القطيعة بين فرانكو ودون خوان واقعا ملموسا ولم تعد تنتظر إلا بيانا يصدره دون خوان لتجسيمها .

وجاء هذا البيان يوم 19 مارس ﴿ آذار ﴾ 1945 وعرف ببيان لوزان المدينة السويسرية حيث كان يقيم دون خوان وحيث أصدر البيان . لقد جرت محاولات عديدة قبل القطيعة . محاولات قام بها بعض النواب في البرلمان ﴿ لاس كورتيس ﴾ وجمع من الشخصيات إذ وجهوا مكتوبا لفرانكو يطالبونه بإعادة الملكية وكذلك فعل جمع من أساتذة الجامعات ومثلهم ثمانية فرقاء بالقوات المسلحة يعدون فرانكو بتأييد الجيش كله ، قراره ان هو أقدم على اتخاذه . لكن كل تلك المساعي ذهبت سدى

وبقي فرانكو ثابتـا على رأيه فأدخل ذلك خيبة أمل شاملة قد يكـون أكثر المتأثرين بها الفريق كنـدلان ، الرجل الذي حرص أكثـر من أي كان ليحصل فرانكو على مبـايعة رفاقـه ، والذي أصبح بعد خيبة الأمل تلك ينـادي بمقاطعته . وهكذا صـدر البيان الذي جاء بمثـابة تلخيص للحجج والآراء التي طالما رددها دون خـوان الذى قال في هـذا البيان ضمن مـا قال " . . بعـد ست سنوات من الحرب الأهليـة لم يعد النظـام الذي أقامـه الفريق فرانكو مستلهما منـذ البداية من الأساليب المطلقـة لقوات المحور والذى يتنافى مع طبع وتقاليد شعبنا ولا يتماشى والظروف التى أحدثتها الحرب الحالية في العالم . إن السياسة الخارجية المتبعة من طـرف النظام تورّط كذلك مستقبل الدولة . . . إن أسبانيا مهددة بالانجراف نحو فتنة جـديدة والوقوع في عزلة عن العالم . . . إن الملكيـة التقليـديـة وحـدهـا التي تستطيع أن تكـون آلـة سلم ووئام لمصـالحة كل الأسبانيين . . . هي وحدهـا من يستطيع الحصول على الاحترام في الخارج عن طريق دولة قـانون فعليـة . . . وكي أخلص ضميري من ثقل المسـؤولية الملقـاة عليّ والذي يزداد ضغطه يوميا ، أزمعت على رفع صوتي طالبا رسميا من الفريق فرانكو أن يعترف بفشل مفهـومه المطلق للـدولة وأن يتخلى عن السلطـة ويترك المجال حـرا أمام عـودة النظام التقليدي لأسبانيا . . . " .

ما الذي حـدث بعد ذلك ؟ غضب فرانكو وتحرك دون أن يترك السلطـة طبعا لأنه لم يكن يفكر في ذلك مطلقـا . أليس هو القائل " أنا لست مثل بـريمو دي ريفارا ، أنا لا أستقيل ولا أترك المنصب الا وقدماي أمامي ﴿ أي ميتا ﴾ " .

أما الحلفـاء والدول العظمى التي كـان يظن أنها ستعمل على الأطاحـة بكل نظام دكتاتورى متجبر فقـد اكتفت بالإدانة وبعض المقاطعة ثم عـادت لتتعامل مع النظام وتتحالف معه . وفي هـذا أصاب فرانكو حينما قال في رسـالة إلى دون خوان " . . لا يوجد قط شيء نهائي في مجال العلاقـات الدولية . فالدولة اليوم صـديقة وغدا عدوة حسبما تمليه عليهـا مطالحها ولـذا فاحسن دفـاع عن أسبانيا يكمن في وحـدتها وقوتها المترجم عنها بقية رجالها وصلاحية سياستها وإرادتها الراسخة أمام الخطر . . " .

هذا فعلا ما تبين عند الحاجة وهذا ما لمسه الأستاذ خوزي ماريا دي آريلثا السفير الأسبق ، من اتصالات قام بها لدى سفارات الدول العظمى فأخبر بذلك دون خوان



ثلاثة أجيال من العائلة المالكة

دون خوان دي بوربون ،ابنه الملك خوان كارلوس ،و حفيده الأمير فيليبي ولي العهد



أبو الملك يلقي بين يديه خطاب تنازله عن العرش

ثم فرانكـو وملخصه هو أن " لا حكومـة الولايات المتحـدة ولا حكومة بريطـانية ولا حكومـة فرنسا مستعـدة لتسخير جندي واحد ولا بـاخرة حربيـة لتعزيز عمليـة تعيد الملكية " . فالحرب البـاردة قد " اندلعت " والدول الغربية في حـاجة إلى إيجاد توازن مع حليف الأمس الذي أخذ يتوسع شرقى أوربا وينذر بالوصول إلى غربيها . ولذا لم تكن الدول الغربية ترى الحكمة في القيـام بأي شيء ضد فرانكو ولكن لا يستبعد أنها كانت تـرغب في ابقاء نـار المطالبـة بازاحتـه حية ونشـاط البديل مستمـرا حتى يكون تهديـدا يمكن من المساومـة ومن الضغط على فرانكـو فيلين فيستغل مقابل بقـائه في السلطة .

بهذه الصورة تقريبا جرت الأمور التي انتهت بفـوز فرانكو نتيجة تنازل وتخلي الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية عن مبادئهـا المعلنة والتي نادت بها ونتيجة تردد كبار الضباط الملكيين وسلبية الكثيرين من أنصار دون خوان وعدم وحدتهم . وهكذا وكما قـال لوبث رودو ، أحـد كبار وزراء فـرانكـو السابقين " كـان دون خوان متيقنـا أن البديل الأوحد المعروض أمام وطننا هو الملكية وإلا فعودة إلى الجبهة الشعبية لعام 36 لكن التاريخ أثبت أن هناك حلا آخر وهو استمرار فرانكو . لكن هذا لا يقلل من منطق ذلك البديل الظاهر "

قد يكون فرانكـو فكر في تتويج نفسه والجلوس ملكا على عرش أسبـانيا وقد يكون فكر فعـلا في إعادة دون خوان إلى الجلوس على عـرش آبائه وقد يكـون ويكون ولكن المؤكد هـو أنه لم يفكـر قط في التنحي ولا في البقاء في المرتبة الثـانية . ولـذا كانت كل تصرفاته وأقواله ومناوراته لا تـرمي إلا لشيء واحد وهو بقاؤه على رأس الدولة إلى آخر يوم من حياتـه . ولكنه لم يكن غبيا ولا أبلها وكان حصيف الرأي كثير الـدهاء يعرف كيف يذعن للظروف فيطوّعها لمشيئته ويسيرها طبقا لمطامحه .

لقد عرف أن الدول تتعامل حسب مصـالحها وفهم أن الحلفاء المنتصرين في حاجة إليه وإلى مـركز بلاده الاستراتيجي لكنـه يعرف أيضـا أن الحياة أخذ وعطـاء وأنه إن لم تستطع أو لم تشأ تغيير الجوهــر فغير المظهـر وسر في الـركب وهكــذا فعل مجابها كل التهجمات والاتهامات المكالة له ولنظامه . لم يكن يؤمن بإعطاء الحريات وكان يخاف من أي انفتاح ولذا فان أبسط السبل وأسهلها اضفاء صفة الملكية على الدولة والنظام

وإعـلان ذلك في قانـون أسـاسي فيطمئن بذلك من يـريـد الاطمئنان فيبقى منتظـرا الخطوة التالية وهي تعيين من سيجلس على العرش .

الثالوث : عرف فرانكو بهوايتـه الصيد ، بنوعيه ، ويبدو أنه ماهـر في إصابة أكثر من هدف بطلقـة واحدة . منذ أن نشر البيـان ، بيان لـوزان ، انقطعت الاتصالات بين فـرانكـو ودون خوان كليـة . فقـد نقل هـذا الأخير مقـر إقامتـه من سـويسرا إلى البرتغال ﴿ مـدينة أستـوريل ﴾ حتى يكون أقـرب إلى مواطن الأحـداث ويسهل على مناصريـه الاتصال بـه وحتى التحوّل إلى حيث هو . لكن رغم كـل ما قيل لم يتم أي اِتصـال بين الـرجلين ، لا كتابيـا ولا عن طـريق خـواص ، الا بعد مـرور أكثـر من سنتين .

أما فـرانكو فلم يهتم لا بإدانته ولا بتململ المعارضـة ولا حتى بسريان بعض الأراء التحررية في أوساط الجيش . فهو ماسك بزمـام الأمور صامد لأن مفاتيح اللعبة بيده وحتى نشـاط دون خوان لم يكن ليـزعجـه بل ليسليه لأنـه كما قـال الأستاذ " فكتـور سالمادور " " كان ذلك التحرك يعطيه عذرا يبرر به تأخره في إعادة الملكية وفي شكوكه قبل تسليمـه التـاج " لكن كما قال أحـد المعلقين " غير مجد البحث عن أسبـاب أو أعذار معقـدة لتصرفات من هـذا القبيل ، لأن الأمر بسيط جدا . فـرانكو يشعـر أنه متناقـض مع الملك حتى ولو كـان دون خوان مـلاكا . . وهـذا مرده أن مـؤخرتين لا يتحملهما مقعد واحد " .

لم يكن فرانكو لينام والأوضاع على ما كانت عليه لأن عدم الاكتراث شيء والإهمال والنـوم شيء أخر . ولـذا وضح استراتيجيتـه للـدفاع عن مـوقفـه ومصيره وتمثلت في تحريك المخططات الدستورية التي كان يقترحها عليه وفيه وصديقه كاريرو بلانكو . وأهـم هـذه المخططات والبرامج إصدار قانـون الخلافة عـام 1947 ، وهـو قانون سيخلق ثالوثا للعبة السلطة العليا فـي أسبـانيـا حاضـرا ﴿ أي في عهـده ﴾ ومستقبلا وسيستغلـه فـرانكو لتثبيت رئاستـه مـدى الحياة . أمـا الثالوث الذي ستـدور حوله الأحداث المتعلقة بالسلطـة ونظام الحكم فهو مكوّن من فرانكو ، ودون خوان ، وابنـه دون خوان كارلوس ، الذي بموجب هـذا القانون عينه فرانكو خلفا له ولكن بعد أكثر من عشرين عاما فكان ذلك سنة 1969 .

لقد تحدثنا عن هذا القانون في حينه ضمن التعرض لعهد فرانكو ونضيف هنا بعض الجزئيات منها أنه ، كما قال الأستاذ فكتور سالمادور ، " قد وضع لأربعة أهداف : أولها إعلان أن أسبانيا ملكية وثانيها مبايعة فرانكو رئيسا للدولة وثالثها تحديد أنه بنهاية انتداب فرانكو يأتي ملك أو وصي ورابعها وضع إجراءات وتراتيب الخلافة " ثم إن هذا القانون هو مجابهة صريحةمع دون خوان ونكران صريح لكل ما كان يمثله . ولذا فرغم حذر فرانكو واحتياطه و إبلاغه نص القانون لدون خوان قبل نشره على العموم وعن طريق عضده الوفي كاريرو بلانكو ، فان تأثيره ونتائجه لم تكن سوى ما كان منتظرا أي استياء دون خوان واعتباره ذلك تحطيما للملكية التاريخية ومن ثم انعدام أي اعتراف بأي حق أو صفة له .

لم يتأخر رد فعل دون خوان . فما أن خرج من مقابلته رسول فرانكو حتى أصدر مكتبه بلاغا أهم ما فيه هو التهديد بأنه إذا ما اتخذ فرانكو موقفا أو خطوة بمفرده بخصوص مشكلة كبيرة كهذه فان دون خوان يكون في حل ليحدد علنا هو أيضا ، موقفه في الوقت المناسب . لم يطل انتظار هذا الوقت إذ لم يمر أسبوع حتى أصدر دون خوان بيانا آخر يقول من جملة ما فيه " إن الفريق فرانكو قد أعلن عن نيته تقديم مشروع قانون الخلافة في رئاسة الدولة إلى ما يدعى " كورتس " ﴿ البرلمان ﴾ وفي هذا القانون ينتظر أن تتبع إجراءات متنافية تماما مع القوانين التي نظمت تاريخيا الخلافة على التاج . . . وفي ظروف حرجة كهذه بالنسبة لاستقرار الوطن ، لا يمكنني عدم التوجه اليكم . بصفتي الممثل الشرعي للمكيتكم ، كي أحدد موقفي من محاولة خطرة كهذه . . . التي لا تقلل بل تزيد في خطورة المسألة الرئيسية التي يطرحها المشروع المذكور . فبدون اعتبار الضرورة الملحة التي تشعر بها أسبانيا للحصول على مؤسسات مستقرة ، إن ما نوي الآن هو ، بكل بساطة ، جعل هذه الدكتاتورية الشخصية ﴿ يعني دكتاتورية فرانكو ﴾ باقية مدى الحياة وتثبيت بعض الشعارات التي يبدو أنها حتى الآن ثم تنكر نظام سلطوي مطلق لم تعد هناك حاجة إليه منذ مدة ، في ثوب الملكية المجيد. . . إن مشروع الخلافة هذا يبدل الثبات بقلة الوضوح ويتخلى عن الاستمرارية الوراثية ليعود ، بعقلية رجعية يؤسف لها ، إلى إحدى تلك الطرق غير الكاملة للزعامة الاختيارية التي تخبطت فيها الشعوب . . . " وبعد التذكير بصفته الشرعية وتمثيله للوراثة القانونية التقليدية للعرش يقول " لا يمكن أن

يطلب مني المصادقـة على اجراءات تعني عدم احترام واجب الأمانـة المقدس لحقوق هي ليست للتاج وحـده بل هي جزء من تـراث الوطن الفكـري : ظهرت عنـد هذا الحد المواقف وتبـاينت . فرانكـو ، وهو في مـركز القـوة والقرار يتقـدم بقانـون يعطيه الزعامـة والرئاسة مدى الحياة إلى جـانب حق تعيين الشخص الذى سيخلفه فيصبح الخليفة ملكـا ولذا يشترط فيه أن يكـون من سلالة ملكيـة ، وهذا الشرط المائع يعطي فرانكو الصلاحيـة لاختيار مرشحه من عائلة دون خـوان أو من غيرها . ثم ان المفردة التي اختارها لتسمية القانـون هي نفسها غير واضحة إذ تعني في نفس الوقت الخلافة أو التتابع أو التسلسل ومن وراء كل هذا كان فرانكو يرمي إلى عدم الالتزام بالتسلسل الوراثي الذي كـان الورقة الشرعية القوية ، ولعلها الـوحيدة التي يقف بها دون خوان لمجابهة مناورات فرانكو .

عند هذا الحد يبرز العنصر الآخر من الثالوث الذي نعنيه وهذا العنصر ليس سوى الأمير خوان كارلوس نجل دون خوان ووريثه .

لقد ضرب فرانكو عدة أهداف برميـة واحدة إذ بالقانون طمأن من كان يخاف على الملكية أو على الوطـن من جراء نظامه بعده وضمـن لنفسه الزعامة مـدى الحياة وحق تعيين الخلف ثم حـط بصره على نجل دون خـوان ليضع هـذا الأخير بين نـارين وليضمن لنفسه ولنظامه مزيـدا من الوقت إذ الأمير لم يكن إذاك إلا طفلا وهو بحكم سنه بعيد عن المركـز المرشح له وتفصله عنه سنوات كثيرة ستعطي الفرصـة لفرانكو في التفكير وزيادة المناورة لتثبيت نفسه ونظامه .

لكن لنحترم تسلسل الأحداث ولنعد إلى القانون وتاريخ صدوره وهو يـوم 26 يونيو « حزيران » 1947 بعد أن صـادق عليه " الشعب " في استفتاء أجري يوم 6 يونيو « حزيران » . بهذا القانون سد فرانكو ثغرة داخلية فضمن نوعا من الهدوء لأنه حسب كل الدلائل قد أخذ قراره النهائي إذاك ، قرارا يقضي بتنحية دون خـوان من أي مخطط مستقبلي ووضع ابنـه مكانه إذا جـرت الأمور كما يبغيهـا هو " الكـاوديو " فرانكو الـذي لا يحـاسب إلا أمام الله والتاريـخ ، لكـنه جريـا على عـادته لا يحطم الجسـور ولا يصل إلى القطيعة كـما أنه لا يصل قط إلى التعهد بما يربط خطاه المستعـدة دوما لتغيير الوجهة في كل حين . كـان كمـا يقـال ،

استعمل " شعرة معاوية " ولذا فبعد أن أصدر قانونه وبعد أن تأكد على نظامه بالنسبة للأوضاع العالمية ، واطمأن على أن الحلفاء لن يتدخلوا عسكريا للاطاحة به بل هناك منهم من أخذ يفكر ويوصي بوجوب التعاون معه لأن أسبانيا هي القاعدة للدفاع عن البحر المتوسط ، تذكر أن الأمير خوان كارلوس الذي أدخله في لعبته ، قد بلغ سن العاشرة (5/ 1/ 38-5/ 1/ 48) وأنه قد حان الوقت للتفكير في دراسته وثقافته وتربيته بما يتماشى والدور الذي سيلعبه مستقبلا . لذلك طلب من أحد مساعدي دون خوان أن ينظم بينهما مقابلة هي تلك التي أشرنا إليها سلفا عند الحديث عن فرانكو والتي تمت في عرض البحر على متن يخت فرانكو "الشهير" ، الأثور ﴿ الصقر ﴾ يوم 25 أغسطس ﴿ أب ﴾ 1948 . كانت مقابلة عجيبة بين رجلين متقابلين في كل شيء حتى في موضوع حوارهما . فبينما كان فرانكو يتحدث عن المستقبل ، كان دون خوان يعنى بالحاضر . وبينما كان هذا الأخير يصارح كان الآخر يناور . لكن دار الحديث ودار ، وتشعب النقاش ، ليعود إلى الموضوع الرئيسي الذي كان يدور في رأس فرانكو وهو دراسة الأمير في أسبانيا . هنا حرص دون خوان على التأكيد على أن ذلك من مهامه ومسؤولياته الخاصة كأب والد ولو أنه لا يمانع في أن يدرس ابنه في أسبانيا . لكن كيف يمكنه أن يترك ابنه يدخلها واسم الملك محرم ونشاط الملكيين مقيد والبعض منهم معرض للمتابعة والملاحقة من طرف سلط الأمن ؟ لم يكن ذلك مشكلا لأن " كل ذلك يمكن أن يسوى " على حد قول فرانكو . وانتهت المقابلة دون الوصول إلى حل أو اتفاق ملموس سوى البقاء على اتصال .

أثارت المقابلة طبعا الكثير من التعاليق والمناقشات والمواقف من طرف أنصار الطرفين ومن المعارضة اليسارية التي كانت في نفس الفترة التي تمت فيها المقابلة ، قد وقعت اتفاق تنسيق وتعاون مع ممثلي حركة أنصار دون خوان فاعتبر بعض الموقعين على الاتفاق أن صنيع دون خوان اخلال بالوعد وعدم احترام الاتفاق .

أما العنصران الأساسيان ، فرانكو ودون خوان ، فقد عاد كل منهما ليحاسب النفس ويقدر النتائج ويستعد لما سيأتي . أما فرانكو فكان يرى الأمر بسيطا بشرط أن

يتم حسب مخططاته . أليس هو القائل " أنا أعتبر دائما بأنه (دون خوان) وابنه خوان كارلـوس يجب أن يكونا وريثي النظـام الحالي ولكن ضمن ملكية مقامـة على مبادىء الحركة لا ملكيـة مثيلة أو شبيهـة بتلك التي سقطت يوم 14 أبـريل ﴿ نيسان ﴾ لأنها سـوف لا تدوم ولـو عـاما وستحـدث الفـوضى في أسبـانيا فتجعل الحرب الصليبيـة ﴿الحرب الأهلية﴾ غير ذات فائدة " . أمـا دون خوان فهو يقول في إحـدى المناسبات لفرانكو نفسه " لا يمكن أن تكون الملكية التي تلي هذا النظام مساوية له لأن الانتقال من النظام الحالي إلى الملكيـة سيحتاج إلى تغييرات . . . ولأن النظـام الفردي لا ينتقل أبـدا ثم إنه بقـدر مـا تكـــــون الشخصيــة التي تجسمه فـريـدة بقدر مـا يصعب انتقالـه . فالسلطة ﴿ مع الملكية ﴾ ستتنوع وتزول مركزيتها وهذا يفرض تغييرا شاملا . لكن ما هو ثابت أبـدا هو أنه لم تحارب قط ملكية نظاما سـابقا لها ، كان ذلك النظام ما كان ، ثم إن الملكية ، في كل مكان وأوان ، أعلنت دومـا أنها مواصلة لكل ما هو إيجابي تستلمـه من النظـام السابـق لها . . " يكفي التمعن في هـذين القولين لمعـرفـة الحقيقـة القائمـة آنـذاك بين الرجلين وأن الأمـر الآن انحصر في العنصر الثـالـث ، في الابن خوان كـارلوس وأولى علامـات السير في هذا الاتجاه ستكـون انتقاله إلى أسبـانيا ومـــــزاولته الـدراسـة والتكــوين فيهـا محاطـا ، كما وعـد بـذلك فـرانكو ، بكل التشريفات والعناية المناسبة لمقامـه . فالقرار أصبح إذن بيد دون خوان الذي سيكون صراعه نفسانيا ، باطنيا ، شخصيا قبل كل شيء صراع سيقرر في نهايته عودة العرش إليـه ، إن قبل فـرانكو ، أو إلى ابنـه . صراع سيقـرر منتهـاه بقـاء الملكية في فـرعهـا التاريخي الذي هو رئيسه آنذاك أو يعطي الفرصـة لفرانكو كي ينقل التاج إلى فرع آخر أو حتى سلالـة أخرى . صراع سيظهر فيه أي الشعـورين أقوى لدى هـذا الرجل ، حب الـذات والأنانيـة الفرديـة أم مصلحة التـاج ومن ورائه الوطن . صراع سيـؤدي التخلي والذوبـان لفائدة بقاء العرش والملكيـة والجواب عن كل هذا سيكون بـالموافقة على رغبة فرانكو وإرسال الأمير إلى أسبانيا ليتم تكوينه هناك .

وفعلا وافق وقرر إرسـال الأمير فكان بذلك قد صالح بين المثاليـة والواقعية ونتيجة لقراره ذاك ، أمكن في النهاية عودة الملكية ولو أنه احتفظ إلى آخر لحظة بحق وامكانية صعوده شخصيا على العرش . فتح السبيل أمام مبايعة ابنه " وبقي في الاحتياط طيلة الوقت المناسب لتوطيد الملكية ". فهم دون خوان كـل ما سيترتب عن إرسـال ابنه إلى

أسبانيا وقبل عن طواعيه ، قد تكـون مشوبة بالمرارة ، أن يحوّله ذلك إلى الصف الثاني وأن يبعده نهائيا عن العرش . لقد قال مرة لبعض أخصائه " منذ اللحظة التي قبلت فيها بتربيـة الأمير بأسبانيا ، فهمت أن فصل عـودة الملكية قد يكتب بطريقـة أخرى خاصة إذا تأكد لدى فرانكو طول العمر الذي عرفت به عائلته . كنت واثقا من ذلك واتخذت قراري بمفردي ، بيني وبين ضميري دون أن تؤثر في نفسي رغبات شخصية مهما كان نوعها باستثناء مصلحة أسبانيا وحدها وخدمة الملكية نفسها . . . منذ تلك اللحظة لم أعد أجهل أن عودة الملكية وتقويتها وتركيزها قد تتطلب مني ثمنا هو بقائي على الهامش ، فلم أغرّ بنفسي ولم يغرّ بي أحد .

أشعر دون خوان فرانكو بقراره بعد شهـرين من لقائهما وطلب منه في نفس الرسالة أن يفي بوعـده بخصوص " تهيئة جوّ الـوداد الذي يسهل مستقبلا وطـريقا فيهما كل الفائدة لسياسة ابتدأت بمقابلتنا " .

<u>مرحلة جديدة</u> : وصل الأمير خوان كارلوس الـــى أسبانيـا يــوم 8 نـــــوفمبر ﴿ تشـــرين ثـان ﴾ 1948 قادمـا إليها من البرتغـال حيث كان يقيم دون خـوان ، الأب ، وحاشيتـه الصغيرة . قدم الأمير في الرتل الرابط بين عـاصمتي البلدين وقطن في مسكن لائق أعد لاقامته ودراسته صحبـة نخبة منتقاة من أنداده . غير أن ذلك لم يدم إلا سنة واحـدة قرر بعدها دون خـوان سحب ابنه من أسبانيا لأن فـرانكو لم يف بوعـده واستمرت مـلاحقات الملكيين والضغط عليهم كما لم يسمـح لهم بالقيام بـأية دعاية تعرف الشعب بدون خوان وابنه . عاد الأمير إذن إلى " أستوريل " حيث يقيم دون خوان وعاد التـوتر إلى علاقات هذا الأخير مع فرانكـو ، كما أخذ بعض الضباط العسكريين وبعض الساسة يفكـرون في العمل لتغيير النظام دون أن يحققوا شيئا بينما دون خوان يـرفض بشـدة العودة إلى اللقـاء بفرانكـو إلا إذا أعدّ مسبقـا جدول أعمال يحصر النقاط التي ستناقش أثناء اللقاء .

مرت سنـة ، واصل الأمير أثناءها دراستـه في البيت ، قبل أن يقرر أبوه عـودته إلى أسبـانيا مـرفوقـا هذه المرة بأخيـه ألفـونصو ، وبعـد أن قبل فرانكـو شروط الوالـد . استمـرت اقامـة الأمير ودراسته بأسبـانيا إلى أن بلغ سن السـادسة عشرة وحـان وقت دخوله الجامعة . إذاك ظهـر خلاف جديد بين أبيه وفرانكو . فالأول يـريد إرساله إلى جامعـة " لوفـان " ببلجيكا والثـاني قد أعد لـه برنـامجا دراسيا مكثفـا يبدأ بتكـوينه

العسكري في أكاديميات القوات الثلاث وينتهي بـالجامعة . بعد لأي ومراسلات تم الاتفاق ثـانية وعـاد الأمير دون خوان كارلـوس ليتلقى دراسته حسب البرنـامج الذي أعده فرانكو .

كانت تقاليد الدخول إلى الأكاديمية العسكرية العامة بساراقسطة تقضي بأن يؤدي الطالب ما يسمـى " اليمين للعلم " وبهذه المناسبة بعث دون خوان لابنـه رسالة على غاية من النبل والوطنية والتجرد نأخـذ منها مقتطفا قصيرا قد يكفي لإعطاء فكرة عن دون خوان و إخـلاصه لمبادئه وحسن طـويته . يقول دون خـوان لابنه " . . . إن كل أعمالنا يجب أن تكون مستوحاة من مفهوم سام للواجب ومصبوغة بوطنية تصمد أمام كل امتحان وأمام كـل ميل مضاد . إنك قد قضيت بالأكاديميـة وقتا يكفيك لتفهم مدى سهولة الطاعـة إذا أعجبنا ما أمرنا به وصعوبة ذلك إذا كان مـا يؤمر معارضا لما يناسبنا شخصيا . ثم إنه إذا ما تطلب الواجب منا تعريض حياتنا أو رفاهيتنا للخطر تحت واعز واحد هو ضميرنا فان الأمر يصبح أكثر صعوبة . . . إني واثق بأنه من هنا فصاعد ، يمكننا ، أنا واسبانيا أن نعول فيك على جندي حقيقي آخر " .

وهكذا و إلى أن مات فـرانكو ، بقيت العلاقات بينه وبين دون خـوان في مد وجزر وظلت مواقفهما متباينة متقابلة لا يـربط بينهما فيها سوى دراسة وتكوين الأمير الذي سيكون على أية حال خلفا لهذا أو ذاك . كان فرانكو يريد بقاء نظامه من بعده أو على الأقل لا يبغى ملكية " منحلـة " على حد تعبيره ، تضيع كل ما كان يـرى أنه حققه بانتصاره في الحرب الأهلية . وكان دون خوان ثابتا لا يتزعزع عن مبادئه التي تتلخص في أنـه صاحب الحق في العـرش والتـاج وأنه لا ولـن يحكم " بمبادئىء الحركـة " إن كانت لها حقا مبـادىء ، وأنه لن يكون ملكا على نصف أسبـانيا ونصف الأسبان بل لابد له وأن يكون ملك الجميع الساهر على مصلحة الجميع والمُصَالِح بين الجميع .

تبادل الاثنان عددا كبيرا من المراسلات تمكنـا من الحصول على ما عرف منها حتى الآن بفضل دار النشر " بلانيتا " ومديرها الأدبي الأستـاذ رافاييل بوراس بتريو الذي نخصه هنا بشكرنا الجزيل ، أما الرسـائل فاننا نلحقها بهذا الكتاب ليتمكن القارىء من مطالعتها والاستفادة حول الموضوع منها . علاوة على المراسلة جرت مقابلة أخرى بين دون خوان وفرانكـو ، كانت الغاية منها ، حسب هذا الأخير ، وهـو الذي أوعز

بها ، التحاور بشأن المرحلة الأخيرة من دراسة وتكوين الأمير . جرت المقابلة يوم 28 مايو ﴿ أيار ﴾ 1960 في ضيعة قرب الحدود البرتغالية اسمها " لاس كابيثا" ﴿ الرؤوس ﴾ولإن كان الرجلان قد وصلا أثناء هذه المقابلة إلى اتفاق بخصوص اتمام دراسة الأمير وتثقيفه ، فهي لم تكن سوى مناسبة أخرى لإبراز التباين وتأكيد القطيعة . وفعلا كان ذلك آخر لقاء يتم بين دون خوان وفرانكو للحديث حول مسائل سياسية . ليس من المفيد كثيرا التعرض هنا إلى ردود الفعل الكثيرة من جوانب متعددة قريبة أو مناصرة لدون خوان أو قريبة من فرانكو ونظامه . قيل الكثير وتكاثرت التأويلات التي كان نصيب دون خوان فيها من الاتهامات نصيب الأسد ولكنه صبر وصمت وترك الأحداث تجري وهو يتتبعها عن قرب .

بعد مقابلة " لاس كابيثاس " بسنتين تقريبا أي سنة 1962 ، تم زواج الأمير خوان كارلوس على الأميرة صوفيا ابنة ملك اليونان آنذاك ولم يسمع فرانكو بالأمر إلا قبل إعلانه رسميا في أثينا بلحظات . تأثر فرانكو عظيم الأثر لذلك لأنه كان يرى أنه من حقه أيضا " تعيين " أو أختيار التي ستصبح ملكة اسبانيا أو على الأقل استشارته في الأمر وأخذ رأيه فيه . تأثر فعلا لكنه سكت عن مضض ولم يفعل شيئا . لكن برزت مشكلة اقامة العروسين ومكانها . وبعد نقاش وأخذ وعطاء تقرر استقرارهما باسبانيا وفي قصر "لاثارثويلا" على بعد بضعة أميال من مدريد وعلى مرأى البصر تقريبا من قصر "الباردو" حيث يقيم فرانكو.

في الستينات أيضا انعقد مؤتمر مونيخ ، مؤتمر المصالحة بين مختلف التيارات الاسبانية بما فيها الملكية ، وهو ما سيكون له تأثيره على العلاقات بين "الباردو" و"أستوريل" خاصة وأن بعض زعماء الحركة الملكية ومن المقربين لدون خوان قد ساهمو بصفة فعالة في المؤتمر وتعرض من عاد الى الوطن منهم الى ملاحقات السلطة الفرنكية .

كل هذه الأحداث وغيرها كثير ، مضاف اليها بلوغ الأمير السن القانونية لامكانية تعيينه ، أدت بالوضع الى التأزم ، على الأقل داخل عقل فرانكو مما دفعه الى التفكير في تعيين غير خوان كارلوس لخلافته . يشير الأستاذ فكتور سالمادور في "أسرار عودة الملكية» أن فرانكو كتب في مذكرته الخاصة (أي لنفسه) طرح مشكل التنازل على دون

خـوان، وعلى خـوانيتـو (أي الأمير خـوان كـارلـوس) الالتحـام التـام مع النظـام والاستسلام له . "

المعركة الأخيرة : كـان فرانكـو اذن يبغي من دون خوان أن يتنـازل لابنه ومن هـذا الأخير أن "يعـتـنـق" النظام ويلقي بنفسه في أحضانه والا فالعرش لغيرهما لكن لا هذا ولا ذاك، وستجـري الأمور ببطء كعادة فـرانكو في معالجة الشؤون الشـائكة ورغم الضغوط عليه والمحـاولات أو حتى شبه المؤامرات الجدلية هنـا وهناك، لم يعزم ويقدم ثم يعلن عن قراره المنتظر الا عام 1969 . في شهر لوليو (تموز) من تلك السنة اتخذ فرانكو قراره وأسرّ بذلك الى الأمير نفسه طـالبا منه كتمانه ريثما يحين الوقت وريثما يشعر بذلك أباه .

ليس من السهل تصـوّر وتخيل بعض الحالات العاطفيـة التي يمر بها المرء . فقـرار فرانكو مثلا لم يكن سوى مفتاح أزمة نفسانيـة عميقة قوية بالنسبة لدون خوان وابنه . فالأوّل هـو صاحب الحق الشرعي في العـرش والجلوس عليه قبل نجلـه وهذا الأخير يعرف ذلـك ويؤمن بـه . لكن هناك قوة طـارئة أبت الا تغيير تسلسل الأمـور طبيعيا وتلك هي ارادة فرانكـو التي قطعت حلقة من السلسلة وحافظت عليهـا وعلى تتابع حلقاتها بعـد ذلك . ما العمل اذن؟ قبـول الأمر الـواقع أو التشبث بالمنطق والتـاريخ والشرعية؟ لقـد صمد دون خـوان أمام الجميع بما في ذلك فـرانكو وثبت في وجـه كل العواصف التي عـادته . لكنـه الآن أمام الاختيار النهـائي . اختيار ليس بـالهين لأنه يضعـه في احدى كفتي الميـزان مع ابنـه ووريثه . كـان دون خـوان يتشبث بالشرعيـة والتطور الطبيعي وكان الابن معترفا بذلك ومطيعا لأي أمر يأمره به أبوه . لكنه كان في نفس الوقت يـرى أن قبول قـرار فرانكو هـو المنفذ الأوحد الـذي تعود منـه الملكية الى البلاد وتبقى في سلالة آل بوربون ولو بعدم احترام نظام محدد أو تقاليد معينة .

ليس من السهل معـرفة مـا دار بخلـد الأب والابن ولا ما دار بينهما من نقـاش أو تفاوض أو حوار أو اتفاق . انما الواقع وما تم فعلا هو تعيين الأمير خوان كارلوس من طرف فـرانكو خلفـا له بلقب ملك وعدم تنـازل دون خوان عن حقـه إلا لما تأكد من تمركز ابنه والملكية حق التمركز ولم يعد هناك ما يهددها . وبقي فرانكو على رأس الدولة إلى أن مات فنودي بخوان كارلوس ملكا .

" ولدي أتى بالملكية التي كـافحت من أجلها " بهذه العبارات أوضح دون خوان عن رضـائه وسروره للطريقـة والمبادىء التي قـاد بها ابنه الملك خـوان كارلـوس الأول سفينـة الوطن منـذ اللحظـة الأولى لإبحارهـا وكيف طبق ، بعـد أن اعتنق ، كل أو معظم المبادىء والمفاهيم التي كـان هو ، دون خوان ، ينادي بها ويـرى أنها القاعدة الوحيدة الصالحة لأقامة الملكية عليها .

وفي يوم تاريخي ، يوم 14 مايو ﴿ آيـار ﴾ 1977 ، وفي احتفال يكاد يكون عائليا لم يخل من العظمـة ولا من الشهـامـة ولا من نكران الـذات ولا من العـاطفـة وفيض المشاعر أعلن دون خوان أمام ابنه بقصر الثارثـويلا عن تخليه فقال " بعد أن أعيدت الملكية وتـركزت في شخص ابني ووريثى دون خـوان كارلوس ، الـذي لاقى منذ أول إبحار لعهـده ، قبول الشعب قبـولا واضح التعبير عنه ، والـذي يفتح أمام الـوطن وعلى الصعيد العالمى دروبا جـديدة ، أظن أنه قد حان الوقت لتسليمـه ميراثا تاريخيا ورثته ، ولذا فإني أقدم لوطنى تخلّيّ عن الحقوق التاريخية للملكية الأسبانية وعن ألقابها ومزايـاها وعن رئاسة العـائلة والقصر الملكيين الأسبانيين ، رئاسـة وحقوق استلمتها من والـدي ألفونصـو الثالث عشر . وطبقـا لهذا التخلى فإن ابنى ووريثى الملك دون خوان كـارلوس الأول ، هو الـذي يرث كل الحقـوق الملكية عن أبي ألفونصـو الثالث عشر " .

وفي جـلال وعظمة ينـــــــزل على ركبة ونصف أمـام ابنه ويقـول " ياصـاحب الجلالة في سبيل أسبانيا ، الكل في سبيل اسبانيا . لتحيى اسبانيا ، يحيى الملك " .

ولما نهـض قال له ابنه الملك خوان كارلوس الأول " باهدائكم أسبانيا تخليكم عن الحقوق التي استلمتوها عن الملك ألفونصو الثـالث عشر ، تقومون بخدمة عظيمة . وأنا كابن أتأثر لذلك عميق الأثر وبقبولي لما تتخلون عنه أشكر فيكم نكرانكم الذات والمصالح وأشعر بعميق الارتياح لانتسـابي إلى سلالتكم وأنا أستلم من يديكم الميراث التاريخي الـذي تقدمونـه لي ، أريد أن أؤدي لكم حق محبتي البنـوية مقرونـة بالحترام العميق الذي أكننته دومـا لك منذ أن فهمت وأنا لم أزل طفلا ، أنـه فوق الكل وأعلى من الكل ، لم تكن لكم مثالية أخرى غير التضحية الكـاملة خدمة للشعب الأسباني " هكذا تمتحن الرجال ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

الباب الخامس

التحـوّل

كانت هذه وقفة لازمة عند دون خوان وتحركـاته واستعراضا للبراز الذي استمر بينه وبين فرانكو طيلة أربعة عقود تقريبا . براز تحرك فيه فرانكو من مركز القوة وتحرك دون خوان من مـركز المهجـر والبعد عن ميـدان المعركة . بـراز تسلح فيه فـرانكو بـالواقع والسلطة وتسلـح فيه دون خـوان بالشرعية والمبـادىء . ورغم تفـاوت القوى ، ومهما اعتبر فرانكو منتصرا ، فإن دون خوان لم يهزم لأنـه : أولا لم يستسلم لفرانكو ولم يقبل ما كان يريـده له وهو جعله شبيها بملك إيطاليا الأخير ، فيتـوريو ايمانوالي الثالث ، الذي احتل المنصب ولم يمـلأه ، فكان الصورة وكان مـوسوليني الجسم . لم يستسلم إذن بل حافظ على شعلة الحركة والمطالبة بالعرش ملتهبة مما أدى ، إن لم يكن أجبر ، فرانكو على تعيين الابن ليتـوّج ملكا وتستمر أسبانيـا ملكية وتستمر سلالـة آل بربون على عـرشها . ثم إن الابن بفضـل عوامل عـديـدة منها الشخصي ومنهـا الخارجي ، مكن البـلاد من الانتقـال والتحـوّل من نظام الحكـم السلطوي الفـردي ، إلى نظـام متحـرر متفتح لتيارات ومفـاهيم العالم المعـاصر ، نظام متسـامح مع المعارضـة مهما تقابلت معـه عقائديا . كـان انتقالا خاليـا من كل تصادم أو تشـابك ، بدون عظيم خسائر أو تضحيـات بل فيه وبـه ومن أجله استعملت أو استهلكت أو تـأكدت أو همشت أو جمدت بعض المفـاهيم العقائديـة في سبيل أخـرى وقد تم كل هـذا بهدوء و" مجاملة " وبسرعة مدهشة .

بعد هـذه الوقفـة نواصل السير مع تسلسـل الأحداث فنـدخل المرحلة الانتقـالية ونتابع وقـائعها ولو فـرض علينا ذلك العودة قليلا إلى الـوراء إلى ما قبل موت فـرانكو بقليل .

ملامح البلاد : رأينا سلفا كيف أنـه بدخول السبعينات ، تأكـدت المعارضة بكل ميـولاتها وأصنـافهـا من ظهـوربوادر تعب النظـام و " شيخـوختـه " المستمـدة من شيخوخـة صاحبـه ، فاندلعت في سبـاق مجنون لتنظيم صفوفهـا حتى تكون جـاهزة مهيأة إذا ما حـان وقت تغيير الحكم وانتقاء البـديل . كذلك فعلت أيضـا أبرز وأهم قطاعات النظام نفسـه ، فبدت البلاد وكأن حمى التكتل والتنظيم قد أكلتها فظهرت على بشرتها آثارها في شكل موائد وحدوية ومنظمات إصلاحية تبحث كلها أو تأمل في

أن تكون البديل .

قامت أهم الأحزاب والتكتلات المعارضة بتنظيم هياكلها الداخلية تنظيما يؤدي إلى تهذيب يجعلها تتماشى والظروف الجديدة المنتظرة .

إن أول سماح ، محدود ، بتعددية الآراء ظهرت سنة 1968 عندما تمت الموافقة على القانون الأساسي " للحركة " الذي أدرج فيه فصل يسمح بوجود الجمعيات ولكنه كان سماحا ضيق الحدود كثير الشروط حتى أنه لما بدت الرغبة سنة 1969 في تعميق فهم الفصل واستظهار مراميه ، ازداد بذلك شدة وضيقا حتى اقتصر الأمر على مجرد قبول تعدد أكثر للآراء في صلب الحركة وبين قادتها الحاكمين . أما الحركة ذاتها فقد وصلت إلى السبعينات وهي خالية من كل مبدأ أو مفهوم ولم تعد سوى آلة إدارية ضخمة مهمتها السهر على الولاء للنظام ، الذى يكره صاحبه وقائده الأحزاب والسياسيين ولذا لم يكن في المستطاع تحويل الحركة إلى حزب أو قبول بروز ما يشبه الأحزاب فيها وهذا ما دفع إلى اللجوء إلى الجمعيات دون أن يفضي ذلك إلى نتيجة الا بعد وفاة كاريرو بلانكو مغتالا ، وتولّي الرئاسة من بعده من طرف آرياس نافارو الذي وعد بتغيير قانون الجمعيات فقدم إلى البرلمان ﴿ لاس كورتس ﴾ في شهر ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1974 قانون الجمعيات الذى لم يكن سوى ظل لما وعد به وكل جديد في هذا القانون انحصر في قبول الشكل السياسي للجمعيات .

لقد كان القانون خيبة أمل حتى لمن دافع عن فكرة الإصلاح من الداخل مثل الأستاذ مانوال فراغا ايريبارني الذي من مركزه كوزير للأخبار والسياحة أقدم في الستينات على التخفيف من حدة الرقابة وأصدر قانونا للصحافة والنشر اعتبر ثورة في زمانه . ورغم خيبة الأمل تلك ، فقد ترك فكرة الجمعية جانبا وأسس ، بعد أن عاد من سفارته بلندن ، شركة للدراسات السياسية وصحبه فيها بعض الوجوه اللامعة في سماء السياسية والدبلوماسية في عهد فرانكو منهم الأستاذ خوزي ماريا دي آريلثا . ولم يكتف بالشركة الأولى " فيديسا " فأسس ثانية تحت اسم " غودسا " لينطلق منها مبتعدا وصحبه عن الفرنكية التي كانوا محسوبين عليها ويتهيأوا لنظام ديمقراطي برلماني .

نفس الموقف وقفه غيرهم فأسسوا وكوّنوا المجموعات خارج الشرعية في بعض

الأحيان ، لكن دون أن يتعرضوا لمتابعات نظرا لشهرتهم وثقة الإدارة فيهم . من أبرز هذه المجموعات ما عرف باسم " الضمنيين " ذوي الميول المسيحية الديمقراطية.لم تتأسس ، طبقا لقانون الجمعيات ، قانون آرياس سالف الذكر ، سوى ثماني جمعيات أهمها " وحدة الشعب الأسباني " التي أسسها رجل قريب من الحركة الفرنكية ، مات بعد تأسيسها بأسابيع ، وبعد أن وضع على رأسها أدولفو سووارث الرجل الذي سيلعب دورا ذا بال في أدق مرحلة ، مرحلة الانتقال التي عاشتها أسبانيا في النصف الثاني من السبعينات ، والذي انطلاقا من حزبه سيتزعم حزب " اتحاد الوسط الديمقراطي " ، حزبا مكوّنا من مجموعة كتل أو أحزاب صغيرة فاز في الانتخابات الأولى للعهد الجديد متفوقا على غيره من الأحزاب التقليدية أو التاريخية كما تسمى ، مثل الاشتراكي أو الشيوعي .

لكن الانفجار الكبير الذي جعل الساحة الأسبانية " تعج " بالأحزاب ، لم يحدث إلا بعد شهر يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1976 لما صدر قانون جزئي للاعتراف بالأحزاب السياسية ، قانون لم يسمح بتحوير القانون الجنائي حتى لا يعترف بالحزب الشيوعي وغيره من الأحزاب المتطرفة ذات النزعة الاقليمية . لكنه مع ذلك فتح المجال أمام اليمين والوسط فاندفع رجال التيارين إلى تأسيس عدد لا يحصى من الأحزاب كان بعضها مرتكزا على شخصية المؤسس دائرا في فلكها . ظهرت أحزاب ليبيرالية واشتراكية وديمقراطية ومسيحية ديمقراطية ومحافظة كاثوليكية ، أكد ظهورها لمن يريد أن يتأكد تفتت اليمين وتشتيت رجاله وكان من بينهم ، بل كان أكثرهم على مستوى عال من الثقافة والعلم والخبرة السياسية نذكر منهم على سبيل المثال الأستاذ خواكين رويث خيمانث صاحب محاولة التفتح الذي أراده انطلاقا من وزارة التربية التي تولاها في الخمسينات وأيضا صاحب مجلة " حوار من أجل الديمقراطية". أسس الأستاذ رويث خيمانث حزب " اليسار الديمقراطي " ذا النزعة الديمقراطية المسيحية بينما أسس الأستاذ خوزي ماريا خيل روبلس ، ابن زعيم " الثيدا " الذي سبق ذكره في الثلاثينات ، حزبا آخر في نفس الاتجاه أسماه " الجامعة الشعبية الديمقراطية وكوّن زميله الأستاذ آلفارث دي ميراندا " اليسار الديمقراطي المسيحي " . لم يختلف الأمر بالنسبة للأحرار الذين كونوا ما لا يقل عن أربعة أحزاب كان أبرزها " اتحاد الأحزاب الديمقراطية الليبيرالية " الذي تزعمه السيد خواكين غاريكس وولكر .

خلافا لما كـانت عليه أحزاب اليمين والوسط من حداثة وجـدة ، كانت الأحزاب اليساريـة تتمتع بأقدمية وعـراقة ويأتي في مقدمتهـا الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني الذي تأسس ، كما رأينا ، في أواخر القرن التاسع عشر والحزب الشيوعي الذي تكوّن من مجمـــــــوعة مناضلين انشقـوا عن الحزب الاشتراكي في أوائل هـذا القرن وبـدأ نشاطه بصفة ملحوظة في أواخر عهـد الجمهورية وأثناء الحرب الأهلية فاكتسب خبرة وقوة سـارت في تصاعد مع الأيـام . كان الحزبان مـوجودين ، ولو اسميـا أو سريا ، طيلة عهـد فرانكـو وكان لهما نظامهما وقيـادتهما المعترف بها من القاعـدة ، عاشت في المهجر لكن بقيت باتصال يكاد يكون مستمرا بالبلاد وبالأتباع فيها خاصة من طرف الحزب الشيوعي .

رغم هذا فان الحزبين قد أصابتهما أيضـا حمى الاستعداد والانتظار فأدخلا تجديدا على هيـاكلهما وسيـاستهما حتى يكـونـا قـادرين على مجابهة الأحـداث . أمـا الحزب الاشتراكي فقد رأينا كيف قامت مجموعـة من الشباب في الداخل بالسيطرة على أعمال المؤتمر الذي أنعقد بضواحي باريس وكيف أزاحوا القيادة القديمة " الهرمة " وأمسكوا بمقاليد الحزب فأعطوه فلسفة جديدة ووجهة وأسـاليب عمل حديثة وانتخبوا للأمانة العامة المحامي الشاب فيلبي غونثالث ماركث .

أسرع القادة الجدد للحـزب إلى البحث عن السند الخارجي وكـانت أولى خطواتهم نحو الأشتراكية العالمية التي أتجه إليها أيضا الأستاذ أنريكي تيارنو غلبان الذي عرفناه في ما سلف مناضلا في الأوساط الجامعية والذي أسس هو الآخر حزبا جديدا ذا نزعة اشتراكية وكان ذلك على اثـر خلافات مع القيـــادة القديمة للحـــزب الاشتراكي العمالي الأسباني وأسمـــى حزبـــه الجديـــد " الحزب الاشتراكي بـالداخل " ثم غيره ليصبح " الحزب الاشتراكي الشعبي " وبـه تقـدم يـريـد الحصـول على اعتراف وتأييـد اتحاد الاشتراكية العـالمية . إلا أن هـذه الأخيرة قـد فضلت ، لأسباب يطـول شرحها وتخرج عن نطـاق هذا الكتـاب ، فضلت الاعتراف بالحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ، وبزعيمه الشاب فيلبي غونثالث فأيدته وساندته .

كـذلك فعل الحزب الشيـوعـي ، عقـد مـؤتمرا وجـدد الهيـاكل دون كبير تغيير في الزعـامات ولكن بتغيير جـذري أو يكاد في السيـاسة والمنهج مبتعدا بـذلك عن خط

موسكو حتى كادت أن تكون قطيعة بينهما .

وختاما لهذه النظرة العابرة عن حالة البلاد وتعدد الأحزاب والحركات فيها وكثرة تحركاتها قبيل وعلى أثر وفاة فرانكو ، نذكر الحزب الذي احتل الصدارة خلال الخمسية الأولى من التحول والذي فاز في الانتخابات الأولى التي عرفها العهد الديمقراطي الجديد . كان هذا الحزب تجمعا لعدة أحزاب أحس قادتها بضرورة تكوين قوة في الوسط بين اليمينيين واليساريين . جرت المحاولة الأولى في سبيل هذه الوحدة بين مجموعات الوسط والوسط اليميني وأتت من لدن الحزب الشعبي الذي يتزعمه بيّو كابانيّاس . وفي اوائل عام 1977 ، وأمام احتمال التقدم والمشاركة في الانتخابات العامة ، اتحد الحزب الشعبي مع الحزب الديمقراطي المسيحي الذي يرأسه ألفارث دي ميراندا وسمي الهيكل الجديد " الوسط الديمقراطي " الذي استقطب شيئا فشيئا التجمعات الليبيرالية والاقليمية والمحافظة . ورغم هذا فقد بقي " الوسط الديمقراطي " مجرد مجموعة من الشخصيات البارزة الفاقدة لأية قاعدة شعبية تذكر . ولذا فقد كان النجاح موقوفا على الاتحاد مع أدولفو سووارث وزملائه في الإدارة وبانضمام سووارث وحزبه " اتحاد شعب أسبانيا " ولد اتحاد الوسط الديمقراطي الذي بعد الفوز والوصول إلى الحكم دبت في صفوفه علة الانشقاق والتفرقة نتيجة الحسد والطموحات الشخصية فضعف وتفكك وسقط . (62) .

إلى جانب الأحزاب والكتل السياسية كانت هناك النقابات التي لم تتخلف هي الأخرى عن ركب التنظيم والاستعداد . رأينا ونحن نتحدث عن المعارضة كيف أنه من بين الشباب الاشتراكي الذي لم يعش الحرب الأهلية والذى عمل في الداخل ثم استلم قيادة الحزب ، نجد السيد نيكولاس ريدوندو الذي رشح كما رأينا ليكون أمينا للحزب الاشتراكي ولكنه رفض مفضلا النشاط النقابي الذي تخصص فيه ويهواه ، فكانت له أمانة الاتحاد العام للشغل الذي ، خلافا للاتحاد الآخر ، اللجان العمالية التي أسسها ويتزعمها السيد مارثيلينو كاماتشو ، رفض العمل من داخل النظام خوفا من الاتهام بالتعامل ولكنه نظم صفوفه وأعد هياكله وأسهم بكل جدية في الإضرابات والأعمال المناهضة للوضع والنظام الفرنكي ثم أسهم في عملية التحوّل بكل نجاعة وحنكة وتعقل .

أما اللجان العمالية ، النقابات الشيوعية النزعة ، فقد رأينا كيف أنها ولدت في صلب النظام ومنظمته النقابية ولذا كانت أقرب إلى ميدان العمل والصراع وأكثر تعرضا للملاحقات من طرف قوات الأمن . ورغم هذا ورغم اعتقال العديد من قادتها فقد تهيأت هي الأخرى ، دون أن تكف عن نشاطها النقابي البحث الذي جعلها في المقدمة خلال الفترة الأخيرة من حكم فرانكو ونظامه .

بقيت نقابات " الث . ن . ت " الشهيرة ، الفوضوية المنهج والاتجاه ، والتى كانت بارزة كل البروز في الثلاثينات ، فهي الأخرى قد تهيأت واستعدت للشرعية كغيرها ولكنها لتطرفها الذي لم تحد عنه لم تحرز على ما كانت تعد به قاعدتها فلم تحقق تقدما ولا توسعا يذكر .

في الجانب الآخر من الصورة ، كانت هناك القوات المسلحة بكل ما عرف عنها من تصلب ورجعية ومن غيرة على النظام الفرنكي و إرادة المحافظة عليه أو على شبيهه فهي الركيزة الأساسية للنظام الذي أقنعها طيلة أربعين عاما ، بالاضافة ، إلى التاريخ والتقاليد التى تذكّرها بها يردده ، لها النظام ورجاله ، بأنها وفي كل الظروف منقذة الوطن وعماده . لكن الانقاذ له أشكال مختلفة باختلاف الظروف ونوع الأخطار وهذا ما فهمه الكثيرون من رجال القوات المسلحة فاستعدوا وعملوا لفائدة التحول في هدوء وسلم دون الحاجة إلى العنف والسلاح لكن مع البقاء في يقظة وانتباه كما هو خليق بكل حارس أمين . وبرز في هذا الاتجاه رجال كثيرون منهم اللواء دياث أليغريا الذي كان على رأس الأركان العامة ، فأزاحه عنها رئيس الحكومة آرياس نافارو ، واللواء غوتيارث مايادو وعدد من الضباط الآخرين كأولئك الذين أسسوا " الاتحاد العسكري الديمقراطي " فتعرضوا للعزل والسجن ولم يرجع إليهم اعتبارهم ولا ردت إليهم حقوقهم إلا عام 1977 أي بعد أكثر من عشر سنوات . وعلى أية حال ، وسواء أكانوا مؤيدين التحول والدخول في نظام ديمقراطي متفتح ، أو متمسكين بالنظام السلطوي والحكم العسكري أو ما يشابهه ، فإن رجال القوات المسلحة قد تحلوا في معظمهم وفي كل الظروف بالانضباط الكامل والطاعة لأوامر القائد الأعلى الذي ليس سوى رئيس الدولة سواء أكان هذا فرانكو أو الملك .

وأخيرا نجد الكنيسة التي رأينا كيف انتهى بها الأمر هي الأخرى إلى نقد النظام

ومعارضته وكيف تحالف قساوستها ورهبانها مع العمال في حركاتهم ونضالهم فعرفت بذلك تجددا وتماشت مع التطور الطبيعي للأحداث بفضل التغيير الذي حدث في أعلى هرمها والذي أتى برجل يفهم الدين من نواحيه الإنسانية قبل الرهبانية ويضع الإنسان وحقوقه في أعلى مرتبة من الإيمان والعمل وهذا الرجل هو الكاردينال فيثانتي أنريكي أي طارانكون الذي جعل الكنيسة تقف في صف الحق والشرعية وتعمل في سبيل غرس الديمقراطية وانتشار الحريات .

التوتر والاسراع : كانت هذه صورة البلاد وحالتها في أخر عهد فرانكو وبعد وفاته مباشرة . كانت حركة دائبة واتصالات متعددة وتدارس للأوضاع داخليا وخارجيا وتكهنات بمختلف الاحتمالات والاستعداد لها ولأسوئها . أحلاف تعقد واتفاقات تلغى وتكتلات تكوّن والكل انتظار لحدث واحد تأكد بعد يوم 21 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1975 لما أعلنت السلطات رسميا عن مرض فرانكو الذي لزم الفراش منذ يوم 13 يشكو التهابا وريديا .

إن أبرز ما تميزت به هذه الفترة ، ونستطيع أن نقول كل السبعينات ، هو هذا المظهر الجماعي الذي اتخذه الصراع والعمل دفاعا عن الحريات واستعدادا لدفن الدكتاتورية إلى الأبد . فالجامعة وعالم الشغل والشغالين والمدارس الصناعية وحتى بعض القطاعات العسكرية والدينية قد اندمجت في هذا العمل الجماعي ، بعيدا في بعض الأحيان ، عن تعليمات الأحزاب السرية وتوجيهاتها ، بحثا عن قطع آخر مرحلة من طريق الدكتاتورية والتفرقة المظلم ، وفي وحدة وتقارب حتى بلوغ آخر النفق .

أما على الصعيد الخارجي فقد جرى حدثان سيكون لهما تأثيرهما على عقلية وتفكير الكثيرين من السياسيين والقادة والزعماء في أسبانيا فغيروا أو على الأقل هذبوا من برامجهم وسياستهم الكثير . هذان الحدثان هما تغيير النظام في كل من الشيلي والبرتغال ، حيث لعبت صناديق الاقتراع دورا عظيما وحيث أفهم سقوط سالفادور أياندي في الشيلي الكثيرين من الساسة الأسبان أن عليهم اتباع التعقل والمداراة والاعتدال دون اسراع أو تطرف .

كانت البلاد بكل فئاتها وقطاعاتهاتعيش في دوامة وغليان خفي وعصبية قوية واستعداد لكل الطوارىء لأن كل شيء ممكن في مثل تلك الحالات . كانت على بساط البحث والمطالبة وفي عقول الساسة والمسؤولين وأتباع الطرفين فكرتان تعبّران عن حلين محتملين هما : **الاستمرارية** وينادي بها رئيس الحكومة آنذاك السيد آرياس نافارو والجانب الأكبر من المتنصبين في النظام ومقاعد السلطة الوثيرة فيه ، **والقطيعة الديمقراطية** ، أي الكف عن العمل بكل ما جاء من الدكتاتورية وإقامة نظام ديمقراطي حقيقي بعد فترة انتقال تشكل فيها حكومة ائتلافية إلى غير ذلك مما هو معروف لمثل هذه الظروف وهذا الحل تنادي به معظم أحزاب المعارضة . لكن ما لم يكن يتصوره الكثيرون هو أن الأمور ستجري لا نحو الاستمرارية ولا نحو القطيعة بل نحو الحلين معا ان صح التعبير ، نحو ما أسماه الأستاذ أورتيغا دييات في محاضرةألقاها خلال شهر دسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1974 ، " التطور الديمقراطي " تسمية واشارة لم تلفت الانتباه إذاك ولكن فحواها هو الذي تم تقريبا وهو التطور من الاوضاع والحالات القائمة إلى أوضاع ونظم جديدة مع احترام الشرعية وروح القوانين في جميع الظروف والحالات .

انحصرت الحياة السياسية الرسمية أكثر فأكثر في قصر " الباردو " وحول سرير فرانكو الذي كان يعاني أزمات الالتهاب الوريدي والشيخوخة ويعرض إلى العديد من العمليات الجراحية ، وتوزعت الحياة السياسية الواقعية في كل الأحياء والنوادي ومكاتب المحامين فتكونت كما رأينا الجمعيات والاحزاب وحتى " الشركات السياسية " تبغي كلها احتلال مكان مناسب في إحدى عربات الرتل الوشيك الإقلاع . لكن من بين كل التحركات كان التوحيد بين المجلس الديمقراطي والمنصة الديمقراطية أنجع خطوة في نظرنا يشكر عليها الأستاذ رويث خيمانث ومن معه الذين عملوا جاهدين لتحقيقها فتم بذلك تكتل معظم الأحزاب والحركات المعارضة حول مائدة واحدة لتبادل وجهات النظر واتخاذ القرارات التي تمليها الظروف ولو بقيت كل حركة وكل حزب متمتعا بحريته في وضع سياسته وبرامجه الخاصة . كانت الأمور تجري بسرعة مذهلة وكلما طال مرض فرانكو واقتربت نهايته ازدادت الأحداث سرعة وتوترا يزداد حدة بتصرفات الحكومة التي توخت الشدة سلاحا لمجابهة الأوضاع فكان ايقاف أعضاء المجلس الديمقراطي ﴿ يناير 1975 ﴾ وإعدام خمسة

معـــــتقلين حـــوكموا قبـــل ذلـــك (9/ 75) واعتقال الضبـاط أعضاء الـوحدة العسكرية الديمقراطية ، إلى غير ذلك مما يـدل على حالة التوتر والعصبية التي كانت تحياها الحكومة وكل أجهزة السلطة وهو مازاد في مظهر التوتر والعصبية العام .

وسط هـذه الأجواء الغـائمـة المنذرة بـالعـواصف ، استلم دفـة السفينة لقيـادتها بالـوكالـة ، شاب لم يكن ذا خبرة بالقيـادة ولكنه كان معـدا ومستعدا ليصبح الـربان المنتظر للإبحار بالسفينة نحو شـاطىء السلامة والاستقرار مهما بلغت العواصف قوة ومهما أظهـرت التيـارات معاكسـة وعنادا . هـذا الشاب البـالغ آنذاك 37 عـاما من عمره ، ليس سوى الأمير خوان كارلوس آل بربون الذي عينه فرانكو خلفا له فيصبح ملكـا على أسبانيـا بـدل أبيـه دون خوان صـاحب الحق في العـرش حسب التسلسل العائلي الطبيعي .

استلم دون خوان كارلوس رئاسة الدولة بالوكالـة للمرة الثانية يوم 28 أكتـوبــــر ﴿ تشرين أول ﴾ 1975 والبلاد على ما هي عليه من توتـر وتململ داخليا وفـــي أزمة تنذر باندلاع حرب خـارجيا بسبب المسيرة الخضراء التي أعلنها الملك الحسن الثاني ، ملك المغـرب ، زاحفـا بها على الصحـراء الغـربية التي كـانت خـاضعـة لـلاستعمار الأسباني . كانت الأوضاع هناك أيضـا منذرة بالانفجار وكان العسكريون بالصحراء وبأسبانيا في حالة تشنج وعصبية والسفارات الأجنبية التى تهمها الصحراء الغربية من بعيد أو من قريب في نشاط دؤوب بينما القضية نفسهـا معروضة على المحكمة الدولية بلاهـاي وكان على خوان كارلـوس أن يجابه كل ذلك وهو قـائم بأعمال رئيس دولة في صراع مع الموت وهو مشرف على حكومة ليس بينه وبين رئيسها أي تقارب أو أنسجام
استطاع الأمير ، رئيس الدولة بالوكـالة أن يكون في مستوى الأحداث وتصرف بكل ماتطلبته من رصـانة وحزم وعزم . وبعد ثـلاثة أو أربعة أيام فقط من تسلمـه مقاليد الأمـور ، طـار إلى الصحراء ليطلع على الحالـة عن كثب ويلمس الأمـور في ميـدانها ويتصل بقادة الحامية العسكرية هناك وهي على أهبة الدخول في تصادم مع المشاركين في المسيرة الخضراء الـذين كانـوا على مقربـة من الحدود وعلى أهبة أجتيـازها . بـرهن الأمير خـوان كارلـوس بذلك على أنـه ليس كما كـان يحكم عليه الكثيرون من رجـال النظام ومن غير رجال النظام وضرب برحلته المفاجئة تلك ، عدة أهداف في آن واحد أشعر السلطـات العسكرية أنـه كقائد أعلى يتتبع معهم الأحـداث ، لا من مكتبه

ومركـز قيادتـه ، بل على الميدان ليشـاركهم أفراحهم وأتراحهم ، مشـاغلهم وقلقهم أفكـارهم ومقترحاتهم ويبحـث معهم لا في معزل عنهم عن حل ينـاسب الـوطن في تلك الظروف الحرجة الـدقيقة التي يجتازها . وأشعـر الساسة الذين شكـوا في مقدرته وخبرته أنه رغم عـدم الممارسة لا ينقصه تدبير وهو عازم بـالنشاط والحزم والجدية على قهـر المشـاكل واخضاع الأحـداث . كما أشعـر الشعب أنـه سيكون الملك السـاهـر والجندي المدافع والمواطن العامل في كل ميدان وكل أوان لا يأبه بالأتعاب ولا يتوقف عنـد تشريفات أو مـراسيم بل يكـون حيث تدعـوه الأحـداث والظروف أن يكـون . وأظهر للعالم المعلقة أنظاره عليه وعلى وطنه ، أنه يعرف ثقل المسؤولية التي تنتظره وأن له كاهلا يستطيع حملها بكل ما تتطلبـه من جرأة وشجاعة وحكمة وإخلاص . بعد أسبوع من زيـارته الصحراء أي يوم 9 نـوفمـبر ﴿ تشرين ثـان ﴾ 1975 أمر الملك المغربي بتـوقف المسيرة الخضراء حيث هي ، وكـانت قد اجتـازت الحدود بين المغرب والصحـراء ويـوم 14 من نفس الشهـر.توصلت لجنـة ثـلاثية تمثل المغـرب وأسبانيـا وموريتـانيا إلى مـا عرف بـاتفاق مـدريد الـذي استلم بموجبـه المغرب الإشراف على الصحراء الغربية متعهدا بإجراء استفتاء شعبي فيها حتى يقرر شعبها مصيره .

كان الأمير خوان كارلوس يعيش كل هذه الأحداث التي جعلت أسبانيا على فوهة بركـان بينما كان هـو نفسه عـرضة لتـوتر وصراع بـاطنيين سببهما وضعه الـذي لم يكن ليحسـد عليه . فهـو من حين لآخر سيصبح ملكـا فيجلس على عرش ورثـه بحكم وإرادة فرانكـو بينما هو يـؤمن في قرارة نفسـه أن العرش من حق أبيـه . وهو من حين لآخر سيصبح على رأس دولـة حكمت طوال أربعين عاما حكما فـرديا مطلقا لم يعتبر ضمن مـواطنيه الا نصف أسبـانيا وعـامل النصف الآخر معـاملة العـدو أو الأجنبي الدخيل بينما هـو ، الأمير خوان كـارلوس الـذي سيصبح ملكا بعـد مدة قصيرة مهما طـالت ، يرى أنـه لابـد وأن يكون ملكـا على كل الأسبانيين ، أن يكـون أبـا وأخـا وحكـمـا وراعيـا للـوطن كلـه ولكل من ينتمي إليه مهما كـان منبته ومهما كانت آراؤه أو معتقـداته فكيـف التـوفيق بين ما هو موجـود وما ينوي ايجاده وهـو قد أقسـم عنـد تعيينه خليفة لرئيس الدولة الراحل أن يخلص لقوانين النظام الاساسية ويعمل بمقتضـاها ؟ أيتراجع في يمينـه أم يخون مبـادئه التي يؤمن بها ولا يـرى سـواها بديلا لإقامة دولة عصرية محترمة؟ إن الجواب عند أحد الـرجال القلائل الذين أحبوه ووثقوا بـه ، ومن النادرين الذين كان يستطيع التحدث إليهـم دون رقابة وهـو رجـل على مقـدرة وعـلـم وتضلـع مشهـود لـه

بها في عالم القانون والتشريع والعلـوم السياسية . إنه أستاذه السيد توركواتـو فرناندث ميراندا ﴿هـو اليوم دوق وحامل لـوسام فارس الجزة الذهبيـة﴾ الـذي كـان يرى ، خلافـا وبعكس مايـراه المتزمتـون من رجال النظـام ، أن مبادىء الحركـة ، والقوانين الأساسية ﴿ قـامت دوما مقام الدستور المنعـدم ﴾ قابلة للتحويـر وهي تلـزم الأمير ولكنها لا تقيده وهي علاوة على ذلك تحمل في طياتها مبدأ الإصلاح ، من القانون إلى القانـون . إن القوانين ليست جامدة ولا أبـدية وهي تحمل دوما معها آليـة لتحسينها وتهذيبها تستعمل مـرة في حالات منعزلـة ومرات أخرى في تسلسل وتتـابع يوصل إلى ازالة مسائل ومشاكل كانت قبل ذلك مستعصية . فكل ما في الأمر هو تطبيق العلوم التشريعية .

ويذكر الأمير كذلك ، وهو في تلك الحالات العصبية والاضطراب النفساني لعظيم تقديره ما ينتظره من مسـؤوليات ، يتذكر ما كان يدور أحيانـا بينه وبين فرانكو نفسه الذي كان يرتاح كثيرا لما يفاتحه الأمير في بعض شـؤون الدولة والحكم ، لأنه كان يرى في ذلك منـه اهتماما وعنـاية فكان يعـامله إذاك معـاملة الابن والخلـف الذي حـرمته الأقدار إنجابه . كـان الأمير يذكر فرانكو بأنه الملكيـة لا يمكنها أن تكون مجرد تقليد للنظام الـذي كان قائما ولا يمكن بحـال أن تكون استمرارا له لأن انعـدام الشخصية التى كان النظام مقاما عليها ، خـاصة إذا كانت فذة ولها مفهوم محدود للسلطة مثل ما كان فـرانكو ، يفرض التغيير ، الكبير أحيانـا ، في طريقة طرح المسـائل السياسية ومعالجتهـا . وكان فرانكـو يجيبه بما يدل على خبرة وتجربة طـويلة في ممارسـة السلطة والحكم فيقـول لـه : إن في السلطة إمكـانـات وسبل إلى كل شيء ، فهي تعطي كبير الحرية في التصرف وتسمح بإمكانات كبيرة كثيرة .

تذكر الأمير كل هذه الدروس بلا شك ، خلال تلك الأيام الصعبة التي وقف فيها وحـده أو يكاد ، مسـؤولا عن مصير أمـة ودولة ، أمـام شعب حـذر غير مرتـاح ، ومعارضة غير واثقـة في إمكاناته ولا في نـواياه ، ومتحفزة لكل الطـوارىء ، وحكومة بـجهازها ورجالها يرون فيه " الطفل " غير القادر على حمل المسؤولية ، وهو تجاه كل هذا لا يملك السلطـة إلا بالوكالـة . لكنه تجلد وصبر ، كما عـرف كيف يصبر طوال السنوات العديدة التي قضاها في اسبـانيا كطالب وأمير مرشح للخلافة ، ثم كخلف معين وملك منتظر .

ثالوث آخر : إن التحول الـذي عرفته أسبـانيا وأتقنتـه ، الانتقال من دكتاتـورية فـريدة دامت أربعين عـاما ، إلى نظـام ديمقراطي متفتح أسـاسه الحريـات الفرديـة والجماعيـة والاحترام الكـامل لحقــوق الإنسـان في الاعتقـاد والتفكير والتعبير والعلم والعمل وتحقيق كل هذا في مدة زمنية بالغة القصر وفي ظروف داخلية شائكة وخارجية صعبة ووسط أزمة اقتصادية حادة يعـود الفضل فيه حسب رأينا إلى عناصر ثلاثة هي الملك والرئيس الذي اختاره لحكومة الانتقال السيد أدلفو سووارث والشعب الأسباني

ان هــذا لا يعنى أنــه لم يشترك في التحول غير هـذا الثالوث فـالجنود المجهـولون مـوجـودون في كل الأعمال والنشـاطات البشريـة خـاصـة إذا كـانت من هـذا القبيل وتعلقت بشعب كامل بل بمجموعـة شعوب . ثم إن العنصر الثالث وحده ، يكفي ليـدل على تعدد الأسهـامات وتآزر في المجهـودات لكن ولكي نجمع شمل الحديث ونضم شتاته حصرنـا العمل في هذه العناصر الثلاثة لأنها كانت الـرئيسية والفعالة في هذه العملية التاريخية التي أصبحت مثالا يذكر فيحمد .

لقد رأينـا كيف استلم الأمير خوان كـارلوس إدارة شؤون الـدولة بالـوكالـة ، دولة ونظام دارا في فلك رجل واحد وارتكزا عليه وحده . ولإن عرفت البلاد في ذلك العهد تغييرا كبيرا ، اقتصـاديا واجتماعيـا ، فهي في المجـال السياسي وفي شكل المؤسسـات وتطورها لم تعـرف أي تقدم أو تغيير يذكر . ومجلس المملكـة ومجلس الحركة ﴿ هيأتها العليا ﴾ والقـوات المسلحة كـانت كلها تحت سلطة وهيمنـة عناصر محافظـة ورجعية منتسبة كلها إلى الجانب المسمى بـالوطنى وإلى النظام وهذه كلهـا عراقيل في وجه أي إصلاح أو تغيير يريـده خوان كارلوس وحواجـز في طريقه نحو غايتـه الأساسية وهي الانتقال بأسبانيا إلى نظام آخر هو في واقعه نقيض النظام القائم . ولعله من المفيد هنا وقبل الشروع في سرد مـراحل التحوّل وأحـداثـه ، من التوقـف عند تحليل للـوضع في أسبانيا جاء في كتاب روبرت غراهام " تشريح ديمقراطية " قارن فيه الكاتب أولا بين يوغسـلافيا وموت رئيسها تيتـو وبين أسبانيا ثم قال " بـالنسبة لأسبانيا كان الجميع ينتظر التغيير لأن الجو العام داخليا وخارجيا كـان لصالح الديمقراطية . أولا : كان أهم حلفاء أسبـانيا وهي الولايات المتحـدة على أهبة ابرام معاهـدة دفاع سنة 1975 وإدارة كارتـر التـي كـانت مهتمة بحقـوق الإنسـان كـانت بلا شك مستعـدة للقيام بضغـوط ان لم يتم بسرعة حل ديمقـراطى ثـانيا : دلت الثـورة البرتغـالية على أنـه لن يسمح لشبـه الجزيـرة الايبيريـة بأن تصبح منطقـة نفـوذ سـوفيـاتي . . . ومن الثـورة

البرتغالية يؤخذ درس تتمثل فيه الأخطار التى تكمن في ثورة عسكرية ، ستكون عنيفة لو حدثت في أسبانيا خلافا لما تمت عليه في البرتغال ، ثالثا : كان الاقتصاد الأسباني مرتبطا ارتباطا وثيقا بأوربا وكانت السوق الأوربية رافضة طلب أسبانيا الانضمام إليها لأن أسبانيا لم تكن بلدا ديمقراطيا ولكن كانت السوق سنة 1975 مستعدة لتوقيع اتفاق تجاري جديد ووقعته فرفع في الحين من حجم الصادرات الأسبانية ، رابعا : كان موقف الكنيسة الكاثوليكية قد تعرض إلى تغيير كبير على أثر مجمع الفاتيكان الثاني ، خامسا : وأخيرا ، أقنعت التجربة الشيلية اليساريين بالخطر الكامن في إثارة العسكريين ونتيجة لذلك أظهر الشيوعيون والاشتراكيون اعتدالا كبيراً تجاه فكرة التحول التدريجي . . . " .

هذه الصورة تدل على أن العوامل قد توفرت أمام أسبانيا لتقوم بالتحول وليس من عائق سوى فرانكو الذي يقوم أنصاره والشلة التي حول فراشه بمحاولة إطالة عمره معرضينه لعملية جراحية تلو الأخرى . لكن لم يكن الأمر بهذه البساطة . نعم قد توفرت عوامل التحول لكن عوامل الجمود أو الاستمرارية موجودة هي الأخرى باقية في مراكزها مستعدة للدفاع عن مكاسبها ونظامها الذي لا ترى للبلاد غيره بديلا ولا تقيم للعوامل الخارجية وزنا لأنها رأت كيف تحداها فرانكو وكيف خضعت لمشيئته . وليس أدل على ذلك من الحوادث العديدة المتكررة التي اصطدم فيها مختلف فئات الشعب المتحركة لصالح التحول مع قوات الأمن وأجهزة السلطة التي ضربت بلا شفقة ولا رحمة ولا تبصر أو تعقل فسجنت وقتلت . ولعل أحسن وأحزن مثال نسوقه هو حوادث مدينة فيتوريا حيث كان يوم 3 مارس « أذار » 1976 يوم ألم ودم ، يوما انتفضت فيه مدينة بأسرها بعد إضرابات عمت البلاد ، تعرض أثناءها الشغالون إلى العنف والقمع فما كان من اليساريين العاملين في السرية إلا إشعال الشرارة فتحولت مدينة فيتوريا إلى ميدان معركة بين المتظاهرين وقوات الأمن فسقط الموتى وتراكم الجرحى وكثر المساجين .

إن هذا يدل على أنه رغم ما بلغت إليه الأمور من تطور داخل الإطار الاجتماعي العام في أسبانيا لم يزل هناك من كان يؤمن بوجوب بقاء النظام الذي قال عنه الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا " إنه رغم كل الإنجازات التي لا تنكر يبرز الآن كنور مظلم ، خطؤه الأساسي . فخلال أربعين سنة أنقذنا أسبانيا ونظمنا اقتصادها وغيرنا مجتمعها

وأدخلنا أطفالها المدارس لكن لم نستطع تنظيم تعايشنا السياسي " . وهذا التعايش هو الذي يبحث عنه دون خوان كارلوس الآن وهو الذى تطالب به فئات مختلفة من المجتمع الأسباني عن طريق حركات المعارضة أو في استقلال عنها لأن الشعب الأسباني خلافا لما كان يظن بأنه لا يهتم إلا بالرفاهية الاقتصادية التى أصبح يتمتع بها ، كان واعيا بأوضاعه السياسية وهو كما قال دون خوان آل بربون " كان ظهور الشعب الأسباني على المسرح السياسي ، بكل وزنه الخاص ، خطوة من تلك الخطوات التي يقوم بها التاريخ إلى الأمام والتي لا يشعر بها أحد الا بعد تخطيها" .

كان الشعب فعلا قد تخطى تلك الخطوة منذ سنوات وهو اليوم يقف بكل عناصره وقواته على باب عهد يريده عهد التعايش والخروج من الجمود الذي عاناه عقودا طويلة و إلا كان بابا يؤدي إلى كارثة أخرى كتلك التي أتت له بالنظام الآفل نجمه .

الملك : أخيرا حدث ما كان منتظرا ومات فرانكو يوم 20 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1975 على الساعة الخامسة والربع صباحا . مات فرانكو وبقيت حول فراشه أسئلة معلقة هي صدى لهمس حاشيته ورجاله الذين تعوّدوا الغمز واللمز في قاعات الانتظار ونقل المشادّ والنوادر . أسئلة كثيرة كانت تدور في الرؤوس أو على الألسن ومنها ، من هو رئيس الحكومة المقبل ؟ ومن سيعين رئيسا للبرلمان ومجلس المملكة ؟ إلى غير ذلك مما هو بلا شك دون ما يجدر بالمقام والظروف . لكن كان هناك سؤال آخر ، سؤال واحد فريد يدور في كل الرؤوس وتتناقله كل الألسن وتنتظر الجواب عنه كل المحافل السياسية والدبلوماسية في داخل البلاد وخارجها . كانت الأجواء على أقصى ما تكون من التوتر والتشنج . كانت البلاد وكأن عقارب الزمن بها قد توقفت وهي في الحقيقة لم تدر قط بالسرعة التي دارت بها آنذاك .

إن أول ما كان يجب عمله في تلك اللحظة التاريخية هو مبايعة دون خوان كارلوس وتنصيبه ملكا وبذلك يصبح الرئيس للدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة ويستلم السلطة الفعلية أصالة عن نفسه لا نيابة عن غيره .

تم ذلك صبيحة يوم 22 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1975 طبقا لمقتضيات قانون الخلافة والمراسم التي ينص عليها . وبعد أن انتهت الاجراءات وأدى دون خوان كارلوس اليمين في قاعة البرلمان بالعاصمة مدريد ، نودي به ملكا وألقى العاهل

الجديد الملك خوان كارلوس الأول آل بربون وبوربون خطابا كان في الواقع الحدث المنتظر والجواب على كل الأسئلة المطروحة ، إذ قال :

" في هذه الساعة المشحونة بالتأثر والأمل ، المليئة بالألم للأحداث التي عشناها مؤخرا ، أتقلد التاج الملكي بكامل الشعور بمسؤوليتي أمام الشعب الأسبانى وبشرف الواجب الذي يمليه عليّ تنفيذ القوانين واحترام تقاليد عريقة اجتمعت الآن في العرش .

كملك على أسبانيا ، لقب تمنحنيه سنّة تاريخية والقوانين الأساسية للمملكة والتفويض الشرعي من طرف الأسبانيين ، يشرفني أن أتوجه اليكم بأول خطاب للعرش ، نابع من أعماق قلبي " .

وبعد الاشارة إلى " الشخصية الفذة التي دخلت التاريخ " ، شخصية فرانكو وذكراه وماقدمه للوطن من خدمات قال " نبدأ اليوم مرحلة جديدة من تاريخ أسبانيا . وهذه المرحلة التي سنقطعها معا ، تبدأ وسط السلم والعمل والازدهار وهي ثمرات المجهود الجماعي والإرادة الجماعية الحازمة . ان الملكية ستكون الحارس الأمين لهذا الميراث وستحاول في كل حين المحافظة على أوثق العلاقة مع الشعب .

إن المؤسسة التي أمثلها تشمل كل الأسبان ، واليوم ، في هذه اللحظة الخطرة ، أدعوكم ، لأنه علينا جميعا وعلى حد سوى ، واجب خدمة أسبانيا . ليفهم الجميع ، وبكرم وسموّ نظرة أن مستقبلنا أساسه الرضاء الفعلي بالوئام الوطني . . . . إني أطلب من الله عونه لأصيب دوما عند اتخاذ القرارات الصعبة التي سيضعها المصير ، دون شك ، أمامنا . . . . إني أتمنى أن أكون قادرا على التصرف كمُسَكِّن وحارس النظام الدستوري وباعثا للعدالة . فلا أحد يخشى على قضيته النسيان ولا أحد يأمل فضلا أو امتيازا . . . سأحمي وأجعل الكل يحمي القوانين متخذا من العدل دليلي ومقتنعا بأن خدمة الشعب هي الغاية التي تبرر كل وظيفتي . . . إن الوطن مؤسسة جماعية على الجميع تقويتها وتعظيمها . . .

ثم يتعرض الملك في خطابة إلى مشكل الأقاليم التي تطالب بابراز ذاتيتها فيقول " لنحرص على بناء نظام عادل ، نظام يكون فيه النشاط العام والخاص تحت الحماية الشرعية نظام عادل ومساو بين الجميع ، ويُمَكِّن من التعرف على الخاصيات الأقليمية داخل وحدة المملكة والدولة ، كتعبير على تنوّع الشعوب التي يتكّون منها الواقع الأسباني المقدس . إن الملك يريد أن يكون ملك الجميع في آن واحد وملك

كل شعب ضمن ثقافته وتاريخه وتقاليده " .

" إن التاج يرى واجبا الاعتراف بالقيم الفكرية والوصاية عليها . . . . اني بصفتي جندي الدولة الأول ، سأكرس جهدي بحماس كي تحصل القوات المسلحة الأسبانية ، مثال الوطنية والانضباط على النجاعة والقوة التي يحتاجها شعبنا . . . . إن التاج يفهم أيضا كواجب أساسي ، الاعتراف بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية التي لاغاية لها سوى الضمان لجميع الأسبان الشروط المادية التي تمكنهم من ممارسة كل حقوقهم وحرياتهم . . . . إن احترام كرامة الإنسان الذي يعني مبدأ الحرية الدينية هو عنصر أساسي لانسجام التعايش وسط مجتمعنا . . . . ان التاج الأسباني أمين تقاليد عالمية عريقة ، يبعث إلى كل الشعوب تمنياته بالسلم والتفاهم مع الاحترام دوما للمميزات الوطنية والمصالح السياسية التي لكل شعب حق تنظيمها وفقا لأصوله الخاصة . . . "

لقد قال الملك كلمته وأوضح نقاط برنامجه وخط معالم الطريق الذي يريد أن تسلكها البلاد . لقد أجاب عن كل الأسئلة وأزال كل المبهمات . إنه ملك على كل الأسبان ، فلا غالب ولا مغلوب ولا أثر للحرب الأهلية في المستقبل الذي يجب أن يكون مستقبل الوئام والانسجام ولهذا طلب من الجميع أن ينظروا بسموّ نحو مستقبل أساسه " الرضاء الفعلي بالوئام الوطني " . إنه أيضا مستقبل هيمنة العدل والحرية والحق في التعليم والعمل بكرامة وشرف ، تحتل فيه القوات المسلحة مكانها عاملة على تطورها وتقدمها ويساهم الشعب فيه فى تسيير شؤون البلاد ومراقبة ثروتها وتتمتع فيه كل الشعوب المكوّنة للنسيج الاجتماعي الوطني بحرية إبراز ثقافتها ومميزاتها داخل وحدة الوطن الكبير.

هذا هو الطريق وهذه الخطوط الكبرى لبرنامج طموح . لكن على من سيعوّل لتطبيق ذلك وتحويل المثل والأماني إلى حقائق وواقع ملموس ؟ سيتم البحث عن المرغوب فيه لكن بعد أداء واجب آخر ، واجب دفن القائد الراحل الذي بقي جثمانه في القصر الملكى ثلاثة أيام مكنت الكثيرين من أبناء الشعب من توديعه . وودعه الشعب في حزن ووقار لأن الشعوب تحترم الموت وأنها ، مهما قيل عنها ، لا تنسى ولا تنكر الصنيع والجميل وتنسى بسرعة السيىء من الأفعال .

دفن فرانكو في " الفايي دي لوس كاييدوس " مقبرة الشهداء التي أقامها بعرق وتعب المساجين والمعتقلين من أنصار الجمهورية والصف المقابل المعارض له .

دفن ، وخلافا لما أصبح عـرفا عند موت رئيس دولة ، لم تحضر جنـازته من الخارج أية شخصية تـذكر ، لأنه رغم كل شيء لم يغفـر له العالم حكمه بلـدا منقسما على نفسه وتحالفه مع هتلر وموسوليني ومـا سمح به من تصرفات على اثر الحرب الأهلية . لكن شعبه دفنه في جلال واحترام كما هو خليق بكل شعب عظيم متحضر .

بعد يـومين أي يوم 25 نـوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ أصـدر الملك أمـرا بالعفـو العام فكانت تلك أول خطوة نحو التسامح والتعايش ونسيان الماضي الأليم واستقبال عهد الحريات والحياة الدستورية التي وعـد بها خطاب العرش والتي تطالب بها كل فئات الشعب وطبقاته باستثناء النادر القليل .

عدم وضوح : كان العفو العام طبعا خطوة ضرورية لاتخاذ ما يتلوها من خطوات تحتاجها البلاد لتغيير نظامها وهياكلها وقوانينها واتخاذ الشكل الجديد المنتظر ، شكل ونظام دولـة عصرية ، دولة القانـون والحرية . ولذا كـان الجميع ينتظر في قلق وحيرة خطوة الملك المتمثلة في اختيـار رئيس حكومة جديد . كان هذا مـا يبغيه الملك أيضا ولكنه كـان في وضع حرج وتحت ضغـط شديد مـن الأحداث والأشخاص وهـو من جانبه لا يـريد الاتيان بأية هفوة أو تخطي أية خطـوة غير ثابتة لأن في ذلك دون شك انهيار صرح الآمال الذي بناه معه معظم الشعب الأسباني . كان الملك الجديد يشعر ويتيقن من أن كل الأنظار تـراقبه ولكنه تعـوّد ذلك فقد عـاش مراقبـا كل المدة التي قضاها قرب فرانكو وأوساطه السياسية مما أجبره على توخى مظهر لم يساعد على معرفة الآخرين لحقيقته وحقيقة ما هو قادر عليه .

وها هـو على المنصة مرة أخـرى والأضواء مسلطة عليـه والبلاد بأسرها والعـالم كله ينتظر ما سيأتيـه وخاصة أية حكـومة سيختار . لقد وعد في خطـاب العرش بالحذر وها هو سيتـوخاه من أول لحظة . فما كان منـه إلا أن جدّد الثقة بآرياس نـافارو مثبتا اياه على رأس أوّل حكومة ملكية تباشر العمل فى العهد الجديد ، عهد خوان كارلوس الأول . وساد اليأس الجميع . فـالرئيس " القديم الجديد " ليس سـوى المثال الحي للمحـافظـة على النظام السـابق واستمـراريتـه وهو دون شك غير ودون مـا تتطلبـه الأحداث . والذي زاد في الدهشة والغرابة هو أنه علاوة عن تباعد وجهات النظر بين الملك ورئيس الحكومة ، لم تكن علاقتهما تمر إذاك بأحسن ظروفها . فقبل وفاة فرانكو بقليل وبينما كان خوان كارلوس قائما بأعمال رئيس الدولة استدعى الوزراء العسكريين الثلاثة ﴿ في عهد فرانكو كانت هناك وزارة لكل قوة من القوات المسلحة وحدث بعد

التحول في وزارة الـدفاع ﴾ واجتمع بهم دون حضـور رئيس الحكومـة أرياس نـافارو فغضب هـذا الأخير وقدم استقـالتـه ولم يتراجع عن قـراره بشأنها إلا بعـد ما كـاد أن يعتذر لـه الأمير . فما الذي دعا بـالملك تعيينه من جديـد إذن ؟ هل هو البحث عن طمأنة قوى النظام السابق ؟ أم هو ربـح للوقت ؟ أم هناك قوى خفية ضغطت عليه فأتى بما لا يتنـاسب والظـروف ؟ أم كل هـذه الدوافـع مجتمعة ؟ أيـا كـان السبب أو الأسباب فإن تثبيت أرياس قـد خيب ظن أكثر الملاحظين تفاؤلا فما بالك بـالمعارضة التي عضت على أنيابها وتهيأت لما هو أسوأ .

كان أريـاس نافارو شاعـرا بالتغيير الذي سيحدث ولكنـه كان عاجزا على معـرفة مداه وأبعاده . لقد سبق له وأن وعـد بالإصلاح ولكنه لم يفلح فأتى هذه المرة ببعض الوجوه المعروفة بالميل إلى الإصلاح من الداخل وأسند إليها مهام في حكومته فكانت للسيـد فراغـا الداخليـة وللسيد أريلثـا الشؤون الخارجيـة . وفوق هـذا فقد وعـد في خطاب تـزكيته يـوم 12 فبراير ﴿ شباط ﴾ 1976 بإصـلاح شامل وبقـانون جـديد للجمعيات السياسية لكن لم ينجح مشروعه لأنه حكم عليه هو نفسه بالموت وعندما أكد وهو يعلن الإصلاح بأنـه " بعيدا تماما عن عالمنا السياسي أيـة فكرة ثورية تبغي القطيعة وأي مطلب انفتاح نحو عهد دستوري " بمثل هذا أمات الوليد في مهده لأنه كـان كمن أعطى الكـراع لمن ينتظـر الكتف . يقـول الصحفي المعلق السيـد أميليو روميرو بهذا الشأن " ان ما حدث هو أن نص ومفهـوم الإصلاح ، في عقل كارلوس أرياس ، يجب أن يتوافقا مع القوانين الأساسية للنظام ، وهذه الأخيرة هي الحاجزة . كان كـارلوس أرياس لاينوي فتح عهـد دستوري بل تفسير القوانين الاسـاسية تفسيرا ديمقراطيا ، في حدود المستطاع " .

فكيف يمكن التفـاهم والانسجـــام بين هـذه الـرؤى وبين رؤى الملك التي تـرى وجوب إعطاء حق تأسيس التجمعات السياسية وتغيير وضع " لاس كورتس " نحو بـرلمان ومجلس شيـوخ وتحويـر القـانون الجنـائي في كل مـا لـه مسـاس يحق التجمع والتظاهر وتشكيـل الجمعيات والقيام بالدعـاية إلى غير ذلك مما أصبح حـاجة أكيدة لشعب متحضر نام يعيش على أبواب القرن الواحد والعشرين .

شعر الرئيس أريـاس بانسداد الطريق في وجهه وشعر حتى بـانحدار ثقته في أبعاد سلطته نفسهـا كـرئيس للحكـومـة ولاحظ بعين الـواقع انحبـاس إدارتـه بين قـوتين

أساسيتين . فمن ناحية كـان هناك قلق عمالي وتوتر شديد أساسـه المشاكل السياسية وأزمة اقتصـادية تزداد عمقا وتشعبـا مع الأيام وعنف متصاعد في بـلاد الباسك وتحدّ يزداد بروزا باستمـرار من طرف الأحزاب السياسية المحجورة . ومن نـاحية ثانية أجبر آرياس على اتخاذ موقف دفـاعي أمام أنصار النظام السـابق المتشبثين المتطرفين الذين كان منهم أعضاء في وزارته نفسها .

هكذا دخلت الأمور طريقا مسـدودا . فلا انسجام بين الملك ورئيس الحكومة ولا تقارب بين آراء وبـرامج الطرفين ، ولا اعتبـار للمعارضـة ولا اعتراف بوجـودها وهي التي تطـالب بكل شـدة تشكيل حكـومـة وقتيـة لتعمل على إرجاع السيـادة كـاملـة للشعب عن طريق الحريات والحقوق والواجبات الديمقراطية ، ورفع الحجر على كل الأحـزاب السياسيـة دون استثناء وحـرية التنظيم النقـابي والاعتراف بحق الإضراب والتجمع والتظاهـر وحرية الصحافـة والتعبير والإعلام واستقلال العدالـة ، والحياد السياسي من طـرف القوات المسلحةوالاعتراف بـالشخصية والحكم الـذاتي للشعوب ذات الثقافة الخاصة داخل الوحدة الوطنية وفصل الكنيسة عن الدولة وغير ذلك من المطالب التي لا تدخل البتة في عقل كارلوس آرياس نافارو ومن كان على شاكلته .

كان التباين واضحا جليا فاحتـدت المواقف وتصلبت واستولى توتر الأعصاب على الحكومـة فزجت بعدد كبير من زعماء وعنـاصر المعارضـة في السجن بينما الملك الذي يريـد أن يكون " ملكـا على جميع الأسبان " وأن تكـون ملكيته دستـورية ديمقـراطية يكثف اتصـالاته ومشـاوراته مع الشخصيـات السياسيـة بالبـلاد يستوضح الطـريق ويبحث عن الرجل المناسب . لكن ما هي الشروط التي يجب أن تتوافر في هذا الرجل المناسب وأين هـو ؟ يجب أن يكون أو على الأقل أن يوحـي بأنه من رجال الحركـة فلا يثير شكوك أو عداء أنصـار النظام الآفل ، رجال " البنكر " كما كـانوا يلقبون ، وأن يكون إداريا عارفا بمختلف دواليب الإدارة ومحركاتها ، وأن تكون آراؤه إصلاحية حقا وأن يكون ذا حزم ولبـاقة ومفاوضا قـادرا على الحوار وأن يكون ويكون . . . لكن أين هو ؟

كان قريبا من الجميع يعرفونه ويجهلونه لكن الملك ومستشاره المقرب في تلك الأيام الحرجة ، أستاذ القانون والتشريع الذي فتح أمامه المنفذ ليوفق بين ايفائه بقسمه وبين

إخلاصه لمبادئه ، كانا يعرفانه ودرسا ماضيه وخصاله وكانت أخراها طلاقة لسانه وطريقة القائه التي استعملها أمام " لاس كورتس " وهو يخطب مقدما مشروع قانون الجمعيات الجديد الذي جاء ضمن برنامج آرياس الإصلاحي . لقد كان واضحا ، قوي الصوت ثابت اللهجة فنال هتاف وتصفيق البلاد بأسرها . لاحظ الملك ذلك التصرف ووضعه في ميزانه السياسي .

أصبحت أيام حكومة آرياس معدودة منذ ذلك الحين . فهي لم تستطع التقدم في ادخال التراتيب والاجراءآت الديمقراطية وهي بذلك تسيء إلى سمعة أسبانيا خارجيا وتثير خيبة الأمل وتزيد في تأزم الوضع داخليا . إن حوادث مدينة فيتوريا وبعدها حوادث مشابهة في " مونتي خورا " قد أكدت لكل ملاحظ بصير، إن الحكومة التي اعتبرت في الأول حكومة ممتازة لما حوته من شخصيات مرموقة مشهود لها بالمقدرة ، هي الآن كالمركب التي تسرب إليها الماء من كل جانب وهي على وشك الغرق لأسباب كثيرة قد يكون أهمها انعدام الانسجام بين أفرادها إذ كل يعمل لحسابه والتنسيق مفقود تماما والانضباط هو الآخر قد أخذ في التلاشي وأصبح رئيس الحكومة عاجزا عن السيطرة على الموقف . كل هذا بينها الشارع يتحول شيئا فشيئا إلى ميدان مشادات واصطدامات والكل يتساءل عما دعا الملك الى ايقاع البلاد في مثل هذا المأزق و إدخالها الى هذا الطريق المسدود الذي لن يؤدي إلا الى ما لاتحمد عقباه .

لكن لم يكن الملك مختارا عندما حدد تعيين كارلوس آرياس على رأس الحكومة وثبته في مركزه . إن ما لم يكن يعلمه أحد هو أن آرياس نافارو كان في شبه عصيان وتمرد تجاه الملك . فهو من أشد المخلصين لفرانكو ومن أكثر المعجبين بالنظام والمتحمسين له والمؤمنين بوجوب استمراره وهو لا يتحمس كثيرا للنظام الملكي إن لم يكن يناوئه ، ثم وفوق كل هذا هو معين من طرف فرانكو طبقا لقوانين معمول بها وهي تعطيه الصلاحية والحق في البقاء على رأس الحكومة خمس سنوات لم تنقض منها سوى اثنتين ولذا فهو باق إلى نهاية الفترة . هذا التفكير وهذه النظرة الضيقة إلى الأمور دفعت به إلى نسيان كل شيء بما في ذلك اللياقة المعروفة عنه والعرف المعمول به والقاضي بوجوب تقديم استقالته على إثر مبايعة الملك وتحول السلطة العليا رسميا إلى أيد جديدة . لم يفعل ذلك إلا بعد لأي بعد ضغوط الأصدقاء والحصول على الوعد

باعادة تعيينه . ثم إنه وقف بشدة ومعه طبعا كل المشابهين له في الرغبة والعمل على استمرارية النظام القديم ضد رغبة الملك والحاحه على تعيين أقرب وأخلص وأقدر مستشاريه الأستاذ توركواتو فرناندث ميراندا على رأس " لاس كورتس " ﴿ البرلمان ﴾ ومجلس المملكة وهما المجلسان المتحكمان في العديد من التعيينات والتشريعات من بينها تعيين رئيس الحكومة الذي يتم بعد مصادقة مجلس المملكة على ثلاثة مرشحين مرتبين حسب الأولوية التي يرتئيها المجلس ثم تقدم القائمة إلى رئيس الدولة لاختيار أحد المرشحين الثلاثة .

لهذا السبب وغيره أصر الملك على أن تكون رئاسة المجلس بيد أحد أوفيائه علاوة على أن المرغوب فيه هو من أكثر رجال القانون والسياسة مقدرة ومعرفة ألا وهو الأستاذ فرناندث ميراندا ، الذي من منصب رئيسي حيوي كرئاسة المجلسين سيعرف كيف يوجه الأمور في الوجهة التي يريدها الملك وترغبها البلاد وتقتضيها الظروف دون المساس بالشرعية ولا بالقانون .

لكن صعب تحقيق ذلك على الملك ولم يستطع اتمام رغبته إلا بعد أن تنازل عن مضض وطلب من رئيس الحكومة آرياس مساعدته فقبل وجرت بعد ذلك الأمور بسرعة وعلى بساط من الحرير . هذه الموافقة والظروف المحيطة بها إذن هي التي دفعت بل أجبرت الملك الشاب الرصين أن يثبت آرياس على رئاسة الحكومة ولو أنه حرص مستعملا كل الأساليب والوسائل على أن يدخل الرئيس تحويرا جذريا على حكومته حتى تكون موحية بالتجديد والتغيير فكان ذلك ولم يبق ضمن التشكيلة الجديدة من أوفياء الرئيس وخلصائه إلا وزيران أو ثلاثة وهذا ما زاد في تفكك الوزارة وعدم انسجام أفرادها بالاضافة إلى أن رئيسها قد تميز ، من ضمن ما تميز به ، بعدم استطاعته التفاهم مع الأوضاع الجديدة ومماشاتها . كان وفيا للقائد الراحل فتجاهل الملك الحاضر وكان مخلصا للنظام الآفل فتعامى عن الواقع الدامغ وكان يعيش في الإعجاب بالماضي فأنكر المستقبل . وهكذا تراكمت العوامل وتفاعلت وبلغ الأمر إلى حدود اليأس وأصبح يهدد بالانفجار فكان لابد من ازاحة آرياس نافارو وابداله برئيس جديد لأن البلاد " تحتاج إلى رئيس شاب " كما قال الملك .

لم يكن هذا الرئيس الشاب بعيدا ولكن لم يجلب إليه الأنظار ، إلا أنظار الملك ثم

انتباه مستشاره الأستاذ فرناندث ميراندا . وبعد الدرس والتمحيص ومتابعة المواقف والتصرفات والاستفسار عن الشخصية وارادتها بدا توفر الشروط في تلك الشخصية جليا ولم يبق إلا العمل على ازاحة الرئيس الحالي والاقدام على ادخال اسم الشخصية التي وقع النظر عليها ضمن قائمة المرشحين الثلاثة التي يقدمها مجلس المملكة للملك الذي يختار منها من يرتئيه أصلح وأنسب .

لم يكن من السهل ازاحة أرياس ولا ادراج اسم الشخصية المنتخبة لكن خبرة وتجارب الأستاذ فرناندث ميراندا ومقدرته النادرة على اخضاع القوانين لما هو مطلوب منها دون تحريفها أو المساس بجوهرها ومركزه السامي الذي لم يكن سوى المفتاح لكل أبواب العملية التي وجب اجراؤها سوف تمكن هذا السياسي والحقوقي الكبير من تغيير مجرى الأمور قبل أن تتعفن الأوضاع فتستحيل الديمقراطية وتقع البلاد في دوامة التطاحن .

فكر فرناندث ميراندا ، الذي لقب آنذاك بأنه " رجل الملك " وفكر ، ثم اتصل وتحاور فرأى أن تلك الطريق لن تؤدي ، إن هي أدت ، إلى الغاية إلا بعد زمن طويل والطول يهدد بالمخاطر . ولذا استقر رأيه على إحداث أزمة تسقط الحكومة تحت تأثيرها وعندها يبحث نهائيا عن الشخصية المطلوبة خاصة أن القوانين تمنح مهلة عشرة أيام لسد الثغور وهذه فترة كافية يمكن أن يتم فيها الكثير . وضع الأستاذ خطته إذن وأخذ في تهيئة الجو لها باتصالات مكثفة واسرارات وايعازات وتلميحات دون أن يصدر منه أو من الملك ما من شأنه أن يكشف النوايا أو يعتبر وعدا أو التزاما . أعطت هذه الطريقة أكلها فالشخصيات السياسية البارزة التي تعتبر نفسها مرشحة أو ترشحها الأقاويل لرئاسة الحكومة أصبحت تعمل عن وعي أو بدونه على الإسراع بالأزمة التي توافرت الجهود ، دون سابق اتفاق ، على احداثها .

إن ما زاد في تعقيد الموقف هو أن كل الأنظار البصيرة وكل الزعماء المخلصين في رغبتهم التحول وإدخال إصلاح جذري على الأوضاع لم تكن ترى أحسن من الأستاذ فرناندث ميراندا نفسه ليملأ منصب رئاسة الحكومة عند شغوره ، لكن أخلاقياته وسلامة تفكيره جعلاه يرفض بشدة ويقنع كل من يجاهر بهذا الرأى بوجوب العدول عنه . إنه يرى " أن منصبه في خدمة العرش ليفيده لا ليستعمله لفائدته

الشخصيـة " . هل من الأخـلاق أن يـزيـح آريـاس ويستقيل من رئاسـة المجلسين ويترشح لرئاسة الحكـومة فيختاره الملك وهذا مـؤكد ؟ انه إن فعل سيحمل ذلك على الكثير من التأويلات مثل الانتقام والمعاملة بـالمثل لأسباب وتصرفات عدائية تعرض هو نفسه لها من طـرف آرياس وما هو أخطـر من كل هذا هو اتهامه بأنه يسير الملك حسب أهوائه وهو في الواقع أرفع وأنبل من كل هذا . ولذا سيبقى حيث هو ويصبح الألة الفعالة في تفكيك الهيكل الحكومي القائم وتعويضه بآخر أكثر ملاءمة للأوضاع وأكثر حركية وتحررا (63).

لم يبق أمـام الملك إلا أن " يمسك بالثـور من قرنيـه " كما يقال في أسبـانيا نفسهـا والاقدام على ما كان يفضل أن لا يقدم عليه لو جرت الأمور على منوال طبيعي . إن التوتر والتشنج قد بلغا حدود الانفجار وانه لو تأخر عن اتخاذ الخطوة الضرورية لفقد زمام الأمور وقد يدفع بالبلاد الى ما لا تقدر عواقبه .

كان شمس آخـر يوم من شهـر أغسطس ﴿ آب ﴾ قد غـابت وخيم ليل الصيف اللطيف على ضواحي العاصمة حيث يقيم آرياس نـافارو الذي كان دون شك يتوقع في قرارة نفسه أنه مزاح لا محالة فهو على درجـة من الحصافة تجعله يفقه وضعه ويتبين الواقع الـذى هو فيه . إلا أنـه تعنّت المخلص الوفي الذى يـدفع صاحبه إلى معـاندة التيار والسباحة في اتجاه معاكس له مما يؤدي إلى الغرق والغوص إلى الأعماق . في تلك الليلة نـاداه ديوان الملـك هاتفيا يطلـب منه المثـول بين يدي العاهـل عند ظهـر اليوم التالي، فحضر في الوقت المحدد بدقته المعتادة وهناك وقبل أن يتم الملك حديثه الرامي إلى طلب الاستقالة منه عرضها عليه إن كانت تلك رغبة العاهل .

لقد جـرت الأمور بـأسهل مما كـان منتظرا واقتصرت العمليـة على حوار قصير بين رجلين شهمين ، ملك يطلب في حرج وأدب استقـالة رئيس حكومته وهـذا يعرضها ويستجيب إلى الرغبـة السامية بطـاعة وانضباط الجنـدي المثالي وقضى الله أمـرا كان مفعولا .

خيبة أمل : لم يعرف أحد بالتحديد ، وقد لا يعرف أبدا ، متى قرر الملك وعضده القديـر اسم المرشح الجديد ، كان الـواقع وكانت الأوساط السيـاسية والدبلومـاسية

تتقدم بأسماء عديدة تصلح للمهمة ولها حظوظ كبيرة في الوصول إلى رئاسة الحكومة . لكن برز بين الجميع اسمان حتى أصبح شبه مؤكد أن أحدهما سيقع عليه دون شك اختيار العاهل . أولهما الأستاذ مانوال فراغا ايريبارن صاحب الانفتاح من الداخل وتحرير الصحافة في أواسط الستينات ولذا فقد يرضى المعارضة وهو يتميز بقوة الإرادة والقدرة على المثابرة وهو قوي الشخصية وصاحب سلطة وهو ما يرضي الجانب المتشدد ويطمئنه . أما الثاني فهو الأستاذ خوزي ماريا دى آريلثا الدبلوماسي المحنك صاحب العلاقات الطيبة المتعددة في مختلف الأوساط الدبلوماسية في أوربا وأميريكا وهو ملكي صرف تولى أمانة ديوان دون خوان أبي الملك وهو وثيق الصلة بالمعارضة اليسارية ويتعامل معها في سرية وحذر . لكن لافراغا ولا آريلثا ولا غيرهما ممن رشحهم " العارفون " سيقع الاختيار على رجل مغمور بينهم لم يبرز على السطح ولكنه تميز وعرف بالجدية والمثابرة والصلابة عند الحاجة إلى جانب اللين واللطف وقوة الإقناع مع الصبر والتحمل أثناء النقاش .

لم يكن تعيين رئيس الحكومة موقوفا على تعيين الملك بل كان يأتي عن طريق مجلس المملكة عبر عمليات معقدة من الترشيح والانتخاب بين مجموعة أو مجموعات من الأسماء يتقدم بها أعضاء المجلس حسب مفاهيم معينة منها اختيار المرشحين من مختلف العائلات السياسية والكتل المتجانسة لانعدام الأحزاب السياسية . وتجري الاقتراعات متتالية يسقط في كل دورة منها بعض المرشحين إلى أن يستقر الأمر على ثلاثة ترفع أسماؤهم إلى الملك فيختار من بينهم من يرتئيه أصلح . انحصرت المهمة في مجلس المملكة إذن وبالنسبة للملك أصبح الأمر بيدي مستشاره وعونه خاصة أنهما وحدهما ولا أحد غيرهما يعرف اسم من وقع عليه اختيارهما الذى يجب أن يدخل اسمه ضمن المرشحين ويصمد إلى النهاية فيأتي ضمن الثالوث النهائي .

تعود أعضاء المجلس ، طيلة عقود ، على التعرض إلى الضغوط والتوصيات والمساومات وحتى المطالبة بالطاعة والانضباط ، إن لزم الأمر ، كي ينجح دوما من كانت ترغب نجاحه السلطات العليا ، سلطة فرانكو وحاشيته . لكن " رجل الملك " كان يريد الوصول إلى ما يبغيه العاهل دون ضغوط ودون تهديدات ولا مساومات أو شروط فلا بد إذن أن يجري عمل المجلس بكامل الحرية حتى يضمن

بعد ذلك للملك وللرئيس الجديد كامل الحرية والتخلص من أي ارتباط أو تعهد . كيف فعل وتوصل إلى تحقيق ما كان يبغيه ؟ هذا ما لا يستطيع معرفته سواه وهو قد ذهب بسره إلى العالم الأخر . لكن أيا كانت الطريقة أو الأسلوب ومهما كانت الإجراءات وَ المنعرجات " التي اتخذها فقد استطاع بعد أربع ساعات من المداولات والترشيحات والاقتراعات أن يخرج بانتصارين يتمثلان في نجاح مرشح الملك وظهوره ضمن الثالوث ورضاء وسرور أعضاء المجلس على الجو والطريقة التى تم بها عملهم وعلى النتيجة التي رأوا فيها آنذاك ضمانا للاستمرارية مع مطابقة الحاضر ومماشاة الأوضاع الراهنة . استطاع الاستاذ توركوواتو فرنانـدث ميراندا أن يقول للصحفيين وهو فى طريقه ليرفع إلى العاهل أسماء أفراد الثالوث " إني في وضع يمكنني أن أرفع إلى الملك ما طلبه مني " .

كان ذلك اليوم ، يوم السبت 3 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1976 يوما طويلا على الكثيرين يوم الانتظار والأمل بالنسبة لمن يتوقعون تعيينهم ويوم الانتظار والتكهن لغيرهم من المتتبعين أو المتربصين لأية طارئة . طال الانتظار وتخللته برقيات وكالات الأنباء حتى أذاعت إحداهن ، وكانت معروفة بثقة مصادرها ، أذاعت أسماء ثالوث آخر لا صلة له بالواقع فاتجهت الأنظار والصحفيين إلى بيت السيد آريلثا على أنه رجل الساعة . ولكنها فرحة لم تدم إذ جاء أخيرا النبأ الصحيح يقول " دعا الملك السيد آدولفو سووارث إلى قصره وطلب منه تشكيل الوزارة " .

لو نزلت على أسبانيا صاعقة مساء ذلك اليوم لكان وقعها أخف وطأة من وقع ذلك النبأ . الوزيران اللذان كانا متأكدين من فوزهما قدما في الحين استقالتيهما ولو أنها حركة لم تكن تعنى شيئا إذ كل الحكومة مستقيلة باستقالة رئيسها ولكنها عملية دلت على ضخامة الصدمة وعظيم الخيبة . الصحافة بأجمعها عبرت عن دهشتها أو حتى استيائها وتصرفت كما لو خيم الظلام الأبدى على البلاد فجاءت عناوينها الضخمة نادبة الحظ مندددة بما رأته " استمرارية ومحاكم تفتيش تقهقرا وخيبة أمل ، خيبة كل الآمال التى تعلقت بها أسبانيا بأسرها والتي أنهارت اليوم بهذا التعيين " إلى غير ذلك من العناوين المعبرة عن الدهشة والاستغراب وعدم الاستحسان والتشاؤم . والصحافة الأجنبية هي الأخرى كالت ما سمح لها الكيل من عبارات

الخيبة والتشاؤم فقالت " أسبانيا بأسرها ضد الوزير الأول ﴿ الفيغـــارو ﴾ أو خيبـة أمل في أسبـانيا على إثـر تعيين أدلفـو سـووارث " ﴿ فـرانكفورتـر ألغـامين تسايتونغ ﴾ ووصفت معظمها الرئيس الجديد بأنه مجهول ، فاقد الخبرة وكل الصفات التي كان على الملك أن يفكر فيها ويشترطها في رئيس حكومته .

أمـــا المعـــارضـــة فلم يختلف تصرفهـــا ورد فعلهـــا عن ردود فعل الملاحظين أو الصحفيين . تعجبت ودهشت واستاءت فتشاءمت وتأهبت لكل طارىء .

هكذا دخل أدولفو سووارث . وهكذا ووسط هذه الإجراءات المعادية الرافضة تقدم إلى قلب الركح حيث سلطت كل الأنوار وبدأ العمل . لكن بمن ومع من سيعمل ؟ لقـد تحاشـاه وابتعـد عنـه الجميع فبقي وحـده أو يكـاد . غير أنـه لم يكن ممن تحبط عـزائمهم بسرعـة ولم يكن يجهل عندمـا قبل عـرض الملك أن الطـريق مـزروع شوكـا وعراقيل وأن الضربـات قد لا تتأخـر في النزول على ظهره من كل جـانب . لكن رغم كل هذا لم يأبـه لا بالتهجمات ولا بالمقاطعـة ولا بما قد يعترضه من عـراقيل . لقد أتى وفي رأسه بـرنامج وهـذا البرنامـج يتجاوب تجاوبا كـاملا مع مـا تطمح إليـه أغلبية الشعب ولـذا ليس الأمر سوى مسـألة وقت وهـو عنده من الصبر والثبات مـا يكفي لقتل هذا الوقت وأطول منه .

رغم الصعوبات استطاع تشكيل حكومته الأولى في ثلاثة أيام فجاءت حكومة أقل ما يقال عنها أنها شابة وبها سيمسك سووارث بمقـاليد أمور البلاد عازما المضي قدما في إدخال تغيير جذري على الأوضاع ولن توقفـه أية عقبة . لكن قبل أن نمضي قدما في استعراض مـا فعله هـذا الوزير الشـاب وكيف حقق المعجزة لنتعـرف عليه أولا .
هـــو أدولفو سـووارث غونثالث مـــن مواليـد عـــام 1932 ببلدة " ثيبراروس " من ولاية " أفيـلا " على بعد مـائة ميل تقريبا عن مـدريد ، خـريج حقوق ، تحصل أيضا على شهادة انتهاء الدروس من المعهد الاجتماعي للبحرية . منذ تخرجه تقلب في مناصـب ادارية داخل الأمـانة العـامة للحـركة وبالإدارة العمـومية حتـى عين سنة 1968 حاكما مـدنيا على سيغـوفيا وفي عـام 1969 تسلم إدارة الإذاعة والتلفـزيون الوطنيـة ، وفي سنة 1975 عين نـائبا لأمين عام الحركـة ومنها وزيـرا مكلفا بـالحركة داخل حكومة آريـاس نافارو الأخيرة . ومن هذا المنصب تم اختياره لرئاسـة الحكومة

وكلف بتشكيلها يوم 3 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1976 .

لقد قيل الكثير وكتب أكثر عن سووارث فوصف ونعت بكل الأوصاف الحسنة منها والمشينة حسب أهواء ودوافع المتكلم أو الكاتب لكن الذي يكاد يتفق عليه الجميع هو وصفه بالذكاء والفطنة والصراحة ، يعالج الأمور بعزم ثابت لأنه يقتنع بما يفعل . وهو رجل حوار ، يتناول الموضوع رأسا دون التواء أو تحيل وإذا وعد وفى بوعده وهذا ما جلب له احترام وتقدير كل زعماء المعارضة ولولا الخوف منأن يتهمنا القارىء بالتحيز والمحاباة لنقلنا هنا ما سمعناه مباشرة من زعماء تفاوضوا سرا وجهرا وفي أصعب مرحلة مع سووارث نذكر منهم السيد تاراديياس الذي بعد العودة من المهجر والتفاوض أصبح ، عن طريق الانتخابات ، أول رئيس " الجينيراليتات " وهي الحكومة المحلية باقليم قاطالونيا ذي الشخصية والثقافة الخاصة والذى حرم من حكمه الذاتي الذي ما انفك يطالب به أكثر من أربعين عاما . وكذلك السيد بوجول من أبرز زعماء الإقليم وهو اليوم رئيس حكومة قاطالونيا وأيضا الأستاذ أنريكي دي لاماتا الذي ترأس لعدة دورات متتالية جمعية الصليب والهلال الأحمرين العالمية والسيد سان تياغو كاريو زعيم الحزب الشيوعي الأسباني الذي مدح سووارث حتى قيل عنه أنه " افتتن " به .

ومهما يكن من أمر فلهذا الرجل من الخصال ما مكنه من أن يكون الحاكم الأسباني الديمقراطي الذي بقي في الحكم أطول مدة في تاريخ البلاد رغم صعوبة ودقة الوضع الذي حكم فيه ﴿ يبدو أن الرئيس الحالي السيد غونثالث سيسجل رقما جديدا فى هذا المضمار ﴾ وهو الذي غرس جذور الديمقراطية في شبه الجزيرة بعد أن اقتلعتها العواصف والأهوال والأحداث وهو الحاجز الذي تحطمت ضده أمواج كل المحاولات الرجعية وهو الذي قال عنه الكاتب " برنات كابو" . . . " هو الرجل الذي قد استعاد لنا الكرامة الضائعة فاتحا نوافذ الأمل كي يجري النسيم الحر ، نسيم حقوق الإنسان . إنه الرجل الذي أظهر حزما وجسارة ، مخاطرا بحياته نفسها دفاعا عن جميع وكل واحدة من حرياتنا " .

ماذا فعل سووارث وما هو برنامجه ؟ لقد قال خصومه إن أبرز صفة فيه جعلت

الملك يختاره هـو أنه " خلو من الأفكـار حتى يطبق أفكار وآراء صـاحب الإصلاح وهو الملـك " . لكن لا ينفي عليه خصـومه رغم هـذا ، خصلة اعتبروها شرطـا من الشروط الضروريـة لمثل مهمته وهي المقـدرة على الإقنـاع والإغراء . إلا أن الإنسـان مهما بلغت قوة اقناعه واغرائه لن يستطيع تطبيق بـرنامج عظيم معقد صعب المسالك كبرنـامج الانفتاح والتحـول في أسبانيـا دون أن تكـون له آراء فيـه واقتناع بمحتـواه . ونحن نعلم أن الملك الذي تعرف على السيد سـووارث سنة 1969 لما كان حاكما على سيغوفيا قد حافظ على صلته به وقبل موت فرانكو بسنتين طلب منه أن يحرر له تقريرا عما يجب عليه فعله لما يجلس على العرش . فأعد سووارث ذلك التقرير في ما يقل عن أربع صفحات وهـذا في نظرنـا دليل على أنه كان لسـووارث برنـامج متماش في أسسه وأهـدافه مـع برنـامج ورغبـة الملك وهـو مادفع بهذا الأخير إلى اختيـاره لتلك المهمـة الصعبة علاوة على أوصاف وخصال أخرى ارتآها فيه وأكدتها الأيام والتجربة .

كان لسووارث آراء وبرامج إذن وها هـــــو نفســـه يتحدث عنها فيقـــــول " لما استلمت السلطة عام 1976 وترأست الحكومـة الأسبانية كان الهدف بالنسبة لي واضحـا تماما وهـو وجوب إقـامة ديمقـراطية عن طـريق إرجاع السيـادة إلى الشعب الأسباني لأنـه هو صـاحبها الشرعي . . . لم يكن النظـام السابق في نظـرى قادرا على الاستمـرار إلى ما بعـد حياة الـذى اقامـه وجسمـه . . . ثم إن الهياكل التي وضعهـا العقائديون لهذا النظام قد رسموا أسلوبا تمثيليا جماعيا يفرض إدماج منظمات الأعراف والنقابـة الوحيـدة في محور السلطة الإداريـة العمودي . أمـا التمثيل السيـاسي فكان مقاما على أسس عضوية ويتم بطريق ضيقة من الانتخابات غير المباشرة . ومن جهة أخرى كان بين الهياكل السياسية وحياة المجتمع الأسباني الواقعية تباعد عميق أسماه " أورتيغا " الفرق بين أسبانيا الرسمية وأسبانيا الواقعية . . . وخلال السنوات الأخيرة تباعدت الهياكل السياسية بدرجة خطرة عن مجتمع يزداد كل يوم تمدنا وواقعية . ولذا جـاءت ضرورة التغيير ثمرة للمجتمع الأسبـاني الجديد . . . من كل هـذا برز سـؤال جعل الوضع ينقسم على نفسه . فهل يمكن إذا ما تمت مبايعة خوان كارلوس الأول ، أن تعيش ، في بلد عصري ، ملكية سلطوية محشورة في القرارات السياسية وغير قادرة على تصريف وتـوجيـه تمثيل حقيقي ؟ هنا بـدأ الانقسـام بين منـاصري الاستمراريـة وبيننا نحـن المنادين بملكيـة مستندة على ديمقـراطية عصريـة تتوج بنـاء دولة قـانون

حقيقية . ولذا كان واضحا ، في نظري أن الملك لا يمكن أن يكون ملكا على أولئك الذين يعتبرون أنفسهم جانبا من القطاع المنتصر في الحرب الأهلية أو ممثلين له . . لأن الملك ، وهكذا صرح بنفسه ، لابد وأن يكون ملك كل الأسبان ولذا فان التاج سيصبح أداة مصالحة ومكان لقاء بين الأسبانيتين . . إن الملك ، وأنا أيضا ، قد أقتسمنا احترام القوانين الأساسية كفرض تمليه الضرورة والملاءمة لأنه ، وللمرة الأولى في تاريخنا ، كان لزاما تحمل كل الواقع الأسباني بما فيه الماضي القريب وكان لزاما علينا السير نحو المستقبل دون اصطدام ولارجة ولاشغور في السلطة . . . وأمام الخيار الثنائي " استمرارية أم قطيعة " اخترت طريق الإصلاح العميق المخلص " انطلاقا من الشرعية " وأمام الخيار بين " المحافظة أو الثورة " ملت إلى برنامج تغييرات اقتصادية واجتماعية تساعد على تحقيق ظروف عدل تسمح بغرس الديمقراطية وبناء دولة القانون ، وأمام إقرار " المركزية أو الفيديرالية " سن طريق جديد هو دولة الحكومات المحلية . . . وأخيرا أمام الحيرة بين " اليسار واليمين " شعرت بأن أسبانيا التوازن والاعتدال ، أسبانيا الوسط هي التي يجب أن تتحمل دور ومسؤولية التحول السياسي . إن الطريق الذي تم اختياره يمر عبر احترام دقيق للشرعية القائمة . فهو إصلاح منطلق من الشرعية لتغيير الشرعية نفسها وليس انقلابا على حساب الشرعية . لقد أعددت قبل مدة رسما للخطوات التي يجدر اتخاذها ولذا لم تكن هناك حاجة للارتجال بل الأمر مقصور على تطبيق استراتيجية معدة ومحسوبة بكل دقة . . . يجب لكل هذا أن تكون هناك الشجاعة لعدم البحث عن " مذنبي الماضي " . . وعدم طرح تاريخ أسبانيا كفجعة بين " طيبين " و " أشقياء " لأن المهم ليس تحريك رماد الماضي بل وضع أسس المستقبل حتى يخرج بناة القفزة إلى الأمام دون قيود ولا ضمان .

هذا هو برنامج الرئيس سووارث أو بالأحرى هذه هي الأسس التي قام عليها برنامج سووارث لما اختاره الملك لرئاسة حكومة التحول ، حكومة الانتقال ، حكومة الأمل . هذا هو البرنامج الذي ما أن شكل حكومته وفاز بالتزكية حتى أنكب يطبقه بكل دقة وفي سرعة بدت في بعض الأحيان غير عادية ، لأن أسبانيا كانت في سباق مع الزمن والحكومة في سباق مع الأحداث التي ضغطت من كل جانب والجميع يعيشون تحديا ورهانا لابد من ربحهما . كان الكثيرون في الداخل والخارج يرون أنه يستحيل على أسبانيا القيام بما تنوي القيام به وبتلك الطريقة أي من الشرعية إلى

الشرعيـة لأنـه لم يعرف مـن قبل أن نظامـا دكتـاتـوريـا اختـار في حريـة التحـول إلى ديمقـراطية حقيقيـة . لكن كما قال السيـد سـووارث " انعدام السـابقة ليس سـوى مسلمات تاريخية ولذا هي ليست حجة تؤكد مفهوما فلسفيا . والحقيقة هي أننا خلقنا البادرة . . " .

كيف كانت هذه البادرة ومن حققها ؟ سبق وأن قلنـا أن عناصرها ثلاثة هي الملك والرئيس سووارث والشعب . ورأينـا كيف أن الملك الذي تمثلت فيه الوحـدة الوطنية وضمن بالتـاج الاستقرار وعدم الشقاق بخصـوص رئاسة الدولـة سن الطريق وخط المعالم وها هو رئيس الحكومة يضع البرامج وينفذها بحزم ووضوح وثبات .

الانطلاقة : انطلق سووارث على طريقه الشائك دون تردد باحثا أولا عن تغيير رأي الآخـرين بشأنه ثم احـراز الثقة فيـه وفي نوايـاه وأخيرا التعاون معـه لتحقيق ما ينـوي تحقيقه . وهكـذا وبعد تعيينـه بتسعة أيـام فقط فتح سلسلة طـويلة مـن الاتصالات والمشاورات بـدأها بمقابلة مع زعيمـي اليمين المتحرر هما السيدان خوزي مـاريا خل روبلس وخل دلغـادو . كان ذلك يـوم 11 يوليـو « تموز » وفي اليوم الموالي طـار إلى باريـس حيث تقابل وتحادث مع الـوزير الأول الفـرنسي ورئيس الجمهورية فـأحدث بهذه المقابلة ثغرة كبيرة في سور الجفوة وعدم الثقة الذي ضرب من حوله . كانت رحلة خاطفـة لكنها مفيدة خـاصة وأنه خرج منهـا بتغيير رأى الفرنسيين فيه وإعجـابهم به وبانفتـاح سياستـه تجاه أوربا . قبل أن ينتهي شهـر يوليـو « تموز » قررت حكـومته إصدار العفو عن مجموعة الأساتذة الجامعيين الذين فصلتهم سلطات النظام السابق عن العمل نتيجة نشاطهم المعارض لسياستها والذين من بينهم الأستاذ أنريكي تيارنو غالبـان زعيم الحزب الاشتراكي الشعبي فعادوا إلى عملهم وإلى نشـاطهم السياسي . بعد ذلك بأقل من أسبوعين أقدم السيـد سووارث على تغيير عشرين حاكما مدنيا من حكام الولايات كخطوة أولى نحو تغيير واجهة البلاد الإدارية والسياسية وأردف ذلك بخطوة أخرى تجاه المعارضة فتقابل سرا في بيت أحد الأصدقاء بالسيد فيلبي غونثالث زعيم الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني المحجـور آنـذاك . وتـواصل العمل في هـذا الاتجاه فتقابل بعد يومين فقط مع السيد جوردي بوجول زعيم اقليم قاطالونيا اليميني النزعة ومعه السيـد باياتش الزعيـم الاشتراكي بالاقليم بينما تقـابل وزيره للعـلاقات

النقابية السيد أنريكي دي لاماتا مع قادة النقابات الاشتراكية المحجورة أيضا .

لم تكن هذه الاتصالات والمحادثات إلا نموذجا أعطيناه عما كان عملا يوميا للسيد سوورارث إذ أنه طيلة مايقرب من السنتين وإلى أن تم الاعتراف بالحزب الشيوعي وأجريت الانتخابات العامة الأولى تحت ظل النظام الجديد ، لم ينقطع عن الاتصال جهرة وخفية حسب الظروف والمعطيات بمعظم أو بكل كبار قادة الأحزاب والحركات السياسية باحثا عن حل أو شارحا برنامجا أو مفاوضا حول نقطة أو مشكلة لأنه ، والملك من ورائه ، كانا كما قال هو نفسه " نحن نعرف أهدافنا ونحن شاعرون بما تعهدنا به . نحن نعرف صعوبة الحكم خلال مرحلة انتقال لما يكون التشريع راسيا بميناء الانطلاق ونحن علينا أن نصل إلى ميناء المصير حيث الديمقراطية الكاملة . . . . ولذلك وجب تغيير هياكلنا السياسية بغية جعلها مطابقة لواقع اسبانيا والى التعددية الموجودة بقاعدتها الاجتماعية " .

فرض الاعتراف بتلك التعددية داخل المجتمع الأسباني الاتصال بالمعارضة اليمينية واليسارية ولكنه فرض أيضا ، وقد تقرر الإصلاح والتغيير ، توضيح ذلك وشرحه لقادة القوات المسلحة . ولذا استدعى السيد أدولفو سوورارث يوم الثامن من سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ 1976 إلى قصر الحكومة كل الفرقاء بالجيش وقادة مختلف الأسلحة والحكام العسكريين رؤساء المناطق العسكرية ورئيس المجلس الأعلى للعدالة العسكرية ورئيس الأركان العامة والمدير العام للحرس المدني ورئيس الاركان المركزية وشرح لهم الأوضاع كما يراها وما تتطلبه من تغييرات فكان " واضحا ، مقنعا ، لبقا ، ماهرا " باعتراف أولئك القادة البارزين . استطاع السيد سوورارث أن يقنع مستمعيه وكان لابد له وأن يفعل ذلك حتى يضمن النجاح . ولكن رغم مجهوده ووضوح كلامه ورغم اقتناع واستعداد القادة العسكريين ظهرت بعد مدة نقطة خلاف يبدو أنها لم توضح بالألفاظ اللازمة أو أنه وقع بشأنها سوء تفاهم . لقد قبل القادة العسكريون ربما عن مضض ، تكاليف التحول الباهظة وضرورة التعددية المتفتحة وإدماج المعارضة ضمن تعايش شرعي وتحت نور الشمس ولكن أن يصل ذلك إلى الاعتراف بالحزب الشيوعي وادماج الشيوعيين فلا .

لاشك أن السيد سوورارث قد فهم ذلك من محادثيه ولاشك أنه دوّن ذلك ليضعه

في ميزان التقديرات عند الحاجة لكن لاشك أيضا أنه لم يعد بأنه لن يفعل ذلك أي أنه لن يعترف بالحزب الشيـوعي لأن ذلك يتنافى وروح خطـابه ويتعارض ومفهـوم براجمه لأنه كما قـال السيد سـووارث نفسه " كان جليـا بأن المسيرة الديمقـراطية لن تحترم في الداخل ولا في الخارج إذا استثني منهـا الحزب الشيوعي ثم إن ذلك في حـد ذاته غير مقبول " .

مهما يكن من أمـر فإن الانفتاح إلى مـاوراء حدود معينـة قد لحقه بعـض الالتباس خلال الحوار الذي دار بين رئيس الحكومة والقادة العسكريين الذين اتهموا ، أو اتهم البعض منهـم ، رئيس الحكومة بعـدم الايفاء بوعده . فالذي حـدث بعد ذلك اللقاء بمدة قصيرة ، بعـد أسبوعين على وجـه التحديد هـو استقالـة نائب رئيس الحكـومة لشؤون الدفاع الفريق أول سان تياغو أيديياث دي مانديفل مما أحدث هزة كبيرة وسط الرأي العام وأثار الاشاعات حول وجود خلافات في صفوف الجيش وهذا لعمري من الأمور القوية التأثير في مثل مرحلة الانتقـال تلك ، التي كانت تعيشها أسبانيا . غير أن التعقل من الجانبين جعل الأمـر يقف عند ذاك الحد ، حـد استقـالة ضـابط أبت عليـه مفاهيمـه وأبى عليـه ضميره المضي قدمـا داخل حكـومـة مقبلة على خطـوات يعارضهـا ولايؤمن بجدواها ، وحـد تعويضه بغيره هـو الفريق أول مانوال غـوتيارث مايـادو المتمتع باحترام كبير من طرف الملك ورئيـس الحكومة والمعـروف بأنه رجل ذو آراء تحررية وأفكـار جديـدة بخصوص اعـادة تنظيم وتعصير القوات المسلحـة وهذا فعلا ما كرس له جهده طيلة بقائه على رأس الوزارة .

كان الحدث في مثل تلك الظروف ذا بال ولكن الأمانـة تفرض علينا القول بأنه على الـرغم من الأخطـاء التي لا تسلم منهـا مسيرة بشريـة أو عمل إنسـاني فـان القـوات المسلحة قد حـافظت إذاك وبعد ذلك على درجة عاليـة من الانضباط وبقيت ، ولو مقابل جهد كبير ، على هامش المعتقدات والميولات السياسية ووقفت مع الدولة ومع الإرادة الشعبية ومع العـرش ، فكانت ، بالرغم من الأقـاويل والانتقادات وبعض الشواذ التي تثبت القاعدة كما يقال ، جديرة بالتقدير والاحترام .

استمر التقـدم في طريق الانفتـاح والتحوّل إلى الديمقـراطية وسط جـوّ مكهرب لم يخل من هـزات وصـدمات كـانت من أخطـرهـا العمليـات الإجراميـة التي قـام بها

المتطرفون الارهابيـون مثل منظمة " ايتا " الباسكية أو منظمة " غـرابو " أي مجموعة أول أكتوبر الثورية المضادة للفاشستية وبعض المتطرفين من أقصى اليمين . ففي يوم 4 أكتـوبر ﴿ تشرين أول ﴾ أغتيل رئيس مجلـس ولاية غيبـوثكووا ومعـه أفـراد حرسـه الخاص فكان حدثا استاءت له كل القوى الحية في البلاد خاصة أنه تصادف مع قدوم أحـد زعماء حـزب العمال البريطـاني الـذي اعتبرت زيـارتـه تأييـدا من حـزب العمال لسووارث وسيـاسته ولعلها عبرت كذلك عن تأييـد كل القوى الديمقراطيـة في أوربا لتجربة سووارث وهي قوى قاطعت نظام فرانكو وناوأته إلى آخر لحظة .

إن الخطوة الكبيرة الحاسمة التي سيخطـوها الرئيس سووارث هي دون شـك قانون الإصلاح السياسي الـذي تقدم به إلى مجلس النواب ﴿ لاس كـورتس ﴾ الذي لم يزل إذاك بأعضائه المنتخبين والمعينين مـن طرف فرانكـو . كان القـانون الإطـار السياسي الذي اقترحه رئيس الحكومة لتجري عملية الانتقال داخله فيتم التحوّل بطريقة شرعية قانـونية أي من الشرعيـة إلى الشرعية . فهـو يعتقد كما جـاء في خطابـه الذي قـدم به المشروع " أن الديمقراطية لابد وأن تكـون من عمل جميع المواطنين ولاتكون أبدا هدية وتنازلا أو فرضـا أيا كان مصدره . ولذا فنحـن معتقدون ﴿ هو والملك ومن معهما من قوى تحريـة ﴾ بأن تحقيقها يستـوجب تآزر كل القـوى المكونة للهيكل الـوطني " . وكان القانون اللبنة الاساسيـة التي حسب مخططه ، سيبني عليها الشعب مستقبلـه " لأن المستقبل ليس مكتـوبا ولا أحـد غير الشعب يستطيع كتـابته " . ولـذا أعطى الكلمة للشعب بشأن القـانون فعـرضه على المجلس الـوطني وعلى البرلمان الذي رغم نوعية وميولات أعضائه أجاز القانون بأغلبيـة ساحقة أي بموافقة 425 نائبا ضد 59 وامتناع 13 نائبا . ويقول السيد خواكين براديفو" ان قانون الإصلاح السياسى الذى تمثل فيه التغيير الأساسي للنظام كان عمليا " وفي مجموعه من صنع الاستاذ توركوواتو فرناندث ميراندا لأن النصوص الإصلاحية الشرعية التي كانت بيد السيد سووارث آتية من لدن اللجنـة المشتركة بين الحكـومة والمجلس الوطني وكـانت غامضـة معقدة وفي النهاية غير صالحة للاستعمال . وكما هو طبيعي كان الأستـاذ فرناندث ميراندا يعرفها لأنه شارك فيها في ظروف صعبة متعـرضا إلى تعثرات مستمرةوعراقيل فى كل خطوة . ولذا ، تجاهلها وانكـب يعمل في قانون الإصلاح الذي حصر كـل شيء فيه في نقطة واحدة هي الانتقال من الديمقراطية العضويـة إلى الديمقراطية اللاعضوية . وهكذا

اقتصد اللف والـدوران حول عشرين موضـوعا ، وركـز على نقطة ثبت فيها الـرافعة الشرعية ، وإذ بـالعالم السياسي الأسباني ينقلب في هيبـة وثبات والحكومة الأسبـانية تجني ثمرة النجاح إذ لم يذكر أحد مصـدر القانون . وفي آخر جلسة وافق فيها البرلمان على القانون هتف النـواب وقوفا إلى حيث يجلس أعضاء الحكومة . أمـا سووارث فقد وجـه نظـره إلى رئاسـة المجلـس وخص بتصفيقـه الأستـاذ تـوركـوواتــو فـرنـانـدث ميـــــرانــــدا (64).

لكن لاشك وأن السيد سووارث كان يـؤمن في قرارة نفسه أن ذلك البرلمان المشكل في ظـروف أخرى لم يكن يمثل الشعب حقيقـة التمثيل فعـرض القانـون على الشعب مباشرة ليدلي برأيه فيه عن طريق استفتاء شعبي عام أجرى يـوم 15 ديسمـــبــــــر ﴿ كانون أول ﴾ أي بعد ثلاثة أشهر فقط من تسلمه رئاسة الحكومة . كانت المعارضة إذاك كثيرة النشاط والحركة وقد توصلت بعد مجهـودات جبارة إلى توحيد عملها داخل لجنة مشتركـة تعمل باسم الجميع سميت لجنة التنسيق الـديمقراطية المكـونة من أهم الأحزاب والتي مهمتهـا التفاوض مع الحكـومة . كـان هذا التشـاور المستمر بين كل الكتل المعارضة والمحجورة آنذاك وهذا التنسيق في عملها ومواقفها خطوة ما من شك جبارة سـاعدت على اختصار الـوقت والإسراع في الإنجاز وإدخال الثقـة والطمأنينة على نفـوس مختلف الاتجاهات حتى أن السيـد سان تيـاغو كـاريو أمين عـام الحزب الشيوعي اعتبر ذلك معجـزة إذ قال " إن كانت قـد حدثت في أسبانيـا معجزة فتلك معجزة المعارضة . فأي بلد من بلدان العـالم يمكن فيه تحقيق اتفاق كالذي تحقق يوم السبت 27 نـوفمبر ﴿ تشرين ثـان ﴾ والـذي تم بسهـولـة بين معــارضـة متعـددة الاتجاهـات تبدأ بـالماووين وتنتهي بـاليمين الديمقـراطي المسيحـي والليبيرالي والرابطة القطلانية والحزب الشعبي؟ "(65).

كـانت المعارضـة غير واثقـة في سـووارث وكما هو طبيعي كـانت تفضل وتطـالب بإعطاء الحريات الكاملة أولا ثم اجراء الانتخابات العامة قبل إصدار قانون الإصلاح السيـاسي الـذي كانت تبغـي الإسهام في إعـداده ولـذا وقفت من هـذا الأخير ومن الاستفتاء حولـه موقف الحذر . ولكن الرئيس سووارث أتم ما قـرره وأجرى الاستفتاء ففاز قـانونـه بالموافقـة الشعبية . إذاك شعـر " سووارث " بجـانبه قد تقـوى وانطلق

يطوي المراحل لأنـه اعتبر أنه بقـانون الإصلاح السيـاسي قد وضع الحجـر الأساسي لمبنى الدولـة الديمقـراطية ودولة القـانون لكن " كان يجب ، كما قـال هو نفسـه بعد سنوات ، بنـاء هذه الـدولة رسميـا ويجب أن نشيد ذاك البنـاء في ما بيننـا جميعا نحن الأسبان . فكان ضروريا إذن خروج المعـارضة من الظلام ، من السرية أو العودة من المهجر . فبعد شهر من تسلمي رئاسة الحكـومة وبعد أسبوعين من تشكيل أول وزارة أصدر المرسوم الملكي 10/ 76 بتاريخ 30 يـوليو ﴿ تموز ﴾ يمنح العفو الذي اكتمل بمرسوم آخر سنة 1977 يمنح العفو العام وبقانون العفو 46/ 77 المؤرخ فـــي 15 أكتوبـــر ﴿ تشرين أول ﴾ لم يعـد أحد في نظـري وفي نظر الحكـومة ، ليبقى خـارج المسيرة السياسية التي على جميع الاسبان القيام بدور فيها .

منذ اللحظة الأولى أجهدت نفسي في الحوار مع مجموعات المعارضة وزعمائهامتفهما وجهات نظرهم . لقد كنا عازمين على اقامة ديمقراطية ذات شكل غربي ودولة قانون ديمقـراطية وهـذا يعني حكم الأغلبية مع احترام الأقليـة و إمكانيـة تداول الأحـزاب السياسية على الحكم . حـول هذه الـرغبة اتفقت وجهـات نظر الحكـومة والمعـارضة وجـاء نتيجـة لهذا الحوار ، المرسوم الملكي الصـادر في 6 سبتمبر ﴿ أيلـول ﴾ 1976 الذي ينظم سجل الجمعيـات السياسية وأهم منه المرسوم الملكـى المؤرخ في 8 فبرايـر ﴿ شباط ﴾ 1977 الذي تخلت به الحكومـة عن السلطات الاختيارية التي كانت لها بحكم القانون فجعلت من مشمـولات نظر القضاء شرعية الأحزاب وعـدمها معطية المحكمة العليا الكلمة لأخيرة في حالة الشك فى شرعيـة أية جمعية سياسية . هذا الجو الـذي خلق انطـلاقـا مـن الشرعيـة وعبر حـوار تميـز بـالصبر ، جعل بالإمكان الاعتراف قانـونيا يـوم 17 فبراير ﴿ شبـاط ﴾ 1977 بمعظم الأحـزاب السياسية وسمح للمجموعة التي حصلـت على الشرعية التاريخية للحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني وحصلت على تأييـد واعتراف العالميـة الاشتراكية ، بـاحتلال المكان العائد إليها بحكم أحقيتها فيه وبحكم الضرورة التاريخية .

إن مفتـاح مصـداقية مسيرتنـا الـديمقـراطيـة كان بـدون شك الاعتراف بـالحزب الشيوعي . لقـد تم ذلك بأمـر صادر يـوم 7 أبـريل ﴿ نيسان ﴾ 1977 وأمـام نهي المحكمـة العليـا تحملت وحـدي مسـؤوليـة تلك الخطـورة . كـان جليـا أن المسيرة الديمقراطيـة لن تلقى احتراما ، لا داخليا ولاخارجيـا ، إذا استثني الحزب الشيوعي علاوة على أن هذا في حد ذاته غير مقبول .

كثمرة للحوار السياسي جاءت أيضا أسس النظام الانتخابي التي تجسمت في المرسوم الملكي الصادر في 18 مارس ﴿ آذار ﴾ حول إجراءات انتخابية لم تزل سارية المفعول . كان قانون الإصلاح السياسي قبل ذلك قد ضم طريقة انتخاب هي الطريقة النسبية وذلك ضد الميولات اليمينية التي كانت تفضل طريقة الانتخابات الأغلبية . إن الاختيار ، وأريد تأكيد ذلك ، كان حاسما لأن الانتخابات التي كانت ستحدد التشكيلة البرلمانية التي عليها إعداد الدستور ، كان لابد وأن تعطي صورة أقرب ما يمكن من الميولات السياسية الحقيقية بالبلاد . . .

قبل إجراء الانتخابات العامة التي دعا إليها المرسوم الملكي الصادر في 15 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1977 ، أعيدت للاسبان حقوق وحريات أساسية كانت غير مقننة بالشمول اللازم ومنها حق التجمع النقابي وحرية التعبير الخ . . . . وكان يجرى في نفس الوقت تفكيك هياكل النظام القديم باحترام كامل للحقوق المكتسبة من طرف الاشخاص الذين قدموا خدماتهم فيها والذين تحوّلوا إلى موظفين داخل جهاز الدولة وأصبحت ممتلكات الأجهزة السابقة ملكا للدولة .

ولما استطاع الأسبان يوم 15 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1977 ، وبعد أربعين سنة التعبير بحرية عن اختياراتهم السياسية أسهمت بكل قواها في خلق عرض سياسي وسط كان يهدف إلى جمع حاجيات المجتمع الأسباني العصري ويهدف للوصول بكل ثمن إلى تجنب الانقسام الانتحاري للأسبانيتين . لقد اقتنعت آنذاك ولايزال هذا رأيي ، بأنه انطلاقا من الاعتدال والتسامح فقط كان يمكن تعصير هياكلنا والتمتع بحرياتنا وبالعدالة التي تقضي على الامتيازات العديمة الأسس وبالسلم المدنية للجميع وبين الجميع . يوم 26 يوليو ﴿ تموز ﴾ 1977 ابتدأت أول دورة تشريعية للبرلمان ﴿ لاس كورتس ﴾ الديمقراطي . كان من واجب هذا البرلمان إعداد دستور يخدم ويظل كل الأسبان دون أي تمييز . وأعد هذا الدستور ثم عرض على الشعب في استفتاء عام يوم 6 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ ونشر بالجريدة الرسمية للدولة يوم 29 من نفس الشهر . إن دستورنا لايمكن أن يحسب ملكا خاصا لأية مجموعة سياسية لأن إعداده تم بتعاون كل القوى السياسية التي لها تمثيل بالبرلمان وفي هذا الدستور مبادىء وطرق تنظيم دولة اجتماعية وديمقراطية وقانون . . . قد يكون في هذا الدستور بعض العيوب ، لكن تاريخنا مليىء بالدساتير التي هي أقرب إلى الكمال

من النـاحية العلميـة ولكن لم يصل بعضهـا ولاحتى إلى التطبيق الفعلي . إن تاريخنـا الدستوري كـان كله هزات وعواصف ولذا فـالاساسي بالنسبة لنـا كان ولايزال تحقيق مماشاة العقـائديات للفرصة السياسيـة داخل النظام لا على حسابه . ولهذا كنـا نريد وكنا في حـاجة إلى دستور يسمح بـالحكم شمالا أو يمينا على حد سـوى دستور يضم مفهـوم الاعتـدال الـذي كـان في الـواقع العـامـل الـذي جعلـه يقبل من طـرف كل المجموعات السياسية .

بإعلان الدستور تم الايفاء بكل التعهدات الأساسية التي التزمت بها تجاه شعبي . كنت وعدت نقله بالطرق الشرعية من الأوتـوقراطية إلى الديمقراطية فحققت ذلك . وكنت وعدت الوصول إلى اتفاق اجتماعي يثبت الخطوط الأساسية لاقتصادنا فتم يوم 27 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1977 توقيع ما سمي " اتفـاقات مونكلووا" من طرف كل الأحـزاب ذات التمثيل البرلماني بـاستثنـاء حـزب التحـالف الشعبي . وعـدت بادخال تحوير على النظام الجبائي حتى يجعل ممن له أكثر دخلا يسهم بقسط أكبر في المصروفات الوطنيـة فأنجزت ذلك . وعدت بأن أجد سبيـلا يسمح عن طريق اتفاق الجميع ، بحل المشكل الأبدي ، مشكل تعـددية الأسبانيـة ويؤدي إلى دولة مـوحدة متناسقة فجـاء ذلك الدستور الذي احتـوى على طريقة تأسيس تلك الـدولة ، دولة الحكـومات الاقليميـة . ووعدت بـأن يكون الـدستور الـذي سينظم حيـاة أسبانيـا العصريـة من صنع الجميع ويصلح للجميع فهـا هو الـدستور هنـا فـاتحا طريقـا لا يمكن السير فيه إلا جماعـا وعن طريق الحوار . لقد أمكن بلوغ الهدف الـرسمي وهو إقامة دولة اجتماعية ديمقراطية ودولة قانون " .

نعم لقد حقق سووارث وحكومته كل هذه الآمال والبرامج ، وكما قلنا سلفا كانت أهم هـذه الخطوات ذلك القـانون الإصـلاحي الـذي لو فشـل الرئيس سـووارث في الحصول على موافقة " لاس كورتس" عليه وهي التـي كانت ولاتزال فرنكية التكوين والعقلية لخسـر مصداقيته ولخسر هو والملك كل ثقة بها يعدان ، لأن أيـة انتخابات مثلا ، تجري دون إصـلاح القانـون الذي كـان ساريـا ، اعتبرت مهزلـة ولقاطعتهـا المعارضـة وأغلبية الشعب وكما يقول روبـرت غراهـام " ان ذلك الإصلاح والاعتراف بالحزب الشيوعي هما عمل أتاه سووارث ويعود كل فضلهما له وحده " .

لكل حوار طرفان : حقق فعلا الرئيس سـووارث كل ما وعد به عنـد تعيينه وأنجز ذلك في وقت اعتبر قياسيـا نظرا لضخامة الانجـاز وتشابك المعطيات وقـدم المشاكل وتعقدها . لكنه ركز عملـه على الحوار ووجد في الحقيقة محاورين أكفاء ، معتدلين ، مستعدين للتعاون ولعظيم التنازلات في سبيل تحقيـق رغبة الجميع وهي إرساء تعايش كان مفقودا ولابد أن يكون داخل نظام ديمقـراطي صرف . لقد أظهر زعماء المعارضة وكبار الساسة من الحنكة والتعقل والاتـزان وأبدوا من حسن الاستعداد لتقديم أعظم التضحيات على شرط إقامة الدولة المأمولة ، دولة القانون والعدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين . دولة ديمقراطية حديثة تمسح ما علق بالوطن من ضغائن الماضي ومن أحقاد التطـاحن الطبقي ومن حساسيـات التباين العقائدي . لقـد قبل اليميني بأن يتعاون ويتآزر مع اليسـاري وقبل اليساري والجمهـوري بأن يتعاون ويتآزر مع الملكي ورضي بالنظام الملكي نفسه الذي وعد من جهتـه وعلى لسان الملك بأنه سيكون نظاما ملكيا دستوريا .

نعم لقد أنجـز السيد سـووارث ما وعـد ولكن قد سـاعده على ذلك وجـود قوات مسلحة منضبطة مهما غضبت أو استاءت وممتثلة لأوامر رئيسها الأعلى ملك البلاد .

نعم ، أتم السيـد سووارث مـا خطط له وبـرمج لأنه وجـد شعبا صبـورا ، ممتثلا مقدرا للصعوبـات والعراقيل فوضع وعيه وقـدراته في خدمة ما يتطلبـه الصالح العام داخل الهيـاكل الموجودة من إدارة ومنظمات وأحـزاب ونقابـات ، مشروعة كـانت أو محجرة .

لا يعني هذا أن الطـريق فرش حـريرا سنـدسا . إن كان كـذلك لما كان مـا أنجز عمـلا بشريا . لقـد عرفت الفترة الأولى من التحـول هزات وأزمـات كثيرة وخطيرة في بعض الأحيان . فمن إضرابـات عمالية بلغت أحيانـا حد تجميد الحركـة في البلاد إلى عمليات إرهابيـة من هذا الاتجاه أو ذاك مثل اغتيال أربعـة محامين عماليين ونقابي يوم 24 يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1977 ، إلى احتجاز شخصيات سياسية أو اقتصادية بارزة إلى غير ذلك من الأعمال التي كـان يرمي أصحـابها إلى اثارة القـوات المسلحة وقـوات الأمن أو اجبار الحكومـة على التراجع عما قررته أو التباطـؤ في انجازه فتبعث اليأس في نفوس المعارضين والشعب فيقـدمون على ما يستوجب الضرب والـردع وبذلك تختلط

الأوراق . لكن لم يقع أحد في حبـال المتطرفين . فالحكـومة مضت قدما في انجـاز ما وعدت والمعارضـة حافظت في كل حين على تعقلها واعتدالها وقـوات الأمن والقوات المسلحـة حـافظت على انضبـاطهـا وامتثالها والشعب في مجملـه حـافظ على اتـزانـه ورصانته وابتعد عن التطرف والانتقام أو الأخذ بالثأر فكبت المشاعر وأخمد الدوافع ولم يطلق العنـان إلا لما يساعد على التصـالح والتعايـش والتفاهـم وبنـاء الصرح الجديد بكل ما يتطلب ذلك من مجهودات أو تضحيات أو تنازلات .

كان سووارث في عمله محاورا أو مفاوضا يتعامل مع الشعب لكن عن طريق ممثليه أو بـالأحرى ممثلي مختلف اتجاهـاته السيـاسية وهـذا يعني أن حوار سـووارث انحصر خـاصة في زعماء الكتل السيـاسية . رأينـا سلفا أن الشـارع السياسي الأسبـاني غص بالجمعيات السيـاسية خاصة بعد ظهـور القانون الخاص بهذا الفرع من الحيـاة العامة الذي أصدرتـه حكومة آرياس نافـارو . كثرت الجمعيات السياسيـة والأحزاب وكان بعضها كما قلنا ، مـرتكزا على شخصية المؤسس دائرا في فلكها أو جاء تـلاحما واتفاقا بين مجموعة صغيرة من الشخصيات السياسية وهذا هو ما أكثر من عدد الأحزاب أولا ثم دفع بالكثيرين منها إلى التجمع داخل اتحاد يبـدو في شكل حزب كبير . كان هذا طبعا يزيد من صعوبة دور الرئيس سووارث ولو أن الصورة تبلورت بعد صدور قانونه الإصلاحي فعرفت أهم التنظيمات وبرز الـزعماء الذين وجب التفاوض معهم والذين لا مناص من اعطائهم الدور اللائق نظرا لمكانتهم الشخصية أو لأهمية أحزابهم وبعد جذورها داخل الجماهير الشعبية . وأهم هـذه الشخصيات الأساتذة خواكين رويث خيمانث زعيم اليســار الديمقــراطي ﴿ ديمقراطي مسيحي انحل بعد فشله في الانتخــابــات الأولى ﴾ وأنــريكي تيــارنــوغــالبــان ، رئيس الحزب الاشتراكي الشعبــي ﴿ انضم إلى الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني على إثر الانتخابات ﴾ خوزي ماريـا خل روبلس ابن الزعيم الحامل لنفس الاسم والذي بـرز في الثلاثينات بحزبه " الثيدا " . السيد خل روبلس كان يتزعم الفيديرالية الشعبية الديمقــراطية ﴿ ديمقراطية مسيحيـة ﴾ وفي نفس الاتجاه أسس الأستاذ فرنانـدو ألفارث دي ميراندا اليسار الـديمقراطي المسيحي هذا إلى جـانب أربعة أحزاب ليبراليـة أهمها فيديـرالية الأحـــزاب الـديمقراطيـة الليبرالية بزعـامة خـواكين غاريكس وولكـر . بقي ذكر الحزب الاجتماعي الـديمقراطي بـرئاسة السيـد فـرنانـدث أوردونياث واتحاد شعـوب

أسبانيا برئاسة السيد أدلفو سووارث نفسه . إلى جانب هذه التجمعات برزت الرابطة الشعبية التي كانت أشبه شيء بفيديرالية تجمعات صغيرات على رأس كل منها شخصية مرموقة من عالم السياسية ولم يكن لهذه الرابطة أو التحالف أية جذور أو تاريخ سوى أرتباطها أو انطلاقها من شركة الدراسات السياسية التي أسسها الأستاذ فراغا ايريبارني ولذا كان هذا الحزب من أول نشأته يتميّز ويعرف قبل وبعد كل شيء بشخصية زعيمه .

لم تكن هذه كل الشخصيات التي على السيد سووارث مواجهتها والتحاور معها ولو كان كذلك لأصبح الأمر هينا ميسورا . لكن كانت هناك شخصيات أخرى تتزعم أحزابا اقليمية وحركات جهوية مقامة أساسا على تشبث تلك الأقاليم بشخصياتها ومميزاتها وحرصها على الحصول والتمتع باستقلال لتدبير شؤون أرضها وشعبها . وأبرز هذه الاقاليم وأكثرها نشاطا تاريخيا وحاضرا إقليما قاطالونيا وبلاد الباسك وأقل منها تطرفا وحركة إقليما بلنسية واقليم جليقية . كان طبيعيا إذن أن يواجه السيد سووارث هذه المشاكل وأن يشرح ما احتواه برنامجه بخصوص هذه الأقاليم وغيرها ، لشخصيات متزعمة حركات تلك الأقاليم زعامة تاريخية تعود إلى عهد الجمهورية والحر ب الأهلية كالسيد جوزيب تاراديانس بالنسبة لقاطالونيا أو هي زعامة حديثة شابة تمثلت في نفس الإقليم مثلا في عدد من الشبان كان في مقدمتهم السيد جوردي بوجول . ولذا كثيرا ما تمثلت صعوبة الموقف بالنسبة للسيد سووارث في المواضيع السياسية الصرفة وما يترتب عنها بل أيضا في معرفة وأختيار الشخصية الممثلة حقا لهذا التيار أو ذاك أو هذه الكتلة أو تلك داخل الاتجاه الواحد وتحت نفس اللافتة . فكثيرا كانوا يعملون باسم الديمقراطية المسيحية مثلا وكثيرون أيضا باسم الاشتراكية أو الليبيرالية أو غيرها من الاتجاهات وكان جميعهم يدعى تمثيل الاتجاه المنتسب إليه وتمثيل الأغلبية في ذلك الاتجاه . ولذا لم تكن مهمة السيد سووارث سهلة ولكنه عرف كيف يختار وينتقي معتمدا على التاريخ من جهة وعلى الواقع من جهة أخرى وباحثا على من يفهم برنامجه ووضعه من جهة ثالثة فأتت كل أتصالاته أكلها خاصة لما نظر إلى الواقع نظرة الحكيم الباحث عن قطع دابر الداء واعتبر التاريخ القريب ليتحاشي هفواته . فالمسرح السياسى كما رأينا كان مليئا بالجمعيات السياسية اليمينية أو الوسط يمينية وكانت كلها حديثة الانشاء والتأسيس ولو أن لبعضها رجالات قدماء في الميدان السياسي . لكن خلافا لما كان عليه اليمين ظهر اليسار

بحزبيه التـاريخيين ، الاشتراكي والشيوعي ، أكثر " أصالـة " وأحسن تنظيما وأقوى مـركـزا ، لأنهما الحزبان الـوحيـدان اللـذان ظـلا طيلـة عهد فـرانكـو ، محافظين على هياكلهما . كـانت لكل منهما إدارته المعترف بها من القـاعدة ومن خـارج الحزب أيضا وهـذا رغم المتابعـات الشديـدة العنيفـة المستمرة من طـرف النظام الـذى اعتبرهما ، وبخاصة الحزب الشيوعي ، أشد الحرام ورمز الكفر وعلامة الخيانة . لكن رغم الحياة في المهجر ورغم العمل في الخفاء ومخاطره ورغم التضحيات الجسيمة استطاع الحزبان أن يعيشـا ويحافظـا على حـد أدنى من التنظيم والهيـاكل ممـا مكنهما من الـوقـوف في مستوى الأحداث لما دقت ساعة العمل شرعيا وتحت نور الشمس .

كان دور زعماء الحزب الاشتراكي أكثر سهـولة وأقل عراقيل . فالشلـة الشابة التي افتكت رئاسـة وقيادة الحزب وعلى رأسها الأمين العـام السيد فيلبي غـونثالث كـانت تتمتع بعوامل عدة لصالحها . أولا ، لم يكـن عداء النظام السابق للحزب الاشتراكي بارزا في دعايتـه وتحذيراته كما كان الشأن بالنسبـة للحزب الشيوعي ومن ثم فلم تكن العقول والـرأي العام في مجموعـه يشكو مـركب العداء الذى كـان يشكوه تجاه الحزب الشيوعي . ثم إن الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني بقيادته الشـابة الجديدة هو الذى اعترفت به الاشتراكية العالمية رافضـة نفس الحزب بالقيادة القديمة والحزب الاشتراكي الشعبي بزعامة الأستاذ الشيخ أنريكي تيارنو غالبان . ثم ان الحزب الاشتراكي ، وهو الحزب التـاريخي ذو الأصل والجذور في البـلاد لم يتمتع باعتراف المنظمـة الاشتراكيـة العالمية به فحسب ، بل ساندته مساندة تامـة ماديا وأدبيا كانت أبرزها مساندة رئيس الاشتراكية العالمية نفسه السيد ويلي براندت الذي زار مدريد يوم 6 نوفمبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1976 وكما قال الصحفي الكاتب السيد خواكين باردافيو " لاشك السيد فيلى براندت قد قدم التوصيـات الملحة وربما الماركات القوية " . وإلى جانب هذا كانت هنـاك مؤزرات أخرى مثل مؤازرة رئيس الفينيزويلا آنـذاك السيد كارلوس أنـدريس بيريث التـي جعلت السيـد سـووارث وحكومتـه يعيران الحـزب الاشتراكـي مـا " يستحقه " من الاهتمام فهو حزب ، مهما كان ماضيه وتاريخه ، هو اليوم موثوق به وقدمت بشأنه الضمانات الكافية .

لم تكن هـذه الضمانات وحـدها لتكفي لـو لم يظهر قـادة الحزب أنفسهم وخاصـة الأمين العام السيد غونثالث مقدرة تتماشى والظـروف ومرونة تناسب الوضع واعتدالا

كـان من ضرورة المرحلـة . كان السيـد غـونثـالث فعـلا الرجل المنـاسب في الظـرف المناسب . كان شابا يتقد حيويـة وحماسا ، يمثل بسنه أغلبية الشعب العاملة التي لم تعرف ولم تعش الحرب الأهليـة ولذا كان خلـوا من مركباتها وبقـاياها وكـان رغم سنه رصينا في تفكيره ، معتدلا في مطالبـه وهو فوق هذا يتمتع بالذكـاء والصراحة واللباقة والخطابـة . ولذا كـان من العناصر التي ، رغم كـل شيء ، قد سهلت مهمـة السيد سووارث إذ وجد في الأمين العام للحزب الاشتراكي طرفا يحب الحوار هو أيضا ويعتبره الوسيلة الأفضل لحل المشاكل ويبحث ، مثـل الجميع، عن إرساء أسس متينة لنظام يسوده القانون والحرية .

كان على السيد سووارث أن يفاوض زعماء اقليم قـاطلونيا أيضا على حدة فمشكل الأقاليم عقبة كأداء وقفت دوما وعلى طول تـاريخ أسبانيا الحديث بصفة خاصة ، في وجـه أي انسجام أو تعـايش خـال من الضغط أو الاجحـاف . لكن لإن هان الأمـر بالنسبـة لبلاد البـاسك بوجــود حزب تاريخي قـائم ، تتمثل فيـه أغلبية طمـوحات الأقليم ، وهو الحزب الوطني الباسكي بقادته القـدامى والمحدثين ، فإن قاطالونيا قد تعددت فيهـا الأحزاب والحركات فكـان على الساحة أكثـر من زعيم يمكن التفاوض معه أو يريد هو أن يتم التفاوض معـه . ولذا لم يكن الاختيار سهلا ولا خال من إثارة الحساسيات والحزازات . غير أن السيد سووارث قـد أفلح هنا أيضا فوفق بين القديم والحديث وحاور الشيخ والشاب ثم ركز على من في نظره كان حلا من الارتباط مع أي حزب أو مجموعة فكان العمل الرئيسي مع السيد جوزيب تاراديـاس .

كان السيد تاراديـاس رئيسا لآخر حكومـة اقليمية قاطالانية زالت بانتصار الجانب المعادي للجمهورية في الحرب الأهلية وبقي السيـد تاراديـاس في المهجر بفرنسا إلى أن حلت مرحلـة الانتقال هذه فتقـدم إلى الميدان ليـدلي بدلوه ويسهم في البنـاء . وفعلا أسهم بقسط كبير . فهـو جمهوري لا يقبل بغير الجمهـورية نظـاما ولكنـه قبل الحوار والتفـاوض وفهم برنـامج السيـد سووارث ومخططـات الملك فقبل ، كما قبل غيره من الجمهوريين ، نظام الملكية الدستوريـة فعاد من مهجره والتفت حول شخصه معظم الحركات في قـاطالونيـا ولما أجريت الانتخابـات رشح ففاز فكان أول رئيس لحكـومة قاطـالونيـا الاقليمية بعد التحـوّل وهو ، وقد نـاهز الثمانين فترك النشـاط السياسي ، لايزال جمهوريا حسب ما صرح به في بـرنامج تلفزي بث يـــــوم 31 ينايـــــــر

﴿ كانون ثان﴾ 1988 ولكنه يقدر الملك عظيم التقدير لأنه يرى أن ماأتاه وماحققه ليس سوى عمل عظيم.

الحزب الشيوعي : كل الأحزاب التي كانت في الساحة ، شرعية كانت أو محجرة ، لم تكن تمثل بالنسبة للسيد سووارث وحكومته مشكلة ذات بال حتى ولو كان الحزب الاشتراكي العمالي نفسه . لكن المشكل الحقيقي والعقبة الصعبة الكأداء والخطر الكبير كان يكمن ويتمثل في الحزب الشيوعي .

كان هذا التنظيم حديثا عند اندلاع الحرب الأهلية كما رأينا وكان أقوى وأبرز منه الحزب الاشتراكي . لكن لعوامل عدة ليست المساعدة السوفياتية للجمهوريين من أقلها ، تركزت " فلسفة " المتمردين على الجمهورية ومبررات تمردهم كما انحصرت دعايتهم أثناء الحرب وبعدها ، على التنديد بالشيوعية والشيوعيين ومقاومتهم مقاومة شديدة . فطيلة مايزيد عن أربعين عاما ، أي طيلة عهد فرانكو، لم تفعل أجهزة التثقيف والدعاية سوى " غسل " أدمغة الجماهير الشعبية جاعلة لها من عداء وبغض الشيوعية عقيدة ومبدأ . لم يترك النظام وسيلة ، كنيسة كانت أم مدرسة . نقابة كانت أو جمعية رياضية صحيفة أو إذاعة إلا واستعملها طوال بقائه لمقاومة الشيوعية ومن إليها وتربية الجماهير على بغضها وكراهيتها . ونتيجة لكل هذا فقد كان كل شيء ممكنا بعد وفاة فرانكو إلا الاعتراف بحركة شيوعية والسماح لمن يدعي أنه شيوعي بالحياة وسط المجتمع العام أو أن يعتبر مواطنا ذا حقوق وواجبات . أما أن يعود إلى البلاد السيد سان تياغو كاريو أمين عام الحزب والسيدة دولورس اباروري ، رئيسته ، فهذا من باب المستحيلات . فكلاهما قد لعب أثناء الحرب الأهلية دورا كبيرا والسيد كاريو بالذات قد أسهم بصفة فعالة في الدفاع عن مدريد وفي صمودها أمام الهجمات المتتالية التي قام بها ضدها الوطنيون وجيش فرانكو بالذات ثم هو متهم بمجزرة كبيرة حدثت آنذاك بالقرب من مدريد ، مذبحة باراكووايوس الشهيرة . فكل شيء ممكن إذن إلا شيء اسمه شيوعية وشيوعيون .

كمعادلة لهذه التربية وهذا التكوين ولهذه الآراء السائدة في كثير الأوساط بما في ذلك ، بل وخاصة ، لدى كبار القوات المسلحة ، كان الحزب الشيوعي أكثر الأحزاب حركة وأعمقهم جذورا وأمتنهم اتصالا بالطبقة الشعبية خاصة منها ، كما

هو طبيعي ، الطبقات العمالية . فالحزب رغم كل ما لاقاه من شدة وقمع وتعسف طيلة ما يقارب النصف قرن لم يتكلف قط نهائيا وبقي يعمل كثيرا أو قليلا حسب الظروف واستمر يقض مضجع النظام فوصل إلى مرحلة التحوّل والانتقال التي نحن بصددها وهو منظم في الداخل والخارج وله قيادته المعترف بها في الداخل والخارج أيضا وإلى جانبه نقابات قوية نشيطة ذات نفوذ ، ولدت داخل النظام ووسط الظلم والرعب ، وله قائمة طويلة من الضحايا ومن " شهداء " الحرية سقطوا في ميدان المعركة ضد الدكتاتورية وعلى طيلة أحقاب .

كان كل هذا في رصيد الحزب الشيوعي الأسباني والبلاد على أبواب تحوّل كبير عميق وكان الملك والسيد سووارث يعرفان هذا حق المعرفة ولكنهما يعرفان أيضا الوجه الآخر للحقيقة وهو الرأي العام اليميني والكنيسة أو بعض من إليها والقوات المسلحة أي وبعبارة مختصرة كل القوى التي كانت لا تزال تمسك بمقاليد الحياة العامة في البلاد والتي لابد من محاولة عدم صدمها وإلا كان لرد فعلها ما يبحث الجميع عن تفاديه ولفشل بناء الدولة الديمقراطية التي هي بدون شك رغبة السواد الأعظم من الشعب الأسباني .

كان الملك والسيد سووارث وقادة الحزب الشيوعي أنفسهم يعرفون هذه الحقيقة وهذا الواقع وكان الجميع يبحث عن حلول لإرساء نظام جديد . لكن بأي ثمن ؟ أو بالأحرى من سيدفع الثمن ؟ هل هو الحزب الشيوعي ؟ إنه غير مستعد لذلك ولا يمكن أن يكون مستعدا لغير الاعتراف به مثل كل الاحزاب الأخرى تماما وفي نفس الوقت لأنه كما قال أمينه العام السيد كاريو " نحن - الشيوعيون - ولدنا وترعرعنا تحت ظروف مقاومة واضطهاد لا يمكن مقارنتها إلا بما عرفه المسيحيون الأولون . فهؤلاء قد ألقي بهم إلى الوحوش المفترسة وصلبوا وزج بهم فى الدواميس فصمدوا متشبثين بايمانهم ومعتقداتهم ورموزهم حتى حطموا الحصار الاجتماعي الذي كان ينبذهم . ونحن مررنا من وضع مشابه ولم نخرج منه في عدة بلدان . . حتى أصبح لنا ما يشبه الكنيسة الجديدة ولنا شهداؤنا وأنبياؤنا . طيلة سنين طويلة كانت موسكو ، حيث بدأت أحلامنا تتحق ، أشبه شيء لنا بروما بالنسبة للمسيحيين حتى أننا كنا نتحدث عن ثورة أكتوبر العظيمة كما نتحدث عن عيد الميلاد . كان ذلك عهد طفولتنا . أما الآن فقد أصبحنا كهولا " (66) .

ما الذي يعنيه السيد كاريو بكهولته وكهولة رفاقه ؟ انه يعني التغيير العميق الذي

أدخله وصحبه على مفهوم الشيوعية والقاضي باقتباسها وتطويرها حتى تصبح مماشية متناسقة مع الطرق المعيشية والنظم الاجتماعية والاقتصادية في البلدان الغربية صالحة بأن تلعب دورا مفيـدا داخل تلك الأنظمـة . وهـذا التطـور هو مـا عـــــــرف باســـم " الشيوعيـة الأوربية " ﴿أوروكومـونزم﴾ ولو أن السيـد كاريو يـرفض هذا التعبير ولايقبل التسميـة الا عن مضض لأنها أصبحت معروفـة عالميـا . كان السيـد كاريـو يرى اذن، كما يقول هـو نفسه "وجوب جعل طروحـات معلمينا متماشيا مع الوقت الحالي دون الخوف من التخلي عن بعض النظريات التي أصبحت لاغية بعامل التطور التاريخي . وحيث أننـا في اسبانيـا مقدمـون على ما يبدو، على مـرحلة جـديدة ديمقراطية فالحزب الشيوعي الاسباني يهمـه أن يؤم هذه المرحلة متحررا بعض الأثقال العقائدية وذلك، وفي نفس الوقت، بوضوح أهداف صسسياسية مستندة بنبثبات الى قواعد نظرية ماركسية" . (66)

لم تعد شيـوعية السيـد كاريـو إذن شيوعية متصلبـة جامـدة كشيوعيـة ستالين بما احتـوت عليه من دكتـاتوريـة الحزب والـدولة لأن " كل ثـورة حقيقية تمر عبر تحويـر لسلطة الدولة القائمة والذي يميزنـا في هذا الصدد عن الديمقراطيين الاجتماعييــن ﴿ الاشتراكيين ﴾ هو أن نـوضح كيف يمكن تحوير الدولـة الرأسمالية الحالية بطـريقة ديمقـراطيـة . . . فـالمهم إذن هـو أن يبقى الـرفاق على استعـداد ويتحلـوا بـالمرونـة ويعلمون أنه في هذه الأوقـات يمكن أن تصبح التغييرات التكتيكية السريعة ضرورية للبقاء في مجرى الأحداث ومحاولة اخضاعها " (66) .

هكذا كان يفكـر السيد كاريو وهذا كـان نهج الحزب الشيوعي في تلك الظروف . كان الملـك والسيد سووارث على بينـة من كل هذا لكـن ، كما قلنا ، كان جـانب ذو وزن من المجتمع الاسباني يرى الأمور بعين أخرى ولا يثق في " الكفرة الملحدين الخونة العاملين بتعليمات موسكو " .

غـريب أمر البشر أحيـانا فـالسند المادي والأدبي الآتي من الخارج مقبـول بالنسبـة للحـزب الاشتراكي أو الـديمقراطيـة المسيحيـة مثلا ولكنـه خيـانـة اذا قدم للحـزب الشيوعي . لسنا ندافع بهذا عن الحزب الشيوعي أو غيره ولكننا نرى أن أي عون مهما كان مأتـاه وقصده هو تـدخل خارجي لا محالـة ويجب أن يكون مرفـوضا من الجميع وعلى الجميع وإلا كان الحيف والظلم وما إليهما .

هكذا ، على أيـة حال ، كـان الوضع بأسبـانيا ملكا وحكـومة يبحثـان عن تنفيذ

برنـامج يهدف إلى إقامـة نظام ديمقـراطي وحزب شيوعي مستعـد ، ضمن ومثل كل الأحزاب الأخـرى ، لأبعد حـدود التعاون في سبيل تلك الغـاية المشتركة وجـانب من ذوى النفوذ والسلطان ، بحكم مراكزهم في العهد السـابق ، يقفون بتحجرهم عائقا كبيرا فى طـريق يريـد الجميع سلـوكه . مـا العمل إذن ؟ إن الحكمـة توصي بـالصبر والتأني . فمن سار على الـدرب وصل لكن بالتأنى لأن في التأني السـلامة . إن الصبر والتأني هنا جماعيان ولكن الذي يجب أن يتحمل أكبر قسط منها هو الحزب الشيوعي ولذا وجب اقناع قادته بذلك ويجب البحث عن طـريقة للاتصال بهم وهذه الطريقة سيجـدها الملك . لكن قبل الاسترسـال في هذا الموضـوع لنرى مـا الذي كـان يفعله الحزب الشيوعى وقادته خلال هذه الفترة .

كان الحزب نشيطا مثل بقية الحركـات وكلها تنظم وتخطط وتفاوض كما رأينا ولكن للحزب الشيـوعي خاصيـة لابد من ذكرهـا ولو على سبيل الاسطـورة . كانت قيـادته العليا منقسمة في تواجدها بين الداخل والخارج وكان أمينه العام السيد كاريو يعيش في المهجر منذ آخـر أيام الحرب الأهلية ، وكان اسمـه بالنسبة للنظام الفـرنكي وأهله مـرادفا لاسم ابليس أو الغـول أو الوحش أو كلهـا معـا ولذا كـانت عودتـه الى أرض الـوطن ضربا من ضروب المستحيـلات على الأقل في هذه المرحلـة التي كانت أقـرب شيء الى امتـداد العهـد السـابق . الا أن السيـد كـاريـو لم يكن من أولائك الـذين يستسلمون إلى الواقع بل ممن ينـازلونه حتى يخضعوه . ولذا وأمام استحـالة الحصول على جواز سفر أسباني وعلى سماح بالعودة شرعيا قرر دخول أسبانيا بطريقة غير شرعية فتنكر واضعا جمة مستعارة ﴿ بروكة ﴾ على رأسـه واستجلب جواز سفر باسم مستعار وأخذ الطريق متجها إلى أرض الوطن ، إلى ميدان العمل الفعلي والإيجابي ، إلى حيث يجب أن يكون كل قائد أو زعيـم . دخل أسبانيا عن طريق الحدود مع فـرنسا صحبه رفيقين من الحزب ليعمل من الـداخل حسب مـا تتطلبه الظـروف لأنه كما كتب هـو نفسه " منـذ وفاة فـرانكو طرحت أمـام إدارة الحزب وجوب عـدم التأخير بعودتي إلى البلاد . كنا مقدمين على مـرحلة حاسمة تفرض على كل القادة أن يكـونوا متواجدين في الميدان وعلى أهبة . فأولائك الذين بامكـانهم العودة بالطرق الشرعية ما عليهم الا طلب الحصـول على جواز سفر . أما بـالنسبة لى وكذلك دولوريس اباروّري ، لم يكن هنـاك أمل في الحصـول على الجواز في تلك الأونـة وهذا يعنـي أنه كـان علي أن أعـود سـريا " (66) .

عاد السيد كاريو سريا وبقي في أسبانيا قرابة السنة يعمل في الخفاء ولو أنه كان خفاء غريبا . تنقل في البلاد كيف شاء واتصل بالرفقاء وعقد معهم الاجتماعات العديدة المتنوعة في مختلف الأماكن والمناطق . كما اتصل واجتمع بمعظم زعماء المعارضة الديمقراطية وتفاوض معهم وشارك في معظم مداولاتهم وذهبت به الجرأة والتحدي إلى إجراء مقابلة صحفية مع مبعوثي التلفزيون الفرنسي جرت في سيارة جابت شوارع مدريد طيلة فترة المقابلة وعقد ندوة صحفية محلية حضرها ما يقرب من سبعين صحفيا .

كانت أخبار تواجده بأسبانيا مشاعة ترددها الألسن ولكنها لم تؤخذ مأخذ الجد واعتبرت من تلك الأساطير والخرافات التي تحاك حول شخصية ما فتزيد في عظمتها وقيمتها . ولان كان تواجد السيد كاريو على تلك الحالة غريبا ونشاطه الدائب أغرب ، فهناك ما هو أدعى إلى الدهشة والتساؤل ونعني الرحلات العديدة التي قام بها برّا وجوّا من أسبانيا وإليها . فكلما استوجب ظهوره أو مشاركته في عمل ما بالخارج امتطى السيارة أو الطائرة وقام بمهمته ثم عاد . فهل غاب كل هذا عن أنظار الشرطة ورقابة السلطة أم هي تعامت باغية تعود الشعب وخاصة متطرفي اليمين على سماع اسمه وترديد ، خبر تواجده في البلاد إلى أن تحل مشكلته نهائيا ؟ هل فعلا أقدم السيد كاريو من عندياته على هذه المغامرة أم سبقها اتفاق " صامت " مع بعض المسؤولين في الحكومة ؟ ليس من اليسير الإجابة عن هذه التساؤلات إلا أن المؤكد هو أن وجوده بعد مضي بضعة أشهر أصبح " سرا مذاعا " خاصة بعد الندوة الصحفية التي ، ولئن احترم الصحفيون على اثرها سرية مكان انعقادها ، لم يكن من الصعب على الشرطة الاهتداء إليه ولذا لما حان الوقت أو لما وجب الأمر أوقفته الشرطة واعتقلته وكان ذلك يوم 22 ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ مساء وكان خارجا من بيت صديق عقد فيه اجتماع عمل مع عدد من رفاقه . وهكذا يكون السيد كاريو قد قضى في مدريد وأسبانيا قرابة الأحد عشر شهرا يعمل سرا وفي شبه

خفيـة فجعل قوس المعـارضة يمتـد من الحزب الشيـوعي يسارا الى الـديمقراطيـة المسيحية والليبيرالية يمينـا . ما الذي حدث بعد الإيقاف ؟ مـا يجري عادة في مثل هذه الحالات . استجوابات وأخـذ بصمات وفتح ملف الإحالة على السجن انتظارا للقضاء . وهكذا فعلت الشـرطة ولو أنها ، حسب شهادته ، عاملتـه بمنتهى اللياقة والاحترام . أما ردود الفعل فكانت مختلفة . اليمين يصفق واليسار يحتج وفي رمشة عين ظهرت آلاف الكتابات على جدران المدينة تطالب باطلاق سراحه وشرع في الحين في تنظيم مظـاهـرات للضغط حتى يطلق سبيلـه . كتب الأستـاذ آريلثا حـول هـذا الموضوع في مذكراته " كراسات التحوّل " فقال " إني أشعر وأن المسألة مجرد اخــراج ﴿ مسرحي ﴾ أنجز بكامل المهـارة . ما الذي كان يراد من هذا ؟ محاكمـة مشهدية ؟ حكم عـدلي ؟ بطل من المقـاومـة المضادة للفـرنكيـة ؟ لا ، ليس ثمـة من بين وزراء حكومة سووارث من يرى مثل هـذه الآراء . إن اعتقادي هو أنه بعد مضي أسبوع من الإجراءات العدليـة سيمنح السراح المؤقت فيسمح بذلك تواجده بأسبـانيا ومن هذا الـوضع إلى الاعتراف بـالحزب الشيـوعي لم تبق سوى خطـوة . وبها يتم تـوفـر الشرط الضروري لإغلاق القوس الانتخابي من اليسـار . إن الحزب الشعبي ﴿ حزب السيد آريلثا حـديث التأسيس ﴾ هو الوحيـد من بين الأحزاب غير اليساريـة الذي أعلن جهارا وفي ميثاقه وجوب الاعتراف بالحزب الشيوعي " (67) .

تم فعلا ما قدره الأستاذ آريلثا . فالسيـد كاريو لم يبق في السجن إلا أسبوعا خرج بعده طليقا دون أن يثير تواجده بوطنه مشاكل من أي نوع باستثناء تهجمات وانتقادات جريدة أقصى اليمين .

كان الملك ، كمـا أسلفنــــا قــــد لجــــأ إلى طـــــريقة يبحــــث من ورائهـــــا عن حل لمشكلـة الحـزب الشيــــــوعى وقـد تمثلت في إرسـال مبـعــــوث خاص في منتهى الســــريـــــة إلى رئيــــس الجـــمـــهــــورية

الرومانية السيد نيكولاس سيياوشسكو يطلب منه التدخل لدى السيد كاريو كي يتحلى بالصبر لأن إعطاء الشرعية للحزب الشيوعي في تلك الآونة كان صعبا ومسببا العديد من المشاكل لكنه - أي الملك - يعد باتمام ذلك بعد سنة أو سنتين . يروي هذه القصة السيد كاريو نفسه فيقول " في أواخر شهر أبريل أجبرت على الخروج مرة أخرى من أسبانيا . فقد أبلغت بأن الرفيق نيكولاس سيياوشسكو لديه خبر مهم يريد إبلاغنيه مباشرة . ذهبت دون أن أعرف الموضوع . لم أكن أرغب في كثرة الدخول والخروج ولكن ستفيدني هذه الرحلة بالمرور بباريس فيستمر الظن بأني أعيش هناك فلا أثير حراسة الشرطة في مدريد . . . أصل إلى بوخارست وأتقابل حالا مع رئيس الدولة الروماني الذي فاجأني بقراءته رسالة من الملك خوان كارلوس وملخصها ما يلي " إن الملك يعرف علاقات الصداقة الرابطة بينى وبين سيياوشسكو ولهذا فهو يستعمل هذا الطريق ليوصيني بالصبر وعدم محاولة الإسراع بالأحداث لأنه - وأوضاع أسبانيا على ما هي عليه - لا يمكن اضفاء الصبغة الشرعية على الحزب الشيوعى قبل مضي بضع سنوات وأن أي تسرع قد يكون مضرا لمسيرة التغيير" .

" . . . كان جوابي قاطعا . لا أقبل اقتراح أو اشارة الملك . إن لم تضف الشرعية على الحزب الشيوعي مع بقية الأحزاب قبل الانتخابات ، فان نظام أسبانيا قد لم يعد ديكتاتورية فرنكية ولكنه لم يصبح نظاما ديمقراطيا ، بل سيصبح حكما فرديا ﴿ أوتوقراطية ﴾ . إن الرأي العام الأوربي ، الذي يعرف أن خوان كارلوس الذي أجلسه فرانكو على العرش سوف لا يستطيع تبين الوضع الناتج كتغيير ديمقراطي حقيقي . وداخل البلاد ، فنحن الشيوعيون سنناضل بكل الوسائل لإفشال فكرة ابقائنا خارج الشرعية . نحن نشعر بأننا أقوياء ولنا سلطة سياسية كبيرة تمكننا من القيام بهذه المعركة لأننا نحن الذين كنا دوما في طليعة المقاومة من أجل الحريات " (68) .

كان هذا هو الجواب الذي عاد به الرسول إلى الملك . غير أن هذا لم يتسبب في القطيعة وبعد سجن كاريو وتعوّد الرأي العام على تواجده في البلاد وذكر اسمه ونشر تصريحاته سارت الأمور رويدا إلى أن تحمل الرئيس سووارث المسؤولية شخصيا وأمر بالاعتراف بالحزب الشيوعي . وهكذا أصبحت الأغلبية العظمى من الرأى العام

الأسبانى واتجاهاته ممثلة في أحزاب وحركات شرعية معترف بها امتدت كما قلنا من الحزب الشيوعي يسارا إلى المحافظين والديمقراطيين المسيحيين يمينا . ولم يبق - كما هو طبيعي - خارج الإطار الشرعي إلا المتطرفين يسارا ويمينا والذين لا يعرفون غير العنف والارهاب لغة ووسيلة .

البراز : إن الاعتراف بالحزب الشيوعي واعطائه شرعيا صلاحية العمل جهارا داخل الإطار العام قد أثبت للمتشككين نوايا السيد سووارث وإلى أي مدى يمتد انفتاح برنامجه ثم أنه قد جنب البلاد الكثير من المتاعب والقلاقل ولو أنه أغضب الجانب المتزمت وشنج أع صاب البعض من رجالات القوات المسلحة . لكن لم يأت هذا الاعتراف سدى ولم يكن هينا . فقد أسهمت في تحقيقه قوى مختلفة تأزرت بسابق اتفاق وبدونه ، حتى أزالت تلك العقبة من طريق التحوّل الكبير. الشيوعيون قد تحركوا على واجهتين . أولاهما تنظيم صفوفهم وتحريك جماهيرهم في إضرابات وتظاهرات يؤكدون بذلك لمن يبحث عن التأكيد قوتهم وحضورهم الكبير الواسع داخل الجماهير الشعبية . أما الثانية فهي الاتصال بكل الاتجاهات الأخرى تقريبا ، بما في ذلك الحكومة عن طريق أطراف ثالثة ، والعمل المستمر داخل مجموعات المعارضة معلنين مؤكدين مقترحاتهم وبرامجهم ومخططاتهم المستقبلية واعتدال سياستهم وحرصهم على إقامة نظام ديمقراطي تكون الكلمة فيه للأغلبية مع احترام الأقلية وإمكانية التداول على الحكم حسب ما تسفر عنه الانتخابات العامة الحرة المباشرة ، والأحزاب التي تواجدت آنذاك على الساحة وقفت في معظمها ، باستثناء حركتي فراغا وخل روبلس إلى جانب وجوب رفع الحجر عن الحزب الشيوعي أسوة ببقية الأحزاب حتى يضمن نجاح المسيرة . يقول الأستاذ أريلثا في مذكراته السالفة الذكر " زارني فيلبي غونثالث ﴿ أمين عام الحزب الاشتراكي ﴾ . . . عقله يفكر بطريقة جيدة وقد عرف كيف يصمد أمام الضغط الأميركي المسلط عليه بواسطة بعض الاشتراكيين الأوربيين ، مثل الألمان ، كي يترك في " العزلة " الحزب الشيوعي طيلة بضع سنوات وهو ﴿ السيد غونثالث ﴾ . . . سيبقى ثابتا على موقفه لأن المؤامرة الحقيقية لرجال " البونكر" الأيديولوجى لليمين غايتها ليست ازاحة الحزب الشيوعي فقط بل إذا أمكن الحزب الاشتراكى أيضا حتى لا تدخل الطبقات العمالية إلى السلطة الفعلية برلمانية كانت أو تقليدية وذلك لعدة سنوات فتبقى مرة أخرى داخل الدياميس فهذا ، كما قال ، معناه المجابهة بعد أمد قصير ، ولذا فلو خيرت بين قبول

عـدم إضفاء الشرعيـة على الحزب الشيوعي وقبـولي داخل اللعبـة الانتخـــابية وبين إعلان تأييد الاعتراف ولو كان ذلك مقابـل بقائي خارج اللعبة ،لقبلت الخيار الثاني ولو أني أعرف صعوبة البقاء طيلـة سنوات خارج الشرعية ووسط التضحيات . نحن نلعب لعبة الديمقراطية الحقة لا لعبة الشباك التي يعدونها فان لم تكن هناك ضمانات ولم تكن هناك حريات لن تكون هناك ديمقراطية في أسبانيا . . . " .

نفس الرأي كان يـراه السيد فرناندث أوردونياث وزير الخارجيـة حاليا والمنتمي إلى الحزب الاشتراكي وكان إذاك يتزعم كتلة صغيرة ذات ميـول اشتراكية ديمقراطية .

كانت كل الأحـزاب المعارضة إذن تـرى وتطالب بالاعتراف بـالحزب الشيوعي بينما بقايا النظام السابق والأحزاب اليمينية تقف ضد أية خطوة تتخذ في هذا الطريق . أما الحكومـة ، وخاصـة رئيسها السيـد سووارث ، فكـان رأيه يتفق ورأي زعماء الـوسط واليسار ولو أن المحيط والظروف تنصح بغير ذلك . فالبلاد خلال الشهور الأولى من سنة 1977 وطيلـة السنة كلهـا كانـت مسرحا لحركـة سياسيـة كبيرة متنوعـة . ميلاد أحـزاب وتأسيس اتحادات مثل " الوسط الـديمقـراطي " وتقديم اقتراحـات ووضع خطط وشروط . لكن النشاط الارهـابى خلال الشهـر الأول من هذه السنة كـان أبرز من أي نشـاط آخر وطغت أخبـاره وتأثيره على أيـه تأثيرات أخرى . ففي اليـوم الموالي الذي عقـد فيه أمين عـام الحزب الشيوعي ندوتـه الصحفية " السريـة " أي يوم 11 ديسمبر 1976 قام مجهولون باختطاف وحجز رئيس مجلس الدولة وبعد ما يقرب من خمسة أسـابيع وبينما لايزال مصير السيـد أوريول ، رئيـس مجلس الدولـة المحجوز ، مجهولا ، قـام مجهولـون آخرون باختطـاف رئيس المحكمة العليا للعـدالة العسكـرية الفريق أول فيبـاسكوسا وجـرت في ليلة نفس اليوم مـذبحة "أتوتشـا " تلك العملية الوحشيـة التي هجم فيها بعض المتطرفين اليمينيين على مكتب مجموعـة من المحامين العماليين وأطلقوا نيران رشـاشاتهم على الحاضرين فمات خمسة أشخاص ولـولا تغطية الموتى بأجسامهم الجامدة بقية الجرحى لكان عدد الضحايا أكثر والجريمة أشنع .

كانت البلاد في أواخـر الشهر الأول من سنة 1977 على فوهة بـركان . كانت كل المظاهر تدل على أن زمام الأمور قد أفلت من أيـدي الحكومة فرجال الأمن يتساقطون تحت رصـاص الإرهابيين ، ورئيسـا مجلس الدولـة والمحكمة العسكـرية العليـا رهن

احتجاز الإرهابيين ، ومناضلون شيوعيون يموتون برصاص المتطرفين والشارع في توتر وتشنج مما دفع بـالكثيرين إلى اعتبارذلك " تمهيدا لحرب أهليـة أو على الأقل لتدخّل عسكري " . والـذي زاد الطين بلّة هـو أن موكـب جنازة ضحـايا " مجزرة أتـوتشا " الذي حضره آلاف المواطنين قد تحوّل بالـرغم من المنظمين والمشرفين إلى مظاهرة دلت على خطـورة الـوضع ودقّتـه ودعـت الجميع إلى التفكير مليـا في الحد الـذي وصلتـه الأوضاع .

كان الملك في حيرة وعرضة للضغوط من كـل جانب ونوع وكان كبش الفداء الأول هو السيد سـووارث " لضعفه أو عدم خبرته أو عجزه " كما كان يـدعي المغرضون أو الـذين طغى عليهم الخوف . لكن السيد سـووارث كـان مؤمنـا بما كان يفعل وكـان متأكدا من أن ما كان يؤتى بين الفينة والفينـة ليس سوى عمل فئة صغيرة ضالة تريد إيقاف المسيرة التى ابتـدأتها الأغلبية أو توجيهها وجهـة أخرى لا يعرف أحد منتهـاها ولذا لم يتردد في الظهـور على شاشـة التلفزيـون مساء يـوم 29 ينايـر ﴿ كانـون ثان ﴾ 1977 ليؤكد للمتطرفين أنه وحكومتـه عازمين على التصدي لأي تطرف أو إرهاب أو خرق للقانون وأنه " لن يكون هناك استسلام لقلب النظام ولن تكون مواقف لينة تجاه الاستفزاز ولن يكون اهمال لكبريات المسائل التي يمكن أن تخدش وحدة أو استقلال أو أمن الوطن وما هي الأهداف التي تحاول بلوغها هذه المجموعة المحترفة الارهاب ؟ ليس سوى إدخـال الرعب في قلوب السكان وتحطيم الثقـة في الحكومة أيا كـان لونها والاعتداء على هيـاكل الدولـة واستفزاز القـوات المسلحة وقـوات الأمن وتعكير صفو التعـايش بين المواطنين والقضـاء على المسيرة السيـاسيـة التي نحن منغمسـون فيهـا والوصول إلى جعل القوى السيـاسية بالبلاد تتجابه مجابهة أسـاسية وعنيفة . . . ولذا إذا كنتم على استعداد لعدم التأثر بهذه التهديـدات الإجرامية وإذا كنتم ترغبون ، كما عبرتم عن ذلك سلفا ، في إجـراء انتخابات حتى يكون المستقبل الـذي أصبح قريبا محكـوما مسيرا من طـرف ممثليكم وإذا كـانت الأحـزاب السياسيـة ، كما يبـدو ذلك واضحا ، شـاعرة بأننـا أمام هجـوم واعتداء على الـدولة فهـو إذن هجوم على اليمين واليسار والوسط على حد سواء وإذا كانت وسائل الاتصال ، كما برهنت على ذلك ، شاعـرة هي الأخرى أننا أمـام اعتداء على مجموع الشعب الأسبـاني وإذا شعرتم كلكم بأن هـذه الأعمال والتصرفـات الإجراميـة تبحث عن تحطيم السِّلْم الاجتماعي أو القيم

الاجتماعية وثقة المواطنين في مؤسساتهم وأخيرا إذا كنتم جميعاً شاعرين بكل هذا فاني اعدكم بأن الارهاب سيهـزم لا محالة وبأن أسبانيا ستواصل طـريقها نحو المستقبل في نظام وحـرية ولو بشيء من الالآم في بعض الأحيـان وبأن الحكومة ستمضي قـدما في تنفيذ برنامجها الذي هو برنامجكم " (69) .

قبل هذا الخطاب بيومين . أي يوم 27 تقابل السيد سووارث مع السيد كاريو أمين الحزب الشيوعـي . كانت مقـابلة سرية دارت في بيـت أحد الأصـدقاء وكانـت أشبه شيء بشريط بوليسي . خرج الرئيس من قصر الحكومـة مختفيا وغيّر وسيلة نقله مرتين أو ثلاث قبل أن يصل إلى مكان الموعـد خارج مدينة مدريد ويقف وجهـا لوجه أمام هذا الـزعيم المجـرب الخبير الذي طالما سمـع وقرأ عنه . انـه يختلف تمامـا عما تصفه ملفات الشرطة الفرنكية ومخابراتها فهو " لين ، ديبلوماسي ، منشرح ، لطيف ، ذكي مع شيء من الخفة الخفية " أما السيد كـاريو فهو يقول أن " سووارث تقدم إليَّ ودودا لطيفـا كما لو كنـا صديقين قـديمين ولم يكن في اللقاء ما فـاجأني بل كان مطـابقا لما عرفته عنه " .

هكذا تقابل الـرجلان اللذان ، إن تفاهما ، سيزيلان العقبـة الأخيرة " الوحيدة " التي تهدد التحوّل إلى الديمقراطية الحقـة التي يعمل من أجلها ويرغبها الجميع ملكا وحكومة وشعبا . كان الرجلان قويي الحدس والذكاء كثيري الصراحة والواقعية ولذا بعد مدخل لطيف من طرف السيد سووارث يرويـه السيد كاريو فيقول " بدأني قائلا بأننا قضينـا هذه السنة لاعبين مبـاراة شطرنج مضيت أثنـاءها متقدمـا ببيادقي حتى ضغطت على لعبه . كانت طريقة متواضعة ولطيفة للدخول في الموضوع قضت نهائيا على تشنج المحادثة .

بـدأنا متفقين على أننـا سنتحدث في السيـاسيـة بمفهومهـا الكبير واضعين نصب أعيننا مصلحـة أسبانيا . لقد خصصنـا الجزء الأول للحديث عن الأزمة الاقتصـادية التي تتطلب مجهـودا جماعيـا لإيجاد حل لها . ودخلنـا بعد ذلك في المـوضـوع الأساسي " (70) .

لم يأتيـاه بطرق ملتويـة بل جابها كـل أوجهه بـدقة وصراحة : العلـم ؟ لاجدال في ذلك ، أحمر وأصفر ، العلم التقليـدي الذي رفـرف على أسبانيا منـذ عهد كـارلوس

الثالث (1716 / 1788) الـوطن ؟ واحد لايتجـزأ ، والملكية ؟ مقبـولة لأنها محرك هـذا التحوّل ، والـدمقراطيـة ؟ هي الإطار الـوحيد الممكن لضمان تعـايش سليم ، والانتـاج ؟ مخجل . يجب العمل كثيرا وأحسن حتى تنهض أسبـانيـا ، ومـوسكـو ؟ ماض رومنطيقي مهجور ، والشيوعية ؟ عمل ديمقراطي داخل إطار أوربي وهو محب للحرية ، مستقل عن الخارج . والاشتراكية ؟ مغامرة يترأسها شبان لطاف متحمسون " (71) .

لقد تفاهم الـرجلان . هذا قال ما كان يـريد أن يقوله والآخر عـرف ودوّن ما كان يبحث عن معرفته . ولما تفارقا قرابة نصف الليل كـانا حسب قول السيد كاريو نفسه " قد خطوا خطوة حاسمة في اتجاه إعـادة الحريات الديمقراطية . . . لقد قيل الكثير عن علاقاتي بسووارث حتى عرفها بعضهم " بالافتتان " بينما الأمور أبسط من ذلك . خـلال محادثـاتي مع زعماء المعارضـة كنت أراهم يتقلبـون ويحتفظـون دوما بـورقـة في جيوبهم ، احتياطا للمناورة حسب ما يـرون الأوضاع . أما محادثتي مع سووارث فقد كانت خلافا لذلك ، أوضح محادثة أجريتها خلال تلك الفترة . لقد عالجنا مواضيع ملموسة وتوصلنا إلى حلول ملموسة محددة وأوفى هو بما تعهد وبكل جدية " (70) .

هكـذا انقضت كل سنة 1977 وكل الفترة الفـاصلة بين استـلام السيد سـووارث مقاليد الحكم و إعلان الدستور والتصديق عليه شعبيا في ديسمبر ﴿كانون أول ﴾ عام 1978 . كانت البلاد في بـراز مستمر . كانت هي نفسها في بـراز مع التاريخ الذي صممت على غلبته هـذه المرة وتحقيق اللحمة أبـديا بين شقي أسبانيـا اللذين تنـازعا طوال الحيـاة . وبراز بين الحكومة والمعـارضة بأكملها يتفـرع عنه براز آخر يتنـازل فيه الرئيس سـووارث مع الزعماء والسيـاسيين فرادى . وبراز داخل القـوات المسلحة بين المؤمنين بالتطور والتحوّل وبين الذين عشقوا الماضي فجمدوا . وبراز " باطني " عرفه الكثيرون من قادة القوات المسلحة وعناصرهـا المهمة ، براز بين العقل والعاطفة وبين الوفاء والطاعة وبين العصيان والامتثال . وبراز بين أغلبية الشعب وبين أقلية متطرفة لا لسان لها غير لسان القوة والعنف والدم والدموع .

في كل هذه المبارزات انتصر العقل على العاطفة وفازت الواقعية على الخيال وتغلب المستقبل على الماضي فجاءت الحرية ثمرة مجهـود جماعي ونصبت الديمقراطية لتشمل

بردائها شعبا عانى الكثير فأصبح من حقه أن يعيش عيشة حرة كريمة .

اعترفت الحكومة بالحزب الشيوعي ، كما رأينا ، وتحمل الرئيس سووارث وحده ، مسؤولية تلك الخطوة التي أقدم عليها يوم 9 أبريل ﴿نيسان﴾ 1977 . كانت لخطوته هذه ردود فعل عديدة ومختلفة وأشدها كانت استقالة وزير البحرية الذي لم يعوّض الا بصعوبة وموقف كبار القمة في القوات البرية المجتمعين في المجلس الأعلى للجيش الذي كاد يصدر بأغلبية كبيرة شجبا شديدا للحكومة لولا نجاح اثنين منهم في تهدئة الخواطر ورغم هذا فقد أصدر المجلس بيانا شديد اللهجة يدين فيه خطوة رئيس الحكومة . لم يتعد الأمر أن يكون زروبعة في فنجان . فالقوات المسلحة لم تتغير عما تركها عليه فرانكو من هدوء وطاعة للسلطة القائمة .

بعد هذا جرت الأمور بأكثر سرعة لأن الزمن عامل مهم فى الحالة التي كانت عليها أسبانيا والمرحلة التي كانت تجتازها . أضفيت الشرعية على الحزب الشيوعي يوم 9 أبريل ﴿ نيسان ﴾ وقبل ذلك بيومين أنزل إلى الأبد شعار " الحركة " أو الحزب الأوحد الذي أصبح شعار الوطن طيلة عهد فرانكو ، فكان الوقت قد حان لفتح باب آخر على العالم ، منفذ ثان ليدخل منه نسيم التعامل فيتحطم جانب جديد من جدار العزلة . فتح السيد سووارث هذا الباب وخرج منه نحو الغرب هذه المرة ، نحو الولايات المتحدة التي زارها من قبله الملك وأوضح إلى مسؤوليها برنامجه وبرنامج رئيس حكومته . سافر سووارث إلى الولايات المتحدة يوم 24 من شهر أبريل ﴿ نيسان﴾ أي بعد أسبوعين من اعترافه بالحزب الشيوعي فكانت زيارة مليئة بالمعاني لأنها كانت زيارة مليئةبالصراحة والوضوح أتت أكلها حالا فأزالت لدى وزير الخارجية الجديد آنذاك السيد سايروس فانس كل الاحترازات والتخوفات وحتى الحذر الذي ميز موقف السيد كيسنجر من أسبانيا الجديدة .

عاد الرئيس سووارث من الولايات المتحدة ليزيل الشكوك والغموض اللذين خيما حوله منذ إعلانه قانون الإصلاح . كان المسرح السياسي كله يبحث عن معرفة ما إذا كان السيد سووارث ينوي ترشيح نفسه للانتخابات العامة الأولى أم لا ، لأنه على ضوء ذلك يضع كل اتجاه خططه واستراتيجيته . إلا أن السيد سووارث قد حافظ على السر ولم يفصح عن نواياه الا يوم 3 مايو ﴿ آيار ﴾ أي عند

بداية الحملة الانتخابية تقريبا . لم يكن ذلك تخطيطا مسطرا بل كان تأنيا وتأملا حتى تتضح الـرؤيا وتكتمل الصـورة . واكتملت بعد الاعتراف بـالحزب الشيوعي فبـدت التركيبة السيـاسية للبلاد شبيهـة بالتي عانتها طـوال تاريخها . كـان هناك يمين بكل ميولاته وكان هناك يسـار منظم تاريخي ، ممثل في حزبين جاءا من وراء الحرب الأهلية ولهما فيهـا تاريخ مـذكور . يمين ويسـار ولا شيء بينهما حتى إذا انتصر أحدهما ثـار الآخر وهذا هو داء أسبانيا المزمن الـذي لابد له من القضاء عليه ووسيلة ذلك تكمن فى وسط قوى يجر الناخبين إليه في هذه المرحلة الأولى من الحيـاة الديمقراطية وبعدها تكون الأنفس قد اطمأنت والجروح قـد ضمدت والذكريـات قد سكنت والجميع قد تعـوّد على الجميع وأنس الكل للعبة فتجـري الأمـور مجراها الطبيعي . كـان هذا هـو المنطلق والغاية وكان لابد وأن ينجح تأسيس الوسط ولابد من فوزه حتى يضمن نجاح المسيرة . وهكذا نظر سووارث بعين الرضا إلى المحاولات التي كان يقوم بها البعض من زعماء الكتل الصغيرة مثل السيـد أريلثـا عـن الحزب الشعبي والسيـد فـرنـانـدث أوردونيـات عن الـديمقراطيـة الاشتراكيـة والسيـد اغنـاثيـو كامـونيـاس عن الحزب الـديمقـراطي الشعبي وأوسكـار ألثاغـا عن الحزب الشعبي الـديمقـراطي المسيحي وغيرهم كالسيد غـاريكس وولكر عن الليبيراليين . كان هذا الوسط مكـونا من ثمانية أحـــزاب قبلت حتى تلك الفترة الانضمام إلى ما أسمـــوه الوسط الديمقراطي ولكن لئن وحدت الـــرغبة وصـدقت النية فإن أسباب القوة منعدمـة والزعامة القومية مفقودة فالـربـاط منحل من أوله والنسيج مهلهل والرئاسات كثيرة وهذا خطر على المـــركب . تـــابع الـــرئيس سووارث كل هذا التحرك ، ودرس الـــوضع وحلله من مـركزه كـرئيس حكومة ومن منصبـه كزعيم لحزب وحـدة الشعب الأسباني وعلى ضوء نتـائج دراساتـه وضع مخططـه الذي شـرحه في مقـابلة خـاصة مـن السيد أريلثـا وبيبو كإبـانيياس ويـرويها أولهما في مذكـراته فيقـــول " إن الـــوسط الديمقـــراطي الذي شرعتم في تكـــوينه كتجمـــع أو تحـــالف هو فكرة حسنة ولكنها رديئة الانجاز وهي لن تثمر كما يجب بسبب خلافات ومنـــــاورات مكوّنيها . انه من المنـــــاسب أن يزول عنها ، عن المجلس التنفيذي ، زعماء الأحـزاب ويعـوّضـون بأخـريـن دونهم منـزلـة . وبعـد هـذا من الضروري أن تعيّن الحكومة ، بل رئاسـة الحكومة ثلاثـة أو أربعة أشخاص ذوى نجاعة مـؤكدة فيشرفون على إدارة التنظيم تقنيـا . . . . . وبعـد أن يتم تنسيق هـذا " الـوسط " بـالطـريقـة

السابقـة الذكـر فهو ﴿ السيـد سووارث ﴾ ينتظـر ويتمني بأن يتم التـوجه إليـه علنا ليطلب منه وضع نفسه على رأس هذه الحركـة الانتخابية والسياسيـــة وكـــــزعيــــم لها " (72) .

هكذا أو بطريقة قريبة من هذه تم تأسيس حزب " اتحاد الوسط الديمقراطي " في شهر مـايو ﴿ آيـار ﴾ 1977 وكانت الغايـة الأولى ، وقد تكون الـوحيدة ، منـه هو التقدم للانتخابات التشريعية الأولى بحركة وسط قوية تحول دون انتصار يمين متزمت أو حتى متعصب أو يسار لا يزال يخيف ويرعب وغير موثوق به تمام الثقة .

كانت بيد سووارث إحصائيات مدققـة عن الأوضاع في البلاد وعن مشاعر الناس وميولاتهم وهـو يعلم ، كما قـال أثناء حديثـه مع السيـدين أريلثا وبيبـو كابـانيياس السالف الذكر ، " بأنه لاتزال في البلاد قوات كثيرة تعارض التطبيع الديمقراطي منها الإرهابيون من كل جنس والتابعون لمنظمة " غرابو " ومنها الأقليات العنيفة والشرطة الموازية وبقـايا هـامة وقـوية من النظـام السابق " ولـذا وجب العمل بسرعـة وحذر حسب برنامج واضح لما بعد الانتخابات .

كـان برنـامجه الشخصي جاهـزا لخصـــه في نقـاط خمس هي : تحديـد الإصـلاح الـدستـوري ووضع مخطط اقتصـادي اجتماعي لمدى متوسـط مع التعهد بـالتفـاوض للاحـراز على اتفاق مع الاتحادات النقابيـة وبقية الأحـزاب . أما النقطة الثـالثة فهي تحديد القوانين الأساسية الأولى التي يمنح على ضوئهـا الاستقلال الذاتي للأقاليم مع الحذر والحيطة في هذا المجال لأن رجال القوات المسلحـة لايقبلون النقاش في ما يرون فيـه اعتداء على وحـدة أسبانيـا والنقطة الـرابعة تخص القيـام بإصلاح جبـائي وأخيرا إصلاح الإدارة العامة . بهذا البرنامج إذن وهذه الآراء والغايات دخل السيد سووارث وفي آخـر لحظـة المعـركـة الانتخـابيـــة الـديمقـراطيـة الأولى على رأس اتحاد الـوسط الديمقراطي المكوّن من ثلاثة عشر حـزبا ومجموعة فكان النزال الأكبر والبراز الأهم لا بالنسبة للسيـد سووارث ولحكومته فحسب ، بل لأسبانيا ككل التي تـدخل التجربة الديمقـراطية التعدديـة الحقة لأول مرة والتي إن فـازت فيها ستبدأ حقـا مسيرتها نحو مستقبل جديد .

امتحان الانتخابات : جرت الانتخابات كمـــا كــــان مقررا يوم 15 يــــونيـــو

﴿ حزيران ﴾ 1977 ونزل الحلبة من أجلها عدد كبير من الأحزاب الوطنية والاقليمية وأقبل على صناديق الاقتراع نسبة كبيرة من الناخبين الذين كانوا مثال النظام والهدوء الذي أثار استغراب أكثر من ملاحظ . لقد جرت الحملة والانتخابات في هدوء ونظام مثاليين رغم الحماس الكبير ورغم كثرة عدد الأحزاب المشاركة . فقد ولدت عدة أحزاب يسارية ويمينية جديدة بالاضافة إلى القديمة المسماة بالتاريخية . فقد كانت هناك عدة شيوعيات واشتراكيات ولو أن الدور الرئيسي الهام قام به الحزبان الرئيسيان فبالنسبة للاشتراكية كان فرع السيد فيلبي غونثالث هو البارز وكان إلى جانبه الحزب الاشتراكي الشعبي الذي يتزعمه الأستاذ أنريكي تيارنو غالبان فكان أشبه شيء بالجناح الفكري للحزب الأم الذي أنضم إليه واندمج فيه نهائيا بعد الانتخابات . كان للشيوعيين أجنحة وكتل متعددة تحاول احتلال مكان إلى جانب الحزب التاريخي الذي يتزعمه السيد كاريو . فكان هناك شيوعيون متطرفون وثوريون وحتى صينيون أي ميالون للخط الصيني .

أما اليمين فكان ممثلا في ثلاث كتل رئيسية : الديمقراطية والمسيحية " التاريخية " أيضا يترأسها الأستاذ خوزي ماريا خل روبلس والأستاذ خواكين رويث خيمانث ، ويمين في طليعته عدد من الوزراء السابقين في نظام فرانكو حتى سميت بيمين " الروائع السبع " نسبة إلى عدد تلك الشخصيات ، وكانت حركتهم هذه تقبل التعايش مع كل التيارات الأخرى لكنها ترفض قبول الحزب الشيوعي داخل التشكيلة . ثم كان هناك ما يمكن أن نسميه بالحركة الفرنكية الجديدة لأنها لم تكن سوى امتداد ووفاء للنظام القديم وكان على رأسها الأستاذ بلاس بينيار . وأخيرا وبين هذين الاتجاهين تحرك اتحاد الوسط الديمقراطي الذي ، كما رأينا جمّع بين أكثر من عشرة أحزاب صغيرة تمتد من حيث عقائديتها وميولاتها السياسية من يمين الحزب الاشتراكي إلى يسار الديمقراطية المسيحية ولذا كان أقوى رباط لها وأحكمه السلطة التي توجت هذا الاتحاد وتزعمته عن طريق السيد سووارث . وإذا أضفنا إلى هذه التشكيلة الأحزاب الإقليمية البحتة خاصة منها العاملة في قاطالونيا وبلاد الباسك ، تكونت لدينا صورة قريبة من الواقع الذي تقدمت به أسبانيا لأول انتخابات تشريعية حرة بعد ما يزيد عن أربعين سنة من الحكم الفردي .

كان طبيعيا ومنطقيا أمام تعدد الاختيارات التي قدمت للناخب الأسباني أن يميل هذا الأخير إلى الوسط لأن اليمين تحمّل سياسته سنين طويلة وكانت له معه تجربة

غير مشجعة . واليسار يخافه ويخشاه لما سمع عنه طوال سنين . ففاز فعلا اتحاد الوسط بزعامة رئيس الحكومة ولو أنه لم يحصل على الأغلبية المطلقة التي تمكنه من الحكم بمفرده وبارتياح فكان هذا عقبة في طريقه حمّلته عظيم الصعاب طيلة بقائه ماسكا بزمام السلطة . وأتى في المرتبة الثانية ، بعد الوسط ، حزب السيد فيلبي غونثالث أي الحزب الاشتراكي العالمي يتبعه الحزب الشيوعي ووراءه حزب الرابطة الشعبية أو حزب "السبعة العظام" الذي يتزعمة الأستاذ مانوال فراغا ايبارني .

تكفي نظرة عابرة على نتائج هذه الانتخابات الأولى كي يخرج المرء باستنتاجات عديدة أثبتتها الأيام فى ما بعد . أول استنتاج هو أن اليمين لم يكن في أسعد ظروفه وكان يشكو ضعفا وانحلالا سيقاسيهما سنين طويلة . والاستنتاج الثاني هو أن أقصى ما تبلغه أغلبية الشعب من ميل إلى اليسار هو الاشتراكية المعتدلة . أما الثالث فهو أن الوسط بتلك الطريقة التي بني بها وعليها نظم سيصعب عليه الحكم ولن يعمر طويلا .

لكن مهما كان الأمر فان البلاد قد دخلت بهذه الانتخابات حياة جديدة أساسها التنافس الحر بين مختلف التيارات والاتجاهات وأن الحكم دوما للأغلبية وأن المسيرة الحقيقية ستبدأ الآن وستكون أولى الخطوات متمثلة في إعداد دستور تسير على ضوئه البلاد وتستظله المؤسسات والمواطنون لكن ، ألم يكن هناك الا إعداد الدستور في حاجة للإنجاز ؟ كلا . كان هناك الكثير ينتظر الانجاز ، وكان لكل حزب وللحكومة برامج لمجابهته في ظروف وضع يصفه السيد أميليو روميرو قائلا " كانت هناك طبقة سياسية جديدة غير متدربة على النظام الديمقراطي وعلى سيادة الشعب ، ويسار عائد من السرية أو من المهجر تسانده داخليا عبوءة عاطفية أو عبوءة حقد يجبر التفهم على قبولها ، وتطور عنيف للشعب الأسباني بالنسبة لما كان يعانيه ذلك التغير المشهود المدخل على النظام السياسي ، وطريقة جديدة في النظر إلى العلاقات الصناعية والعمالية في وقت لم توجد فيه بعد رابطة أرباب عمل وصناعيين عاملة ومتحركة بينما وجدت على الساحة النقابات العمالية بعقيدتها السياسية فى الواجهة . كانت هناك أيضا أزمة اقتصادية ذات بداية متصلة بالطاقة وقد جاءت مسرعة خلال السنوات الأخيرة كما كان هناك تخوف منطقي من الفرنكية الحقة التي كانت تشاهد زوالها وهي شاعرة بفشلها وبالاحتياط الذي تعرضت إليه ، وكان هناك إرهاب ذو مصدرين الباسكي المتطرف والشيوعي المتطرف وكان فى تصاعد مستمر ، وقوات

مسلحة كانت فى حالة انتظار وانشغال بال خاصة منذ أن غشها أو خدعها أدولفو سووارث باعترافه بالحزب الشيوعي. ان القوات المسلحة التي تربت على الطاعة والانضباط والتي مهما كان مأتاها كانت تتابع تصرف الملك فتقبله منه لأنه القائد الأعلى للقوات المسلحة ولأنه الملك وهذان عنصرا طاعة" .

بينما كانت البلاد تعيش حمّى الحملة الانتخابية أقدمت شخصيتان بارزتان على خطوة دلت على أنهما مثال التجرد والتضحية وأثبتا وسيثبتان على مدى التاريخ أن صاحب النفس النبيلة والضمير الصادق يتسامى - وفي كل الظروف- على ماديات هذه الحياة وبهرجها ولا تتوق نفسه إلا لما هو سام خالد . فأول الشخصيتين هو دون خوان آل بربون ، والد الملك وصاحب الحق الشرعي في وراثة التاج والجلوس على العرش ولكن حالت ظروف شرحناها سلفا ، دون ذلك ، فلم يتشبث ولم يعاند ولم يقف حجر عثرة في سبيل استقرار الملكية وأسبانيا ، فقام كما شرحنا ذلك في باب خاص بالتنازل رسميا لابنه دون خوان كارلوس وكان ذلك يوم 14 مايو ﴿ آيار ﴾ 1977 خلال حفل عائلي لم يحضره سوى وزير العدل بصفته كبير محرري العقود بالمملكة .

أما الشخصية الثانية فهي الأستاذ توركوواتو فرناندث ميراندا الفكر القانونى والعقل التشريعي والجندي المجهول الذي تحرك في صمت وفي شبه خفاء فأنار طريق الملك بافتائه القانوني وساعد على وصول سووارث إلى الرئاسة بالطرق الشرعية وأسهم بقسط كبير في وضع قانون الإصلاح السياسي الذي اعتبر أهم محور بين عمليات التحوّل وبعبارة ملموسة موجزة عمل بكل إخلاص للعرش والملك وأسبانيا في تواضع وبكل حماسة وثبات واحترام للقانون إلى أن وضعت القاطرة على السكة فاعتبر أن دوره قد انتهى وأن ما عليه فعله إذاك هو الزوال لأن الحلبة ستستقبل الآن فرسانها الجدد .

استقال السيد فرناندث ميراندا يوم 31 مايو ﴿ آيار ﴾ 1977 بينما المعركة الانتخابية على أشدها فكانت استقالة مثيرة لشتى التعاليق وعديد التفسيرات التي لم تكن سوى مغرضة أو خيالية . نعم ، كان من حق الأستاذ فرناندث ميراندا البقاء قانونيا وشرعيا على رئاسة البرلمان ومجلس المملكة إلى نهاية الستة أعوام من تاريخ

تعيينه ولذا لم يكن صعبا بقاؤه واستمرار رئاسته للمجلس الجديد . فالقوانين السارية المفعول آنذاك تسمح بـذلك وتجيزه . غير أن السيد توركوواتـو وهو السياسي المحنك ورجل التشريع والقـانـون ، كان يعـرف أكثـر من أي كان أن المجلـس النيابي الـذي سيسفر عن الانتخابات الأولى سوف لن يكون سوى مجلس تأسيسي وستكون مهمته الأولى إعـداد دستـور جـديـد للبـلاد وهذا يكفـي بأن يجعل من بعض أو الكثير من القـوانين الســاريــة المفعـول آنـذاك نصـوصـا غير ذات مفعـول لأنها لم تعـد تتماشى والأوضــاع الجديـدة وأن المجلس النيابي المنتخب انتخـابـا ديمقـراطيا حـرا لابـد وأن ينتخب رئيسه مـن بين أعضائه انتخابـا حرا أيضـا طبقا لقـانون داخلي سيـوضع وفقا للحالة الجديدة إلى غير ذلك من الإجراءات التي إذا أريد لها أن تكون ديمقراطية حرة غير مفـروضة لابـد من إحـداث شغور في معظم أو كل المنـاصب الـرئاسية ورئاسـة المجلس النيابي ليست مـن دونها . ولذا فقد قـرر الأستاذ والمعلم الانسحـاب وأشعر بذلك الملـك قبل التاريخ الذي حـدده بوقت منـاسب ، مايقـارب الثلاثـة أشهر ، فاعترض الملك ولكنه تفهـم في الأخير لاسباب أستاذه فقبل الاستقـالة لما قدمها له يوم 31 مايو ﴿ أيار ﴾ 1977 أي قبل يوم الانتخابـات بأسبوعين . هكذا تكون الرجال وهكذا يكون الإخلاص والتجرد والا فلا .

انتهت الانتخـابات إذن وفـاز فيها كل حـزب وتنظيم بالـدرجة التي منحـه اياهـا الشعب فجاء في المرتبـة الأولى ، كما أسلفنا ، حزب اتحاد الوسط الديمقـراطي بقيادة الرئيس سـووارث محرزا على مائة وستة وستين مقعدا متبوعـا بالحزب الاشتراكي العمالي بزعامة فيلبي غونثالث وقد حصل على 118 مقعدا وجاء وراءه الحزب الشيوعي الذي يتزعمـه السيد كاريـو وقد فاز بعشرين مقعـدا وأخيرا التحالف الشعبي الذي يـرأسه الأستاذ فـراغا ايريبـارني والذي تحصل على ستة عشر مقعدا . أمـا بقية المقاعـد فقد تقاسمتها تنظيمات صغيرة معظمها اقليمية وكان في مقدمتها الحزب الوطني الباسكي الذي اعطته صناديق الاقتراع ثمانية مقاعد .

بينما كانت الحكومة وعلى رأسها السيد سووارث تزيل العراقيل وتمهد فتعبر الطريق نحـو الهدف الذي أصبح هـدف الجميع ، كـان الملك هو الآخـر يجتـاز امتحانـا ذا وجهين داخلي وخارجي . كان العرش في الداخل في حـاجة إلى التركيز والتوطيد و إلى

التعريف بتاريخه ومهمتـه ودوره . فالبلاد وإن كانت في مجمـوعها تنظر بعين الاحترام والتقـدير وحتى الـرضى إلى الملك فهي لم تكن كلها ملكيـة ولذا كـان ضروريا افهـام واقناع الجميع أن الملكيـة التي تجسمت اليوم في دون خوان كارلـوس الأول هي ملكية من نوع جديد ، هي ملكية يمكن أن تعيـش في ظل عرشها كل الاتجاهات والميولات مهما كـانت متعارضـة معهـا حتى ولو كـانت جمهـورية . فـالـوطن للجميع والملك للجميع وهو حكم لا حاكم ومشرف منسق لا مدبر إذ القرار الأساسي والسيادة في يد الشعب بكل ما يحتوي عليه من آراء واتجاهـات . فهي إذن ، كما أسماهـا بعـضهـم " جمهورية على رأسها ملك " .

أمـا على الصعيد الخارجي فكـان الوقت قـد حان للبـلاد أن تخرج من العزلـة وأن تعرّف بنفسها وبنظامها الجديد وأن تشرح أهـدافه ومراميه وأن تبحث لها عن أصدقاء وحلفاء وباختصار أن تأخذ مكانها الـذى حرمت منه أحقابا ولا أحد يستطيع تحقيق ذلك أحسن من الملك .

من أجل تحقيق كل هـذا تحوّل الملـك إلى رسـول نفسـه وعـرشـه إلى الشعب فقـام بالعـديد من الـزيارات لمختلف الأقـاليم حيث استطـاع الملاحظون كما استطـاع هو نفسه أن يلمس محبة الشعب وتقديره لـه والتفاف كل فئات وعناصر الشعب الأسباني العديد الأصول والثقافات حول العرش والملك . بـدأ دون خوان كارلوس زيـــاراتـه " الميدانية " بالتنقل إلى قـاطالونيا لما يتميز به هذا الاقليم من مميزات تـاريخية وثقافية فخاطب الجماهير هنـاك باللغتين الاسبانيـة والقاطالانيـة مؤكدا بـذلك احترام العهد الجديـد لخاصيات كل شعب وكل مجمـوعة . وزار بعـد ذلك اقليم آستوريـاس لأن تقاليـد العرش الأسباني تضفي على ولي العهـد لقب " أمير آستوريـاس " إلى جانب لقبه كوريث .

وهكذا تتالت الـزيارات وكانت كلها مثال الحماسة والمحبة المتبـادلة وفي كل مكان وتجمع ألقى الملك خطابا أو كلمـة توضح الغاية وتحدد المرمى . كلهـا كانت زيارات خاليـة من أي تعكير أو تشويـش باستثناء زيـارة بلاد البـاسك حيث حاول نفـر من المتطرفين مقاطعة خطاب الملك أمام البرلمان المحلي ولكن سرعان ما أسكتهم الجمهور

وأخرجتهم الشرطة من القاعة .

لم يكتف الملك بالاتصال المباشر بالشعب ليوضح نواياه وأسلوب عرشه تجاه البلاد وأوضاعها بل أردف ذلك بتصرفات ومواقف أكدت صدقه في قوله بأنه ملك الجميع وفوق الجميع لا يتحزب ولا ينتمي لشق أو جانب . لقد منحت انتخابات عام 1977 الملك ميزة فأعطته حق تعيين أربعين عضوا من مجموع أعضاء مجلس الشيوخ ، فاحتاط كثيرا في اختياراته واتبع الحذر وراعى المصلحة العامة في انتخاباته التي منها تعيين السيد خوستينو آثكاراتي ، أحد رجال الفكر المعروفين ، وهو جمهوري الميول وكان يعيش في المهجر نتيجة الحرب الأهلية وعداء نظام فرانكو لأمثاله .

بمثل هذه التصرفات وطد الملك عرشه وساعد على تركيز النظام الجديد بادخاله الطمأنينة والثقة في النفوس الحائرة والمتشككة .

أما بالنسبة للخارج فإن الشكوك العالمية التي حامت حول الملك خلال المرحلة الأولى من جلوسه على العرش قد تجلت بكل وضوح خلال حفل تتويجه . فأصدقاء أسبانيا وحلفاؤها الكبار قد أبدوا بعض التحفظ ولم يحضر الحفل إلا عدد قليل من رؤساء الدول خلافا لما جرت عليه العادة من تكاثرهم في مثل هذه المناسبات . من هنا كان واضحا أن على أسبانيا جلب احترام وثقة الكثيرين عن طريق تحرر نظامها وانفتاحه واتكائه على الديمقراطية الحقة . بحثا عن هذا الاحترام وهذه الثقة انتقل الملك خلال السنتين الأولين وبصحبته دوما حرمه الملكة صوفية إلى أقطار أميريكا ثم الفاتيكان فمصر والأردن وألمانيا وبلجيكا والمملكة السعودية والنمسا وإيران والصين وعدد من الأقطار الافريقية .

قد لا نخطىء إذا قلنا أن زيارته التي حطمت الثلج وأزالت الغموض حوله وحول عهد أسبانيا الجديد هي زيارة الولايات المتحدة التي قام بها ما بين يومي 31 مايو ﴿ آيار ﴾ و6 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1976 وكانت بشكل ما أولى حلقات سلسلة زياراته . لقد اكتست الزيارة أهميتها لعدة أسباب منها البلاد المزارة ومناسبتها علاوة

على خطابه الأساسي أثناءها ومكانه . فقد ألقي خطابا عظيما باللغة الانجليزية في جلسة موحدة عقدها خصيصا مجلسا النواب والشيوخ بالمناسبة فشرح الملك لمستمعيه وللعالم بأسره من ورائهم صورة النظام الذي ستقيمه أسبانيا لنفسها والذي سيكون هو، الملك ، حاميه وراعيه .

وهكذا وبانتهاء عام 1977 كانت كل القواعد قد وضعت وأحضرت أهم العناصر والمكونات لإقامة النظام المنتظر بديل الدكتاتورية السالفة ، وهذا النظام ليس سوى ملكية دستورية ديمقراطية السيادة فيها للشعب والحكم فيها للعدل والقانون والعمل فيها للجميع .

معاهدات مونكلووا : للظروف أحيانا أحكامها وأهواؤها وهي بحكم ذلك كثيرا ما تكيف أعمال وأحوال البشر فتؤثر في أوضاع الدول والبلدان . أرادت هذه الظروف أن تتزامن مع وفاة فرانكو وإقدام أسبانيا على إقامة نظام بديل للسابق مع أزمة اقتصادية عالمية حادة كانت عندما بدأ التحول في أيامها الأولى منذرة بعظيم الأخطار والصعوبات ولم يكن أحد يستطيع إذاك التكهن بموعد زوالها ولا بكيفية نهايتها . فالصناعة والتجارة أخذتا في التقلص والأسعار ارتفعت بصفة سريعة مفزعة وخاصة أسعار الطاقة وفي مقدمتها النفط ، والمقدرة الشرائية في معظم البلدان قد انخفضت والتضخم المالي بلغ نسبا خيالية مخيفة ومهددة بانهيار الاقتصاد العالمي في مجموعه . كانت الأزمة عالمية شاملة ولم تكن أسبانيا لتشذ فتفلت من الوقوع تحت وطأتها بل كانت أنسب من غيرها وأخصب لتكبر فيها الأزمة فتكون أشد وطئا وأقوى تأثيراً . لقد كانت السنوات الأخيرة من حياة فرانكو سنوات جمود اقتصادي اقتصرت فيه الحياة الاقتصادية على " العيش " يوما بيوم دون مخططات مستقبلية ولا برامج تحوير أو تطوير ولا حتى اهتمام بالأزمة الزاحفة محاولة اتخاذ تدابير أو إجراءات لرد البعض من أخطارها ومؤثراتها . كان الجميع في معزل وبعد عن ما يمكن أن نسميه بالضروريات اليومية وانحصرت الحياة في حالة فرانكو الصحية التي استقطبت كل الأنظار والاهتمامات خاصة بعد أن بدأ يمرض ويعلن عن مرضه .

كانت الأزمة إذن حادة فى أسبانيا أيضا حيث أرتفع التضخم وكان مستمرا في ارتفاعه فوجب الحد من ذلك كما وجبت مراقبة الأجور والإقلال من تبعية البلاد

بـالخارج فيما يتعلق بالطـاقة . لقـد بلغ التضخم في أواخـر عام 1977 نسبـة 37٪ وانخفض الاحتيـاطي من العملـة الصعبـة وفي ميـزان المدفوعـات إلى مستـوى يهدد بالعجز عن تمويل الـواردات وباثارة قلاقل اجتماعيـة قد تنسف الديمقراطيـة الوليدة من أساسها .

هل كان المسؤولون الجدد وفي مقدمتهم الـرئيس سووارث شاعرين بخطورة الموقف والأوضاع الاقتصادية ؟ كان كل القادة ودون أي استثناء على بينة جلية لما عليه الوضع الاقتصادي داخليا وخارجيا وكان كلهم يولـونه الأولوية حتى على المشاكل السياسية التي هم بصددها . فالرئيس سـووارث قد اختار على رأس وزارة الاقتصاد واحدا من كبار الأساتـذة في هذا المجال ومن أبرز وأقدر الخبراء في الميدان وهـو الأستاذ فووانتس كتتانا الذي رفض في البداية قبـول تحمل المسؤولية ولكن الحاح السيد سووارث قضى على تـردده فأصبح نائب رئيس الـوزراء مكلفا بـالشؤون الاقتصـادية . ثم إن السيـد سووارث كـان فى جميع مفاوضاتـه مع زعماء المعارضة يطـرح المشكل الاقتصادي قبل غيره من المواضيع التي كان يتناولها بالدرس مع الزعماء الآخرين .

لم يكن هـذا غـريبا منـه ولا تلقـائيـا . فـالوضع يجبر على ذلك والحكمـة تـوصي بالتعجيل بعد الاهتمام ولذا فمنذ العاشر من سبتمبر « أيلول » أي بعد شهرين فقط من تشكيله الحكومة توجه إلى الشعب بخطابـه الذي قدم به قانون الإصلاح السياسي ملفتـا انتباه الجميع إلى خطـورة الـوضع طالبـا من كل الأطـراف والفئات الاجتماعيـة إعطاء الأزمة الاقتصـادية ما تستحقه من الاهتمام والعناية والبـذل وقال " ان المشاكل الأكثر قربا هي ، بدون شك ، المتعلقة بحياتنا اليـومية . فأنا شاعر ، وكذلك كامل أعضاء الحكومة ، بأننا تحملنا إدارة وضع اقتصادي صعب جدا . وبديهي بأن تشغل بالكم هذه الصعوبات وطبيعي أن يحسها الشعب الأسباني بأسره وأن يتألم لوقعها ذوو الدخل الضعيف أكثر من غيرهم . لذا فمن حق كل الأسبان أن يطالبوا بعلاج ناجع علما بأننا أمـام ظرف تصادف فيه التحـوّل السياسي الضروري مع الأزمة الاقتصـادية حتى أن كل الحلـول بـدت بـاهظة التكـاليف وأن بعض التراتيب التي تبـدو حسنـة سياسيا هي غير مناسبة اقتصاديا وبالعكس .

وهذه الحال تزداد خطورة لأنه إذا كانت الأوضاع الاقتصادية الغربية قد تأثرت من جـراء أزمة الطـاقـة فإن أسبانيـا لم تتعـرض إلى تسـديد فـاتـورة ارتفاع أسعـار النفط

فحسب، بل عليها أن تتحمل كذلك الانعكاس السلبي على سياحتنا وتجارتنا الخارجية الناتج عن تأثير البلدان الأخرى بالأزمة. إن الأزمة الاقتصادية العالمية قد كان ضررها أكثر على بلد كبلدنا ، يسير في طريق النمو ولكنه ليس بعد بلدا ناميا .

فهذا الوضع يحتاج إلى المزيد من التقشف على كل المستويات ، العمومية منها والخاصة وإلى حد أعلى من الشعور بالمسؤولية من طرف أرباب العمل والعمال الذين لابد وأن تتفق مصالحهم أساسا في وقت أهم ما فيه هو تحريك اقتصادنا عن طريق تشجيع المبادرة الشخصية والتعاون بين جميع المسهمين في الحركة الانتاجية ولنعترف جميعا بأن المشاكل التي أمام أسبانيا ، مثل ما هو الشأن بالنسبة إلى أي بلد ينمو ، لا يمكن حلها مرة وأنه ليس بيد الحكومة طريقة سحرية قادرة على حل تلك المشاكل في الحين " .

إن الحل يكمن في إعطاء المشكل أهميته المستحقة وفي مجابهته بكل واقعية وصراحة وعزم وفي توافر الجهود وتعاون الجميع لأنه ، كما قال نائب رئيس الحكومة إذاك ، المكلف بالشؤون الاقتصادية الأستاذ فووانتس كنتانا " ان أية أزمة اقتصادية تطرح مشاكل يغامر عند تحسسها ومعالجتها بشرعية النظام الديمقراطي إذ كيف يمكن تعزيز نظام ديمقراطي لا يضع المجتمع أمام مسؤولياته أولا يطلب منه مجهوده وتعاونه لحل المشاكل التي تمس يوميا بحياة جميع المواطنين وبحياة المجتمع الذي يشكو تلك المشاكل ؟ فهل من الممكن الوصول إلى دستور ديمقراطي في بلد مثل أسبانيا ، يخسر يوميا ﴿بعد الانتخابات﴾ مائة مليون دولار تسحب من رصيده الاحتياطي الخارجي الذي لم يكن يكفي لتغطية حاجيات التوريد لأكثر من ثلاثة أشهر ؟ وكيف يمكن بناء تعايش ديمقراطي مستقر فوق عدم استقرار التضخم الذي زاد في شهر يوليو ﴿ تموز ﴾ 1977 عن 35٪ فأبعدنا نهائيا عن أوربا ؟ وكيف يمكن الضمان في حياة اقتصادية لمجتمع تجاهل أزمة الطاقة المرعبة التي غيرت الطباع والتصرفات في جميع البلدان الغربية باستثناء بلدنا ؟ وكيف يمكن بناء تعايش مستقر على هيكل انتاجي موروث عن الماضي وتضرر عدد كبير من قطاعاته الصناعية بسبب الأزمة ؟ وأخيرا كيف يمكن تشييد مجتمع ديمقراطي متقدم بنظام اقتصادي بعيد الصلة بنظام العرض والطلب السائد في جميع البلدان الغربية ؟ إن الشعور الكامل بالخطورة

والتأثير السياسي لكل هذه الأسئلة هو شرط أولي لبناء الديمقراطية التي ترغبها أغلبية المواطنين وللوصول إلى الدستور " .

كانت هذه وغيرها صيحات ذعر وانذار من طرف الخبير المتخصص لم يهملها أحد ولكن لم تؤخذ بعين الاعتبار على حذافيرها . فالاستاذ فووانتس كنتانا يرى وجوب تقديم الاقتصاد على السياسة بينها الساسة ، بحكم اختصاصهم وحتى غاياتهم ، قدموا السياسة لكن دون إهمال الاقتصاد كما رأينا عبر خطاب واهتمامات الرئيس سووارث الذي اتفق معه كل قادة الأحزاب تقريبا . ففي أحد اللقاءات الأولى من بين تلك التي كانت تعقد في سرية أو شبه سرية بين عدد من الزعماء ، يحدثنا السيد أريلثا وكاريو عن الأهمية التي كان يوليها قادة المعارضة للأوضاع الاقتصادية ومشاكلها . انعقد اجتماع في شكل مأدبة عشاء ببيت السيد خوزي ماريا أريلثا حضره السادة خوواكين رويث خيمانث وأنريكي تيارنو غالبان وفيلبي غونثالث وسينييوسا وسان تياغو كاريو وصاحب البيت الأستاذ أريلثا وتناول أثناءه الزعماء الستة مختلف مشاكل الساعة وفي مقدمتها المشكل الاقتصادي بالرغم من أن الأحزاب كانت إذاك محجرة وكان شغلها الأكبر الحصول على الشرعية وتغيير القوانين المجحفة . يقول السيد كاريو " بعد عرض الأستاذ أريلثا أعطى ضيوفه الكلمة فاقترح أنريكي وخوواكين بأن أكون البادىء فحصرت رأي الحزب في ثلاث نقاط . أولا ان ما يشغل بالنا أكثر من الاستفتاء والانتخابات هو وضع البلاد وخاصة منه الاقتصادي . فالأزمة كانت خطرة جدا وستزداد حدة وخطورة عندما ترتفع أسعار النفط أكثر في مستهل السنة (1978) إن العلوم الاقتصادية لا تزال تفتقر إلى حلول لأزمة مثل هذه غير العادية والتي لها مميزات جديدة تماما لم أتعرض إليها باعتبارها في متناول الجميع .

إن الامكانية الوحيدة لمجابهة هذه الأزمة بصفة بناءة تمر حتما عبر اتفاق وطني بين الرأسماليين والعمال . . . كثر الحديث في هذه الآونة عن " ميثاق اجتماعي " كاكسير آت من أوساط المؤسسات والسلطة . . . لكن ما يغيب عن الأذهان في كل هذا هو أن البلدان التي يتم فيها الوصول إلى " ميثاق اجتماعي " هي تلك التي توجد أحزابها الممثلة للعمال في السلطة أو هي بديل شرعي للسلطة فتستشيرها الحكومة . وفي أسبانيا ليس ثمة ما يشبه ذلك بل بالعكس . والبلدان التي ليس فيها هذه المعطيات ينعدم فيها الميثاق الاجتماعي وهو مع ذلك مستحيل .

إن العمال في أسبانيا يمثلهم سياسيا الشيوعيون والاشتراكيون وهم ليسوا بعيدين عن السلطة فحسب بل هم ليسوا بديلا شرعيا وهم الآن مهمشون ومحرومون من الشرعية".

ولذا إن لم يتغير هذا الوضع لن يكون هناك " ميثاق اجتماعي " ولا اتفاق وطني. . . ونظرا للوضع الاقتصادى الذي نعيشه ، وما هو آت أخطر منه ، بامكان أي كان أن يستنتج ما يمكن أن يجري في هذا البلد . وإن لم يكف كل هذا فلا بد من الأخذ بعين الاعتبار بأن الأزمة عالمية وان أسبانيا لن تستطيع حل مشاكلها بفضل ازدهار الآخرين كما حدث منذ عهد قريب " سياحة وإرساليات العمال في الخارج واستثمارات أجنبية . فكل بلد سيهتم بنفسه قبل أي اعتبار آخر " (73) .

كان الجميع إذن شاعرا بخطورة الوضع ويرى الأزمة ويلمسها ويؤمن بوجوب التصدي لها قبل كل شيء وظهرت للجميع الحاجة في جعل الاقتصاد يتطور ويتماشى مع الشكل الجديد للمجتمع الأسبانى وهذا يعني توزيعا عادلا للثروة وتحسين الخدمات الاجتماعية داخل نظام اقتصادي ذي وجهين ، خاص وعمومي ، يزول منه أسلوب الحماية والمساندة الذي خلق روح اتكال قضت على كل مبادرة أو أقدام . هذا هو شكل النظام الاقتصادي الذي كان على أسبانيا اعتناقه إذا هي أرادت الإنضمام إلى السوق الأوربية المشتركة التي قدمت إليها طلبا في ذلك في شهر يوليو « تموز » 1977 وكان الطلب مؤيدا ومزكى من طرف كل الأحزاب الوطنية . غير أن كل هذا كان يستوجب اتخاذ إجراءات شديدة الصرامة ومكلفة العمال تضحيات جسيمة . ومثل هذه الإجراءات لم يمكن اتخاذها ممكنا خلال فترة تقام فيها الديمقراطية حتى لا تعتبر هذه الأخيرة سياسة " الدم والدموع " كما قال روبرت غراهام ولها تنسب كل الإصلاحات والسياسات العديمة الشعبية .

كان السيد سووارث يعرف كل هذه الصعاب والعقبات ولكن كان لابد له أن يجابه تلك الحقائق وأن يسعى لحل المشاكل بأحسن وأسرع ما يمكن ولهذا بذل كل ما في وسعه ليصل مع كل الأطراف إلى اتفاق يكون قاعدة للعمل المشترك والجهد والتضحيات الجماعية يمكن على الأقل من اجتياز مرحلة أولى ، مرحلة إتمام تشييد النظام الجديد وهو بعدها كفيل وحده بمعالجة الأوضاع وحل المشاكل . وهكذا ،

وبفضل حـرصـه وتفهم واستعداد زعماء الأحـزاب وأربـاب العمل واتحادات الشغل أمكن الوصول إلى الاتفاق وابرام ميثاق مونكلووا الذي اعتبر في حينه " تحوّلا " داخل التحوّل الكبير .

كانت الغـاية الأولى من ميثاق مـونكلووا ، كما أسلفنا ، مجابهة الأزمة الاقتصـادية والحد من أثقالها ولكن خلافـا لما أراده الأستاذ فوويتتس كنتانا ونادى بـه ، وخلافا لما كانـت تقتضيه الأوضاع ، تقـدم الحل السياسي على الحل الاقتصـادي وهيمن الأول على الثاني وعلى غيره من الحلول الأخرى . فقطاع مثـل قطاع التعليم والتربية الوطنية مثلا وأهميته وأولويته ، ذهب هو الآخر ضحية السياسة فسبقته وتلاها . لكن الميثاق في جملته وخاصة من حيث مفهومه العام وروح الوفاق والتعايش والتضامن الذي دفع إلى إبرامه ، هـو كما قال السيد سووارث " برنامج اقتصـادي قد جاء ليبرهن من وراء قيمته الفعلية على أن الديمقـراطية ممكنة في أسبانيا وليزيـد في قيمة الأحزاب ويحسنها ويزيد من قيمة البرلمان إذ استطاعوا جميعا أن يقولوا للبلاد ، وعن طريق الواقع المنجز الملموس ، بأن التفـاهم ممكن إذا انطلق من تولينا لهذا الـزمن التاريخي الفريـد الذي نحياه .

فـلأول مرة ، اتفقت قـوات ذات عقائد مختلفـة على طروحـات أساسيـة لتحسس وحل الأزمة الاقتصادية البينة التي تعانيها حـاليا أسبانيا . . . ان الحكومة ومعها أغلبيـة القـوى السيـاسيـة والاجتماعيـة ، قـد رأت أن القـرارات الخطيرة والضروريـة للتغلـب على الأزمـة الاقتصادية ، تتطلب إرادة جماعيـة لتحمل أعباء هـذا البرنامج بصفة عـادلة وهذا بدوره كـان في حاجة إلى الاتفاق داخل بـرنامج جماعي لا ينسب لأي حزب بل هو الاتفاق المتماسك بين الجميع وهذا هو ميثاق مونكلووا " .

كـان هذا الميثـاق مكوّنـا من جـزأين أو كان ذا وجهين ، أحـدهما سياسي والثـاني اقتصادي . أما السياسي فكـان أقرب شيء إلى موجز دستور أو هو مـوجز لما سيكون عليه الدستور المنتظر وإطار للتعامل والتعايش ريثما يجهز الدستور . فقد احتوى على تسعة أبـواب رئيسية وضعت فيها أسس حـرية التعبير وحرية وسـائل الاتصال وحق التجمع وحق تأسيس الجمعيات السياسيـة وتحوير القانون الجنائي وقانـون المحاكمة الجنائيـة وقانـون العدالـة العسكريـة والأمن العام وإعـادة تنظيم قوات الأمـن . أما

الجانب الاقتصادي للميثاق فقد احتوى على عشرة أبواب وضعت فيها الأسس للإصلاح الاقتصادي وللإصلاح الجبائي ولمراقبة المصروفات العمومية وللسياسة التربوية والسياسة المعمارية ولإصلاح التأمين الاجتماعي والنظام المالي والسياسة الزراعية والبحرية ولسياسة الطاقة وأخيرا مفاهيم نظام الأقاليم المستقلة .

جلي من خلال عناوين أبواب الميثاق أن هذا الأخير قد وضع الخطوط العريضة للسياسة الاقتصادية والإصلاحية التي سيتبعها السيد سووارث والتي رغم كل شيء أعطت نتائج ملموسة وأثبتت بدون أي شك أنه تم تحقيق الغاية العامة التي وضع من أجلها الميثاق . ففي فترة حيوية حاسمة كمرحلة التحوّل أمكن الحفاظ على التماسك والانسجام الاجتماعي . أما المشكل الاقتصادي المستعجل والأكثر خطورة وهو التضخم المالي المتزايد بصفة مهولة فقد أمكن الحد منه بنسبة معقولة . ومكن الميثاق كذلك من مراجعة النظام الجبائي مراجعة أساسية لم تكلف إلا تضحيات خفيفة ونتيجة لذلك شهدت أسبانيا إسهام أغلبية الأجزاء في مالية الدولة . فقد أكدت الإحصائيات في هذا الخصوص أن نسبة الذين دفعوا الضرائب التي عليهم قد ارتفعت إلى سبعة أضعاف بين أواخر عهد فرانكو والمرحلة الأولى من التحوّل ، وهذا مكن الحكومة بطبيعة الحال من تقديم المزيد من الخدمات الاجتماعية وتحسينها وأعطى النقابات تشريعات مكنتها من اقامة حوار مع أرباب العمل انطلاقا من مواقع مستقلة . ولذا ، وكما قال روبرت غراهام " إن الأهمية التي تنسب لميثاق مونكلووا لن تكون أبدا مبالغا فيها " .

لكل دولة دولة : ما إن تمت الانتخابات التشريعية الديمقراطية الأولى يوم 15 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1977 حتى أنكبت كل القوى الحية في البلاد على بناء الصرح الجديد ، صرح نظام ديمقراطي يرعاه ويسهر على سلامته ملك دستوري ، يعمل على أن يظل الدستور للجميع ، وأن تبقى السيادة للشعب دون حيف أو تمييز.

شرع البرلمان الجديد ، الذي أسفرت عنه أول انتخابات ديمقراطية حرة يمارسها الشعب الأسباني بعد توقف زاد عن الأربعين عاما ، شرع في أعماله وكان أولها وأهمها إعداد دستور للبلاد يكون الإطار الذي تدور داخله اللعبة الديمقراطية بين كل فئات الشعب وكل عناصره مهما كانت معتقداتها وميولاتها المذهبية أو السياسية . كان لابد وأن يكون دستورا يخالف الدساتير الكثيرة الأخرى التي عرفتها أسبانيا .

كانت كل أو معظم الدساتير السابقة نتيجة اجهاد شق معين من الشعب كانت له الغلبة أو دانت لـه السلطة في ظـرف معين فتلون الـدستور بلون ميـولات ذلك الشق السياسيـة والاقتصاديـة وحتى العقائدية فأهملت عن قصـد أو عن غير قصد مـا قد يوجد في البلاد من آراء واتجاهات وميـولات مختلفة عما دوّن وقنّن بالدستور إن لم تكن متقابلـة ومتناقضة معـه . كان عدم الشمول هـذا أو عدم اعتبار أكثـر ما يمكن من الاتجاهات سببا في فشل كل تلك الدسـاتير التى لم يصل بعضها حتى ولا إلى دخول حيز التنفيذ . ونظرا لتلك التجارب المريرة وتجنبا للوقوع في ما وقع فيه السلف ، تركز الاهتمام على أن يكـون الدستـور الجديد متسعـا للجميع ، يستطيع العيش تحتـه كل أسباني مهما كـان معتقده ومهما كـان وسطه الاجتماعي ومهما كـانت ثقافتـه أو سنه أو ثروته أو نـزعاته الفكرية والسيـاسية وغيرها . تركـز الاهتمام إذن على أن يكون دستور الجميع وكي يضمن ذلك لابـد وأن يسهم في إعـداده الجميع . فـالبرلمان النـاتج عن انتخـابـات حـرة مبـاشرة خـاليـة من كل زيف أو غش أو تحريف ،. وهـو خير ممثل للشعب ولذا منه ستأتي اللجنة التي ستعد الدستـور بل مسودة الدستور وتقدمها بعد ذلك للبرلمان لمناقشة البنود وتحويرها إن لزم الأمر .

تشكلت هـذه اللجنة من نـواب عن كل الأحزاب التي حصلت على تمثيل بـرلماني وكان كل أعضاء اللجنة من أبرز أساتذة التشريع والقانون وهـم السادة ميغال هيريرو اي رودريغث دى منيـون وغابـريـال ثسنـاروس وجوردي سـولي تـورا وميكال روكـا جونيانت ومانوال فراغا ايريبارني وخوزي بيدرو بيرث يوركا وغريغوريو بيثس باربا .

انكب الأسـاتـذة على مهمتهم التاريخيـة الصعبـة وبعد أربعـة عشر شهـرا أمكن للشعب الأسباني أن يزكي فـي استفتـاء عـام أجـري يـوم 6 ديسمبـر ﴿ كانون أول ﴾ 1978 أول دستور " جماعي " قد مرت عليه اليوم عشر سنوات وهو لا يزال يثبت صلاحيتـه وجدواه . لقد اتهم بعضهم الدستـور الأسباني لسنة 1978 بأنه مبهم من بعض الوجوه وتعوزه الدقة أحيـانا . قد يكون ذلك ، وقد يكون في هذا الـدستور بعض الهفـوات أو النقائص التقنيـة فما هو إلا عمل بشري . لكن التـاريخ الأسباني جاء حافلا ، كما أشرنا سلفا ، بـالدساتير التي اتصف بعضها بالكمال تقنيا وعلميا ولكنهـا لم تصلح عمليا . فالغايـة الكبرى التي سهر على تحقيقها عنـد إعداد الدستـور هي " أن تقع مماشـاة الايديولـوجيات مع الفرصـة السياسيـة داخل النظام لاعلى حسابه " كما قال السيد سووارث . ولذا جـاء هذا الدستور سامحا بأن يحكم به

وفي ظله اليمينيون واليساريـون على حد سواء وجاء دستورا مليئا بـروح الاعتدال لأنه ولد عن الاعتدال .

لما تمت التزكية الشعبية للدستـور وصادق عليه الملك في حفل بهيج انتظم تحت قبة البرلمان يـوم 27 ديسمبر ﴿ كـانـون أول ﴾ 1978 ، اعتبر السيـد سـووارث أن دور البرلمان الناتج عن انتخابات يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1977 قد انتهى والضرورة تدعو إلى تغييره ، فهو بصفـة ما ، لم يكن سوى مجلس تأسيسي ينتهي دوره ويزول بـزوال سببه ولابد أن تجري انتخابات جديدة طبقا لأحكام الدستور الجديد . وهكذا حل البرلمان ودعي الشعب إلى انتخابات أخـرى جرت في 1 مارس ﴿ آذار ﴾ 1979 أسفرت على نتيجـة مشابهة جـدا لنتـائج الانتخابـات السـابقة لها إذ انتصر في المرتبـة الأولى ودون الاحراز على الأغلبية المطلقة ، حزب السيد سـووارث ، اتحاد الوسط الديمقـــراطي (168 مقعدا) وجـاء بعـــده الحزب الاشتراكي العمالي ، حـــزب السيـــد فيلبي غـونثالث (121 مقعـدا) ومـن ورائه وعلى مسـافة كبيرة حـزب السيد سـان تياغـو كاريو، الحزب الشيوعي الأسبـاني (23 مقعدا) متبوعا بالتحـالف الشعبي ، حزب السيد مانوال فراغا (9 مقاعد) .

بهذه الانتخابات كانت البلاد قد اتمت وضع الأسس الرئيسية للنظام الديمقراطي الجديد وقد اثبتت خلال كل هذه المرحلة الصعبة ، نضجها وحيويتها وايمانها بضرورة التعايش وسط نظام ديمقراطي سليم . أما الآن فأمامها البناء ، أمامها الحياة بما فيها من مشاكل وأتعاب وظـروف حرجة ، أمامها المستقبل الذي من أجلـه سيقام النظام الـديمقـراطـي . على هـذا الـدرب وفي سبيل بلـوغ المزيـد مـن الاستقـرار والتقـدم والرفاهية ، انتظمت الحياة السياسيـة وسارت سيرها الطبيعي الذي سوف لا يخلو من الهزات .

كانت الديمقراطية تفرض تغييرا جذريا في مفهوم قوات الأمن ودورها فهي بدل أن تخصص الجهـد لمتـابعة " السيـاسيـة وأصحـابها خـدمة للنظـام ، عليهـا أن تحمي الحريات العامـة وتسهر على راحة المجتمع بأكمله . فدورهـا يجب أن يكون اجتماعيا لا سياسيا وعليها أن تحوز على احترام المواطنين أو حتى محبتهم فـاستكانتهم . كانت الشرطة المسلحة أحوج من قوات الأمن إلى التحرير والتطوير فلم تتردد حكومة السيد سووارث في ذلك وأقدمت على تغيير اسم هذه القـوة وزيها فتحولت منذ عام 1979

إلى " شرطة وطنية " وأصبح الرمادي بنيا . لم يكن التغيير في أوله كبيرا ولا عميقا ولكنه كان كافيا بأن يحدث في الشعب وفي أعوان الشرطة أنفسهم صدمة أو انطباعا نفسانيا أبعد الماضي وذكرياته الأليمة وهيأ لتنظيم شرطة مدنية عصرية .

رغب الجميع في ادخال مثل هذه التحويرات على " الحرس المدني " لكن اصطدمت الرغبة وحتى المحاولات بعدم قبول إن لم نقل برفض من جانب أوساط هذه القوة . فهي قوة عسكرية ولا رغبة لها في إعطائها طابعا مدنيا كما يريد المسؤولون . رغم كل التهم التي حامت حول تصرفات بعض أفرادها لم تستطع حكومة الوسط برئاسة السيد سووارث ولا الحكومة الاشتراكية برئاسة السيد غونثالث ادخال التغيير الجوهري المراد ادخاله عليها ولو أن حكومة السيد غونثالث استطاعت أن تضعها تحت أمرة رجل مدني بدل القائد العسكري الذي أحتل دوما منصب ادارتها .

كان الجهاز العدلي هو الآخر ، ولا يزال ، في حاجة إلى إصلاح جذري عميق . فميراث عهد فرانكو في هذا المجال كان ثقيلا وكان أي تدخل من طرف السلطة التنفيذية يصطدم بالحرص على استقلال العدالة كما هي الحال في أي نظام ديمقراطي ونظام أسبانيا يريد أن يكون كذلك . ثم انه ، لان تغيرت الظروف التي تعمل فيها العدالة وتغيرت بعض القوانين فالذين ينفذون القانون لم يتغيروا ولا تغيرت عقلياتهم . ورغم هذا فقد أمكن القضاء على محاكم الأمن العام الشهيرة التي أرعبت الشعب خلال عهد فرانكو كما أمكن تنظيم المحاكم تنظيما جديدا . ولما صدر الدستور ونص على أن " العدالة تنبع من الشعب " كان لزاما بأن يوكل تسيير إدارة تلك العدالة إلى " قضاة وحكام تابعين لسلك القضاء مستقلين غير خاضعين إلى خلع ومسؤولين وخاضعين لهيمنة القانون لا غير " . هكذا نص الفصل 117 من الدستور الذي حرم انشاء المحاكم الخاصة وأنشأ المجلس العام للسلطة العدلية الذي رأى النور سنة 1980 واعتبر ، بل كان فعلا ، خطوة كبيرة نحو استقلال وحياد السلطة العدلية . هذه السلطة التي لا بد للجانب العسكري منها أن يخضع للمدني . لم يكن هذا بالأمر الهين ولكن رغم كل شيء فقد أصدر عام 1981 قانون العدالة العسكرية فحد كثيرا من صلاحيات المحاكم العسكرية وفتح المجال لاستئناف أحكامها أمام المحكمة العليا ذات الطابع المدني الصرف .

كانت الإدارة العمومية هي أيضا في حاجة إلى إصلاح واسع عميق لأنها كانت مبنية على نظام تستطيع تسميته بنظام الرابطات أو الاختصاصات إذ كان صنف من الموظفين كالمهندسين أو المحامين أو غيرهم كان يدخل الرابطة أولا أو النقابة الخاصة بأصحاب مهنته عن طريق الامتحانات وفي حالة النجاح يصبح المعني موظفا في ذلك السلك مدى الحياة . ونتيجة لهذا النظام الذي بسطنا وصفه بالغ التبسيط ، كانت الوظيفة العمومية تفتقر إلى أساس وجوهر وجودها وهو الخدمة العامة وخدمة المجتمع خاصة إذا عرفنا أن الوظيفة العمومية حشرت أيام فرانكو بالكثيرين مقابل خدمات سياسية قدمت ولذا كان من أهم الضرورات منذ بداية التحول ، إعادة تنظيم الإدارة بطرق عصرية محكمة . ولهذا الغرض شرع عام 1978 في إعداد قانون الإصلاح الإداري ثم اعيد تحريره سنة 1980 ولكنه لم يصدر ولم ير النور لتضارب المصالح داخل الحزب الحاكم إذاك ، حزب اتحاد الوسط الديمقراطي الذي كثيرا ما عرقل بخلافاته الداخلية ، الخلافات المستمرة بين مختلف الكتل التي يتكون منها الحزب ، إصدار أو تنفيذ قرارات ذات أهمية كبرى رغم كل ما بذله الرئيس سووارث من جهد وقوة .

لهذا اغتنم الاشتراكيون وهم في المعارضة هذا النقص فشجبوا حكومة السيد سووارث من أجله ومن أجل ما ارتأوه من نقائص واعدين بالإصلاح الجذري والقضاء على ازدواج العمل من طرف الموظفين إلى غير ذلك من الوعود التي نفذوا بل حاولوا بجد وبصدق تنفيذها لما وصلوا إلى السلطة ورغم هذا فإن الإدارة لا تزال تشكو عيوبا كثيرة بسبب الصعاب التي وجدها ويجدها كل إصلاح مهما كان مأتاه ولو أن الدلائل تشير إلى تحسين ولو بطيء ساعد عليه نقل الكثير من السلطات والاختصاصات من الحكومة المركزية إلى الحكومات الإقليمية .

إن ما اشار إليه الملك في أول خطاب له اثر مبايعته من احترام مميزات وثقافة ولسان كل شعب من شعوب أسبانيا ، لم يكن يعني سوى نية منح تلك الشعوب وأقاليمها نوعا من الحكم الذاتي يمكن من تخفيف المركزية التي كانت دوما عائقا في سبيل تقدم أسبانيا ويعطي الفرصة لكل اقليم وأهله من تطوير أنفسهم بأنفسهم طبقا لمقتضيات كينونتهم ومميزاتهم الثقافية . داخل هذا الإطار والمفهوم وعدُ حكومة السيد سووارث

وشرعت في الإيفاء بالوعد بمنح الاقاليم حكمها الذاتي ثم جاء الدستور وصير تلك الوعود شرعا وحقا وقانونا فاعترف بالذاتية الخاصة لا للأقاليم المعروفة " بالتاريخية " كقاطالونيا وبلاد الباسك فحسب ، بل لسبعة عشر اقليما اصبحت تتكون منها أسبانيا .

لقد أثارت هذه الخطوة الغضب والنقد والرفض من جوانب كثيرة من المجتمع الأسباني ، بالرغم من أنها من أهم الخطى ، إن لم تكن أهم خطوة ، نفذت لاقامة الديمقراطية الحقة وضمان مسيرتها . لقد صاح المحافظون التقليديون وفي مقدمتهم جانب كبير من رجالات القوات المسلحة منددين بضياع وحدة أسبانيا وتفكك أجزائها بينما صاح أهل بعض الأقاليم منددين بقلة ما منحوا من استقلال وحكم ذاتي . كانت خطوة صعبة عسيرة واجهها السيد سووارث مسنودا من طرف الملك والأحزاب اليسارية ، وبكل شجاعة وصبر وتؤدة يقول السيد سووارث غراهام بهذا الخصوص " إن الاعتراف بالمطالب التاريخية لإعطاء الحكم الذاتي للباسكيين والقاطالانيين جاء داخل نسق المصالحة الوطنية التي شرع فيها على أثر وفاة فرانكو . ولكن بين الاعتراف بهذه المطالبات وبين الشروع في إرضائها مرت سبع سنوات وبذلك ضاع وقت ثمين بينما أرياس وبعده سووارث يترددان دون معرفة إلى أي حد سيصل ارضاء مطالب الحكم الذاتي وإن اقتراحات العفو العام والوعد بالحكم الذاتي المطروحة في أواخر 1977 قد تأخر انجازها كثيرا وجاءت مبهمة فلم تشجع على ايقاف العنف المسلح الذي كانت تقوم به منظمة " ايتا " وأشعرت مجموع الباسكيين بخيبة أمل نتيجة تأجيل الاستجابة إلى مطالبتهم . أما القطلانيين فقد بدوا أكثر اتزانا لكن لا أقل خيبة . . . بعد سنة عاد الزعيم القاطالاني القديم جوزيف تاراداياس من المنفى وحيى الجماهير الغفيرة التى كانت في استقبالـه بقوله " وأخيرا ها أنا هنا " .

أثبت تاراداياس أنه سياسي أصيل استطاع بسرعة مراقبة خيوط السلطة في قاطالونيا مما جعل منه مفاوضا معتدلا لمدريد . ورغم هذا ، أجبر القاطالانيون على الانتظار حتى عام 1979 ليحصلوا على القانون الأساسي لحكمهم الذاتي وقد كان متوقفا على المفاوضات مع الباسكيين (74) .

ليس من السهل الخروج من مركزية شديدة قوية إلى توزيع السلطة في ما يشبه الفيديرالية وأقل من هذا سهولة أيضا إرضاء أقليات تؤمن بذاتيتها وشخصيتها ومميزاتها وترغب التحكم فيها بنفسها ، ولذا كان مشكل الحكم الذاتي منذ بداية التحوّل إلى اليوم خاضعا إلى مد وجزر ، ومطالبات وترضيات ، وأخذ وعطاء ، وهو الآن في طريقه إلى الاستقرار النهائي إذا حلت معظم المشاكل الأساسية وبقيت شكليات تتعلق أحيانا بنوع وحجم السلطات التي تنقل نهائيا إلى الإقليم وأحيانا أخرى تتعلق بالاختصاصات إلى غير ذلك مما لا يمس بجوهر الموضوع ألا وهو تمتع كل أقليم بحكمه الذاتي مجسما ذلك بحكومة وبرلمان محليين وما إليهما من مصالح وإدارات .

هذه نماذج من المشاكل الكثيرة سقناها لإعطاء فكرة ولو غير مكتملة عما كان على القادة والمسؤولين الأسبان عمله خلال السنوات القليلة الأولى من التحوّل . وإذا أضفنا لكل هذه المشاكل والتشريعات والتنظيمات والإرهاب بكل ألوانه وأشكاله عرفنا حق المعرفة ما كان يحتاجه التحوّل من مجهودات جماعية وفردية ومن تآزر وتعاون في كل الميادين وكل ذلك داخل اطار سياسة رصينة ومنجزة ، معتدلة وحازمة ، قوية ومتفهمة لأن الإرهاب بالذات كان يرى أن البساط يسحب من تحت قدميه شيئا فشيئا لأنه بقدر ما تتمركز الديمقراطية ويتمتع المواطنون جميعهم بكل الحريات والحقوق الطبيعية بقدر ما تزول أعذار الارهاب المسببة وجوده فيزيد خروجا عن القانون ويضعف سنده الشعبي وحتى العالمي الذي تمتع به أيام الكفاح ضد الدكتاتورية والقمع .

جابه السيد سووارث كل المشاكل بشجاعة وصبر واقدام وحزم فشهد له بذلك حتى ألد خصومه . فهو بعد إعلان الدستور وإجراء الانتخابات قد أصبح مسؤولا أمام البرلمان ليس له فيه إلاّ أغلبية نسبية وله فيه حزب معارض في قوة حزبه تقريبا وزعيم معارضة مصمم على تحقيق الكثير ومصمم على الوصول إلى منصب الرئاسة ايضا . شبيه كان وضعه داخل مجلس الشيوخ أو في المجالس البلدية . فعلى أثر الانتخابات التي أجريت في 3 أبريل « نيسان » 1979 وكانت الأولى بعد إعلان الدستور وبداية التحول فعلا ، قد سيطر على المجالس البلدية في معظم المدن

الكبرى والهامة الاشتراكيون والشيوعيون عن طريق تحالف مؤقت محدود كانت الغاية منه افتكاك عمادة البلدية في تلك المدن من يد" السيد سووارث وحزبه .

لكن حزبه بالذات هو الذي سيكون المشكل الأكبر بالنسبة إليه لأن الصراع أو التعاون أو الشجار مع الأحزاب الأخرى ليس سوى قاعدة اللعبة الديمقراطية وهو كسياسي لحما ودما مستعد لكل أطوار تلك اللعبة . لكن ما لم يكن مستعدا له أو على الأقل لم يكن يحسبه بتلك الخطورة هو تفكك وحدة حزبه وتآمر عناصره الرئيسية عليه ومن ثم تحطيم الحزب من الداخل واسقاط الرئيس سووارث من " منصته الرفيعة " .

رأينا كيف تكون حزب " اتحاد الوسط الديمقراطي " من مجموعة أحزاب صغيرة وشخصيات مستقلة وحد بينها سووارث من عل وحصل على رئاستها وقيادتها إلى أن تمت الانتخابات الأولى والثانية البلدية وأرسيت الحياة السياسية والبرلمانية اليومية على قواعدها ودخلت شيئا فشيئا نسق الحياة العادي . فاز في هذه الانتخابات ، كما رأينا ، حزب اتحاد الوسط وكان مرد هذا الفوز إلى عاملين أساسيين أولهما صورة وبراعة السيد سووارث وثانيهما قلة خبرة وتعود الجماهير إذاك على الانتخابات فكان معظمها يخاف اليسار ويأبى اليمين ولذا اختار الوسط ، إلا أن هذا الوسط قد ولد بعلة فيه جعلت تنخره باطنيا حتى قضت عليه وكان يعززها من الخارج تصاعد الإرهاب وسوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي . كان كل رؤساء الكتل المكونة للاتحاد يريدون مقاعد داخل السلطة وفي الاماكن ذات الفائدة المباشرة أو البراز المفيد كما كانوا يطالبون بعدد من المقاعد يتناسب وقوة كتلهم وحجمها كما يرون هم ذلك . وهكذا وشيئا فشيئا تدهور وضع الحزب واستحالت قيادته كما ضعف وضع السيد سووارث وحكومته داخل البرلمان حيث انعدام الأغلبية المطلقة مضاف إليه انعدام الانضباط في صفوف الحزب الحاكم نفسه أدى بالرئيس سووارث إلى البحث عن سند ومفاوضة المساندين حول كل مشروع يطرح أمام البرلمان ولعله كان يجابه الصعوبة نفسها داخل التشكيلة الوزارية ذاتها .

لم يكن هذا الوضع قصير المدى بل طال أجله وامتد من فترة ما بعد انتخابات 1979 بقليل إلى شهر مايو (أيار) 1980 لما بلغت الأمور حدا لا يطاق من جراء

عامـل جديـد هو موقـف الاشتراكيين . لقد لاحظوا وضـع السيد سـووارث الشائك وظنوا أن الوقت قد حان لاسقاطه واحتـلال مكانه فنقضوا " الميثاق " وقدموا لائحة لـوم ضـد الحكومـة أملين أن تحوز لائحتهم على الأغلبيـة المطلـوبـة فتسقط الحكومة ويصبح من حق السيد فيلبي غونثالث زعيم الاشتراكيين تشكيل حكومة جديدة .

لم تفز لائحـة اللوم الاشتراكية ولكنها تـركت سووارث وحكومته في شبـه قعود عن الحكم والانجـاز وهـذا معنـاه شلل التحـرك والسير وإذا جمدت الحركـة انهارت الديمقراطية الهشة الطرية . ولـذا لم ير سووارث ، أمام هذا الموضوع ، إلا حلين وهما حل البرلمان والـدعـوة إلى انتخابـات استثنـائيـة أو الاستقالـة . وبعـد عمق التفكير ومـوازنـة المعطيـات والنتائج مـال إلى الاستقـالـة حتى يستطيع حـزب اتحاد الـوسط الديمقراطي مواصله نشاطه دون أن يكـون هو ، السيد سووارث ، سببا في خلافات أعضائه وانهيار وحدته ، ان وجدت .

كـان كل الملاحظين يبحثون عن السبـب الذي دفع سـووارث إلى الاستقـالة بـدل الدعوة إلى انتخـابات استثنائية ولم يهتـد أحد منهم إلى الصواب . أما الـآن وقد مرت الأيـام فقد عـرف أنـه كـانت لدى السيـد سـووارث آنذاك إحصـائيـات تـؤكد فـوز الاشتراكيين في الانتخابات ان هي أجريت واليقين بأن القوات المسلحة لم تكن آنذاك على استعداد لتقبل بحكومة اشتراكية (75) .

ولذا كانت الاستقالة هي الحل الأفضل فأعلن سـووارث قراره بشأنها يوم 29 يناير ﴿ كانون ثـان ﴾ 1981 . لم يعط سووارث سببا لاستقالته أكثـر من الإشارة إلى رغبته في أن لا يكون حجر عثرة في طريق بناء الديمقـراطية ولو أن عوامل أخرى ، سياسية وإنسانيـة ، ساعدت دون شك على اتخاذ مثل هـذا القرار الـذي أعلن بداية النهـاية بالنسبة لاتحاد الوسط الديمقراطي . فبعد محاولات عديدة ، وتغيرات ثلاثة في رئاسة الحزب وصل هذا الأخير إلى انتخابات أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1982 مفككا منهوك القوى بعد أن تـركه سووارث وأنصاره وعدد من رؤساء الكتل وأتبـاعهم فكانت له في الاستشارة الشعبية هزيمة نكراء لم يعمر بعدها طويلا .

الديمقراطية في خطر : انسحب السيـد سووارث وسط دهشة واستغـراب الجميع ولـربما وسط شماتة الشـامتين أيضا لأن الحكم لم يكن قط جـلابا لـلأصدقـاء بل هو

جذاب لذوي التملق والطمع والنفاق وصاحبه محسود مكروه وان عدل .

انسحب السيد سووارث بعد أن أنجز الكثير وحقق الآمال ووضع الركب على الدرب فلم يعد أمامه إلا السير والتغلب على عثرات الطريق فبين شهر يوليو ﴿ تموز ﴾ 1976 تاريخ تعيينه لرئاسة الحكومة وشهر يناير ﴿ كانون ثان ﴾ 1981 تاريخ استقالته ، استطاع السيد سووارث ، مسنودا وموجها من طرف الملك ، أن يغير وجه ومصير أسبانيا فأخرجها من الدكتاتورية إلى الديمقراطية ومن الجمود إلى الحركة ومن الأنطوائية إلى التفتح ومن القعود إلى السير .

فخلال ما يقرب من خمس سنوات فقط أصدر العفو العام وسرح المساجين وأطلق المعتقلين فطمأن الأنفس وأثار الأمل ثم أصدر قانون الإصلاح السياسي فوضع أسس وقواعد التعامل والتعاون سياسيا واجتماعيا لمجابهة مشاكل الحاضر والاستعداد للمستقبل وأسدل الشرعية على الأحزاب السياسية والنقابات العمالية ففتح المجال لتنظيم الشعب نفسه وإبراز ميولاته واتجاهاته واستعمل الحوار أساسا لحل المشاكل فأرسى قاعدة أولتها البلاد ظهرها قرونا طويلة فوضح بذلك ركنا هاما للتعايش والتفاهم وفكك هياكل النظام السابق ومؤسساته العقائدية فأسدل الستار على الماضي وآلامه وأصدر قانون الانتخابات فأعطى الشعب بذلك أول زمام لسيادته وأصدر مرسوم الحريات العامة فأزال المخاوف والاحترازات ومهد الطريق أمام الانتخابات الحية المباشرة وأجرى الانتخابات الأولى بعد انقطاع دام أربعين سنة ونيف فأعطى الشعب الوسيلة لتنظيم وتقنين ممارسة سيادته وأعد صحبة بقية الزعماء دستورا فأعطى البلاد إطارا تعمل ضمنه وتتعايش فيه وحرص فحقق إبرام ميثاق اقتصادي سياسي اجتماعي فبرهن للشعب أن الوفاق والتفاهم هما اقصر وأسهل السبل إلى دحر الصعاب وأخيرا أجرى انتخابات عامة ثانية فأذاق الشعب طعم الحرية الحقيقي وأجلسه على عرش سيادته وسلطته .

انسحب سووارث بعد ما أسدل عليه الملك لقب " دوق " وبعد أن رشح لخلافته في رئاسة الحكومة السيد ليوبولدو كالفو سوتيلو ، انتظارا لتزكيته من طرف البرلمان وتعيينه نهائيا في المنصب الشاغر .

كان الفـرق بين السلف والخلف كبيرا جدا وبـارزا حتى للعين المجردة . فـالرئيس المرشح إنطوائي ، صامت ، بطيء الحركة والانجاز ، يميني النزعة بورجوازي المفهوم والأسلـوب ، وهو في نفس الـوقت رصين التفكير والتصرف عنيـد في انجاز مـا ارتأه وقرره ، لأنه يؤمن بما يقرر .

جاء السيد كالفو سوتيلـو إلى الرئاسة في ظرف ليس من أفضل ولا أنسب الظروف فالحزب الـذي سيحكم بـاسمه قد تفشـى فيه الشقـاق والخلافات ولم يعـد ممكننا الاستنـاد إليه في أي قـرار . والوضع العـام بالبـلاد تشوبـه المخاوف نتيجـة تصاعـد الارهاب واحتـداد الأزمة الاقتصـادية وحنين البعض إلى الماضي القـريب وعـدم تعود البعض على ممارسة الحريات والديمقراطية .

رشح السيد كالفو سوتيلو لرئاسـة الحكومة وسط هذه المعطيات وتقدم إلى البرلمان طالبا تـزكيته فلم يحصل على الأغلبية القانونيـة فلزم إجراء عملية تصويت ثـانية كان يكفي فيها الحصول على أغلبية أصوات الحاضرين من النـواب للفوز بالتزكية . لكن هذه المرة أيضا ستتعطل تـزكية السيد كالفـو سوتيلو . فبينما كان التشنج يسـود قاعة البرلمان وكان الجميع منتظـرا ما سيسفر عنـه التصويت الذي بـدأ قبل قليل إذ هاجم البرلمان ما يقرب من مـائتي عسكري من رجال الحرس المدني يترأسهم المقـدم أنطونيو تيخيرو مولينا وحجزوا أعضاء الحكومة وممثلي الشعب داخل البرلمان ما يقرب عن ثماني عشرة ساعة . في نفس الوقت قام قائد حـامية بلنسية الأعلى الفريق ميلانس دل بوش بحركة موازية فأعلن حالة الحرب في كـامل المنطقة الخاضعة لإدارته وأخرج الدبابات والسيارات المصفحة إلى الشوارع فكان ما يشبه الانقلاب أو هو استعداد لانقلاب .

لماذا قام هـؤلاء العسكريون بهذا الصنيع ؟ وما الـذى كانوا يبغـونه من وراء تحركهم هذا ؟ ومن كان وراء هؤلاء القلة البارزين للعيان ؟ كل هذه أسئلة وكثير غيرها يحتاج إلى الاجابة . لكن من المفيـد قبل كل جواب العودة إلى الوراء والقاء نظـرة ولو سريعة موجزة على القوات المسلحة في أسبانيا وتاريخها مع هذه القوات .

رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب كيف كـان الجيش أو القوات المسلحة بالتعبير العصري ، يمثل ، بصفة مـا ، العمود الفقري للدولـة وخاصة إذ كانت امبراطـورية

مثل الامبراطورية الأسبانية الشاسعة الأطراف المقامة أساسا على الجيش وقادته . رأينا كيف أن أنهيـار تلك الامبراطوريـة كان يعني انهيار معنـويات الجيش فيتحـول ذلك الانهيار إلى نقـد للساسة ومن ثم إلى تمرد أو انتفاضـة بغية الإصلاح والتقـويم فعرفت أسبانيـا من بداية القرن التـاسع عشر إلى نصف القرن العشرين (1814 - 1936) أربعا وخمسين (54) محاولة لتغيير أو اسقـاط الحكومة من طـرف العسكريين ولو أن اثنتي عشرة انتفـاضة فقط احـرزت على نجاح . " ليـس غريبـا كل هذا . فـالجيش خلال القرن التاسع عـــشر كان ، كما أسلفنا ، المعــول الـــــوحيد الفعال في يد الحكومة لتسييــر السلطة . فكان الجيش ، والحـــــالة هـــــذه ، يحتكـــر بصفة مـا كل الدولـة لأننا نجـد أنه في الخمسينـات من القـــرن الماضي كـــــان الجيـــش يستهلك أكثر من 60٪ من الميزانية العامة للدولة . ثم إن العسكريين قد ورثوا تقليدا يجعلهم يعتبرون أنفسهم آخر ضمان للقيم والسيادة الوطنيـة . وأمام ملكيات ضعيفة وصراعات من أجل العـرش وأمام سياسيين منحرفين لم يكن العسكـريون يستطيعون البقـاء طويـلا مجرد متفرجين . وهكـذا تدخلـوا وفي كل مـرة برروا تـدخلهم بابتعـاد السلطة المدنيـة عن خدمـة مصالح أسبانيـا ومن ثم فقدان تلك السلطـة شرعيتها . لكن هذه الشرعيـة كثيرا ما كانت تحدث داخل الأوسـاط العسكرية نفسها خـلافات ومناقشات انطـلاقا من مفاهيم مختلفـة لشرعية الانتفاض نفسه لأن القـانون والأوامر الملكيـة والعـرف والمنطق تقضي كلهـا بمسـاندة العسكـريين للنظـام القـائم . هـذا الاختلاف حـول المفهوم وتفسير الموقف يجد أحسن مثال لـه في الحرب الأهلية الأخيرة التي شهدت أكبر انقســام في صفوف القـوات المسلحة وكان انقسـاما لا صلـة له أو تكاد بالمذهب السياسي أو الميولات الأيديولـوجية بينما نجد أهم أساس له في التساؤل حول وجوب الوقوف إلى جانب الحكومة الشرعية أو عدمه " (76) .

إن الذي حـدث مساء يوم 23 فبرايـر « شباط » 1981 لم يختلف عما سبقـه عام 1936 إلا في الطريقة لأن المنتفضين أو المتمـردين لم يكونوا يريـدون ، على ما يبدو ، إلا ازالـة أو إبعـاد السياسيين الـذين أقـدمـوا في نظـرهم على " هـــــلاك أسبـانيـا وضياعهــــا " . إن ذلك الاقتناع الذي رافق كبـار القوات المسلحة طويـلا وهو أنها عماد الوطن ومحوره ، قـد زاد في قوته نظـام فرانكـو الذي ألح دوما في مختلف مظـاهر دعايته وإعلامه على إبراز دور القـوات المسلحة خلال الحرب وبعدها وجعل منها ،

ولو صـوريا ، فئة محظـوظة مميزة ، فطيلة عهـد فرانكو أشرفت القـوات المسلحة على النظـام العـام وعلى مـؤسسـاتها الخاصـة ولكنهـا هشمت في معظم أو كل القـرارات الاقتصـادية الهامـة التي غيرت وجـه أسبانيـا . لقـد منح رجـالها الأوسمة وبـرزوا في الاستعراضات ولكـن غض الطرف عن تجهيز القوات المسلحـة بما يتطلبه العصر وما يستوجبـه الدفاع . لقد استـوزر فرانكو طيلـة عهده أربعين ضابطا من كبـار القوات المسلحة وحافظ إلى الستينات على توازن بين عدد الـوزراء العسكـريين والمـــدنيين لكـــن بقـدر مـا دعت الحاجـة إلى التقنية والإخـلاص وبقـدر مـا نمت أسبانيـا اقتصاديا وتطورت اجتماعيا مال ذلك التوازن لصالح المدنيين .

كانـت القوات المسلحة الأسبـانية ، كما هـو طبيعي وكأي مجتمع كبير أو صغير ، مكونـة من أجيال مختلفة المفاهيم والـآراء ومن ثم اختلاف الغايات والأهـداف وطرق بلوغها . وهذه الحقائق تنطبق على القوات المسلحة الأسبانية التي لم تكن أجيالها ترى بنفس المنظـار . فبينما كـان كبـارهـا يحيـون في الماضي و " اجماده " يجترون الأحقـاد والضغائن فـركنوا إلى نـوع من الجمود ، كان معظم الأجيـال الشابه وشبـه الشابـه قد حـرروا أنفسهم من العقد والمركبـات ينظـرون إلى الحاضر ويتوقـون إلى المستقبل حتى أصبحت الأوسـاط العسكـريـة تعرف هي الأخـرى ، مثل بقيـة المجتمع ، تيـارات وميـولات ولـو أنها اختلفت بعض الشيء لبعـدها عن الحزبيـة والتحزب ولاحترامهـا لأهـم مميـزات القـــوات المسلحـــة وهي الانضبـاط والامتثال للقانـــون والتعليمات .

لم تكن الحياة اليـومية إذن ، الحيـاة التي كان يعيشهـا الشعب الأسباني آخـر عهد فرانكـو لتمر دون أن تثير اهتمام جـانب من رجال القـوات المسلحة فقام فـريق منهم مكون في البدايـة من اثنتي عشر ضابطا بتأسيس جمعيـة سرية سميت ، كما أشرنا إلى ذلك في حينه ، " الوحدة العسكرية الـديمقراطية " وكانت غايتها العمل من داخل القوات المسلحة على إقامة نظام ديمقراطي يعيد للجيش شرعيته التي فقدها بخدمته مصالح النظام لا مصالح الشعب . ازداد هذا الاعتقاد قوة ورسوخا على إثر محاكمات برغش التي جرت سنة 1970 ، والتي انتهت بإعدام خمسـة مقاومين للنظام ، فاثار ذلك ، كما اشرنا سلفـا ، موجـة من الغضب والاستنكار عالميـا وداخليا فأكـد لدى

المتحررين من عناصر القوات المسلحة أن هذه الأخيرة لا تخدم سوى النظام ومصالحه.

كبرت الجمعية السرية بسرعة وبلغ عدد المنخرطين فيها ما يزيد عن ثلاث مائة عضو من مختلف المناطق العسكرية دون أن يكتشف أمرها . وفي سنة 1975 أعلنت الحكومة عن إيقاف تسعة من اعضائها تمت محاكمتهم من طرف محكمة عسكرية خلال عام 1976 بعد أن شنت حملة قوية ضدهم للتنديد بهم والمس من سمعتهم داخل القوات المسلحة . تأثر الكثيرون من قادة الجيش لتصرف هؤلاء الشبان وأحسوا كما لو كان العمل موجها ضدهم أو كما لو ثار عليهم أبناؤهم أو بعض من أفراد عائلاتهم . لكن لم يتعد الأمر هذا الحد . أما المحاكمون فقد أطلق سراحهم بعد أن قطع التحول شوطا من حياته وبقيت مسألة اعادة الاعتبار لهم والاعتراف بحقوقهم بين أخذ ورد دام حوالي عشر سنوات وانتهى باعادة الاعتبار والاعتراف بالحقوق وحتى بالعودة إلى العمل الفعلي داخل الجيش لمن كان منهم يرغب ذلك . أما برامجهم وإصلاحاتهم فقد أدخلت على القوات المسلحة ولو أنهم لم يشاركوا في انجازها نذكر من بين هذه الإصلاحات توحيد وزارات القوات الثلاث في وزارة واحدة ، وزارة الدفاع ، واختصار مدة الخدمة العسكرية وغير ذلك من التطورات التي احتوى عليها برنامج " الوحدة العسكرية الديمقراطية " والتي نفذها المسؤولون بعد أن استقرت الديمقراطية وخاصة بعد أن جاء الاشتراكيون ومسكوا بزمام السلطة .

لم يكن أعضاء هذه الجمعية أول من فكر أو حاول إدخال الإصلاحات على نظام وهياكل القوات المسلحة وتطوير وسائلها وإمكاناتهم حتى تصبح متماشية مع العصر الذي تحياه . فالمصلحون والمحاولون كثيرون نجحوا مرة وفشلوا مرات نذكر من بينهم بالنسبة للعهد الذي نحن بصدده الفريق دياث أليغريا وهو الوحيد الذى حاول الإصلاح في عهد فرانكو ولكن ذهبت محاولاته سدى ولم يجن منها سوى ضياع شعبيته في الأوساط المتزمتة وعداء الكثيرين من زملائه الذين اعتبروه ليبيراليا فانتهى الأمر بعزله متهما بمقابلة أجراها مع الرئيس الروماني تشاوشسكو .

وكي لا نطيل فيتشعب الأمر ، لأن الموضوع يحتاج إلى دراسات عميقة مطولة نقول

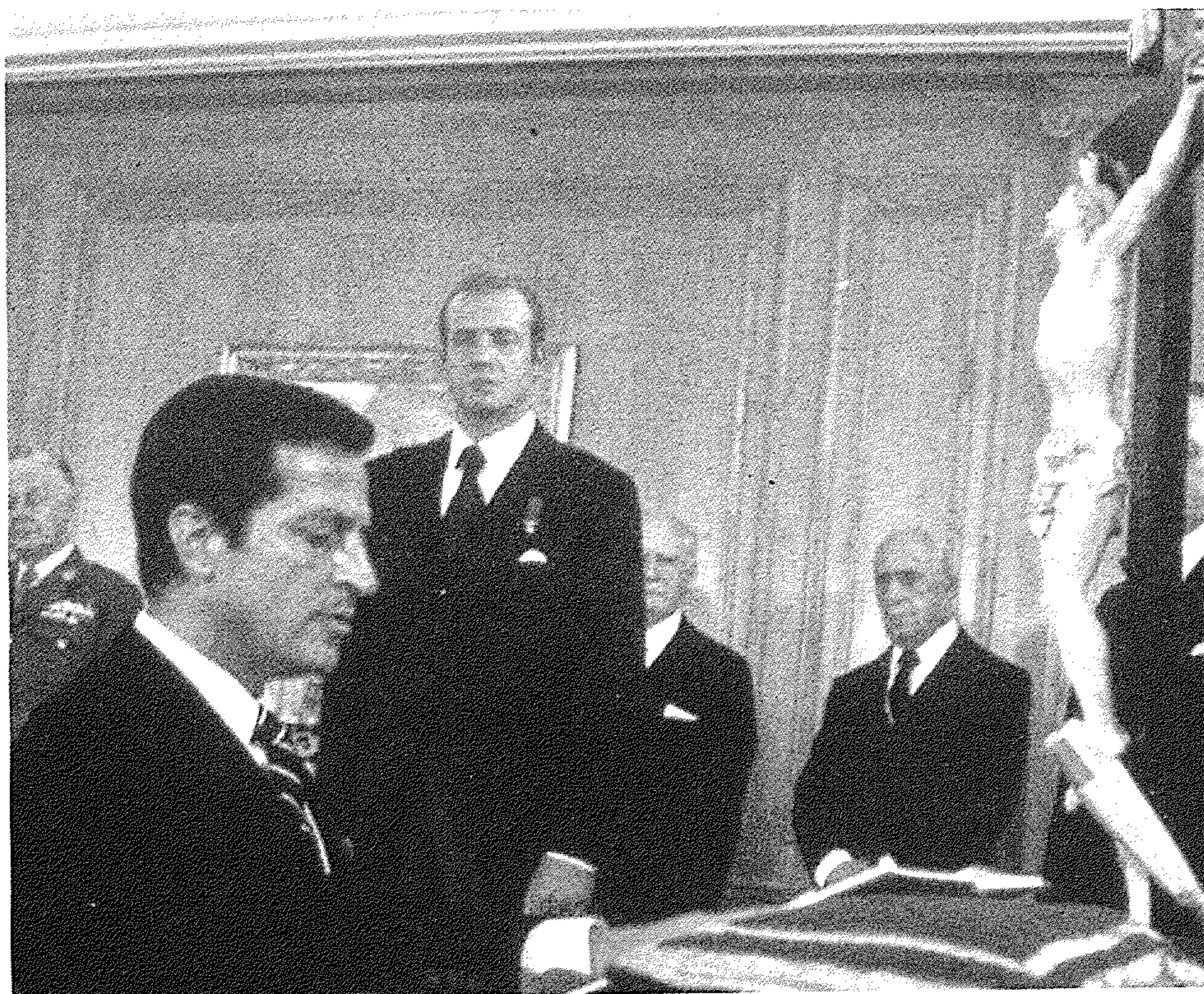


الحقوقيون السبعة الذين وضعوا الدستور الجديد

دستور الوفاق



ضدان اجتمعا من أجل الوطن
منويل فراغا زعيم اليمين
صان تياغو كاريو زعيم الحزب الشيوعي



الرئيس سووارث يؤدي اليمين القانونية

بأن القوات المسلحة كانت إبان التحول غير متحمسة لما يجرى ولما عقدت النية على انجازه فحاولت الحفاظ على النظام القديم ولو في شكل جديد فيه شيء من التحور . فعارضت ثم قبلت عن مضض إعطاء الأحزاب اليسارية وخاصة منها الشيوعي ، حرية العمل في شرعية وقانون . غير أن هذا الموقف المحافظ أو الجامد لم يكن عاما ولا شاملا بل كانت هناك تيارات تحررية وإصلاحية وديمقراطية داخل القوات المسلحة التي تمسكت في كل وقت ورغم كل شيء بالانضباط والامتثال للقائد الاعلى وهو الملك وللقانون ولو انتقدته بشدة في بعض الأحيان ولم يشذ عن هذه التصرفات إلا قلة والشذوذ يؤكد القاعدة .

نعود إلى قاعة البرلمان حيث الحكومة بكامل أعضائها والبرلمان بجميع نوابه محجوزون من طرف مائتي حرس مدنى ﴿ الحرس الوطني ﴾ يقودهم المقدم تيخيرو، ولنحاول الإجابة عن تلك الاسئلة التي طرحناها والتي لا تزال مع أسئلة غيرها مطروحة وستبقى كذلك طويلا دون إجابة شافية لأنه من غير المعقول أن يقدم رجال في مستوى الفريق خايمي ميلانس دل بوش والفريق ألفونصو أرمادا والمقدم انطونيو تيخيرو مولينا على عملية كالتي أقدموا عليها بالصورة والطريقة التي تمت بها . فالانقلابيون لم يفكروا أو لم يقوموا باغلاق المطارات ولا بقطع المواصلات السلكية واللاسلكية ولا باحتلال محطات الإذاعة والتلفزيون ﴿ بعد ساعات من بداية العملية احتل فريق محطة الإذاعة الوطنية ثم انسحب فلم يحدث تغيير في البرامج يلفت الانتباه ﴾ وحتى فروع هذه الوسائل الموجودة داخل البرلمان استمرت تعمل وتنقل اخبار الحدث لمدة غير قصيرة . ثم أنهم لم يعلنوا للشعب ولا للقوات المسلحة ولا لأحد عن برامجهم وغاياتهم وعن الذي دفعهم لاتيان ذلك .

فالعملية منقوصة أو مرتجلة أو هي مجرد مسرحية ، ومهما يكن من أمر ، فالتحريات والمحاكمة قد أجابت عن اسئلتنا ، ولو أنها أجوبة منقوصة غير مقنعة ، فأفادت بأن الدوافع هي اعتقاد هؤلاء المتمردين بأن أسبانيا سائرة إلى التفكك والهلاك وسيأكلها " اليساريون وخاصة الحمر " منهم ولذا كانوا يبغون الاتيان بحكومة " وطنية " ﴿ قد تكون تلك التي تحدثت عنها الإشاعات الرائجة والتي تقول بأنها سترأس من طرف ثلاثي مكون من عسكريين ومدني ﴾ وأن تحافظ هذه الحكومة على

مكاسب أسبانيا الأخلاقية ووحدتها الترابية . أما بخصوص من كان مع أو وراء المتفضين فقد أثبتت التحريات أن ليس معهم أحد وليس فيه ما يدل على وجود أبعاد أخرى اكثر من مغامرة هذه القلة التي تشمل كذلك عددا من الجنود قد أنقادوا مغرورين أو لمجرد طاعة أوامر رؤسائهم .

دخل تيخيرو والرجال المرافقون له قاعة البرلمان واحتجزوا من فيها إلى منتصف نهار اليوم الموالي . بعد دخولهم بقليل التحق بهم الفريق ألفونصو أرمادا ليفاوض المقدم تيخيرو ، حسب ما ادعاه أثناء المحاكمة . لكن كل المعامات تدل أن المقدم تيخيرو كان يمثل الجناح المتطرف في العملية أما الفريق أرمادا فالتيار المعتدل لذا سارع ليغتنم الوضع وليحول دون فشل المحاولة نهائيا لأنه خلافا لكل الحسابات والسوابق التاريخية وحتى خلافا للمنطق لم يتحرك شيء في البلاد أمام ذلك الحدث الخطير . فكل الحاميات والوحدات وكل الأسلحة بقيت هادئة لم تتحرك ولم تخرج من قواعدها باستثناء حامية بلنسية . والأهم من كل هذا هو أن الشعب ، وقد يكون العنصر الذي عول عليه وعلى تحركه المتفضون ، هذا الشعب لم يتحرك ولم يندفع في الشوارع لا هاتفا مؤيدا ولا غاضبا مستنكرا بل بقي في بيوته ومكاتبه ومقاهيه يتتبع الأحداث عن طريق الإذاعة والتليفزيون واثقا في كل من أوكل إليهم أمره من قادة وزعماء في تعقل قواته المسلحة وقائدها الأعلى الملك خوان كارلوس .

تصرف الشعب بحكمة ورصانة ، وكبح جماح عواطفه ومشاعره في تلك الظروف والساعات الحرجة الحبلى بكل الأخطار التي كانت تكفي هفوة بسيطة مهما كان مأتاها كي تنهال على أسبانيا عواصف الهدم والتدمير . ولا شك أن أكثر هذه الهفوات خطورة وأسرعها هدما هي خطوة خاطئة يخطوها الشعب ، تقوم بها الجماهير دون تفكير ولا تبصر خاضعة فيها لاهوائها وعواطفها لا غير فلنتصور ، ولو لبرهة . أن الجماهير الشعبية انطلقت في الشوارع معبرة عن مشاعرها تجاه الحدث فتهتف ، مؤيد بعضها ومعارض مندد البعض الآخر . أليس من السهل ، والحال كهذا ، أن يصطدم المتظاهرون وتتدخل قوات الأمن فيحدث الهيجان وتكفي هذه الشرارة كي يلتهب الحريق ويتسع لهيبه وتقع البلاد في نزاع آخر قد ينتهي مرة أخرى إلى حرب أهلية أو إلى دكتاتورية أشد من سابقاتها .

لكن لم يحدث من هـذا شيء وحـافظ الشعـب على هـدوئه فبقيت الأمـور بأيـدي صاحب الشأن . بأيدي الـوحيد الذي لم يحتجز وهو الرئيس الأعلى للسلطـة والدولة وهو القـائد الأعلى للقوات المسلحة وهـو ملك البلاد وصاحب عـرشها . بقي الملك وحده مرة أخرى يـــواجه وضعا في منتهى الخطورة وظرفا حاسما فى منتهى الدقة وكان عليه أن يفكـر ويمعن التفكـــير ويـزن الأمور ويــــوازن بين الحـلـــول النتـــائج ويختـــار القرار المناسب ويعمل على انجـازه قارئا لكل خطوة عـواقبها . بقي الملك وحده مرة أخرى ومصير بلاده ووطنه وشعبه في مهب الرياح تكفي هفوة بسيطة لتقع البلاد في مـا لا رجعة فيـه . بقي وحده مـاسكا بـدفة المركب وهي على وشـك الغرق وكـان عليه أن يـرسي بها على شـاطىء السـلامـة وأن يسرع لأن الامواج لا تنتظـر ولا تمهل .

بضع ساعات كفت الملك لينقـذ البلاد من هاوية الفتنة وداء الشقـاق . فالهجوم على البرلمان قد تم قرابـة الساعة السادسة مسـاء وقبل منتصف الليل ظهر الملك على شاشـة التليفزيون ليطلع الشعب بكل فئـاته على ما اتخذه من قرارات ومـا تم انجازه خلال تلك الساعات الحرجة وليطمئنه ويزيد من هدوئه ورصانته . إن أول قرار اتخذه بمجرد علمه بـالحدث هو عدم مساندته الانتفـاضة ومعارضته لها معارضـة قاطعة . وكنتيجة لهذا القـرار أمر في الحين كتاب الدولـة بكل الوزارات بالالتحـاق بمناصبهم والقيام بـدور الوزراء المحتجزين وأن يعتبروا مجلـس الوزراء، مجلس كتاب الـدولة في هذه الحالة في حالة انعقاد متواصل إلى أن ينفرج الوضع وتعود الأمور إلى نصابها . ثم اتصل بالقادة العسكريين وفي مقدمتهم قادة الاركان يأمرهم بوجوب احترام الدستور والقانون وعدم الانزلاق نحو المغامرة فلبى جميعهم النداء وأطاع الأوامر . أما ميلانس دل بوش رأس الحركة وعقلها المدبر فقد حاول إقناع الملك بضرورة ما قام به المنتفضون وبشرعيـة عملهم ولكنـه أمـام عـزم الملـك وتصميمـه على احترام الشرعيـة القـائمـة والامتثال للدستور والقـوانين المشروعة ، عرف أن ليس أمامه سـوى الامتثال والطاعة فامتثـل هو أيضا فألقـى السلاح واستسلم . وهكذا بقـي تيخيرو وجنوده في البرلمان صحبـة رهائنهم إلى الصبـاح الموالي لما أخذ الجنـود في الاستسـلام إلى زملائهم الـذين حاصروا مبنى البرلمان منذ الليلة الماضية وما أن جاء منتصف النهار حتى أطلق سراح كل المحتجزين واستسلم جميع من شارك في مهاجمة المجلس بما فيهم المقدم تيخيرو .

تنفست إذاك البلاد الصعداء وعادت الأمـور إلى نصابها وشرعيتها واستطاع الملك أن ينـام نـــــومة هـادئة وهـو مطمئن على مملكته ، واثق من نجـــاتها من شبـاك الفتنـــة والفـوضى التي كادت أن تقع فيهـا ، مـؤمنا أن مـا أراده لها من ديمقراطيـة وعيش كـريم سيتحقق لا محالة .

أما الذين أسهمـوا في محاولة الانقلاب هذه ، فقد سجنوا وحـوكموا بعد ذلك من طرف محكمـة عسكريـة ودامت المحاكمة من يـوم 19 فبراير « شبـاط » إلى يوم 24 مايو « أيـار » من عام 1982 . وكما يقول روبـرت غراهام " أبرزت هـذه المحاكمة مفهـومين متقابلين تمامـا داخل المجتمع . فبـالنسبة للنظـام الديمقـراطي لم يتصرف الضبـاط أحسن من إرهـابيين حـاولوا مسـاومـة الـدولـة ولذا استحقـوا العقـاب بما يتناسب ، لكن كان جانب من المؤسسة العسكريـة والمدنيون اليمينيون المتطرفون يرون فيهم عسكـريين مكرمين قـاموا بكل شجـاعة بـواجبهم الوطني لانقـاذ أسبانيـا من الإرهاب وتدهور الأخلاق والانفصالية والسلطة الشيوعية . كان هذا انقساما واضحا بين الأسبـانيتين ، بين ذلك المجتمع الـذي تطـور وتمدن وبين الآخـر الـرافض لفهم معنى التغيير " .

صدرت الأحكام ثم استـؤنفت فنظرت القضية المحكمة العليـا ، المدنية هذه المرة وأصدرت أحكاما أكثـر شدة بالنسبة لكبار المسؤولين عن الانتفـاضة وطويت بذلك صفحة كادت أن تكون سوداء في تاريخ أسبانيا الحديث وعهدها الجديد .

عـاد البرلمان إلى الانعقاد في اليـوم الموالي لـلافراج عن أعضـائه وأعضـاء الحكومـة واستؤنفت عملية التصويت لتـزكية السيد كالفو سوتيلـو كرئيس للحكومة فتم ذلك بأغلبية كبيرة أملاها الوضع الحرج والظرف الحاسم .

استلم كـالفو سـوتيلو مقاليـد الحكم ودام على رأسها عشريـن شهرا سـارت فيها الأمور على مهل ولم ينجز خلالها ما يستحق الذكر بـاستثناء إدخال أسبانيا في عضوية الحلف الاطلسي كما لو لم يأت السيد كالفـو سوتيلو إلى الحكم إلا لاتخاذ تلك الخطوة التي لم يعتبرها سلفه السيد سووارث أمرا مستعجلا ولا سمح لنفسه باتخاذ قرار بشأنها قبل عرض ذلك على الشعب في استفتاء شعبي عام .

إن الانضمام إلى الحلف الاطلسي كان منذ أن بدأ التحول عنصرا من عناصر السياسية الخارجية الأسبانية التي تحدد ميولاتها واتجاهاتها طبقا للقرار الذي يتخذ في هذا الشأن . كان معظم الساسة والملاحظين يخضعون حكمهم على سياسة أسبانيا الخارجية لما تقرره بخصوص الحلف وروابطها معه ، لذا كان الجميع يرى وجوب اتخاذ قرار بهذا الشأن حتى تعرف وجهة أسبانيا . وهذا لعمري أكبر الخطأ لأن أسبانيا قد أعربت منذ الساعة الأولى من العهد الجديدعلى لسان عاهلها ورئيس حكومتها عن وجهتها التي تتلخص في أنها جزء من أوربا الغربية وأنها ستعمل ضمن دول تلك المجموعة لما فيه المصلحة المشتركة والأمن والسلام للجميع وهي بحكم تاريخها لها روابط خاصة مع دول أميركا اللاتينية والعالم العربي وهي ستتعامل مع كل دول العالم على أساس الاحترام المتبادل وفي سبيل احترام حقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها والمساعدة على حل كل المشاكل بالحوار والكلمة الحسنة .

أبعد هذا ثمة حاجة لمزيد الايضاح ؟ كلا . ولكن رغم ذلك كان الكثيرون في الداخل والخارج يرون أنه لا يمكن الحكم على سياسة أسبانيا الخارجية إلا عبر قرارها بشأن الحلف الاطلسي حتى أن بعض الملاحظين اعتبر أن كل المناورات التي حيكت حول السيد سووارث داخل حزبه وخارجه فأجبرته على الاستقالة كان أساسها ومحورها عدم اعطائه هذا الموضوع ما يستحقه من اهتمام وأولوية . لم يكن بوسع السيد سووارث غير ما فعل لأن الأمور والمشاكل التي كانت أمامه لمعالجتها كانت كلها حيوية مستعجلة وعليها يتوقف نجاح التجربة الديمقراطية وضمان مستقبل أسبانيا . أما الانتماء إلى الحلف الأطلسي فهو أمر يأتي في المرتبة الثانية أي بعد أن تستقر الأمور وتتركز الديمقراطية فيستطيع الشعب . المنقسمة أراؤه بهذا الخصوص بين محبذ ومعارض ، من اتخاذ القرار الذي يرتئيه قرار الانتماء أو عدمه ، قرار يتخذه مباشرة عن طريق استفتاء عام وعد باجرائه في الوقت المناسب .

ومهما يكن من أمر ، فقد سارع كالفو سوتيلو بتقديم القضية إلى البرلمان فأحرز على موافقته وطار بعدها إلى بروكسل حيث قدم طلب الانتساب إلى الحلف فقبل الطلب وتمت العضوية .

كانت الأمور بعد هزة الثالث والعشرين من فبراير ﴿ شباط ﴾ ، تجري داخل

البرلمان ، فالمحاولـة الانقلابية أفهمت الجميع أن الظرف لا يسمح بـاللعب والتهاون بل يدعو إلى التوحد والتعاون . على هذا الأساس ، توصل الحزبان الرئيسيان ، حزب الوسط والحزب الاشتراكي ، إلى نوع من الاتفاق الضمني حول التشغيل وحول منهج وأبعاد الاستقلال الذاتي للأقاليم وغير ذلك مـن الشؤون اليومية التي كانت تحتاج إلى حل أو قانون أو أي قرار .

سـارت أمـور الـدولـة والمجتمع في جـو مـن الانسجـام وفي شبـه وحـدة قـوميـة فالإضرابـات والتظاهـرات العمالية قد انحسر عـددها والإنجـازات الحكوميـة كانت تحظى بموافقة المعارضة إلا الانضمام إلى الحلف الاطلسي فقد عارضه اليساريون بشدة لأنهم كـانوا ينـادون ، والاشتراكيـون في مقـدمتهم ، بسياسـة عـدم التسلح والسلم والحياد .

لكن لان كانت الأمـور تجري طبيعية داخل الإطـار الحكومي وفي معـالجة الشؤون اليومية للبلاد ، فإن الأمر مخالف تماما داخل الحزب الحاكم وكانت حياة السيد كالفو سوتيلو داخله تزداد صعوبة يوما بعد يوم إذ لم يكن لينجح حيث فشل السيد سووارث الذي يفوقه جـاذبية ومقدرة على الحوار ويوحي أكثر منه بـالثقة والصدق . وهكذا ، وأمام تدهور الأمور حزبيا واستحالة الحكم والسير في طريق الانجاز لم يبق أمام رئيس الحكومة إلا اتخاذ ما ينصح به الشرف من تدابير ومخططات سياسية وانتخابية مغايرة ، فحل البرلمان ودعا إلى انتخابات عامة جديدة حدد موعـدها ليوم 28 اكتـــوبـــر « تشرين أول » 1982 .

بهذه الانتخابـات العامة ، وهي الثالثـة خلال سبع سنوات ، باستثنـاء الاستفتاء والانتخـابات البلـدية والاقليميـة بهذه الانتخابـات دخلت عملية التحـوّل شوطهـا الأخير ولم تكن نتـائج الاستشـارة الشعبية إلا تأكيـدا لاقتراب نهايـة مـرحلة التحـول ودخول البلاد نسق الحياة بما يحتوى عليه من مصاعب وأتعاب وتعقيدات .

امكانية المستحيل : بعد ست سنوات من بداية التحوّل ، كانت الخريطة السياسية الأسبـانيـة قـد تغيرت تماما وتغيرت فيهـا مـوازين القـوى فأدى ذلك إلى المعـادلات والنتائج . كانت الصـورة جديدة بجدة البـلاد وجدة الجيل الذى تقـدم إلى الساحة ليأخذ المشعل ويواصل المسيرة .

تفكك الوسط الذي انتصب بين طرفي أسبانيا اللـذين تنازعا طيلة أحقاب فسيطر على الموقف وحـال دون اصطـدام محتمل . تفكك الـوسط وبتفككـه قـوي الحزبـان اللذان على يمينه ويساره مباشرة بينما تقلصت الشيوعية لتبعثرها وتفرقها ونزل التطرف اليميني واليساري إلى أدنى مستويات الشعبية .

هذه هي الصـورة التي كانت عليهـا البلاد حـزبيا وسيـاسيا لما أقدمـت على ثالث عملية انتخاب ستكون بنتائجها البرهان على أن التحوّل في أسبانيا قد نجح وأن البلاد قـد تعدت خط الخطـر واجتازت الامتحـان بنجـاح ولم يبق إلا شوط أخير تنظم فيـه المنجـزات وتهذب فيه الهيـاكل وتكمل فيه النـواقص فلا يبقى أمـام البـلاد الا السير والتقدم .

يقـول الدبلـومـاسي والكاتب الأستـاذ خـوزي ماريـا أريلثـا واصفا السيـد فيلبي غـونثالث مـاركث ، زعيم الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني ، " هو رجل ذو ذكـاء سريع ، يلقف الأفكار بسرعة كبيرة جدا وهو محاور مـا هر . فعبارته مقنعة وبصوت منخفض هي قوية الإيعـاز " . وإذا أضفنا إلى هذا الوصف الـدقيق الصادق مقدرة فـائقة على الخطـابة وتحريك الجماهير إلى جـانب طلعة وجـه تستريح لهما النفس قبل العقل عـرفنا أن الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني وجد في السيـد غونثـالث ضالتـه المنشودة وكما قال المؤرخ الكبير الاستاذ ريكاردو دي لاثيـارفا " انه الاكتشاف الكبير للاشتراكية في الداخل وللاستراتيجية الأطلسية " التقدمية " لمجابهة التحوّل الأسباني انه رجل ذو ميول ديمقراطية صادقة ﴿ ولـو أنه على ما يبدو ، يخلط وبدرجة خطرة بين الـديمقـراطيـة والاشتراكيـة ﴾ وهـو يتمتـع ، قبل كل شيء ، بحـاسـة عظيمـة للاتصـال المباشر ، دون كبير الاهتمام بـالتناسق النظـري والسياسي . . . إنـه الزعيم المثالي لمجتمع ضعيف التكـوين السياسي وفاقـد التجربة الـديمقراطية . إنـه الزعيم المثالي لحزب يطغى فيـه التطبيقي على النظري واستغلال السلطة على العناية بالجذور . . . "

إذا اعتبرنا كل هذه الأوصاف عرفنا إذن أن الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني كان بيد زعامة كفأة ، شابة ، قوية العزيمة ، مصممة ، وهي إلى جانب هذا تتمتع بسند أدبي ومادي كبير من طرف الاحزاب الأخرى في أوربا وبقيـة العالم وخاصة من جانب

اتحاد الاشتراكية العمالية .

لم تكن هذه الزعامة محدودة أو مقصورة على السيد غونثالث بل هو يرأس فريقا من أنداده بدأوا المسيرة معا إلى أن استحوذوا على مراكز قيادات الحزب فافتكوه من القدامى وبعثوا فيه نفسا جديدا ودما شابا وها هم الآن ، والبلاد على أهبة المرور بتجربة انتخابية أخرى ، على وشك جني ثمار مجهوداتهم والصعود بحزبهم إلى المرتبة الأولى ولذا وجب تسخير كل القوى والإمكانات لتحقيق ذلك .

أما الإمكانات المادية فهي متوفرة بكثرة وستبذل بسخاء بينما الامكانيات البشرية وعلى المستوى القيادي فهي محدودة ويجب أن تكون محدودة لأن العبرة بالكيف لا بالكم ثم إن الحزب يحيي تجربة جديدة فلابد من الحيطة والحذر والمحافظة على زمام الأمور بأيد قليلة لكن مقتدرة وامينة وثابتة . إن من حظ السيد غونثالث أنه وجد في علاقته المتينة بالسيد ألفونصو غيرا سندا قويا ومخططا ماهرا ومنظما محكما فكان كلاهما مكملا للثاني وكوّنا منذ الستينات الثنائي المتين الذي أدار دفة الحزب إلى أن أصبح ما هو عليه من قوة ونظام وشعبية فتقدم بكل هذا الرصيد إلى انتخابات أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1982 واضعا برنامجا متكاملا وخطة للحملة الانتخابية حكيمة، جعل شعارها " التغيير" فكان الشعار صدى لما يدور في خلد الجماهير وتجسيما لما كانت البلاد في حاجة إليه بعد أن أنهت مراحل التحوّل الأولى بما اقتضته من تقنين وتطهير وتنظيم .

عرف تقنيو الحزب كيف يستغلون الوضع أحسن استغلال ووضعوا في برنامجهم وفي دعايتهم كل ما بدا علاجا للأخطاء أو النواقص السابقة أو ضروريا للحاجيات المستقبلية فوعدوا باحداث 800 ألف موطن شغل وبإصلاح الإدارة ودواليبها وبتطوير الصناعات القديمة البالية إلى أخرى حديثة ضرورية لمماشاة العصر ومتطلباته ووعدوا باجراء إستفتاء يقرر به الشعب بقاء أسبانيا في عضوية الحلف الاطلسي حيث حسرها كالفو سوتيلو أو الخروج منه وبالعمل بكل الوسائل للقضاء على الارهاب والإجرام والانحلال .

كان هذا ما تريده الجماهير فاستجابت لنداء الحزب وأسفرت الانتخابات عن فوزه

وكان انتصاره عديم المثيل في حياة أسبانيا الديمقراطية إذ لم يحرز أي حزب قط على أغلبية مطلقة بالبرلمان كالتي أحرز عليها الحزب الاشتراكي العمالي في هذه الانتخابات .

حصل الحزب الاشتراكي على مائتي مقعد (202) من مجموع ثلاث مائة وخمسين وهذا ليس بالأمر الهين . انه يعني تأييد أكثر من عشرة ملايين من المواطنين البالغين سن الرشد من مجموع ستة وعشرين ونيف . إنه يعني أغلبية مطلقة تمكن الحاكم من تنفيذ كل قراراته ومخططاته وتحويلها إلى تشريعات وقوانين يصادق عليها مجلسا النواب والشيوخ دون معارضة تعرقل ولا مفاوضات تعطل أو مساومات مع الكتل البرلمانية الأخرى . إنه يعني استطاعة إدخال كل الإصلاحات التي تحتاجها البلاد في مختلف القطاعات بكل سهولة ويسر . إنه يعني أيضا أن الاشتراكيين بمثل هذه الأغلبية في المجلسين وبأخرى تشابهها في الحكومات المحلية والبلديات ، سيحكمون بأمرهم وقد يتصاعد الغرور إلى رؤوسهم فيسيئون أو " يتدكترون " .

انتهت الانتخابات على أية حال برسم خارطة سياسية جديدة لأسبانيا فالبلاد ذات الخمس مائة حزب ـ 580) بين أحزاب وطنية واقليمية أصبح برلمانها يعكس ثنائية حزبية واضحة المعالم . حزب اشتراكي ﴿ يساري ﴾ بأغلبية الثلثين (202) وحزب التحالف الشعبي ﴿ يميني ﴾ بثلث مجموع المقاعد ـ 106) وثمانية أحزاب أخرى حصلت جميعها على اثنين وأربعين مقعدا (78) .

إن الشعوب في تطورها وتفاعلها مع الأحداث تخضع علاوة على كل دعاية ومؤثرات إلى نسق طبيعي يدفعها إلى التحول من مواقف إلى أخرى ومن وجهة إلى غيرها وذلك على مراحل متتالية وبخطوات متتابعة بعضها سريع عريض وبعضها بطيىء قصير . ولكن لا يكون ذلك أبدا تغييرا كليا " انقلابيا " أي من اتجاه إلى آخر معاكس ولا يحدث أبدا بطريقة مفاجئة تلقائية إلا إذا كان الشعب مسيرا ، مغلوبا على أمره ، يؤمر فيطيع ويوجه فيسير . والشعوب في مراحل الانتقال تحتاج إلى مدة تقضيها في تحسس الطريق وفي الموازنة بين الاتجاهات فتؤيد هذا حينا وذاك آخر وتسير في هذا الاتجاه خطوات ثم تعود وتغير الوجهة إلى أن يستقر قرارها ويزداد هذا الاسلوب أو هذا التصرف بروزا كلما تشابهت برامج الأحزاب وانعدمت أو ضعفت أيديولوجيتها .

هكذا ، وطبقا لهذه القاعدة تصرفت الجماهير الشعبية الأسبانية في كل الانتخابات التي أقبلت عليها منذ وفاة فرانكو إلى شهر يونيو « حزيران » 1987 وهي آخر انتخابات جرت قبل كتابة هذه الأسطر . وهذه الاستشارات الكثيرة العدد بالنسبة للمدة الزمنية ، استفتاءان وثلاث دورات انتخابية مضاف إليها الانتخابات البلدية والاقليمية ، تحتاج إلى دراسات عميقة مستفيضة لتحليل وفهم تصرفات الجماهير الشعبية في أسبانيا وهي جماهير لم تتخذ بعد قرارها النهائي في ما لا علاقة له بالاتجاهات السياسية وهي بأخذ ذلك القرار قد تفاجيء المتتبع أكبر المفاجأة وسيتضح ذلك لا محالة خلال دورة أو دورتين من الانتخابات المقبلة . إذاك فقط ، ويكون قد مر على صدور الدستور ستة عشر سنة ، يمكن اعتبار اختيار الشعب الأسباني قد استقر وإذاك فقط يمكن اعتبار نتائج الانتخابات شبه ثابتة تعكس فعلا حقيقة ميولات الناخبين السياسية ، فترسم الخريطة السياسية للبلاد .

أما الآن فان الملاحظ يواجه المفاجأة تلو الأخرى مع شيء من الثوابت . فلئن كان تطور الحزب الاشتراكي الإيجابي أو السلبي طبيعيا تبرره الأحداث والظروف وأعمار الناخبين إلى غير ذلك من المؤثرات ، فإن ما تعرضت إليه الأحزاب الأخرى يدل على أن الجماهير غير المتحزّبة لم يستقر قرارها بعد وهي لا تزال في مرحلة الدروس والتجربة والاختيار . وهذا طبيعي في بلد لا تزال تطغى فيه شخصية الزعيم وقائد الحركة على مبادىء هذه الأخيرة وعلى معتقداتها التي تنعدم أكثر فأكثر . فحزب الوسط الديمقراطي في البداية وحزب الوسط الديمقراطي الاجتماعي الآن هما حزبا السيد سووارث وحزب التحالف أو الرابطة الشعبية هو حزب السيد فراغا « حتى بعد أن استقال من رئاسته » وحتى الأحزاب التاريخية ذات المعتقدات « الأيديولوجيات » المعروفة عالميا والشبه مقننة أن صح التعبير مثل الاشتراكية أو الشيوعية فهي أحزاب زعمائها ولذا فالشيوعي حزب السيد كاريو « قبل أن يستقيل هو الآخر عام 1982 ويؤسس حزبا جديدا » والاشتراكي حزب السيد فيلبي غونثالث (79) .

مهما يكن من أمر فأن انتخابات أكتوبر « تشرين أول » 1982 قد انتهت بفوز حزبين ، الاشتراكي وسيحكم بأغلبية مطلقة تريحه من كل عناء برلماني وحزب يميني غير متطرف سيجسم المعارضة ويتمم ثنائية شبيهة بثنائية الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى .

وهكذا تحققت المعجزة ، وأمكن ما كان مستحيلا . لم تمض على وفاة فرانكو سوى سبع سنوات يوما بيوم تقريبا وها هو الحزب الاشتراكي العمالي ، أحد الحزبين " الكافرين الملعونين " اللذين حرّم ذكرهما طيلة أربعين عاما أو يزيد ، ها هو يصل إلى القمة ويمسك بمقاليد أمور البلاد وتسيير شؤنها وكان وصوله بطريقة شرعية ديمقراطية وجاء نتيجة لرغبة الشعب صاحب السيادة والقرار . ها هو الحزب الاشتراكي يستلم السلطة وحزب يميني يواجهه في كرسي المعارضة دون أن يكون هناك خرق للقوانين أو يكون هناك صراع غير ذلك الذي تشير وتسمح به قوانين اللعبة الديمقراطية . ها هو الحزب الاشتراكي اليساري النزعة يستلم السلطة بمفرده داخل نظام ملكي تقليدي عتيق حبذ أن يكون دستوريا فكان " مملكة جمهورية " أو " جمهورية متوّجة " ، جمهورية ملكية .

ما من شك أنه لو تجرأ أحد في شهر أكتوبر " تشرين أول " 1975 وقال ان الحزب الاشتراكي سيحكم البلاد وبمفرده في أكتوبر ﴿ تشرين ثان ﴾ 1982 أو إن الحزب الشيوعي سيسهم بصفة طبيعية وبحرية كاملة في بناء نظام جديد للبلاد وأن يكون هذا النظام ملكيا وأن الاحزاب اليمينية ستكون المعارضة الرسمية داخل البرلمان الأسباني قابلة لعبة التداول حسب نتائج صناديق الاقتراع ، لو قال أحد ذلك لزج به في السجون أو في مستشفى المجانين لكن ، لو تعلقت همة المرء بها وراء العرش لناله ، وقد تعلقت همة الأسبان ملكا وسياسيين ومفكرين وعمالا وجماهير باقامة نظام ديمقراطي تكون السيادة فيه للشعب فنالوه وكان لهم ما نووا .

لقد مشت أسبانيا شوطا كبيرا جدا في مدة قصيرة جدا ، وقد أمكنها أن تحقق ما كان مستحيلا لأن " التاج " أراد أن يكون سلطة تقف حكما فوق الأحزاب السياسية وأن يسهر على تطبيق الدستور وأن يكون العاهل ملكا على كل الاسبان وأن يقام مستقبل البلاد على اتفاق للتضامن الوطني الذي بدونه تصبح محاولة اقامة الديمقراطية غير مجدية " (80) .

أمكن المستحيل لأن الأمر بالنسبة للاحزاب اليسارية والجمهورية ، كما قال السيد فيلبي غونثالث " ليس الخيار بين الملكية والجمهورية بل بين الدكتاتورية والديمقراطية " . أمكن المستحيل لأنه في أقل من سنة أنتقل سان تياغو كاريو ،

ذلك الذي كان اسمه طيلة أربعين عـاما ، ألعن من " الشيطان الرجيم " انتقل من زنـزانـة بُمقـر إدارة الامن العـام إلى ممـرات القصر الملكي ومقـاعـد البرلمان . أمكن المستحيل لأن السيد فيلبي غونثالث انتقل في أقل من خمسة وعشرين شهرا من العمل السري الخفي إلى بديل للسلطـة وبعد ست سنوات وصل إليها بـالطرق الشرعية وفي نطاق الدستور والقوانين . أمكن المستحيل لأن كل فرد من أفراد الشعب الأسباني قد اعتبر أن مهمة التحـوّل تهمه كما تهم الآخـرين فأسهم عن قصد أو عـن غير قصد ، مبـاشرة أو بصفة غير مبـاشرة ، بالكثير أو بـالقليل ، في بنـاء هذا الصرح الـذي أراد الجميع تشييده ليعيش الجميع تحت سقفه في رغد وسلام ووئام .

ما إن ظهرت نتائج الانتخابات حتى وجد السيد غونثالث وهو الذي بصفته أمينا عامـا للحزب الفائز سيعهـد إليه تشكيل الحكومة الجديـدة ورئاستها ، وجه خطـابا للشعب قـال فيه يجب أن لا يشعـر أي مواطـن أنه أجنبي عن هـذا العمل الجميل ، العمل التمديني والتقدمي والتضامني الذي علينا انجازه معا . إن تعاون كل أسباني داخل نطاقه ضروري لبلوغ الهدف وهو دفع أسبـانيا إلى الأمام . ان الدستور الأسباني الـذي وافق عليه الشعب وصـادق عليه الملك ، قـــد استغل بصفـة صحيحـــة فمكـــن من التداول على السلطـة وهذا التـــداول هو أحـد المبادىء الأساسيـــة للديمقـــراطية ولذا ، وفوق مـا قد يخالج ضمير كل فرد فيعرقله يمكن القول وبكل ارتياح إن الانتخـابات العامـة الثالثة قـد جرت بكل صفـاء ونظافة وبهذا فـان الفائز والرابح هو الديمقراطية والشعب والأسباني ، أكثر من أي حزب معين " .

بهذا الخطـاب أثبت السيـد غـونثـالث أن التحـوّل قـد بلـغ شـوطـه الأخير وأن الديمقـراطية التعـددية قد تمركـزت وأن التعايش بين الاسبـان أصبح واقعا ولم يبق إلا السير قدما في هذا الطريق ومواجهة الحياة اليومية ومصارعتها وسيبدأ بتحقيق التغيير الموعود .

يقول الصحفي الشهير السيـد خوزي أونيتـو في كتابـه " تشريح تغيير نظام " إن

بمجموع 392 127 10 صوتـا التي حصل عليهـا الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني يعني 202 نائبـا والأغلبية المطلقـة في مجلس النواب وأغلبيـة قويـة في مجلس الشيوخ بمجموع 134 مقعـدا تعززت بعد أشهر ومن خـلال الانتخابات البلديـة والأقليمية التي جـرت في شهـر مـارس ﴿ أيـار ﴾ 1983 ، بالسيطـرة على المجـالس البلـديـة والإقليمية الرئيسية في البلاد وبأغلبية الحكومات الأقليمية .

بهذه الحال ينتهي الإصـلاح والتحوّل بتخـويل الحزب الاشتراكي العمالي الأسبـاني التحكم المطلق تقريبـا فى كل دواليب السلطة . تحكم في الجهـاز التنفيذي وتحكم في السلطة التشريعية وتحكم فى السلطة البلدية وتحكم في الحكومات الأقليمية وتحكم في التمثيل النقـابي عن طـريق جهـازه الـرئيسي ، الاتحاد العـام للعمل ، وكـذلك وفي الواقع ، تحكم في جانب من وسائل الاتصال الاجتماعي ﴿ جرائد الحركة الفرنكية التي تم في ما بعد بيعها بالمزاد العلني ﴾ وتحكم في التلفزة الوحيدة " .

" إن اغلبية كبيرة من الاسبـان قد وضعـوا عن طريق صنـاديق الاقتراع كل آمالهم بأيدي حـزب وعد بمشروع عـريض الآمال لتغيير المجتمع ولتخطي الشلـل السياسي الذي وقع فيه الإصلاح وللخروج من الأزمة الاقتصادية ولتطوير بناء الدولة والحريات التي ضمنها الدستور تطورا كـاملا ولتنظيم الجهاز الإداري غير الناجح تنظيما معقولا للتمكن من مقاومة البطالة وعدم المساواة الاجتماعية .

لم يحرز قط حزب من الأحـزاب في تاريخ أسبانيـا سلطة كهذه السلطـة عن طريق صنـاديق الاقتراع ولم يحدث قط أيضـا أن اتفق عـدد كهـذا من الآراء لتُحقِقَ بـرنـامجا طموحا يضم احداث 800 ألف موطن شغل جديد خلال أربع سنوات المدة النيابية ودعـوة استفتاء عـام حول مستقبل أسبـانيا داخل الحلف الأطلسي وتعميق وتـوسيع الحريات التي ضمها الدستـور والتغيير الجذري والتحسين لكل الخدمات الاجتماعية الصحيـة والسكنية والتربـويـة وتعصير الأجهـزة الانتاجيـة وتحسين الانتـاج وتعصير البلاد وعقلنة العلاقات الصناعية ونشر الثقافة بين كل فئات المجتمع الأسباني .

ومع هذه الأهداف ، التي كان البعض منها خياليا أكثر منه واقعيا كما أثبتت الأيام

ذلك ، تم الوعد بإجراء تخطيط يوافق عليه الجميع وبالمحافظة على المقدرة الشرائية للأجور وبشفافية الاعتمادات وبإعادة بناء المؤسسات العامة بتخفيض تكاليف التأمين الاجتماعي المستوجبة على الشركات وبالقضاء على التبذير في المجال الصحي وبعرض خدمات أحسن نوعية لتطوير وديمقراطية التربية العامة والخاصة ولنشر الثقافة ولقطع دابر الرشوة والمحسوبية داخل الإدارة وللحصول على عدالة أكثر نجاعة وسرعة ومجانية ولحماية الحقوق الخاصة وضمان حقوق الإسهام .

والخلاصة فهو برنامج لبناء مجتمع أكثر عدالة وأكثر مساواة وأكثر حرية وأكثر سعادة "(81) .

بهذا البرنامج الواسع الكبير الطموح ، وبهذه القوة المستمدة من أغلبية مطلقة ناتجة عن الاقتراع الحر السليم شكل السيد فيلبي غونثالث ماركث أول حكومة له في بداية شهر ديسمبر ﴿ كانون أول ﴾ 1982 فكان أصغر رئيس حكومة أوربي وكانت حكومته التي شكلها ، دون استشارة أو أخذ رأي أحد على ما يبدو ، وزارة شابة تدور أعمار وزرائها حول الأربعين عاما وهي تقريبا سن الرئيس وسن الملك وهذا يعني أن معظم الساهرين على مصير أسبانيا ومعظم المسؤولين على تسيير دفتها هم أبناء جيل واحد الشيء الذي يسهل تفاهمهم وتعايشهم وسط دوامة السلطة والحكم . ألم يقل الملك لأحد زواره من رجال الأعلام وكان التحوّل في خطاه الأولى، والسيد فيلبي غونثالث لم يعلن بعد قبوله وقبول حزبه بالنظام الملكي ، ألم يقل " أظن أنه يمكنني التفاهم مع فيلبي . فلنا نفس العمر تقريبا ولنا عدة نقاط تقارب " .

وأمكن للملك فعلا أن يتفاهم مع فيلبي لكن هل أمكن لهذا الأخير أن ينفذ ذلك البرنامج الواسع العريض الذي وعد به خلال حملته الانتخابية والذي جسم به أحلام الملايين فأعطته تأييدها ووضعت مصيرها بين يديه ؟ هل نفذ فيلبي غونثالث وصحبه كل تلك الإصلاحات والتغييرات التي وعدوا بها ؟ هل نجح الاشتراكيون في تغيير وجه أسبانيا " حتى يصعب على والدتها التعرف عليها بعد ذلك " حسب ما صرح به السيد ألفونصو غيرا نائب رئيس الحكومة والرجل الثاني في الحزب الحاكم ؟ هل حقق الاشتراكيون فعلا كل آمال المواطنين التي وعدوا بتحقيقها ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة يخضع للقاعدة التي جاءت في بيت الشاعر الأسباني حيث يقول " ليس ثمة كذب أو حقيقة بل كل شيء يبدو حسب لون الزجاج الذي ينظر من خلاله " .

كثيرة هي اليوم ألوان زجاج النظارات فكثيرة هي إذن الآراء والأحكام على منجزات الحكام الاشتراكيين في أسبانيا . ولذا فنحن سنضع زجاجا جليا أمام عيننا الأولى وآخر قاتما أمام الثانية وسنحاول أن نرى الأمور من خلال اللونين عسانا نوفق إلى إعطاء لكل ذي حق حقه .

لقد قضى الاشتراكيون في السلطة دورة تشريعية كاملة ثم جرت انتخابات أخرى في 15 يونيو ﴿ حزيران ﴾ 1986 فاز فيها الاشتراكيون مرة أخرى ولو أنهم خسروا أكثر من مليون صوت . فها هي إذن ست سنوات قد مرت والسيد غونثالث على رأس الحكومة فأصبح بذلك الرئيس الذي بقي ديمقراطيا في الحكم أطول مدة . فماذا أنجز مما وعد ؟

إن السيد غونثالث يتمتع بجانب عظيم من الواقعية وهي التي ، بدون شك أوصلته إلى زعامة الحزب فرئاسة الحكومة . وهو يعرف كيف يغلب الواقعي على المثالي ومن ثم فهو يعرف من أين تؤكل الكتف . هذه كلها صفات تكاد تكون بيعية فيه لم تزدها الأيام والتجارب إلا صقلا وبروزا . ففي الأيام الأولى من التحوّل كان السيد غونثالث مثاليا يتحلى بالواقعية . لكن بعد عدة سنوات من الحياة البرلمانية قضاها متزعما المعارضة ، وبعد اجتياز الخطوات الأولى في تجربة الحكم ، أصبح واقعيا يتحلى بالمثالية . إن ابرز دليل على واقعيته هو " لون " تشكيلته الوزارية الأولى التي كان معظم أعضائها من المعتدلين لا من المتطرفين ، فطمأن بذلك المعارضين وخاصة الخصوم من أهل " اليمين " دون أن يغضب أنصاره ومؤيديه لأن هذه الجزئية لم تكن لتلفت انتباههم ، في المدة الأولى على الأقل . ثم إن السيد غونثالث قد حرص على تطبيق سياسة أقرب هي إلى ما عرف في أوربا " بالديمقراطية الاجتماعية " ﴿ الاشتراكية ﴾ وأكثر من قربها وانتسابها إلى الاشتراكية الماركسية . وهذا قد أغضب الجناح اليساري داخل حزبه ومع مرور الأيام قد أغضب أيضا نقابته العمالية " الاتحاد العام للشغالين " صاحب التاريخ الموازي لتاريخ الحزب وهو أحد الاتحادين الرئيسيين اللذين يقتسمان تسيير القوى العمالية في البلاد . لكن هذه السياسة ، خاصة في ما هو اقتصادي ، قد جلبت له رضاء ومهادنة قطاعات أرباب المال وأصحاب الأعمال إن لم نقل تأييدهم ومباركتهم .

لكن لنترك النظريات جانبا ولنتحدث بلغة الجميع ولنعد إلى البرنامج الذي وصل به الاشتراكيون إلى الحكم ولنستعرضه بندا بندا مقارنين الوعد أو المخطط بما أنجز ونفذ. هل تم التغلب على الأزمة الاقتصادية لقد تحسنت الأوضاع تحسنا ملموسا ولو أن الطريق لا يزال طويلا لكن كما قال أحد المسؤولين " لقد بدأنا نرى نور آخر النفق " . فالاستثمارات الداخلية والخارجية قد تضاعفت وهي في تزايد مستمر وارتفع في البداية حجم الصادرات لكن دون القضاء على عجز ميزان المبادلات . ولهذا وحسب ما جاء في تقرير المصرف المركزى فقد " اتخذت إجراء ات حتى يتوازن الطالب الداخلي مع ركود الطالب الخارجي وحتى نسبق التأثيرات التي سيحدثها ﴿ أحدثها﴾ انخفاض سعر النفط والمواد الأولية بالنسبة للصادرات الموجهة إلى مناطق جغرافية معينة . . . إن المظاهر الأكثر بروزا فى التقدم الاقتصادى تنحصر إذن في نمو الطلب الداخلي استهلاكا واستثمارا في تحسين العرض بالنسبة للصناعة والخدمات وكنتيجة لهذا نجد ارتفاعا واضحا في التشغيل وفي الأجور الحقيقية . أما المظاهر السلبية فهي تلخص في انخفاض الانتاج الزراعي وركود الصادرات وفي استمرار التضخم وعجز الميزان العمومي . إن حجم البطالة لا يزال مخيفا ولو أنه بدأ في الانخفاض هذه السنة (1986) ولكن بنسبة لا تعني حتى الآن شيئا " .

وباختصار " فان الاقتصاد الأسباني قد اعطى ، خلال السنوات الأخيرة ، أدلة قاطعة على أنه خارج من الأزمة أو على الأقل هو خارج من مرحلتها الصعبة " . فالتضخم الذي كانت نسبته تفوق الخمسة عشرة بالمائة (15٪) قد انخفض إلى أقل من خمسة بالمائة (5٪) وهي نسبة لاتزال أعلى من معدل ما سجل في بقية البلدان الأوربية ولكن نسبة مجموع الانخفاض خلال هذه السنوات هي أعلى نسبة بين دول المجموعة الأوربية . ولكن ، كما قال رئيس الحكومة السيد غونثالث نفسه " كثيرا لا يزال يحتاج إلى الانجاز . فالتضخم يجب أن يستمر في الانحسار ، وارتفاع الفائض لدى المؤسسات يجب أن يترجم وبسرعة إلى زيادة في الاستثمار الانتاجي ويجب على النسيج الصناعي والتجاري أن يستمر في التجدد . وختاما يجب إعداد اقتصادنا حتى يستطيع المنافسة داخل السوق الأوربية المشتركة كما يجب في نفس الوقت بذل مجهود للتضامن مع القطاعات الاجتماعية الأقل امتيازا ﴿ المتقاعدون والعاطلون . . . ﴾ وهي التي لها أقل دخل ﴿ لا ننسى أن الشبان العاطلين ليس لهم أي دخل ﴾ والتي تملك أقل امكانية للضغط النقابي أو الاجتماعي " .

لم يقع التغلب نهائيا على الأزمة الاقتصادية ولكن تحسنت الحالة والأوضاع كثيرا ولو أن هذا التحسن لم يشمل الفئات الضعيفة كما هو ضروري وواجب خاصة بالنسبة لحكومة تريد لنفسها أن تكون اشتراكية.تسببت هذه الظاهرة في بعض الشغب العمالي والطلابي والشبابي وأحدثت أزمة بين الحكومة والنقابات وخاصة النقابات الاشتراكية التي تكاد تقاطع حزبها من أجل ذلك وما بالعهد من قدم ، صرح زعيمها السيد نيكولاس ريدوندو يقول " إن للحكومة دين تجاه العمال ، تجاه الفئات الضعيفة تجاه الذين أعطوها ثقتهم كي تغير ما بهم ولم تفعل " ﴿ من خطاب ألقاه بالأندلس يوم 27 فبراير 1988 ﴾ .

ما ذا تم بخصوص وعد احداث 800 ألف موطن شغل جديد ؟ لم يحقق ذلك بل يمكن القول بأن تطوير الصناعة قد زاد في عدد العاطلين الذي بلغ حاليا فبراير ﴿ شباط ﴾ 1988 ، 3023646 عاطلا حسب إحصائيات المعهد الوطني للشغل . إن هذا الرقم يمثل نسبة 03 ,20٪ من مجوع اليد العاملة وهي نسبة كبيرة لا محالة وهي الشغل الشاغل للجميع مسؤولين كانوا أو من المعارضين وهي النقطة السوداء التي لا تزال تلطخ صفحة الأمل المفتوحة منذ أن أخذت الأزمة الاقتصادية في الانحسار .

لقد استلم السيد غونثالث رئاسة الحكومة وهو مقتنع بأن اصلاح الإدارة العامة وإدخال الديمقراطية عليها هو تحد تاريخي لابد من التغلب عليه وهو في نظره هدف يستحق الأولوية من طرف الحكومة لأنه بدونه يصعب انجاز مظاهر أخرى من مظاهر التغيير الأساسية . انطلاقا من هذا الايمان بذلت حكومة السيد غونثالث كل ما في وسعها فأصلحت وغيرت ونظمت بالرغم من كبير الصعوبات الناتجة عن ميراث قرون من العادات والامتيازات . لكن هل وصلت حقا إلى إصلاح الإدارة إصلاحا كاملا مرضيا ؟ كلا ولكنها مواصلة العمل لتحقيق ذلك .

إن الأمر لا يختلف بالنسبة للعدالة التى جهازها الموروث في حاجة إلى مراجعة عميقة واسعة أنجز جانب كبير منها ولكن لا تزال العدالة تشكو العجز والبطء وغير ذلك مما يشل خطاها . إن الحكومة الاشتراكية وضعت في الحقيقة برنامجا إصلاحيا واسعا وعريضا لقطاع العدالة ولكن إلى اليوم لايزال هذا القطاع محل نقد الجميع شعبا

ومعارضة وحتى حكومة . فالرئيس غونثالث نفسه على هامش نقاش برلماني حول أوضاع الدولة (24-25) فبراير « شباط » 1988 بأن العدالة تحتاج إلى الكثير من الإصلاح ولكنه أشار الى أن استقلالها يجعل أن هذا الواجب ملقى على كاهل رجال العدالة أنفسهم .

وعد الاشتراكيون أيضا بإجراء استفتاء " لإخراج " أسبانيا من الحلف الأطلسي ولكنهم لما حق الحق وجد الجد وأجرى وأجرى الاستفتاء طالب رئيس الحكومة الشعب بالتصويت لفائدة البقاء داخل الحلف دون الانتساب إلى منظمته العسكرية ففاز مرة أخرى بتأييد الشعب وبقيت أسبانيا ضمن الحلف . كانت الحكومة الاشتراكية قد توصلت قبل ذلك وبعد مفاوضات مضنية طويلة إلى حمل المجموعة الأوربية على قبول عضوية أسبانيا فتم ذلك ووقعت معاهدة الانتساب إلى المجموعة بالقصر الملكي بمدريد يوم 12 يونيو « حزيران » 1985 . بهذا الانتساب وبالبقاء في الحلف الأطلسي من بعده أخذت أسبانيا مكانها بين أخواتها الأوربيات وهو مكان أنكره عليها الأوربيون أحقابا لأسباب مختلفة منها وجوب التمتع بنظام ديمقراطي .

بقي داء الإرهاب الذي تجسم وانحصر في حركات وعمليات منظمة ايتا الباسكية لقد توصلت الحكومة وقوات الأمن ، بالتعاون مع السلطات الفرنسية من توجيه أقسى الضربات إلى هذه المنظمة وفككت معظم هياكلها وخلاياها واعتقلت كبار قادتها وهي الآن تجري معها ، بالجزائر ، مفاوضات غايتها القاء السلاح وقبول مبدإ العمل من أجل أية غاية داخل اطار الديمقراطية فقط وحسب القواعد الديمقراطية التي برهنت على قوتها وبعيد تمركزها في أسبانيا . إن الآمال في هذا المجال عظيمة ولكن أخطار الفشل ليست بالهينة .

من كل هذا يمكن استنتاج حقيقة واضحة جلية وهي أن أسبانيا ليس أمامها اليوم إلا مشاكل يومية ، هى مشاكل كل دولة في العالم مع اختلاف في الأنواع والأحجام والمعطيات أي أنها مشاكل الحياة وما تتطلبه الحياة من عمل يومي وهذا إن دل على شيء فانما يدل على أن مرحلة التحوّل قد انتهت ، انتهت يوم تأكد التداول على السلطة حسب القواعد الديمقراطية فوصل الاشتراكيون إلى الحكم داخل نظام ملكي دستوري دون أن يحدث ما قد يعكر صفو الأمور أو يهدد بالفوضى أو العنف من أي جانب كان مأتاه . تم التحوّل وتأكد وتمركز النظام الديمقراطي فحقق الأسبانيون ،

كما قال السيد فيلبي غونثالث رئيس الحكومـة " مشروعا وطنيا تمنيناه منذ قرون . فقد وطـدنا نظـاما ديمقـراطيـا ودخلنا أوربـا ونحن الآن بصـدد التغلب على أطول أزمـة اقتصاديـة أو حتى أعمق أزمة عرفهـا العالم خلال القرن الأخير . إن قـوانا كمجتمع عظيمة جدا كما تدل عليه الثقة التي توحي بها بلادنا سياسيا واقتصاديا . إذا استطعنا التغلب على بقايا الشعـوبية وعدم التضامن التى لا تزال موجـودة في بعض قطاعات مجتمعنا و إذا كنا قادرين على رسم مشروع تقدمي للتضامن مع كل المجتمع الأسباني وخاصة مع الفئات الضعيفة فأنا ، شخصيا ، متفائل " .

إن صاحب العرش وملك البلاد دون خوان كـارلوس الأول هو أيضا متفائل ولكنه لا يريـد تفاؤلا غير عقلاني فقد قـال مرة " إنه عند التفكير في الماضي القـريب وأخذ الصعوبات اللازمة لأي تحوّل بعين الاعتبـار أرى أن الانجاز والنجاح قد فاق الفشل ومع هذا فالمهم هو النظر إلى المستقبل وفي هذا الاتجاه قد يكون من الخطإ اظهار تفاؤل غير متعقل أو الاستسلام إلى تكهنات تشاؤمية يجب التعرف بصراحة على الصعوبات ولكن يجب في نفس الوقت التأكد من أنه بالوفاق والمجهود المشترك بين كل الأسبان سنستطيع التغلب على تلك الصعاب (82) .

ان الطريق - كما يقـول الملك نفسه في مناسبـة أخرى - إن الطـريق الذي قطع كان صعبـا وقد جابهنا فيـه هزات كثيرة ولكن لم يكن هناك بـد من قطع ذلك الطريق (83) .

قطع الشعب الأسباني بكل صبر وحكمـة هذا الطريق وسـار فيه بكل تعقل حتى أصبحت الحرية ظاهرة من ظواهر الـواقع اليومي وليس ثمة من بين الأسبان اليوم من يـرى أو يمكن أن يتصور المستقبـل أو أن يحيا أي مـواطن بـدونها . هذا هـو الـواقع الأسبـاني اليوم وقـد صنعه ، كما قلنـا سلفا ، ثـلاثة هم الملك والـزعماء السياسيـون والجماهير الشعبية . الملك لأنـه جعل من العرش سلطـة تحكيمية فـوق كل الأحزاب السياسية ، تسهر على تطبيق الدستـور وجعل من نفسه ملكا على الجميع ، لا حكرا لشق دون آخر ، وجعل المستقبل يقـام على وفاق وطني جماعي لايمكن للديمقـراطية التمـركز بـدونـه . هنا جـاء دور الـزعماء والقادة أيـاكـانت معتقداتهم أو ميـولاتهم أو مـذاهبهم . لقد تـوصلـوا بكل حكمـة وتجرّد قبل وأثناء التحـوّل ، خـارج أسبانيـا

وداخلهـا ، إلى اتفاقـات ومعـاهدات كـانت ترمـي كلها إلى تحقيق تعـايش بين كل الأسبان مهما كـان الثمن . بكل سخاء دفع كل جـانب ثمن ذلك وكان باهظـا لأنه كثيرا ما تجسم في التخلي عن بعض المبادئ التي تعتبر أساسية بالنسبة لكل مذهب من المذاهب السياسية المتـواجدة على الساحة ولكن وفي نفس الـوقت لم يتنازل أحد عن المبـادىء الجوهريـة . لقـد دفع كل حزب واتجاه ذلـك الثمن ولكنه ربح شرف بنـاء أسبانيا جديدة ، مقامة على قواعد وأسس ثابتة صحيحة تضمن لها مستقبلا مستقرا ، مـزدهرا ، تعيشـه في طمأنينـة وسـلام . إلا أن مجهودات الملـك وتضحيات الـزعماء والقـادة كـان يمكن أن تـذهب سدى لـو لم يكن العنصر الثـالث ، وهـو الجماهير الشعبية ، في مستـوى الأحداث إن الجماهير هي بـدون شك أهم وأكثر فـاعلية من العنصرين الأولين لأنها القاعـدة التي يتحرك عليها ومن أجلهـا العنصران الآخران .
إن هذه الجماهير الصـاخبة أو الصـامتة متحزبـة أو حرة من أي أرتبـاط سياسي هي دائما مليئة بالمشاعر والحماسة ومن بين مشاعرها الانتقام والأخذ بالثأر وهي ، حسب التاريخ والتجربة ، كانت دوما عرضة للانفجـار بعد مدة طويلة من الدكتاتورية أو بعد عهد ظلم وجبروت وانعـدام حريات . لكن ، هذه المرة ، وفي أسبـانيا ، كانت الجماهير مدركة دورهـا فشعرت تلقائيا بـوجوب المشاركة في المهمـة الضخمة والبناء العظيم فأسهمت بهدوئهـا ورصـانتهـا على تحقيق المعجـزة مسكتة أو ضـاغطـة على مشـاعر الغضب أو الفـرح ، مشـاعر الحماس أو الأمل ، مشـاعـر الأخذ بـالثأر أو الـدفاع . لقـد فعل المتطـرفون الكثير والمستحيـل لاثارتها وإخـراجهـا عن رصانتهـا وهـدوئهـا ولكنهم لم يفلحوا وبفضل هـذه الأغلبيـة العظمى من الشعب الأسبـاني أمكن تحقيق ما كان مستحيلا .

<u>الصحافة</u> : إن للإعلام ووسـائله دورا كبيرا في كل ما تم وتحقق وأنجـز في أسبانيا منذ وفـاة فرانكو إلى اليوم ويكـون إجحافا لحق " صاحبـة الجلالة " لو لم نعرهـا ولو قليلا من اعتبارنا ونحن نتحدث عن التحوّل الكبير الذي عاشته أسبانيا خلال الحقبة الأخيرة . إن الصحافة بأنواعها الثلاثة مكتـوبة ومسموعة ومرئية تحتاج دون شك إلى مؤلف خاص يتناول فيه كاتبـه دورها بل أدوارها الكثيرة المتعددة الهامة التي أسهمت بها ، وبنجـاعة ونجـاح ، في إيصـال مركب التحـوّل والتغيير إلى شـاطىء السلامـة والهدف المنشود .

" إن لكل أسباني الحق في التعبير بكل حرية عن أرائه بشرط أن لا تمس هذه الآراء بالمبادىء الأساسية للدولة " . وبهذه الفقرة من الفصل 12 من " قانون الأسبانيين " أحد القوانين الأساسية السبعة التي كانت تسير على ضوئها دولة فرانكو وبما جاء في الفصل الثاني من قانون الصحافة لعام 1966 وما اشتمل عليه الفصل 165 ب من القانون الجنائي ، كانت تسير الصحافة في عهد فرانكو وفي الأيام الأولى بعد وفاته سيرا غير طبيعي إذ كانت صحافة ملجمة مكممة تعرضت للعقاب والايقاف كلما خرجت عن الطريق المرسوم و" الطاعة الواجبة " . بالإضافة لهذا ، كان النظام يمتلك جل ما يصدر من جرائد ومجلات وما يبث من إذاعات أضيف إليها التلفزة التي بقيت ، منذ انشائها يوم 28 أكتوبر ﴿ تشرين أول ﴾ 1956 ولازالت ، وحيدة وحكومية ولو أنها تحولت مع الإذاعة الوطنية في السنوات الأخيرة الماضية ، إلى مؤسسة " مستقلة " ذات شخصية اعتبارية يتكوّنُ مجلس ادارتها من ممثلين عن الأحزاب السياسية ذات التمثيل البرلماني وبنفس نسبة عدد مقاعدهم بالبرلمان .

كنتيجة للحرب الأهلية وعن طريق الضغوط ونزع الملكية ، استولت الدولة في عهد فرانكو ، على كل الجرائد ومحطات الإذاعة ذات الصبغة أو الميولات الجمهورية ولم ينج من ذلك سوى الجرائد التي عبر أصحابها عن ولائهم " للقضية الوطنية " مثل عائلة لوكا دي تينا صاحبة الجريدة اليومية " أ . ب . ث . وعائلة غودوا ، صاحبة جريدة الطليعة التى تصدر في برشلونة . أدمجت كل وسائل الاتصال التي تم الاستحواذ عليها في الحركة ﴿ الحزب الواحد ﴾ وأطلق عليها اسم صحافة وإذاعة الحركة . كانت تضم 35 جريدة و45 محطة إذاعة ووكالة أنباء " بيريسا " . وكانت هناك أيضا الصحيفة " أريبا " ﴿ إلى العلى ﴾ الناطقة باسم الحركة وظهرت بعد ذلك الجريدة المدريدية المسائية الناطقة باسم النقابات العمودية واسمها " البويبلو " ﴿ الشعب ﴾ . كانت معظم هذه الجرائد اقليمية صغيرة ، محدودة الانتشار بصفة عامة ولكنها كانت المصدر الأخباري المكتوب الوحيد . . .

إن الصحافة المسيرة لم تتنافس حقا مع الصحافة الخاصة . فلم تكن هناك سوى جريدتين مستقلتين تدعيان النوعية وتوزعان على نطاق وطني وهما " أ . ب . ث . " وجريدة " يا " . . . إن الخط الذي اتبعته جريدة أ . ب . ث . لا يمكن اعتباره ناقدا أو معارضا للنظام إلا في نطاق أن عائلة لو دي تينا كانت ملكية متحمسة

فلم تكن لتوافق على رفض فرانكو تسليم السلطة لـدون خوان ولكن أ. ب. ث. لم تعارض أبدا سلطوية فرانكو.

صحيفة " يـا " ملك " دار النشر الكاثـوليكية " . فهي بـذلك الصوت المستقل للكنيسة الكاثوليكيـة وكانت مساندة تمام المساندة مـن طرف مسؤولي الكنيسة . . . أما فيما يتعلق بجريـدة " الطليعة " فالبرغم من محافظتها على شبكـة مـن المراسلين الخاصين بالخارج بقيت أساســا جريـدة قطلانية مثلها مثــل " أ. ب. ث. " في تأييدها للملكية .

نظـرا لانخفاض شـدة الرقـابة قـرر وزيـر التربية الأسبق السيـد رويث خيمانث تأسيس مجلة مسيحية ديمقراطية " كراسات من أجل الحوار " أسهمت في جمع عدد من الكتـاب الديمقراطيين المسيحيين ابتعـدوا عن النظام ، في احتشـام أولا ثم بكل صراحة وعلانية . أما الجريدة المدريديـة " انفورماثيونس " ﴿ الأخبار ﴾ فقد كانت أكثر الصحف المستقلة تجديدا ومثلها الجريدة المسائية " مدريد "(84) .

كانت الصحافة على هذه الصورة تقـريبا لما ظهرت ، وفي خضم التهيؤ للتحوّل ، جريدة ستصبح مع الأيام أكثر الجرائد تأثيرا وأصدقها تمثيلا للعهد الجديد . سميت هذه الصحيفـة " الباييس " ﴿ البـلاد ﴾ وسرعان مـا جلبت إليها نـوعا جـديدا من القراء كـانوا محرومين في عهد فـرانكو من أي تعاليق نقديـة أو أخبار متنوعـة واسعة شاملة . وشيئا فشيئا حصلت الباييـس على مساندة رجال الفكر الأسبان وتحولت إلى لسان حال المواطنين الذين لا تزيد أعمارهم عن الخمسين . كانت الصحيفة المناسبة في الوقت المنـاسب . لقد ظهـرت سنة 1976 مع بـداية التحـوّل ووضعت لنفسها سياسية وسط قد تكون مائلة إلى اليسار بعض الشيء فجاءت مطابقة لميولات الأغلبية من المواطنين . أصـدرت " البلاد " عـددها الصفـر لتعـرف بنفسها وتهيىء نشرهـا فقالت فيـه " إنها صحيفة بلا مـاض ولذا ليست لتنـدم على شيء لأنها لا تشعر أنها مسـؤولة عن أي شيء . ولـذلك فهي سـوف لاتستظهـر بأوراق اعتماد تاريخيـة ولا بحنين من أي لون ولا بمـراجعات ولا أخذ بالثأر . سـوف تنحصر مهمتها في أخبار قرائها بكل أمانة وستمدهم بكل المعلومات الممكنة لتمكنهم من تفسير العالم المحيط بنا " .

قـامت فعلا بكل هـذا وبكل أمـانة ومقـدرة مهنيـة حتى أصبحت مثالا يحتـذى فأرادت السير على منوالها صحف كثيرة خـاصة بأميريكـا اللاتينيـة . وهي كما يقول السيـد أميليو روميرو ، المعلق الصحفي الشهير " إن جـريدة " البـاييس " تحولت منذ بداية إعادة الديمقراطية إلى " سلطة رابعة " ، سلطة حقيقية بالنسبة لكل القوى السياسيـة التي أصبحت تهابها وبعد ذلك ومن تحت ستـار ، من تحت ستار فقط ، تحاول افتراسها . . . . الـواقع هو أن تأثير جـريدة " البـاييس " السياسي والشعبي كان حاسما في تاريخ الديمقراطية " (85) .

ظهرت أيضا وفي نفس الوقت تقريبا مجلـة " انترفيوف " التي أصدر صاحبها بعد ذلك صحيفـة أسماها " البريـوديكو " ﴿ الجريـدة ﴾ التي سريعا مـا تمـــركـــزت هـــي الأخرى وأصبحت تقارب مـــن حيث التوزيع جريدتي " البايـيـس " ﴿ البلاد ﴾ و" لافانغوارديا " ﴿ الطليعة ﴾ .

هذه لمحـة سريعة مقتضبة ليست الغايـة منها سوى تجسيم صورة وسـائل الإعلام التي كانت عاملـة أيام التحوّل . أما مـوضوع الصحافة في أسبانيـا ووضعها ودورها فهو كما قلنا يحتاج إلى دراسـة خاصة متخصصة ظهر منها مـؤخرا كتيب صغير كأنه نشرة وهو بقلم " وليام تشسلت " وعنوانه " وسائل الإعـلام الاسبانية منذ فرانكو " ويحتوى على تحليل قيّم لدور الصحافة خلال التحوّل (86) .

أماعن الدور الذي قـامت به الصحافة بأنواعهاخـلال الفترة التي نحن بصددها فقد كان دورا عظيما ، ذابت فيه جرائد ووسائل اعلام الحركة ، وبرزت فيه الصحف المستقلة أو شبه المستقلـة وخاصة منها الحديثة الظهور ومثل جـريدة " البايـيس " . عملت كل هذه الجرائد ، بالأساليب واللغة الخاصة لكل منها على انارة وتهيئة الرأي العام للتحوّل الكبير الـذي كانت تمر منه البلاد والدور الـذي على كل مواطن القيام به . إننا لو استثنينا جريدة " القصر " اليمينية المتطرفة المؤمنة بوجوب بقاء واستمرار نظام فرانكـو ولو بدونه ، وجـدنا أن كل الصحف قد لعبت دورها المنشـود فطالبت وألحت في الطلب بوجـوب اصدار العفو العـام وإعطاء الحريات وسانـدت وجوب الإسراع بإعطاء الشرعية للأحزاب بما فيها الشيوعي وفتحت صفحاتها لمعظم الساسة والمفكرين وحملة الأقـلام دون ميز ولا تمييز فساعدت على إبـراز تعدد الأفكار والآراء

كواقع وحقيقة يجب قبولها . لقد أسهمت الصحافة بقسط كبير في تهيئة الجماهير الشعبية لما استفزها المتطرفون بأعمالهم الإجرامية وجعلت المواطن على علم ودراية بكل ما يدور من أجله في المكاتب والقصور والنوادي وأفادته بكل دقة وتفصيل لم يتعوّد عليهما ، عن كل ما يهيأ له من طرف المسؤولين والقادة السياسيين فاتحة أعمدتها له كي يدلي فيها برأيه إن اراد .

لم يكن دور الصحفي سهلا ولا ميسورا . فالقوانين لم تحوّر ولم تغير آنذاك إلاجزئيا واستمرت البقية سارية المفعول وبقيت سيفا مسلطا على كل من يعمل في الصحافة خاصة وأن الكنيسة والعسكر كانت لديهم مجموعة قوانين تهدد الصحافة وحريتها .

ثم إن اليمين المتطرف كان قائما وقويا نشيطا فلم يتردد قط عن تهديد الصحفيين نتيجة كتاباتهم ومقالاتهم ولم يتوقف الأمر عند التهديد بل تعداه إلى الإنجاز والتنفيذ مثل ما كان مع السيد خوزي أنطونيو مارتينث سولير ، مدير إحدى الصحف الأسبوعية الذي اختطف في شهر فبراير «شباط» 1976 ثم احتجز وعذب لأنه نشر مقالا ضد الحرس المدني . لم يسلم الصحفيون كذلك من عنف رجال الأمن الذين كثيرا ما صبوا جام غضبهم على المصورين الصحفيين لما لصورهم من تأثير ومن تجسيم واثبات لكل ما قد ينكر أو يكذّب إذا ما اعتمد على الكتابة وحدها .

رغم هذا فقد قام الصحفيون بواجبهم كل حسب ضميره ومقدرته فكوّنوا عنصرا آخر ساند ونسق ووفق بين العناصر الثلاثة الأخرى وعرّف بعضها ببعض فأزال كل ما من شأنه أن يحدث التباسا أو سوء فهم بين مختلف القوى العاملة على ارساء النظام الجديد . من ذلك أن وسائل الاعلام قدأسهمت إسهاماً فعالاً في تقوية وتلميع صورة الملك والعائلة مبرزة إياها كمؤسسة وطنية داخل نظام ديمقراطي . وعاملت الكنيسة بكل احترام وتقدير فحالت بذلك دون إحياء المشاعر المعادية للكنيسة والكامنة في نفوس الكثيرين . كذلك كان تصرف وسائل الإعلام تجاه القوات المسلحة ورجالها . فحتى في أشد الحالات تأزما كانت لغة الصحافة بأسرها تجاه القوات المسلحة لغة احترام وتقدير ولما وجب النقد جاء النقد رصينا لا يحتوي على ما من شأنه أن يثير العسكر أو يحثهم على القيام بما لا يرضاه أحد .

بمثل هذا الشعور بـالواجب وبمثل هذه الروح المهنيـة وبمثل هذا التعقل يمكن للصحافـة أن تقول بحـق أنها أسهمت إسهامـاً مباشراً في بناء النظـام الديمقـراطي الجديد وأنها لا تزال تعمل في سبيل الفات النظر إلى مـا لا يزال في حاجة إلى الاصلاح والتنبيه إلى ما اعـوج من الحلول أو التصرفات و إعطاء المعلـومات والأدلة عن كل من يعمل وكل مـا يجري في البـلاد ولـو أن ذلك كثيرا مـا كلفهـا غضب المسـؤولين . إن حساسية رجال الحكم والقادة السياسيين في أسبانيا لما تقـوله الصحافة حساسية قوية وهي مثيرة لأعصاب وغضب أصحابها إذا كان القول نقدا أو انتقادا وهذا أحدث ولا يزال يحدث من حين لآخر جفـوة وتباعدا بين الصحافة والـرجال العموميين ولكن لا يتعدى الأمـر ذلك الحد . فالإعـلام ورجالـه يتمتعون اليوم في أسبـانيا بحـرية كبيرة واسعة وبامكانية للعمل وتقصى الأخبار والـوصول إلى مصادرها قليلة المثيل حتى في بعض الدول الغـربية . ورغم هذا فلم تنقطع المطـالبة بالمزيـد وما هذا سوى بـرهان آخر على أن أسبـانيا ودعت بـدون رجعة أنظمـة وعهودا مظلمة تـركتها وراء ظهـرها لتحيى حياتها الجديدة ، حياة القانون والعدالة والحرية للجميع .

الخـاتمة

بعد أشهـر قليلة ، أي يـوم ستة ديسمبر ﴿ كانـون أول ﴾ 1988 تكون قـد مرت عشر سنوات كاملـة على إعلان الدستور الأسباني الأخير . هـو أول دستور أسباني ، من بين دسـاتير عديـدة ، ساهم في إعـداده وتحريره ممثلـون عن كل فئات وميـولات الشعب الأسبانى فكان دستورا يظل كل الشعب الأسباني لا دستور شق دون أخر ، أو حامي مصالح جـانب على حساب الجانب الآخر . إنه دستور الـوفاق والتعايش الذي وحد بين شقي أسبـانيا بعد أحقاب من الشقاق والتناحـر انتهت بحرب أهلية مدمرة .

هل أثبت الدستور فاعليته ؟ إن المدة المنقضية منذ صدوره قصيرة ولكنها أكثر من كافية لاستطاعة الادلاء بحكم واقعي عادل وذلـك لكثرة ما تحقق خلالها . إن حادثة بسيطة في مظهـرها ، عميقـة في معناها ، شبيهـة بالأسطورة كفيلـة بالـدلالة على أن دستـور أسبـانيا الجديـد سيحقق أكثـر ممـا حقق وسيعمـر أكثر من كل الـدسـاتير الأخرى . ولذا سنروي القصة مختصرة .

انها معلمة بـاحدى المدارس الابتـدائية باقليم قـاطالـونيا ، مدرسـة من تلك التي تديرها الراهبات . ذات يوم ، تجرأت المدرسة وصرحت ، في شكل مسارة لأحد ما ، أنها ليست كاثوليكيـة . كان هذا كافيـا بأن تستلم بعد يومين رسالـة من المعهد تفيد بفصلها ولو أن الطرد علل بأسباب أخرى غير محددة .

ومهما يكن من أمـر ، فقـد رفعت المدرسـة شكوى ضـد معهـدهـا وحكمت لها المحكمة ، لكن دون التعمق في الحيثيات ، فرأت الـآنسة أن ذلك غير كاف وقررت الوصول إلى أخر ما يمكن الوصول إليه حتى تثبت أن في بلادها لا يجرؤ أحد على طرد أي كان من العمل لمجرد أنه يرى أو يفكر بخـلاف ما يراه أو يفكره رؤساؤه . كانت ترى أن التحـول يكون قـد أتى بالقليل إن لم تـدخل الديمقـراطية حقـا إلى كل بيت ويتمتع بها كل مواطن . استأنفت الحكم ولكن محكمة العمل المركزية هي الأخرى لم تشأ الدخول في تعقيدات واشكالات فحكمت لها بالتعويض عن الأضرار وكان إذاك قد مر عام على طردها . لكنها لم تستسلم وقالت " كل هذا كان موجودا أيام فرانكو فأين التجديد ؟ " .

بحثا عن التجديد رفعت قضيتها إلى أعلى مؤسسة عدلية جعلت للسهر على الحقوق والحريات وبذلك كانت تريد أن ترى إن كان الدستور صالحا حقا ويمكن لأي مواطن أن يستفيد منه . رفعت قضيتها إلى المحكمة الدستورية فحكمت هذه بوجوب الاعتراف للمواطنة بحقها في حرية المعتقد وبعدم التعرض إلى أي تمييز لأسباب عقائدية واعترافا بحقوقها تلك يجب إعادتها إلى وظيفتها . عادت الشابة إذن إلى وظيفتها في نفس المعهد ولو بعد ثلاث سنوات فقالت " بالرغم من أننا نظن أحيانا أننا لسنا عائشين تحت نظام ديمقراطي فإن الواقع يدل على أنه لولا الديمقراطية لما عدت إلى عملي وفي نفس المدرسة. نعم قد تم ذلك في بطء لأني احتجت إلى ثلاثة أعوام كي أثبت حقي ولكنني أثبته في النهاية " .

هذه الحادثة البسيطة دليل قاطع على عمق وبعد ما وصلت إليه أسبانيا في ظرف عشرة أعوام . لقد ركزت خلال هذه المدة القصيرة نظامها الديمقراطي فكانت أطول مدة ، في تاريخ أسبانيا المعاصر ، يتعايش فيها الأسبان في أمن وسلام وحرية . إن هذا يدل على سلامة النظام . فسلامة الأنظمة تقاس بدرجة شرعيتها ودرجة نجاعتها الاجتماعية التنظيمية . والشرعية الديمقراطية تعني أن النظام المقام على الاعتراف بالحقوق الطبيعية للانسان ، أساسه السيادة الوطنية ويأتي تعبيرا عن إرادة الشعب . أما النجاعة الاجتماعية في ديمقراطية تعددية فتعني تفرع المجتمع وقيامه بدوره بصفة طبيعية ودستورية لتحقيق تلك الحقوق .

فإذا اعتمدنا هذه المفاهيم وقارنا الديمقراطية الاسبانية بها وجدنا أنها سليمة وأنها مقامة على أسس صحيحة . لكن هذه الشرعية وتلك النجاعة ليستا من المفاهيم الجامدة ولذا لابد للنظام الذي تتجسم فيه سياسيا أن يجدد شرعيته باستمرار فيحرّر وينمي ويوجه مبادرات وتصرفات المجتمع .

إن أسبانيا بعد وفاة فرانكو بعد أن استعاد الشعب فيها سيادته وتم الاعتراف بحقوق الانسان كمبدإ أساسي للتعامل ، كانت في حاجة إلى وضع أسس ثابتة تحدد هويتها السياسية وأهم هذه الأسس هي أولا رسم إطار التعايش باقامة دولة قانون ذات نظام ديمقراطي برلماني وفي شكل ملكية دستورية . وثانيا ، تأسيس مبدإ

الاستقلال الذاتي السياسي كقاعـدة مفرّعة لدولة لا مركزية يكـون فيها توزيع مراكز القرار ترابيـا ، مسيرا لإدماج القوميات التـاريخية في الدولة وتمكين الأحـزاب القومية المحلية ذات القاعـدة الشعبية من ولوج مجال السلطة . وثـالثا تحديدمصالـح أسبانيا الدائمـة بصفتها عضـوا بالمجمـوعة العـالمية وهـذا يعني توضيح وضعهـا العالمي في المجالين الاقتصادي والسياسي " (87) .

أقيمت دولة القانـون وتركزت الملكية ووضع الـدستور والمبادئ الأساسيـة للتعددية الأقليميـة والحزبية وأجـريت الاستفتاءات والانتخـابـات وتطبعت الحياة البرلمانيـة والتداول على السلطة حسب ما ينتج عن صناديق الاقتراع وتم الانضمام إلى المجموعة الأوربيـة وإلى الحلف الأطلسي . بكل هـذا تم رسم الإطـارات الضرورية للتحـرك والعمل على دفع عجلة نمو البلاد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا فوضع في عهد سووارث " ميثـاق مـونكلووا " الاقتصـادي الاجتماعي ووضع في عهـد " غـونثـالث" الاتفـاق الاقتصـــادي الاجتماعي فأمكن التخفيف من حـــدة الأزمـــة الاقتصـاديـــة وتحسين الخدمات والعلاقات الاجتماعية التي أصبحت مقامة قبل وفوق كل شيء على الحوار ثم الوفاق والاتفاق بين مختلف الأطراف الاجتماعية .

داخل تلك الإطارات السياسية تم أيضا وضع عدد كبير من القوانين واتخاذ الكثير من الإجراء ات لإرسـاء النظام الاقليمي ، نظـام الحكومات المحليـة الذي أصبحت عليـه البلاد ولنقل الاختصـاصـات من الحكـومة المركـزيـة إلى السلطات الاقليميـة ولاصلاح التعليم ولتطـوير الصنـاعة وإبـدال قديمهـا بالحديث العصري ولتحسين النظام الجبائي حتى يكتسي أكثـر عدالة اجتماعية ولنشر الثقافـة وتقريبها من المواطن في كل مكان .

داخل تلك الأطر تم أيضا تطوير مصالح الأمن والدفاع فأدخلت إصلاحات على هياكل وتنظيمات الشرطـة ووسائلها وطـرق عملها وأدخل تحويـر عميق على هياكل القوات المسلحة التي أصبحـت خاضعة للسلطة المدنية فـاقتربت أكثر من الشعب التي هي منه وإليه .

وأحـرزت المرأة على اهتمام كبير تجسمت أولى إجراءاتـه في تحوير قـانون الأحـوال الشخصيـة الذي " حـرر" المرأة فعـلا ووضعهـا بعد أحقـاب من الحيف على قـدم

المساواة مع الرجل . فآخر قانون صدر بخصوصها مؤرخ في 20 فبراير « شباط » 1988 وهو يعطي المرأة الحق في الانخراط في القوات المسلحة بكل وحداتها وأسلحتها ولها الحق في بلوغ أعلى الرتب في هذا السلك . فأين هي المرأة الاسبانية اليوم من أختها التي كانت قبل عشر سنوات أو أكثر بقليل لا تستطيع الحصول على جواز سفر إلا بإذن زوجها ولا فتح حساب مصرفي أو ما شابه ذلك إلا بإذنه ؟

إن المنجزات كثيرة وكثيرة جدا وقد تمت في وقت قصير جدا مما جعل أسبانيا وحيدة في أوربا ، وربما في العالم أجمع ، تشهد وتحقق هذا التحوّل الكبير بالسرعة التي تم بها . لقد عاشت أسبانيا فترة تطور صناعي ونمو اجتماعي لم تعشه جاراتها الأوربيات سرعة وزمنا . إن النمو الاقتصادي السريع الذي عاشته البلاد بين 1955 و 1975 قد قلب مظهرها تماما . فمن دولة زراعية متأخرة أصبحت الدولة الصناعية العاشرة في الغرب ، وانجر عن هذا تطور اجتماعي سبق السياسي وأنتج طبقة متوسطة عريضة جدا حطمت إلى الأبد ثنائية أسبانيا « طبقة عليا وأخرى سفلى وفراغ بينهما أو يكاد » فكان الاستقرار وبرز وعي اجتماعي فسياسي أجبر نظام فرانكو في آخر أيامه على التخفيف من حدته .

ثم مات فرانكو فاستلم مقاليد الأمور رجلان آمنا بالديمقراطية وبضرورتها لحياة البلاد فتسلحا بالصبر والثبات واستعملا آلة الحوار والكلمة الحسنة فنالا ثقة وتفهم قادة القوى الحية في البلاد فبنوا جميعا صرحا شامخا مقاما على الحرية والعدالة وحقوق الإنسان . إن النزاهة تفرض علينا التذكير بأن القادة الاشتراكيين والشيوعيين قد استجابوا لنداء الواجب ومصلحة الوطن العليا فأظهروا من الاعتدال والمرونة ما جعلهم يستحقون اكبار وتقدير الجميع وسيذكر لهم التاريخ مساهمتهم إلى جانب الملك وأدولفو سووارث في تحقيق الاستقرار لأسبانيا على أسس الحق والشرع .

يرى بعض المؤرخين والمعلقين أن العامل النفساني وشبح الحرب الأهلية قد ساعدا على الاعتدال والرصانة فتأخر أنصار المحافظة على نظام فرانكو في فهم أن امتيازاتهم قد قرب زوالها واحتاط الجانب المطالب بالقطيعة مع النظام السابق وإنشاء نظام جديد في إثارة غضب الشق الآخر ومن والاه من القوات المسلحة ولذا جاء الإصلاح

تدريجيا حتى أن الدستور لم يعلن إلا بعد ثلاث سنوات من موت فرانكو ، وهى لعمري مدة قصيرة ولو طالت على أمة كانت تريد أن تضع الحجر الثابت لتشييد حاضر ومستقبل مستقر دائم ، لكن هذا لا يمنع من الملاحظة أن المسؤولين قد تحركوا وتصرفوا آنذاك في شيء من الفراغ الشرعي وهذا ما يزيد من قيمة وشجاعة ومقدرة الملك والرئيس سووارث وما جلب إليهما اكبار وتقدير الجميع بالداخل والخارج .

والآن وبعد عشر سنوات من إعلان الدستور وبعد التداول على السلطة وقضاء الاشتراكيين فيها دورة تشريعية ونصف دورة ثانية يجدر بالمهتم التساؤل حول بعد جذور الديمقراطية فى أسبانيا وإلى أين تسير البلاد . أما بالنسبة لأبعاد الديمقراطية فقد أثبتت الأيام والأحداث أنها عميقة الآن في مختلف شرائح وفئات الشعب وقد تمركز النظام وثبت فأصبح شبيها بأي نظام ديمقراطي أوربي غربي . والمؤسسات قد خرجت من ركودها وأصبحت تعمل وتحاول اللحاق بركب بلدان أوربا الأخرى ولو أن عملها تعتريه أحيانا أخطاء أو عراقيل أو مشادات بين مؤسسة وأخرى لكن ليس ما يحدث في هذا المجال بأكثر مما يجري في أي بلد من بلدان العالم الديمقراطي .
تمركز أيضا نظام الأقاليم واستقلالها الذاتي وكان قبل عشر سنوات مجرد رغبة ومطلب .

أما الجانب الاقتصادي والاجتماعي فقد أعيد بناء هياكل البلاد المتصلة به وسنت القوانين لتنظيمه فأدخل التجديد والطرق والأساليب العصرية المتقدمة على الصناعة ومختلف الخدمات فتم الحد من الأزمة الاقتصادية وبدأ الإزدهار ينمو نموا سريعا يخرج عن الطبيعة والمعتاد حسب الخبراء والمختصين .

خرجت أسبانيا خلال هذه الفترة من عزلتها وكسرت الحواجز التي كانت تحول دونها ودون احتلال مكانها وسط المجموعة الدولية فانتمت إلى السوق الأوربية وإلى الحلف الأطلسى وأقامت العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع معظم بلدان العالم بمعسكريه الشرقي والمغربي محاولة المحافظة على موقف وسياسة معتدلين محايدين رغم انتمائها بحكم الموقع الجغرافي والثقافة والتاريخ والنظام إلى الغرب ومدنيته .

أمكن خلال هذه المدة أيضا تنظيم وتطوير القوات المسلحة وقوات الأمن بما يتناسب والنظام الجديد الذي تتمثل السيادة فيه في الشعب وتمسك بالسلطة فيه حكومة مدنية ممثلة للشعب يتابع أعمالها ومنجزاتها ملك دستوري ويحاسبها برلمان ومجلس شيوخ منتخبان انتخابا حرا مباشرا وتخضع فيه قوات الأمن والدفاع إلى هذه السلطة المدنية المنبثقة عن الشعب .

نظمت أيضا العدالة فاستقلت تماما ووضعت على رأسها محاكم عليا تحسم الخلافات وتبت في النزاعات أيّا كان مأتاها وأهم هذه المحاكم المحكمة العليا والمحكمة الدستورية .

لم يتوقف الإصلاح والتغير عند هذا الحد بل شمل التربية والتعليم والصحة والتجارة الداخلية والخارجية والمعاملات النقدية والزراعة والسياحة والأشغال العامة وكل ما هو في حاجة إلى إصلاح وتغيير يفرضهما الوضع الجديد أو العصر أو دور أسبانيا الأوربي والدولي خاصة أن كل هذه القطاعات كانت تشكو في أسبانيا تأخرا وجمودا .

لكن هذا لا يعني أن كل هذه المنجزات لم تجابه صعوبات أو لم ترتكب عند تنفيذها أخطاء وهفوات أو هي كاملة غير منقوصة . فقد رأينا كيف أن تغيير النظام السياسي قد جابه عراقيل جمة وتسبب في هزات كالمحاولة الانقلابية التي جرت في 23 فبراير ﴿ شباط ﴾ 1981 وكالارهاب ، وخاصة منه الباسكي ، الذي لا يزال يذهب بأرواح الضحايا الابرياء وغير ذلك من المتاعب والصعوبات التي هي سنة من سنن الحياة وهي بعد وقبل كل شيء علامة من علاماتها .

إن كل هذه التغييرات والتحوّلات قد أحدثت تغييرا آخر عميقا وعظيما وهو التحول الاجتماعي وتغير العقليات . لقد رأينا كيف أن التطور الاقتصادي الصناعى قد خلق طبقة متوسطة عريضة جدا حطمت الثنائية وحالت دون نزاع طبقتين ، وأصبحت لها متطلبات غيرت الاستجابة لها وجه البلاد . وهذا التحوّل الاقتصادي الذي عرفه المواطن الأسباني قد غير الكثير من مفاهيمه وطباعه وأخلاقه . فذاك الأسباني المنغلق على نفسه والمنزوي في بلاده أصبح اجتماعيا متفتحا يهتم بما يجري

حوله في الـداخل والخارج . وذلك الانسان المنغلق المتعصب دينيـا وعنصريا أصبح قابلا متفهما لكل الديانات والعقـائد والتيارات محترما أصحابها متعاملا معهم وحتى متعايشا معهم .

إن أسبانيا اليـوم لها مواطنون معتدلـون في معظمهم يهمهم العيش في أمن وسلام وسط عـائلة متحـدة سليمة وبعمل شريف يسـد الحاجيات ووقت فـراغ يمكن من التمتع بما تهبه الحياة .

وخلاصة القول هي أن أسبانيا اليوم شبيهـة بأي بلد أوربي آخر ، ومواطنوها أكثر حـذرا ومحافظـة تجاه الجديد مـن العادات لكن دون انغـلاق أمـام التطـور التقني ، يحدوهم الأمل بـالنسبـة لحيـاتهم وحياة وطنهم ولـو أن الكثيرين منهم لا يصـدقـون السياسة والسـاسة ويشكوّن في الحكومـة والمؤسسات وهم حريصـون على المحافظة على الحريات المكتسبـة التي حصلت عليها البلاد بعـد قرون من الظلم والجبروت ، حريات يرون أن اختلال الأمن العام يهددها ولذا فهو فى مقدمة مشاغلهم .

ما الذى بقي أمام أسبانيا إذن ؟ الحيـاة . الحياة بكل ما تحمله من مشاكل وأتعاب وصعوبـات ونزاعـات . الحياة العصريـة التي يفرضهـا التقدم التكنـولوجـي والنمو الصناعي ، الحياة بكل ما تحمله من شوائب كـالإرهاب والتدهور الأخلاقي وتعاطي المخدرات وكل تلك النـواقص التي أصبحت ضريبة كل تقـدم ونمو على الطـريقة الغربية وفي ظل مدنيتها .

وكما قال الملك خـوان كارلوس " إن الطـريق التي قطعت كانت صعبة وجـابهنا عـدة هزات لكن كـان لـزاما قطع هـذه الطـريق . . . وإذا ما فكـر المرء في الماضى القريب وأخذ في الاعتبار الصعوبات التي يحملها كل تحوّل ، أظن أننا حققنا أكثر مما أخطأنا ومع هذا فالمهم هو النظر إلى المستقبل " .

وإلى المستقبل تسير أسبـانيا اليـوم ، لأن المستقبل ، كما يقـول السيد سـووارث ، ملك لممكلـة الحريـة وأن الإرادة الحرة التي يتمتع بها النـاس الذيـن يواجهـون هـذا المستقبل ، انطـلاقا من شروط هيكليـة وقوى عاملـة داخل المجتمع الـذي يعيشون فيه ، هي التي تصنع التاريخ .

إنتهـــــى

مدريد مارس / آذار 1988

الملاحظات

1 - ريكاردو دي لاثيارفا : تاريخ أسبانيا الحالية الأساسي . دار بلانيتا للنشر .

2 - خوزي لويس كوما يس : تاريخ أسبانيا العصري والحاضر . دار ريبالب 1968 .

3 - دي لا ثيارفا : نفس المصدر .

4 - نفس المصدر .

5 - كومايس : نفس المصدر .

6 - دي لا ثيارفا : نفس المصدر .

7 - نفس المصدر .

8 - خوزي ماريا خوفر ثامورا : تاريخ أسبانيا بادارة م . لارا ، ج 8 ص 356 دار لابور للنشر .

9 - نفس المصدر .

10 - نفس المصدر .

11 - نفس المصدر .

12 - رؤساء وزراء تداولوا على السلطة .

13 - رامون باربينيا : من اقتصاد أسبانيا .

14 - أميليو روميرو : رسائل إلى أمير .

15 - فكتور سالمادور : أسرار عودة الملكية ، مجلة ايبوكا ، أبريل 1987 .

16 - نفس المصدر .

17 - نفس المصدر .

18 - دي لاثيارفا : نفس المصدر .

19 - تونيون لارا : تاريخ أسبانيا ج 8 و9 .

20 - نفس المصدر ج 9 ص 114 .

21 - أدوارد ماليفاكس : الإصلاح الزراعي والثورة الفلاحية في أسبانيا القرن

العشرين ﴿ نار أريال 1976 ﴾ . وأيضا تونيون لارا : الجمهورية الثانية ، تاريخ أسبانيا . دار لابور للنشر .

22 - تونيون لارا : تاريخ أسبانيا : ج 9 أزمة الدولة 1923/ 1939 .

23 - دي لاثيارفا : نفس المصدر .

24 - سالفادور دي مادارياغا : أسبانيا ، ص442 .

25 - روبرت غراهام : أسبانيا ، تشريح ديمقراطية ، دار بلاثا وخانس .

26 - نفس المصدر .

27 - ف . س . برتشات : المزاج الأسباني .

28 - روبرت غراهام : نفس المصدر .

29 - أيميليو روميرو : دياغوجيا الأغبياء ، رسائل الأحد ، مجلة ايبوكا .

30 - من نص البلاغ الذي أصدره الفريق مولا .

31 - بلاغ عسكري أصدره الفريق كايبو بأشبيليا وصدر بجريدة أ . ب . ث . في23/ 7/ 1936 .

32 - انظر الخريطة صفحة : .

33 - عادت لوحة غرنيكا إلى أسبانيا يرافقها وزير الثقافة الأسباني يوم الخميس 10/ 9/ 81 .

34 - برنامج وثائقي في حلقات بثته التلفزة الوطنية الأسبانية على طول سنة 1987 تقريبا .

35 - تونيون لارا : نفس المصدر .

36 - انظر قائمة المراجع .

37 - تونيون لارا : نفس المصدر .

38 - الخطيب الأسباني كان يدعى ألفارث دل بايّو .

39 - ريكاردو دي لاثيارفا : نفس المصدر .

40 - مانوال آثانيا : سهرة بني كارلو ، أعماله الكاملة ، دار أوازس ، 1966 .

41 - فيثنتي روخو : نفير الشعوب ، بيونس أريس .

42 - تونيون دي لارا : نفس المصدر .

43 - ريكاردو دي لاثيارفا : نفس المصدر وتونيون لارا: نفس المصدر.

44 - دي لاثيارفا : نفس المصدر بتصرف .

45 - تونيون لارا : نفس المصدر ج 9 .

46 - رامون تـامامس : فكرة عن أسبانيـا أمس واليوم وغدا ، دار بلاثـا وخانس 1985 .

47 - تونيون لارا : نفس المصدر ج 9 .

48 - رامون تامامس : نفس المصدر .

49 - الأستاذ خوزي ماريا أريلثا : في حديث مباشر معنا .

50 - هو مجمـوعة معمارية بنيت في أحـد جبال واد الرمل بـولاية مدريـد لتخليد شهداء الحرب الأهلية ﴿ من جانب المنتصرين فقط ﴾ . استمرت أشغال هذا المعلم التي استعملت فيها أيـدي ومجهودات المساجين والمحجوزين من أتباع الجمهـورية ، من سنـة 1940 إلى سنــة 1950 وأهم جـزء فيه هـو الكنيسة المحفـورة في الجبل والتى يبلغ عمق بيت العبادة فيهـا 262 مترا وفـوق قبتها الملبســة بـالفسيفســاء وفي أعلى الجبل صليب ضخم من الأسمنت ارتفاعه 150 مترا .

51 - خوزي أنطونيو بياسكاس : أسبانيا تحت الدكتاتورية الفرنكية ، دار لابور للنشر .

52 - تونيون لارا : نفس مصدر الاشارة 51 .

53 - انظر مجموعة الرسائل المتبادلة بين الأمير وفرانكو في آخر الكتاب .

54 - انظر الملحق .

55 - دي لاثيارفا : نفس المصدر .

56 - روبرت غراهام : نفس المصدر .

57 - ف . خاورغي وب . فيغاس : أخبار معارضة الفرنكية ، نشر أركوس فرغارا .

58 - تونيون لارا : نفس المصدر بتصرف .

59 - نفس المصدر السابق .

60 - دي لاثيارفا : نفس المصدر .

60 - ﴿ مكرر ﴾ الحقيقة هي أن الفاتيكان كان قد منح الملوك الأسبان ميزة تتمثل في أن البابا يقترح،عند الحاجة إلى تعيين أسقف ، ثلاثة مرشحين وللملك أن يختار أحدهم . إلا أن البابا بولس السادس أراد أن يلغي هذه الميزة فعارض فرانكو ذلك فنشأت مشادة بين الطرفين ولم ينفصم النزاع كليا إلا بعد جلوس الملك الحالي على العرش وتنازله عن هذه الميزة وكان ذلك أثناء رحلة أداها إلى الفاتيكان .

61 - كل ما جاء ويجيء على لسان دون خوان وفرانكو ، مأخوذ من رسائلهما الملحق بعضها بآخر هذا الكتاب وعن " أسرار عودة الملكية " بقلم فكتور سالمادور التي نشرتها مجلة ايبوكا خلال عام 1987 .

62 - انظر " خوسي دي استيبان " و" لويس لويث غيرا " : الأحزاب السياسية في أسبانيا الحالية . معهد الدراسات الاقتصادية ، دار بلانيتا للنشر برشلونة 1982 .

63 - خواكين باردافيو : الحرج ، قائد صغير أو ملك كبير ، نشر ستريبس 1978 .

64 - خواكين باردافيو : نفس المصدر .

65 - سان تياغو كاريو : سنة الجمة المستعارة ﴿ البروكة ﴾ دار " ب " للنشر برشلونة 1987 .

66 - سان تياغو كاريو : نفس المصدر .

67 - خوزي ماريا آريلثا : كراسات التحوّل ، دار بلانيتا ، برشلونة 1987 .

68 - سان تياغو كاريو : نفس المصدر .

69 - من خطـاب الـرئيس سووارث الـذي ألقـاه عن طـريق التلفـزة مساء يـوم 29/ 1/ 77 .

70 - سان تياغو كاريو : نفس المصدر .

71 - خواكين باردافيو : نفس المصدر .

72 - خوزي ماريا آريلثا : نفس المصدر .

73 - سان تياغو كاريو : نفس المصدر .

74 - روبرت غراهام : نفس المصدر .

75 - جوزيب ميليا : هكذا سقط أدولفو سووارث . دار بلانيتا ، بـرشلونة ، 1981 .

- خوزي أونيتو : أيام الرئيس الأخيرة ، دار بلانيتا ، برشلونة 1981 .

76 - خوليو بوسكاتس : انتفاضات وانقلابـات بأسبانيا ، دار بلانيتا ، برشلونة 1981 .

77 - ريكاردو دي لاثيـارفا : مراحل أخـذ السلطة ، مجلة ايبوكـا عدد 155 في 29/ 2/ 88 .

78 - لـدينا قـائمة مـن وزارة الداخليـة تنص على 580 حزبـا وجمعيـة سياسيـة مسجلة رسميا في سجل الجمعيات السياسية بالـوزارة فبـراير 1988 .

79 - انظر لوحة نتائج الانتخابات 1977 / 1987 .

80 - من حديث للملك في احدى المناسبات .

81 - خوزي أونيتو : تشريح تغيير نظام ، دار بلاثا اي خانث .

82 - من خطاب الملك الذي وجهه للشعب بمناسبة عيد ميلاده عام 1977 .

83 - خوزي أونيتو : نفس المصدر .

84 - روبرت غراهام : نفس المصدر .

85 - أميليو روميرو : ملهاة فاجعة ، دار بلانيتا ، برشلونة .

86 - وليـام تشسلت : رسائل الإعـلام الأسبانيـة منذ فـرانكو ، دار رايترز أنـد سكولارس أديكاشيونال تراست . لندن 1979 .

87 - عن مقال للسيد أدلفو سووارث ، مجلـة " كامبيو 16 " عدد 830 بتاريخ 26/ 10/ 87 .

الملحقات

الأسئلة الثابتة المطروحة على المستجوبين

إن المقابلات التي أجريناها مع عدد من رجالات أسبانيا قد مكنتنا من التحاور وطرح الأسئلة والاستفسارات . لكننا ارتأينا إن نلقي في نفس الوقت مجموعة ثابتة من الأسئلة على جميع من تفضلوا باستقبالنا ، إلى جانب ما اقتضاه الحديث مع كل شخصية ، فقبلوا جميعهم مشكورين .

وهاهي الأسئلة متبوعة بالأجوبة عنها .

الأسئلـــــــة

1 - كيف تصف أو تعرّف النظام السابق ؟

2 - ما هي حسب رأيك ، مظاهره الإيجابية والسلبية ؟

3 - لماذا امتنع فرانكو عن إعادة تنصيب الملكية ؟

4 - متى بدأ التحول ؟

5 - من هم حسب رأيك ، عناصر التحوّل الأساسية ؟

6 - أكان هناك حقا خطر تصادم جديد بين الأسبان عند وفاة فرانكو ؟

7 - هل كان التحوّل ممكنا بدون الملك ؟

8 - وهل كان ممكنا بدون الحزب الشيوعي داخل مجموعة الأحزاب السياسية ؟

9 - ما هو الدور الذي لعبته القوات المسلحة في بداية التحوّل ؟

10 - ما هو الدور الذي قامت به وسائل الاعلام ؟

11 - هل كانت هناك عناصر خارجية ساهمت بطريقة أو بأخرى في الأحداث؟

12 - إلى أين تسير أسبانيا الآن ؟

أجوبة الكاتب الصحفي ايميليو روميرو

1 - دكتاتورية تأسيسية . فقد كانت هناك سبعة قوانين أساسية تقوم مقام الدستور وكان لها شكل السلطة والتمثيل . كان من أشكال تمثيل المجتمع ، العائلة والبلدية والنقابة والهيئات . ثم كانت هناك السلطات التنفيذية والتشريعية والدولية . إن هذه القوانين التي صدر أولها سنة 1938 وآخرها عام 1966 كانت أكثر من دستور ، كانت نظاما ، كانت دكتاتورية تأسيسية ولكنها معدومة التعددية السياسية والحريات الواسعة التي تطابق الديمقراطية ولذا كانت طريقة أخرى لصنع الدولة والمجتمع لا ديمقراطية تقليدية « كلاسيكية » .

2 - من حيث المظاهر الاقتصادية والاجتماعية كان النظام السابق إيجابيا جدا . أما بالنسبة للمظاهر السياسية فلا ، لأن البلد ، أيا كان ، ليس موّحد الآراء ولا المعتقدات بل هو تعددي بالطبع ولذا أمكنت الثورة الصناعية وأمكن التأمين الاجتماعي والرفع من عدد الطلاب بالجامعات وأمكن التحوّل من مجتمع مكوّن من البروليتاريا ومن طبقة متنصبة إلى مجتمع ذي طبقة متوسطة . فكل العوامل الاجتماعية والاقتصادية إذن ، كانت ايجابية . أما العوامل السياسية فهي لم تؤسس ديمقراطية ولذا لم تتماش البلاد مع أوربا المعاصرة .

لم يكن انعدام الحريات إذاك ضروريا ولكن النظام لم يكن متشابها طيلة العقود الأربعة فقد كان يتفتح مع تقدم الزمن ولذا اختلف النظام في الستينات أو السبعينات عما كان عليه في الأربعينات . ثم إن ذاك النظام لم يعد إلى الديمقراطية لسببين أولهما هو أن الحرب الأهلية جاءت نتيجة فشل ديمقراطية سنة 1931 وفشل الجمهورية وثانيهما هو أنه لو فعل لبقي بدون دور يتجاوب مع الآخرين وهذا لم يكن يدخل في التركيب المعنوى ولا السياسي ولا العقائدي لذلك النظام .

3 - لأنه لم يكن متأكدا مما قد تقوم به الملكية في هذا البلد وكان هو نفسه يريد إعداد تأليف كامل لنظام عن طريق كل تلك القوانين التي ذكرتها .

لكن وبالإضافة لهذا ، فإن الملكية قد اتخذت موقفا مضادا للنظام على أثر الحرب العالمية الثانية . لقد بقي دون خوان مهاجرا متطوعا بالبرتغال وانتصب كبديل للنظام عن طريق إقامة ديمقراطية فدفع هذا الجنرال فرانكو إلى التخلي عن هذا الملك ، أو ملك محتمل ورغم هذا فقد اتفق معه على تربية ابنه بأسبانيا . قبل الابن ذلك النظام ، بل وأقسم الوفاء له ، عندما عين خلفا للجنرال فرانكو سنة 1969 وانتظر فرانكو الخلافة كما لو كان هو نفسه ملكا مدى الحياة. لم يكن يفكر قط تتويج نفسه لأنه لو فعل لكان ذلك مضحكة لكل الأسبان لأنه لاملكية إلا بالملوك التقليديين وليس ثمة غيرها .

4 - إن التحوّل نسق أو تدرج طويل في ما يتعلق ببداية الانشغال بخلافة النظام. كان الرأي السائد هو أن النظام كان مجسما كلية في شخص الفريق فرانكو وأنه بعد فرانكو يجب أن يؤتى بشيء آخر . ولذا يمكننا أن نقول إن مرحلة التحوّل قد بدأت عند وفاة فرانكو . كان الملك هو الموحى الاول أو المحرك الرئيسي لهذا التحوّل نحو الديمقراطية وقد غير رئيس الحكومة آرياس نافارو الذي حكم في آخر أيام فرانكو ، وأتى بأدولفو سووارث الذي ساعد الملك على إعادة إقامة الديمقراطية وهكذا بدأ التحوّل فعلا مع موت فرانكو . قبل ذلك لم يكن ممكنا .

5 - في البداية ، الملك . ثم ذلك الذي عينه رئيسا لمجلس النواب ﴿ لاس كورتس ﴾ أستاذ القانون السياسي توركوواتو فرناندث ميراندا ، وهو الذي صنع التحوّل بالطريقة السليمة وبواسطة برلمان النظام السابق حيث قدم قانون الإصلاح السياسى الجديد . فالذى قام بكل ذلك هو توركوواتو فرناندث ميراندا الذي قام ، من جهة أخرى ، بإدراج اسم أدلفو سووارث ضمن الثلاثي الذي قدم لأعضاء مجلس المملكة وبذلك عين رئيسا للحكومة بعد ذلك ، كان الملك المحرك الرئيسي ووجد في توركوواتو فرناندث ميراندا مساعدا أساسيا وكان أدولفو سووارث المنفذ للمشروع .

6 - نعم ، كان هناك ذلك الخطر . لكن كان هناك عنصر أساسي لإقامة أو

عدم إقامة الديمقراطية وهو القوات المسلحة . ولذا بتعاونها مع الملك زال الخطر.

7 - لا ، لم يكن التحوّل ممكنـا بدون الملك لأنه كـان عاملا حـاسما إذ فيه اجتمع عنصرا ثقـة وهما القـوات المسلحـة التي هـو قـائدهـا الأعلى والتي أبـدت موافقتها على اعادة اقامة الـديمقراطية ثم الشعب الأسباني الذي كان يثق في خلف فـرانكو . كـانت ثقـة الشعب في الملك ، كتـاج ومؤسسـة لأن جدارة الملك لم تظهر حتى ذلك الوقت .

8 - كـان ممكنا ولكن بنـزاعات أي أنـه كان من الأحسن مشـاركة الشيـوعيين إذ بذلك أعطى الدليل على أنهم لم يكونوا قوة كبيرة كما هو الشأن في إيطاليا . فقد كانوا قوة صغيرة وكان لهم 10٪ انتخابيـا ولذا لم يكونوا يشكلون خطرا على أحد .

9 - إنه من الـواضح أن الملك هو القـائد الأعلى للقوات المسلحـة ولذا تصرفت هذه الأخيرة بطاعة وانضباط وأبدت موافقتها على ما وضعه الملك حتى أنه لما حـدثت محاولـة الانقـلاب في 23 فبرايـر « شبـاط » كـانت القـوات المسلحة بصفة عامة إلى جانب الملك ولذا كـانت المحاولة ظاهرة منعزلة لم تغير شيئا .

10- لعبت وسـائل الإعـلام دورا مهما لأنه منـذ عـام 1966 لما ألغيت الـرقابـة السـابقـة للنشر ، تجرأت الصحف بعض الشيء وتفتحت نحـو النظم المتحـررة لأن وسائل الاتصـال لا تحب إلا الحريـة ، وهذا طبيعي . فمنـذ ذلك التـاريخ أخذت الصحف تعبر عـن طريق الخبر والآراء عن انفتـاح سياسي كـان ضروريا لأن في هذه البلاد قـد طال عهد نظام سلطـوي جاء نتيجة لحرب أهلية . لقد انتصرت الديمقـراطيات في الحرب العالمية وكان من المنطقى أن تسير أسبـانيا أيضـا نحـو الديمقـراطيـة ولكن كان هنـاك منهزمون في الحرب الأهلية يقومون بنشاطهم في العالم الخارجى ولذا لم يكن ممكنا إقامـة الديمقراطية لأن ذلك كـان يمكـن أن يتسبب في تصـادم

جيد بسبب الانتقام والثأر وهما من فضائع الحرب الأهلية . كان لزاما إفساح مجال طويل من الوقت لتتم المصالحة بعد مثل تلك التصرفات .

11- نعم ، كانت هناك مساهمة خارجية . . . لكن لا يمكن الحديث هنا عن مساهمة واضحة ، مباشرة ، فالذي جرى هو أنه كانت هناك اشتراكية عالمية متآزرة مع الحركات الاشتراكية الأوربية والأميركية ، متآزرة مع الديمقراطيات ولذا فقد كان هناك ضغط وتأثير . لكن لم يكن هناك تداخل فعلي مباشر . وفي الآونة الأخيرة اتضح جليّا أن الاشتراكية الأسبانية قد ساعدتها الاشتراكية الألمانية لكن لم تتدخل أية قوى حاسمة .

أما بالنسبة لمساعدة المعارضين بالداخل أيام فرانكو فإن النظام كان إذاك قويا بقوات الأمن وقوات النظام العام والمنتسبين إلى الحركة الفرنكية وشعب لم يكن يرغب في المزيد من النزاعات ولا الدماء ولا أية مشاكل من هذا النوع ولذا فالمعارضون لم يكونوا يمثلون قوى حاسمة حتى تهدد النظام أو تشغل بال الفريق فرانكو . هذه هي الحقيقة والدليل على ذلك هو أنه لم يستطع أحد أن يفعل شيئا حتى مات فرانكو .

12- إننا في الوقت الراهن في وضع مصالحة مع العالم الخارجي . فقد حطمنا العزلة التقليدية ونحن مع التزاماتنا السياسية والاقتصادية والدفاعية تجاه أوربا والولايات المتحدة وكل هذا يتم متأخرا . فقد دخلنا السوق الأوربية المشتركة بعد تأسيسها بخمس وعشرين سنة وبالنسبة للدفاع ، نعم لدينا قواعد أميركية بأسبانيا لكن التزامنا تجاه الحلف الأطلسي هو أوسع من التزاماتنا عن طريق القواعد . فنحن إذن بصدد التأقلم مع هذه المعطيات والضروريات الجديدة . إن هذا التأقلم أكثر صعوبة في المجال الاقتصادي لأنه يحدث في أسبانيا الآن شيئان : الأول هو التحرك حسب ما تقتضيه المنافسة الخارجية وما تتطلبه من تحوير بعض القوانين والإجراءات القديمة تحت ضغط حركة نقابية قوية ذات عقائدية اشتراكية وشيوعية وهذا في نفس الوقت الذي يجري فيه تجديد وتطوير

الصنـــاعة وهذا عمـــل يولد البطالة . اننا أمام ثلاثة ملايين عاطل وهذا يعني 20٪ من اليد العاملة الفعلية وهو ما يحدث طبعا بعض الشغب في الحقل الاقتصادي الاجتماعي . بالنسبـة للسياسة الخارجية فـلا يزال هناك غموض نتيجة مصالحة العزلة مع الالتزام . ثم هناك أيضا بعض الأخطاء في صنع شكل الدولـة نتيجة الصراعات القوميـة ببلاد الباسك وقاطـالونيا ونتيجة ارهـاب باسكي هـو أشد إرهاب في أوربـا . هذا هـو الوضع إذن وعلينـا معالجة أمـورنا بأنفسنـا والمؤكد هـو أنه ليس ثمـة خطر تـدخل أو انقلاب عسكري كما حدث في الماضي .

أما المستقبل فاني لا أراه مظلما . فـالقوى السياسية التي كانت شـابة خلال السنـوات الأولى من التحوّل هـي الآن ناضجـة ، كـانت طبقـة سياسيـة جديدة وهي الآن تتمتع بخبرة برلمانية وخبرة في تسيير الدولة ولذا فأنا أقدر بأنه انطلاقا من كل هذا سيكون التدرج إيجابيا .

أجوبة الصحفي السيد خوزي أنطونيو نوفايس

1 - هناك تعريف مثـالي وهو أنها دكتاتوريـة مليئة بالثورة لكنني أسميـه نظاما بل سلطـة فرديـة . رجل يصل إلى السلطة وحـافظ على نفسه فيهـا بالـرعب وبعد مدة بسمعة الرعب فانتهى الى دكتاتورية .

2 - إن الإيجابي في هذا النظام قليل والسلبي فهو بأكمله . فقد حال النظام دون تطور أسبانيا فكريا وثقافيا وفي عدة مجالات أخرى .

3 - لا يعرف السبب ، ففرانكو كان ملكيا .

4 - أنا أرى أن التحوّل بدأ لما دعي الشعب للانتخابات الديمقراطية الأولى

5 - أول هـذه العناصر هـو الشعب ويأتي بعـده الرئيس أدلفـو سووارث الـذي صنع التحوّل ونفذه والملك وكذلك السياسيون وأحزابهم .

6 - أعتقـد أنه كـان هنـاك خطر المجـابهة وإن لم يكن كـذلك فخطر استمـرار الدكتاتوريـة . فلو عاش مثلا كريرو بـلانكو لحاول ذلك الاستمرار لأنه كان يعتقد مثل ما اعتقد فرانكـو أن " كل شيء موثوق محكوم الوثاق " . ورغم هذا فلا أعتقد أنه كان هناك خطر حرب أهلية جديدة .

7 - نحن نعتقد أنه كان يمكن التحوّل بدون الملك لكن يجب الاعتراف بأنه كان وجها ضروريا وإنسـانا استطاع أن يجعل نفسه ظاهرا أو بـارزا فكان رمزا هشا للوحدة الوطنية . لقـد كان ملكا ذا حق لا ملكا فعليا . ثم تحوّل إلى ملك صاحب حق وملك فعلي عندما أصبح أميرا وريثا .

8 - إن التحـوّل بدون الحزب الشيـوعي لم يكن ممكنـا وذلك لأنه ، أولا ، في أيـة ديمقراطية تدعو الحاجة إلى حـزب شيوعي وكان هذا أكبر نجاح للرئيس سووارث بسماحـه واعترافه بـالحزب الشيوعي فهـو بذلك وضـع نفسه في

الواقع القائم منذ عشرة أعوام .

9 - لم تلعب القوات المسلحة في البداية أي دور . لقد اقتصر دورها على الطاعة إذ أن الملك هو رئيسها الأعلى .

10- دور وسائل الاتصال كان مهما جدا . لقد كثر الحديث عن برلمان الورق ذلك هو فعلادور وسائل الإعلام . فكل وسيلة انطلقت من موقفها وتحدثت حسب هويتها لكن جميعا نادت بالتعايش والسلم .

11- لا ، لم يكن هناك تدخل خارجي . كان يوجد استلطاف تجاه رئيس الحكومة من أجل التحوّل الديمقراطي ، لكن لا أعتقد غير هذا . لم يكن هناك تدخل مباشر ولا حتى من طرف الأميريكان .

12- أنا متفائل جدا . إني أرى أن أسبانيا سائرة حيث تسير أوربا لأن الأولى اندمجت في الثانية ولذا فأنا ، كأوربي أرى أن أسبانيا سائرة نحو بناء أوربا ، نحو خلق قوة ثالثة . وأسبانيا تستطيع أن تلعب دورا مهما جدا مع العرب ومع أميريكا اللاتينية داخل أوربا .

أجوبة الدبلوماسي والسياسي والكاتب الأستاذ خ . م . أريلثا

1 - أرى فيه نظاما نـاشئا عن انتصار في حرب أهلية وهو مـايضفي عليه مميزات أعتقد أنها من خصـائص أي نظام يولـد عن حرب أهليـة ، ولذا وبسبب مولده فهو معرض إلى أن يصبح دكتاتـورية . وكأية دكتاتورية يصعب في النهاية تحوّلها سلميا ومن هنا جاء وجوب احترام التحوّل الأسبانى .

2 - إن وجـه النظـام السابق الإيجابي يتمثـل في محافظته على الحيـاد أثنـاء الحرب العالميـة الثانية وهـو ما مكنه من تثبيـت نفسه ومن استطاعـة التفاهم مع الولايـات المتحدة بـالرغم من أنـه لم يكن ديمقراطيا . وظـاهرتـه الإيجابية الثانية هو أنه ، ولو أن العبارة ستبدو قليلة الوضوح ، نظرا لطول بقائه قد اعطى سنـة 1959 أو 1960 أول انفتاح على بـرنـامج تصنيع وتعصير . وبهذا ، فهو ولإن كـان مخطئا في التصميم وفي عدة أشياء ، قـد غير عقلية هذا البلد وعند ذاك ابتدأ حقا النمو الاقتصادي لأسبانيا العصرية .

3 - كانت سلطة يـراها فرانكو بـاقية مدى الحياة ونتيجـة لذلك لم يكن للملكية مكان مادام فرانكو حيا .

4 - ابتدأ التحوّل في نفـس اليوم الذي عين فيه الأمير خلفا لفـرانكو . لكن شرع فيه قبل ذلك لما اتخذت الملكية موقفها الحاسم في الستينات .

5 - عناصر التحوّل الأساسية هي : أولا الملكية كمؤسسة ، وثانيا ، الملك الذي عرف كيف يوصل التحوّل إلى آخر مطافه وثالثا ، والد الملك ، دون خوان آل بوربـون الذي تحلى بأسمى الكرم بـانسحابه في الوقت الـذي رأى فيه وجوب الانسحاب .

6 - لو اشتد الإلحاح على وجوب استمرارية النظام السابق ولو عاش أمير البحر كاريرو بلانكو ونشأ نظام سلطوي بدون فرانكو كان انتهى بدون شك إلى العنف .

7 - نعم ، كـان ممكنا بـدون الملك لكنّـه كان انتهى إلى العنف أو أتى عنيفـا لأن الملكيـة كـانت ، من ضمن مـا كـــانت ، كـابح جماح الجيش والقـوات المسلحة فأجبرتها على قبول التحوّل .

8 - كان أيضـا مهما جدا إدمـاج الحزب الشيوعي ضمن الأحـزاب التي شاركت عملية التحـوّل . فالحزب الشيوعى كان ممثل ذلك العلم الـذي يوضع في ملاعب كرة القدم كعلامة لحدود الملعب من الناحية اليسارية .

9 - كـانت القـوات المسلحـة في الآونـة الأولى ، لنقل في السـاعـات الأولى من التحوّل الضمان بأن لا تسفر وفاة فـرانكو على أي عنف . كان ذلك ضمانا مهما . وفي مرحلة ثانية أي خلال التحـوّل الفعلي وبداية العمل بالدستور فإن القوات المسلحة قد تحلت بالشجـاعة والتجرد فقبلت بأشياء كثيرة لم تكن تعجبها وفي 23 فبراير « شباط » أعطى معظم أفـرادها المثال بعدم اتباع أي نوع من الانتفاض ولذا فمن الآن إلى الأمام لن يحدث شيء .

10 - كـان دور وسائل الاعـلام مهما جـدا . فالتلفـزة التي لم تكن تستعمل أيـام الدكتاتورية الا لغايـة واحدة أصبحت تستعمل للإعلام والإفادة بما يجري وبصفة واقعية . ومحطات الإذ اعة كـانت هي الأخرى وسائل مهمة تنقل الحقيقة كما هي وأخيرا قدمت الصحف مساعدة ذات بال . فقد تصرفت عموما بكل تجرد وموضوعية وأعتقـد أن جريدة البابيس « البلاد » كانت الظاهرة الصحفية للتحوّل .

11 - نعم ، اعتقد أنه كانت هناك مساهمة خـارجية لا كما قيل عن طريق مرتزقة أو جواسيس خطـرين ، لا ، لم يكن هناك جـواسيس لا من البرد ولا من الحرارة . فالذي جرى ، حسب رأيي هو أن الولايات المتحـدة مثلا كان يهمها بصفة مباشرة أن يتم التحوّل . وأعتقد أن كل البلدان الغربية ، مع بعض الاختلاف في درجـة حماستها قد أيدت التحـوّل ، بريطانيا وفـرنسا وإيطاليا . . . وأعتقد أن الكنيسـة قد لعبت دورا حاسما في التحوّل الأول وهذه كلها هي أهم العناصر . ثم كان تضـامن شعوب أميركا وصداقة

الشعوب العربية التي كانت مهمـة جدا في وقت ما . وبكل هذا ظهر في الأخير أن هناك تجاوبا عالميا لفائدة التحوّل .

12- أسبانيا حاليا بصدد أخذ مكانها في أوربا ، بكلمة أوضح ، داخل المجموعة الأوربية ، وهذا يعني برنامجا كبيـــرا للتعصيـــــر والتطـــويـــر بالإضافة لذلك ، هـذا يترك الباب مفتوحا كي يتأقلم الأسبان مع العصر الجديد ، عصر الإعلاميـة الذي يغمرنا جميعا وعلينـا التجاوب معه . انى اعتقد أن الأسبـانى لديه المعطيات التي تمكنـه من أخذ مكانـه وسط أوربا المجموعة فتكون أسبانيا بلدا آخر من البلدان المكونة تلك المجموعة ، بلد ذو مستوى اقتصادي حسن وعلاقات ممتازة مع العالمين العربي والأميركي اللاتيني وأعتقد أن في هذا تكمن مهمة أسبـانيا . ومن هذا فإني اعتقد أن العلاقات مع المغرب هي من العوامل الرئيسية بالنسبة للمستقبل .

أجوبة المؤرخ الأستاذ ريكاردو دي لاثيارفا

1 - جاء في كتاب حول المحاولات الدستورية التي قام بها نظام فرانكو بقوانينه الأساسية ، كتاب وضعه أحد كبار نظريي النظام السابق هو الأستاذ رودريغو فرناندث دي كارفاخال ، أستاذ القانون السياسي جاء قوله معرفا النظام فقال " انه دكتاتورية تأسيسية انهائية " وأنا أعتقد أن هذا التعريف حسن جدا لأنه من الواضح أن النظام لم يكن ديمقراطية ولكنه كان فعلا دكتاتورية تأسيسية أي أنه كان يسير في كل خطوة إلى مزيد من الحرية ، وفي كل مرة إلى مزيد من الإصلاح الداخلي ولم يكن يزداد شدة مع الزمن بل بالعكس ، كان يتفتح شيئا فشيئا دون أن يتخلى أبدا عن أن يكون دكتاتورية . ثم أنه يوصف بالانهائية لأن ما قام بدفعه نظام فرانكو بصفة رئيسية هو التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية والتنمية الثقافية . لذا فإني أعتقد أن ذلك التعريف مصيب .

2 - إني أرى أن وجهه الإيجابي هو استتاب السلم بأسبانيا بعد الحرب الأهلية . كان ذلك طبعا عن طريق الشدة العظيمة ولكن نظام فرانكو حقق تهدئة الأسبان حتى أنه في نهاية نظامه لم يكن أحد يفكر في اللجوء إلى الحرب الأهلية ، وهذا مهم في حد ذاته . ويأتي في المرتبة الثانية النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وهذا تغيير عميق جدا لم يحقق أبدا خلال أية مرحلة من مراحل التاريخ الأسباني .

لقد استلم فرانكو أسبانيا متخلفة وانتهى بتسليمها وهي عاشر قوة صناعية في العالم. حقق فرانكو تغيرا داخل المجتمع الأسبانى . اليك مثلا دراسات وتقارير شركة " فورس " فهي تبرهن بكل وضوح بأنها أي أسبانيا انتقلت من مجتمع ريفي إلى مجتمع مدني ، انتقلت من مجتمع سادت فيه الأمية إلى آخر أكثر ثقافة . فحتى العقلية الاجتماعية نفسها قد تغيرت تماما ، كنتيجة للنمو الاقتصادي طبعا ، ولكن لا يخلو أن يكون كذلك .

ومن جهـة أخرى نجـد التنميـة الثقافيـة التي كـانت مهمة جـدا هى الأخرى إذ انخفضـت نسبة الأمية إلى مـا يقارب 20٪ وعممـت الجامعة التي لها مظـاهر سلبيـة ولكن لها إيجابياتها أيضـا إذ ارتفع عدد الطلبـة إلى عشرة أضعاف ، مـن عشرين ألفا إلى مائتـي ألف والأجيال الجديـدة كلها تقريبا دخلـت المدارس . هذه إذن بعض ايجابيات النظام ، أمـا سلبياته فهي أن فـرانكـو قـد سار في بـطء ثقيل جدا نحـو إرجـاع الحريـات إلى الشعب الأسباني . فهذه الدكتاتورية بدت عام 1966 وكأنها مقدمة على إصلاح يؤدي إلى الديمقراطية ولكـن عاد فرانكو القهقرى ، فبينما استمر يتقدم اقتصاديا واجتماعيا ، توقف سيـاسيا عام 1967 وأخذنا في التقهقر ما من شك أن وضع الأسس الاجتماعيـة للديمقـراطية هو أمـر يوجب الثنـاء لكن ايقاف " ثـوران " تلك الديمقـراطية ، إن صح التعبير فهـو نقيصة دون شك .

3 - أعتقد أن فرانكو لم يعد الملكيـة لسبب بسيط جدا وهو أنه لم يكن يثق في من كان سيكـون صاحـب العرش في هذه الملكيـة وهو دون خـوان . لم يكن يثق به ولـو أنه فكر في البداية في اعـادة الملكية لكن كان جليـا أن فرانكو كان متشبثـا بالسلطة ويـراها سلطة مدى الحيـاة وهذا يعني أبديـة ولذا لم يكن ليسلم في تلك السلطـة مـادام حيـا . هـذا في نظـري هـو السبب الرئيسي .

4 - أنا أرى أن التحوّل بدأ مع موت أمير البحر كاريـو بلانكو لا مع وفاة فرانكو لأنها كانت آنذاك مطـروحة . إن الموت العنيف الذي لقيه كاريـو بلانكو قد أطلق عنان التحوّل بصفة تختلف عما كان مهيأ من طرف كاريو بلانكو إذ هو أيضا فكر في التحوّل لأنه كان أقـل انغلاقا مما يعتقده الناس . كان فعلا يبدو منغلقا لكن في أعماقه كان بحارا ، بحارا ذا نظرة طـويلة ورجال البحر ، كما هو معلـوم ، لهم دوما نظرة تختلف عما يبدو منهم . فالأميرالاي كاريو بلانكو كان أيضا يريد القيام بتحوّل مخالف ولا أدري ما الذي كـان يحدث ولكن ما هـو أكيد هـو أن موتـه هو الـذي أطلق عنان

التحوّل .

5 - هناك عنصر ، ولو أنه سلبي حسب رأيي ، فهو مهم جدا وهو رغبة الأسبان الجماعية في تحقيق التحوّل في سلام . كان ذلك شعورا وطنيا جماعيا يرفض الحرب الأهلية رفضا باتا ، إلى الأبد . كان عنصرا رئيسياً وجاء معه عنصر آخر هو رغبة التغيير لكن دون رفض أو نكران ما حققته أسبانيا خلال سنوات نظام فرانكو الذي كان يرى الجميع إيداعه التاريخ . كانت هناك رغبة في التجديد وفي محاولة التعايش في حرية . هذا هو العنصر الإيجابي. أما الأكثر سلبية فهو أننا اهتممنا جميعا بالسياسة وأهملنا الأقتصاد . ففي تلك الآونة التي سادت فيها أزمة اقتصادية عالمية ، كانت أوربا قد شرعت في وضع الوسائل الكفيلة بإخراجها من الأزمة ، أما نحن فقد تأخرنا كثيرا في القيام بمثل ذلك .

6 - لا أظن ذلك . فخارج بعض الحلقات التي لم تكن تمثل سوى أقلية جد صغيرة مثل موضوع " ايتا " بالنسبة لبلاد الباسك أو بعض تصرفات أقصى اليمين ، من ذلك اغتيال المحامين الشيوعيين « مذبحة آتوتشا » لكن لم تكن هذه أو تلك الا تصرفات أقلية صغيرة . أما الشعب الأسباني في مجموعه فلم يكن يرغب في أي عنف أو اصطدام ، فالجيش لم يكن يريده والكنيسة كذلك . ولذا فلان كانت المؤسسات الأسبانية الرئيسية عاقدة العزم على تجنب الاصطدام فلم يكن هناك ، حسب رأيي أي خطر يهدد المسيرة .

7 - من الصعب جدا ، لأن القوات المسلحة ، في واقع الأمر ، قد أطاعت الملك في كل حين بما في ذلك ابان أزمة 23 فبراير «شباط» ولذا فارادة الملك المصممة والمخططة للسير بأسبانيا من الدكتاتورية إلى الديمقراطية كانت العامل الأساسي للتحوّل . فهل كنا نستطيع تحقيق التحوّل بدون الملك ؟ لست أدري ولو أني أميل إلى النفي .

8 - لقد نجح الحزب الشيوعي في شيء مهم جدا وهو حمل الجميع على الاعتقاد

بأنه عنصر أساسي للديمقراطية ولكني أرى أنـه ليس كذلك. فالواقع هو أن سمعته في النضال ضد النظام الفـرنكي داخل اليسار جعل سان تياغو كـاريو والحزب الشيـوعي يريـان أنهم الشيوعيـون سيكونـون حقا القـوة المهيمنة داخل اليسار أثناء مسيرة التحوّل. لكن، مع سوء حظهم، رأوا أن الأمور غير ذلك وأنهم بقوا عند نسبة 8 أو 9٪ فكانت خيبة أمل كبيرة. ما أريـد قولـه هو أنه من حيث الصـورة كان اسـدال الشرعية على الحزب الشيوعي ضروريا لكن إذ ا نظرنا داخل الواقع وجدنا أن قوته أقل بكثير مما ظنوه أنفسهم.

9 - لعبت القوات المسلحـة دورا حاسما. إني لا أزال أذكر ذلك الخطـاب الذي ألقاه الفريق غوتيارث مايادو متـوجها للشعب ليلة انتخابات عام 1977 وقال " إن الجيش سـاهر على أن تجري الانتخـابات بصفـة طبيعية. من حسن الحظ أنه لم تدع الأمور إلى تدخل الجيش الذي سادت أوساطه فكرة جماعية وهي وجوب طاعـة الملك ووجوب ضمان تحوّل في حرية مهما كلف ذلك من ثمن تدفعه الأشخاص أو المؤسسات. كان كـل هذا حاسما ومهما بالنسبة للتحوّل ".

10 - إن وسائل الإعـلام، على ما أرى، قـد لعبت دورا مهما لكن متغيرا. ففي المرحلة الأولى، المرحلـة الأخيرة من عهد فـرانكو والأولى مـن التحـوّل، كان دور وسـائل الإعلام ايجابيا جـدا ومتعقلا. لقـد تصرفت حقا، كما كان يقال إذ اك، وكأنها برلمان ورق، لم تكن هنـاك انتخابات ديمقراطية فقـامت الصحافـة بـدور البرلمان أو كادت. لكـن بعد ذلك، أظن أنـه ابتداء عام 79، 80، 81، تغيرت الصحـافة وسقطت في الحزبية التي سلمت منهـا حتى ذلك الحين. لقـد كـانت رفيعـة مترفعـة ثم سقطت لتدور في فلك سياسي واقتصادي بطريقـة محزنة مما هدد في بعض الأحيان حـريـة الصحـافـة ذاتها لأنـه بين ضغـوط السلطـة وضغـوط الـوسـائل الاقتصادية التي تشرف على بعض الصحف فقدت بعض الوسائل سلامة دورهـا ولـذا فإني اعتقـد أن الشـوط الثـاني من التحـوّل كـان سلبيـا على الصحـافـة وهـذا ينعكس في ظـاهــرة يـؤسف لها وهـو أن الإقبـال على الصحف ومطالعتها كان أكبر في أول التحوّل منه في آخره.

11 - أنا اعتقد أنـه وجدت عناصر خارجية ساهمت في التحـوّل لكن لا كتدخلها في الحرب الأهلية الذي كان تدخلا سلبيا للغاية . فالتدخل هذه المرة جاء ايجابيـا وبصفة أدق أقـول إني اعتقـد أن أهم القوات بـالعـالم الغربي قـد تدخلت بواسطة أكبر ممثليها ولكن بطريقة محتشمة وايجابية . وإني أعرف أن الكثيرين من قادة العالم الغربي كانـوا على اتصال مستمر بأسبانيا ، لا رغبة في التدخل بل للتعبير عن مسـاندتهم المعنوية ولـذا أعتقد أنه لم يكن هناك تدخلات خطيرة .

12 - أرى أن أسبانيا سائرة في طريق تركيز النظـام الديمقراطي تركيزا صحيحا . فهذا لا رجعة فيه . ثم إن مشكلة الانقلابات قد ولت بعد قرنين أو قرنين ونصف من الانتفـاضات وجاء تجسيم قـرار دفنها أبـديا عن طـريق قرار الملك وتعقل الجيش ليلة 23 فبراير ﴿شباط﴾ 1981 . فشبح الانقلاب إذ ن قد ولى ولم يعد التدخل العسكري يذكر الا في حالة أزمة شديدة مثل مـا قد يثير مشكل بـلاد البـاسك . لكن مع هـذا ، أعتقد أن الخطـر في طريقـه إلى الزوال وانى اعتقد أن الـديمقراطية ، إن لم تحدث أيـة رجة في العالم ، هي الآن موطدة الأركان والمطلوب الآن هو توازنها ، أعني الحيلولة دون وجـود حـزب واحـد ، كـالاشتراكي الآن ، يهيمن وينتصر دائما لأن ذلك لا يـؤدي إلا إلى الفسـاد في الحكم ولذلك فـلابـد على اليمين أن يجد لنفسه دواء حتى يصبح بديلا للحزب الاشتراكي .

قد يكون هذا هو الحل المناسب .

أجوبة محامي الشعب الأستاذ خوواكين رويث خيمانث

1 - من الواضح أن النظام السابق كـان نظاما أطوقراطيا ، نظـام سلطات ممركزة جـدا مع تقييـدات شديـدة على الحقـوق المدنيـة والسياسيـة والحريـات العامة . قد يعلل ذلك ، على الأخص في مرحلته الأولى بأنه نتيجة الحرب الأهلية . لكنه دام وقتا مبالغا فيه وبقي مقيدا للحريات ، وأكرر ، شديد المركزيـة . إن النزاهـة تفرض عليَّ القول بأني بحكـم سني قد انتسبت إلى الجيش الـوطني ومن ثم انضويت تحت النظـام الذي جـاء نتيجة الحرب الأهلية وفيـه عينت سفيرا لدى الفاتيكـان ثم وزيرا للتربية الـوطنية ، كما كانت تسمى ومن حيث كنـت حاولت ما استطعت في سبيل تصـالحنا ، نحن الأسبـان ، واقترحت اجـراءات لاسترجـاع رجال الفكـر المبعـدين والمهاجـرين كما حاولـت تحرير الحياة الجامعيـة الخ . لكن كل هـذا قد أحدث ردود فعل شديدة فتركت وظائفـي السياسية وابتعدت عن النظام السياسى وعـدت إلى جامعتي . بعد ذلك شرعت في مهمة إعـداد التطور السلمي من النظام الاستبدادي الى نظام ديمقراطي كالذي نعيشه الآن .

2 - من الظواهر الايجابية للنظام أذكر أولا تغييره للبنيات الاقتصادية في أسبانيا . هذا لا يعني أنه تقدم بنفس المقدار بإصلاح اجتماعي ونشر أوسع للعدالة لكنه رفع من حجم الانتـاج الأسباني خاصـة في الستينات حيث انطلقت التنمية الاقتصـادية الاسبـانية بحق . نعم إن ذلك تصـادف مع الازدهار الاقتصادي الأوربي الذي استوعب ثلاثـة ملايين من العمال الأسبان وهو ما خفف ضغط البطالة .

خرجت أسبانيا في نفس المدة من العزلة التي فرضت عليها فأقامت العلاقات مع الفاتيكـان والعالم الغـربي وأبرمت اتفاقيـة مع الولايـات المتحدة التى أنشئت بموجبها القواعد العسكرية وكـل هذه عوامل لها قراءتان ، يراها البعض حسنة ويراهـا الآخرون سيئة أما أنا فأرى أنها ساهمت بطـريقة ما

في جعل التحـوّل ممكنـا لأنها غيرت ، بشكـل مـا ، البنيــة الصنـاعيــة الاجتماعيـة . الاقتصاديـة فقبل الحرب كان المجتمع الأسبـاني مكونـا من طبقة أرسطوقـراطية صغيرة وطبقة كبيرة عريضة عمالية بـروليتارية وبينهما طبقة متوسطة صغيرة وغير ذات فـاعلية . لكن في نهاية السبعينات كبرت الطبقة المتوسطة وهو ما أعطى بعض الاستقرار لأسبانيا .

والآن إلى السلبيـات . يجب أن أقـول لك ، بكل أسف ، أنها كـانت كثيرة . استعمل في البداية قمع شديد ضد المغلـوبين وتقييد الحريات بالرغم من إصـدار قانـون ممتـاز كان اشبـه شيء بوثيقـة حقـوق وواجبات الأسبـان الاساسية ولكنه لم يطبق في السنوات التالية بـاستثناء قانون الصحافة لسنة 1966 الذي والحق يقـال كان خطـوة نحو التحـرر ولكنها محدودة جـدا مثلها مثل قانون الجمعيات .

هنـاك مظهـر سلبى أخر في نظـري هـو عـدم التفهم للمشكلة القطـلانيـة والمشكلة البـاسكية أي مـوضوع الحكم الذاتي . أمـا المظهر الثـالث فهو انعدام العلاقـات الدبلوماسية الكـاملة مع بلدان أخرى بـالعالم كبلدان أوربا الشرقيـة مثلا وبعبـارة مختصرة كان النظام السـابق مثل أي شيء في هذه الحياة أسود وأبيض لكن اسوده أكثر من أبيضه ولذا كان التغيير حقا ضروريا .

يبدو لي ضروريا التذكير بأن عملا ايجابيا جـدا قام به رئيس الدولة الأسبق هو اشارتـه بأن يكون خلفه الأمير خوان كـارلوس الذي تربى وتعلم بأسبـانيا والـذي حـال دون أن يعرف التحـوّل أي اصطـدام فبفضلـه قبل الجيش بتغيير القوانين الأساسية ﴿ التي سار بمقتضاها النظام السابق ﴾ وأمكن الشروع في نسق ديمقراطي أدى الى دستور 1978 .

3 - أعتقد أن فرانكو كان في الواقع ملكيا ولكنه كان يخشى ما نستطيع أن نسميه " الملكية الليبيرالية " ، ملكية الحريات وخاصـة ملكية تعددية الأحزاب السياسية وملكية حرية الصحافـة الخ . كان يريدها ولكن على أن تكون

استمرارا لنظـامه وهنا خطأه . ولكنه أصـاب من جهة أخرى . فقـد كان بإمكانـه اعلانها جمهورية . معينـا على رأسها خلفا لـه قائد الجيش أو أي نوع من تلك الحلـول التي اتبعت في بلدان أخـرى . لكنه بـرهن على أنه ملكي فتغلب على المغـريـات الأخـرى وعلى وسـوسة بعض مسـاعـديـه وحـافظ على الخط الملكي . نعم كان يـريدهـا ملكية خـاضعة للقـوانين الأساسية وقائمة عليها . لكن كثيرا ما ساءلت نفسي إن كان اعتقد فرانكو حقا إن نظامه ومؤسساته ستستمر بعد وفاته ؟ إني أشك في ذلك لأنه كان يتمتع بحدس سياسي وحاسة قوية يجعلانه يفهم حق الفهم أن ذلك غير ممكن ولكنـه كـان يـرتـاح دون شك للعلم بأن خلفـه سيكـون ملكـا وسيحظى . هـذا الأخير بتـأييـد الجيش وبهذا تتم المحـافظـة ، على أقل تقدير، على المظـاهر الأساسية للحياة الأسبـانية . لقد أخطأ في الظن بأن الملك سيتحمل كل ذلك بينما الشعب الأسباني يرغب ويحتـاج شيئا آخر ، وبينما دخـول السـوق الأوربيـة المشتركة والـوقـوف على قـدم المسـاواة في الحقوق عالميا لابد . من فتح الطريق للديمقـراطية وهنا يظهر فضل الملك والذين ساهموا معه على اعطاء هذا الحل السلمي .

4 - يعتقد أحيـانا أن التحوّل بدأ مع وفـاة فرانكو وهذا خطأ لأن التحـوّل بدأ قبل ذلك بخمس عشرة سنة على الأقل . إني أضع بدايـة التحوّل في الستينات لما تحقق استقرار أسبـانيا الاقتصادي والاجتماعي وبدأت من جهـة أخرى المصالحة بين الغالبين والمغلوبين ، وقد ساهم في هذه المصالحة المسيحيون متأثرين بالبابا يوحنـا الثالث والعشرين ومجمع الفاتيكان الذي غير بصفة مـا العقلية الـدينية لـدى الكثيرين من المسيحيين الأسبـان . ومن ناحيـة أخرى فهم كثيرون من الزعماء الماركسيين أنه لا يمكن العمل انطلاقا من الضغينـة والبحث عـن الأخـذ بـالثأر والانتقـام . وهنـا يجب الاعتراف بالموقف الـذي اتخذه سان تياغـو كاريو وكـذلك فيلبى غونثـالث بعد أن انتخب أمينا عاما للحزب الاشتراكـي . فذاك العقد من سنة 65 إلى سنة 75 أعتقد أنه كان حاسما لجعل التحوّل ممكنا .

5 - أقول إنـه ، أساسـا ، الشعب الأسباني الـذي لم يكن يريـد حربـا أهلية بل

يطمح إلى حل سلمي . ومن حسن حظه جاءه ملك شاعر بهذه المسؤولية فتحمل الخطوة الصعبة وهي تغيير القوانين الأساسية .

يجب أيضا اضافة عدد من الرجال من بينهم أدولفو سووارث وهو رئيس الحكومة الذي أعطى أكبر دفع للتغيير ثم يأتي الزعماء السياسيون والصحفيون ورجال الفكر وأهل الفن والعمال في الحقل والمصنع إني اعتقد أنه الشعب و إذا أردتنى أن أختصر قلت هو الشعب والملك أو الملك والشعب .

6 - نعم ، كان هناك خطر المجابهة لأن جانبا من الأسبانيين ، مسيحيين من ناحية وماركسيين من أخرى ، لا يريدون التفاهم ويرفضون العناق . وكان جانب من الجيش لا يريد أن تمس القوانين الأساسية وأن لا يلمس شيء مما يتصل بالنظام السابق . كان يوجد هذا الخطر ومعه خطر الإرهاب الذى بدأ تحت حكم فرانكو ، منذ عام 1968 واستمر في التصاعد وفي تنويع ضرباته . واضح جدا أنه كان هناك خطر القطيعة وأوضح دليل على ذلك محاولة الإنقلاب يوم 23 فبراير «شباط» . كل هذه الأخطار كانت واقعية .

7 - أنا أرى أن ذلك لم يكن ممكنا . كما من الممكن أن يترأس حركة التحوّل أحد القادة العسكريين وقدمت لذلك عدة أسماء لكن المؤكد هو أن الملك كان موجودا وتحمل مسؤوليته التاريخية العظمى بذكاء وافر وقلب كبير .

8 - سبق وأن قلت أن الحزب الشيوعي قد لعب دورا مهما وسيواصل القيام به . فالواقع هو أن سان تياغو كاريو وكل مساعديه في تلك الآونة كانوا يدركون أنه لابد من انقاذ الديمقراطية قبل كل شيء وأنه داخل تلك الديمقراطية ولعبة الحريات يمكن التقدم نحو نظام العدالة الاجتماعية .

9 - يجب أن يعدل المرء في حكمه . إن كل القوات المسلحة قد قبلت ما أشار به رئيس الدولة الاسبق وهو خلافته من طرف الأمير خوان كارلوس فكانوا

متضامنين معه وقد ظهر ذلك جليا في محاولة 23 فبراير ﴿ شباط ﴾ . فلما أشار عليهم بوجوب الدفاع عن الدستور والديمقراطية استجابوا له ونحن نعلم أنه لو انضم القادة الرئيسيون في القوات المسلحة إلى المتمردين لأغرقت الديمقراطية . لم يكن كذلك ومهما كانت الدوافع التي أدت بالقوات المسلحة إلى موقفها ذاك فالمهم هو أنه كان موقفا إيجابيا .

10 - حسب رأيي كانت وسائل الإعلام عاجزة في البداية لانعدام الحريات بالرغم من الخطوة الإيجابية في هذا الخصوص التي جاءت نتيجة قانون الصحافة الذي أصدره فراغا سنة 1966 . ولكنه لم يكن كافيا لأن الرقابة لم تلغ ومع هذا فقد مكننا من إصدار مجلات مثل " تريبونفو" ﴿ النصر ﴾ وكراسات من أجل الحوار وبها خلق جو مختلف ، جو حريات وحوار لم تكن الصحف قادرة على خلقه إلى أن أقيمت الديمقراطية من جديد . ولذا فإن وسائل الاعلام اكتست أهمية كبرى خلال السنوات 76 ، 77 ، 78 بتهيئتها الجو والعقليات التي جعلت إصدار الدستور ممكنا وها نحن على عتبة عامه العاشر وهذا مهم جدا .

11 - وجدت مساعدة أثناء التحوّل وخاصة من طرف الأحزاب المجانسة . فأين الشك في مساعدة العالمية الاشتراكية للحزب الاشتراكي العمالي الأسباني بصفة شرعية ؟ لا شك في ذلك والديمقراطية المسيحية فعلت نفس الشيء وأنا شخصيا مستعد للشهادة بذلك . فقد ساعدتنا بالكلمة وماديا وحتى في الانتخابات . كان ذلك معقولا لأن الأحزاب الديمقراطية الأوربية كانت تريد أن تضمن حضور نظرائها في شبه الجزيرة الايبيرية وعلى الأقل في أسبانيا . نعم كان هناك تأثير ولكنه لم يكن حاسما ، فهو لم يثن اندفاعات الشعب الأسباني الكبرى .

12 - أني أرى أن على أسبانيا أن تسير نحو تحقيق خطوط ومبادىء احتواها الدستور وهذا يعني أن أسبانيا يجب أن تستمر كدولة حريات وإلا فهي

ليست ديمقراطية حقا . يمكن القـول أن لا أحد يستطيع اليوم في أسبانيا التذمر جـديا من انعدام الحريـة ابتداء بحرية الضمير إلى الحريـة الدينية وحرية التعبير والنقد والتجمع الخ . . يبدو لي أننا تحصلنا على كل ذلك . تبقى بعد ذلك بعض النقاط السوداء التي تلاحظ من حين لآخر كالتلفزة الخاصة وغيرهـا ولكنها نقاط قليلـة . يمكن القول إذن إن أسبـانيا تعيش الحريات . لكن هـذا لا يكفي لأنه يجب أيضا تحقيق المسـاواة والتضامن والعدالـة الاجتماعية وهـذه كلها أمـور نص عليها الـدستور الـذي وجد لحماية ودفع الحقوق الاقتصادية والثقـافية والاجتماعية . ثم إن على أسبانيا أن تستمر كدولـة المجموعات المستقلة « الحكم الأقليمي » خـاصة وأنه قـد انتهى العمل بشكل الدولـة القديـم ، الدولـة المركزيـة ، وهذا هـو أصعب طريق .

أجوبة الزعيم الأستاذ مانوال فراغا ايريباني

1 - ان التعريف الوحيد الذي يمكن أن يعرف به حقيقة النظام السابق هو انه نتيجة حرب تجابه فيها الأسبان مجابهة حتى الموت . بعد هذه الحرب ، نشأ نظام يرأسه ، باسم الجيش ، رجل عسكري أعتقد انه أصاب أساسيا عندما أعطى التعددية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي سهل بها الأشياء لجيل آخر بدل محاولة حلها في الحين .

2 - أعتقد انه بالنسبة لمدة جد طويلة ، أربعون عاما تقريبا ، مرت الأمور من عدة مراحل ولذا وجب الحكم على كل منها منفصلة . لكن أعتقد ان التاريخ لن يصحح حكمي إذا قلت ان أحسن فضل له يكمن فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي أضفت عليها طبيعتها نفسها التكنوقراطية والإدارية ، مزايا كبيرة ، وهذه هي بطبيعة الحال تنمية مستوى المعيشة لدى الأسبان الذين انتقلوا من بلاد متخلفة إلى بلد متقدم نسبيا . كل ما تبقى سيشاهد الآن لكن يمكن القول اجماليا ان هذه السنوات الاحدى عشرة التي مرت منذ نهاية النظام تدل ، على ما يبدو ، انه لم يترك وراءه آثارا سيئة إذ نحن نشاهد كيف استطاع الأسبان ان يقوموا بهذا التحوّل بالهدوء الذي تمّ به .

3 - فرانكو أعاد الملكية في الحقيقة لكن بالنسبة للطريقة التى يتم بها ذلك ، فتلك مسألة أخرى . من الممكن انه أرتأى ان الملكية إذا ما أعيدت بعد الحرب مباشرة قد يقع رفضها من طرف الكثيرين من الجمهوريين وبعكس ذلك إذا ما أعيدت بعده اتخذ الأمر شكلاآخر. كل هذه مواضيع فيها آراء كثيرة لأنه بعد هذا يجب القاء السؤال عليه .

4 - ان التحوّل بالنسبة لي ، هذا واضح لدي ، هو النظام السابق بالذات . فتحقيق تغييرات كثيرة اقتصادية واجتماعية قد تمت آنذاك . أما التحوّل الحالي فواضح انه بدأ مع وفاة فرانكو .

5 - العناصر الرئيسية للتحوّل هي شعب مسالم جدا ، تحوّل بصفة عميقة إلى

مجتمع طبقات متوسطة تعيش نموا اقتصاديا واجتماعيا حيث كان للكثيرين ما يخسرونه ولذا تصرف الجميع بحذر في أغلب الأوقات ومن جهة أخرى ، ملكية أعيد تنصيبها تصرفت كسلطة معتدلة .

6 - قلت دائما انه لم يكن هناك خطر. يبدو ان الزمن قد أعطاني الحق . اني أشعر بان الأسباب التي قدمتها مثل وجود مؤسسة فوق الأحزاب كما هو الحال بالنسبة للملكية ، وواقع أن أسبانيا كانت مجتمعا مسالما نسبيا داخل النطاق الاقتصادي والاجتماعي ، والحذر الذي توصي به تجربة المجابهات السابقة ، كل هذه الأسباب لم تجعل محتملا أي نوع من المجابهات كما ان الوضع العالمي لم يكن يسمح به أو يقبله . والنتيجة هي انه لم يحدث شيء وكثير منا تكهن بذلك .

7 - الحقيقة هي انه سهل الأمور كثيرا . لا أحد يستطيع ان يؤكد بانه لم يكن ممكنا تماما بدونه ولكني شخصيا أعتقد انه تصرف بنجاعة كبيرة سهلت الأمور في أوقات مثل 23 فبراير « شباط » ولو ان هذه لم يكن لها كيان في حد ذاتها ولكن بدون الملك كانت الأمور تجابه أكثر صعوبة .

8 - بديهي ان الحزب الشيوعي لم يلعب دورا ثوريا واضحا ولعله لم يستطع القيام به ولو أراده ولكن المؤكد هو انه لم يحاول القيام به . ولكن أحسن ما جرى خلال التحوّل هو تفكك الحزب الشيوعي وهذا قد ساعد فعلا .

9 - لم تقم بأي دور . لكن مجرد حضورها ووجودها إلى جانب الملك والملك إلى جانبها جنب ظهور أية طروحات لاتكون تلك التى قلناها .

10 - ان وسائل الإعلام التي حررت في الوقت المناسب ، في الستينات ، قد لعبت دون أي شك دورا نستطيع تسميته منطقيا ، الدور الذي كان يجب ان تلعبه . كان الأول دور سلطة والآخر فتح النقاش وقد فتحته وسائل الإعلام قبل وفاة فرانكو .

11 - اني ارى انه في مثل هذه الشؤون يمكن دائما للـــوضع العـــالمي ان يكون مواتيا وكذلك الشأن بالنسبة للموقع الجغرافى . فلو كنا مثلا حيث توجد النمسا لاختلف الأمر . لكن مـا هو مؤكد هو انه بـالطريقة التي تمت بها الأشياء ، كان التأثير الخارجي محدودا ولم يكن سلبيا .

12 - كلنا نأمل بـان تسير في طريق مـماثل للذي اتخذته بقيـة شعوب أوربـا وهو شيء أكـده دخـولها الحلف الأطلسي وانضمامهـا إلى السـوق الأوربيـة المشتركة إلى غير ذلك .

أجوبة السيد سانتياغو كاريو أمين عام الحزب الشيوعي

1 - اني أعتقد انه كـان وبكل وضوح دكتاتورية فاشستيـة بدأت ، في وقت ما ، تتفكك مبديـة في داخلها عـلامات تغيير محتمل ، لكن أعتقـد ان صفة الدكتاتورية الفاشستية هي الصيغة التي تتميز بها فترة هيمنة فرانكو .

2 - بالنسبـة لي ليس في الدكتاتـورية الفـاشستية أي أوجه ايجابيـة إذ كل أوجهه سلبية .

3 - أعتقد ان السبب في عدم إعادة فرانكو النظام الملكي ، هو ان فرانكو كان يفكر في دكتاتـوريته الشخصية ذاتها ولعل التجربة الإيطاليـة أفهمته بان الملكية قد تعرقل مهمته بدل تسهيلها .

4 - ان التحوّل ، في مفهوم البناء العظيم بدأ فعلا مع وفاة فرانكو لانه إذاك فقط أخذت تطـرح بصفة ملموسـة ضرورة السير نحو تغيير النظـام . أما من الناحية الفعلية فان التحوّل أتى من بعيد إذ هناك فترة بأكملها تحصـلـت فيها الحركة العمالية والحركة الطلابية على مـا كنا نسميه في ذلك العـهـد " مناطق حريـة " جعلت في ذلك الوقت دكتاتوريـة فرانكو تخسر بعض ملامحها وبدأت تظهـر عناصر هيكلية ديمقراطية جديـدة وكل هذا يعود إلى الستينات .

5 - ان التحـوّل الفعلي هو التـزام بين القـوات المصلحـة لنظام فـرانكـو والتي ترأسها تاريخيا أدولفو سووارث والقوى الديمقراطية المعارضة وكل هذا تم داخل تدرج ترأسه خوان كارلوس .

6 - لا ، أعتقد انه لم يكن هناك خطر مجابهة أخرى . ان الشعب الأسباني كانت له الذاكرة التاريخية التي لم تنسـه الحرب الأهلية فلم يكن يريد تكرارها . كان يمكن ان تكون الأمور أكثر صعوبة وتكلفة لو لم تخلق ظروف خاصة مثل موقـف خوان كارلـوس وموقف إصـلاحي الحركة لكن لا أعتقـد انه كان هناك خطر حرب أهلية .

7 - أعتقد انه لو لم يكن الملك لبرزت طريقة أخرى بين هذا الشكل وذاك لانها ضرورة تاريخية . لكن وجد الملك وهذا قد سهل الأمور .

8 - أظن انه بدون الحزب الشيوعي لم يكن التحوّل ممكنا فعلا ، لان إزاحة الحزب الشيوعي في تلك الآونة ، الحزب المتمتع بسمعة مقاومة الدكتاتورية لا في أسبانيا فحسب بل وفي أوربا وفي العالم لم تكن تلك الإزاحة لتفهم ولا ممكنة حسب اعتقادي ، وهذا ما يقوله مصلحو النظام أنفسهم وقاله خوان كارلوس في حديث خاص .

9 - أعتقد ان القوات المسلحة كانت في البداية لجاما للتحوّل لجاما خلع بعد ذلك لأن القوى الوطنية الراغبة في نظام ديمقراطي كانت مضايقة .

10 - أعتقد انها لعبت دورا إيجابيا جدا . فوسائل الإعلام ، باستثناء بعض الحالات المحددة ، قد عملت لفائدة استرجاع الحريات الديمقراطية وساهمت في الواقع في دفع عجلته .

11 - جلي ذلك . كان واضحا ان الاشتراكية الديمقراطية الألمانية قد ساهمت من الخارج مساهمة هامة في التحوّل . وأعتقد أيضا ان القوى التكتيكية الغربية قامت هي الأخرى بدور في التحول ولو ان بعض الأمور قد تمت بعكس ما نصحت به و إني بهذا أشير إلى مواقف معينة كموقف كيسنجر في ذلك العهد الذي لم يكن يرى مثلا بعين الارتياح إسدال الشرعية على الحزب الشيوعي . لكن كانت هناك فعلا تأثيرات خارجية واضحة جعلت التحوّل يتحقق داخل ما يعرف بالمنهج السياسي الغربي .

12 - اني أرى ان مستقبل أسبانيا كمستقبل أوربا هو في الوقت الحاضر غير واضح لان هناك تحوّل اقتصادي عميق يجعل اننا نجتاز حاليا مرحلة تعرف باسم الثورة الصناعية الثانية . فنحن نعيش أزمة كبحت حاليا إلى حد ما ولكنها تخلق مظاهر يمكن ان تكون خطرة جدا على مستقبل أوربا والعالم الغربي من ذلك مثلا تهميش الشباب والبطالة . فبالنسبة لي

حاليا هناك أمر واضح وهو ان المجموعة الأوربية اما ان تكون قادرة على حلُ هذه المشكلة ، مشكلة البطالة وخاصة مشكلة تهميش الشباب وإلا فـالنظـام الديمقـراطي قـد يـوضع على بساط البحث في أوربـا شكـا في صلاحيته .

أجوبة الأستاذ بابلو كاستيانو

1 - من الواضح انه كـان دكتاتورية . دكتـاتورية صبغتها عسكـرية وشخصية مستندة أساسا على الجيش الغالب في حـرب أهلية . وكانت تحتاج هذه الدكتاتورية إلى غطاء أيديـولوجي ، إلى مظهر سياسي فراحت بتخذه على ممر السنين مكيفـة إياه حسب مصالح من كـان يجسم تلك الدكتاتـورية فاتخذ أشكـالا سياسية مختلفـة كانت كلها ذات طـابع محافظ . والواضح هو اننا عندما نبّسط التعبير فنقول بان نظام فرانكو كان فاشستيا انما نريد القول بانـه كان كلّيانيا ولكن كليـانيته كانت ذات صبغة خـاصة وانعدم فيها أي أساس أيديولوجي . وحيث ان هـذا النظام كان قائما أساسا على صـورة صاحبـه فـان تدرجـه البيـولوجي كـان متحـدا طبعا مع التـدرج السياسي والظرف البيولوجي لصاحبه ولـذا فعندما نقول بان فرانكو مات على فراشه من الواضح الفهم بأن نظامه مات معه على فراشه .

2 - اني لا أريـد ان أكون متشيعـا فـلا أرى أي مظهـر ايجابى لهذا النظام . أمـا السلبيات فان أولها هو تجميد حيـاة الشعب السياسية وتحريـم كل نوع من حقـوق الانسـان وممـارسـة عملين مقـامين على خطين يسميـان الفسـاد والقمع حتى ان مـا قـد يمكن اعتباره ايجابيـا إذ قـد عـرفت أسبـانيا منـذ 1939 إلى السبعينـات ، تطـورا ولكنـه كـان تطـورا خـامـلا ، ان صح التعبير، سواء في ما هو اقتصادي أو ثقافي .

3 - لم يعد فرانكـو الملكية لانه كان يـرى انها ستكون ملكية برلمانيـة وديمقراطية تعيد الحيـاة للأحـزاب السياسيـة وهذا يعني عـودة ما قـاومه دومـا وكان جلاده الرئيسي ، ولذا ان أعاد هذه الملكية فقد تناقض مع نفسه . أما إذا كانت ملكية ذات طابع سلطوي مطلق فمن غير المعقول ان يتنازل حاكم مطلق لفائدة حاكم آخر سيكون مطلقا هو الآخر .

4 - ان التحوّل ، من حيث هو بـروز للحاجة إلى نظام ديمقـراطي ، فقد بدأ في الستينات لما أخذت قطاعات كبيرة من العالم الطلابي وعالم الفكر في اتباع سياسة نهوض وتحرك . وعندما أقول كبيرة أعني النوعية لا الكم . طبيعي ان هذه الحاجة إلى الـديمقراطية شعرت بها الطبقـة الشغيلة أيضا إلا ان

ممارسة الحرية جزء لا يتجزأ عن كل عقلية خلاقة وهي ضرورية حتى للبورجوازية نفسها التي بدأت تشعر آنذاك انه يحدث خارج حدودنا ما كان يسمى بالتدرج نحو التكامل الأوربي الذي سيترك على الهامش الطبقة البورجوازية الأسبانية التي بدأت تشعر أيضا ان انعدام الديمقراطية معناه نقص في الأرباح والفائدة . فبدأت إذن في اعادة طرح موضوع الشكل السياسي الذي يسمح بتراكم رأس المال وبالمشاركة في الصفقة الكبيرة التي كانت ترى انها ستبقى غريبة عنها .

5 - ان العناصر الأساسية للتحوّل من حيث هي المحرك له ، فهي بدون شك الطبقة الشغيلة . فهي بلا شك المهزومة الكبرى والأولى في الحرب الأهلية ولذا فهي لم تستسلم ولم تلق السلاح أبدا . أما إذا تركنا العنصر المحرك وبحثنا العنصر المشجع والدافع نجد ان عناصر أخرى كالبورجوازية والبورجوازية الصغيرة الليبيرالية والطلبة وبعد ذلك وفي آخر وقت الرأسمالية الكبرى نفسها ، قد انضمت إلى ذلك المحرك الأساسي . لكن الذي تجدر ملاحظته هو الفرق بين العنصر المشجع أو الدافع وبين البطل القائم بالدور الرئيسي وهنا يكمن التضارب في ما عرف بتدرج التحوّل لان الباعثين الدافعين للحركة لم يكونوا أبطالها لان ذلك الدور قامت به قوى جاءت من داخل النظام السابق نفسه .

6 - لا ، أبدا ، لم يكن هناك أي خطر لان الحرب الأهلية قد أثرت في هؤلاء وأولائك فتركت كثمالة لها في ضمير كل فرد توبيخا عن سوء التصرف وانعدام المنطق السليم في اتخاذ الموقف السياسى . ولذا فلان كان في باطن كل الأسبان شيء فهو عدم العودة إلى مثل تلك المأساة أبدا . لذا لم يوجد ذلك الخطر بتاتا وأكثر من هذا فانه لم يوجد حتى ذلك الخطر الذي اختلقه بعضهم لتجميد تقوية اليسار واحتمال انشاء نظام ذى طابع ثوري . ويجدر التذكير هنا بان ما جرى بالبرتغال قبل التحوّل الاسباني بقليل ، كان بمثابة الانذار إلى القوى السياسية الأسبانية يحذرها من وخامة العواقب ان هى قامت على الجام اندفاع وديناميكية القوى

الشعبية فأثر هذا كثيرا وأسهم بقسط كبير في تدرج التحوّل بالطريقة التي تم بها لانه ، والحق يقال كان في البداية نوعا من الاستمرارية .

7 - كثيرا ما يقال ان الملك هو محرّك التحوّل . وأنا أقول ، انه لو لم يكن الملك لأمكن نوع آخر من التحول . من الأكيد ان إعادة الملكية وشخصية خوان كارلوس قد أعطيا معنى خاصا وحددا - ولا أقول كيفا - وسطرا طريقا معينا للتحوّل الأسباني ، فلو لم يتبع طريق إعادة الملكية لاجراء التحول لأمكن كذلك اجراءه ولو بشكل آخر لانه كان ضمن قوة الأشياء وان تم بتلك الصفة لكنا الآن نتحدث عن تحوّل آخر هو تجسيم للقطيعة بين النظام القديم والجديد وهذا يعني تلك القطيعة الديمقراطية التي كانت تدور على لسان كل القوى المعارضة خلال عام 1975 وأوائل 1976 ولكنها سرعان ما نسيت أو أهملت بدافع المفهوم العملي .

8 - كان التحوّل ممكنا أيضا دون الاعتراف بالحزب الشيوعي ومشاركته فيه ضمن الأحزاب السياسية الأخرى ودليل على ذلك فهنالك من حاول هذا لكن كما قلت سلفا ، لو تم بغير الحزب الشيوعي لكان نوعا آخر من التحوّل ولكان أكثر تعقيدا ولكن مع مرور الأيام كان لابد من الاعتراف به لان مجرى الأحداث لابد أن يؤدي ان آجلا أو عاجلا إلى مشاركة الحزب الشيوعى في الحياة السياسية لان هذا ما يريده المنطق وما تفرضه قوى اللعبة .

9 - كان دور وسائل الإعلام مهما جدا . فقد مارست أولا ، بما في هذه الممارسة من مخاطرة ، مارست الحرية فعودت الآخرين على ضرورة ممارستها . ثانيا فهي كوسائل اعلام وإخبار ، كانت وسائل تكوين ووسائل خلاقة في الدفاع عن حقوق الانسان وعن القيم الديمقراطية . وبكل صراحة فان كل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد لعبت دورا فى التحوّل لكن وسائل الإعلام التى مدحت في بعض الأحيان مدحا بليغا ولكنه لم يكن حقيقيا يتماشى والدور العظيم الهام الذي أدته أثناء التحول .

10- القوات المسلحة طمأنتها شخصية الملك وعودة الملكية ولم لا ؟ فقد قادتها أيضا شخصية لعبت دورا مهما في داخلها . فلا يمكن القول بانها عرقلت التحوّل . نعم قد كيفته بمعنى حددت مقاديره عمقا وزمنا أي كما وكيفا فهذا واضح ولا تزال بعض أثاره باقية .

11- بكل وضوح . فقبل موت الدكتاتور بكثير ، كانت السفارات ، بعبارة عامة تقدر ما يعنيه تغيير النظام في أسبانيا بالنسبة لكل أوروبا وتأثيره على سياسة المعسكرات ولذا كان يهم الجميع ان يكون المخرج من الدكتاتورية الفرنكية متجها وجهة أخرى ولذا لم يكن هناك من شك ان تلك القوى الخارجية قد تحركت عبر ما نستطيع تسميته بالأحزاب المتآخية أو ذات الاتجاه السياسي الواحد وحاولت وليس في هذا ما يدهشنا ، توجيه مسيرة وسياسة تلك الأحزاب . ان الموقف الذي قد يكون وقفه الاتحاد السوفياتي تجاه الحزب الشيوعي الاسباني واضح وواضح أيضا المجهود الذي بذله الحزب الأسباني لمماشاة وضع دقيق . وواضح كذلك الدور الذي لعبته الديمقراطية الاشتراكية الأوربية وبصفة خاصة الألمانية داخل الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ومثله وضوحا دور الكنيسة داخل القوى المحافظة من الراديكالية الأوربية ودور هذه داخل القوى المحافظة الأسبانية التي تصرفت للمرة الأولى في التاريخ تصرفا متمدنا وديمقراطيا .

12- اني أعتقد أن التحوّل الحقيقي قد ابتدأ عام 1982 وقد تعرض الى هزات . وأسبانيا ، حسب نظرتي إلى الأمور ، لها الآن ريبة كبيرة وحذر وكبح فرضتها على نفسها ولابد لها من التحرر منها . هناك أولا : العلاقات في نظام الأحزاب الذي لا يمكن ان ندعي انه بلغ الكمال . ثانيا : التأمل في ما يجب ان يكون دور النقابات الحقيقية لان نقابات أسبانيا لا تزال ضعيفة . ثالثا : تحقيق أولوية السلطة المدنية وعندما أقول السلطة المدنية يذهب التفكير إلى السلطة العسكرية بينما انا أعني السلطة المالية لاننا نستطيع ان نقول ان لنا ظاهريا سلطة ديمقراطية بينما لا تزال السلطات

المالية تستقطب التعبير السياسي وتعرقل تحقيق القيم الدستورية .
رابعا : وهذا مهم جدا ، اننا لم نصل بعد إلى وضع العمود الفقري للمجتمع الأسباني . فهناك نوع من اقتصار الحياة السياسية على ما هو سياسي ، سياسي حزبي ، سياسي دستوري ، بينما المجتمع الأسباني لم يبلغ بعد درجة النضج والهيكلة التي تجعله يحصل على حياته الخاصة إلى جانب الدولة ومع الدولة لا تحت الدولة . فهذا الجدل دولة / مجتمع لم نجد له بعد نقطة التوازن التي يجب الحصول عليها في نظام مثل هذا ديمقراطي رسمي ، بورجوازي ، رأسمالي كالذي نحن سائرون فيه ، أحببنا أم كرهنا ، ورغم هذا فان فوق الأرضية يوجد قدر من التوازن : مجتمع / حركية / دولة ، ولكننا لم نحصل عليه بعد .

رسائل ومواقف

في الصفحات التـالية نقـدم للقارىء بعضا من الـرسائل المتبـادلة بين الأمير دون خوان آل بوربون المطالب بعرش أسبانيا آنذاك وبين الفريق فرانشسكو فرانكو رئيس الدولة الأسبانية من آخر الثـلاثينات إلى منتصف السبعينات بحكم انتصاره وانتصار أتباعه على الشق الجمهوري في الحرب الأهلية .

تحصلنا بفضل مساعدة السيـد رافاييل بورّاس باتريو ، المديـر الأدبي لدار بلانيتا للنشر ببرشلونة ، على عدد لا بأس به من هذه الرسائل التي لم نقدم على عرضها كلها لاعتبارنا انها تشكل موضوعا آخر غير موضوع هذا الكتاب ولانها في عددها وحجمها تشكل ما يكفي لكتـاب منفصل . ولذا فقـد اكتفينا بترجمة بعض منها لمجـرد إعطاء فكرة للقارىء عن آراء ومفاهيم هذين الرجلين اللذين التقيا على درب تاريخ أسبانيا المعـاصر ولعبـا ، كل بطـريقتـه ومن حيث وضعتـه الأقدار ، دورا في كتـابـة هـذا التاريخ .

أملنا اننـا أحسنا اختيـار الرسـائل لبلوغ القصـد المرموق . ومع هـذا الأمل نقدم بعض الايضاحات التي قد تساعد على فهم ما غمض :

1 - ان ما عـرف تاريخيا باسـم الملوك الكاثوليك هما فـرناندو الثـانى ملك آراغون (1452 / 1516) وزوجتـه ايـزابيل الأولى ، صـاحبـة عـرش قشتـالـة (1451/ 1504) اللـذان بزواجهما وتـوحيـد عـرشيهما شرعا في تـوحيـد أسبانيا بعد استرجاعها من أيدي المسلمين وقد أضفى عليهما البابا ألكسندر السـادس لقب الكـاثـوليك بعد سقـوط غـرنـاطـة لما قدمـاه من خـدمـة للمسيحية .

2 - كثيرا ماوردت على لسان قلم الفريق فرانكو خاصة ، عبارة الحرب الصليبية وهذه ليست سوى بـالحرب الأهلية الأسبانية التي كان يعتبرها حـربا ضد الكفر والإلحاد الشيوعي والماصوني ومن ثم فهي حرب صليبية .

3 - كذلك عبارة " الحمر " أو " الحمراء " فقد وردتا كثيرا وبهما يشار إلى كل ماهو شيوعي.

4 - معاهدة أوترست هي مجموعة إتفاقيات وضعت حدا لحرب الخلافة على عرش أسبانيا واحتفظت فرنسا بموجبها بكل اراضيها وحصلت أنجلترا من ورائها على قواعد بحرية هامة منها جبل طارق الذي لا يزال بحوزتها ولا تزال أسبانيا تطالب به .

5 - البستة هي وحدة العملة الرسمية الاسبانية .

6 - الموريسكوس ، اسم أصله اسباني يطلق على المسلمين الذين بقوا في أسبانيا بعد اصدار المراسيم التي تفرض عليهم الهجرة أو اعتناق المسيحية فهم إذن اسبانيون من أصل عربي يعتبرون مسيحيين من الوجهة الرسمية .

7 - الحركة ، هي في الواقع حزب الكتائب الذي جعل منه فرانكو قوام الحركة السياسية في عهده وكان يرفض تسميته حزبا .

8 - " كونت" و " ماركيز " ألقاب شرفية شبيهة بما كان متبعا في بعض البلدان العربية وما عرف بلقب " بيه " و " باشا " .

الرسالة رقم 1

فندق ايدن

46 شارع لوردوفيتشي ، روما

1936/12/7

سعادة السيد فرانشسكو فرانكو

سعادة الفريق المحترم ،

لقد حاولت ، ربما بطريقة تلقائية ، المشاركة في الحرب الاسبانية وهي إذاك تكتسي صبغة صراع داخلي وكنت عندها مدفوعا بمشاعر بعيدة عن السياسة .

اني أفهم وأحترم الأسباب التي جعلت السلطات العسكرية تمنع إذاك اِنخراطي في الجيش .

أما الآن فان الصراع يبدو انه أخذ شكل حرب ضد أعداء خارجيين ، حرب يجب على كل الأسبان الطيبين الحقيقيين الذين في سني ان يأخذوا فيها مكانا للكفاح . ورغبة مني في احتلال مكان وبطريقة تبعد كل ريبة ، أقدّم إلى اهتمام سعادتكم الأريحي أمنية التحاقي بالجيش .

حسب ما جاء في أخبار صحفية ، سيكون جاهزا للإبحار قريبا ، الطرّاد " باليارس " الذي قد أستطيع تقديم بعض الخدمة المفيدة فيه إذ اني قد انهيت دراستي في المدرسة البحرية البريطانية وأبحرت سنتين ونصف على متن الطراد " انتربرايز" التابع للأسطول الرابع ثم زاولت دروسا وتمرينات في المدفعية على متن . . . "ايفان" . . . وأخيرا وقبل ترك البحرية الانجليزية وانا برتبة ملازم بحري « نقيب » عملت على ظهر المدمرة " ونشستر " .

اني على استعداد للانخراط على متن الباخرة رأسا وسأمتنع كلّيا عن النزول في أي ميناء أسباني وأعدكم طبعا باني لن استقبل أحدا ولو كانوا أصدقائي الخاصين .

لست أدري سيدي الفريق هل اني أخالف وانا أكتب بهذه الطريقة ، الإجراءات التشريفيةُ المتبعة عنـد مخاطبة رئيس دولة . أرجوكم على أيـة حال معذرتى واني أضع أمام شعوركم العسكري رغبتي هذه في خدمة أسبانيا بجانب رفقائي .

مع دعـائي لله كي يسـاعدكم في مهمتكم النبيلـة لانقاذ أسبـانيا ، أرجوكـم قبول عبارات الاحترام التي بها أكرر " تحت أوامركم " وبكل مودة يحييكم.

خوان آل بوربون

الرسالة رقم 2

1937/1/12

صاحب السمو الملكي دون خوان آل بوربون

ياصاحب السمو ،

إن رسالتكم المليئة وطنية وحماسة ، ملأتني ، كجندي ، بالرضى للوقوف مرة أخرى على درجة رسوخ الأصالة فيكم وكيف تشعرون سموكم بمشاكل أسبانيا العزيزة .

إن الصراع الذي نقوم به يتعدى فعلا حدود البلاد ليدخل الحدود العالمية لان المعركة ليست حول مصير أسبانيا فقط بل ومصير المدنية الغربية والكنيسة الكاثوليكية المفترى عليهما من طرف الشيوعية الروسية باشتراك بعض الحكومات الأجنبية وتعاونها الأكيد .

قد كنت أسر كثيرا لو استطعت النزول عند رغبتكم الأسبانية بقدر ما هي شرعية ، رغبة الكفاح مع بحريتنا في سبيل قضية أسبانيا . لكن تميز شخصيتكم لا يسمح بان تخدموا تحت مجرد رتبة ضابط لان حماسة البعض واجتهاد الآخرين سيجعلان من الصعب تحقيق غايات نبيلة كهذه . هذا مع عدم اعتبار ان المكان الذي تحتلونه في تدرج السلالة الملكية والواجبات التي تنتج عن ذلك تفرض على الجميع وتقتضي منكم التضحية برغبات ، هي ما هي عليه من الوطنية والنبل ، تحدوها مصلحة الوطن .

لكن هذا . وبالرغم من أكبار رغبتكم ذات المرجى الثمين الغالي على البحرية الأسبانية من وراء خبرتكم كضابط ومن حماسكم في هذا الوقت الذي ضحى فيه رفقاء كثيرون بسبب الهمجية الحمراء ، لا يمكننى الانصياع لما يمليه علي قلبي كجندي ، فأقبل عرضكم .

أشكركم جدا باسم أسبانيا ، وباسم جميع الرفقاء بهذا الجيش وهذه البحرية على

غيرتكم ودعائكم وحماسكم واعلمـوا ان لكم مودة واحترام هذا الجندي الـوفي الذي يحييكم بكل مودة .

فرانشسكو فرانكو

سالامنقة 12/ 1/ 1937

الرسالة رقم 3

7/1938

الفريق دون فرانثسكو فرانكو

أيها الفريق المحترم ،

لقد بلغ مسمعي بانه تجري حاليا مفاوضات لتبادل بعض العسكريين اللاجئين في مقر البعثة السويدية بمدريد وبعض الحمر الموجودين بمنطقتنا ولذا أقدم على ازعاج انتباهكم بغية الحصول ، ان أمكن هـذا ، على ان يكون من بين الذين سيتم تبادلهم أستاذي الأسبق الـرائد السيد لويس رودريغث بـاسكوال . ان ما يـدفعني إلى هذا ليس سوى دين واعتراف بالجميل تجاه هذا الضابط البحري الطبيب الذي أسهم طيلة أربع سنـوات في تكـويني وتثقيفي ولهذا سمحت لنفسي بإبـلاغ سعــادتكم هـذه الرسالة .

إني أغتنم هذه المناسبة ، يا حضرة الفريق ، لأهنئكم بالانتصار في رد الهجوم على جبهة مدريد ومع تمنياتى بان تتمكنوا هذه السنة من تتويج مهمتكم العظمى ، وهي انقاذ أسبانيا ، أرجوكم قبول فائق الاحترام والمودة من

خوان آل بوربون

الرسالة رقم 4

6/ 3/ 1941

صاحب السمو الملكي دون خوان دي بوربون

يا صاحب السمو

أغتنم تـوجه النـائب البرلماني الوطني ألفـونصو هـويوس إلى إيطـاليا لأجـدد لكم تعازي الخالصة لوفاة الملك ، أبيكم رحمه الله الذي أكن له ودّا خالصا نتيجة خدمتي له لسنـوات عديـدة من مناصب عسكريـة وهذا مـا يزيد في عمـق مشاركتي لكم في خطبكم .

أما في أسبانيا فقد أسهمت الدولـة والشعب في هذا الحزن وكرّمت ذكرى الراحل بالعبارات التي أرتأيناها أهلا له وفي شكل سام وجدير .

أعتقـد أيضا ان هـذا هو الحكم العـام لأحسن الأسبـانيين بمـا فـيهم أولئك الذين، وهم قلة ، خدموا الملك باخلاص حقيقي وفعالية إلى آخر أيام ملكه .

وليس سـوى مجمـوعـة صغيرة تسعى لفـائدتها الخاصـة ، ولـو على حسـاب خير الـوطن، لا شاغل لها سـوى تظـاهرهـا بـالتبعية لكـم وبما هي عليه من مقـدرة على التكيف ، قد تحاول هناك التظاهر بطريقة أخرى مختلفة .

إن واجبـاتي الحالية كقـائد تجبرني على سد الطـريق في وجـه هؤلاء لتـلافي الضرر الخطير الذي قد يحدثونه لأسبانيا مع ما قد ينزلونه بالملكية وبسموكم .

إن المسـؤوليـة التـاريخيـة التي تـرزحني في هـذه المرحلـة ذات التأثير الكبير على مستقبل أسبـانيـا ، تنصحني بـالفـات نظـركم حتى لا يعـوّج مستقبل رائع نتيجـة مخاتلات أو تهورات يأتيها أعداؤنا المشتركون الذين هم دائما أعداء وطننا .

وإلى ان نتفق على ما يخالف هـذا ، فإن رغبتي هي محافظتنا على الصلة بيننا بما تقتضيه المصالح العامة ، عن طريق حامل هذه الرسالة أو عن طريق الدوق دي صوتو مايور أو بواسطة بارديّا.

تقبلوا في هذا اليوم ، ومع أحسن الذكرى ، عبارات ثقتي ومودتي .

فرانشسكو فرانكو

مدريد 6/ 3/ 1941

الرسالة رقم 5

30/ 9/ 1941

الى الأمير دون خوان

ياصاحب السمو،

أعهد إلي صديقنا المشترك ألفونصو هويوس مهمة ايصال هذه اليكم محملة بأجمل تمنياتي للحدث الذي تنتظرون.

يؤسفني جدا بان تحول المسافة دون سرور الحوار الذي به كنت أتمكن من ان أرسم لكم صورة الوضع الحقيقي الذي عليه وطننا لأني أعرف مدى حيرتكم بشأنه.

ففي هذه الأوقات الصعبة على العالم والمهمة بالنسبة لمستقبل أمتنا، تشارك أسبانيا في تضحيات أوربا، حيث تواجدت أسبانيا دائما بقدر ما تتطلبه مصلحتها الخاصة وبقدر ما يسمح به وضع إمكاناتنا مع اتباع خط سير ناتج عن المبادىء التي قادت حربنا الصليبية وعما يمليه تاريخنا.

إن هذا الموقف السياسي لأسبانيا تجاه العالم، يقاومه كل الذين كانوا أثناء الحرب الصليبية أعداء لنا مثيرين بذلك الهجومات الطبيعية والمستترة من طرف الأمم التي لعبت بيننا أمس والتي تقاوم اليوم ضد أوربا.

فهم يستغلون هنا حقد المهزومين والمتبرمين لتنمية أعكر المناورات التي، ولو انها محكوم عليها بالفشل، فهي لا تخل من محاولة استباحة سمعة وموقف أسبانيا بالخارج، موقف سيكون أحسن بقدر ما يبدو الشعب الأسباني قويا ومتحدا وبقدر ما تكون سياسة النظام ثابتة ومستقرة. إن هذه الوحدة وهذا الاستقرار السياسي سوف لن يتحققا إن لم تنجز الثورة الوطنية التي شرعت فيها حركتنا وهي بالتخفيف من المظالم المزمنة ستجعل كل الأسبانيين متضامنين حول المهمة الكبيرة المؤدية بأسبانيا إلى تحقيق مصيرها التاريخي.

لم يعد أي أسباني يستطيع ان يجهل ان، لا سقوط الملكية، ولا تقدم الماركسية،

ولا الثورة الحمراء التى خربت أسبانيا ، ولا انتصار الحرب الصليبية هي أحداث منعزلة أو عرضية بل هي تتويج لتدرج تاريخى سيعود حدوثه ان بقيت متواصلة الأسباب التي أولدته .

إن اهتمام عقيدتنا الكاثوليكية يكمن في اقتلاع الأسباب التي أدت إلى ابتعاد أسبانيا التدريجي عن القيم المسيحية اقتلاعا ابديا ، وان يتحقق البرنامج الاجتماعى الذي تدافع عنه التعاليم الكاثوليكية ، بالسرعة والقوة التي لا يمكن الحصول عليهما إلا تحت دولة قوية تساندها منظمة سياسية قوية .

إن مصالح الوطن العليا بالخارج والداخل ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بانجاز برامج حركتنا التى تبعثها تلك المصالح في جو من العدالة والانصاف لم يعرفا حتى الآن . وبهذا مرتبط طبعا خير كل الأسبان .

وهذا أيضا بالنسبة لسموكم وللنظام الذي تمثلونه السبيل الوحيد التي تؤدي ، يوم تدعوكم خدمة أسبانيا ، إلى تتويجنا هذا العمل باعادة النظام التقليدى الذى ، بالنسبة لي ، أنتم ممثله الأوحد والشرعي والذي ان يمكن تكون له القوة والسلطة الكاملة التي أتمناها له .

إن قصر نظر وسوء تصرف الكثيرين الذي بادعائهم ملكيين يخلطون بين مصلحتهم ومصلحة أسبانيا وبين عاطفتهم اللقيطة ومصلحتهم الخاصة فيتجنبون " الحركة " إن لم يعارضوها بينما هي الواقع الأسبانى الوحيد والممكن والتي بدونها سيكون معرضا للزوال كل ما نحاول بنيانه والذي لا أحد سيحتاجه غدا أكثر من سموكم .

أظن انني عرضت عليكم بطريقة واضحة آرائى بالنسبة للوقت السياسى الراهن ، الذي لا يدركه الا القليلون ممن يسمون انفسهم انصاركم .

مع تمنياتي بالسعادة لكل الذين يتكوّن منهم بيتكم المسيحي أبقى صديقكم الوفى المخلص .

فرانشسكو فرانكو

مدريد فى 30/ 9/ 1941

الرسالة رقم 6

1941

الى سعادة الفريق فرانثسكو فرانكو

سيدي الفريق المحترم ،

استلمت رسالتكم الكريمة المؤرخة في 30 سبتمبر ﴿ أيلول ﴾ الماضي وسررت كثيرا لاستلامها .

إني أشكر لكم بكل اخلاص دعاءكم للحدث الذي كنا ننتظره والذى تحقق الآن . فكما علمت سعادتكم بكل تأكيد ، قد ولد لنا ذكر تمت الآن معموديته وسمي ألفونصو الذي سيضمن مجيئه استمرار سلالة العائلة . انا واثق من ان هذا الحدث سيدخل السرور على سعادتكم ولذا يطيب لي اخباركم به .

حدثتموني سعادتكم عن الظروف الصعبة التي يجتازها العالم والكبيرة الأهمية لمستقبل أمتنا . إني شاعر تمام الشعور بالمشاغل الخطيرة والمسؤوليات الملقاة على كاهل سعادتكم و إني لأرفع إلى الله أحر الدعوات كي يعينكم على أداء مهمتكم الصعبة الشائكة وهي مهمة السير بوطننا إلى مجرى تاريخه في هذه الظروف الخاصة وبعد حرب بقيت أراضينا على أثرها خرابا ومات فيها خيارنا .

إن صراحة رسالتكم تسمح لي بان أقدم لكم بكل تودد ، الاعتبارات التي سأعرضها عليكم بخصوص الظرف السياسي الأسباني . وانا واثق انكم ستقدرون الثقة التي أكتب بها .

ما من شك ان الذي جرى في وطننا يوم 14 أبريل ﴿ نيسان ﴾ 1931 كان تتويجا للتدرج في التنكر للعقلية الأسبانية ساهمت فيه الأسباب التي خلقت الوضع الفوضوي الذي بلغته أمتنا . ولكن ، لو بعد الانتصار الكبير الذي تم بفضل الأسلحة الأسبانية وقيادة سعادتكم ، استغلت الفرصة الحالية وأمكن تنظيم دولة وتثبيت تلك العقلية تثبيتا محكما وأمكن خلق المؤسسات التي تجعل أسبانيا قادرة على

القيام بمهمتها التاريخية لبقيت إلى الوراء تلك الأسباب التي كانت تفرقها ولتوّحد الأسبان دون الحاجة إلى الاهتمام بها بصفة خاصة . تعلمون ، سعادتكم ، انه كي تكون الدولة الأسبانية كذلك ، فان الملكية ضرورية وان كل محاولة لخلق دولة بدونها أو لرفع معنوياتها بدون التفكير فيها محاولة كان دوما مآلها الفشل .

لكن الملكية ليست الملك وحده بل هي نظام سياسي وحكومي وهي ليست شيئا منفصلا عن الأمة ويمكن التوّصل اليها على انها نهاية تدرج . ان الملكية ذات الجذور الأصيلة ، كالملكية الاسبانية ، والمركزة عن طريق الأجيال التي تتالت عبر القرون ، تخلق الأمة وتحافظ عليها بواسطة دولة قوية صاحبة سيادة تكون صلبة في ما له صلة بالمبادىء والمؤسسات ولينة في ما يتصل بالإدارة وتتقدم محسّنة نفسها ومطوّرة النظام والمسيرة السياسية للبلاد . إن أسبانيا لا تستعيد ذاتها وروحها إلا بملكيتنا التقليدية التي باستقطابها الحياة والتنظيم الوطني ، ستستطيع بعث الوطن .

لكن من الواضح أيضا أنه كي يتم التغلب على الأسباب التي جلبت الفوضى لأسبانيا فتعود حقا إلى ملاقاة نفسها ، من الضرورى القيام بثورة خصبة تعني عودة أسبانيا إلى ما كانت عليه وهذا يعني بصفة خاصة العودة إلى مفهومنا الديني للحياة بما في ذلك الاجتماعي منها واعادة تقوية النواة العائلية والتجمعات المهنية والحياة المحلية . وهذا يعني تجديدا لا بد ان يتم في داخل كل اسباني . لكن هذا سوف لن يكون عملا قصير المدى ويجب ان يشرع فيه سوية وإنشاء مؤسسات جديدة منها ومن الملك تتكوّن الملكية ثم إنه لابد وان يكون ، للأسباب المعروضة ، الوظيفة الأولى والدائمة والعادية لنفس الدولة الملكية .

ومن جهة أخرى ، فانا أرى ، من خلال تأملاتي المتواصلة حول أسبانيا وتاريخها ومستقبلها ، ان الأمة الأسبانية ، الأم ، وهي ملكية كاثوليكية للشعوب الأسبانية قاطبة ، وهي دابرة أوربا في أفريقيا والمحيط الأطلسي وهي مفتاح البحر الأبيض المتوسط وهي التي كانت في نفس الوقت نور الأيمان الحقيقي في العالم في تلك الحقبة التي سميت نهضة ، تستطيع في هذه الأوقات الحرجة من التاريخ ، بالرغم من قلة الوسائل المادية التي بيدها ، ان تقدم للشعوب المثل الحي للأمة ذات العقلية العالمية بايمان كاثوليكى حقيقي . إن واجبنا ككاثوليكيين وكأسبان

يجعلنا نتعمـق في هذه التأمـلات ونعتبر الواجب الـذي يمليـه علينا ضميرنـا ، كل حسب المكـان الذي وضعـه اللـه فيه هـو إعـداد وطننـا الحبيب ليقوم بهذه المهمـة العظيمـة الحاسمـة وذلك بترك الدولـة الملكيـة تتنظم في مـا يكفي من الـوقت حتى تستطيع إسماع صوتها في هـذه الحرب التي تقوم بها أوربا ضـد الشيوعيـة والتي بدأت في أسبانيا سنة 1936 دفاعا عن انتشار أكثر القيم الوطنية قداسة .

ومن الواضح ان الإنتقـال من الوقت الحاضر إلى ممـارسة السلطة الملكيـة الفعلية في أسبانيا يجب ان يتم بطـريقة لا تحدّد فيها الدولة الحالية تـاريخا لانتهاء صلاحيتها لان ذلك يضعف من سلطتهـا ، الضرورية دائما ، وخاصـة في هذه السـاعات التي تعيشها أوربا .

إن الحل لا يبدو صعبـا إذا وقع التفكير في إعادة اقـامة بعض مـؤسسات الـدولة الملكية يمكن ان تنجزهـا وصاية تكون وسيلة لجعل ذلـك التنقل يتم بأكبر مساعدة وأكبر احترام من طرف كل الاسبان مهما كـانت المجموعة الوطنية التي كـانوا ينتمون اليها لما قدّموا سنة 1936 تعاونهم الحازم للحركة الوطنية المجيدة .

وهذه الوصاية الموجهة بكل وضوح وعلانية نحو الملكية ، عليها ان تخبر البلد منذ البـداية بغـايتها المقـررة والمتمثلـة في تنظيم سياسي سينعكس على البلـد ذاته بصفـة خاصة .

وخلال مدة بقاء هذه الوصايا ، يجب تصفية الشؤون العدلية التى لها صلة بالحرب الصليبية .

إن ما قـد يشغل بالي هو الصبغـة الوقتيـة التي تكتسيها سلطات الـدولة الأسبانية الحالية . لكن من الواضـح ان توجيه وتخطيط سياسة الـدولة الأسبانية وبنـائها نحو الملكية التقليـدية عن طريق وصايـة ستجعل تلك السلطات لا تشعر بـانها وقتية بل ستصبح معززة بالشعـور بان خلافة سلطات سعـادتكم سيبتّ فيها دون الحاجة إلى حل استمراري . وهكـذا ستندمج في سلطـة واحدة منذ بـداية الوصـاية إلى مـا بعد تتـويج الملك كل من السلطـة الملكيـة والسلطات التـي مورست كنتيجـة للحـرب الصليبية الوطنية .

لا أريد ان أنهي هـذه الرسـالة ، سيـدي الفريق ، دون التعبير لسعـادتكم بكل

اخـلاص ، عن شكـري لاعترافكم بأني ، بـالنسبـة لسعـادتكم ، الممثل الأوحـد والشرعي للنظام التقليدي الأسباني . هذا ما أعتقده ومن أجله كنت ولا أزال مستعدا لتحميل نفسي كل الواجبـات الشائكة التي قـد يبعثها الله ، مصمما على قبـولها كلها بصدر رحب خدمة لـه ولأسبانيا ولأتمام ما كلفنا به موتانـا . وبالنسبة للمفهوم الذى أشرتم اليه والـذي هو مفهومي حـول الوجهـة السياسية لأسبـانيا والملكية الاسبـانية تـلاحظون ولا شك إلى أي حـد أتحمل المسـؤولية التـي تثقل كاهلي سهـرا على القيم الوطنية التي أراني اليوم ، بعد اعتراف سعادتكم بشرعيتى ، مجبرا أكثر من ذي قبل ، إن صح التعبير على الدفاع عنها . ولتكوين فكرة قـوية عن تلك المسؤولية فاني أفكر في درجة منـاسبة تلك الـوصاية كـوسيلة فعـالة ووطنية لأعـادة تنظيم الدولـة الملكية والمناداة بالملك لتتويجه في أسبانيا .

ان هذه الـوسيلة تبـدو حلا واضحا مقـابلا لتصرفـات بعض المجموعـات وأمام البراهين القليلة التروي التي ستضع البلاد أمـام الأمر المقضي وهو تنصيب أمير على العرش .

انى اشكر لكم كثيرا اعترافكم وصراحة رسالتكم وهذا هو ما سمح لي بكتابة هذه إليكم بأكبر الثقة وأشد الحرارة لاني أعرف ان سعـادتكم ، جندي أسبانيا المنتصرة ، لا بد وان يقدرها ويفهمها بقلبه .

أبقى لسعادتكمم الصديق المخلص الودود .

خوان آل بوربون

الرسالة رقم 7

1942/5/12

إلى صاحب السمو الملكي الأمير دون خوان آل بوربون

ياصاحب السمو ،

منذ أيام تحدوني رغبة أكيدة إلى مراسلتكم لأشكركم صراحة على رسالتكم وأعرض عليكم آرائي حول بعض النقاط التي إحتوتها تلك الرسالة بنفس الإخلاص والوضوح اللذين كانا قاعدة في علاقاتي مع والدكم واللذين تفرضهما علي من ناحية أخرى المسؤولية الملقاة على عاتقي .

يبرز فى رسالتكم ايمانكم بالمؤسسة الملكية التي إن هى كانت ضرورية للملك كي يبقى على العرش فهي مع ذلك لا تعني كل شيء إذ يجب ان تتشابك المؤسسات والأفراد ويكون هذا التشابك ألزم في الأزمنة التأسيسية . ان الأفراد هم الخلاقون وجل ما للمؤسسات هو صيانة ما أحْدِث أو توطيده . إن الملكية كانت بأسبانيا قبل وبعد سنيّ ايزابيل الكاثوليكية وكارلوس الأول وفيلبي الثاني السعيدة ، ومع هذا فإن سلفهم قد قضوا ثمانية قرون لاسترجاع ما اغتصبهم منهم العرب في أيام معدودات ثم ان الأمبراطورية التي شيدوها عاشت ثلاث مائة سنة قضاها خلفهم في تصفيتها فالعمودية كمُنت إذن في أولئك الملوك . ولو انغمسنا في فحص التاريخ والأحداث المعاصرة لوجدنا ان هموم أسبانيا ليست متأتية من السنوات المباشرة للرابع عشر من أبريل ، لان تدرج تفككها له جذور أكثر عمقا .

إن المؤسسة الملكية أخذت بسلطتها ، في خسارة جذورها الشعبية على مر الأيام ، والأشخاص الذين كانوا يمثلونها لم يستمر تكوينهم في مدرسة سلفهم الأمجاد . ولذا ، حسب رأيي ، لا نستطيع التسوية بين الأشخاص الذين صنعوا الأمبراطورية وبين أولائك الذين خسروها بالرغم من الخصال التي ربما قد تحلوا بها واننا لما نتحدث عن الملكية فاننا ننسبها إلى الملوك الكاثوليك وإلى ملكية

كارلوس وثسنـاروس أو لملكية فيلبي الثاني ولكن لا ننسبها إلى أولئك الـذين أبرموا المهادنات التى بترت أمبراطوريتنا والذين وافقوا على انفصال البرتغال أو شانونا في أوترشت .

إن هذه القرون الثلاثة ، ذات التفكك المستمر لا تدخل في عدنا وأعرف انها لا تدخل فى حساب سموكم أيضا .

ليست المؤسسات ، على ما يبدو ، وهي التي عليها ان تجعل أسبانيا قادرة على أداء مهمتها التاريخية بل هم الـرجال الذين يقودون ثورتها الوطنيـة وأحداثُها الذين ضحوا بأنفسهم ببطـولة وتجرد عظيمين . إن ملكيـة الملوك الكاثـوليك ، المحرزة على الإعجاب بقـدر ما هي غير مفهومة ، كـانت ملكية ثورية ذات سلطـة بكل ما في هذه الكلمـة من معنى وبرهـان ذلك انها أمام المبـالغات المتأصلـة التي كان يأتيهـا السادة العظـام ، انشأت " الأخـوة المقـدسة " ثم بهـا جـابهت حتى أمنت المسافرين والتجارة ضد سالبيهم وبهـا وضعت الأسس لقوة الأمن العام العنصرية وادعت وتحملت السلطـة العليا في الرتب العسكـرية التي كـانت تمثل عصب الجيوش في تلك الأزمنة وكانت تلك السلطة من قبل بأيد مختلفة . ووضعت حدا للقضاء وعززت السلطات فحصلت على تدخل أكبر وعلى أكثر فاعلية في تعيينات الكنيسـة وفـرضت عقيـدة المسيح على كل الأسبـان فطـردت من أراضينـا يهـودا ومـوريسكوس ووحـدت الجميع فى المجد والتضحيـات . كان بـلاطها يتـركب آنـذاك ، من محاربيـن وقديسين والعظمـة التي كـانت تشعها فـي الخارج كـانت تنعكس داخليا على الجميع عدلا وحماية .

أمـا الأزمنة التـاليـة فهي بعكس ذلك أزمنـة المدرسـة السيئـة ، أزمنة الملكيـة المتدهـورة والمنعدمة القوة التي لم تعـد تعكس على الخارج عبقرية أسبـانيا ، بل تستلم وتستقبل وتمدح ما يضمره أعداء أسبانيـا وراء الحدود وهو ما انتهى بالغزو " الانسيكلوبيـدي " والماصـوني الذي كـانت ترعـاه فلوريـدا بلانكـا والكونت دي آرانداو الذي انتهى ، كما أراد القدر ، برفع رجال المصارف والمضاربين إلى درجة النبـلاء وهم انفسهم الذيـن قامـوا في السنـوات الأخيرة بتمـويل النجـدة العالميـة الحمراء وساعدوا الجرائد الماركسية .

تحت ذلك النظام كـانت تفشل أكثر الغـايات ثبـاتا . كم كـانت وطنية وحسن استعداد أبيكم الحبيب ، الملك العزيـز بالنسبة لي ، لخدمـة الأمة وكيف غرقت نواياه الطيبة وسط انعدام المساعدة والانانية والمصالح البذيئة لمجموعات وأحزاب غير مسـؤولة كانت أقـوى وأكثر سلطة مـن الملكية نفسها ؟ وكم من هـؤلاء الذين يسمون انفسهم اليوم ملكيين يعيشون تملأهم المزاعم الليبيرالية والمطامح السافلة أو النوايـا العكرة ويحنون إلى ذلك المـاضي والأزمنة التعسة؟ إن أحـداث التاريخ متسلسلة ولا تحدث عفـوا ، بل تأتي نتيجة تدرج ، ومع هـذا ، فكثيرا ما لا نحسن اكتشافه .

إن ضيـاع تأصل الملكيـة و إعلان الجمهـوريـة وتقدم المـاركسيـة والشيوعيـة وعصيان الجمـاهير المتولد عن ذلك كلهـا نتيجة مباشرة لأحـداث أخرى لا يمكن تجاهلها .

فلما لم تعد الملكية بالنسبة للأسبـان حاميتهم والمدافعة عنهم ولما أضاعت ، مع مثالياتها ، خصالها الحربية وبـدت تشرف على ولادة وتوسع وهيمنة الرأسمالية التي شرفتهـا الملكية ورفعتهـا إلى درجة النبل ، فإن الشعب المستعبـد من طرف الرأسمالية صنف الملكية من بين مضطهـديه فكان هذا هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى انه عند أول فـرصة ودون مجد ولا ألم أطاح بها وأسقطهـا عند هبوب أخف ريح .

إن مقدرة الماركسية والشيوعية على الاستقطاب كانت ظاهرة منطقية . والدور الذي يقع على عـاتق الملك دنيويا وعلى عاتق الكنيسـة روحانيا للدفـاع عن شعبنا ضد العبوديـة الجديدة للرأسماليـة والذى كان يمكنه بعث الحـرارة والحماسة في الجمـاهير ، لم يستطيعـا رؤيته فـرفعت الماركسيـة والشيوعيـة راية هـذا الدفـاع وحصلت بذلك على تلك القوة البشرية التي تتواصل محاولة تجاهلها .

إن الجماهير الأسبانية تعاني الأملاق منذ عدة قرون ومن يقول لكم غير هذا فهو خـادعكم . ان 33٪ من مساكن الأسبـان هي مقـابر أو كهـوف مضـرة بالصحـة والأسرة فى المصحات الدولية المخصصة لمرضى السل لا يصل عددها إلى الجزء

العشرين من عدد الـذين يموتون سنـويا علاوة على ان الفقـراء لا يمكنهم الحصول عليها .

إن معيشـة طبقـاتنـا الضعيفـة والمتـوسطـة هي دون مستـوى البلـدان الأوربيـة الأخرى . والزراعة وحيدة الانتاج والضيعـات الكبرى تخلق بطالة فصلية لثلثي السنة وإهمال التكـوين المهني جعل فقـدان العمال المتخصصين يـؤدي إلى فـائض من العمال العاديين يقدر بمئات الالآف . إن التقاعـد العمالي يتمثل في "بستة" واحدة يوميا تمنح للعامل بعـد خمسين سنة من العمل المتـواصل . أما التأمينـات الاجتماعية فهي تعاني تأخيرا ان لم تعـان احتيالا . إن المرء الذي يتحصل يوميـا على خمس بستات أو أقل وكانت عائلته مكونة من عـدة أفراد وانعدام ضمان أجره وخبزه وشيخوخته ، لا يمكن له ان يحب أو حتى يشعر بالنظام الذي يرأسه .

وخلافا لهذا ، فإذا نظـرنا إلى القطاع المميز شاهدنا تضـاعف الممتلكات والثروات وكيف تتراكم هذه الثروات لدى قلةٍ كثـرت حقوقهم وقلت واجباتهم أو انعدمت في أكثر الأحيان .

هل تعتقدون ان في أسبـانيا مثل هذه ، يمكـن الشعور بتضامن الأسبـان ؟ انا لا أعرف حتى كيف يشعرون بوطننا وستكون نعمة من اللـه إذاما بقي هذا الوطن بالرغم من كل هذه المظالم هذا هو إذن سبب ثـورتنا التي أرعاها انا والكتائب . إنهم كثيرون أولئك الأعـداء الذين يحاولـون منع تحقيق الثـورة والحط من سمعـة الحركة ووصفنـا بالديماغوجية . لكن هذا لا يهم . لقد أحببت دوما ركوب الصعاب وإذا ما سقطت في الطريق فلن يمكنني الحصول على شرف أسمى ﴿ من هذا الشرف ﴾ .

ان تحقيق هذه الثورة التي بدونها ستعود أسبانيا إلى وضعها الاحتضاري ليس ملائما اليوم لإعلان مؤسسات ، لانه إن كان هذا ممكنا في شعوب مثل المجر الذى لفقدانه الملكية لا يضعونـه فى حالة انتداب ، فثقـوا بانه في أسبانيـا سوف لا يصلح إلا ليقوم اعداؤنـا من الطموحين والانتهازيين بالتحـدي والتقرب من الأمير وهذا مجلبـة لقلة الاعتبار له وللضرر بالوطن .

يؤسفني إفادتكم بان هذا الشعور الملكي الذي يريدون ايهامكم بوجوده لدى شعبنا هو خطأ محض لان جانبا كبيرا ممن يتحدثون عن الملكية يحنون إلى ما هو متدهور عديمُ قوةٍ بينما آخرون يشبّهون الملكية ويقرِنُونها باستغلال الضعفاء الغير معرضين إلى عقاب وباعادة اقامة النظام الليبرالي بمعية مجموعات في حالة مقاومة .
إن الملكية بالنسبة للكثيرين هي السلامة من العقوبة على الجرائم وهي عودة بروز الانفصالية أو عودة المنفيين وهذا يعني انتصار أعدائنا في أجل محدد .

إن الملكية التي تناسب أسبانيا ، كما نشعر بها نحن ، وهي الوحيدة الممكنة ، هي بالذات التي يأبونها .

اني لا أجهل ان هناك مجانين عُمي عن كل تعقل يحاولون اغتنام الفرصة التي يمنحها لهم سوء حالة التموين « في البلاد » والتأييد المشترك الإنجليزي الشيوعي المناسب جدا للعقلية الخرقاء التي عليها المهزومين المشتاقين للانتقام . ولكننا يقظون . لقد ولّت الأزمة التي تستطيع فيها مناورة سياسة أو انتفاضة ناجحة في شعب بلا روح اسقاط النظام . إن حربنا الصليبية هي برهان ناطق على وهم كهذا انه عند اصدار حكم على أوضاع أسبانيا لا يمكن نسيان ان الشيوعية والماصونية لا تغفران ولا تقبلان بالهزيمة . إن الخارج يساعدهما على تغذية الشقاق حيثما وجد لانه علاوة على المصلحة هناك اليوم حرب الحياة أو الموت التي يخوضها العالم والتي لأسبانيا فيها قسط واضح وأسباني جدا .

إن أجهزة شرطتنا تقاوم يوميا نشاطات شديدة من هذا النوع يتم قمعها بيد ثابتة .
إن الطريق الوحيد لانقاذ أسبانيا هو توطيد وحدتها بتحقيق الثورة الوطنية التي تجعل الجميع متضامنين في خدمتها وهذه الوحدة وهذا التضامن لن يتحققا إلا عن طريق الحزب الواحد والتربية الكاملة للشباب على عقيدة سياسية تعتمد على حقائق أبدية هي : شريعة الله وخدمة الوطن والخير العام للأسبانيين .

هكذا يشعر اليوم الشباب بأجمعه دون أي تحريف لهذه الجماعية بمفعول التفرقة المفتعلة التي تساندها مجموعات صغيرة تتعرض دون ان تشعر إلى مناورات خارجية

كلما حدثوكم عما تراه الجماعات السياسية تذكروا ان تلك التي سميت أحزابا لم تكن سوى أقنعة تخفي مصالح رديئة فاسدة ، لم يكن فيها أبدا خير المصير الكاثوليكي لشعبنا ولا خير الوطن ولا الخير العام للشعب . إنهم كانوا يتتسبون لهذه المجموعة أو تلك لان ذلك كان يتماشى ومطامحهم المتنوعة ومن ذلك تفهمون تقلباتهم المتكررة التي تجعل الجمهورية أو الملكية لديهم سواء .

حللوا سيرة الشخصيات الذين يراودونكم وقيّموا خدماتهم للوطن وتفحّصوا أراءهم حول المشاكل الاجتماعية وستكتشفون مطامحهم . فهي في بعض المرات سياسية وأخرى تبحث عن امتيازات وأكثرها ذات مطامع مادية وكثيرا أيضا ما يكون دافعها الغرور . هذا علاوة على المرشحين للقب كونت أو مركيز . إن احتواء النظام الليبيرالي على هذه الكثرة من الاستغلاليين والانتهازيين السياسيين لا يعني عدم وجود سياسة نبيلة أو ان الشعوب تستطيع ان تحيى بدون سياسة . إن كل المخلوقات العاقلة لها جوفان في تفكيرها وهما الديني والسياسي أي الاستعداد للإيمان بما فوق الطبيعة والحكم على ما يناسب المجتمع الذي تعيش فيه . ولما لا يمتلىء هذان الجوفان حقيقة يملؤها أخرون بأخطائهم .

إن عظمة ووجود الوطن نفسه يقومان إذن على العمل الذي يؤتي في شبيبة ذلك الوطن وعلى البناء فوقها لا فوق بقايا الفساد . وهذا العمل ، رغم اني في حاجة إلى الإسراع ، لا يتماشى والعجلة وتخطي المراحل وهو ما يحاولون دفعنا إليه . أن حياة أسبانيا مرتبطة أوثق الرباط بهذا العمل العظيم وبدرجة تأكدوا انه لولاها لانهار كل شيء ان عاجلا أو آجلا .

ان أملي الذي أشتاق اليه هو تتويج هذا العمل حتى أتمكن من إهدائكم آنذاك القيادة الكاملة للشعب وجيوشه ومعها الانصهار في تلك الملكية الكُلّيانية التي بفضل هذه الصفة فقط توسعت أراضيها ومياهها .

إني اسمح لنفسي بان أرجوكم التأمل في هذه الآراء وستجدون انكم متفقين مع الكتائب الاسبانية التقليدية والشباب العمالي الوطني الاجتماعي وستُحرّمون على كل الذين يسمون انفسهم أصدقاءكم عرقلتَهم أو تأخيرَهم هذه الغاية . وانا مؤمن بانكم بذلك ستخدمون المصلحة العليا لوطننا والاستمرارية التاريخية لسلالتكم .

مع اسمى عبارات الإخلاص ومشاعر المودة

فرانشسكو فرانكـــــو

مجلس الوصايا

هو مؤسسة سياسية أسبانية انشئت بموجب قانــون الخلافة فــي رئاسة الدولة (1947) والغاية منه ضمــان ادارة دفة البلاد في حالة موت أو عجـز رئيس الدولة . والقانون التأسيسى للدولـة (1966) ينص على ان هذا المجلس يتكون من رئيس البرلمان الذى يتولى أيضا رئاسة مجلس الوصاية، ومن أعلى الأساقفة رتبة وأقدمهم ومن الحـاكم العسكري الأكثـر أقدمية والمبـاشر لنشـاطه.ويستلم هـذا المجلس السلطة ريثما يقـوم مجلس المملكة والحكومة بتعيين الخليفة في رئاســة الدولة . وفي حالـة تعيين الخليفة قبل حدوث الشغـور.وتنحصر مهمة مجلس الوصـايا في دعوة البـرلمان ومجلس المملكة إلى الانعقـاد وقبول تأدية اليمين من رئيس الـدولة الجديد ، ملكا كان أم وصيا ومبايعته .

مجلس المملكة

هو مؤسســة سياسية أسبانية انشئت سنـة 1947 طبقا لقانون الخـلافة في رئاسة الدولة وذلك بغية مساعدة رئيس الدولة في الشئون والقرارات الهامة ﴿ ارجاع قانون لاعادة مناقشته في البرلمان أو إعـلان الحرب أو إبرام هدنة أو ترشيح خليفة وعـرض ترشيحـه على البرلمـان الخ . . ﴾ أدخلت بعض التحـويرات على هـذا القانون بموجب القانون التأسيسي للدولة لعام 1966 وتمثل التحوير في زيادة عدد الأعضاء ﴿ المستشارين ﴾ ونص على ان المجلس بمعية الحكومة مكلف بتعيين شخصية من عـائلة مالكة تخلف رئيس الـدولة عند اقتضاء الأمر . ومـن مشمولاته أيضا التصويت على ثلاثة مرشحين ليختـار رئيس الدولة من بينهم رئيس الحكومة وتـركيب المجلس هـو الآتـي : رئيس وهـو رئيس البـرلمـان وأعضـاء يسمـون مستشاريـن وهم : الأسقف الأعلى رتبة وأقـدمية ولابـد ان يكون عضـوا بالبـرلمان وفريق أو فريق أوّل لا يـزال مباشرا للخدمـة العسكرية ولابد ان يكـون أقدم زملائه بالقوات البريـة والبحرية والجوية وبهذا الترتيب ورئيس الأركان العـامة وفي حالة انعدامـه أكبر الفرقاء سنـا بين رؤساء الأركان للقوات البـرية والبحرية والجـوية ، ورئيس المحكمـة العليا ورئيـس مجلس الدولـة ورئيس معهـد أسبـانيا وعضـوان

منتخبـان ينوبـان عن كل من المجموعات التـالية : مجمـوعـة النواب الـوطنيين ومجموعـة المنظمة النقابية ومجمـوعة التمثيل العائلي وعضو ممثل لكل مجمـوعة من المجمـوعات التـاليـة بـالبرلمـان ويتم اختيـاره انتخابـا : مجمـوعـة مديـري الجامعات والمعاهد المهنية .

بعض التواريخ الهامة

================

711 دخول طارق بن زياد إلى الأراضي الأسبانية .

1009 بداية تفكك الأندلس واستمرار الوضع إلى 1031

1031 ظهور ملوك الطوائف واستمرار الوضع إلى 1094

1479 وحدة مملكتي قشتالة وليون ، نواة توحيد أسبانيا .

1492 سقوط غرناطة آخر معقل إسلامي بالأندلس/ اكتشاف أميريكا .

1512 ضم نافارا إلى التاج الأسباني .

1561 تثبيت مدريد كعاصمة لأسبانيا .

1609 طرد " الموريسكوس " من أسبانيا بأمر فيلبي الثالث .

1700 حرب الخلافة على عرش أسبانيا إثر وفاة كارلوس الثاني .

1714 نهاية حرب الخلافة .

1808 انتفاضة شعب مدريد وبداية حرب الاستقلال (2/ 5)

1812 إعلان دستور الدولة الأسبانية (19/ 3)

1814 الملك فرناندو السابع يلغي دستور سنة 1812 .

1833 أول حرب كارلية ، استمرت إلى 1839 .

1837 دستور آخر يعلن في أسبانيا .

1843 انشاء قوة الحرس المدني ذات الصبغة العسكرية .

1847 الحرب الكارلية الثانية واستمرت إلى عام 1849 .

1859 أسبانيا تعلن الحرب ضد المغرب (22/ 10)

1869 إعلان دستور جديد في شهر يونيو (حزيران) .

1872 الحرب الكارلية الثالثة التي استمرت إلى عام 1876 .

1876 اجراء أول انتخابات و إعلان دستور جديد .

1879 تأسيس الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني .

1885 وفاة الملك ألفونصو الثاني عشر.

1888 تأسيس الاتحاد العام للشغل .

1895 تأسيس الحزب الوطني الباسكي .

1898 حرب بين أسبانيا والولايات المتحدة ، معاهدة باريس ، وضياع كوبا

1906 اتفاق بين أسبانيا وفرنسا على تقسيم المغرب .

1908 تأسيس الكنفيدرالية الوطنية للشغل (ث . ن . ت)

1909 شهر يوليو « تموز » أسبوع المأساة ببرشلونة .

1914 اندلاع الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى 1918 .

1917 ثورة أكتوبر الروسية .

1921 هزيمة أنوال في الحرب ضد الأمير عبد الكريم بالريف المغربي .

1923 انقلاب الفريق ميغال بريمو دي ريفارا .

1930 انسحاب بريمو دي ريفارا من الحكم والساحة السياسية .

1931 انتخابات بلدية يوم 12 فبراير / شباط .

1931 الملك ألفونصو الثالث عشر يتخلى عن السلطة و إعلان الجمهورية .

1931 إعلان دستور جديد يوم 9 ديسمبر / كانون أول .

1932 انتفاضة الفريق سان خورخو يوم 10 أغسطس ﴿ أب ﴾ .

1932 يوم 15/ 9 أعيدت " الجينيراليات " أو حكومة الاستقلال الذاتي لقاطالونيا .

1934 ثورة أستورياس وقمعها بكل شدة ﴿ شهر أكتوبر/ تشرين أول﴾ .

1936 انتخابات عامة يوم 16/ 2 وانتصار الجبهة الشعبية فيها .

1936 اندلاع الحرب الأهلية يوم 18 يوليو / تموز .

1936 تعيين فرانكو رئيسا للدولة في المنطقة المسماة " منطقة وطنية " .

1936 إعدام فيديريكو غارثيا لوركا (19/ 8)

1938 تشكيل أول حكومة من طرف فرانكو بمدينة برغش .

1939 مؤتمر ميونخ بين ألمانيا وايطاليا وفرنسا وانجلترا .

1939 نهاية الحرب الأهلية يوم 1 ابريل / نيسان .

1939 إعدام خوزي أنطونيو بريمو دي ريفارا ﴿ يوم 20/ 11)

1947 إصدار قانون الخلافة .

1958 إعلان " مبادئ الحركة " .

1959 تأسيس منظمة ايتا الباسكية .

1966 إصدار قانون الصحافة

1971 إصدار قانون النقابات

1973 يوم 20/ 12 اغتيال كاريرو بلانكو ومحاكمة قادة اللجان العمالية

1974 يوم 24 أبريل / نيسان ، ثورة القرنفل بالبرتغال .

1974 يوم 29/ 7 تأسيس المجلس الديمقراطي بين عدة أحزاب يسارية.

1974 مؤتمر الحزب الاشتراكي العمالي الأسباني ووصول فيلبي غنثالث لأمانته .

1975 تأسيس مجموعة التقارب الديمقراطي.

1975 فى الشهر السادس أسست المائدة الديمقراطية ﴿ أحزاب وسط ويسار﴾ .

1975 يوم 28/ 10 الأمير خوان كارلوس يستلم رئاسة الدولة بالوكالة.

1975 يوم 2/ 11 الأمير يزور فجأة الصحراء الغربية .

1975 يوم 20 نوفمبر / تشرين ثان ، وفاة فرانثسكو فرانكو .

1975 مبايعة خوان كارلوس ملكا على أسبانيا يوم 22/ 11 .

1976 يوم 4/ 7/ أدولفو سووارث يعين رئيسا للحكومة .

1977 المصادقة على قانون الإصلاح السياسي ﴿ 18/ 11 ﴾ .

1977 الاعتراف بالحزب الشيوعي الأسباني (9/ 4).

1977 يوم 15 يونيو / حزيران أجريت أول انتخابات عامة حرة .

1977 الإعلان عن ميثاق مونكلووا في شهر أكتوبر / تشرين أول .

1978 إصدار الدستور الجديد (29/ 7)

1978 يوم 6 ديسمبر / كانون أول أجرى استفتاء عام وتمت المصادقة على الدستور .

نتائج الانتخابـات العامــة من 1977 الى 1986

الأحـــــزاب	1977 أصوات	1977 مقاعد	1979 أصوات	1979 مقاعد	1982 أصوات	1982 مقاعد	1986 أصوات	1986 مقاعد
الحزب الاشتراكي	5358781	118	5469813	121	10127392	202	8887345	184
التحالف الشعبي	1524758	16	1067732	9	5478533	106	5235396	105
اتحاد الوسط د.	6387288	166	6268890	168	1494667	12	—	—
الحزب الشيوعي	1718026	20	1911217	23	856267	4	—	—
التقارب والوحدة	—	–	483358	8	772726	12	1012054	18
الوسط الديمقراطي	—	–	—	–	604309	2	1862856	19
الحزب الوطني الباسكي	314409	8	275292	7	395656	8	308991	6
هري باتاسونا	—	–	172110	3	210600	2	231558	5
يسار جمهوري قاطلاني	143409	1	123452	1	138116	1	84103	—
اليسار الباسكي	60312	1	85677	1	100326	1	106937	2
اليسار الموحد	—	–	—	–	—	–	930223	7
أحزاب أخرى	2850908	20	2075354	17	736385	–	284304	4
المجموع:		350		350		350		350

ملاحظات: هذه المعلومات مـأخوذة عن احصائيات وزارة الداخلية الأسبـانية بالنسبة لأسماء الأحزاب يرجى الرجوع إلى القائمة المرفقة لأن ضيق المساحة أجبرنا هنا على اختصار بعض الأسماء.

التحـالف الشعبي ضم في انتخـابات عـام 1986 كـلا من الـرابطة الشعبيـة والحزب الـديمقـراطي الشعبي الـذي أصبح يـدعى الـديمقـراطية المسيحيـة وحـزب الأحـرار أو الليبيرالي.

الحزب الشيوعي لم يتقدم هو الأخر بمفرده بل ضمن تحالف يدعى اليسار الموحد.

أما حزب اتحاد الوسط الديمقراطي فقد زال، كما رأينا من الخريطة السياسية.

أهم الأحـــــــزاب

التي عملت خلال القرنيـن الماضييـن

التي ساهمت في التحوّل والتي لها تمثيل برلماني

==========================

1. الرابطة الشعبية 0
2. الوسط الديمقراطي الأجتماعي
3. الائتلاف الجليقي
4. التقارب والوحدة 0
5. اليسار الباسكى 0
6. اليسار الوطني البلنسي
7. اليسار الجمهورى القطالاني 0
8. الكتائب الأسبانية
9. هيري باتاسونا
10. *اليسار الكاناري الموحد
11. اليسار الموحد
12. الحزب الديمقراطي الشعبي
13. الحزب الليبيرالي
14. الحزب الوطني الباسكي 0
15. حزب شيوعيي قاطالونيا
16. الحزب الشيوعي الباسكي
17. حزب اشتراكيي قاطالونيا *

1. Alianza Popular (A.P.)

2. Centro Democrático y Social (C.D.S.)

3. Coalición Galega (C.G.)

4. Convergencia y Unión (C.I.U.)

5. Euskadiko Ezquerra (E.E.)

6. Ezquerra Nacional Valenciá (E.N.V.)

7. Ezquerra Republicana de Cataluña (E.R.C.)

8. Falanges Españolas (FF.EE.)

9. Herri Batasuna (H.B.)

10. Izquierda Canaria Unida (I.C.U.)

11. Izquierda Unida (I.U.)

12. Partido Demócrata Popular (P.D.P.)

13. Partido Liberal (P.L.)

14. Partido Nacionalista Vasco (P.N.V.)

15. Partido Comunista de Cataluña (P.C.C.)

16. Partido Comunista Vasco (P.C.V.)

17. Partido Socialista de Cataluña (P.S.C.)

18. الحزب الاشتراكي الباسكي ❋

19. حزب اشتراكيي جليقية ❋

20. الحزب الأشتراكي العمالي الأسباني 0

21. الحزب الاشتراكى للشعب الأندلسى ❋

22. الحزب الأشتراكي للعمال

23. *الحزب الأشتراكي الموحد بقاطالونيا 0

24. الحزب الأراغوني الأقليمي

25. ائتلاف الجمعيات المستقلة الكنارية

26. الاتحاد البلنسي 0

27. اتحاد الوسط الديمقراطي (انحل) 0

28. الحزب الأشتراكي الشعبي (اندمج في الأشتراكي العمالي) 0

ملاحظات :

0 أكثر الأحزاب بروزا خلال التحوّل .

❋ يعتبر فرعا من الأشتراكي العمالي الأسباني

شيوعي النزعة *

18. Partido Socialista Vasco (P.S.V.)

19. Partido de los Socialistas Gallegos (P.S.G.)

20. Partido Socialista Obrero Español (P.S.O.E.)

21. Partido Socialista del Pueblo Andaluz (P.S.A.)

22. Partido Socialista de los Obreros (P.S.O.)

23. Partido Socialista Unificado de Cataluña (P.S.U.C.)

24. Partido Regional Aragonés

25. Convergencia de Agrupaciones Independientes Canarias

26. Unión Velenciana

27. Unión de Centro Democrático (U.C.D.)

28. Partido Socialista Popular (P.S.P.)

التي ساهمت في الحياة السياسية الى وفاة فرانكو

=====================

1. الرابطة الجمهورية 0
2. الجمعية القطالانية
3. الجمعية الكاثوليكية الوطنية للدعاية 0
4. الجمعيات المهنية الطلابية 0
5. الجمعية الديمقراطية لطلاب قاطالونيا 0
6. الرابطة الاجتماعية العمالية 0
7. أبيري آغونا 0
8. الجمعية الاشتراكية المدريدية *
9. الحركة الوطنية } الحركة الشعبية
9. الحركة الأسبانية } الحركة الشعبية
10. الرابطة الوطنية للقوى الديمقراطية
11. الجمعية العسكرية للجمهورية الأسبانية
12. الجمعية الأشتراكية الجامعية * .
13. جمعية القوات المسلحة الجمهورية الأسبانية
14. الجمعية النقابية للشغل
15. الحركة الديمقراطية
16. الجمعية الأشتراكية بقاطالونيا

الجمعية الديمقراطية لطلاب قاطالونيا

1. Alianza Republicana (A.R.)

2. Asociación Catalana (A.C.)

3. Asociación Católica Nacional de Propagandistas (A.C.N.P.)

4. Asociaciones Profesionales de Estudiantes (A.P.E.)

5. Asociación Democrática de Estudiantes de Cataluña (A.D.E.C.)

6. Alianza Social Obrera (A.S.O.)

7. Aberri Eguna (A.E.)

8. Agrupación Socialista Madrileña (A.S.M.)

9. Acción Nacional (A.N.) } Acción Popular

9. Acción Española (A.E.) }

10. Alianza Nacional de Fuerzas Demoráticas (A.N.F.D.)

11. Agrupación Militar de la República Española (A.M.R.E.)

12. Agrupación Socialista Universitaria (A.S.U.)

13. Agrupación de Fuerzas Armadas Republicanas Españolas (A.F.A.R.E.)

14. Asociación Sindical del Trabajo (A.S.T.)

15. Acción Democrática (A.D.)

16. Agrupación Socialista de Cataluña (A.S.C.)

17. الكنفيدرالية الأقليمية للشغل بقاطالونيا 0

18. الكنفيدرالية الوطنية للشغل (ث . ن . ت .) 0

19. الكنفيدرالية الوطنية الكاثوليكية الزراعية 0

20. الكنفيدرالية الوطنية للنقابات العمالية 0

21. المركزية العمالية الوطنية النقابية 0

22. الكنفيدرالية الأسبانية لليمين المستقل (ثيدا) 0

23. الكنفيدرالية الجامعية الديمقراطية الأسبانية

24. الكتلة العمالية والفلاحية 0

25. الديمقراطية الأجتماعية المسيحية

26. اليسار الجمهوري 0

27. وطن وحرية ﴿ منظمة أيتا الباسكية ﴾

28. الجبهة المضادة للفاشستية 0

29. الفيديرالية الوطنية لعمال الأرض 0

30. الجبهة العمالية لقاطالونيا 0

31. الجبهة الوطنية بقاطالونيا 0

32. الفيديرالية الأقتصادية الأندلسية 0

33. الفيديرالية الجامعية الديمقراطية الأسبانية *

34. جبهة التحرير الشعبية *

35. الفيديرالية الجامعية المدرسية *

36. الفيديرالية الجهوية الأسبانية 0

17. Confederación Regional del Trabajo en Cataluña (C.R.T.C.)

18. Confederación Nacional del Trabajo (.C.N.T.)

19. Confederación Nacional Católica Agraria (C.N.C.A.)

20. Confederación Nacional de Sindicatos Obreros (C.N.S.O.)

21. Central Obrera Nacional Sindicalista (C.O.N.S.)

22. Confederación Española de los Derechos Autónomos (C.E.D.A.)

23. Confederación Universitaria Democrática Española (C.U.D.E.)

24. Bloque Obrero y Campesino (B.O.C.)

25. Democracia Social Cristiana (D.S.C.)

26. Ezquerra Republicana (E.R.)

27. Euzkadi Ta Azkatasuna (E.T.A.)

28. Frente Antifascista (F.A.)

29. Federación Nacional de los Trabajadores de la Tierra (F.N.T.T.)

30. Frente Obrero de Cataluña (F.O.C.)

31. Front Nacional de Cataluña (F.N.C.)

32. Federación Económica de Andalucía (F.E.D.A.)

33. Federación Universitaria Democrática Española (F.U.D.E.)

34. Frente de Liberación Popular (F.L.P.)

35. Federación Unviersitaria Escolar (F.U.E.)

36. Federación Regional Española (F.R.E.)

37. الفيديرالية الفوضوية الأيبيرية 0

38. الكتائب الأسبانية التقليدية *

39. الفيديرالية الملكية المستقلة

40. الأخوة العمالية للحركة الكاثوليكية 0

41. اليسار الديمقراطي المسيحي *

42. الشباب الأشتراكي الثوري

43. الشباب الأشتراكي لمدريد *

44. شباب الحركة الشعبية *

45. الشباب الأشتراكي الجامعي *

46. شباب الحركة الكاثوليكية *

47. الشباب العمالي الكاثوليكي *

48. الشباب الطالبى الكاثوليكي *

49. مجالس الهجوم الوطني النقابي *

50. الحركة الأشتراكية بقاطالونيا *

51. المنظمة الثورية للعمال *

52. منظمة اليسار الشيوعي

53. الحزب الراديكالي الجمهوري 0

54. حزب الأحرار الديمقراطي 0

55. الحزب الجمهوري الراديكالي الأشتراكي 0

56. الحزب الجمهوري المحافظ 0

37. Federación Anarquista Ibérica (F.A.I.)

38. Falange Española Tradicionalista (F.E.T.)

39. Federación Monárquica Autonomista (F.M.A.)

40. Hermandad Obrera de Acción Católica (H.O.A.C.)

41. Izquierda Democrática Cristiana (I.D.C.)

42. Juventudes Socialistas Revolucionarias (J.S.R.)

43. Juventudes Socialistas de Madrid (J.S.M.)

44. Juventudes de Acción Popular (J.A.P.)

45. Juventudes Socialistas Universitarias (J.S.U.)

46. Juventudes de Acción Católica (J.A.C.)

47. Juventud Obrera Católica (J.O.C.)

48. Juventud Estudiante Católica (J.E.C.)

49. Juntas de Ofensiva Nacional Sindicalista (J.O.N.S.)

50. Movimiento Socialita de Cataluña (M.S.C.)

51. Organización Revolucionaria de Trabajadores (O.R.T.)

52. Organización Izquierda Comunista (O.I.C.)

53. Partido Radical Republicano)P.R.R.)

54. Partido Liberal Democrático (P.L.D.)

55. Partido Republicano Radical Socialista (P.R.R.S.)

56. Partido Conservador Republicano (P.C.R.)

57. الحزب الجمهوري الفيديرالي 0

58. الحزب الوطني الجمهوري

59. الحزب الديمقراطي بمدريد

60. الحزب الأشتراكي العمالي الأسباني 0*

61. الحزب الوطني الباسكي 0*

62. الحزب الراديكالي 0

63. الحزب الشيوعي الأسباني 0*

64. الحزب الشيوعي العمالي الأسباني 0

65. الحزب الأجتماعي الشعبي

66. الحزب الأشتراكي بالداخل *

67. الحزب الاشتراكى الموحد بقاطالونيا *

68. الجمعية العمالية للمقاومة

69. النقابات الكاثوليكية

70. التضامن العمالي 0

71. تضامن العمال الباسكيين

72. النقابات العمالية الكاثوليكية 0

73. تضامن العمال القطالانيين المسيحيين

74. النقابة الأسبانية الجامعية *

75. النقابة الديمقراطية الطلابية *

76. نقابة الشغل الباسكية

57. Partido Republicano Federal (P.R.F.)

58. Partido Nacional Republicano (P.N.R.)

59. Partido Democrático (Madrid) (.P.D.)

60. Partido Socialista Obrero Español (P.S.O.E.)

61. Partido Nacionalista Vasco (P.N.V.)

62. Partido Radical (P.R.)

63. Partido Comunista Español (P.C.E.)

64. Partido Comunista Obrero Español (P.C.O.E.)

65. Partido Social Popular (P.S.P.)

66. Partido Socialista Interior (P.S.I.)

67. Partido Socialista Unificado de Cataluña (P.S.U.C.)

68. Sociedad Obrera de Resistencia (S.O.R.)

69. Sindicatos Católicos (S.C.)

70. Solidaridad Obrera (S.O.)

71. Solidaridad de Trabajadores Vascos (S.T.V.)

72. Sindicatos Obreros Católicos (S.O.C.)

73. Solidaritat d'Obrers Catalanes Cristianos (S.O.C.C.)

74. Sindicato Español Universitario (S.E.U.)

75. Sindicato Democrático de Estudiantes (S.D.E.)

76. Sindicato de Trabajo Vasco (S.T.V.)

77. النقابة الديمقراطية للطلاب الجامعيين بمدريد *

78. النقابة الديمقراطية للطلاب الجامعيين ببرشلونة *

79. التقليديون والتجديد الأسباني 0

80. المائدة المستديرة

81. الوحدة الملكية الوطنية

82. الوحدة الجمهورية

83. الاتحاد العام للشغل 0*

84. الاتحاد الوطني 0

85. الوحدة العسكرية الديمقراطية *

86. وحدة الطلاب الثوريين

87. الوحدة الديمقراطية بقاطالونيا

88. وحدة رجال الفكر الأحرار

89. الوحدة الديمقراطية المسيحية 0

90. الوحدة النقابية العمالية 0

91. وحدة شعب أسبانيا *

92. الطليعة العمالية الاجتماعية

93. اللجان العمالية (نقابات شيوعية) *

ملاحظات :

0 أبرز الأحزاب قبل الحرب الأهلية

* أكثر الحركات نشاطا تحت حكم فرانكو

77. Sindicato Democr. Estud. Univ. Madrid (S.D.E.U.M.)

78. Sindicato Democr. Estud. Univ. Barcelona (S.D.E.U.B.)

79. Tradiconalistas y Renovación Española (T.Y.R.E.)

80. Taula Rodona (T.R.)

81 Unión Monárquica Nacional (U.M.N.)

82. Unión Republicana (U.R.)

83. Unión General del Trabajo (U.G.T.)

84. Unión Patriótica (U.P.)

85. Unión Militar Democrática (U.M.D.)

86. Unión de Estudiantes Revolucionarios (U.E.R.)

87. Unión Democrática de Cataluña (U.D.C.)

88 Unión de Inelectuales Libres (U.I.L.)

89. Unión Democrática Cristiana (U.D.C.)

90. Unión Sindical Obrera (U.S.O.)

91 Ujión del Pueblo Español (U.P.E.)

92. Vanguardia Obrera Social (V.O.S.)

93. Comisiones Obreras (CC.OO.)

مراجع

BIBLIOGRAFIA

- **Anatomía de un cambio de régimen.** *José Oneto. Plaza y Janés Editores, S.A. 1985.*

- **Año de la peluca, El.** *Santiago Carrillo. Ediciones B. Serie Reporter. Barcelona.*

- **Así cayó Adolfo Suarez.** *Josep Meliá. Editorial Planeta. Barcelona 1981.*

- **Camino hacia la democracia, El.** *Joaquín Ruiz Giménez. Centro de Estudios Constitucionales.*

- **Cartas a un príncipe.** *Emilio Romero. Afrodisio Aguado, S.A. Madrid 1964.*

- **Conferencias. Tercer Centenario. Benissa.** *Ayuntamiento de Benissa.*

- **Crónica de Libertad.** *José Mª de Areilza. Editorial Planeta. Barcelona.*

- **Crónica del antifranquismo.** *Fernando Jaûregui y Pedro Vegas. Argos Vergara.*

- **De Franco a Felipe.** *Antxón Sarasqueta. Plaza y Janés. Barcelona.*

- **Diario de un Ministro de la Monarquía.** *José Mª de Areilza.*

- **Dictadura y disentimiento político. Obreros y Estudiantes bajo el franquismo.** *José Mª Maravall. Alfaguara 1978.*

- **Dilema, El.** *Joaquín Bardavío. Ed. Strips. Madrid 1978.*

- **Don Juan de Borbón: Grandeza y servidumbre del deber.** *Víctor Salmador. Ed. Planeta 1976.*

- **España.** *Salvador de Madariaga. Espasa Calpe. 1979.*

- ***España, Anatomía de una democracia.*** *Robert Graham. Plaza y Janés Editores, S.A. Barcelona 1984.*

- ***España, Diez años después de Franco (1975-1985).*** *Varios autores. Editorial Planeta. Barcelona.*

- ***Gran diccionario enciclopédico universal.*** *Ed. Ortells.*

- ***Guerra de España, 1936-1939.*** *Ed. El País, bajo la dirección del Sr. Edward Malefakis.*

- ***Historia Básica de la España actual.*** *Ricardo de la Cierva. Editorial Planeta. Barcelona.*

- ***Historia de eonomía de España, infraestructura.*** *Ramón Perpiñá y Grau. Editorial Ariel. Barcelona 1972.*

- ***Historia de España.*** *Manuel Tuñón de Lara. Editorial Labor.*

- ***Historia de la Guerra Civil española.*** *San Martín 1969.*

- ***Historia del franquismo.*** *Ricardo de la Cierva.*

- ***Idea de España, Una.*** *Ramón Tamames. Plaza y Janés . Barcelona 1985.*

- ***Ideología Política del anarquismo español (1868-1910).*** *José Alvarez Junco. Madrid 1976.*

- ***Informe sociológico sobre el cambio en España (1975-1982).*** *Fundación FOESSA.*

- ***Memoria breve de una vida pública.*** *Manuel Fraga Iribarne. Editorial Planeta. Barcelona.*

- ***Nuevo horizonte para España, Un. Discursos del Presidente de 1976 a 1978.*** *Colección Informe nº 21. Madrid 1978.*

- ***Oposición democrática al franquismo, La.*** *Javier Tusell.*

- ***Pactos de la Moncloa, Los.*** *Servicio Central de Publicaciones Presidencia del Gobierno. 2ª Edición 1977.*

- ***Reinado en la sombra, Un.*** *Pedro Sainz Rodriguez. Editorial Planeta. Barcelona 1981.*

- ***Resurgir del Movimiento Obrero, El.*** *Nicolás Sartorius. Laia 1977.*

- ***Revuelta Permanente, La.*** *Baltasar Porcel.*

- ***Secretos de la Restauración, Los.*** *Víctor Salmador. Serie Coleccionable.*

- ***Revista Epoca.*** *Madrid 1987.*

- ***Silencios del Rey, Los.*** *Joaquín Bardavío. Ed. Strips. Madrid 1979.*

- ***Spain under Franco.*** *Max Gallo. Ed. George Allen and Unwin. London 1973.*

- ***Spanish Labyrinth, The.*** *Cambridge 1943.*

- ***Tragicomedia de España.*** *Emilio Romero. Editorial Planeta.*

- ***Ultimos días de un Presidente, Los.*** *José Oneto. Editorial Planeta 1981.*

- ***Periódicos: ABC, ALCAZAR, EL PAIS.***

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	I
توطئة	IV
تمهيد	XIV
الباب الأول	
الفصل الأول	
لماذا اسبانيا	١
تمهيد تاريخي	٤
منشأ اسبانيا	٦
مرحلة التدهور	٧
عرض الأحداث	٨
ميلاد اسبانيتين	١١
عودة الملكية	١٢
القرن العشرون	١٤
الأحزاب السياسية	١٧
الفصل الثاني	
ألفونصو الثالث عشر	٣٣
جلوس ألفونصو	٣٧
الأسبوع الفاجع	٤٣
دكتاتورية بريمو	٤٥
الفصل الثالث	
الجمهورية	٦١
المشاكل	٦٢
القوات الاجتماعية	٦٣
الانجازات	٦٥
الانتخابات	٦٦
التأهب	٦٧
الدستور الجديد	٦٨
خطواته	٦٨
الوضع الاقتصادي الاجتماعي	٦٩
الحكومة بين نارين	٧١

الموضوع	الصفحة
التكتلات	٧٢
المنعرج	٧٥
الخارج وتأثيره	٧٧
استعداد للثورة	٧٨
صورة اجتماعية	٨١
التجربة	٨٢
الفصل الأخير	٨٤
الضربة القاضية	٩٠
الباب الثاني	
الفصل الأوّل	
الحرب الأهلية	٩٤
الطبيعة الاسبانية	٩٥
التعريف	٩٦
اندلاع الحرب	٩٩
انتشار الحرب	١٠٣
معارك مشهورة	١٠٦
القمع والارهاب	١١١
تطور الحرب	١١٣
التدخل الأجنبي	١٢٠
لجنة عدم التدخل	١٢٣
الحركة السياسية لدى الجمهوريين	١٢٦
الحركة السياسية لدى الوطنيين	١٣٣
صعود فرانكو	١٣٨
الكنيسة	١٣٩
مقارنة	١٤١
الباب الثالث	
الفصل الأوّل	
عهد فرانكو	١٤٥
تعريفه	١٤٦

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث	
الصراع من أجل البقاء	١٦٠
الفصل الرابع	
العزلة	١٦٩
الجفاء الخارجي	١٧١
رد الفعل	١٧٥
الفصل الخامس	
التمركز	١٨٠
الفصل السادس	
غزو التقنوقراط	١٨٣
ريح التغيير	١٨٥
الفصل السابع	
النمو الاقتصادي	١٩٠
الفصل الثامن	
بروز المعارضة	١٩٥
محاولات	١٩٧
الشوب الجديد	١٩٩
روح التعايش	٢٠٣
التحدي	٢٠٧
الفصل التاسع	
الأفول	٢١٢
مولد نقابة	٢١٤
استمرار تصلب المعارضة	٢١٥
نصف الساعة الأخير	٢٢٠
موت فرانكو	٢٢٣
الباب الرابع	
دون خوان و الخوانية	٢٢٦
حياته	٢٢٦
وجهاً لوجه	٢٣٠
التباين	٢٣٢

الموضوع	الصفحة
القطيعة	٢٣٥
الثالوث	٢٣٨
مرحلة جديدة	٢٤٣
المعركة الأخيرة	٢٤٦
الباب الخامس	
الفصل الأول	
التحول	٢٤٨
التوتر و الاسراع	٢٥٤
الملك	٢٦١
الانطلاقة	٢٧٧
الحزب الشيوعي	٢٩٠
امتحان الانتخابات	٣٠٤
لكل دولة دولة	٣١٧
الديمقراطية في خطر	٣٢٥
امكانية المستحيل	٣٣٦
الصحافة	٣٥٠
الخاتمة	٣٥٦
الملاحظات	٣٦٣
الملحقات	٣٦٩
رسائل و مواقف	٤٠٢
بعض التواريخ الهامة	٤٢٥
الأحزاب السياسية خلال قرنين	٤٣٠
المراجع	٤٣٧

من أعماله :

- قصائد وقصص قصيرة ومقالات في مختلف الصحف والمجلات العربية .

- قصة طويلة ، نشر دار لبنان ، بيروت .

- الزواج في طرابلس ، بالفرنسية ، دار النشر الليبية ، طرابلس / ليبيا 1964

- نفس الكتاب السابق ترجم إلى الانجليزية ونشر مرتين ، دار الفرجاني طرابلس / ليبيا ، 1977 . - مائة مثل عربي من ليبيا ، بالانجليزية ، دار فيرنون وياتس المحدودة لندن ، 1968

- تعلم العربية ، كتيب لتعليم العربية للناطقين بالانجليزية نشر دار لبنان ، بيروت ، 1966

- عادات الليبيين في الأعياد والمواسم الدينية ، مخطوط سينشر قريبا .

قليلة هي الكتب العربية التى تتحدث عن اسبانيا والتى تتناول الموضوع بتوسع استنادا إلى الوثائق فتبرهـن عن معرفة مباشرة وكـافية . فالمصادر الكثيرة الموجودة التـي عالجت الموضوع تسيطر فيها الآراء السطحيـة المكررة المعادة والانطباعات السريعـة العديمة التحقيق والتروي والنصوص الموضوعة نتيجة لزيارات خاطفة واتصالات عديمة الرسوخ فاقدة الحرص والعناية في الاختيار وذات معلومات خـالية في غالب الأحيان من الثقة الكافيـة ومن الموضوعية وعدم التحيز.

ان هـذا الكتاب لا صلـة له بمثل تلك المؤلفـات وهـو من ذلك يستمد مفهـومه وقيمتـه وأهميته . فمؤلفه الصحفي التونسي محمد عبد الكـافي يقيم منذ سنوات عديدة بأسبانيا حيث يتعاطى نشـاطه المهني بجدارة وفاعليـة . وعلى مدى هذه المدة استطاع عبد الكـافي ان يربط الصلة الـواسعة والمبـاشرة بشخصيات بـارزة ممثلة للحيـاة العامـة في هذه البـلاد على مختلف مستويـاتها ومختلف أوساطها ويـربط الصلة بمـؤسسات عامـة وخاصة على اختـلاف ميولها ونشاطاتها واتجاهاتها ، كما وطد الصلة مع الكثير من الجماعات والأفراد .

لقـد استطـاع عبد الكـافي ان يطـوف بتـؤدة ودون مضايقـة جغـرافيـة أسبانيـا الطبيعيـة وجغرافيتهـا الأخلاقية والعقـائدية والروحانيـة . لقد تعرف بصفـة خاصة على مـا يشغل بال السياسي والمثقف ورجل الشارع فتذوّق التجربة المثيرة التى عاشتها أسبانيا المعاصرة ، أسبانيا الحالية ، تذوّقها في " مـرقها " كما نقول نحن الأسبان فعرف كيف يستفيد مـن هذه التجربة الفريدة المركـزة دائما على الحدث السياسي الصعب المعقد . لقد عـرف عبد الكافي أولا كيف يتزود بـالوثـائق المناسبة وكيـف يستقي المعلومات بطـريقة مـلائمة ومتزنـة ، ثم كيف ينظم الأحداث ويرتبهـا بطريقة مستساغة ومفهـومة جدا لدى القارىء العـربي وهو، أخيرا ، يمد القارىء بكمية ثمينة من المعلومات والأخبار التى لاشك وانه يصعب عليه جدا العثور عليها في كتاب آخر .

الدكتور بيدرو مارتينات مونتابث